

الدور الإسلامي والموارد الحفارية

المجلد الثاني

مكتبة الملك عبد العزيز العامة

سلسلة الأعمال المحكمة (٥٧)

الرسالة وحوار الحضارات

المجلد الثاني

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

الرياض ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

٢ مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ندوة الإسلام وحوار الحضارات

الإسلام وحوار الحضارات/ ندوة الإسلام وحوار الحضارات .. الرياض ،
١٤٢٥هـ .

٣ مج ؛ ٢٤×١٧ سم .. (سلسلة الأعمال المحكمة؛ ٥٧)

ردمك : ٩٩٦٠-٩٥٦٣-٦٩ (مجموعة)

٩٩٦٠-٩٥٦٣-٨٠ (ج٢)

١- الإسلام والحضارة ٢- الحضارة أ- العنوان ب- السلسلة .

ديوي ٩٠١٩، ٢١٤ ٧٣٥٦/١٤٢٥

رقم الإيداع : ١٤٢٥/٧٣٥٦

ردمك : ٩٩٦٠-٩٥٦٣-٦٩

٩٩٦٠-٩٥٦٣-٨٠ (ج٢)

حقوق الطبع والنشر محفوظة

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

الرياض ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

ص.ب: ٨٦٤٨١ الرياض ١١٦٢٢ - هاتف : ٤٩١١٣٠٠

فاكس : ٤٩١١٩٤٩ - برقية : ٤٠٦٤٤٤

URL/ www.Kapl.org.sa

E-mail: Kapl@anet.net.sa

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

الصفحة

أولاً : البحوث العربية

- ١ . مدخل إسلامي لحوار الحضارات
أ. د. محمد السعيد عبدالمؤمن ١
- ٢ . الحضارة المعاصرة - تجارب وممارسات : من صدام العولمة إلى حوار
العالمية
دكتور عفيف أحمد بهنسي ٦٩
- ٣ . التسامح في الإسلام
دكتور عطا الله مهاجراني ١٠١
- ٤ . الإسلام .. والحضارات الأخرى
دكتور حامد بن أحمد الرفاعي ١٠٩
- ٥ . صراع الحضارات أم حوار الثقافات؟ نماذج متبادلة
دكتور حسن حنفي ١٧٥
- ٦ . الحضارة المعاصرة ومعركة البدائل
دكتور فهمي راجح جدعان ٢٠١
- ٧ . الحوار الحضاري في المشرق العربي في زمن الإمبراطوريات القديمة
دكتور نقولا زيادة ٢٤١
- ٨ . الإسلام والعالم : مرتكزات التصور الإسلامي للآخر
دكتور محمد نور الدين أفاية ٢٧٥
- ٩ . تطور استراتيجية الحوار في الحضارة الإسلامية مع الحضارات : قديما
وحديثاً
دكتور بكر مصباح تنيرة ٣٠٧

- ١٠ . البوشيد وروح اليابان وقيم الحضارة العربية الإسلامية
 ٣٢٩ دكتور سمير عبد الحميد إبراهيم
- ١٢ . كلمة الدكتور سيد زين العابدين
 ٣٩٣
- ١٣ . الإسلام وحوار الحضارات حول نحن والآخر
 ٣٩٧ دكتور سيد محمد صادق الحسيني
- ١٤ . تطوير الحوار بين المسلمين والنصارى وبعض المقترحات اللازمة
 لذلك
- ٤٣٩ أ.د. محمد أركال
- ١٥ . الحوار في الإسلام - المحور الثالث : الحضارة المعاصرة : تجارب
 وممارسات
- ٤٦٣ معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي
- ١٦ . ثقافة الحوار الحضاري عند المسلمين - تأملات في سؤال المفهوم
 والإجراء
- ٥٠٥ دكتور حسن عبد الكريم الوراكلي
- ١٧ . الموقف العربي والإسلامي من العولمة والشرق أوسطية
 ٥٤٣ دكتور محمد خليفة حسن

ثانيًا : البحوث الأجنبية

1. Islam and Other Civilisations
Dr. Arif Hussain 1
2. Nationals and foreign workers in the Gulf Cooperation
Council States : Cultural pluralism in the making
Dr. Andrzej Kapiszewski 35

مدخل إسلامي لحوار الحضارات

أ. د. محمد السعيد عبدالمؤمن(*)

المستخلص

الحضارة الإسلامية هي واسطة عقد حضارات العالم ليس لأنها حضارة الأمة الوسط زمنياً فحسب بل الأمة الوسط عقائدياً وثقافياً بحكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً... ﴾ الآية ، فضلاً عن كونها حضارة خير أمة بتوفيق الله حيث قال في القرآن الكريم : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله... ﴾ الآية ، ومن ثم فإن هذه الحضارة لا يزعمها أن تنظر في الحضارات التي سبقتها حتى ولو كانت لأمم بائدة ، فهي لا تستعظم إنجازاتها ولا تحقرها بل تأخذ منها العبرة والعظة وما يمكن أن تحصل عليه من فائدة مادية ومعنوية ، كما أنها لا تخشى النظر إلى الحضارات المعاصرة وما يتعلق بها من تقدم علمي وتقني ، لأنها تركز في نظرتها إلى ذلك الرصيد الهائل من أدوات المعرفة التي هيئت لها باعتبارها الحضارة الوسط ، وباعتبارها الشاهد على غيرها من الحضارات ، وباعتبار الأسلوب المرعي لأصحابها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله .

ويبدو رقي نظرة الحضارة الإسلامية إلى الحضارات الأخرى من خلال مفهوم الحضارة لدى الإسلام فهي فوق كونها منظومة من الاقتصاد والاجتماع والثقافة

(*) أستاذ الدراسات الإيرانية بكلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ووكيل الكلية ذاتها للدراسات العليا والبحوث الأسبق ، عضو اتحاد الكتاب ، ليسانس الآداب ، الماجستير والدكتوراه من الكلية نفسها .

والسياسة، تمثل مجموعة إنسانية في الوعي الداخلي للإنسان يظهره إذا دعت الحاجة، ومن ثم فإن الحوار الذي يمكن أن تجر به هذه الحضارة مع الحضارات الأخرى يهدف بالضرورة إلى إزالة أو تقليل سوء الفهم الحالي بين الشعوب، والتطبيق الصحيح والمفيد للمفاهيم البشرية المعاصرة، مثل: علاقات الصداقة والأخوة، العدالة، السلام، حقوق الإنسان، العولمة (وتصحيحها بالعالمية الإنسانية) وغير ذلك، ومن خلال هذا المنطلق يكون المدخل الإسلامي الذي نتقّرحه.

المدخل الإسلامي لحوار الحضارات يستقي معالمه من القرآن الكريم، سواء في تعريفه للإنسان محور الحضارة وقيّمته وإمكاناته ومنهجه وغايته، أو في حقوقه وواجباته كفرد أو كمجتمع أو كأمة أو في نمط الحوار ومنهجه ومستواه وأهدافه، وهو يعني بالثقافة التي هي المعيار الأساسي والحقيقي لقياس تقدم الحضارات، مع إدراك واضح للثقافات المعاصرة التي تؤثر تأثيراً مباشراً على حياة الإنسان المعاصر، فإذا كان طرح حوار الحضارات يهدف إلى عمل التوازن اللازم بين الشعوب والأمم في إطار العولمة التي تعدّ العالم قرية كونية، يكون هذا المدخل الإسلامي لحوار الحضارات أكثر المداخل إيجابية في تحقيق الهدف من الحوار، لأنه يقوم على قاعدة قوية من النضج العقلي والعلمي، مدعومة بمنهج علمي راق وبارشادات إلهية لأساليب فعالة في الحوار والتفاعل وصولاً إلى أهداف سامية، فالمدخل الإسلامي يعي معنى حوار الحضارات كما وعي كيفية بناء الحضارة وكيفية حل مشكلاتها.

مدخل إسلامي لحوار الحضارات

مقدمة :

الحضارة الإسلامية هي واسطة عقد حضارات العالم ليس لأنها حضارة الأمة الوسط زمنيا فحسب بل الأمة الوسط عقائديا وثقافيا بحكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .. ﴾ الآية (١) ، فضلا عن كونها حضارة خير أمة بتوفيق الله حيث قال في قرآنه الكريم : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .. ﴾ الآية (٢) ، ومن ثم فإن هذه الحضارة لا يزعمها أن تنظر في الحضارات التي سبقتها حتى ولو كانت لأمم بائدة ، فهي لا تستعظم إنجازاتها ولا تحقرها بل تأخذ منها العبرة والعظة وما يمكن أن تحصل عليه من فائدة مادية ومعنوية ، كما أنها لا تخشى النظر إلى الحضارات المعاصرة وما يتعلق بها من تقدم علمي وتقني ، لأنها تركز في نظرتها إلى ذلك الرصيد الهائل من أدوات المعرفة التي هيئت لها باعتبارها الحضارة الوسط ، وباعتبارها الشاهد على غيرها من الحضارات ، وباعتبار الأسلوب المرعي لأصحابها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله .

ويبدو رقي نظرة الحضارة الإسلامية إلى الحضارات الأخرى من خلال مفهوم الحضارة لدى الإسلام فهي فوق كونها منظومة من الاقتصاد والاجتماع والثقافة والسياسة ، تمثل مجموعة إنسانية في الوعي الداخلي للإنسان يظهره إذا دعت الحاجة ، ومن ثم فإن الحوار الذي يمكن أن تجر به هذه الحضارة مع الحضارات الأخرى يهدف بالضرورة إلى إزالة أو تقليل سوء الفهم الحالي بين الشعوب ، والتطبيق الصحيح والمفيد

للمفاهيم البشرية المعاصرة مثل : علاقات الصداقة والأخوة، العدالة، السلام، حقوق الإنسان، العولمة (وتصحيحها بالعالمية الإنسانية) وغير ذلك، ومن خلال هذا المنطلق يكون المدخل الإسلامي الذي نقترحه .

المدخل الإسلامي لحوار الحضارات يستقي معالمه من القرآن الكريم، سواء في تعريفه للإنسان محور الحضارة وقيمه وإمكاناته ومنهجه وغاياته، أو في حقوقه وواجباته كفرد أو كمجتمع أو كأمة أو في نمط الحوار ومنهجه ومستواه وموضوعاته وأهدافه، وهو يعني بالثقافة التي هي المعيار الأساسي والحقيقي لأساليب قياس تقدم الحضارات، لذلك فهو أكثر المدخل إيجابية في تحقيق الهدف من الحوار، لأنه يقوم على قاعدة قوية من النضج العقلي والعلمي، مدعومة بمنهج علمي راق وإرشادات إلهية، مع إدراك واضح للثقافات المعاصرة التي تؤثر تأثيرا مباشرا على حياة الإنسان المعاصر، فإذا كان طرح حوار الحضارات يهدف إلى عمل التوازن اللازم بين الشعوب والأمم في إطار العولمة التي تعتبر العالم قرية كونية، يكون هذا المدخل الإسلامي وسيلة فعالة في الحوار والتفاعل وصولا إلى أهداف سامية، فالمدخل الإسلامي يعي معنى حوار الحضارات كما وعى كيفية بناء الحضارة وكيفية حل مشكلاتها .

الحضارة والثقافة :

ليس من شك في أن إحدى المشكلات النظرية التي تحتاج إلى حسم هي التعريف الدقيق لمفهوم الحضارة، فإذا كانت الحضارة في مفهومها التقليدي تركز أساسا على الجوانب المادية في المجتمع، باعتبار أن جميع مظاهر النشاط البشري فيه تمثل النمط الحضاري الذي يجيده المجتمع، فإن الثقافة تركز على الجوانب المعنوية والقيم باعتبارها موجهات النشاط البشري، وهناك بعض الباحثين يتسامحون في استخدام مصطلح الحضارة مكان مصطلح الثقافة، كإشارة إلى ظهور أو أفول منظومة مكونة من

الاقتصاد والثقافة والسياسة في مجموعة إنسانية تدرس وتقيم عادة بعد أفولها، وغالبا ما يستخدم اصطلاح الحضارة للتعبير عن المنظومات القديمة المضمحلة مثل حضارة مصر وإيران والصين واليونان والروم وكلدة وبابل وآشور والإنكا والمايا وغيرها، ولو أن هذه الحضارات مازال لها جذور في وجدان العالم حتى اليوم إلا أن أحدا لا يشير أو يرجع إلى عناصرها المميزة، بل ويعتبر الرجوع إلى عناصرها ارتدادا^(٣)، وإن كان هناك بعض الباحثين الذين لا يوافقون على التفرقة التقليدية بين الحضارة والثقافة، ويضيفون مكونا جديدا للحضارة بمعناها الواسع هو مكون الرؤية للعالم لأن هذه الرؤية تميز حضارة عن حضارة، ومفهوم رؤية العالم عندهم يعني النظرة للكون والمجتمع والإنسان، وقد أصبح هذا المفهوم منذ أن استخدمه في العقود الأخيرة «لوسيان جولدمان» عالم الاجتماع الفرنسي المعروف في كتابه (الإله الخفي) لدراسة إحدى الجماعات الدينية الشهيرة في فرنسا، من المفاهيم الأساسية في التحليل الثقافي، وهذا المفهوم له تاريخ طويل في الفلسفة وعلم الاجتماع^(٤)، وفي ضوء هذا المفهوم يمكن القول إن الحضارة العربية الإسلامية لها رؤية محددة للعالم، وهذه الرؤية عادة ما تتشكل بناء على القيم الأساسية الحاكمة بالإضافة إلى التفاعل الثقافي الواسع المدى بين الأنا والآخر والذي يجعل هذه الرؤية فريدة حقا، ولا تتكرر بالضرورة في حضارات أخرى^(٥).

لقد أصبح حوار الحضارات يحتل مكان الصدارة في قائمة الاهتمامات الفكرية للعلماء الاجتماعيين والسياسة ومراكز البحوث والمؤسسات الدولية، وتشير نظريات علم اجتماع المعرفة إلى أن صعود مفهوم معين أو سقوط مفهوم محدد لا يتم عادة بمحض الصدفة، وإنما غالبا ما يتم نتيجة تفاعل عوامل متعددة سياسية واقتصادية وثقافية، ومن هنا فإن صعود مفهوم حوار الحضارات يكمن خلفه انهيار النظام العالمي الثنائي القطبية، الذي شهد طوال القرن العشرين الصراع الأيديولوجي بين الرأسمالية والشيوعية، ومن المؤكد أن بروز ظاهرة العولمة بكل تجلياتها السياسية والاقتصادية والثقافية، وما أحدثته

من انقلاب في أوضاع المجتمعات المعاصرة، وما أثارته من خلافات عميقة بين الساسة والمفكرين، التي دارت حول قيم العولمة، وصواب توجهاتها، وآثارها السلبية على أوضاع البشر، وخصوصا في دول الجنوب، هي التي فتحت الطريق لضرورة قيام حوار بين الحضارات.

وقد شهدت هيئة اليونسكو بدايات حوار الحضارات منذ عام ١٩٤٩م، والذي استمر حتى عام ١٩٨٩م، وهو التاريخ البارز الذي شهد انهيار الكتلة الاشتراكية، وكانت البحوث التي قدمت في مؤتمر «أوروبا - العالم» الذي عقد في لشبونة عام ١٩٩٠م، تطرح أسئلة مهمة بشروط حوار الحضارات وطريقة تنفيذه، كما أكدت على أن الحوار ستلحق به تغيرات كبرى في عصر العولمة، لذلك فإن من الأهمية بمكان حين دراسة موضوع حوار الحضارات أن نحدد السياق التاريخي له، فإذا كان الحوار قد وجد دفعة قوية بعد انتهاء الصراع الأيديولوجي الحاد بين الرأسمالية والشيوعية والذي استمر طوال القرن العشرين تقريبا، بالإضافة إلى بروز ظاهرة العولمة بكل آثارها الإيجابية والسلبية، مع ظاهرة العلاقات المتعددة الأطراف، فقد أصبح لزاما محاولة فهم العالم المتغير الذي يقوم على أسس مفاهيم ثلاثة رئيسية، هي: العولمة والعلاقات المتعددة الأطراف والقومية، حيث يمكن القول إن إنشاء منظمة التجارة العالمية التي جاءت تنويعا لمفاوضات الجات التي استمرت عقودا طويلة من السنين تعد مثالا بارزا للعلاقات المتعددة الأطراف، غير أنه يمكن القول إننا ونحن في بداية عصر العولمة بدأنا نشاهد موجات متدفقة من المعاهدات الدولية في ميادين متعددة تعبر عن علاقات متعددة الأطراف، كان من أبرزها معاهدة «كيوتو» التي وقعتها أكثر من مائة دولة، وهدفها ضبط أحوال المناخ على الكوكب من خلال وضع معايير لقياس الغازات المنبعثة من كل دولة، ووضع سقف لهذه الغازات لا ينبغي تعديها، غير أن معاهدة «كيوتو» ليست النموذج الوحيد في مجال العلاقات المتعددة الأطراف، فهناك اتفاقات أخرى في مجال الصحة،

مثل اتفاقية محاربة «الإيدز»، التي صدرت عن مؤتمر عقد لهذا الغرض، واشتركت فيه (١٦٠) دولة فكان بمثابة دورة استثنائية للجمعية العامة للأمم المتحدة.

أما القومية فقد ظهرت لها مفاهيم جديدة في الستينيات أي بعد تشكيل الدول الوطنية في المستعمرات السابقة بعد الحرب العالمية الثانية وتقلص القدرة العسكرية لأوروبا الغربية، ومن أبرز مفاهيم القومية ما ذكره «فريدريك بارث» من أنها نوع من الذاتية الفاعلة في إعادة صياغة الحياة لمجتمع له قيم ثقافية أساسية مشتركة وإحساس التعلق بواقع خارجي يفصله عن الآخرين، وتنمو القومية في اتجاهين: اتجاه أفقي يتسع باتساع الرقعة الجغرافية وإمكاناتها الطبيعية والمصاهرات العرقية والثقافية وسائر المشتركات من لغة ودين ومذهب وظروف تاريخية واجتماعية واقتصادية وثقافية ووحدة مصير، واتجاه رأسي يتسع من خلال عوامل طبيعية، مثل وجود موانع طبيعية كالجبال والبحار والصحاري، أو عوامل سياسية مثل وجود قدرات ذاتية كبيرة أو عمق ثقافي، إلا أن القضية الحقيقية في مسألة القومية هي قضية الإدارة التي تتخذ الشكل الوطني والنموذج الديمقراطي للمحافظة على فكرة القومية ومقوماتها الحضارية. (٦)

المسلمون وحوار الحضارات:

إذا كان حوار الحضارات قد أصبح عملية أساسية في الوقت الحاضر، أو هو كما يرى البعض أيديولوجية جديدة في عصر بلا أيديولوجية، فإن المسألة الجديرة بالنظر هي: كيف نقدم أنفسنا في الحوار، وما الذي نستطيع أن نضيفه إلى الفكر العالمي، والرؤية النقدية المتמاسكة التي ينبغي أن تصدر عنها في نقاش الأفكار المطروحة من قبل الآخرين، وإذا كان الحوار لا يثمر إلا إذا توفرت الندية بين الأطراف المتحاوره فإن هذه الندية تنتزع ولا تمنح، بمعنى أنها تعتمد على قدرة ممثلي الحضارات المختلفة خصوصاً الحضارات التقليدية التي تحاول أن تتجدد في الوقت الراهن، على عرض وجهات

نظرهم، بما يثبت متابعتهم لأدق تفاصيل الخريطة المعرفية العالمية، ليس ذلك فقط، بل بما يشير إلى فهمهم العميق لطبيعة التغيرات التي لحقت بالمجتمع العالمي، ولمنطق التطور في العلاقات الدولية والاقتصادية والسياسية والثقافية بين الأمم، وهناك شواهد متعددة على إنجازات مشهودة لممثلي العالم الإسلامي في مفاوضات دولية بالغة التعقيد، وفي مجالات متعددة، إنجازات تشهد بالقدرة على الحوار، وعلى إقناع الأطراف الأخرى^(٧).

والواقع أن ما دار في المؤتمر الذي عقد لمحاربة الإيدز يعد نموذجا بارزا لأهمية الإلهام الإيجابي لحوار الحضارات، والدفاع عن الخصوصية الثقافية لحضارتنا الإسلامية من خلال إبراز رؤيتنا للعالم وخصوصا فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية ونظرتنا للإنسان، فقد دار صراع فكري حول بعض توصيات المؤتمر، سعت فيه الدول الإسلامية إلى حذف العبارات المخالفة للقيم الدينية التي تشبثت الدول الغربية بتضمينها البيان الختامي للمؤتمر، وتدعو إلى ضمان حقوق البغايا والشواذ من الرجال بما في ذلك إباحة اللواط والزواج بين الرجال، وقد نجحت الدول الإسلامية بتحريكها الجماعي في حشد أكبر عدد من الأصوات لإفشال محاولات تضمين هذه العبارات في البيان الختامي،^(٨) وهو ما يثبت أهمية وجدوى اشتراكنا الإيجابي في حوار الحضارات، الذي أخذ يمتد إلى مختلف المجالات والميادين.

لاشك أن محاولة الرئيس الإيراني سيد محمد خاتمي لإجراء حوار بين الحضارات والتي نجحت في الاتفاق على أن يكون عام (٢٠٠١م) هو عام حوار الحضارات بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة، يمثل سعيا حميدا لعرض الحضارة الإسلامية على العالم، وإنهاء حالة صراع الحضارات الذي يضغط بشدة على العالم الإسلامي، ويسعى إلى تشويه الحضارة الإسلامية، كما يمثل حلقة في سلسلة ممارسات مستمرة منذ عقود، فقد قام الرئيس خاتمي في خطابه أمام اليونسكو في باريس عام (١٩٩٩م) بالدعوة إلى

صياغة مجموعة مبادئ متفق عليها من شأنها أن تحدد أهداف الحوار وغاياته وموضوعاته ووسائل تحقيقه، كما أنه في فقرة مهمة من خطابه تناول بالنقد الفلسفي العميق بعض الاتجاهات والنزعات التي سادت الفكر الغربي منذ عهد الثورة الفرنسية، وكذلك بعض مسلمات الحداثة، بل وبعض دعوات ما بعد الحداثة مفندا إياها، ومما يلفت النظر في خطاب عام لرئيس دولة إسلامية، اهتمامه بإبراز الأسس الفلسفية لدعوة الحوار بين الحضارات، وتحليله النقدي لأبرز الاتجاهات الفلسفية والاجتماعية المعاصرة، وفي مقدمتها حركة ما بعد الحداثة، التي يعجز كثير من المثقفين في العالم الثالث عن فهم منطق نشأتها، والفروق الدقيقة بين مدارسها المختلفة ومصطلحاتها ومفاهيمها الغامضة، ويقرر خاتمي في خطابه أن المبادئ والأحكام التي يدعو لها لتحكم مسيرة حوار الحضارات تتناقض مع الأحكام الحتمية والجبرية للنهوضيين التحصيليين من دعاة النهضة الفرنسية ومسلمات الحداثة، كما أنها لا علاقة لها بتشكيك ما بعد الحائين الذين لا حصر لهم، من هنا فإن أحد واجبات المهتمين بنظرية حوار الثقافات والحضارات هو القيام بتنقيح الأسس الفلسفية وتبيان المبادئ الفكرية لهذه النظرية بما ينقذها من الوقوع في حتمية العداة لأي نوع من أنواع التحري عن الحقيقة والبحث عنها، وكذلك من الوقوع في مهالك التشكيك غير المحدود لمفكرى ما بعد الحداثة، الذين يفتقرون إلى حس المعاناة والآلام العظيمة لآلاف الناس المحرومين، فيعتبرون الدعوة لأي نوع من العدالة والكفاح ضد الظلم شكلا من أشكال الدعوات المتجاوزة للخطاب والحوار، وهو ما لا يمكن إيجاد التفسيرات الفلسفية له.

لقد جاء نقد خاتمي لنظرية الحداثة التي يقوم عليها الفكر الغربي معبرا عن المدخل الإسلامي للحوار، حيث يوجد اختلاف واضح في المفاهيم والأسس لأن الحداثة الغربية تتسم بعدة سمات أولها الفردية، ذلك أن المجتمع البرجوازي الرأسمالي قد عمد إلى استخلاص الفرد من أسر المجتمع الإقطاعي الذي كان سائدا في أوروبا بما يتضمنه من

التقييد الشديد لحركة الفرد اقتصاديا وسياسيا، والذي كان يقضي في الواقع على ذاتية الأفراد ويمحو شخصياتهم، أما السمة الثانية فهي العقلانية بمعنى إعلاء شأن العقل على حساب أنماط التفكير الخيالي وغير العلمي التي كانت سائدة من قبل، ودخلت العقلانية في صميم نسيج الحداثة الغربي، وأصبحت هي الأساس في عملية اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي والثقافي، وتبدو السمة الثالثة من سمات الحداثة الغربية في الاعتماد على العلم والتقنية لسد الاحتياجات الأساسية، كما تبدو السمة الرابعة في تطبيق المنهج الوضعي في العلوم الاجتماعية، والذي يركز على أن العلم لا يدرس إلا ما يمكن قياسه، والسمة الخامسة تبدو في تبني مفهوم خط التقدم الإنساني، بمعنى أن التاريخ يتقدم من مرحلة إلى مرحلة أخرى.

فإذا كانت هذه هي السمات الرئيسية لمشروع الحداثة الغربي فإن حركة ما بعد الحداثة التي نشأت منذ حوالي ثلاثة عقود، اتجهت إلى نقد كل الأسس التي قامت عليها، على أساس أنها مرحلة تاريخية وصلت إلى منتهاها، ولم تحقق وعودها في تحقيق السعادة للبشر، بل على العكس أدت إلى أن أصبح القرن العشرون الذي شهد تجليات الحداثة الغربية بشكل بارز من القرون التي لا نظير لها في تاريخ البشرية من حيث كثرة الحروب وسفك الدماء وممارسة الظلم والاستغلال، انتقدت حركة ما بعد الحداثة المغالاة في الفردية على حساب الصالح العام، مما أدى إلى تفكك المجتمعات، كما وجهت سهام النقد إلى العقلانية على أساس أن ممارسات الدول الصناعية المتقدمة كانت مضادة لها، ويكشف عن ذلك سباق التسلح الذي أهدرت فيه بلايين الدولارات على حساب التنمية البشرية في العالم، كما أن سوء استخدام العلم والتطبيقات المنحرفة للتقنية كانت من بين الانتقادات الرئيسية للحداثة، يضاف إلى ذلك أن فكرة الحتمية قد سقطت في التاريخ وفي المجتمع وحتى في العلم، وقد قام الرئيس الإيراني خاتمي بنقد النزعة التشكيكية لأفكار حركة ما بعد الحداثة التي يفتقر أنصارها إلى حس الآلام العظيمة

لآلاف الناس من المحرومين، خاصة مع سيطرة اتجاه يمكن وصفه بأنه عدمي لأنه ينكر الأحكام التعميمية على نطاق المجتمع، ويدعو إلى هجر مصطلحات «الحقيقية»، كذلك ترك مصطلح الموضوعية لأن الذاتية هي التي تحكم مختلف المسارات، كما أن التاريخ لديهم يفقد شرعيته باعتباره مجموعة من الكتابات الدعائية، هذا الاتجاه العدمي يدعو إلى «الجزئي» على حساب «الكلي»، ويكره المتون الكبيرة والأبنية الشمولية، ويدعو إلى الاهتمام بالهوامش والتركيز على المجتمعات المحلية والفرد، أما الاتجاه التحرري في حركة ما بعد الحداثة فهو يدعو إلى تحرير الإنسان من كل القيود التي تكبله، وتحد من حركته، سواء في ذلك الأنظمة الشمولية، أو الخطابات القائمة، أو التقاليد الاجتماعية المتحجرة، أو الممارسات الثقافية الخانقة. إن الموقف النقدي لأسس الفكر الغربي قد أصبح مسألة ضرورية في كل العصور، وتبدو أكثر أهمية ونحن على مشارف عصر العولمة، الذي أدى إلى سقوط عديد من النماذج الفكرية القديمة، وبروز أزمة البحث عن نموذج حضاري لم تتضح معالمه بعد^(٩). حقيقة أن هناك دعوات لصياغة تقنين أخلاقي عالمي من خلال حوار الحضارات من أبرزها دعوة هيئة برلمان الأديان التي نشرت مشروعها عبر الإنترنت والذي يتضمن ثلاثة مصادر مقترحة للقيم الأخلاقية هي القيم المشتركة في الأديان السماوية الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام)، التراث الأخلاقي للإنسانية مثل البوذية والكونفوشوسية وغيرهما من المذاهب الأخلاقية، الثقافة المدنية المعاصرة ونماذجها من ديمقراطية وتعددية وحقوق الإنسان، وكانت اليونسكو قد عقدت مؤتمرا بعنوان أخلاق المستقبل لإعادة صياغة المشكلة الأخلاقية في عصر العولمة، وهكذا يكون من الضروري الكشف عن النسق الأخلاقي الإسلامي، وقد قدمت دراسات بهذا الغرض منها دراسة العالم المغربي محمد عابد الجابري في كتابه «العقل الأخلاقي العربي» الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية^(١٠).

الأهداف الإسلامية لحوار الحضارات:

يمكن استنباط الأهداف الإسلامية لحوار الحضارات من القرآن الكريم ، حيث نجد عددا من الآيات التي تضع رؤية واضحة لهذا الأمر ، ولعل أبرز ما يصادفنا من هذه الأهداف ما يلي :

أولا : تحقيق وظيفة الإنسان على الأرض ، بمعنى عمارتها بواسطة ما سخره الله للإنسان من موارد طبيعية وإمكانات بشرية ، وما أودعه الله في الإنسان من قدرة على الإبداع واستعداد للرقى المادي والمعنوي استحق به أن تسجد له الملائكة بعد برهان عملي من الله لهم على قدرة هذا الإنسان ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا .. ﴾ الآية^(١١) ويقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ الآية^(١٢).

ثانيا : تواصل الحضارات ، على أساس أن الناس كانوا أمة واحدة ، وأن الله خلقهم من ذكر وأنثى ، ثم جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وأنهم متفقون في الفطرة ، واعتبار ذلك أمرا بديهيا يقلل من مخاطر الخلاف ، يقول الله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. ﴾ الآية^(١٣) ويقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .. ﴾ الآية^(١٤) ويقول تعالى : ﴿ إِنْ

هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون .. ﴿ الآية (١٥) ﴾ ويقول تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. ﴾ الآية (١٦) ﴾ ويقول تعالى : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء .. ﴾ الآية (١٧) ﴾ ويقول تعالى : ﴿ ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين .. ﴾ الآية (١٨) .

ثالثا : الاتحاد حول جبل الله ، تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .. ﴾ الآية (١٩) ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله .. ﴾ الآية (٢٠) .

رابعا : الرجوع للشرائع والتحكيم بها ، عملا بقوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول .. ﴾ الآية (٢١) ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله .. ﴾ الآية (٢٢) ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .. ﴾ الآية (٢٣) .

خامسا : الدخول في السلم : عملا بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة .. ﴾ الآية (٢٤) ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما .. ﴾ الآية (٢٥) .

سادسا : الدعوة للخير ، عملا بقوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. ﴾ الآية (٢٦) ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله .. ﴾ الآية (٢٧) .

سابعا : التعاون على البر والتقوى ، عملا بقوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان .. ﴾ الآية (٢٨) .

ثامنا : الوفاء بالعقود ، عملا بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود .. ﴾ الآية (٢٩) وقوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .. ﴾ الآية (٣٠) وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين .. ﴾ الآية (٣١) وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شئنان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى .. ﴾ الآية (٣٢) وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها .. ﴾ الآية (٣٣) .

الأسس الإسلامية لحوار الحضارات :

لقد ورد في القرآن الكريم ما يمكن أن نعتبره من الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها الحوار عامة وحوار الحضارات بشكل خاص ، ومن أبرز هذه الأسس :

أولا : يكون البدء من توحيد الله ، عملا بقوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .. ﴾ الآية (٣٤) وقوله تعالى : ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .. ﴾ الآية (٣٥) .

ثانيا : الحوار ضرورة لبقاء النسل ، يقول تعالى : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم .. ﴾ الآية (٣٦) ويقول تعالى : ﴿ وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون .. ﴾ الآية (٣٧) .

ثالثا: نظام الحضارات واحد، يقول تعالى: ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا..﴾ الآية (٣٨).

رابعا: المعادلة بين الأمم وعدم التفرقة بين الأديان، يقول تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا..﴾ الآية (٣٩) ويقول تعالى: ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا..﴾ الآية (٤٠) ويقول تعالى: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء..﴾ الآية (٤١) ويقول تعالى: ﴿ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم..﴾ الآية (٤٢) ويقول تعالى: ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون..﴾ الآية (٤٣).

خامسا: الإنسان مجادل بطبعه، يقول تعالى: ﴿وكان الإنسان أكثر شئى جدلا..﴾ الآية (٤٤).

الوسائل الإسلامية للحوار:

أولا: الكلمة الطيبة وسيلة مثلى للحوار، يقول تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء..﴾ الآية (٤٥) ويقول تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين..﴾ الآية (٤٦) ويقول تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن..﴾ الآية (٤٧) ويقول تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما..﴾ الآية (٤٨) ويقول تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم..﴾ الآية (٤٩) ويقول تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب

والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور .. ﴿ الآية (٥٠) ﴾ ويقول تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا .. ﴾ الآية (٥١) .

ثانياً: المعاملة بالمثل ورد الإحسان بالإحسان، يقول تعالى: ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .. ﴾ الآية (٥٢) ويقول تعالى: ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها .. ﴾ الآية (٥٣) .

ثالثاً: ضرب الأمثال والرد على الأمثال بالحق والتفسير الأحسن، وعدم استصغار الأشياء في ضرب الأمثال، يقول تعالى: ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً .. ﴾ الآية (٥٤) ويقول تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون .. ﴾ الآية (٥٥) ويقول تعالى: ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل .. ﴾ الآية (٥٦) ويقول تعالى: ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها .. ﴾ الآية (٥٧) ويقول تعالى: ﴿ قل هاتوا برهانكم .. ﴾ الآية (٥٨) ويقول تعالى: ﴿ والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داعضة عند ربهم .. ﴾ الآية (٥٩) .

رابعاً: استخدام الرسائل في الحوار، يقول تعالى: ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم .. ﴾ الآية (٦٠) .

خامساً: توحيد اللغة والإبانة في الحوار، يقول تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .. ﴾ الآية (٦١) .

سادساً: الأسوة من الحضارات السابقة، يقول تعالى: ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد، عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم مودة والله قدير والله غفور رحيم .. ﴾ الآية (٦٢) ويقول

تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيٍص، إن في هذا لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ..﴾ الآية (٦٣).

سابعا: الاستفادة من أقوال الخصم، يقول تعالى: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ..﴾ الآية (٦٤) ويقول تعالى: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ..﴾ الآية (٦٥).

الضوابط الإسلامية للحوار:

أولا: التذكير أحد ضوابط الحوار، يقول تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ..﴾ الآية (٦٦).

ثانيا: الصراحة وعدم تحريف الكلام أو إخفاء الحقيقة، يقول تعالى: ﴿أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ..﴾ الآية (٦٧).

ثالثا: عدم الحجاج في الله، والحجاج يكون بالعلم وليس بالغيب، يقول تعالى: ﴿قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ..﴾ الآية (٦٨) ويقول تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ..﴾ الآية (٦٩) ويقول تعالى: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ..﴾ الآية (٧٠) ويقول تعالى: ﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان ..﴾ الآية (٧١) ويقول تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ..﴾ الآية (٧٢).

رابعاً: أمة الوسط لها حق الشهادة، يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ..﴾ الآية-(٧٣).

خامساً: الأفعال تصدق الأقوال، يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلِبِئْسَ الْمِهَادُ ..﴾ الآية-(٧٤).

سادساً: ضرورة تسجيل الحوار، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسَامَوْا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ..﴾ الآية-(٧٥) ويقول تعالى: ﴿وَكِتَابٌ مُّسْطُورٌ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٌ ..﴾ الآية-(٧٦) ويقول تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّيْرِ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ..﴾ الآية-(٧٧) ويقول تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ..﴾ الآية-(٧٨).

سابعاً: ليس من الضروري أن ينتهي الحوار بالاتفاق أو بنتيجة فيها إكراه، فالاختلاف في الرأي آية من آيات الله، يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ..﴾ الآية-(٧٩) ويقول تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..﴾ الآية-(٨٠) ويقول تعالى: ﴿وإن جَادِلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ، اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ..﴾ الآية-(٨١) ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ..﴾ الآية-(٨٢) ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ..﴾ الآية-(٨٣) ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدُّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ..﴾ الآية-(٨٤) ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ..﴾ الآية-(٨٥) ويقول تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ..﴾ الآية-(٨٦).

ثامنا : وقف الحوار عند الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، يقول الله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم .. ﴾ الآية^(٨٧) ويقول تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .. ﴾ الآية^(٨٨) وعند الافتراء على الله الكذب، يقول تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله .. ﴾ الآية^(٨٩) ويقول تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه .. ﴾ الآية^(٩٠) ولا جدال عن الخونة، يقول تعالى : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما .. ﴾ الآية^(٩١) ويقول تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .. ﴾ الآية^(٩٢) وعند الجهر بالسوء، يقول تعالى : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء إلا من ظلم .. ﴾ الآية^(٩٣) ومع لهو الحديث، يقول تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين .. ﴾ الآية^(٩٤) ويقول تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزا .. ﴾ الآية^(٩٥).

تاسعا : الوقوف على نقاط الضعف في الطرف الآخر للحوار، وكشفها، وضرب الأمثال لها، يقول تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم

يمددهم في طغيانهم يعمهون، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون .. ﴿ الآية (٩٦) .

عاشرا: عدم نكران ما يملكه الطرف الآخر، وعدم جحود المعروف، يقول تعالى: ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .. الآية (٩٧) ويقول تعالى: ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .. الآية (٩٨) .

حادي عشر: عدم الاعتداء، يقول تعالى: ﴿ ولا تعتدوا إن الله يحب المعتدين ﴾ (٩٩) وعدم الخوف من الحوار مع الضالين في الوقت نفسه، يقول تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .. الآية (١٠٠) ويدخل في هذا الإطار عدم سب المحاورين، يقول تعالى: ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم .. الآية (١٠١) والأبعد من ذلك غض الصوت في الحوار، يقول تعالى: ﴿ واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير .. الآية (١٠٢) ويدخل في ذلك أيضا عدم السخرية واللمز والتنازع بالألقاب وكثيرا من سوء الظن، يقول تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم .. الآية (١٠٣) ويدخل في ذلك عدم التفاخر، يقول تعالى: ﴿ فلا تزكوا أنفسكم .. الآية (١٠٤) وعدم التقعر في الحوار، يقول تعالى: ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر .. الآية (١٠٥) وعدم تبادل التهم، يقول تعالى: ﴿ قال قريشه ربنا ما أطيغته ولكن كان في ضلال بعيد، قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد .. الآية (١٠٦) .

ثاني عشر: التحكم في ردة الفعل، يقول تعالى: ﴿ولا يحزنك قولهم...﴾ الآية^(١٠٧) ويقول تعالى: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين، وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى...﴾ الآية^(١٠٨) ويقول تعالى: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ...﴾ الآية^(١٠٩) ويقول تعالى: ﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون...﴾ الآية^(١١٠) ويقول تعالى: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا...﴾ الآية^(١١١) ويدخل في ذلك إعطاء كل شيء قدره، يقول تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر...﴾ الآية^(١١٢).

موضوعات إسلامية لحوار الحضارات:

لقد أُرشدنا القرآن الكريم إلى العديد من الموضوعات التي يمكن أن يدور حولها حوار الحضارات، موضوعات تتفق مع الفطرة الإنسانية مما يجعلها مقبولة لدى جميع أطراف الحوار، كما تتسم بالجدية، ويحقق الحوار حولها منافع كثيرة للبشرية قاطبة، من أبرزها ما يلي:

أولا: حرية العبادة، وحماية دور العبادة، وحرمتها ورعايتها وتوفير الأمن والأمان لروادها، يقول الله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها...﴾ الآية^(١١٣) ويقول تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...﴾ الآية^(١١٤) ويقول تعالى: ﴿ولا يجرمكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا...﴾ الآية^(١١٥).

ثانياً: تحقيق السلام الشامل والدائم والعدل، يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة..﴾ الآية (١١٦).

ثالثاً: تعديل النظام الربوي في التعاملات المالية، يقول تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، يحق الله الربا ويربي الصدقات ..﴾ الآية (١١٧) ويقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ..﴾ الآية (١١٨) ويقول تعالى: ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ..﴾ الآية (١١٩).

رابعاً: عدم حبس العلم والتقنية، يقول الله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ..﴾ الآية (١٢٠) ويقول تعالى: ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هم أشد منه قوة وأكثر جمعا ..﴾ الآية (١٢١).

خامساً: وقف الحملات الإعلامية المغرضة ضد الحضارات، يقول تعالى: ﴿إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم، إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ..﴾ الآية (١٢٢).

سادساً: تكثيف التعاون البناء لمصلحة البشرية، يقول الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ..﴾ الآية (١٢٣).

ومن حسن الحظ أن هناك أرضية طيبة يمكن البدء منها في نور توجيهات القرآن الكريم ، سواء فيما يتعلق بأهداف حوار الحضارات أو وسائله أو ضوابطه أو موضوعاته ، كما أن هناك رؤية غير إسلامية تقترب من الرؤية الإسلامية في كثير من المجالات ، خاصة في مجال التعاون .

الرؤية الإسلامية والحوار مع الرؤية الدولية للتعاون:

هناك عدة مشروعات للتعاون الإقليمي في الشرق الإسلامي ، وهذه المشروعات جميعاً لها بعد إقليمي محدد وبعد دولي أوسع ، وكلها تقف وراءها دول كبرى ، فهناك مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي تقف الولايات المتحدة وراءه ، ثم هناك الشراكة المصرية الأمريكية التي تستهدف أيضاً قيام شرق أوسط جديد موسع يضم دولاً محورية بالنسبة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية فضلاً عن بعض دول الجوار الجغرافي ، وهناك مشروع المشاركة الأوروبية العربية مع الدول المطلة على شرقي وجنوب البحر الأبيض المتوسط ، وهو يضم بعض الدول العربية ليس كلها فضلاً عن تركيا ، وتهدف المجموعة الأوروبية من ورائه أن تقوم منطقة للتجارة الحرة بينها وبين الدول المطلة على شرقي وجنوب البحر المتوسط بعد اثني عشر عاماً ، وهناك المشروع العربي المتمثل في العمل الاقتصادي العربي المشترك في إطار جامعة الدول العربية ، وتمثل هذه المشروعات نماذج عملية للرؤية الإقليمية والدولية للمنطقة الإسلامية .

علي امتداد ما يزيد على ربع قرن واجهت أيديولوجيا وحركة القومية العربية الحديثة أحداثاً وهزات عاصفة كان أشدها صدمتي هزيمة يونيو ١٩٦٧م والغزو العراقي للكويت ١٩٩٠م وتداعياتهما ، وعلي طول هذه الفترة تعددت اجتهادات فحص ونقد هذه الأيديولوجيا وحركتها الحديثة بغرض بلورة رؤية جديدة ومنهجية واقعية تقود إلى مشروعات سياسية تملك آليات مرنة وفاعلة ، ففي المجال الفكري السياسي المعاصر

للكتلة العربية واجهت المفكرين معضلات شائكة ومزمنة أثرت على إيجاد وتبلور رؤية محددة وواضحة إزاء مصطلح الشرق الأوسط والشرق الأوسط الجديد في مواجهة الرؤى الإقليمية والدولية، ومن أبرز هذه المعضلات ما يسمي بدولة الوحدة التاريخية وإعادة بنائها في العصر الحديث، ومما يعطي لهذه المعضلة أهمية هو ذلك الفشل الذي منيت به جميع المحاولات التي بذلت بدوافع وأساليب مختلفة من أجل بناء دولة الوحدة العربية، أو على الأقل الأجزاء المحورية منها، مثل: مصر - سوريا، مصر - سوريا - العراق، سوريا - العراق، مصر - ليبيا، تونس - ليبيا، المغرب - ليبيا - مصر - السودان، السودان - ليبيا، وأخيراً العراق - الكويت من خلال الاجتياح العسكري ١٩٩٠م، غير أن هناك - مع ذلك - إستثناءات وحدوية محدودة، ويلفت النظر في هذه الاستثناءات أنها جميعاً تمت أو ما تزال تبلور في منطقة الخليج العربي، وتختصر في قيام وحدة دولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٧١م، وذلك من خلال التفاوض السلمي بين مجموعة الإمارات الصغيرة السبع بزعامة الشيخ زايد آل نهيان أمير أبو ظبي، كذلك وحدة اليمن الشمالي واليمن الجنوبي التي تمت عام (١٩٩٠م) وتسعى بجهد للوصول إلى صياغة سياسية - اجتماعية مستقرة. وإن كانت هاتان الودعتان قد تمتا في عهد الاستقلال الوطني فإن ثمة وحدة أخرى هامة سبقتهما في شبه الجزيرة العربية وذلك من خلال الحركة التوحيدية والتحديثية التي قادها في العشرينيات الملك عبد العزيز آل سعود والتي جمعت شتات العديد من الإمارات والولايات والقبائل في دولة وطنية موحدة ذات قطر موحد لأقاليم الحجاز ونجد والأحساء وعسير. وقد نجت هذه الودعات العربية الثلاث من لعنة الفشل وتحققت في دول وحدت بين أقاليم متعددة مزقتها عوامل الانفصال لفترات طويلة، كما تمت - بصورة عامة - خارج منظور وحركة أيديولوجية الوحدة العربية الحديثة التي تبلورت في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين.

إن القول بإعادة بناء دولة الوحدة العربية في مواجهة المشروعات الإقليمية ومن بينها مشروع الشرق الأوسط والشرق الأوسط الجديد تدعمه القرائن التاريخية بوجود مثل هذه

الدولة في عدد من الحقب الزمنية من تاريخ الكتلة العربية مثل دولة الخلافة نسبة إلى الخلفاء الراشدين أو الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الفاطمية وكذلك الامبراطورية العثمانية ، وهذه الدول أصبحت المثال القومي لدي أيديولوجية الوحدة العربية (١٢٤).

جاءت قرارات القمة العربية التي عقدت في القاهرة في (٢١ يونيو ١٩٩٦م) مدعمة لاتجاه إحياء التعاون الاقتصادي العربي بصفة خاصة ، فقد جاء الشق الاقتصادي لبيان القمة العربية مؤكدا على ضرورة قيام منطقة تجارة حرة عربية وفقا لبرنامج عمل وجدول زمني ، وذلك تأكيدا للإجماع الشعبي والرسمي على ضرورة دعم العمل الاقتصادي العربي المشترك ، فإذا كان التعاون الإقليمي في إطار الشرق الأوسط الجديد خيار يفرضه المجتمع الدولي فإن هذا التعاون مشروط بالتقدم السياسي في التوصل إلى السلام الشامل والعاقل بما في ذلك المرحلة النهائية للمفاوضات التي تشمل مدينة القدس وتسوية قضية اللاجئين وتنفيذ قرارات مجلس الأمن والشرعية الدولية وعدم السماح بالتفوق العسكري الإسرائيلي ونزع السلاح النووي الإسرائيلي ، وعلي هذا فإن الدول العربية يلزمها قبل الدخول في ترتيبات التعاون الإقليمي العديد من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعدم التقليل من جدوى التعاون العربي - العربي في هذه الفترة ، فضلا عن أن فكرة عقد مؤتمرات لرجال الأعمال على غرار المؤتمر الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا ليست بجديدة في إطار العمل الاقتصادي العربي المشترك ، وترويج المشروعات العربية ، ومناقشة مشكلات رجال الأعمال فيما يتعلق بمجالي التجارة والاستثمار في المنطقة العربية ، إلى جانب التنسيق العربي فيما يتعلق بالتعاون الإقليمي ، أي أنه يجب تدعيم النظام الإقليمي العربي القائم على الهوية العربية الإسلامية ، ودخول الدول العربية مجتمعة إلى أي شكل من الترتيبات الإقليمية الجديدة كوحدة واحدة تنطلق من منطقة تجارة حرة عربية كبرى (١٢٥).

تعتبر الرؤية المصرية في هذا الإطار أكثر الرؤى العربية وضوحاً وشمولاً وعلانية حيث تعترف هذه الرؤية بأن متغيرات جذرية قد حدثت في الظروف والأوضاع السياسية للشرق الأوسط أهمها مسيرة السلام، وأن الولايات المتحدة الأمريكية قد عادت كقوة خارجية أولي في المنطقة والعالم في أعقاب حرب (أكتوبر ١٩٧٣م) ثم بعد توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية في (١٩٧٩م)، ودعمت هذا الدور خلال حرب الخليج الثانية والتحالف الدولي (١٩٩١م)، ثم تحريك عملية السلام من خلال مؤتمر مدريد، ومن ثم فقد وضعت الرؤية المصرية في اعتبارها ضرورة التوافق - ولو في حد أدنى - مع الرؤية الأمريكية مع الأخذ في الاعتبار ألا يمنعها هذا التوافق من اتخاذ مواقف سياسية معارضة للمواقف الأمريكية إذا اختلفت المصالح في إطار النظرية التي تقول بأن اختلاف المصالح لا يعني الأزمة كما أن تطابقها لا يعني التحالف، وهو ما عبر عنه أسامة الباز مستشار الرئيس المصري بأن مصر لا يمكن أن تكون تابعة للولايات المتحدة أو غيرها وأنه من غير الطبيعي أن يحدث تطابق تام بين سياستي القاهرة وواشنطن، فهناك اختلاف في الرؤى بين البلدين حول مسيرة السلام وقضايا التسليح ورفض مصر قبول التفوق العسكري الإسرائيلي، ومساندة سوريا ولبنان ومساندة الفلسطينيين والموقف من العقوبات على العراق والموقف من العقوبات التي تقترحها أمريكا على السودان، وقد تعدي الأمر هذه الخلافات إلى محاور أخرى لا تستطيع مصر أن تتجاهلها وأهمها بناء نظام شرق أوسطي جديد يشمل التحالف بين أمريكا وتركيا وإسرائيل، حيث تشترط الرؤية المصرية معالجة قضية السلام أولاً بحيث يكون سلاماً عربياً إسرائيلياً وليس سلاماً إسرائيلياً فقط، وكذلك معالجة الوضع النووي الإسرائيلي لأنه من غير المقبول اختلال التوازن العسكري في المنطقة واستمرار إسرائيل في سياستها الحالية مع المطالبة بتحقيق التعاون الإقليمي، يقول عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية: إن ما سمي بالنظام العالمي الجديد - حتى قبل أن يتبلور بصورة نهائية - به نقاط ضعف خطيرة وأهمها الكيل بمكيالين واتخاذ مواقف عدائية باختلاق عدو تحتاج القوي الكبرى كي تحاربه بأن

تبلور حوله خططا وسياسات، ومن هنا فإن الرؤية المصرية تؤكد على ضرورة مواكبة المتغيرات الدولية والإقليمية حتى لا تؤثر بالسلب على المنطقة، ولكن هذا يتطلب دورا عربيا يتفق مع الولايات المتحدة في ضرورة استمرار عملية السلام، وفي التضامن في مواجهة الإرهاب، فضلا عن التوافق مع إقامة نظام شرق أوسطي جديد بحيث يسمح بتحقيق المصلحة العربية في إطار شبكة العلاقات الإقليمية الراهنة، وأن لا يسبق التعاون الإقليمي إقرار السلام العادل والشامل وإقامة الدولة الفلسطينية وحل مشكلة القدس الشريف ومشكلة اللاجئين، مع مواصلة السعي من أجل تحقيق المصالحة العربية^(١٢٦).

ويربط الإيرانيون بين فكرة الشرق الأوسط الجديد والشرق الأوسط القريب والنظام العالمي الجديد من خلال تلاقي الأهداف وتوحيدها في فكرة تفتتت القوة في العالم الإسلامي، بمعنى حرمان العالم الإسلامي من أسباب القوة المطلقة سياسيا واقتصاديا وثقافيا وعسكريا وفكريا واجتماعيا التي يمكن أن تمكن العالم الإسلامي من جعل الأطراف الأخرى تسلم له كقوة شريكة في الإدارة الكونية^(١٢٧)، ويعارض الإيرانيون النظرة المتفائلة لدي بعض الأطراف إزاء مسيرة النظام العالمي الجديد مؤكدين أن هذا النظام متسرع وبعيد عن الواقع والظروف الزمانية، يقول المحلل الإيراني مجيد رضائيان: إن سلسلة الأحداث المتعلقة بانهايار الاتحاد السوفيتي قد أبانت عن الماهية الحقيقية للنظام العالمي الجديد، كما أوضحت أحداث حرب الخليج الثانية والاستثمار السياسي الأمريكي الواسع لها بجلاء هذه الماهية، كما أوضحت بصورة أكبر أهداف النظام العالمي الجديد، فلقد رأينا أن إسقاط الأيديولوجية من الساحة السياسية للاتحاد السوفيتي السابق لم يكف الغرب بل كان تفتتت السيادة على أراضي الاتحاد الواسعة جزءا أساسيا من سياسة الغرب وأن هذه اللعبة مستمرة حتى إسقاط الخصم^(١٢٨)، ويتابع مجيد رضائيان تحليله للظروف الجديدة فيتطرق للعلاقات الدولية في ظل هذه الظروف مؤكدا أن تغيير مستوي العلاقات الدبلوماسية بين بلدين أو إقرار العلاقات بينهما أو

استثنائها بعد قطعها يستلزم تغير الظروف أو تغير وجهات نظر أحد الطرفين وأن تغير هذه العلاقات يكون من خلال أربعة مستويات هي التعاون والمنافسة والنزاع والتسلط ، وحتى يمكن تغير العلاقات من مستوي النزاع مثلا إلى مستوي المنافسة يجب أن يتم هذا التغير من خلال الظروف المحيطة أو وجهات النظر ولكن مجيد يستثني العلاقات الإيرانية الأمريكية من هذه القاعدة مستدلا بقول الزعيم الإيراني خامنئي بأنه إذا أرادت دولة أن تتماشى مع النظام العالمي الجديد فإنها لن تستطيع أن تقلم أظافر الاستكبار بل إنها سوف تعطيه الفرصة لكي يطلب المزيد من الامتيازات^(١٢٩) ، ويرى الإيرانيون أن الغرب بطرحه فكرة الشرق الأوسط الجديد ليس متعجلا فحسب بل إنه ربما لا يمتلك مقومات تحقيقها في الوقت الراهن ، حيث إن اصطلاح الشرق الأوسط عندما أطلق كان يحمل في طياته التأكيد على عناصر مشتركة بين الدول التي تدخل في تشكيله مثل الحضارة والتاريخ والدين والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية^(١٣٠) .

لقد ساعد سقوط الاتحاد السوفيتي على تبلور رؤية إيرانية تجاه المنطقة الإسلامية ، وموقف واضح ومحدد تجاه المشروعات المطروحة في هذا الصدد ، حيث يرى الإيرانيون أن سقوط الاتحاد السوفيتي قد أحدث تحولا كبيرا ليس فقط في البنية السياسية وإنما في البعد الجغرافي لاصطلاح الشرق الأوسط ، فقد ظهرت ثلاث عشرة جمهورية جديدة بكل مشكلاتها وأزماتها وأحدثت تغييرات أساسية في المعادلات السياسية والجيوبوليتيكية العالمية تجعل اعتبار هذه الرقعة المستقلة إضافة جديدة إلى بنية الشرق الأوسط والذي يبدو تغيرا طبيعيا يمكن قبوله . ولما كانت إيران تعتبر نفسها حلقة الوصل بين منطقتي الخليج والشرق الأوسط القديم وبين آسيا الصغرى ، ولما كانت لديها مقومات التعامل مع أطراف المنطقتين كما تتمتع بإمكانية الاشتراك في جميع الترتيبات الأمنية والاقتصادية والسياسية فيهما مع وجودها الفعال في المنظمات الإقليمية للتعاون السياسي والاقتصادي فإنها مؤهلة لعرض مشروع تجمع يمثل قوة سياسية واقتصادية مؤثرة ليس على المستوى الإقليمي فحسب بل على المستوى العالمي أيضا .

أتاحت متغيرات القوة العربية في المنطقة بعد حرب الخليج الثانية لإيران الخروج من عزلتها وطرح بعض المشروعات الإقليمية مثل مشروع أمن الخليج ١+١+٦ ومشروع السوق الإسلامية المشتركة ومشروع اتحاد البرلمانات المشتركة ومشروع وحدة العالم الإسلامي ومشروع الحكومة العالمية للإسلام ، فضلا عن توسيع قاعدة منظمة التعاون الإقليمي اكو حيث دعت طهران في المؤتمر الذي عقد في (فبراير عام ١٩٩٢م) إلى انضمام جمهوريات آسيا الوسطى إلى المنظمة ، وفي كلمة ألقاها الرئيس السابق هاشمي رفسنجاني في مؤتمر منظمة التعاون الإقليمي قال : في عالم يتعرض بسرعة لتحولات سياسية واقتصادية ، وفي زمان يتسم بسرعة متزايدة في تحولاته العلمية يكون التعاون الإقليمي من أهم الضرورات وأكثرها اطمئنانا للتنمية والتقدم ، وإن منظمة الإكو باتساعها الذي يزيد على (٧) ملايين كيلومتر مربع وقواها العاملة المتخصصة الكبيرة وروابطها التاريخية المشتركة وثقافتها العريقة ووجود مصادر طبيعية غنية فيها وكونها جسرا يربط بين أوروبا وآسيا وبين الشرق والغرب يمكن أن يكون لها دور مهم وبارز في التنمية الاقتصادية للمنطقة^(١٣١) .

لاشك في أن مشروعات الوحدة والتعاون الإيرانية تسعى لرسم خريطة جديدة للمنطقة تضم العالم العربي وإيران وتركيا ودول آسيا الوسطى الإسلامية والمنطقة الإسلامية في أفريقيا ، كما أن من الملاحظ أن المشروعات الإيرانية للتجمعات الإقليمية تقوم أساسا على السياسة الأمنية ، يقول الكاتب مجيد رضائيان : إن السياسة الأمنية تقتضي إقامة اتحاد للدول الإسلامية في المنطقة حتى تحصل على مكانتها الواقعية في النظام العالمي الجديد^(١٣٢) . ويؤكد علي أكبر ولايتي هذا المنطلق بقوله : إن جمهورية إيران الإسلامية تعتقد اعتقادا راسخا في مبدأ التعاون الإقليمي باعتباره دليلا على الجدية والريادة في تنمية العلاقات الثنائية والثلاثية والمتعددة الأطراف كسبيل وحيد لضمان السلام والاستقرار والأمن في المنطقة وأن جهود إيران في إقرار الأمن سواء في منطقة

الخليج أو في مجموعة دول الجوار أو في منطقة آسيا الوسطى والقوقاز من أجل إقرار السلام والاستقرار إنما يتم في إطار هذه الاستراتيجية حيث إن الأمن القومي لإيران يتحقق من خلال إقرار السلام والأمن في المنطقة^(١٣٣).

وعلى الجانب التركي كانت الدولة العثمانية في صميمها عالمية لا تعترف بالقوميات، ولم تكن القومية إحدى العناصر الأولى التي أخذها المثقفون الأتراك عن الثقافة الأوروبية، أما الدافع الحقيقي لنشأة القومية التركية فهو إحساس هذه القلة المثقفة بأن هذه القومية ستكون رباطا يجمع ما بقي من أوصال مفككة للإمبراطورية التركية التي لم يكن لها من أمل في أن تعيش إلا إذا أخذت بأساليب الحكم والإدارة الأوروبية، وقد حاول كمال أتاتورك بعث القومية التركية بأن بالغ في الإلحاح على الجانب التاريخي من فكرة الجامعة التورانية، ويتضمن ذلك الجانب نظرية القومية التاريخية ونظرية لغة الشمس وتفترض كل منهما أن الأتراك هم أصل التاريخ بل وأصل النوع البشري وأن كل ما في العالم من حضارة إنما يرجع إليهم، وبهذا ربط أتاتورك بين ماضي الأتراك في شرق وأواسط آسيا وحاضرهم وأعطاهم كثيرا من الثقة في أنفسهم، ولكنه في نفس الوقت وضع الأساس لأفكار متعصبة تؤمن بالعنصرية، ولقد سخر كثير من الأتراك أنفسهم من هاتين النظريتين في أول الأمر واعتبروهما مجرد حماس طائش ولا تزال قلة من المثقفين تنظر إليهما نفس النظرة ولكنهما مع ذلك لا تزالان تصبغان التعليم العام في تركيا بصبغتهما، وبالرغم من وجود بعض العناصر التي تستغل الفكرة العنصرية في دعايتها السياسية فإن قادة الحركات السياسية في تركيا يرون أن سر نجاح المجتمع العثماني فيما مضى يرجع إلى أنه كان ملتقى لجميع الأجناس والألوان^(١٣٤). وقد سعت تركيا إلى أن تكون علاقاتها مع الدول العربية وإيران وباكستان وأفغانستان متزنة^(١٣٥). ومع السياسة المتوازنة التي تحاول تركيا أن تنتهجها بين العرب وإسرائيل رحبت بمشروع الشرق الأوسط الجديد، كما رحبت بقيام دولة فلسطين، واستعدادا لذلك عمدت تركيا إلى تحريك العلاقات التركية العربية بشكل أكثر إيجابية.

أما الرؤى الدولية للتعاون مع العالم الإسلامي فتختلف باختلاف الدول والمصالح في المنطقة ، ولكل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي واليابان وروسيا والصين مصالح كبيرة في المنطقة الإسلامية ، إلا أن مشروع الشرق الأوسط الجديد كان أكثر المشروعات حظا من زاوية الاهتمام الدولي ، ويرتكز المشروع الشرق أوسطي على أن تاريخ الحروب العربية الإسرائيلية أثبت أن الأمن والاستقرار لا يتحقق بقوة السلاح وحده وأن مطلب الأمن هو مطلب إسرائيلي وعربي في نفس الوقت ، فالمفهوم الشامل للأمن القومي يعتمد على متغيرات أخرى غير العسكرية مثل الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، خاصة وأن نوعية السلاح التي تحتفظ بها دول المنطقة تتخطى مفاهيم الأمن الجغرافي ، ومن ثم فإن تفعيل هذه المتغيرات غير العسكرية من شأنه أن يكرس مفهوم السلام ، ولابد أن يتزامن ذلك مع نزع السلاح النووي وتخفيض الإنفاق العسكري في المنطقة بحيث تصبح المنطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل وتحويل الجزء الباقي إلى التنمية الاقتصادية ورفع مستوى شؤون المنطقة . والفرضية الأساسية الثانية في مشروعات التعاون الإقليمي أن هذه المشروعات يجب أن تستمد مقوماتها من النظام الإقليمي العربي بعد أن أصبح حفظ الأمن العربي يقوم على هوية ثقافية صلبة تستوعب كل الأقليات في المنطقة الدينية والعرقية والإثنية ، بينما النظام الشرق أوسطي يقوم على التعددية الثقافية والدينية والعرقية ، والجديد في مشروعات التعاون في إطار الشرق أوسطية أن هناك أصواتا في إسرائيل نفسها تنتقد التكلفة المرتفعة التي ستتحملها إسرائيل نتيجة للتعاون الإقليمي الشرق أوسطي كما روج له شيمون بيريز وبالتالي فإن الحكومة الإسرائيلية لها رؤية مختلفة للتعاون الإقليمي تقوم على شرق أوسطية جديدة معدلة تعتمد على الهيمنة الإسرائيلية على المنطقة . وفي المقابل هناك وجهات نظر للمثقفين العرب تقول إن إسرائيل بعدد سكان لا يتجاوز خمسة ملايين نسمة وفقير في الموارد الطبيعية ليست مؤهلة لقيادة عملية شرق أوسطية دون مساندة الدول المحورية في المنطقة العربية وهي مصر وسوريا والسعودية ، خاصة وأن تجارب التعاون الإقليمي في

المنطقة العربية منذ الفترة التالية للحرب العالمية الثانية لا تضمن لهذا التعاون الإقليمي أن يلقي نفس مصير التعاون الإقليمي العربي، خاصة وأن تحديد الإطار الجغرافي لمنطقة الشرق الأوسط فيه غموض مقصود على الرغم من أنه أكثر المصطلحات شيوعاً إلا أنه أكثرها مدعاة للاختلاف من زاوية من يضم من الدول ومن يستبعد. من ثم فإن أية حدود جغرافية للتعاون الإقليمي في إطار الشرق الأوسط يجب أن يشمل جميع الدول العربية فضلاً عن دول المنطقة، وكان مشروع الشرق الأوسط الجديد أكثر المشروعات حظاً من زاوية الاهتمام الدولي، ففي إطار هذا المشروع عقدت قمة الدار البيضاء في (أكتوبر عام ١٩٩٤م) ثم تلتها في العام التالي قمة عمان الاقتصادية، ويرى البعض أن مؤتمر القاهرة في (نوفمبر عام ١٩٩٧م) كان نقطة التحول في مشروعات الشرق الأوسط الجديد، ذلك أن هذا المؤتمر لم يتعرض إلى مشروعات تتعلق برفع المقاطعة العربية عن إسرائيل على عكس القمتين السابقتين، وأثبت أن التقدم في التطبيع الاقتصادي يجب أن يسير على التوازي مع التقدم في ميرة السلام، وقد تم في هذا المؤتمر الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا إقرار العديد من المشروعات، وتشترك هذه المشروعات في أنها تربط بين أكثر من دولة من دول إقليم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، خاصة بعد الموافقة على إنشاء صندوق إقليمي للتنمية الاقتصادية يسهم توازناً في التعامل مع قضية التسوية في الشرق الأوسط، وأقرب إلى الدعوة لتطبيق قرارات الشرعية الدولية بشأن النزاع العربي الإسرائيلي نصاً وروحاً، كذلك لوحظ أن أوروبا بدأت تشعر بالضيق من انفراد الولايات المتحدة بتقرير كل شيء في المنطقة، وظهر ذلك بوضوح في إصرار فرنسا على الاضطلاع بدور هام إبان العدوان الإسرائيلي على لبنان وتصريحات الرئيس الفرنسي حول عزم بلاده على العودة إلى المنطقة بعد غيبة طويلة، وفي نفس الوقت انتقدت روسيا تجاهل أمريكا لها في التحركات الدبلوماسية في المنطقة وإحجام واشنطن عن التشاور والتنسيق مع روسيا وهي أحد راعبي مسيرة السلام، كما بدا واضحاً أن الدبلوماسية اليابانية والصينية قد نشطتا في المنطقة.

ويلاحظ على الرؤية الدولية للتعاون عموميتها فقد حلت عبارة عملية السلام في تصريحات وبيانات الأطراف الدولية محل عبارة انسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلي من الأراضي التي احتلت في (يونيو عام ١٩٦٧م)، ومحل ضرورة الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره التي كانت تظهر في البيانات الدولية مثل بيان البندقية الشهير عام (١٩٨٢م) الذي تحدث عن وطن للفلسطينيين، وكادت تختفي عبارة الدعوة إلى تنفيذ قراري مجلس الأمن رقم (٢٤٢ و ٣٣٨)، وتواترت عبارة التمسك بالأرض مقابل السلام في عدد من البيانات الدولية، مما يشير إلى ميل متزايد من جانب الأطراف الدولية إلى عدم استخدام عبارات تضايق الجانب الإسرائيلي بحجة تجنب ما يعكس صفوة عملية السلام، واستخدام عبارات بديلة تبلور الجوار اللصيق حتى يمكن الوصول إلى الاستقرار القائم على وحدة جيوبوليتيكية متماسكة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وأمنيا، بمعنى أن يكون لدى الأطراف في الشرق الأوسط قناعة بأن لها مصالح مشتركة ومتبادلة تستلزم حلولاً متوازنة وعادلة لجميع القضايا محل التعاون بحيث تضمن هذه الحلول حقوق ومصالح الأطراف في تكافؤ وتوازن يؤدي إلى الاستقرار السياسي والاقتصادي دون أن يحاول طرف ما أن يهيمن على مقدرات الأطراف الأخرى أو أن يستفيد على حساب الآخرين أو أن يفرض إرادته على أطراف هذا النسق الإقليمي^(١٣٦).

هناك معالم مشتركة تجمع بين رؤى هذه الدول جميعها، لكن هناك سمات محددة مميزة للرؤية الأمريكية وهي الأكثر تأثيراً في مجريات الأمور في المنطقة، غير أنه من الضروري التركيز في موضوع الرؤية على قضيتين محددين هما : التسوية والترتيبات الإقليمية :

١ . **التسوية السياسية :** إن التوجه الرئيسي للدول المعنية بالتسوية في الشرق الأوسط بغض النظر عن أي خلافات سياسية بينها هو أن هذه التسوية حتمية، ومن الضروري التشجيع على استمرار عملية السلام والتغلب على العقبات التي تعترض

طريقها حتى تستقر أحوال المنطقة وتزول الحواجز بين شعوبها ، وهناك إجماع على أن السلام لا رجعة فيه ، وهو ما أكدته وزراء خارجية دول الاتحاد الأوروبي (١٥ دولة) في اجتماعهم في مدينة بالرمو في (فبراير عام ١٩٩٦م) وتري أمريكا وروسيا واليابان والصين ودول العالم الأخرى نفس الرأي ، غير أنه من الملاحظ أن الموقف الأوروبي والصيني والياباني والروسي مؤخرا يبدو أكثر حيادا من الموقف الأمريكي .

تركز الرؤية الدولية للتسوية على أن عملية السلام التي بدأت في مدريد (١٣ أكتوبر ١٩٩١م) تخطت حاجز الجمود واجتازت نقطة اللاعودة ، ولم يعد في مقدور أي طرف أن يعترض المسيرة أو يحاول إيقافها دون أن يضع نفسه في تناقض مع العالم كله ، فلم يعد الشرق الأوسط نقطة تصادم بين الكتلتين الشرقية والغربية ، ولم يعد الغرب يخشى من انحياز دول عربية إلى موسكو فقد أصبحت دول المنطقة باستثناء إيران ترتبط بعلاقات وثيقة مع الولايات المتحدة ، وأصبحت الولايات المتحدة بعد حرب الخليج الثانية هي القوة المسيطرة على المنطقة وانكمش الدور الأوروبي إلى أدنى حد ، وقد حدد انطوني ليك مستشار الأمن القومي الأمريكي الهدف السياسي لبلاده في المنطقة بأنه توسيع دائرة الدول الديمقراطية التي تعمل بنظام السوق ، وتعزيز المصالح الأمريكية وحمايتها في المنطقة ، ومواجهة تهديد الأنظمة الراديكالية سواء العلمانية أو الدينية لهذه المصالح^(١٣٧) ، وتحتوي الرؤية الأمريكية الواضحة للمنطقة على عناصر ثابتة وأخرى متغيرة ، والثبات ناجم عن بقاء العديد من المصالح الحيوية لأمريكا في المنطقة دون تغيير فمازال التدفق الحر للبترول الشرق الأوسط بأسعار معقولة يعتبر من المصالح الأمريكية الثابتة ، كما أن ضمان التفوق النوعي لإسرائيل في مجال التسليح على مجموع الدول العربية ، والمحافظة على أمن إسرائيل وبقائها ورخائها من المصالح الثابتة للولايات المتحدة . أما العناصر المتغيرة فهي تناقض في استخدام الوسائل العسكرية والاقتصادية للتأثير في الأحداث في مرحلة ما بعد الحرب الباردة ، كما أن عصر الصواريخ خلق

وضعا يمكن أن تجد فيه تل أبيب أنها عرضة لهجوم من أطراف في المنطقة في نفس الوقت، فقد أثبتت إيران مثلاً أن يدها يمكن أن تصل إلى أي مكان في المنطقة وتتدخل في عملية السلام، وهناك أيضاً الدور المتزايد الأهمية الذي تلعبه تركيا في الحسابات الإقليمية من وجهة النظر الأمريكية، حيث تضع الرؤية الأمريكية في حسابها أن وجود حدود مشتركة بين تركيا من جهة وبين العراق وإيران وسوريا من جهة أخرى يمكن أن تخدم عملية احتواء النظام العراقي وتنفيذ خطة توفير الإغاثة لسكان كردستان العراق والضغط على سوريا عند اللزوم والتحكم في حركة الأكراد على الحدود الإيرانية في الوقت المناسب، وتعتمد الرؤية الأمريكية على استثمار انهيار الاتحاد السوفييتي وهزيمة العراق وتصفية قدرته العسكرية وسقوط جبهة الرفض الراديكالية في الشرق الأوسط، لمنع ظهور قوي متطرفة جديدة في إيران أو السودان قادرة على أن تفرض نفوذها على المنطقة، فضلاً عن زيادة وجودها العسكري وتحجيم الطموحات العسكرية لإيران والعراق والتحكم في شحنات الأسلحة للدول الأخرى في المنطقة، ومن ثم فإن هدف السياسة الأمريكية هو الوصول إلى تجمع شرق أوسطي بدون إيران والعراق وبيبا السودان مع التلويح بعزل سوريا إذا تمسكت بشروطها للتسوية مع إسرائيل بدون تعديل، حيث ما زالت تصر على وضع اسم سوريا في قائمة الدول التي ترعي الإرهاب.

لقد ركزت الرؤية الأمريكية على إنهاء النزاع مع إسرائيل وتطبيع العلاقات وفتح الحدود وتبادل السفارات وإقامة العلاقات التجارية مع إغفال متعمد لقضية انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها في عدوان (يونيو عام ١٩٦٧م)، وإغفال متعمد لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، كذلك سقطت المصادقية الأمريكية نهائياً في المنطقة عندما وافقت واشنطن على استثناء إسرائيل من التوقيع على المعاهدة الدولية لحظر الانتشار النووي والضغط على العرب للتوقيع عليها بما يعني التصديق على الاحتكار النووي الإسرائيلي والاعتراف بالقدرة النووية لإسرائيل وعقد تحالف

استراتيجي أمريكي إسرائيلي يضمن لها نهائيا الاحتفاظ بالتفوق النوعي في المجال العسكري إلى جانب الحصول على معلومات أجهزة المخابرات الأمريكية وأقمار التجسس وكل المستجدات التكنولوجية المتطورة، وساعدت أمريكا سياساتها في المنطقة على تكريس الوهم لدى الناحب الإسرائيلي بأن حكومته تقدم التنازلات للفلسطينيين مما يساعد على توارى المبدأ الأساسي للسلام وهو إنهاء الاحتلال، وبينما ركزت الرؤية الأمريكية على التعبئة ضد التطرف الإسلامي فقد أغفلت خطر التطرف اليهودي رغم أن موجة التطرف الديني والعنصري في إسرائيل التي قتلت إسحاق رابين كانت تهدد عملية السلام، كما أن الحكومة الأمريكية لم تعارض قرار الكونجرس بتحديد موعد نهائي لنقل السفارة الأمريكية إلى القدس متجاهلة بنود اتفاق أوسلو التي تنص على أن القدس محل تفاوض بين الجانبين في مفاوضات الحل النهائي، وقد أدت الرؤية الأمريكية إلى أن القضايا الرئيسية للصراع العربي الإسرائيلي مازالت معلقة بلا حل مثل قضايا الحدود والانسحاب من الأراضي التي احتلت عام (١٩٦٧م) والمستوطنات والقدس وحق العودة واللاجئين والمياه وتقرير المصير، كما ترتب على هذه الرؤية انتصار التطرف الإسرائيلي المناوئ لعملية السلام.

٢. الترتيبات الإقليمية: يلخص روبرت بلليتر ومساعد وزير الخارجية الأمريكية الرؤية الأمريكية للترتيبات الإقليمية في المنطقة بقوله: إن المقاطعة العربية لإسرائيل هي أحد العوائق في طريق التوسع الاقتصادي في المنطقة، وهي تحبط النمو الاقتصادي في وقت يصبح فيه تشجيع التجارة والنمو حاسما لاستقرار المنطقة، وهو يعتبر أن تعزيز التجارة الأمريكية والاستثمار الأمريكي جانب رئيسي للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط.

الرؤية الغربية للترتيبات الإقليمية واحدة مع اختلافات محدودة في التفاصيل بين دولة وأخرى، وتقوم على إعادة صياغة العلاقات بين دول المنطقة وإدماج إسرائيل في

المنطقة ، وما يترتب على ذلك من إلغاء المقاطعة وفتح الأسواق أمام السلع والمنتجات الإسرائيلية ، وتمكين إسرائيل من الحصول على المواد الخام من الدول العربية ، وتقرب الرؤية الدولية للترتيبات الإقليمية من نظرية رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق ، وكان مؤتمرا الدار البيضاء وعمان جزءا لا يتجزأ من الترتيبات الإقليمية ومشروعات التعاون الإقليمي ، كما يعتبر الاتفاق التركي الإسرائيلي والشراكة الاستراتيجية الأمريكية الإسرائيلية جزءا من الترتيبات الإقليمية في المنطقة^(١٣٨).

حوار الحضارات وقضايا المنطقة الإسلامية:

أولا : الصراع العربي الإسرائيلي :

الصراع العربي الإسرائيلي صراع يتميز تاريخيا بأنه صراع ثنائي بين العرب الفلسطينيين وبين قسم من اليهود (الأوريين) من ناحية ، وهو أيضا صراع إقليمي بين العرب عموما (والمسلمين معهم) وبين الغرب الطامع المناصر للحركة الصهيونية بحكم التهديد الذي تشكله إسرائيل على الطرف الأول ، وهو من ناحية ثالثة صراع دولي بحكم نشأة إسرائيل نفسها خدمة للمشروعات الدولية الاستعمارية وارتباطها وعلاقاتها بالدول الغربية المتنازعة فيما بينها والمختلفة المصالح أيضا . وفي ظل مثل هذه المعادلة المعقدة فإن أحد الطرفين (العرب) في الصراع ثابت وأصيل تاريخيا ولا يتوقع أن يتغير جوهرها مهما تغيرت الظروف فسيظل العرب عربا وسيظل المسلمون مسلمين وستظل تناقضاتهم مع هذا الجسم الغازي الغريب (إسرائيل) مستمرة ، ومع مرور الصراع في تشابكاته بعد مرور مائة عام على قيام أول مستوطنة صهيونية في فلسطين لا ينبغي التفكير في إنهاء هذا الصراع بضربة انقلابية واحدة ولن تكون هناك معركة نهائية من شأنها إزالة التجمع الإسرائيلي ودولته كليا ، وإنما سيبقي قسم من هذا التشكيل البشري لهذه الدولة هم اليهود وسيشكلون مجموعة دينية إقليمية في المجتمع العربي الإسلامي الموحد ، فقد شهدت

حروب العرب مع إسرائيل معارك متنوعة المستويات، لكن حرباً واحدة منها تشكل انعطافة أساسية في اتجاه حركة الدولة الإسرائيلية هي حرب (أكتوبر عام ١٩٧٣م)، فمنذ ذلك التاريخ لم تستعد إسرائيل قوتها السابقة بالموازن الجيوستراتيجية، لا عسكرياً ولا اقتصادياً، وقد جاءت هزيمة إسرائيل في لبنان في حرب (يونيو عام ١٩٨٢م)، ثم انسحابها من لبنان نهائياً لتأكيد هذا التراجع التنافري التاريخي، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن التفكير الانقلابي الذي يتصور إمكان القضاء على إسرائيل بضربة واحدة لم ينجح من قبل، كما لا تبدو هناك فرصة مستقبلية لأن ينجح خاصة مع شيوع العولمة كهيكل دولي واقتصاديات عالمية.

إن الاقتناع بخطأ فكرة الضربة الأولى يفتح الباب أمام الأفكار والتصورات التي تقوم على أساس استمرار الصراع العربي الإسرائيلي باعتباره صراعاً محكوماً بالوجود الثابت العربي وعدم طبيعة وجود الدولة الصهيونية الإسرائيلية واستقرارها في قلب هذا المحيط، وأن مرور الصراع حتى الآن في مراحل متدرجة على كل المستويات يتطلب دراسات متعددة لاكتشاف التكتيكات المتدرجة والمرحلية وتطوير أسلحتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والبشرية بما في ذلك التنسيق بين المواقف العربية الرسمية منها وغير الرسمية، الفردية منها والجماعية، فمن المنطقي أنه كلما زاد التنسيق والنضام العربي في مواجهة إسرائيل ازدادت فرص تحقيق انتصارات وإنجازات تجعل إسرائيل تزداد انكماشاً، وكلما كانت هذه الانتصارات نتيجة تضامن طرفين أو أكثر زاد تأثيرها، وبمنظرة تاريخية ممتدة ترى المستقبل وتستند إلى التاريخ فإن المحصلات في المعارك بين إسرائيل والعرب تصب لصالح العرب رغم ما تؤكدته إسرائيلية بأن إسرائيل دخلت عملية التسوية باعتبار أن موازين القوى تسمح لها بتمرير خططها في منطقة الشرق الأوسط مقابل تنازلات تقدمها للفلسطينيين أي أن كل ما ستقدمه إسرائيل للفلسطينيين تتوقع أن تأخذ مقابله من العرب في إطار إقليمي دولي.

توفر العولمة فرصاً وتحديات أمام أطراف الصراع العربي الإسرائيلي، وهناك اختلاف في الرأي وأيضاً في المصالح بين دول الطرف العربي بسبب تفاوت درجة نموها الاجتماعي وتطور الدول فيها واختلاف المصالح الأمنية الإقليمية لكل منها، مع اتفاقها جميعاً على ما يجمعها من مصالح عامة، ومنها بالتأكيد التصدي للوجود الإسرائيلي الغريب في قلبها، مع محاولة إسرائيل باستمرار التفوق عليها مجتمعة أو على كل منها على حده سواء عسكرياً أو في مجالات المنافسة الاقتصادية والعلمية والتقنية. الفرص التي توفرها العولمة عديدة تنبع من مصلحة الدول الكبرى في عالم اليوم في إخماد نقاط التوتر التي تهدد مصالحها المتنامية وخططها الكونية التي تتعارض مع المصالح القومية الضيقة، وفي مجال إخماد نقاط التوتر تحتل منطقة الشرق الأوسط الأولية في خطط الدول الكبرى، وإن لم يتوفر الاتفاق فيما بينها في ترتيب الأولويات داخل المنطقة، إذ بينما ترى أمريكا أن أخطر الدول على مصالحها هي إيران والعراق وليبيا والسودان، فإن هذا الترتيب يختلف بالنسبة لدول الاتحاد الأوروبي، وفي الحالتين ينعكس ذلك على الموقف من إسرائيل وسياساتها، إذ بينما ترحب أمريكا بالموقف الإسرائيلي للقيام بأي عمل عسكري ضد إيران والعراق مثلاً لا يرحب الاتحاد الأوروبي بذلك بل تتعامل دوله مع إيران والعراق اقتصادياً وسياسياً أحياناً في إطار الأمم المتحدة، ويحقق ذلك فرصاً للأطراف العربية في الصراع العربي الإسرائيلي بما يتيح من مساومات متنوعة ومختلفة المستويات بين الدول العربية كل على حده، وبينها مجتمعة في إطار القضايا الأساسية في الصراع العربي الإسرائيلي.

في ظروف ازدياد النشاط العالمي في اتجاه العولمة تتوفر فرص أكثر أمام الدول العربية مجتمعة ومنفردة للمساومة حول قضايا الصراع العربي الإسرائيلي التي تنغمس فيها الدول الكبرى وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي، هذه الفرص الجديدة تعالج هذه المرة بغير ما عولجت به في مطلع القرن الماضي، وإذا كانت إسرائيل

وقياداتها الصهيونية تعمل على أن يكون لها مكان في مجتمع العولمة الراهن والمقبل فإنها تواجه أيضا مخاطر وتهديدات هذه العولمة، فإسرائيل تعمل على التفوق في مجالات التكنولوجيا والمعلومات والمال وهي أساس المجتمع العولمي الجديد، بالإضافة إلى امتلاكها القدرة النووية التي تملكها القوي الكبرى في المجتمع الدولي، وبذلك تضمن لها موقعا بين الكبار وفي حمايتهم، خاصة وأنها تتصرف على أساس أنها الدولة الكبرى في المنطقة منذ فترة حكم نتيهاو إلا أن نتائج مرحلة ما بعد عام (١٩٧٣م) كانت قد انعكست على المجتمع الإسرائيلي فازدادت أطراف التطرف السياسي تطرفا وضعف الوسط لحساب هذه الأطراف وكانت النتيجة تعميق التناقض بين الظاهرة الإسرائيلية وبين جيرانها العرب، وبينها وبين الدول الغربية التي تقود مجتمع العولمة العالمي، إن إسرائيل خاصة بعد نتيهاو ليست على استعداد لتقديم ما يرضي العرب عامة والفلسطينيين خاصة وهي بذلك تختار أن تكون دولة كبرى فاشية ولا تترك مجالاً للدول الكبرى الغربية صانعة المجتمع الدولي الراهن وحاميته لكي تتعامل مع دول المنطقة التي تطالبها باستمرار بالضغط على إسرائيل^(١٣٩).

ثانيا: قضية أمن الخليج:

تعتبر منطقة الخليج بما تمتلك من ثروات هائلة وسوق ضخمة من أكثر مناطق الشرق الأوسط أهمية وحساسية بل وأكثرها سخونة، ومن هنا فإن أمن الخليج من الركائز المهمة التي تحقق الأمن والاستقرار في المنطقة الإسلامية كلها، كما أن اختلال الأمن في الخليج من شأنه أن يؤدي إلى أحداث لا تحمد عقباه، ومن الطبيعي أن تكون كل الدول التي لها مصالح في منطقة الخليج معنية باستقرار الأمن في هذه المنطقة، وأن يصل اهتمامها بهذا الأمر إلى الحد الذي ترسل فيه جيوشا وقوات عسكرية إلى المنطقة، وأن تبادر بتقديم مشروعات متواصلة لأمن الخليج، ويعترض تنفيذ أحد من هذه المشروعات اختلاف الرؤى لدى دول الخليج من ناحية وبينها وبين الدول صاحبة

المصلحة في الخليج من ناحية أخرى ، حيث يرى الإيرانيون أنهم أصحاب الحق الشرعي منذ أقدم العصور في وضع نظرية الأمن في منطقة الخليج لسببين أحدهما عقائدي يتمثل في نظرية التفويض الإلهي للحاكم الإيراني والثاني جيوبوليتيكي يتمثل في الموقع الجغرافي والوجود السكاني الإيراني المؤثر والضاغط في منطقة الخليج ، وقد أضاف قيام الثورة الإسلامية في إيران واستقرار نظام ولاية الفقيه عمقا لهذين السببين فضلا عن خلق سبب ثالث يتمثل في تصدير الثورة الإسلامية إلى دول المنطقة والشعوب الإسلامية ، وهي عملية أمنية في المقام الأول لأن التصدير زحف إلى الخارج يوقف أي زحف إلى الداخل وثورة مبادأة تمنع الثورة المضادة من النفوذ ، ويستطيع الدارس لنظرية الأمن الإيرانية أن يدرك قيامها على أسلوب المبادأة بما لديها من مبررات عقائدية وتاريخية وجغرافية وبشرية وسياسية ، وتقدم عددا من المعطيات ، أهمها :

١ . إن الجانب العسكري في مفهوم الأمن - رغم كونه الجانب الغالب على مفهوم الأمن لدي حكام المنطقة - لم يعد يلعب دورا أساسيا بعد أزمة الخليج وحرب الخليج الثانية لأن دول المنطقة لا تنتج السلاح بل تستورده والسلاح المستورد لا يحقق أمنا قوميا بل يحقق أمنا مستوردا (١٤٠).

٢ . إن الاتحاد والتضامن والتعاون هو الأساس المتين الذي يمكن أن يقوم عليه أمن المنطقة ويمكن إقامة هذا الاتحاد من خلال القضاء على الخلاف بين دول المنطقة أو على الأقل خفضه إلى أدنى مستوى وخاصة في أربع مسائل هي : الخلاف الحدودي ، الخلاف المذهبي ، الخلاف العرقي ، الخلاف الأيديولوجي (١٤١).

٣ . ضرورة توافر عدة عناصر للمشروع الأمني أهمها الإدراك المشترك لمعني الأمن البعيد المدى ، عدم التعارض مع الأمن العالمي ، التطرق إلى كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، قابلية التطور الطبيعي مع تقدم النظم العالمية (١٤٢).

من الواضح أن معطيات نظرية الأمن الإيرانية بشكل عام تبدو معقولة وممكنة القبول إلا أن الأمر لا يقف عند حد المعطيات بل تتدرج هذه المعطيات بالأسلوب الذي يمكنها من الوصول إلى النتيجة المتناسقة مع الفكر الإيراني لا مع النتيجة الطبيعية لمعطيات النظرية، حيث تركز النظرية على بعدين أساسيين، البعد الأول: هو البعد العقائدي، والبعد الثاني هو: البعد النضالي، أما البعد العقائدي فيهدف إلى تصدير الثورة الإسلامية عن طريق تغيير سلوكيات سكان المنطقة في اتجاه قيم الثورة الإسلامية من خلال منطلقين: الأول هو الالتفاف حول قيم آل البيت وتوجيهات أئمة الشيعة وتنفيذ وصاياهم، والثاني هو دمج السياسة بالعبادات في صياغة جديدة لشكل العبادات وجوهرها وأبعادها. أما البعد النضالي فيهدف إلى إيجاد قوة ذاتية من دول المنطقة بكل إمكاناتها العسكرية والأمنية والاقتصادية بدعم بشري وخبرات إيرانية، وتبدأ نشاطها من خلال رفض المهادنة مع قوي الاستكبار العالمي ومواجهة هذه القوي وعملاتها في الداخل المتمثلين في الرجعيين والسلبيين فضلا عن دعم ومساندة وتمويل الحركات المعادية للاستكبار وعملاته في المنطقة^(١٤٣).

وقد بدأت إيران ممارسة مفردات نظريتها مع أزمة الخليج حيث إنه بمجرد أن صدر إعلان دمشق في (٦/٣/١٩٩١م) عكفت الأجهزة الإيرانية على دراسته وتحليله من خلال منطلق أنه لا يحق لدولتين غير خليجيتين أن تتدخلتا في قضية أمن الخليج، ومن ثم فقد حكمت على إعلان دمشق بالفشل لأنه يتجاهل دولة خليجية لها أكثر من نصف السواحل المطلة على الخليج، ومياها الإقليمية في الخليج أوسع من سائر الدول الخليجية، وتحكم في مضيق هرمز الذي يعتبر المنفذ الوحيد للخليج إلى المحيط^(١٤٤). وتوقف رد الفعل الإيراني تجاه إعلان دمشق عند النقاط الإيجابية محاولا تفنيدها وإظهارها في شكل نقاط ضعف معللا ذلك باعتمادها على ظواهر عرضية وتجاهلها حقائق أساسية، ويمكن إجمال الرد الإيراني في خمس نقاط أساسية، هي:

أولاً: المصادرة على الرؤية المصرية باعتبارها فكرة أمريكية الأصل أو خطة أمريكية خرجت من واشنطن خلال أحداث أزمة الخليج .

ثانياً: أن فكرة المشروع الأمني تنطلق من فكرة وحدة الأمن العربي وهي أسطورة لم يكن لها وجود حقيقي في يوم من الأيام ، وأن القومية العربية قد تفككت بعد انتهاء زعامة مصر بقيادة عبد الناصر ، وأن الصدفه بين تحولات سياسية خاصة وفلسفة خاصة لو تستطع أن تؤدي إلى ظاهرة أو عنصر دائم يفترض أن تستطيع مصر من خلاله أن تدعي لنفسها الزعامة الدائمة للعالم العربي ثم تدعي بعد ذلك حقها السياسي والجغرافي في التواجد العسكري الدائم في منطقة الخليج ، وهو التواجد الذي لا تستطيع مصر أن تؤمن نفقاته ، كما أن الصراع على الزعامة العربية بين مصر وسوريا والسعودية بعد خروج العراق من المنافسة يجعل من الصعب الاتفاق على تفاصيل تنفيذ مثل هذه الفكرة الأمنية .

ثالثاً: أن الرؤية المصرية للأمن في الخليج لا تعكس ضرورة جغرافية سياسية تكون وليدة احتياج استراتيجي معاصر للمنطقة مثل احتياجها لخطة أمنية عربية ضد المطامع الصهيونية ، خاصة أنه يوجد فرق بين منطقة الخليج ومنطقة الشرق الأوسط ، كما لا يوجد تجانس جغرافي في العالم العربي والمنطقة مما يؤكد صعوبة إيجاد وحدة أمن جغرافية ، وبالتالي فإن طبيعة المنطقة الجغرافية تستوجب التقسيم الأمني حسب المناطق المتماثلة بما يعني استقلال خطة أمن الخليج عن خطة الأمن العربي وأن تكون دول كل منطقة مسؤولة عن أمنها ، وهذا بالتالي يؤدي إلى كشف عدم وجود مصداقية للزعم بأن أمن الخليج قضية عربية متصلة بالأمن العربي العام نتيجة لعدم وجود شواهد على أن التوتر في الخليج يمكن أن يؤثر على أمن دول شمال أفريقيا العربية .

رابعاً: أن إعلان دمشق يربط بين تحقيق أمن الخليج وتحقيق السلام في الشرق الأوسط بما يؤكد خروج فكرة أمن الخليج ومشروع السلام من مصدر واحد هو واشنطن، وبالتالي تبعية المشروعين للاستكبار العالمي وأنهما يكونان معا خطة للتسلط الأمريكي على المنطقة، ومما يدل على ذلك إخراج العراق وإيران من الترتيبات الأمنية نظراً لأن العراق لم يتخلص من نظامه الذي مازالت لديه أطماع في الكويت وثروات دول الخليج، ولأن إيران لديها أطماع في البحرين فضلاً عن احتفاظها بجزر الإمارات الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبوموسى، ومن غير المتصور أن يقوم نظام أممي على تجاهل أطراف أساسية لها ثقل واضح في المنطقة، فإذا كان من الجائز استبعاد العراق نظراً لأوضاعه الداخلية وسياسته الحالية فكيف يمكن تجاهل إيران وهي أكثر الدول حرصاً على أمن الخليج حيث أنها ليست لديها منافذ غير الخليج لتصدير بترولها الذي مازال يمثل العمود الفقري للنمو في البلاد، في حين أن السعودية ودول الخليج الأخرى تستطيع إيجاد منافذ أخرى لتصدير النفط خارج الخليج.

خامساً: عدم قدرة المشروع على توفير الحماية الكاملة والأمن الدائم لدول الخليج العربية بدليل أن الكويت وقعت اتفاقية أمنية مع الولايات المتحدة في مبادرة من جانبها لتأمين حماية الكويت مستقبلاً إذا ما استردت العراق قوتها وعادت إليها الرغبة في السيطرة على الكويت^(١٤٥).

وإذا كان الإيرانيون يرفضون إعلان دمشق فإنهم يقدمون تعديلاً يمثل بديلاً لهذا المشروع وهو أن يتكون المشروع من ست دول هي دول مجلس التعاون الخليجي بالإضافة إلى إيران والعراق أي (٦+١+١)، ويؤكد المحلل السياسي مجيد رضائيان بأفضلية هذا الطرح، ويقول: إن السياسة الأمنية لا الأمن السياسي تقتضي أن يقوم اتحاد للدول الإسلامية في المنطقة يتخذ مكانه الطبيعي في النظام العالمي الجديد ويحجم الخلافات في المنطقة^(١٤٦)، ويعتبر الطرح الذي قدمه جواد ظريف وكيل وزارة الخارجية

الإيرانية في اجتماع لجنة نزع السلاح بمقر منظمة الأمم المتحدة في نيويورك حول أمن الخليج تدعيما لهذا المشروع حيث طالب بتشكيل بنية أمنية يشترك ف وضعها جميع دول الخليج، على أن تقوم كل دولة بطرح قضاياها وملاحظاتها حول الأمن والتسلح وخفض نفقاته والاتفاق حول مسألة شراء ونقل الأسلحة الأجنبية لأي من دول المنطقة^(١٤٧).

ثالثا: قضية التسلح النووي:

تعتبر قضية التسلح النووي من القضايا الشائكة في المنطقة الإسلامية، حيث أنه منذ جلبت إسرائيل السلاح النووي إلى المنطقة، وقلبت به موازين القوة فيها، ووضعت في نفوس جيرانها الشك في جدوى الأسلحة التقليدية كقوة ردع حقيقية خاصة في الظروف المتقلبة في المنطقة، باتت الرغبة واضحة في عدد من دول المنطقة في امتلاك السلاح النووي، وقد شجعها علي ذلك أن عددا من دول العالم الثالث قد استطاع تحقيق هذا الإنجاز، فرغم محاولات الغرب منع تسرب هذا السلاح ومكوناته إلى دول العالم الثالث إلا أنها نجحت في اختراق هذا الحصار خاصة من البوابة السوفيتية، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وتمكن الأزمة الاقتصادية من روسيا ودول الكومنولث الجديد المستقلة حديثا عن الاتحاد السوفيتي اتسعت سوق بيع مكونات الأسلحة الذرية وأصبح بالإمكان حصول أية دولة لديها القدرة على الشراء أو المقايضة على هذه المكونات، وإذا كانت دول عربية مثل العراق وليبيا قد سعت لامتلاك هذه القدرة إلا أنه قد أمكن احتواؤها بطريقة أو بأخرى من جانب الغرب، أما باكستان فليس من المرجح أن يصل تأثير امتلاكها للأسلحة النووية إلى منطقة الصراع العربي الإسرائيلي، ومن ثم فقد أصبحت محاولات إيران امتلاك هذه الأسلحة بعد امتلاكها الصواريخ البعيدة المدى من طراز شهاب (١ و٣ و٢) هي التي تشكل مصدر إزعاج لإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية والدول صاحبة المصلحة في منطقة الشرق الأوسط، رغم أن جهودها في هذا المجال لا تماثل في حجمها جهود العراق مثلا إذ إن إيران تفتقر إلى الموارد لتمويل مثل شراء المعدات من

مصادر عالمية كما أن واقعها الثوري غير المستقر قد أعاق حصولها على التكنولوجيا المتطورة^(١٤٨). وقد انعكس التخوف من التهديد الإيراني في التقارير الرسمية الصادرة عن وزارة الدفاع الأمريكية حيث جاء في إحداها: إن ما يبعث على قدر أكبر من القلق هو تصميم إيران الواضح على تطوير أسلحة الدمار الشامل التي تشمل الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية، وهذا الأمر ينطوي على مضاعفات خطيرة على استقرار المنطقة^(١٤٩).

لقد طورت إيران قوتها الصاروخية بعيدة المدى منذ حربها مع العراق فاستوردت العديد من أنظمة صواريخ أرض-أرض مثل صاروخ سكود بي ونسخا معدلة منه صنعت في كوريا الشمالية، وصاروخ سي اس اس ٨ صيني الصنع، بالإضافة إلى القذائف الصاروخية مثل عقاب وشاهين ونازيات، وحصلت إيران على دعم واسع من الصين في مجال تزويدها بالصواريخ ومساعدتها في تطوير تكنولوجيا الصواريخ وقدرات الإنتاج، وذكرت بعض التقارير أن إيران تملك مصنعين على الأقل لتجميع الصواريخ والمقذوفات وميدانا لاختبار الصواريخ ومجمعا للمراقبة ومجموعة واسعة من المرافق الصغيرة للإصلاح وتصميم القطع^(١٥٠). إن قدرات إيران الحالية في الحرب الكيماوية غير معروفة على وجه الدقة ولكن من الواضح أنها تملك قدرة كبيرة على إنتاج الأسلحة الكيماوية في حدود مائة طن سنويا بما في ذلك غاز الخردل وغاز الخردل المغبر وغاز الفوسجين وعوامل تسميم الدم، وهذا ما يمنح إيران القدرة على خوض حرب كيماوية وشن غارات جوية محدودة طويلة المدى مستخدمة القنابل الكيماوية^(١٥١). كما يبدو أن إيران قد طورت الأسلحة البيولوجية منذ عام (١٩٨٢م)، والأسلحة البيولوجية لا تقل فتكا عن الأسلحة النووية صغيرة الحجم، وهي موضع مراقبة المخابرات المركزية الأمريكية التي تبدي قلقا أكبر تجاه الأسلحة النووية، يقول وارن كريستوفر وزير الخارجية الأمريكية السابق: تتبع إيران فيما يتعلق بالتنظيم والبرامج والمشتريات والأنشطة السرية

الطريق التقليدي في امتلاك الأسلحة النووية الذي سارت عليه جميع الدول التي سعت للحصول على السلاح النووي، وتضوي جهود إيران لامتلاك الأسلحة النووية أيضا على أخطار هائلة، وكل عضو مسؤول في المجتمع الدولي له مصلحة في إفشال هذه الجهود ولا مجال للتهاون، وتذكروا العراق^(١٥٢). يعتقد معظم الخبراء الغربيون أن إيران قد أحييت خلال الحرب العراقية الإيرانية برنامج الأسلحة النووية الذي كانت قد بدأت في عهد الشاه وأن إيران نفذت كثيرا من الأنشطة المتعلقة بتصميم الأسلحة ودورة الوقود اللازمة لصنع سلاح نووي، كما بدأت إيران الاهتمام بفصل النظائر المشعة بالليزر، ووقعت مع باكستان اتفاقية للتعاون النووي عام (١٩٨٧م) ومع الصين عام (١٩٩٠م)، كما أجرت إيران تجارب في تخصيب اليورانيوم وتكنولوجيا قوة الطرد المركزية في جامعة شريف للتكنولوجيا، وتقوم إيران بتشغيل مفاعل يورانيوم عالي التخصيب في جامعة طهران، لكن ليس هناك ما يؤكد أن شراء إيران للمفاعلات النووية هو جزء من جهودها لامتلاك أسلحة نووية، حيث إن إيران لم تعترف بصورة علنية على الإطلاق بالجهد الذي تقوم به في مجال الأسلحة النووية، كما أن لجان التفتيش الدولية مع زيارتها المستمرة لم تؤكد شيئا من ذلك.

رابعا: قضية الخلافات الحدودية:

تعتبر المنطقة الإسلامية من أكثر المناطق التي توجد بها خلافات على الحدود في العالم، ولعل السبب في ذلك هو موقع المنطقة الذي جعلها معبرا بين الشرق والغرب، وإمكاناتها الطبيعية التي جعلتها مطمعا للقوي الاستعمارية في الشرق والغرب، والتشكيلات السكانية التي سمحت بالتحزب والتعصب بين القوميات المتعددة، مما جعلها تتعرض للتقسيم وإعادة التشكيل أكثر من مرة وما يكتنف ذلك من الاستغلال وسوء السياسة وقهر الشعوب وتفتيت الأسر والقبائل وعزل الشعوب، وأدى بالتالي إلى الخلاف على الحدود، حيث لا تجد بلدين في المنطقة إلا وبينهما خلاف على الحدود

الفاصلة بينهما سواء في البر أو البحر ، وهو ما جعل المنطقة دائمة التوتر وتاريخ متصل من الصراع والنزاع ، وقد أصبحت الخلافات على الحدود بمثابة قنبلة موقوتة تنفجر عند أقل سبب أو خلاف سياسي أو ضغط خارجي أو مؤامرة أجنبية .

تشير الوثائق إلى أن نهاية الحرب العالمية الأولى قد وضعت منطقة الشرق الأوسط على قائمة أولويات الدول الكبرى حيث عقدت عدة اتفاقات تنص على تقسيم المنطقة بغض النظر عن أوضاعها الحدودية السابق ، ولعل اتفاق سايكس - بيكو خير دليل على مثل هذا الاتجاه ، كما تعتبر اتفاقات بريطانيا مع حكام الخليج حلقة أخرى في هذه السلسلة ، حتى اتفاقات استقلال دول المنطقة كانت عاملاً أساسياً في اشتعال الخلاف على الحدود بين دول المنطقة ، وتمثلت أهم هذه الخلافات في النقاط التالية :

١ . الخلاف بين العراق وإيران على الحدود التي رسمتها عدة اتفاقات أهمها اتفاق (١٦٣٩م) بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، اتفاقية أضرورم عام (١٨٤٧م) بين تركيا وإيران ، اتفاقات سنوات (١٩١٣ - ١٩٣٧ - ١٩٧٥م) بين إيران والعراق ، ثم إبطال معاهدة (١٩٧٥م) من جانب العراق مع قيام الحرب العراقية الإيرانية ، ثم العودة إليها بعد الحرب .

٢ . الخلاف بين المملكة العربية السعودية وكل من عمان وإمارة أبوظبي على منطقة البوريمي الذي امتد حتى عام (١٩٥٥م) ، ثم قامت بريطانيا بإرسال قوات إلى المنطقة ورسمت خطاً للحدود من ناحية أبوظبي .

٣ . الخلاف بين أبوظبي وعمان على واحة البوريمي ، وقد رسمت الحدود بحيث تقع ست قري داخل حدود أبوظبي وثلاث قري داخل حدود عمان .

٤ . الخلاف بين العراق والكويت بعد استقلال الكويت عام (١٩٦١م) حيث ظلت العراق تؤكد على أن الكويت جزء من محافظة البصرة منذ عهد الدولة العثمانية ، وقد تصدت قوات الجامعة العربية وبريطانيا لمحاولات العراق ضم الكويت عام

- (١٩٦١م)، كما أعطي اتفاق عام (١٩٣٢م) جزيرتي وره وبوبيان إلى الكويت في حين ظل العراق يطالب بهما، وقد قام العراق بعدة محاولات لضم الكويت أو أجزاء منها أعوام (١٩٧٣ و ١٩٧٤ و ١٩٧٦م) وفي الثمانينيات من القرن الماضي .
- ٥ . الخلاف على الحدود بين مصر والسودان على مناطق وادي حلفا وحلايب وشلاتين حيث كانت السودان ترى أن منطقة وادي حلفا قد انفصلت تماما عن مصر عام (١٨٨٩م) في أن مصر كانت تري أنها السودان حصلت على تسهيلات إدارية فقط وليس حق الإدارة والحكم، كما بدأ الخلاف على حلايب وشلاتين منذ تأسست عام (١٩٠٢م) .
- ٦ . الخلاف بين العرب واليهود على أرض فلسطين قبل وبعد قرار التقسيم وقيام إسرائيل .
- ٧ . الخلاف بين تركيا واليونان حول جزيرة قبرص وقد أدّى الغزو التركي للجزيرة إلى تقسيمها بين القبارصة الأتراك والقبارصة اليونانيين .
- ٨ . الخلاف بين السعودية والكويت على المنطقة المحايدة بعد ظهور النفط فيها عام (١٩٢٢م)، ثم تصدير نفطها عن طريق ممثلين للطرفين عام (١٩٥٤م) ، ثم تقسيمها عام (١٩٦٦م)، ثم وضع علامات الحدود عام (١٩٦٩م) .
- ٩ . الخلاف بين قطر والبحرين حول جزر حوار وفشت الديبل والذي وصل إلى حد المواجهة العسكرية، ومن حسن الحظ أن هذا الخلاف قد حسم بقبول الطرفين قرار محكمة العدل الدولية في هذا الشأن .
- ١٠ . الخلاف بين إيران والإمارات العربية حول جزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى .
- ١١ . الخلاف بين أثيوبيا والصومال حول منطقة أوجادين والذي أدى إلى قيام حرب بينهما عام (١٩٧٦م) وتدخل القوى الكبرى لمساعدة الطرفين .
- ١٢ . الخلاف بين السعودية واليمن حول مناطق مأرب وعسير ونجران وجيزان وجوف الربع الخالي وحضرموت (١٥٣) .

فضلا عن الخلافات الأخرى التي يمكن اعتبارها مشاكل إقليمية مثل : احتلال إسرائيل لجزء من لبنان (مزارع شبعا) ، الحرب الكردية في شمال العراق وشرق تركيا ، النزاع بين تركيا والعراق وسوريا على مياه نهر الفرات ، النزاع بين لبنان وسوريا وإسرائيل على مياه نهر الأردن ، إضافة إلى الخلاف على المياه الإقليمية بين دول الخليج مثل الحدود البحرية بين الإمارات العربية المتحدة وعمان في الخليج وبحر عمان وأجزاء من أراضي رأس الخيمة والشارقة ، الخلاف بين إيران والعراق على المياه الإقليمية في شط العرب ، الخلاف بين الإمارات العربية وقطر حول جزيرة حائل وخور العبد وعدة جزر أخرى ، الخلاف بين إيران والكويت على الحدود البحرية ، الخلاف بين إيران والإمارات حول الحدود البحرية ، الخلاف بين الإمارات والسعودية حول الحدود البحرية ، الخلاف بين البحرين وقطر حول الحدود البحرية ومنطقة الزبارة ، الخلاف بين السعودية وقطر حول الحدود البحرية في خليج سلوا وخور العبد ، الخلاف بين السعودية والكويت حول الحدود البحرية وجزر أم المرادم وقارو ، الخلاف بين العراق والكويت حول الحدود البحرية (١٥٤) .

وقد تطورت أحداث هذه النزاعات والخلافات بشكل إيجابي تارة مما أدى إلى حل بعضها سلميا ، وبشكل سلبي تارة أخرى مما أدى إلى الصدام المسلح أحيانا والصراع السياسي أحيانا أخرى وبقاء النزاع بلا حل ، ولقد كانت النزاعات العربية الإسرائيلية أكثر هذه الصراعات دموية وخلقت قضية غير قابلة للحل السلمي ، وهو ما عرضناه سابقا ، أما النزاعات العراقية الإيرانية فقد تطورت بشكل عنيف أدى إلى حرب استمرت ثمانية سنوات ، حيث تم اختراق معاهدة (١٩٣٧م) أكثر من مرة مما جعل إيران تقوم بإلغائها من جانب واحد عام ١٩٦٨م (١٥٥) ، وقد تأزمت العلاقات بين الدولتين حتى تم قطع العلاقات السياسية بينهما عام (١٩٧١م) ، ثم أعيدت العلاقات بينهما عام (١٩٧٣م) ، وعلي هامش انعقاد مؤتمر أوبك في الجزائر عام (١٩٧٥م) وبوساطة هوارى بومدين

رئيس الجزائر عقد اجتماع بين شاه إيران و صدام حسين نائب الرئيس العراقي ، وأعلن اتفاق من أربعة بنود ينص على تثبيت الحدود البرية بين الدولتين وفقاً لبروتوكول القسطنطينية عام (١٩١٣ م) ، تثبيت الحدود البحرية على أساس التالوج (وسط النهر والخط الوهمي المار في أعماق النقاط الصالحة للملاحة)^(١٥٦) ، وبناء على هذه الاتفاقية تم وضع برنامج للتعاون على تنفيذها وتم توقيعه في بغداد في ٢٦ / ١٢ / ١٩٧٥ م ، وقد تحسنت على إثره العلاقات بين البلدين ، إلا أن الوضع تغير عندما قامت الثورة الإسلامية في إيران وتولي الخميني زعامة الثورة والذي لم يكن يثق في القيادة العراقية التي ضابقتها في منفاه ثم أجبرته على ترك العراق بسبب نشاطه السياسي ، وطالب بتصدير الثورة الإسلامية إلى العراق ، كما وقعت عدة مناوشات على الحدود بين القوات العراقية وحراس الثورة الإسلامية تطورت إلى الحد الذي أعلن معه الرئيس العراقي صدام حسين إلغاء معاهدة (١٩٧٥ م) من جانب واحد وذلك في (٦ / ١ / ١٩٨٠ م) ، وطالب بتعديل اتفاق الجزائر حول شط العرب لأن العراق كان مضطراً لقبول بعض بنوده قسراً بغية إنهاء حرب الاستنزاف مع الأكراد ، كما طالب صدام حسين بانسحاب إيران من الجزر العربية في الخليج أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى^(١٥٧) . وقد اشتعل النزاع وامتد في حرب استمرت ثماني سنوات (٨٠ - ١٩٨٨ م) تبادل فيها الطرفان الهزيمة والنصر إلى أن توقفت الحرب بعد قبول إيران قرار الأمم المتحدة رقم ٥٩٨ ، واستقرت قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام على الحدود بين البلدين حتى هدأت الأوضاع ، وعاد الطرفان في محادثاتهما إلى تنفيذ اتفاق الجزائر عام (١٩٧٥ م) .

أما فيما يتعلق بالخلافات على الحدود في منطقة الخليج العربي فترجع أساساً إلى المفهوم الغريب الذي يكتنف طبيعة الحدود في المنطقة ، فالتحرك الدائم للقبائل والصحراء القاحلة بظروفها الطبيعية والمناخية والتي تمتد آلاف الأميال يجعلان من الصعب رسم حدود دقيقة ، إلا أن عرب الجزيرة بما لهم من خصائص مميزة ومع

تأسيسهم مجلس التعاون لدول الخليج العربية قد حلوا كثيرا من المشاكل الحدودية بطريقة أصولية على نحو جيد ، وقد وقعت دول الخليج على اتفاق الحدود رقم (٨٣٣) الذي أقره مجلس الأمن في (٢٧ مايو عام ١٩٩٣ م).

خامسا : قضية عولمة المنطقة الإسلامية :

تحتل قضيتا الشأن الوطني والشأن الدولي أولوية هامة على جدول الاجتهادات الراهنة للفكر السياسي خاصة في المنطقة الإسلامية لبلورة حدود ما هو مشترك وما هو متعارض بينهما ، ولتحديد كيفية التعامل مع ما هو إيجابي وما هو سلبي ، وبينما يرجع البعض ظاهرة بروز الشأن الدولي على حساب الشأن الوطني إلى نتائج حرب الخليج عام (١٩٩١م) التي شنها التحالف الدولي ضد العراق بعد غزوه للكويت عام (١٩٩٠م) ، يرده البعض الآخر إلى منتصف الثمانينيات متجليا في اتجاه فقهاء القانون الدولي إلى بلورة مفهوم المواطن العالمي ، وتفجر قضية العولمة صاعا حادا بين اتجاهين في منطقة الشرق الأوسط ، أحدهما يؤكد على أن العولمة لا تتقيد بالحدود الوطنية ويمكنها التغلغل في أي مجتمع من العالم ، وأنها تحقق توحيد وتعبئة الجماعات والمؤسسات في اتجاه عالمي واحد ، وتعارض هذه المقولة مع الاتجاه الآخر وهو المحلية أو الوطنية ومن محاولة الدولة الانكماش داخل حدودها في مختلف النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتكنولوجية ، وبعبارة أخرى التمسك بالذات الموجودة في المجتمع . ويؤكد أصحاب الاتجاه الأول على أنه سيكتب في النهاية الانتصار والغلبة على الاتجاه الانكماشى للمحلية ، فالعولمة تحبذ فكرة توسيع الحدود والسماح بحرية انتقال الأفراد ورأس المال والسلع والتكنولوجيا والاستثمار ، وسيادة نظريات الاعتماد المتبادل والتفوق النسبي الاقتصادي ، والشركات المتعددة الجنسيات والعبارة للقارات ، وهي تطرح في مجال السياسة قيما معينة في الحكم وفي مجال الثقافة مفاهيم الثقافة العالمية العابرة للقوميات لفرضها على الدول المختلفة^(١٥٨).

ويطرح عدد من المفكرين المسلمين السيادة الوطنية في مواجهة العولمة وتختلط الأوراق في هذا الطرح فليس هناك من يستطيع أن يدعي اليوم بأن مبدأ السيادة الوطنية المطلق ومبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول مازال على عذريته ونقائه الذي استقر على مدى القرون ضمن أساسيات العلاقات الدولية والقواعد التي تحكمها، ولأن ما طرأ من متغيرات تفرض التعاون المتبادل بين الدول من أجل المصلحة المشتركة، ثم ما طرأ من متغيرات حول حق الدولة وحق الفرد وأنه بقدر حماية حق الدولة تكون حماية حق الفرد، وأن التشابك الحضاري بين الشعوب فرض لها حقها في أن يكون لها موثيقها التي تحكم وتحمي هذه الحقوق، ثم إن التنظيم الدولي بأوضاعه الحاضرة من خلال الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة وما تضمنته المواثيق وارتضته الدول الأعضاء من قواعد منظمة وما صدر من قرارات، كل ذلك وضع القيود على هذه الحقوق السيادية التي لم تعد مطلقة. من جهة أخرى فإنه في الوقت الذي حدث فيه هذا التطور الجوهري في هذه القواعد القانونية الدولية تحرك المجتمع الدولي في اتجاه ما أصبح يعرف بالعولمة وهي بالقطع مسيرة متحركة ومتطورة وتزداد في أبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية يوماً بعد يوم، وهي بهذه الصورة تتخطى بالفعل الحدود الجغرافية للدول، وبالتالي لا بد أن تفرض عليها قواعد جديدة في التعامل الدولي، ورفض هذه القواعد يؤدي بالضرورة إلى عزلة سياسية واقتصادية وثقافية محصلتها تخلف الدول عن ركب التطور والتنمية وانكماشها داخل حدودها دون أن يكون لها حق وقدرة على جذب الاستثمارات أو الدخول في الأسواق أو المشاركة في النظام المالي الدولي أو الحصول على التكنولوجيا المتطورة^(١٥٩). ويقول الباحث حسن الشريف في ندوة العرب والعولمة: إن التحدي الحقيقي ليس مواجهة عولمة الأدوات التقنية للمعلومات وإنما مواجهة عولمة المضمون المتداول في هذه الأدوات، ويضع الباحث يده على جوهر المسألة عندما يؤكد أن المواجهة هنا هي مواجهة حضارية شاملة، ويمكن أن نلمس أن هذه العولمة أحدثت تغييراً رئيسياً في واقع ممارسة السيادة الوطنية وفي تعريف حدود هذه السيادة كما أدت

إلى تغيير في أنماط العلاقات الدولية وفي تعريف العناصر التي تحكم هذه العلاقات ، بل أدت إلى تغيير الأولويات والشروط التي يجب أن تبني على أساسها كل الدول بكافة مؤسساتها موافقها الوطنية لكي تتمكن من الانخراط في العولمة وعدم السقوط في هاوية التهميش^(١٦٠).

لاشك أن العولمة إطار يحيط ويؤثر ويحكم كل الظواهر السياسية والاقتصادية والثقافية للجماعات البشرية أمما ودولا على ظهر الكرة الأرضية ، وتلعب دورا مؤثرا وأحيانا حاسما في حركة هذه الظواهر الجزئية ، بل هي تفرزها في بعض الأحوال لحسابه الخاص وباتفاق المصالح فيما بينها ، أي أن المصلحة الكونية أو العالمية تفرز في محصلاتها أحيانا دولا تبرر قيامها إلا أنها دول عازلة بين القوي الكبرى سواء لضمان أشكال من الشرائط الحدودية المتنازع عليها عند التقسيم أو لخلق جسور اقتصادية وثقافية أو مالية لم يكن من الممكن القفز عليها أو إذابتها ، مثل الدول العازلة في وسط أوروبا وفي آسيا ، أما بالنسبة إلى إسرائيل فإن الغرب بقواه الاستعمارية المختلفة اتفق على زرعها في قلب منطقة الشرق الأوسط وجعلها قلعة غربية متقدمة تسمح إقامتها بانسحاب القوات العسكرية من بلدان المنطقة وفي الوقت نفسه تبقى على نفوذها . وهناك إجماع الآن على أن إسرائيل رغم قيامها منذ أكثر من خمسين عاما لم تشكل بعد دولة أمة ، كما بينت تجارب السنين الماضية أن القيادات الصهيونية الإسرائيلية حرصت دما على أن تحتمي بقوة عالمية كبرى بحيث كانت إسرائيل منذ بدايتها تابعة للقوي العظمى شكلا ومضمونا مما يجعلها غير مستقلة سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، ذلك لا يمنع محاولات القيادة الإسرائيلية للإفلات من التبعية المنفردة أو محاولة الانتقال من تبعية غربية إلى تبعية غربية أخرى ، وللعولمة تأثيرها الخاص على إسرائيل لأنها بسبب هذا التطور العالمي ستجد نفسها أمام أحد خيارين : إما أن تبقى على شكلها الغربي الذي يتطور الآن نحو مجتمع دولي موحد يتعارض مع الاستقلالية الذاتية السيادية الحرة لتقترب من شكل الدولة الأمة

التي بدأت بدورها تفقد حدودها السياسية والسيادية وتخضع للعولمة في التجارة وحركة البشر والنقد كما سبق أن خضعت للعالمية الإعلام والمعلومات والمال ، وإما أن تنكفي ويجري عليها ما يجري على المجموعات البشرية الأخرى في العالم التي يهددها هذا التطور فتعود لتمسك بعواطفها السياسية والثقافية والعقائدية فترتد بذلك إلى أفكارها الصهيونية العنصرية بما في ذلك فكرة إسرائيل الكبرى ، لكنها في هذه الحالة سوف تجد نفسها في مواجهة منافسة ضارية من الدول العربية المحيطة وستجد نفسها في هذا السباق التنافسي خاضعة لضغوط خارج إرادتها .

أظهر مؤتمر الدوحة الاقتصادي العالمي الذي هو بكل المقاييس نموذجاً للأطر العالمية التي يفرزها عالم المال والمعلوماتية والتكنولوجيا أي عالم العولمة أنه إطار يجمع بين الحكومات ومجموعات رجال الأعمال ، وأنه إفراز لعملية مدريد للتسوية التفاوضية للصراع العربي الإسرائيلي . وقد أدى موقف إسرائيل وسياساتها بعد سقوط بيريز صاحب فكرة السوق الشرق أوسطية وبعد توقف عملية التسوية وبسبب مواجهة مصر لمحاولة إسرائيل فرض وجودها وقيادتها لهذا الإطار إلى فشل المؤتمر بمقاطعة العرب له .

الهوامش

- (١) سورة البقرة آية ١٤٣ .
- (٢) سورة آل عمران آية ١١٠ .
- (٣) محمود صدري : حوار الحضارات ضرورة عصرية : همشهري في ٤/١/٢٠٠١م .
- (٤) السيد يسين : حوارات حضارية : الأهرام في ٢٨/٦/٢٠٠١م .
- (٥) السيد يسين : دراسة حالة لحوار الحضارات : الأهرام في ٥/٧/٢٠٠١م .
- (٦) ناصر فكوهي : القومية وحوار الحضارات : فصل المفهوم الجديد للقومية . همشهري في ١٠/٥/٢٠٠١م .
- (٧) السيد يسين : حوارات حضارية : الأهرام في ٢٨/٦/٢٠٠١م .
- (٨) صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٨/٦/٢٠٠١م ، تحت عنوان : في مؤتمر الأمم المتحدة لمحاربة الإيدز .
- (٩) السيد يسين : حوار الحضارات في مواجهة ما بعد الحداثة : الأهرام في ١٤/٦/٢٠٠١م .
- (١٠) السيد يسين : الصراع الثقافي في حوار الحضارات : الأهرام في ١٢/٧/٢٠٠١م .
- (١١) سورة البقرة آية ٣٤-٣٥ .
- (١٢) سورة فاطر آية ٣٩ .
- (١٣) سورة البقرة آية ٢١٣ .
- (١٤) سورة يونس آية ١٩ .
- (١٥) سورة الأنبياء آية ٩٢ .
- (١٦) سورة الحجرات آية ١٣ .
- (١٧) سورة الطور آية ٢١ .

- (١٨) سورة المرسلات آية ١٦-١٧ .
- (١٩) سورة آل عمران آية ١٠٣ .
- (٢١) سورة آل عمران آية ٦٤ .
- (٢١) سورة النساء آية ٥٩ .
- (٢٢) سورة الشورى آية ١٠ .
- (٢٣) سورة الحديد آية ٢٥ .
- (٢٤) سورة البقرة آية ٢٠٨ .
- (٢٥) سورة الحجرات آية ٩ .
- (٢٦) سورة آل عمران آية ١٠٤ .
- (٢٧) سورة هود آية ٨٨ .
- (٢٨) سورة المائدة آية ٢ .
- (٢٩) سورة المائدة آية ١ .
- (٣٠) سورة النساء آية ٥٨ .
- (٣١) سورة النساء آية ١٣٥ .
- (٣٢) سورة المائدة آية ٨ .
- (٣٣) سورة النحل آية ٩١ .
- (٣٤) سورة البقرة آية ١٣٦ .
- (٣٥) سورة آل عمران آية ٨٤ .
- (٣٦) سورة هود آية ١١٦ .
- (٣٧) سورة الأعراف آية ١٦٤ .
- (٣٨) سورة الفتح آية ٢٣ .
- (٣٩) سورة النساء آية ٤١ .
- (٤٠) سورة النحل آية ٨٤ .

- (٤١) سورة النحل آية ٨٩ .
- (٤٢) سورة القصص آية ٧٥ .
- (٤٣) سورة العنكبوت آية ٤٦ .
- (٤٤) سورة الكهف آية ٥٤ .
- (٤٥) سورة إبراهيم آية ٢٤-٢٧ .
- (٤٦) سورة النحل آية ١٢٥ .
- (٤٧) سورة الإسراء آية ٥٣ .
- (٤٨) سورة الفرقان آية ٦٣ .
- (٤٩) سورة العنكبوت آية ٤٦ .
- (٥٠) سورة فاطر آية ١٠ .
- (٥١) سورة الأحزاب آية ٧٠ .
- (٥٢) سورة الرحمن آية ٦٠ .
- (٥٣) سورة النساء آية ٨٦ .
- (٥٤) سورة الفرقان آية ٣٣ .
- (٥٥) سورة العنكبوت آية ٤٣ .
- (٥٦) سورة الروم آية ٥٨ .
- (٥٧) سورة البقرة آية ٢٦ .
- (٥٨) سورة الأنبياء آية ٢٤ .
- (٥٩) سورة الشورى آية ١٦ .
- (٦٠) سورة النمل آية ٢٨ .
- (٦١) سورة إبراهيم آية ٤ .
- (٦٢) سورة الممتحنة آية ٦، ٧ .
- (٦٣) سورة ق آية ٣٦، ٣٧ .

- (٦٤) سورة الزمر آية ١٨ .
- (٦٥) سورة الزمر آية ٥٥ .
- (٦٦) سورة الذاريات آية ٥٥ .
- (٦٧) سورة البقرة آية ٧٥ ، ٧٦ .
- (٦٨) سورة البقرة آية ٣٩ .
- (٦٩) سورة آل عمران آية ٦٥ ، ٦٦ .
- (٧٠) سورة الأنعام آية ١٤٨ .
- (٧١) سورة الرحمن آية ١-٤ .
- (٧٢) سورة العلق آية ١-٥ .
- (٧٣) سورة البقرة آية ١٤٣ .
- (٧٤) سورة البقرة آية ٢٠٤-٢٠٦ .
- (٧٥) سورة البقرة آية ٢٨٢ .
- (٧٦) سورة الطور آية ٢ ، ٣ .
- (٧٧) سورة القمر آية ٥٢ ، ٥٣ .
- (٧٨) سورة القلم آية ١ .
- (٧٩) سورة البقرة آية ٢٧٢ .
- (٨٠) سورة البقرة آية ٢٥٦ .
- (٨١) سورة الحج آية ٦٨ ، ٦٩ .
- (٨٢) سورة النمل آية ٧٠ .
- (٨٣) سورة هود آية ١١٨ ، ١١٩ .
- (٨٤) سورة فاطر آية ٢٨ .
- (٨٥) سورة فصلت آية ٤٥ .
- (٨٦) سورة الزخرف آية ٦٥ .

- (٨٧) سورة النساء آية ١٤٠ .
- (٨٨) سورة الأنعام ٦٨ .
- (٨٩) سورة الأنعام آية ٩٣ .
- (٩٠) سورة العنكبوت آية ٦٨ .
- (٩١) سورة النساء آية ١٠٧ .
- (٩٢) سورة الأنفال آية ٥٨ .
- (٩٣) سورة النساء آية ١٤٨ .
- (٩٤) سورة القصص آية ٥٥ .
- (٩٥) سورة لقمان آية ٦ .
- (٩٦) سورة البقرة آية ١٨٨ .
- (٩٧) سورة البقرة آية ١١٣ .
- (٩٨) سورة البقرة آية ٤٢ .
- (٩٩) سورة البقرة آية ١٩٠ .
- (١٠٠) سورة المائدة آية ١٠٤ .
- (١٠١) سورة الأنعام آية ١٠٨ .
- (١٠٢) سورة لقمان آية ١٩ .
- (١٠٣) سورة الحجرات آية ١١ ، ١٢ .
- (١٠٤) سورة النجم آية ٣٢ .
- (١٠٥) سورة القمر آية ١٧ .
- (١٠٦) سورة ق آية ٢٧ ، ٢٨ .
- (١٠٧) سورة يونس آية ٦٥ .
- (١٠٨) سورة الأنعام آية ٣٣-٣٥ .
- (١٠٩) سورة الحج آية ١٥ .

- (١١٠) سورة يس آية ٧٦ .
- (١١١) سورة المزمل آية ١٠ .
- (١١٢) سورة القمر آية ٥٠ .
- (١١٣) سورة البقرة آية ١١٤ .
- (١١٤) سورة البقرة آية ٢٥٦ .
- (١١٥) سورة المائدة آية ٢ .
- (١١٦) سورة البقرة آية ٢٠٨ .
- (١١٧) سورة البقرة آية ٢٧٥ ، ٢٧٦ .
- (١١٨) سورة آل عمران آية ١٣٠ .
- (١١٩) سورة النساء آية ١٦١ .
- (١٢٠) سورة آل عمران آية ١٨٧ .
- (١٢١) سورة القصص آية ٧٨ .
- (١٢٢) سورة النور آية ١٥-١٩ .
- (١٢٣) سورة المائدة آية ٢ .
- (١٢٤) لطفي الخولي : رؤية نقدية لأيدويولوجيا القومية العربية . أوراق الشرق الأوسط يونيو ١٩٩٦ م ، ص ٣٥-٤٨ .
- (١٢٥) عبد الرحمن صبري : مرتكزات التعاون الإقليمي . أوراق الشرق الأوسط يناير ١٩٩٨ م ، ص ٤٦-٤٨ .
- (١٢٦) صلاح بسيوني : عناصر القوة والتحديات . أوراق الشرق الأوسط يونيو ١٩٩٦ م ، ص ١٤-١٩ .
- (١٢٧) المصدر السابق .
- (١٢٨) صحيفة كيهان في ١٧/١/١٩٩٣ م .
- (١٢٩) صحيفة كيهان في ٣٠/١/١٩٩٣ م .

- (١٣٠) حيدر مولانا : دور إيران في أمن المنطقة . صحيفة اطلاعات ٩/٧/١٩٩٥ م .
- (١٣١) جمهوري إسلامي ١٤/٢/١٩٩٥ م .
- (١٣٢) كيهان ٢٦/١٢/١٩٩٢ م .
- (١٣٣) اطلاعات ١٦/١/١٩٩٦ م .
- (١٣٤) لويس توماس : العلاقات الداخلية والخارجية التركية . الترجمة العربية ص ٢٥٧ ومابعدها . القاهرة [د.ت] .
- (١٣٥) المصدر السابق ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .
- (١٣٦) عبدالرحمن صبري : مركّزات التعاون الإقليمي . أوراق الشرق الأوسط . القاهرة ١٩٩٨ م ، ص ٤٨ .
- (١٤٧) خطاب مارتن انديك المدير العام لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا في مجلس الأمن القومي الأمريكي أمام معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى في ١٨ مايو ١٩٩٣ م .
- (١٣٨) نبيل زكي : الرؤية الدولية ، الاتجاه نحو العموميات . أوراق الشرق الأوسط يونيو ١٩٩٦ م ، ص ٢٨ .
- (١٣٩) محبوب عمر : تطبيقات في الصراع العربي الإسرائيلي . أوراق الشرق الأوسط يونيو ١٩٩٨ م ، ص ٣٩ ومابعدها .
- (١٤٠) من دراسة أعدها الأدميرال على شمشخاني وزير الدفاع الإيراني ونشرتها كيهان في ٢٥/٩/١٩٩٣ م .
- (١٤١) من الدراسة التي أعدتها وزارة الدفاع ونشرتها مجلة السياسة الدفاعية عدد شتاء عام ١٩٩٣ م .
- (١٤٢) من الدراسات التي قدمت لندوة الخليج التي عقدها مركز الدراسات السياسية والدولية بوزارة الخارجية الإيرانية ونشرتها صحيفة كيهان في يناير ١٩٩١ م .

- (١٤٣) من الدراسة التي وضعها كاظم قاضي زاده حول الخطوط العامة للفكر السياسي للإمام ونشرتها صحيفة جمهوري إسلامي في ١/٨/١٩٩٤ م.
- (١٤٤) سيد علي قادري : مشروع إعلان دمشق . صحيفة كيهان في ٢٩/١/١٩٩١ م .
- (١٤٥) المصدر السابق .
- (١٤٦) صحيفة كيهان في ٢٦/١٢/١٩٩٢ م .
- (١٤٧) صحيفة جمهوري اسلامي في ٢١/٤/١٩٩٤ م .
- (١٤٨) أنتوني كوردزمان : القدرات العسكرية الإيرانية . الترجمة العربية لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، ص ١٠٠ .
- office of the assistant secretary of defense for international security (١٤٩)
affairs : U.S.securityfor the middle east , Washington , may 1995 ,pp
16-17.
- middle east defense news 21/12/1992 iran ballistic missile program (١٥٠)
vol .6 . no.6 . p559 .
- journal of commerce 6/1/1993 .p. 5. (١٥١)
- Washington post 17/4/1995. p . A12 (١٥٢)
- (١٥٣) علي شمخاني : ضبط التسليح . مركز الدراسات السياسية والدولية . طهران ١٣٧٢ هـ . ش .
- (١٥٤) أصغر جعفر ولداني : الحدود غير المرئية في الخليج . مركز دراسات الخليج . طهران ١٣٧٣ هـ . ش . ص ١٧٩ .
- (١٥٥) نكرش به قرار داد ١٩٧٥ م . مجله اميد انقلاب . ١٥/١١/١٣٦٧ هـ . ش .
- (١٥٦) محفوظات وزارة الخارجية الإيرانية . عهد نامه ١٩٧٥ م .
- (١٥٧) إذاعة بغداد بتاريخ ٦/١/١٩٨٠ م .

- (١٥٨) صلاح بسيوني : سيادة كاملة أم مفتوحة . أوراق الشرق الأوسط مارس ١٩٩٨م ، ص ٢٠ .
- (١٥٩) المصدر السابق ، ص ٢٢ .
- (١٦٠) نبيل زكي : أيديولوجية الهيمنة على العالم . أوراق الشرق الأوسط يونيو ١٩٩٨م ، ص ٣٦ .

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع العربية:

(١) إذاعة بغداد بتاريخ ٦ / ١ / ١٩٨٠ م .

(٢) السيد يسين :

- حوار الحضارات في مواجهة ما بعد الحداثة : الأهرام في ١٤ / ٦ / ٢٠٠١ م .

- حوارات حضارية : الأهرام في ٢٨ / ٦ / ٢٠٠١ م .

- دراسة حالة لحوار الحضارات : الأهرام في ٥ / ٧ / ٢٠٠١ م .

- الصراع الثقافي في حوار الحضارات : الأهرام في ١٢ / ٧ / ٢٠٠١ م .

(٣) أنتوني كوردزمان : القدرات العسكرية الإيرانية . الترجمة العربية لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

(٤) خطاب مارتن انديك المدير العام لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا في مجلس الأمن القومي الأمريكي أمام معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى في ١٨ مايو ١٩٩٣ م .

(٥) صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٨ / ٦ / ٢٠٠١ م ، تحت عنوان : في مؤتمر الأمم المتحدة لمحاربة الإيدز .

(٦) صلاح بسيوني :

- عناصر القوة والتحديات . أوراق الشرق الأوسط يونيو ١٩٩٦ م .

- سيادة كاملة أم مفتوحة . أوراق الشرق الأوسط مارس ١٩٩٨ م .

(٧) عبد الرحمن صبري : مرتكزات التعاون الإقليمي . أوراق الشرق الأوسط يناير ١٩٩٨ م .

(٨) لطفي الخولي : رؤية نقدية لأيدويولوجيا القومية العربية . أوراق الشرق الأوسط يونيو ١٩٩٦ م .

(٩) لويس توماس : العلاقات الداخلية والخارجية التركية . الترجمة العربية ص ٢٥٧ ومابعدها . القاهرة بدون تاريخ .

(١٠) محجوب عمر : تطبيقات في الصراع العربي الإسرائيلي . أوراق الشرق الأوسط يونيو ١٩٩٨ م .

(١١) نبيل زكي :

- أيدويولوجية الهيمنة على العالم . أوراق الشرق الأوسط يونيو ١٩٩٨ م .
- الرؤية الدولية ، الاتجاه نحو العموميات . أوراق الشرق الأوسط يونيو ٦٩٩١ م

ثالثاً: المصادر والمراجع الفارسية:

(١) أصغر جعفر ولداني : الحدود غير المرئية في الخليج . مركز دراسات الخليج . طهران ١٣٧٣ هـ . ش .

(٢) حيدر مولانا : دور إيران في أمن المنطقة . صحيفة اطلاعات ٩ / ٧ / ١٩٩٥ م .

(٣) دراسة أعدها كاظم قاضي زاده حول الخطوط العامة للفكر السياسي للإمام ونشرتها صحيفة جمهوري إسلامي في ١ / ٨ / ١٩٩٤ م .

(٤) دراسة أعدها الأدميرال على شمشخاني وزير الدفاع الإيراني ونشرتها كيهان في ٢٥/٩/١٩٩٣ م دراسة أعدتها وزارة الدفاع ونشرتها مجلة السياسة الدفاعية عدد شتاء عام ١٩٩٣ م .

(٥) دراسات قدمت لندوة الخليج التي عقدها مركز الدراسات السياسية والدولية بوزارة الخارجية الإيرانية ونشرتها صحيفة كيهان في ١٧/١/١٩٩٣ م .

(٦) سيد على قادري : مشروع إعلان دمشق . صحيفة كيهان في ٢٩/١/١٩٩١ م .

(٧) صحيفة اطلاعات في ٣٠/١/١٩٩٣ م .

(٨) صحيفة جمهوري إسلامي ١٤/٢/١٩٩٥ م .

(٩) صحيفة كيهان في يناير ١٩٩١ م .

(١٠) على شمشخاني : ضبط التسليح . مركز الدراسات السياسية والدولية . طهران ١٣٧٢ هـ . ش .

(١١) محفوظات وزارة الخارجية الإيرانية . عهد نامه ١٩٧٥ م .

(١٢) محمود صدري : حوار الحضارات ضرورة عصرية : همشهري في ٤/١/٢٠٠١ م .

(١٣) ناصر فكوهي : القومية وحوار الحضارات : فصل المفهوم الجديد للقومية . همشهري في ١٠/٥/٢٠٠١ م .

رابعاً: المصادر والمراجع الغربية:

- (1) office of the assistant secretary of defense for international security affairs : U.S.securityfor the middle east , Washington , may 1995 ,pp 16-17

-
- (2) middle east defense news 21/12/1992 iran ballistic missile program vol .
6 . no.6 . p559 .
- (3) journal of commerce 6/1/1993 .p. 5.
- (4) Washington post 17/4/1995. p . A12

الحضارة المعاصرة — تجارب وممارسات من صدام العولمة إلى حوار العالمية

د. عفيف أحمد بهنسي (*)

المستخلص

تبقى دراسة الحضارة المعاصرة والحديث عن ممارستها، أمراً أساسياً لتشخيص الواقع الإنساني ومآله. ومن أهم مظاهر هذه الحضارة السعي لتكوين نظام يسود العالم في ظروفه الجديدة. ولكن هذا النظام لم يصدر كمنهاج أو خطة استراتيجية بل ما زال إعلاناً حائراً بين موضوعين؛ موضوع توحيد الاقتصاد العالمي تحت اسم «العولمة». وموضوع تنظيم مطامح الشعوب وعلاقاتهم الإنسانية تحت اسم «العالمية».

أصبح واضحاً أن العالم لا يقتصر على أوروبا (الشمال) أو على أمريكا (الغرب). بل يشمل البشر جميعاً على اختلاف شعوبهم. وفي القرآن الكريم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ هكذا يحدد الإسلام المبدأ الأساسي لنظام العالم، وهو التعارف وليس التصادم. ويؤكد هذا المبدأ القرآني، علماء الأنثروبولوجيا الذين يسعون إلى تنظيم التفاهم بين البشر، بين الأنا والآخر من المجتمع الصغير إلى المجتمع الكبير. وإن ما يبرر التفاهم والحوار بين

(*) المدير العام للأثار والمتاحف السورية سابقاً، خريج كلية الحقوق ودبلوم العلوم الإدارية من جامعة دمشق، الماجستير والدكتوراه في تاريخ الفن من جامعة السربون، كما حصل على دكتوراه الدولة من الجامعة نفسها، تقلد عدداً من الوظائف الرسمية.

البشر هو الأواصر الثقافية التي تربط البشر، ولكن الثقافة بوصفها معرفة متحولة، كان لابد من البحث في عمق هذه الثقافة ضمن نزعة تبادلية.

إن أول خطوة في طريق التفاهم هي فهم الذات، ثم فهم الآخر، نظراً لاختلاف البشر. يعتقد الأوروبيون (وولف) أن الغرب قد صنع هدفه قبل غيره. فكان له حق القيادة. ولكن بإمكان كل كيان أن يصنع هدفه ويكون فاعلاً في العالم. وتشكل العلاقات بين البشر البيئة العالمية، أي الظروف الأساسية التي تنمو بظلمتها الحياة الإنسانية. وإذا حقق الغرب تفوقاً علمياً ومادياً، كان على النظام العالمي والمنظمات العالمية، أن تحول دون انحراف هذا التفوق باتجاه التمرکز الرأسمالي الذي يصل إلى حدود نهاية التاريخ (فوكوياما).

لقد فرض الواقع الجغرافي تقابلاً وتقارباً بين الشرق وبين الشمال والغرب. وكان لابد من نظام عالمي يحمي حقوق الإنسان والأمم. وينظم التعارف والتفاهم والتعاون بين العرب والغرب، وبين العرب والشرق الذي يدين أكثره بالإسلام ويعيش ظروفاً متشابهة مع العرب، ويقف معهم في صف واحد من الصدام أو الحوار مع الآخر. وأخيراً بين العرب والقارة الإفريقية التي تضم نصف شعوب الأمة العربية.

إن أعلى هدف إنساني تسعى إليه الحضارة المعاصرة، هو القضاء على صرع الوجود، ولكن مما يؤسف له أن الغرب ما زال يتحدث عن تأجج صدام حتمي بين الحضارات (هنتنغتون)؛ الحضارة الروحية الإسلامية في الشرق، والحضارة المادية في الغرب. ولكن الإسلام دين العرب، دعا دائماً إلى احترام الآخر؛ دينه وجنسه ولونه، وأن أكرم الناس من وقى الناس من شره، ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾.

وبديلاً عن صراع الحضارات الحتمي كما يزعمون، كان على الحضارة المعاصرة أن تقوم على إعلاء شأن القيم الإنسانية التي نادى بها الإسلام، والعدالة والحرية

والمساواة، لكي يبقى السلام والأمن العالمي راسخًا، فهل حققت هذا الهدف الإنساني، الذي نادى به ثورات الغرب ذاتها؟

لقد كان من دواعي التقابل الجغرافي والجوار بين الشرق العربي والغرب، ظهور شكلين من التعارف، الاستشراق Orientalism والتمغرب Occidentalism.

ابتدأ الاستشراق في الغرب بحثًا عن أسرار الشرق. وقام به علماء توزع أكثرهم في اختصاصات مختلفة، نظرًا لضخامة الإرث الثقافي والحضاري في الشرق العربي. والاختلاف في المفهوم الثقافي والهدف، عن الواقع الثقافي في الغرب. . ولكن هدف الاستشراق لم يكن نزيهاً دائماً، فلقد اكتشف (ادوار سعيد) أن هدف الاستشراق هو البحث عن تفوق الذات من خلال تخلف الشرق وضعفه.

وباتجاه آخر كان التمرغوب في الشرق العربي، بحثًا عن أسباب تقدم الغرب وسعيًا لبرمجة النهضة، وكان كتاب الطهطاوي «تخليص الإبريز» كشفًا لمظاهر التقدم التي استفاد منها محمد علي في تحقيق نهضة مصر. ومن المؤسف أن هذا التمرغوب انحرف إلى نوع من التبعية على حساب الهوية، أو تطور إلى نوع من «الاغتراب»، وخاصة الاغتراب المتمثل بهجرة العقول.

على أن ظروف التقدم الاقتصادي في أقطار الغرب دفعت إلى تحويل النظام العالمي الجديد باتجاه «العولمة» التي تقضي بتنظيم استغلال إمكانيات الدول المستضعفة الذي بدأ على شكل شركات متعددة الجنسية وتجارة حرة عالمياً وتفعيل تجارة السلاح والهيمنة على أنظمة المعلوماتية ووصلت إلى حدود القضاء على الهويات القومية والسيادات الوطنية. وكان مآل العولمة المنتظر، هو الصراع بين جميع الجهات والأطراف، بدءاً بالدول الأكثر ثراء التي تعيش على حافة حرب مدمرة للإنسانية كلها.

وقبل الوصول إلى نهاية العولمة المدمرة، كان لابد من العمل على تصحيح عنوانها ومسارها، فعوضاً عن العولمة Globalisation لابد من الانطواء تحت لواء العالمية Universalism، المبدأ الذي يحقق أهداف المنظمات الدولية والنظام العالمي الجديد. والذي يجب أن يعتمد على المفهوم الصحيح للعالم، بوصفه الفضاء الكبير الذي يسع جميع الذاتيات الثقافية والقومية، وجميع الطاقات البشرية، وينظم الحوار والتفاهم بين جميع البشر في جو متكافئ وبميزان عادل.

ولكي يكون العرب أكثر قدرة على الحضور كطرف فاعل في الحوار والتفاهم العالمي المنتظر لتحقيق الرفاه والسلام والأمن. كان لابد من قيام وحدة عربية اقتصادية حسبما تم في أوروبا، تدعمها الوحدة الطبيعية التاريخية والثقافية مما لم يتوفر في أوروبا وغيرها من الدول المتجهة نحو الوحدة والتضامن. ويتضمن البحث العناوين التالية:

- النظام العالمي والشرعة الدولية .
- الحوار وتحولات المجتمع والذات .
- أوروبا والعالمية .
- العرب والعالمية .
- حوار الذاتيات في الفكر الإسلامي .
- حوار الجهات في العالم .
- الحوار الحضاري (الاستشراق والتمغرب والاعترا ب) .
- الصراع وبداية الهيمنة .
- صراع الحضارات ونهاية التاريخ .
- من الاختراق إلى العولمة .
- من العولمة إلى حوار العالمية .

الحضارة المعاصرة — تجارب وممارسات من صدام العولمة إلى حوار العالمية

النظام العالمي والشرعية الدولية :

في الخطاب العربي عن الحوار أو عن الصراع فإن الطرف الآخر الأكثر نفوذاً في هذا التقابل هو الشمال (أوروبا) والغرب (أمريكا) ولقد بلغ الشعور بقوة نفوذ هذا الطرف أننا كثيراً ما نتحدث عنه كأنه العالم كله .

وليس من مجال للبرهان على أن العالم ليس هو الغرب أو الشمال فقط على الرغم من ضخامة حجمهما، العالم هو هذا الكون الكبير الذي يستوعب بأرضه ومحيطاته وفضاءه البشر أجمعين، بصرف النظر عن كونهم من السادة أو العبيد، من الأثرياء أو الفقراء، من شعوب المركز أو شعوب المحيط، وهذا يعني أن العالمية Mondialisme أو Universalism هي قدر الناس جميعاً، وليست هي استراتيجية مرحلية مؤقتة تسعى إلى هدف محدود، فالعالمية هي البشر من حيث كونه عالمياً: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات/ ١٣) هذا المبدأ الإنساني يحدد دور الإسلام في تقوية أو إضعاف البشر على اختلاف أجناسهم مع التأكيد على أفضلية احترام حقوق الآخرين واتقاء الإساءة إليهم، والبشر في العالم متساوون أصلاً بإنسانيتهم متقاربون في أهدافهم، يشعرون بوجودهم من خلال تفاعلهم وتبادلهم، والإنسان من أي جنس كان مركب من الخير والشر، ولكن جميع الأديان والقوانين والأنظمة الدولية تسعى لتحقيق سيادة الخير على الشر، لتحقيق حقوق الإنسان وحقوق الشعوب وإحلال السلم والوفاق والرفاه بعيداً عن الحروب والهيمنة والإرهاب والاستغلال، والقانون العالمي هو قانون الحوار بين الذاتيات

المتفاعلة في العالم وليس هو قانون الصراع، هو القانون الإلهي ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (المائدة/ ٢). وعندما نتحدث عن حوار الجهات تحت عنوان صراع الحضارات فإن هذا الحديث يقع خارج القانون العالمي الذي يحاول النظام العالمي الجديد أن يؤوكه مع الأسف تأويلاً استعماريّاً عندما يتحدث عن العولمة Globalisation، وعن نظام التجارة الحرة، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وهي مقولات خبيثة تصل بنا إلى القناعة الكارهة، من أن الحركة الجدلية بين القوي والضعيف، بين المركز والمحيط انتهت إلى هيمنة قطبية واحدة على المحيط الذي فقد جميع مقومات وجوده، إلا من ذكريات الماضي المجيد الذي أصبح حلم المستقبل كما هو حلم الماضي.

الحديث عن العالمية يدفعنا للبحث عن جهاز ينظم الحوارات ضمن العالم ويحميها، وإذا لم تكن منظمة الأمم المتحدة «دولة عليا» تقود العالم، إلا أنها مجرد مؤسسة تسعى إلى تنظيم الحوار بين الدول التي تنتمي إليها، فلقد نص ميثاق الأمم المتحدة منذ مؤتمر دومبارتن أوكس (١٩٤٤م) أن هدف مجلس الأمن حفظ السلم والأمن في العالم، وفرض المنازعات والخلافات بين الدول الأعضاء، وواضح أن مهمة هذه المنظمة الحول دون الصراع مفسحة المجال لحوار سلمي بين الدول، ولقد نجح مجلس الأمن في حل الإشكالات بين الدول عندما كان التوازن ممكناً في اتخاذ قرار يوافق عليه الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. ولكن انهيار الشيوعية وزوال الاتحاد السوفيتي وحلول روسيا الاتحادية مكانها غير كثير من دور القطب الآخر في توازن قرارات هذا المجلس. وأفسح في المجال لظهور سيطرة قطب وحيد على قرارات مجلس الأمن.

وفي الوقت الذي اتجهت فيه آمال الدول لامتلاك المنظمة الدولية دوراً أوسع في قيادة التوازن العالمي وفي رعاية الحوار بين الدول، أنابت الولايات المتحدة نفسها

كممثلة للشرعية الدولية بلا منازع، وهكذا نرى أن هذه الدولة العظمى التي حلت محل أوروبا في اعتبار ذاتها بؤرة العالم، أصبحت قوة أهدافها هي أهداف العالم ومصالحها هي مصالح العالم، إذ أعلن الرئيس بوش عن نظام عالمي جديد ينظم الهيمنة على العالم، مما سبب استفزازاً لأوروبا التي عقدت معاهدة (ماستريخت) واتفاقية اللغات وأعلنت نظام التجارة الحرة ضمن الاتحاد الأوروبي ودول البحر المتوسط، ومن جهة أخرى طالبت اليابان وألمانيا بتسميتهما عضوين دائمين لهما حق النقض في مجلس الأمن.

ثمة ضرورة لإعادة النظر في بنية المنظمة الدولية وفي صلاحياتها، كي تواكب مطالب دول العالم التي تعيش على كرة أرضية واحدة بحقوق متساوية لتحقيق ما تصبو إليه من حوار متكافئ في عصر شديد التقدم.

ولعل ما أثير في نادي روما عام (١٩٨٠م)^(١) من أمور تحاورت فيها مؤسسات دولية ممثلة بكبار الخبراء ما يحدد معنى العالمية، فلقد انطلقت التقارير المقدمة، من مسلمة وهي أن العالم برمه متقدماً كان أم متأخراً، برجوازيًا كان أم اشتراكيًا، يشكل منذ منتصف القرن العشرين كلاً متضامناً في المصير، فإما أن نتقدم كلنا وإما أن نتراجع كلنا، ويتضمن الحوار الذي تم في نادي روما عرضاً دقيقاً لواقع العالم المعاش وهو واقع (يصعب أن يطاق) كما تذكر تقارير الحوار.

لقد حاول المحاورون تقديم دراسات تحدد الأسس التي يجب أن يقوم عليها النظام العالمي الجديد، كيما ينتقل العالم من الفوضى إلى التعاون والتكامل، ويرسم المحاورون في تقاريرهم الأسس الاستراتيجية التي تحقق هذا الانتقال تدريجياً.

الحوار وتحولات المجتمع والذات :

لعل من أهم أسئلة علماء الأنثروبولوجيا، السؤال التالي كيف تتربط الشعوب مع بعضها في العالم وكيف تتحاور؟، ويبدأ الجواب بنقطة مهمة، وهي لكي نتحاور يجب

أن نعرف من نحن، ثم يجب أن نعرف من هو الآخر، ويصدر هذا الجواب عن القناعة بأننا لن نكون بشراً ما لم نحقق حواراً ومعاشرة مع الآخر، بدءاً من المجتمع الصغير إلى المجتمع العالمي الكبير، وهذا الحوار هو الذي يحقق في بعده العريض العالم الذي ينتجه البشر لكي يعيشوا فيه، إذ لا وجود للعالم قبل البشر، فهو بيئة التفاعل البشري ويحدد حجمه وأهميته حجم هذا التفاعل البشري.

وليست تركيبة هذا العالم بسيطة، بل هي معقدة متشابكة متطورة، وتبقى المسألة الأساس في علم الأنثروبولوجيا هي مسألة تنوع الذاتيات، وطريقة تفاعل هذه الذاتيات مع بعضها، على الرغم من التنوع الهائل في بنى هذه الذاتيات، هذا التنوع الذي نراه في تعدديات اللغات حتى في الذات الثقافية الواحدة، وفي تباين التقاليد والعادات والعقائد والأهداف، وهذا ما يجعل مهمة العالم الأنثروبولوجي صعبة جداً، وبخاصة عند تعريفه لمعنى العالم بوصفه تحولاً مستمراً، وقد يصل هذا التحول إلى درجة التفجر، ولذلك كان لابد من النظر في واقع الثقافات التي لا يمكن أن يكون منشأها عذرياً، إذ لابد أن تنطلق من ميلاد مشترك، وبالتالي فإن الحوار بين هذه الثقافات في العالم تبرره الأواصر الثقافية بين البشر، ولأن جوهر الثقافة كامن في التحول؛ كان التباين بين الثقافات نتيجة حتمية، دون أن يعني هذا التباين فقدان اللغة الإنسانية المشتركة التي تحقق الحوار، إذ إن التحول الثقافي والتقدم المعرفي إنما يجري بين البشر من الداخل، ولهذا يتعين علينا أن نبحث عن هذا التحول في داخل الآخر، ضمن نزعة تبادلية بين الناس، بوصفهم مستغرقين على نحو لا مناص منه، في علاقات مواجهة مباشرة مع بعضهم البعض، وفي كتاب «أنماط الثقافة»^(٢) ترى المؤلفة روث بنديكت «أن العالم أشبه بمتحف تمثل خزائنه بمجموعات من المعروضات المتميزة والمستقلة، ولكنها متكاملة مع بعضها البعض». لقد أبان هذا الكتاب أن التنوع واقع تحدده الطبيعة البشرية، وأن تحقيق تفاعل متسامح بين البشر يتطلب دراسة هذا التنوع، والتعمق في فهم الذات والآخر أولاً. . . وصدق الله

العظيم في كتابه الكريم: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ (الروم/ ١٢).

نريد أن نخلص إلى القول أن الذاتية ليست كياناً مستقلاً جامداً متميزاً عن الفعل والحركة والتحول، بل هي محصلة تفاعل مقومات اجتماعية وقومية وتاريخية من جهة، وتفاعلات بيولوجية جينية داروينية أو غير داروينية، إن ثمة نزوعاً فطرياً لدى البشر للتبادل، ويمكن أن يصبح هذا النزوع عرفانياً أو وجدانياً، وهذه النظرة الأنطولوجية لطبيعة الوجود تفسر إلى حد بعيد إلزامية التفاعل في المنظومة العالمية، ومما يعزز هذا التبادلية، هو التحول والإبداع في تاريخ الذاتية الثقافية، ويعني الإبداع عند كارل بوبر في كتابه «لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة»^(٣) «اكتشاف السمات التي تشكل فكرة جديدة عن التواصل البشري». وفي القرآن الكريم ﴿هو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليلبسكم في ما آتاكم﴾ (الأنعام/ ١٦٥). إن تعاقب حياة الناس على الأرض ليست تكررأ دون تطور إلى أعلى، والناس متفاوتون في تطورهم وتقدمهم، ويحكم تقييم المتقدمين مدى تعاونهم وتفاعلهم الإيجابي مع الآخر، والله يحاسب المتفوقين على طريقة استغلالهم لتفوقهم ﴿إن ربك سريع العقاب وأنه لغفور رحيم﴾ تمة الآية.

أوروبا والعالمية :

كان الحديث عن العالم يبدأ وينتهي عند الحديث عن أوروبا، كأنما أوروبا هي وحدها التي تملك التاريخ، وهذا ما تحدث عنه كتاب «أوروبا وشعوب ليس لها تاريخ» للعالم إيريك وولف Woolf^(٤) الذي يرى أن التمايز الاجتماعي والثقافي الذي تتمتع به أوروبا يساعدنا في تحديد تاريخ الشعوب التي ليس لها تاريخ. وهو يرى «إن ثمة كياناً اسمه الغرب نراه في صورة مجتمع وحضارة مستقلين ومعارضين لمجتمعات وحضارات

أخرى ، لقد أنجبت اليونان القديمة روما ، وأنجبت روما المسيحية ثم النهضة ، وأفضت النهضة إلى التنوير ، وتولدت عن التنوير الديمقراطية السياسية والثورة الصناعية ، وتداخلت الصناعة مع الديمقراطية لتثمرًا بدورهما الولايات المتحدة » .

ويعتقد وولف إن أوروبا صنعت هدفها وأن بإمكان كل كيان أن يحدد هدفًا وأن يكون قادرًا على التنبؤ بالتاريخ ، لأن التاريخ هو صياغة هدف في إطار الزمان ، ومن جهة ثانية يعرف الكتاب العالم على أنه وحدة كونية متنوعة تضم تفاعلات مترابطة ، وكل فعل يؤثر بالفعل الآخر سلبًا أو إيجابًا ، وإن كل عصبية أو شوفينية أو هيمنة تسبب تفكيك وحدة العالم ، ويتأسس تجميع فكك العالم على مبدأ العدالة والاعتراف الكامل الموثق بالآخر ، لأن النسق الذي يعاد تجميعه هو نسق تنظيم العلاقات بين الذاتيات لتحقيق العالم المنسجم مع طبيعته ككيان كوني .

إن الحياة البشرية بحسب وولف ذات طبيعة سببية وإن العلاقات بين البشر هي علة السببية ، وحسب غولدير «إن الكائنات البشرية لا تقع بمجرد الحياة في علاقات ، بل إنها تنتج العلاقات لكي تعيش» ، والعلاقات بين الذاتيات تشكل البيئة العالمية أي الظروف الأساسية التي تجري في ظلها الحياة .

وبصورة عامة ليس من حق أية جهة أن تدعي ملكية العالم لمجرد كونها استحوذت على أسرار العلم والثقافة ، إذ يتمتع العلم بالصفه العالمية بطبيعته ، وليس من اكتشاف علمي أو اختراع إلا وهو نتيجة لأبحاث وأعمال فردية أنجزت في أنحاء مختلفة من العالم ، ثم إن المشاكل التي يتعرض لها العلم هي مشاكل عالمية ، كالأزمات والأوبئة وعوارض الطبيعة ومسائل المحيطات والفضاء ؛ لذلك كان الحوار العلمي من بديهيات التفاعل الإنساني ضمن العالم ، ولكنه أحيانًا يبدو غير متكافئ ، وبخاصة عندما يكون الهدف من البحث العلمي والاكتشاف تحقيق الاستغلال التجاري مما يتضح في الغرب ، وبخاصة عندما تقوم مؤسسات تجارية وراء البحث والاكتشاف بقصد الربح أولاً ، كذلك

يبدو العلم أحياناً سبيلاً للتفوق الحربي والسياسي عندما يقوم على تطوير وسائل الدمار الشامل أو الجزئي، بحجة دعم جهاز الدفاع... ولكنه في الواقع هو سبيل لتعزيز التفوق على العالم بعيداً عن أي حوار متكافئ أو رفاه عالمي متوازن.

ولذلك تسعى المنظمات الدولية لوضع اتفاقيات تجعل العلم والتكنولوجيا في خدمة الإنسانية ولحل المشاكل المشتركة، وذلك بتقسيم مراحل الكشف العلمي وتوزيعها على أكبر قدر ممكن من دول العالم، لجعل النتاج التكنولوجي عالمي المنشأ وعالمي النفع أيضاً.

العرب والعالمية :

الأرض العربية جزء من الكون، والإنسان العربي وحدة اجتماعية جزئية من العالم، وتمتد الأرض العربية حول البحر المتوسط من الجنوب وهي تقابل بذلك أوروبا التي تشرف على شمالي البحر المتوسط، فهي بموقعها الجغرافي الطرف المقابل لأوروبا، والجسر الذي يصل أوروبا بأفريقيا وآسيا، تقع الأرض العربية أيضاً عند ملتقى الشرق بدءاً من اليابان، وبالغرب بدءاً من سواحل أوروبا وبالجنوب الأفريقي كله.

ويرتبط العرب بالشرق بأواصر تاريخية وعقائدية روحية استقرت في أكثر بقاع الشرق من إندونيسيا وماليزيا وحتى إيران منذ فجر الإسلام.

كما يرتبط الإسلام بالدين المسيحي في العالم بوصفه امتداداً له كدين سماوي، وكان السيد المسيح أكثر الأنبياء تكريماً في القرآن الكريم، ولم يتعارض القرآن الكريم في مبادئه الأخلاقية والعقائدية عن الرسائل السماوية السابقة، وبخاصة المسيحية الدين الأكثر انتشاراً في الشمال (أوروبا) وفي الغرب (أمريكا كلها).

وهكذا تبدو جميع وسائل ومبادئ الحوار أكثر وفرة وأقرب تناوياً لتحقيق الحوار الثقافي مع أطراف يشترك العرب معها بالإيمان والعقيدة والأخلاق، إذ ليس العرب

والمسلمون طرفاً يقع خارج العالم كما يرى الغرب، بل هو طرف في العالم، طرف يتمثل بذاتية ثقافية تاريخية قادرة على الاستمرار في الحوار الذي بدأه منذ بداية التاريخ، حيث قدم للغرب الأبجدية والموسيقى والعقائد والديانات، ومازال اسم القارة الأوروبية يحمل اسم أوروبية بنت أجيونور ملك صور التي نقلها زيوس من شواطئ البحر المتوسط وقد تقمص على شكل ثور إلى الغرب. ومازال الثور رمز أوروبا التي نقلت تراث الشرق إليها^(٥).

لم يعد الصراع العربي مع جهات العالم المختلفة صراع وجود لوجود كما كان الأمر في الماضي، إبان الصراع مع المغول الذين اكتسحوا البلاد منذ جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك، الذين هدموا معالم الحضارة ولم يتركوا إلا التكتبات الماحقات، ثم عادوا من حيث أتوا وقد اعتقدوا أنهم أنهوا الوجود العربي، وكذلك لا يمكن أن ننسى حروب الفرنجة الكاسحة التي استمرت قرنين كاملين، وكان الملك الناصر صلاح الدين والملك الظاهر والملك المنصور أصحاب فضل في إنهاء هذا النوع من الصراع الذي فشل في القضاء على العرب دولة وديناً، ولذلك فإننا عندما نتحدث عن الحوار فلأننا نريد أن نتناسى جميع حالات الصراع التي تمت عبر التاريخ، وليس من الحق القول، إن حوار الثقافات هو حوار شكلي القصد منه التخفيف من حدة الواقع القائم على الصراع، بل إن الحوار الثقافي مبدئي، يعيد العلاقات البشرية إلى إنسانيتها، ويعيد الحضارات إلى أهدافها، ويكون مؤشراً ودليلاً لأي حوار سياسي واقتصادي، ولا يبدو هذا الحوار طوبائياً، إلا إذا كان جوهر الحضارة الحديثة هو الشر وليس الخير، ومن المؤسف أن الغرب الذي اعتر دائماً بمفكره وأديانه ومبديه، وصل اليوم إلى حافة الاعتراف بنهاية الحضارة الغربية على حد قول اشبنغلر ونهاية الإله عند نيتشة، ونهاية التاريخ عند فوكوياما، وصراع الحضارات عند هنتنغتون. ترى هل يبحث الغرب عن وسيلة للقضاء على أية فرصة للحوار بين حضارة الآخر وحضارته التي لم يعد يملكها... على حد اعترافه؟...

حوار الذاتيات في الفكر الإسلامي :

ليس صحيحاً أن حوار الذاتيات الحضارية عملية افتعالية تركتها العولمة كشاطئ للنجاة من الصراع المحتمل نتيجة عدم التوازن الاقتصادي الذي لا يمكن مهادنته بأية خديعة مهما كانت جذابة . . . وليس الحوار بين الذاتيات من مزايا العولمة تفرّه لكي تخفف من الصراع بين الشرق الروحاني، والغرب المادي، كبديل عن صراع بين الإيديولوجيات يمكن أن يعود بشكل جديد وقد غسل أخطاءه التي ارتكبتها الإيديولوجية الماركسية . . . إن حوار الحضارات هو حوار الذاتيات هو حوار بين الإنسان والإنسان بوصفه كائنًا حضاريًا وليس كائنًا غريزيًا كالوحوش التي تعيش في غابة يسودها الأكثر قوة والأكثر ضراوة . .

والتاريخ بوجهه الحضاري سرد لقصة العطاء والإبداع والبذل، أما التاريخ بوجهه المادي، فهو قصة الاستيلاء والاستلاب والهيمنة والتدمير تحت عنوان التقدم والانتصار .

وفي العصر الحديث الذي وصل إلى أقصى حدود التقدم والكشف، كان لابد من تقدم القيم لدعم التقدم المادي وإعطائه المغزى الإيجابي والإنساني، وكان لابد للحوار الحضاري أن يحل محل الحوار المادي، وبخاصة عندما يصعب تحقيق هذا الحوار بسبب تزايد الفروق بين قوى المركز وقوى المحيط، وبسبب انحصار الهيمنة على العالم بقطب واحد لا سبيل إلى حوار معه وقد امتلك ناصية الشرعية الدولية ذاتها .

يقوم حوار الذاتيات الذي تبناه العرب والإسلام منذ البداية، على الاحترام المتبادل للآخر والاعتراف به، فلقد قام الإسلام أولاً على الاعتراف بالديانات والأنبياء السابقين، واعترف المسلمون بالثقافات المختلفة حتى ولو كانت وثنية، وأشرف على ترجمة أمهات الكتب في الرها ونصيبين، وفي العصر العباسي أنشأ المأمون دار الحكمة التي

ضمت مترجمين عرباً بلغتهم ومسلمين بثقافتهم وفكرهم رغم كونهم من النصارى، وهكذا تحقق الحوار المستمر مع التراث اليوناني والفارسي والهندي، وكان أرسطو وأفلاطون وأفلوطين وجالينوس وأبقراط ملاذ المفكرين العرب والمسلمين.

لقد نشأت الثقافة العربية نتيجة حوار جاد بين الفكر الإنساني والدين الإسلامي الذي يمتاز بمبادئه المفتوحة على العلم والكشف، فالله هو المثل والحق، والإيمان به إيمان بالقوة الخالقة لكل الوجود، ويتم البحث عن أسرار الوجود بالبحث عن أسرار القوة الإلهية، والعكس صحيح، فإن معرفة الله وقدرته إنما تتم بالكشف عن أسرار إعجازه في تفاصيل خلق ما في السموات والأرض وتحت البحار... أما الفكر فكان الجسر الذي جعل السؤال عن السرّ متفقاً مع السؤال عمّا وراء الطبيعة، وهكذا تم الحوار العميق بين الدين والفكر الإنساني على لسان الكندي والفارابي وإخوان الصفا وابن سينا وابن رشد، وامتد نشاط المفكرين المسلمين حتى أكملوا ما نقص في الفكر اليوناني ووضحوا ما غمض واستعصى، وكانوا الجسر الذي انتقلت عليه حضارة يونان إلى العالم الجديد الذي أوقد مصابيح التنوير والنهضة من مشكاة الثقافة العربية الإسلامية، التي قامت على علم الكلام والاجتهاد، وعلى رفض الجبريّة دفاعاً عن الحرية، وفي كتاب شمس الله تسطع على الغرب^(٦) سرد تفصيلي لنتائج الحوار (الإسلامي - اليوناني) في نشأة العلوم الحديثة في الغرب، علوم الطبيعة والحساب والجبر والطب والهندسة، فلقد ترجمت الكتب الأساس مثل كتاب الحاوي للرازي والقانون لابن سينا والكلبيات لابن رشد والجبر للخوارزمي والمناظر لابن الهيثم، واستمر الحوار الثقافي بين البلاد العربية الإسلامية والغرب حتى عصر النهضة العربية وظهور أعلام درسوا آثار الغرب الحديث وترجموا بعضها، تشجيعهم السلطة التي آمنت بالحوار مع الغرب، وكان محمود الثاني في الأستانة ومحمد علي في القاهرة من أبرز المشجعين والعاملين على تحقيق هذا الحوار.

حوار الجهات - في العالم :

من الخطأ الاعتقاد أن الحوار واحد في العالم ، فالحوار من أي نوع كان يتم بين جهات متعددة وهي العناصر الأنطولوجية لهذا العالم .

فثمة حوار مع الشمال (أوروبا) وثمة حوار مع الغرب (القارة الأمريكية) وثمة حوار مع أفريقيا ، وحوار مع الشرق ، وحوار مع الإسلام ، ثم حوار مع الذات أي حوار العرب مع العرب .

ونحن نعرف أن منظمة الأمم المتحدة مهدت دائماً لتحقيق الحوار مع الجهات على اختلاف مواقعها وحضاراتها ، فماذا كانت نتيجة هذا الحوار ؟! .

يجب الاعتراف أن الحوار مع الشمال والغرب لم يصل إلى غايته على الرغم من جميع الأواصر التي تحدثنا عنها ، ويرجع السبب إلى أن أرضية الحوار مع الشمال والغرب هي أرضية مادية اقتصادية ، وليس من تكافؤ بين اقتصاد متطور مزدهر غني واقتصاد قلق ، بين اقتصاد دائن واقتصاد مدين ، بين اقتصاد مستغل واقتصاد مستغل . كذلك ليس من تفاهم بين طرف قاهر وطرف مقهور ، طرف يتباهى بالفوقية وطرف يتشبث بالتبعية ، وليس من توازن بين طرف موحد بسياسته واقتصاده وأهدافه ، وطرف موزع بسياسته واقتصاده وأهدافه ، ولذلك نقول إن الحوار مع هذه الجهة لم يتحقق حتى الآن ، على الرغم من جميع المساعي الجادة لعدم الانزلاق إلى صراع خاسر .

لقد كرس الغرب والشمال القطيعة في الحوار مع العرب عندما أحدث دولة دخيلة في قلب البلاد العربية ، وجعلها قاعدة مستمرة لوقف أي حوار ممكن بين الطرفين ، لقد أصبحت إسرائيل حائلاً راسخاً دون الحوار ، على الرغم من ضرورته لتنظيم المصالح الحيوية التي يحققها الغرب من العرب ، بينما لا يحقق الغرب من إسرائيل إلا كونها رأس حربة عدوان غربي مستمر على العرب ، يغطي الغرب نفقاته الباهظة بكل سخاء غير مكترث لعبء إسرائيل ولخسارة تحالفه مع العرب .

أما حوار الغرب مع الشرق فإنه يبدو من أخطر الحوارات على سياسة العولمة التي يقودها المركز على حساب المحيط .

لقد أراد هنتغتون^(٧) أن يهدم هذا الحوار عندما صوره على أنه صراع أيديولوجية روحية مناهضة لأيديولوجية الغرب المادية، وشدد على خطورة هذا الصراع عندما رسم نتائجه على أنه عداة لا مناص منه بين تلك القوى المتجانسة عقائدياً وبين القوى المتجانسة تقدمياً، وهذا رأي مناقض لمبادئ الإسلام ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ ولم يقتصر هذا الهدم على الرأي والخطاب الفكري، بل تحقق على أشده عسكرياً في حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران وحرب الخليج الثانية بين الغرب والعراق، وكان القصد تفكيك أي تفاهم أو اتفاق محتمل مع دول الشرق، والقضاء على الطاقة الحيوية وهي النفط إلى أقصى ما يمكن من الإهدار، عدا عن تحطيم القوة العسكرية القادرة على تحدي أطماع الغرب وهيمته .

وانعكس هذا الانهيار العسكري والاقتصادي على جميع الدول العربية التي أصبحت أكثر تفككاً، وأقل إيماناً بالوحدة والتضامن، بعد هذه الحروب التي أشعلتها بمهارة فائقة خطط الاستخبارات المركزية وأخطاء السياسيين .

أما الحوار الأفريقي فهو جزء من الحوارات مع الذات، لأن أكثر من نصف العالم العربي يقع في أفريقيا، وثمة حوار مهم نرجو أن يتحقق من خلال إنشاء الاتحاد الأفريقي .

ويبقى الحوار العربي - العربي قاعدة أي حوار مع أية جهة كانت، ومن المؤسف أن هذا الحوار الذي ابتدأ مع إنشاء جامعة الدول العربية لم يصل بعد إلى مستوى الاتحاد أو الوحدة، على الرغم من الوحدة الثقافية والتاريخية والعقائدية التي تشكل قاعدة في الحوار مع جميع الجهات .

ولابد من إبداء ملاحظة مهمة لتحديد الفرق بين الحوار مع الشمال والغرب وبين الحوار مع الشرق وإفريقيا، فالحوار مع الأول هو حوار مع خصم تاريخي كان قد غزا أرضنا واحتلها منذ عهود البطالمة والسلوقيين ثم الرومان إلى البيزنطيين الروم ثم الصليبيين وحتى الاستعمار الغربي الذي شمل البلاد العربية كلها منذ بداية القرن التاسع عشر.

أما الحوار مع الشرق أو أفريقيا فهو حوار مع جهات عانت من الغرب والشمال عين ما عانينا وما تزال تعانيه، فإذا كان الحوار مع الغرب والشمال هو حوار مصالحة لتبرير سياسة التفاهم المتكافئ، فإن الحوار مع الشرق يبدو حوار تضامن وتعاضد لتحقيق مستقبل أفضل متحرر من هيمنة الغرب ونفوذه.

وإذا ما أوغلنا في الحوار مع الشرق الأقصى، فإننا نرى أن دول النمور في كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وهونغ كونغ وتجربة ماليزيا وتايلاند وإندونيسيا وجنوب الصين، هذه الدول قد حققت ثورة اقتصادية مذهلة جعلتها تدخل في أمد قصير في عالم الدول الصناعية.

وهكذا قضي على البطالة وتحول العمل من الزراعة إلى الصناعة وازداد الدخل الفردي باضطراد، إنها معجزة اقتصادية أسبوية جديرة بالدراسة والحوار، للتعرف على تفاصيل سياسة التنمية الناجحة على الرغم من جميع محاولات إجهاضها.

إن هذا النموذج من الاقتصاد الحر المعولم نسبياً، يوضح أن العولمة ليست مبدأً وحيداً، ففي تجربة دول النمور مازالت الدولة قوية وحاكمة على الرغم من اتساع قوة السوق.

الحوار الحضاري (الاستشراق والتغرب والاغتراب) :

ثمة حوار معرفي بين الشرق والغرب تم منذ القديم ابتداءه الرحالة والجغرافيون والمكتشفون من الطرفين ، وتبلور هذا الحوار في اتجاهين : اتجاه الاستشراق Orientalism واتجاه التغرب Occidentalism . وهدف هذين الاتجاهين تحقيق ثقافة أو تعارف يخفف من حدة الانفصال والصراع ، على الرغم من اعتقاد كييلنغ « إن الشرق وشرق والغرب غرب ولن يلتقيا » .

وقد يبدو الاستشراق تمهيداً لسيطرة الغرب على عالم متخلف ، كما يبدو التغرب مظهراً من مظاهر تكريس التبعية للآخر ثقافياً ثم اقتصادياً وسياسياً ، وليس من شك في إمكان انحراف هذين الاتجاهين تبعاً للمقصد والهدف الذي يسعى كل اتجاه للوصول إليه ، ونحن نميل إلى توضيح الوجه المعرفي في الاتجاهين ، بصرف النظر عن الالتباس الذي يمكن أن نتوقعه في النوايا والنتائج .

على أن تحول الظروف وتبدل المراحل يضيء لنا الطريق لتفكيك الالتباس ، والتعرف على الأغراض الحقيقية التي يهدف إليها الاستشراق أو التغرب ، وبصورة عامة لا بد من اعتماد قدر من حسن النية ، لنرى أن هدف هذين الاتجاهين ، التمكن من معرفة الذات والآخر ، تمهيداً لتحقيق التقارب والتبادل ، وتخفيفاً من سوء فهم الآخر ونواياه ، وبمعنى أعم تحويل الصراع المحتمل إلى حوار ممكن ومستمر .

لقد تبلور الاستشراق في علم واختصاص ، ونما بدافع عقلي وعلمي مشوباً غالباً بغرض سياسي ، ولم يكن الاستشراق شاملاً دائماً بل كان جزئياً مختصاً بحقل معين من حقول المعرفة ، التاريخ ، الأدب ، الفن ، العلم . . . حتى أصبح الاستشراق ظاهرة ثقافية اتسم بها القرنان السابع عشر والثامن عشر .

ولكن ما هي أهداف الاستشراق الحقيقية، هل هي الحوار مع الآخر أم اكتشاف الآخر من خلال الذات.

في كتاب (الاستشراق لإدوار سعيد)^(٨) اعتقاد أن الغرض الأساسي من الاستشراق الأوروبي، هو معرفة الذات أي النظر إلى الشرق في مرآة معاكسة لكي يرى المستشرق ذاته وحضارته وتفوقه.

وثمة اعتراف معلن أن كل مستشرق كان يحمل آراء ثابتة في التفوقية والعنصرية، ولعل سلفيستر دوساسي وهو أول مستشرق درس الإسلام والأدب العربي كان المحرك الاستراتيجي لسياسة التسلط، وكثيراً ما يكشف التحليل هذه العلاقة وهذا القصد الاستشراقي، وهو تعريف الغرب سلطة واختصاصيين بأسرار الشرق من موقف سابق.

وهكذا فإن المستشرق لم يكن أبداً داخلًا في الشرق، بل بالفكرة المسبقة عن الشرق، إنه ما يزال خارج الشرق، ولهذا يعرف إدوار سعيد الاستشراق بقوله: «الاستشراق هو نظام من التمثلات مؤطر بطاقم كامل من القوى التي تجعل الشرق تحت عدسة المعرفة الغربية»، ويعتقد سعيد أن الاستشراق كان إنتاجاً لنشاطات سياسية معينة.

ونستنتج من كتاب سعيد أن الغرب يصير على تأويل حضارة الشرق وتزييفها تبعاً لمصالحه وأهدافه، ثم يذكر سعيد على لسان رئيس رابطة دراسات الشرق الأوسط الذي يقول: «إن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ليستا مركزاً لإنجازات ثقافية عظيمة ولا يحتمل أن تغدوا كذلك في المستقبل القريب، وهكذا فإن دراسة هاتين المنطقتين ليست مكافأة مجزية للجهد الذي ننفقه لدراستهما». فهل يعني هذا إفلاس الاستشراق.

وعلى عكس الاستشراق ابتدأ التمغرب ضعيفاً وفردياً عند الرحالة، ثم أصبح سياسة إصلاحية حسب ما يراه السياسيون من أمثال محمد علي الذي فتح رسمياً باب التمغرب على مصراعيه، للتعرف على أسباب نهضة الغرب، سعياً للإفادة من ثمرات التقدم التقني

والإداري والعسكري، ثم انزلق هذا التمغرب في عهد الخديوي إسماعيل إلى التبعية التي تولي قيادتها اختصاصيون فرنسيون من أمثال دولسييس وماسبيرو وكلوت . . .

وعندما احتلت الدول الغربية جميع البلاد العربية أصبح التمغرب إلزامياً، مما أورث تبعية ثقافية شوهت معالم الشخصية الثقافية الأصلية، ولم يلبث العالم العربي بعد الاستقلال أن استعاد هويته وجهاز انطلاقه نحو حوار متكافئ بدلاً عن انصياع إكراهي للارتباط بثقافة الآخر .

ويمكن أن يصل التمغرب إلى الاغتراب أي إلى النزوح باتجاه الآخر، وغالباً ما يكون النازحون من أصحاب الكفاءات والأدمغة .

تعتبر هجرة الأدمغة واحدة من أخطر ما تفرزه الهيمنة من مخاطر، إنها ضياع موارد حيوية من الرأسمال البشري ضياعاً لا يمكن تعويضه، ويبدو خطرهما واضحاً في انتقال كفاءات كان يجب أن تسهم في تحقيق رفاه بشري في منشأها، إلى مناطق أتحمها الرفاه وأصبحت توفر المزيد من الملاكات الاختصاصية لدعم الرفاه المضخم بأقل التكاليف، ولا يخفى أن تشجيع هذا الانتقال يعني استلاب أغلى رأسمال بشري وطني تملكه الدولة الناهضة، ويعني حرمانها من نتائج ما تبذله لتحقيق الاكتفاء والتطور ومجاراة الدول المتقدمة .

ويبدو المشهد مؤسفاً عندما نرى الدول الفقيرة التي تسعى إلى تكوين كواد علمية متقدمة، وهي تقدم هذه الكواد وقد أرهقها تكوينها، هدية إلى دول غنية تزيد من رفاهيتها على حساب فقر الدول المصدرة للأدمغة، ومن المؤسف أن الدول الفقيرة لم تجد وسيلة تشجع بها هذه الأدمغة على البقاء، بل بالعكس، ثمة دول كالهند تندفع نحو تصدير الكفاءات سعياً وراء مردود يصحح ميزانها التجاري، وهو وهم قاتل مازالت تمارسه الدول الفقيرة في العالم .

والسؤال هل نتوقع من النظام العالمي الجديد حلاً لهذا الخلل ، حل يحافظ على تنمية الكوادر لسد الحاجات الأولية للبقاء والنهوض والتقدم؟! وهل تتكفل المنظمات الدولية بحماية الثروة الدماغية الوطنية من إغراءات الأسواق المهيمنة؟!

الصراع وبداية الهيمنة :

لعل نبوءة أرميا «من الشمال سوف ينشق الشر» وصف لما تم في الحروب الصليبية التي جاءت من الشمال واجتاحت الجنوب بدوافع السلب والنهب وبوسائل القتل والتخريب .

إن مئات من الكتب التي تحدثت عن الحملات الصليبية ، مليئة بأشنع الصور التي ارتكبتها هؤلاء باسم الإيمان ، ومع ذلك فإن رجال التنوير يحاولون إسدال ستار على هذه المجازر لتبرير هدف مزعوم هو «التحضير» ، فإلى أي مدى كانت هذه الحملات إنسانية وحضارية؟!

يقول كافن زايلي المؤرخ الأمريكي في كتابه «الغرب والعالم»^(٩) «لقد اكتسبنا القدرة على تبرير أشد أفعالنا بربرية باسم الله أو باسم الحضارة المسيحية أو باسم العالم الحر» ويأتي بمثال فظائع العبرانيين التي ارتكبت تحت شعار الرب الذي جعلهم شعبه المختار ، كما يأتي بمثال سقوط القدس على يد الصليبيين سنة (١٠٩٩م) إذ تم ذبح كل المسمين رجالاً ونساءً وأطفالاً باسم الله ، ويقدر عدد القتلى بمائة ألف قتيل .

لقد اعترف الصليبيون بعد احتلال الأراضي العربية في بلاد الشام وحتى مصر ، أن المسلمين أكثر إيماناً بالسلام والعدل وبمبادئ الإنسانية من هؤلاء المقاتلين اللذين أنكروا الدين عندما هاجموا القسطنطينية سنة (١٢٠٤م) فدمروا أكبر مدينة مسيحية في العالم ، ونهبوا الكنائس وما فيها من نفائس صهروا معدنها ، وحطموا المحاريب والمنابر والفسيفساء ، وأحرقوا المخطوطات المقدسة والتاريخية ، وهكذا يتحول الصليبيون «من الصلوات إلى الصولات ومن التجارة إلى الإغارة» على حد قول مؤرخيهم .

ويقارن بعض المؤرخين المنصفين ، بين سلوك هؤلاء الفرنجة المتوحشين وفتكهم الوحشي بالمؤمنين بإله الأنبياء والمرسلين من يهود ومسيحيين وإسلام ، مع المسلمين الذين عاملوا أصحاب الأديان الأخرى وفق المبادئ الإنسانية التي فرضها دينهم إذ جعلهم في ذمة المسلمين وأمانتهم ، ويتذكر العهدة العمرية التي فرضت على الفاتحين احترام دين المغلوبين ومعابدهم وأملاكهم ، كما يتذكر أسماء اليهود والمسيحيين الذين خدموا في بلاط الخلفاء ، أو الذين نقلوا الثقافة الهلنستية إلى العربية ، وكان الوفاق بين الأديان على الأرض العربية مستقرًا منذ الفتح الإسلامي وحتى اليوم .

ولا بد أن نذكر هنا اعتراف أحد القساوسة ويدعى أوليفر في قوله المعروف : «إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وأخوتهم وأخواتهم وقضوا نحبهم يتعذبون ، الذين استولينا على أراضيهم ، والذين سقناهم عرايا من بيوتهم ، أعطونا طعامهم وأبقوا على حياتنا عندما كنا تتضور جوعاً ، وغمرونا بعطفهم حتى ونحن تحت سلطانهم ورحمتهم» .

ويتفق جمهور المؤرخين المسلمين والعرب ، على أن هذه الحملات لم تكن دينية ، ويستعيضون عن لفظ (حروب الصليبيين) كما وردت على لسان الغرب ، بلفظ (حروب الفرنجة) ، تبرئة للدين المسيحي والمؤمنين برسالة المسيح الفادي من هذه المخازي الرهيبة ، بيد أن هذا التبرير لا يعني أن حقدًا موروثًا يمكن أن يزول من ذاكرة أهل الجنوب إزاء أهل الشمال من الفرنجة ، رغم ما نتحدث عن حالات الوثام والحوار والتبادل في أوقات السلم ، وكثيراً ما نسمع من المؤلفين غير المسلمين حديثاً عن علاقات ودية نحاول أن تبقى في الذاكرة ، لكي تبعث فينا القوة على متابعة الحوار بدون عقد أو ضغائن . ومازلنا ننظر من الفرنجة اعتذاراً عن تلك الجرائم يطهر الذاكرة والنفوس ، كالاعتذار الذي قدمته الكنيسة الكاثوليكية للكنيسة الأرثوذكسية عن جرائم الصليبيين الفرنجة في القسطنطينية .

صراع الحضارات ونهاية التاريخ :

المفهوم الجديد للحضارة المعاصرة هو التقدم التقني الذي وصل حدوداً لم تكن متوقعة ، وهو يناقض المفهوم التقليدي للحضارة من حيث هي التراث المتراكم عبر تاريخ أمة من الأمم ، ويراه أثرية متحفية تركت للمحيط كي يخفف من وطأة الحاضر بقوة الماضي الأثيل ، وهو رمز هويتها ومصدر اعتزازها وكرامتها .

وعودة إلى هنتنغتون - الذي تحدثنا عنه - لنستعيد محاولته أن يلغي من الأذهان صراع الطبقات العالمي التاريخي الذي جاءت به الماركسية ، ويبرره انهيار النظام الشيوعي في العالم ، لكي يفسح للرأسمالية فرصتها أن تأخذ شكلاً عالمياً متضامناً محصناً من الصراع مع الطرف الآخر ، سواء كان هذا الطرف هو الطبقة الفقيرة في العالم أو طبقة العمال التي اضمحل تضامنها مع تقدم الآلة والذراع الإلكتروني .

أراد هذا الكاتب في مقاله الذي أصبح كتاباً يثير أكبر ضجة في أوساط الثقافة على الأقل ، أن يتحدث عن صراع جديد روحاني يحل محل صراع منته أيديولوجي ، ولكنه نقل الروحانيات إلى مستوى الأيديولوجيات الثابتة التي لا يمكن أن تنهار لتجذرها في ضمائر البشر منذ بداية الأديان ، ووضح أن الهدف من تأجيج هذا الصراع أو من افتراض حدوثه ، هو صرف النظر عن الصراع الاقتصادي الذي يمكن توقعه ، عند تنفيذ نظام العولمة بجميع أضراره على العالم الفقير المستغل والمقهور .

أما دعوى فوكوياما تحت عنوان «نهاية التاريخ»^(١٠) فهي تعبير مباشر عن انتصار الرأسمالية العالمية وتبرير لمسارها باتجاه العولمة - مع الأمل أو الاعتقاد - إننا في عصر اكتمال التاريخ وأن لا مبرر بعد توحيد العالم تحت مظلة الرأسمالية من أي صراع حار أو بارد ، ولكن كيف تتفق هذه الدعوة مع تضخم اقتصاد التسلح في دول المركز ؟

من الاختراق إلى العولمة :

عندما انطلق مشروع مارشال القاضي برفع مستوى الإنتاجية في أوروبا المتهالكة بعد الحرب الثانية، وفي العالم الفقير، كان القصد زيادة القدرة الاستهلاكية عند شعوب المحيط لدعم الإنتاجية الضخمة في دول المركز وهي أمريكا التي ابتدأت منذ نهاية الحرب الثانية تعد نفسها لقيادة العالم بعد قهر المعسكر الشيوعي .

وبعد أن نجح هذا المشروع في تحقيق أهدافه كان لابد للمركز من اختراق المحيط عبر مبادئ الإمبريالية التي تجاوزت الاستعمار المكلف والمتعب إلى نوع آخر من الاستعمار فكانت العولمة ، أي فرض تنظيم شامل على سكان الكرة .

لقد كان اختراق المؤسسات المركزية الكبرى للمحيط هائلاً إذ سيطرت الراسمائل المركزية الموظفة في المحيط على أكثر من (٥٠٪) من الإنتاج العالمي، هكذا تحولت الإمبريالية التي كانت تهدف إلى امتلاك الأسواق الاستهلاكية ، إلى اختراق المؤسسات والشركات التي تهدف إلى امتلاك مقدرات الإنتاج العالمي، محققة أعلى معدل للنمو وأعلى معدل للربح، وأعلى معدل لتوظيف الرأسمال المركزي، وأعلى مستوى لتسويق الإنتاج المرتبط بإدارة مركزية تتحكم في مقدرات الدول المضيفة بعيداً عن سيطرة المنظمات الدولية وحكم القانون المحلي، وهكذا خَلَقَت الشركات عابرة القارات ظروفاً للمنازعات الدولية وللصراع .

ومن جهة ثانية تشكل تجارة السلاح الرقم الأكثر أهمية في صادرات الدول المركز، كما تشكل الرقم الأكثر خطورة على الاقتصاد والسلام في ميزانيات الدول المحيطة المستوردة للسلاح، هذه السلع القتالة غير المنتجة والحافزة على الحرب دفاعاً أو عدواناً أو العقيمة في حالات السلم والهدوء .

ولقد توسعت تجارة السلاح مكشوفة أو سرية، لكي تصبح المصدر الأساسي لأرباح دول المركز وشركاتها ووسطائها، ويمكن اعتبار غالبية الشركات العاملة خارج المركز، هي شركات لتوريد السلاح تعمل بحماية كبيرة من دول المركز، متجاوزة مصالح الشعوب في المحيط وحقوقهم الإنسانية، وحصانهم القومية والاقتصادية، لتحقيق أهداف سياسية تنتهي بإضعاف شعوب المحيط، وتحقيق أهداف اقتصادية تسعى إلى هدر جميع طاقتهم الإنتاجية، وأخيرا لتحقيق أهداف استعمارية تتمثل في القضاء على سلطة الدولة وسيادتها وكرامتها.

ظهرت تسمية العولمة في الولايات المتحدة تحمل معنى التنظيم الشمولي وهذا ما يفسر عنوانها في الإنجليزية Globalisation، وهذا التعبير يحمل مفهوماً مختلفاً عن تعبير العالمية Mondialisme أو Universalism وتعني كل ما يندرج تحت مفهوم العالم بوصفه فضاء البشر ومضمارهم.

ويجب أن يكون واضحاً أن المفهوم الأول كان أمريكياً وكان يقصد تعميم النموذج الأمريكي، وهناك من يستعيز عن لفظ العولمة بلفظ (الأمركة) ويبقى هدفها رفع مستوى الإمبريالية من نطاق ضيق محصور بمنطة محددة من العالم إلى نطاق واسع يشمل جميع مناطق الكرة الأرضية، على أن تكون خيوط هذه الإمبريالية في يد واحدة هي يد القطب العالمي الأوحده، أمريكا، التي استحوذت جميع الوسائل الإعلامية لتحقيق تسير هذه الإمبريالية المعولمة، عن طريق الاختراق الذي وجد مبرره بأنظمة الاتصال التي تعبر عن أعلى مراحل تقدم الوسائل المعرفية.

لقد تبين أن الهدف من الاختراق تفتيت الوحدات القومية والوطنية وغسل العقول وتحويلها من الفعل إلى الأداة، بمعنى عزل الفعل عن الحرية وإغراقه بالتبعية والتنفيذ، بل أصبح الهدف امتصاص الثروات بأقل ما يمكن من العمالة التي تحولت إلى البطالة المنحرفة.

ويتوضح هذا الاختراق على شكل أيديولوجيا، أو على الأقل على شكل استراتيجية محددة وردت على لسان وزير الدفاع الأمريكي عام (١٩٩٦ م) : «إن سيطرة أمريكا على العالم حتمية بفضل وسائل الاتصال الإلكترونية المتطورة».

وكما ذكرنا يتمثل هذا الاختراق في الشركات والمؤسسات المتعددة الجنسيات التي أصبحت توجه العالم بسبب حلولها مكان الدولة التي باعت اقتصادها وحريتها لهذه المؤسسات فاخرقت نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي .

وفي نطاق الدولة الواحدة فإن عملية الخصخصة ، أي عملية إلغاء القطاع العام وبيع ممتلكاته للقطاع الخاص ، تؤدي بالنتيجة إلى إلغاء الدولة وتسليم مفاتيحها إلى الخواص اللذين سيقودون المجتمع والاقتصاد باتجاه مصالحهم فقط ، وإلى الغرباء اللذين وجدوا محلاً لهم في فجوات كيان الدولة التي فتتها الخصخصة .

لقد أصبحت قضية العولمة اليوم ، من أكثر القضايا تناولاً عند الكتاب والصحفيين والسياسيين ، ولكنها مع ذلك لم تصبح خطة أو استراتيجية مكتوبة كما لم تصبح مذهباً وعقيدة لشعب معين أو لمجموعة من الدول والأقطار ، ومع ذلك فإن تصنيف طوفان الكتابات بحسب مواضيعها المتعلقة بالسياسة أو الاقتصاد أو بالأدب والفن ، يجعلنا نقف أمام قضية من الصعب لملمة أطرافها في صياغة واحدة ، ولكن ما أن ندقق النظر في مجمل الدراسات المتعلقة بالعولمة ، حتى نراها صياغة جديدة للرأسمالية العالمية والإمبريالية ، فما نراه من تدهور في الاقتصاد العالمي نتيجة الفوضى والخلل في ميزان العدالة الاجتماعية ، أصبح مبرراً لتقديم نظام يعيد ترتيب المصالح ، وتقسيم مناطق النفوذ ، لبرمجة طرائق الاستغلال ، ضمن ما يسمى بوحدة السوق العالمية وحرية التبادل بين أقطار العالم ، بصرف النظر عن عدم توازن القوى الاقتصادية والعسكرية بين هذه الأقطار ، لقد اتضحت منطلقات العولمة بعد انهيار المجتمع الشيوعي وظهور آثار هذا النظام في تلاشي المقومات الاقتصادية والاجتماعية وفي زيادة العبء الاجتماعي

واحتمالات الفقراء ، وظهر من ينادي - مدعياً الإصلاح - بالتضحية حتى يمكن كسب المعركة في حلبة المنافسة الدولية ، إن أبرز المشاكل التي جاءت عن انهيار الدعم الاجتماعي ، هروب رؤوس الأموال إلى مناطق الحماية والكسب ، ويضاف إلى هذا سياسة الحكومات الليبرالية التي ألغت الحدود والحواجز أمام السلع والأموال وكانت اتفاقية (الغات) التي تقضي بالتجارة العالمية الحرة ، مما شكل تطبيقاً لمبدأ العولمة التي تحاول بكل ما لديها من سياسة الضغط والإغراء ، على التوسع والانتشار تحت مزاعم انصهار الاقتصاديات في اقتصاد عالمي موحد ، إذ صار العالم سوقاً واحدة وبدت التجارة العالمية وكأنها في نمو مطرد يستفيد منه الجميع .

والواقع أن نمو العولمة أدى إلى تركيز الثروة واتساع الفروق بين البشر والدول ، وفي إحصاء أخير أن (٣٥٨) ثرياً يمتلكون ما يضاهي ثروة مليار إنسان وأن (٢٠٪) من دول العالم تملك (٨٥٪) من التاج العالمي الإجمالي ، كما تملك (٨٤٪) من التجارة العالمية ؛ مما يدفع المراقبين إلى الاعتقاد أن العولمة تسير بالإنسانية إلى انعدام الرفاه والتقدم ، واستمرار التدهور الاقتصادي والانحطاط الثقافي .^(١١) بل تنجّه نحو الصراع في أرضها أولاً بين الفقراء والأغنياء ، وهذا ما تم في جميع مؤتمرات العولمة ، من مؤتمر سياتل إلى مؤتمر جنوه (٢٠٠١م) ، حيث عبّر الشارع بعنف عن رفضه للعولمة ، مما دفع المؤتمرين للبحث في تصحيح مسار العولمة باتجاه العدالة الاجتماعية .

من العولمة إلى حوار العالمية :

أخيراً ، لاشك أن مستقبل العولمة مظلم بسبب ضعف وهشاشة ضوابط الاقتصاديات المعولمة ، ويتوقع المراقبون تحولاً قريباً باتجاه الحماية الاقتصادية للأسواق الوطنية ، والانكفاء على الذات إنفاذاً من انهيار اقتصاد عالمي لا بد منه ، وتبدو بوادر معارضة العولمة واضحة على المستوى الثقافي والشعبي والنقابي والديني والشبيبي

والطلابي، ولقد أضحت الاضطرابات العمالية ضد الخصوصية والعولمة مطالبة بالعدالة الاجتماعية والحماية الاقتصادية، دليلاً على مجابهة يتسع رحاها يوماً بعد يوم، لإيقاف انهيار النظام الاقتصادية الوطنية.

ويبقى أقوى دافع لمقاومة العولمة هو المصير السيء المتوقع للذاتيات الثقافية، فالعولمة سبيل مباشر لمحو الذاكرة الوطنية والتاريخ والانتماء القومي والحضاري.

ولكن كثيراً ما يصل الباحثون في العولمة إلى أبعد من حدود منافعها أو مضارها، وعلى الرغم من أن هذه التكهانات تمتد بين التشاؤم والتفاؤل، فإن العولمة ليست عقيدة ثابتة تشمل جميع أنماط السلوك الإنساني؛ بل تبقى منطقاً اقتصادياً صرفاً يقوم على مبدأ الكسب الأكبر مقابل الجهد الأقل، وهو مبدأ اقتصادي مقبول بحد ذاته، لولا أنه يصدر من المركز أو من قمة المركز ولصالحه، على حساب القاعدة والمحيط؛ لهذا فإن معارضي العولمة بوصفها نظاماً لاستغلال يشمل العالم الفقير كله، سوف يتابعون التصدي لها أو لعلمهم سوف يصوّبون اتجاهها وأهدافها لكي تصبح عولمة إرادية تلقائية وليست إرغامية، عولمة تتجه بوقت واحد لصالح كل مجتمع ضمن نطاق الصالح العالمي، وهذا ما سيقرب العولمة من مفهوم العالمية التي تفتح الباب واسعاً أمام عولمات الشعوب لدخول الفضاء العالمي، وفيه تتبادل المنافع الاقتصادية بشكل متكافئ وعادل.

لقد أنشأت العولمة جدلية جديدة من حيث لاتدري، جدلية تحل محل الجدلية الماركسية وتأخذ معنيها من الجدلية الهيغلية ذاتها، وجدلية العولمة سياسية اقتصادية واجتماعية، وإذا ما تبعنا مسار هذه الجدلية حتى مرحلة الصراع، فإن الثنائية الجدلية التالية هي جدلية الحوار التي ستتفاعل ضمن نطاق العالمية، إن جميع سياسات وقرارات المنظمات الدولية، تتجه نحو توطيد العالمية وتدعيم الحوار فيها، وهذا هو المناخ الصحيح لبرنامج النظام العالمي الجديد، وجميع دول المحيط مدعوة أن تتضامن لوجود

هذا المناخ، مستعينة بجميع الوسائل المتقدمة التي أنجزتها الحضارة الحديثة، بعد أن تنقذها من سوء الاستعمال الذي تمارسه دول المركز لتنفيذ أهدافها الإمبريالية العالمية.

لقد أصبح واضحاً أن مجابهة مخاطر العولمة وفخاها، تحتاج إلى نوع من التكتل الإقليمي أو القومي أو القاري، قادر أن يصحح أخطاء العولمة بتفتيت السوق العالمية التي تبتلع الضعيف بعد أن تقضي على جميع فرص الحوار المتكافئ؛ ولذلك فإن الاتحاد الأوروبي يعمل على وضع شروط جديدة على الرأسمالية المعولمة السائدة، تؤدي إلى الوفاء بمستلزمات التوازن الاجتماعي للحفاظ على البيئة القومية والاقتصادية والاجتماعية، ويسعى الاتحاد الأوروبي إلى اتخاذ قرارات تشارك فيها القاعدة على نحو ديمقراطي، بمعنى أن تشارك النقابات والاتحادات النسائية والثقافية والإنسانية التي ترتبط عضويًا بمثيلاتها في العالم خارج الاتحاد الأوروبي؛ وبهذا فإن باب الحوار يصبح مشروعاً بين هذا الاتحاد والدول الأخرى، كما أن باب أمركة أوروبا يصبح أقل نفاذاً، ويبقى أن تعي الدول العربية هذه المنطلقات التي تسعى إلى تصحيح مسار العولمة التي تسرب إلى السياسات العربية، وذلك بتكوين اتحاد عربي مماثل قادر على فرض الشروط الكافية للجسم مخاطر السوق المعولم، وقادر على تكوين اتحاد نقدي وضريبي وعلى تعزيز الرعاية الاجتماعية لدراء مخاطر الحرية الاقتصادية. وفي القرآن الكريم ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثباتاً أو انفروا جميعاً﴾ (النساء / ٧١) دعوة للاتحاد والتصدي الجماعي.

ولابد أن تتابع الدول العربية التحولات التي تتم في العالم وتستفيد من نتائجها، فالدعوة الأوروبية لتعزيز الجنوب العربي تنموياً، يجب أن تفهم بكثير من الوعي والاهتمام، فلقد وجدت شعوب الشمال أنه لا بد لها من التخلي عن اقتصاد التبذير لإفساح المجال أمام دول الجنوب كي تستمر في تنمية اقتصادها من دون أن تدمر بيئتها، وإذا كان الهدف الكامن هو إنماء أسواق الاستهلاك لتعزيز أسواق الإنتاج، كان علينا أن

نعيد النظر في سياسة الاستهلاك، على ضوء ما تسير عليه سياسات العالم في الكف عن التبذير والهدر بالإمكانات والطاقة والموارد الطبيعية .

إن أسمى ما تسعى إليه الاتحادات الدولية، هو إنقاذ العالم من مآل العولمة أي الصراع الذي لامناص منه، وتصحيح مسار النظام العالمي الجديد باتجاه الحوار، وبخاصة في مجال الاقتصاد الذي يؤدي الخلل في توازنه، إلى الظلم مما يوجب الصراع، وهو مآل العولمة أو الأمركة. ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ .

الهوامش

- (١) Nord - Sud. Du Defi au dialogue
- نادي روما : من التحدي إلى الحوار - مقترحات لنظام علمي جديد - دمشق - الثقافة ١٩٨٠ م .
- (٢) Bénédict . R: Patterns of Culture (London) 1987
- (٣) Carrithers. M.: why Human have Culture 1992
- لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة - علم المعرفة ٢٢٩ - الكويت .
- (٤) Woolf . E: Europe and The People without history 1982.
- (٥) Bahnassi . A. :what we gave to the west. Damascus 1987
- (٦) Hunke . Z : Le Soleil d' Allah brille sur l'Occident. Paris 1980
- (٧) صمموا ثيل هانتغتون «صدام الحضارات وإعادة وضع النظام العالمي» ١٩٩٣ م صدر في مجلة (الشؤون الخارجية الأمريكية)
- (٨) إدوار سعيد - الاستشراق، المعركة، السلطة، الإنشاء بيروت ١٩٨٠ م .
- (٩) كافن زاييلي - الغرب والعالم - عالم المعرفة - الكويت .
- (١٠) Fukuyama F : The End of History -1989
- فرنسيس فوكوياما : نهاية التاريخ والإنسان الأخير - برون باريس ١٩٩٨ م .
- (١١) Peter Martin : Die Globalisierungsfolle -1996
- فخ العولمة بالاعتداء على الديمقراطية والرفاهية - عالم المعرفة ٢٣٨ - الكويت .

التسامح في الإسلام

د. عطا الله مهاجراني

بداية ونحن نتحدث عن مقولة «التسامح في الفكر الديني الإسلامي» أن نقدم تعريفا مختصراً عن هذه المقولة في اللغة قبل خروجها إلى استخدامها في العلوم الدينية أو الفلسفة السياسية ، أو في علم الاجتماع أو الفلسفة الاجتماعية ، وهو ما نحن بصددته في هذه المقالة .

تجمع كتب اللغة كما تجمع معجمات تفسير اللغة المعروفة على أن لفظة التسامح ترد مرادفة للفظه التساهل .

أولاً- يورد الفيروزآبادي في القاموس المحيط : المساهلة كالمسامحة ، تساهلوا : تسامح ، تساهل ، تسامح ساهله : سامحه .

ثانياً- يشير ابن منظور في لسان العرب إلى التسامح والتساهل بصفتيهما مرادفين ، ويعرف الحنيفية السمحة : ليس فيها ضيق ولا شدة .

ثالثاً- يورد صاحب «منتهى الأرب في لغة العرب» ساهل : تساهل معه ، تساهل : الليونة في الطلب ، تساهل : تسامح فيه .

رابعاً- يورد صاحب «أقرب الموارد» أن التساهل والتسامح مترادفان ، ويقول في توضيح بيع السماح ما كان فيه تساهل في بخس الثمن .

خامساً- وجاء في معجم «تكملة الأصناف» لين : سهل ، رجل سهل : إذا كان سمحاً واسع الخلق .

يتضح أن تعريف التسامح يترادف مع اليسر والسهولة واللين . وفي قراءة سريعة للتعريف بما في ديننا وشريعتنا حسب ما جاء على لسان أقرب المفسرين ، نستطيع أن نقول : إن الدين هو المعاملة والرفق واللين ، والاختيار أي اختيار أيسر الطرق إلى الوصول إلى الحقيقة والكمال وذلك من خلال الانطباع بقدر الإمكان مع سنن الله الكونية يقول الله مخاطباً نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ ونيسرك لليسر ﴾ . يقول الإمام فخر الرازي في التفسير الكبير بأن اليسر : هي أعمال الخير التي توصل إلى اليسر ، فوفقك إلى الطريقة التي هي أسهل وأيسر أي نوفقك إلى الشريعة والحنيفية السمحة السهلة .

وقد أشار أبو الفتوح الرازي إلى هذا الفهم في كتابه «روض الجنان» حيث أورد في ذيل هذه «تمسكوا بالحنيفية السمحاء» ، وقد صاحب تفسير «التيان» اليسرى : الجنة ، وإن عاقبة أعمال الخير الجنة .

وفسرها السيوطي في «در المنثور» أيضاً بالسهولة واليسر . ويرى محيي الدين بن عربي أن أيسر الطرق إلى الله سبحانه وتعالى هي الشريعة السهلة السمحاء . ويرى العلامة الطبطبائي في تفسير «الميزان» أن اليسر صفة في موضع موصوفها المحذوف ، وتقدير الكلام هو : ونيسرك للطريقة اليسرى .

والمراد باليسر : هو تيسير نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمعنى تيسير فطرته إلى الهدى الذي لا يختار فيه سوى الطريقة اليسرى ؛ لجعله يميز بين اليسر التي هي طريقة الفطرة لأسهل الطرق .

إضافة إلى الآية السابقة فإن الآية الثامنة من سورة الليل تطرح المضمون نفسه : ﴿ فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ . والإمام فخر الرازي يؤكد على أن تعريف لفظة (اليسرى) يقصده الإشارة إلى الطريقة ، فكأنه يقول : إلى الطريقة

اليسرى . واليسر بمعنى : الجنة ، والعسر : بمعنى الشرك . وهذا يؤكد أن التساهل والتسامح واليسر في تناول أمور الدين وممارستها أمر خيري واستراتيجي في ديننا الحنيف .

وبالتالي منهج وطريقة وأسلوب إذا اتبعناه وصلنا إلى الجنة ، وإذا جنبناه قد نقع في الشرك ؛ فنصل إلى النار والعياذ بالله .

إن الدين والشرعية يعتمدان أسلوب السماحة واليسر والرفق بالإنسان ، يدل على ذلك أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان يتعامل مع أصحابه بالرفق واللين ، وقد وجه المولى خطابه إلى نبيه بقوله : ﴿ فقل لهم قولا ميسورا ﴾ وأيضاً كما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم محدثاً جماعته بالأسلوب الذي أمر به : « ولكن بعثني معلماً ميسراً » وكما قال في موضع آخر : « إن خير دينكم أيسره » .

يتضح أن تلك الآيات والأحاديث تؤكد على أن الدين يحث على أيسر الطرق وأسهلها . وقد ورد في بعض المصادر أن الإمام محمد الباقر سأل رجلاً من أين أحرمت؟ فقال : من الكوفة ، فقال له : ولماذا من الكوفة؟ ، فقال : إنني سمعت من بعضكم أنه كلما كان محل الإحرام أبعد كان ثوابه أكثر ، فقال له الإمام الباقر : لم ينقل لك هذا الكلام إلا كذاب . وقال : لا يعرض لي بابان كلاهما حلال إلا أخذت باليسير ؛ وذلك لأن الله يسير ، ويحب اليسير ، ويعطي على اليسير ، ما لا يعطي على العنف ، اللهم إني أسألك دوام اليسر .

يتبين مما تقدم أن الله - سبحانه وتعالى - يأمر باليسير من المناهج والأحكام ، ويدعو إلى الرفق واليسر والتساهل والتسامح في التعامل مع الناس في أمر دينهم ، ولا يحبذ التشدد والعسر في أمر الدين .

وفي رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى دار عثمان بن مضعون بعد أن اشكت زوجته أنه يمضي أيامه ولياليه كلها بالصيام والقيام ، وعندما ذهب إليه النبي صلى الله عليه وسلم ورآه على تلك الحال التي وصفها زوجته ، قال له : لم يبعثن الله بالرهبانية ، ولكن أرسلني بالحنيفية السهلة السمحاء .

إن ما ينبغي التأكيد عليه هنا أن الشريعة السهلة السمحاء هي شريعة الحياة الطيبة ، ومن يتتعد عنها كما يقول الله يتتعد عمليا عن فطرته ، ومن يتتعد عن الفطرة ستكون له معيشة ضنكا شاقة ، وبعبارة أخرى فإن مقولة التساهل والتسامح القرآنية تنصرف إلى الحياة ، فيما تنصرف النظرية المضادة لها وهي العنف والتشدد إلى الموت ، حتى وإن ظن أصحابها بأنهم يتتغون الآخرة .

نعم ليس هناك من شك بأن هناك أياما من حياة الشعوب مطلوب فيها التضحية بأموالهم وأجسادهم من أجل حريتهم وكرامتهم وإيمانهم كما يقوم المجاهدون الفلسطينيون اليوم بمجاهدة الاحتلال والعدوان . لكن القاعدة ليست باستهداف الهياكل والقضاء عليها في كل الأحوال ، والاستشهاد في ظروف المواجهة مطلوب ، ومقبول جدا ؛ لكن لا نتحول إلى نظرية الموت ومن أجل الموت فقط ؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى خلق الله الإنسان للحياة أولا ، وليس للموت ؛ فالموت إنما خلقه من أجل حياة أخرى .

أما ما يخص التسامح في السيرة والدعوة ، فنحن في خضم دراستنا للتسامح والتساهل في الإسلام ، لا بد أن نسأل أنفسنا عن المنهج الذي اتبعه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في تبليغ دعوته ، وكيف كانت صلته مع الناس في مختلف طبقاتهم ، وكيف كان يتعامل مع المعارضين وأصحاب الرأي الآخر ، فهل كان ينبذهم ، ويزج بهم في السجون ، وهل كان يكفرهم ويفسقهم لمجرد اختلافهم معه في الرأي ، وبعبارة أخرى

ما مدى انسجام ما يقوم به البعض من دعاة التشدد والطرْد للآخرين ، وتفسيقهم من على المنابر ، أو من خلال وسائل الإعلام الأخرى مع منهج الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم .

إن هناك محطتين في حياة النبي صلى الله عليه وسلم توضحان بجلاء أن أساس تعامله مع الناس كان قائما على المودة والرحمة . الأولى : تعامله مع المسلمين بعد الهزيمة في معركة أحد . الثانية : تعامله مع المشركين بعد فتح مكة . فبحيث ما كان مكلفا بأداء الفرائض ، فإنه مكلف بالتسامح والتساهل مع الناس والفرق أيضا ، قال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ... ﴾ وقد نزلت هذه الآية بعد معركة أحد كما هو معروف ، وهي تصف خلق النبي صلى الله عليه وسلم .

والقصة المعروفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرر الخروج من المدينة لملاقاة المشركين بعد التشاور مع جماعة المسلمين في الوقت الذي كان رأيُه هو البقاء في المدينة وانتظار المشركين ومع ذلك فقد نظر في رأي غالبية القوم ؛ مما أدى إلى يوم الجمع بالهزيمة بعد أن غادر جماعة منهم مواقعهم طمعا في الغنائم وهو الأمر الذي أدى إلى استشهاد حمزة عم النبي عليه الصلاة والسلام ، ومع ذلك أمره الله بالتسامح مع الناس . وعندما عزّ على أصحابه الأمر ، قال بعضهم : العنهم يا رسول الله ، فقال : إني لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون .

وروى الخليفة عمر رضي الله عنه ، أنه قيل للنبي عليه الصلاة والسلام : إن نبي الله نوحا عليه السلام دعا على قومه ، وقال ربي لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، فادعُ عليهم مثل ما دعا عليهم نوح ؛ فإنهم داسوا ظهرك وجرحوا وجهك ، وكسروا أسنانك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

وكذلك من المعروف أنه حينما أشار بعض الصحابة على النبي صلى الله عليه وسلم قتل عبدالله بن أبيّ، فامتنع عن ذلك فقال : لا وحتى لو تحدث أن يقتل محمد وأصحابه . وكذلك عندما طلب ابن عبدالله أن يجيزه أن يقتل أباه ، رفض فلم يسمح له بذلك .

أما ذروة تساهل النبي وتسامحه وحلمه فقد تجلّى في مواقفه مع المشركين في فتح مكة تلك المواقف التي تحتاج منا إلى دراسة وتأمل حتى يمكننا تقييم أقوالنا وأفعالنا في معرفة سلوك النبي وأخلاقه من ذلك حينما التقى النبي أبا سفيان قال له : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ، فقال أبو سفيان : ما أحلمك وأصبرك . وبلغ النبي أن سعد بن عباد ، وكان حامل راية المسلمين في فتح مكة - قال : اليوم يوم الملحمة ، وتستحل الحرمه ، فأمر النبي عليه السلام أن تؤخذ منه الراية وتسلم لعلي رضي الله عنه .

وقد وقف النبي صلى الله عليه وسلم عند باب الكعبة وأخذ يقرأ نشيد الانتصار : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ثم قال : يا أهل قريش لقد أذهب الله عنكم غروركم بالجاهلية ، وتفاخركم بأسلافكم ، الذين كنتم تعظمونهم ، والناس كلهم من آدم ، وقد خلق الله آدم من تراب ، ثم أضاف ، يا أهل قريش ماذا تظنون أني فاعل بكم ، قالو : أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وهكذا أقيمت مراسيم المبايعه ، وأقبل الرجال والنساء يبائعونه كل على انفراد ، ومن ضمن النساء : هند أكلة كبده حمزة عم النبي ؛ فعرفها النبي وسألها وقال لها : أنت هند بنت عتيبة ، فقالت : أجل ، اصفح عما سلف رحمك الله ، فما كان من النبي إلا أن عاملها بالعفو والمداراة . وبقية القصة معروفة حينما جعل من يدخل بيت أبي سفيان فهو آمن ، وكذلك تعامله مع قاتل عمه حمزة المعروف بالوحشي ، حيث هرب

من مكة ، فدعاه النبي وأعطاه الأمان ، بل والبقاء مشركا إن أراد . يوضح ذلك ما يقوله موفد النبي ، حينما قال له : ارجع ، وعش بين أهلِكَ في مكة ، ولا شأن لنا بك ، وإن شئت أن تبقى مشركا فلك ذلك .

يتضح من المثالين أن القاعدة في التبليغ هي التساهل والتسامح ، وأما العقاب والجزاء فهو استثناء ؛ إذ لو كانت القاعدة هي العقاب لكان المفترض أن يقتل النبي هند وأبا سفيان ، والوحشي وآخرين ، ولم يكن ذلك بالصعوبة ، ويمكن تبريره بلغة (اليوم) بالثورية .

ومن جهة أخرى فإن أية دراسة متأنية متعمقة للأحكام القرآنية التي نزلت على الرسول وبشكل تدريجي في قرابة (٢٣) سنة تؤكد أن الله ما كان يريد للدين الخاتم (الإسلام) إلا أن يكون دين الحياة والعيش الكريم ، وأن تعاليمه سبحانه لم تكن أوامر عسكرية صارمة ، بل إنها مرشد عملي للعيش السهل وحياة سمحة كالسمك في الماء لا كالطير في القفص .

والتسامح مدرسة ومنهج حياة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم فما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ... ﴾ .

ونحن هنا أمام أسلوب ومنهج عظيم في التعامل مع العدو ، ومع العدو المحارب أيضا ، أسلوب يدعو إلى التسامح ، وأسلوب تربوي غاية في الدقة .

وتأثير ذلك أن من يسيء يتلقى الإساءة من الآخر بقانون المقابلة بالمثل ؛ ولكنه عندما يرى خلافه فإنه قد يتغير ويعود إلى رشده وصوابه تحت تأثير تأنيب الضمير ، وقد يتحول إلى ولي حميم .

وفي موضع من مواضع التعلم من المدرسة القرآنية لا بد من التوقف طويلا عند الآية الكريمة ، حيث يقول تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ . وتفسير هذه الآية الكريمة حسب العديد من المفسرين أنها نزلت في كيفية التعامل مع العدو وليس مع الصديق ، ففي تفسير «التبيان» فإنها نزلت في يهود بني قريظة ، وكلنا نعرف خصائص بني قريظة في صدر الإسلام .

ويتساءل البيضاوي في تفسيره بأنه إذا كان المطلوب التعامل مع الأعداء بعدالة ، فكيف ينبغي أن يكون التعامل إذا مع الأصدقاء ؟

إنه منهج يذكرني بتعامل أحد كبار الشخصيات الإسلامية في تاريخنا ألا وهو الشريف الرضي مع رجل صابئي ألا وهو أبو إسحاق الصابئي ، وسأورد بعض أبياته من إحدى قصائده التي اتفق فيها الشريف الرضي في خطابه فيها ذلك الرجل المختلف معه في الدين ، إذ يقول :

أرأيت من حملوا على الأعواد . . . من ثقله متطابق الأزياد
ما كنت أعلم قبل خطك في الثرى . . . أن الثرى يعلو على الأطواد
لا ينفد الدمع الذي يُبكي به . . . إن القلوب له من الإمداد

إنها قصيدة يرثي بها الشريف الرضي صديقا له صابئي العقيدة ، وهي قاعدة لنا في التعامل مع الناس بالتسامح والقبول .

إننا كمسلمين كنا وما نزال أكثر الأمم والشعوب التي تسجل وتدون دحض آراء المعارضين لدينها وعقيدتها في كتب مجالات كثيرة جداً .

وكما أوردت الشريف الرضي مثالا فإن تاريخنا مليء بمثل هذه الأمثلة التي يتبين فيها الرأي بحق الآخر ، بكل إنصاف وتسامح .

الإسلام .. والحضارات الأخرى

د . حامد بن أحمد الرفاعي (*)

المستخلص

إن مفردات هذا الموضوع توحى بجملة من الأسئلة منها :

- ١ . ما هو الإسلام ؟ . .
- ٢ . ما هي الحضارة ؟ . .
- ٣ . ما هو الآخر الحضاري ؟ . .
- ٤ . ما هي رسالة الإسلام الحضارية ؟ . .
- ٥ . ما هو موقع الآخر في حضارة الإسلام ؟ . .
- ٦ . هل نحن أما حضارة بشرية واحدة ؟ . . أم أنها حضارات ؟ . . أم ماذا ؟ . .
- ٧ . ما هي الرؤية الإسلامية لإقامة تعايش بشري حضاري آمن ؟ . .

وفق هذه الأسئلة ودلالاتها بذل الجهد الممكن من أجل تجلية هذا الموضوع ، وتقديم رؤيتنا وفهمنا للحضارة ، وتأكيد أهمية الحوار بين الحضارات ، باعتبار أن الحوار هو السبيل الآمن للتعارف والتعاون من أجل تحقيق الأفضل للمجتمعات البشرية .

وفي هذا السياق بدأنا بالتعريف بالإسلام من حيث معناه العام الذي تؤكد فيه : أن الإسلام هو دين الله تعالى ورسالته للناس جميعاً ، بشرّبه الأنبياء والرسل صلوات الله

(*) عمل أميناً عاماً مساعداً لمؤتمر العالم الإسلامي ، وعضو في عدد من الفعاليات الخيرية والإغاثية والتأسيسية الإسلامية العالمية ، ومنسق لجنة خبراء الدراسات الاستراتيجية للدعوة الإسلامية في منظمة المؤتمر الإسلامي .

وسلامه عليهم جميعاً أقوامهم كل حسب مقتضيات زمانه وأحوال مكانه، ووفق طبيعة قضاياهم وحاجاتهم وعلى قدر حجم علاقاتهم وتداخل مصالحهم.

والإسلام بمعناه الخاص يقوم على مرتكزين اثنين هما:

- * عقيدة: تقرر وتؤكد إخلاص العبودية لله الواحد الأحد الفرد الصمد لا شريك له.
- * شريعة: تقرر فيما تقرر وحدة الأسرة البشرية، وكرامة الإنسان وقدسية حياته، وإقامة العدل بين الناس جميعاً، وأن الرجل والمرأة مكلفان بعمارة الأرض على أساس من التكامل المنصف بينهما، وأن البيئة سكن آمن للناس يجب المحافظة على سلامتها وعدم إفسادها.

وأن التلازم الوثيق بين العقيدة والشريعة هو معيار العبودية الخالصة لله تعالى. . مع التأكيد على أن إخلاص العبودية لله هو أساس ومرتكز التكوين التربوي للإنسان المؤهل للنهوض بمهمة ومسؤوليات أمانة الاستخلاف في الأرض. . مؤكداً أن إخلاص العبودية لله يرسخ أرقى وأسمى مراتب حرية الإنسان، وأكمل وأرفع مقومات كرامته وعزته، وبالإخلاص تستقيم النفس البشرية، ويعمر وجدانها بالرقابة الذاتية والحوافز الذاتية للنهوض بمسؤوليات الحياة وتبعاتها، مثلما يعمر وجدانها وضميرها بقيم ومعايير العدل والرحمة.

ومن جهة أخرى تحدث البحث عن نظرة الإسلام وفلسفته تجاه الكون والحياة، وتجاه علاقة الإنسان بالأشياء وباقي المخلوقات (من حيوان ونبات) من حوله، وهو يمارس مهمة الاستخلاف في الأرض، والتي تقوم بجوهرها على أن جميع المخلوقات في عبادة الله، وأنها جميعها مسخرة بين يدي الإنسان، لتمكنه من النهوض بمسؤوليات أمانة مهمة الاستخلاف في الأرض وعمارتها.

وتحدث البحث عن معنى منهجية تسخير المادة للإنسان، وأوضح أن المادة حيادية في أداء مهمة التسخير، لا تنحاز لأحد دون أحد فهي للجميع سواء بسواء، فهي مطواعة

في مهمتها للكافر مثلما هي للمسلم، وللظالم والعاذل، وللقوي والضعيف، وللمرأة والرجل، لا تمتنع ولا تنغلق إلا أمام الجهل والجاهلين، ولا تدير ظهرها إلا للكسالى والمتخلفين، وهذه الحيادية في أداء المادة من سمات وخصائص العدل الرباني في الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿ ومن يرد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾، ومن ناحية أخرى وبنفس السياق يتحدث البحث عن قاعدة الحاجة بين الناس، وكيف أن مشيئة الله وحكمته جل شأنه قضت أن تقوم قاعدة التسخير بين العباد، لتتكامل إمكاناتهم وكفاءاتهم ومهاراتهم بين يدي الاضطلاع بمهمة الاستخلاف في الأرض، ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾.

ثم ينتقل البحث للتحدث عن الحضارة، وما قيل في شأنها من رؤى ومفاهيم، وعرض نماذج لتعريف الحضارة لعدد من علماء المسلمين ومفكرهم، وكذلك لعدد من علماء العالم ومفكرهم، حيث وجد أن مفاهيم تعريف الحضارة عند الجميع تتقاطع أحياناً وتفرق أحياناً أخرى، إلا أنها تلتقي عند أمر واحد وهو: أن الدين والقيم الروحية والثقافة والقيم هي العامل الأساس، والحافز الأقوى في ميادين العمل الحضاري، والنقط البحث خيط هذه الظاهرة المشتركة بين المتحدثين عن الحضارة، وأخذ يبحث في أسبابها ومرجعياتها، حيث انتهى إلى أن سبب هذا التوافق الجوهرى بين العلماء حول معنى الحضارة، إنما يعود لأصل وحدة التكوين البشرى للإنسان ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾، ولارتباط الناس جميعاً بعهد الإيمان الأزلي مع الله تعالى ﴿ وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى... ﴾ الآية، فوحدة التكوين ووحدة العهد مع الله هما مصدرا عوامل الالتقاء على الخير والفلاح بين بني البشر، وبعد مناقشة آراء العلماء حول الحضارة قدم البحث تعريفاً عاماً للحضارة مفاده: أن الحضارة هي ثمرة كل جهد بشري يبذل لعمارة الأرض وفق ثقافة ما أو وفق منهج ما.

أما من وجه النظر الإسلامية: فالحضارة هي ثمرة الجهد البشري المبذول لعمارة الأرض وإقامة العدل فيها وفق منهج الاستخلاف الرباني القائم على التوازن الدقيق والوثيق بين مرتكز الإيمان والقيم والمبادئ والسلوكيات، وبين مرتكز الماديات والوسائل والكفاءات والمهارات.

ثم يتابع البحث مناقشة العلاقة بين الشق الثقافي والشق المادي للحضارة، ليؤكد من بعد أن الشق الثقافي هو المسؤول الأول عن هوية الفعل الحضاري، مثلما هو المسؤول عن سلوكيات وأخلاقيات استثمار وتوظيف العطاء الحضاري، وأن كرامة الإنسان وأمنه وسلامة البيئة وإقامة العدل بين الناس، هي المعايير الميدانية التي يحكم بها على صحة وخيرية وإيجابيات العطاء الحضاري لثقافة ما أو منهج ما. ثم قدم البحث شواهد تاريخية ومعاصرة تؤكد ما ذهب إليه من تحليل، ثم يناقش فكرة العلاقة بين الثقافة والمنهج وحركة سير العمل الحضاري للإنسان في الأرض، من خلال التحدث عن نموذج مختار من كيمياء الحياة، ثم يقارنها مع نماذج مقترحة من كيمياء الحضارة، لينتهي بهذه المقارنة إلى التأكيد على أن الثقافة أو المنهج هما المسؤولان عن هوية العطاء الحضاري وعن طبيعة وسلوكيات أدائه في الحياة، وأن التنوع الثقافي يفرز تنوعاً حضارياً، وأنه بقدر ما تصطلح الثقافات على كليات عليا من القيم والمبادئ المشتركة، بقدر ما تنهيا الفرصة لإمكانية التكامل والتعاون الحضاري، وفي الختام يطرح البحث مقترحات من الكليات العليا القابلة لأن يصطلح الناس عليها، واتخاذها هدفاً مشتركاً لتحقيق تعايش حضاري عالمي آمن منها:

١. وحدة الأسرة البشرية ورفض كل أنواع التمييز العنصري بين الناس.
٢. أن الأرض سكنهم ومصدر عيشهم المشترك، وأن خيرها للجميع على أساس من احترام حق التملك والقبول بمشروعية الانتفاع المتبادل.
٣. أن العدل هو الأساس التي تقوم بموجبه علاقة الأمم والمجتمعات دون امتياز والعمل على غسل عار قاعدة (حق الفيتو) لجهة ما من البشرية في الأرض.

- ٤ . العمل معاً على تجديد القيم الدينية والأخلاقية وبعث روح المسؤولية بين الأجيال البشرية .
 - ٥ . اعتماد الحوار الجاد بين الحضارات كأساس للتعارف من أجل اختيار الأفضل لتحقيق كرامة الإنسان والتعايش الآمن بين الناس .
 - ٦ . التأكيد على أن الأسرة المؤسسة على التزاوج الشرعي بين الرجل والمرأة هي الوحدة الأساس في بناء المجتمعات البشرية .
 - ٧ . التأكيد على أن الأسرة وحدة أساس من وحدات المجتمع المدني وأنها المصدر الأكفأ لأجيال مسؤولة ومنتجة .
 - ٨ . العمل على مساعدة الفقراء لتحرير أنفسهم من الظروف القاسية التي تتنافى مع كرامة الإنسان ووشائج الأخوة الإنسانية .
 - ٩ . العمل معاً على اكتشاف القيم الحضارية المشتركة مع مراعاة الخصوصيات الثقافية في سبيل تحقيق الأفضل للجميع .
- هذا وختم البحث موضوعه بتقديم وجهة نظر عن العالمية والعولمة وموقف الإسلام من تلازم العلاقة بين العالمية والعولمة على أساس من منهج الاستخلاف الرباني .
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الإسلام .. والحضارات الأخرى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا الهادي الأمين المبعوث
رحمة للعالمين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه .

مقدمة :

إن مفردات عنوان هذا الموضوع توحى بجملة من الأسئلة منها :

- * ما هو الإسلام . . ؟
- * ما هي الحضارة . . ؟
- * ما هي رسالة الإسلام الحضارية . . ؟
- * ما هو الآخر الحضاري . . ؟
- * ما موقع الآخر في رسالة الإسلام الحضارية . . ؟
- * هل نحن أمام حضارة بشرية واحدة أم حضارات . . أم ماذا . . ؟
- * ما هي القيم التي يقدمها الإسلام لإقامة تعايش بشري آمن . . ؟

وأحسب أن من واجبنا - نحن المسلمين - تجاه الإسلام الذي نؤمن به عقيدة ومنهج حياة ، ومن واجبنا كذلك تجاه أجيالنا وأجيال البشرية جمعاء ، أن نبذل جهدنا بكل جدية وعلمية وموضوعية لتقديم أجوبة واضحة ومحددة عن هذه الأسئلة وغيرها ، لتتجلى قيم ومقاصد رسالة الإسلام العالمية ، وليتلاشى كل غبش لحق برؤية الآخر عن الإسلام وقيمه الربانية الخالدة . . . ويقدر ما نوفق - بعون الله تعالى - في تقديم الإجابة الدقيقة والموضوعية عن مثل هذه الأسئلة وغيرها ، بقدر ما نستطيع التقدم باتجاه تعريف أنفسنا

.. وتحديد ماذا نريد .. وتوضيح منهجنا في تحقيق ما نريد .. ومن ثم تحديد موقفنا من الآخر في إطار توجهاتنا .. وتحديد المساحة المشتركة بيننا وبينه في ميادين الحياة ، ولعلي من خلال هذا البحث أوفق - بعون الله تعالى - في تجلية هذا الموضوع المهم ، مشاركة مني في إنهاء الإشكاليات الكثيرة التي تثار حوله ، ويقصد تقديم إضافة متواضعة إلى الجهود الطيبة التي بذلت ولا تزال تبذل من أجل إنهاء حالة الخلل الكبير ، الذي طرأت على تصورات كثير من الناس حول منهجية الإسلام العظيم وقيمه ومبادئه الربانية السمحة ، ولعلي كذلك من خلال هذا البحث تسليط الضوء على بعض جوانب عظمة الإسلام وقيمه الربانية الخالدة ورسائله الحضارية المشرفة .

ما هو الإسلام ..؟

إن الإسلام كما نعتقه ونفهمه - نحن المسلمون - وباختصار شديد .. هو دين الله تعالى ورسائله التي ابتعث بها جميع الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) ، ليشروا أقوامهم كل حسب مقتضيات زمانه وأحوال مكانه ، ووفق طبيعة قضاياهم وحاجاتهم وعلى قدر حجم علاقتهم الاجتماعية على مستوى القوم والعشيرة ، حتى انتهى أمر تبليغ رسالة الإسلام إلى خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، في زمان قد تنامت معه العلاقات البشرية ، وازدادت حاجة الناس بعضهم إلى بعض ، وتداخلت مصالحهم الثقافية والاجتماعية والأمنية والاقتصادية ، مما يتطلب وحدة المنهج ، وتكامل قيمه وشمولية كفاءته ، وعالمية خطابه وقيمه ومبادئه ، مثلما يتطلب شمولية موازين العدل ومعاييره ، لتكون للناس جميعاً - دون استثناء - على اختلاف أعراقهم وأجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم .. حيث تكاملت مع ابتعثات رسول الهدى محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - رسالة الإسلام وقيمها ومبادئها ، كما في قوله سبحانه ﴿اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(١) ، وكما هو بين في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن مثلي ومثل الأنبياء

من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فيه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^(٢) ، وهكذا مع تمام وكمال رسالة الإسلام تحول الخطاب الرباني للناس من صيغه القومية الخاصة إلى سعة وشمولية صيغه العالمية ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾^(٣) ، وهكذا ومع بعثة رسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، ختمت رسالة الله تعالى إلى الناس بتمام قيمها ومبادئها لتكون الخطاب الكامل الشامل للعالمين .. والإسلام من جهة أخرى يقوم بقيمه ومبادئه على مرتكزين اثنين هما :

- ١ . عقيدة : تقرر وتؤكد إخلاص العبودية لله الواحد الأحد الفرد الصمد لا شريك له ، وأنه جل شأنه منزّه بصفاته وأحواله وأفعاله عن صفات وأحوال وأفعال البشر وباقي الأشياء ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾^(٤) .
- ٢ . شريعة : تقرر فيما تقرر وحدة الأسرة البشرية ، وكرامة الإنسان وقدسيتها حياته ، وإقامة العدل بين الناس جميعاً ، وأن الرجل والمرأة مكلفان بعمارة الأرض على أساس من التكامل المنصف بينهما ، وأن البيئة سكن آمن للجميع يجب المحافظة على سلامتها وعدم الإفساد فيها .

والإسلام بهذا الفهم العام الشامل وهذا التلازم والتكامل بين العقيدة والشريعة ، يؤكد على قضية أساس يعتبرها المصدر والمنطلق لكل ما يأتي بعدها من قيم ومبادئ وسلوكيات ، ألا وهي قضية إخلاص العبودية لله وحده وعدم الشرك به ، باعتبارها القضية الأولى التي جعلها الله تعالى تنصدر مهمة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، وهم يبلغون رسالة ربهم لأقوامهم ولمن أرسلوا إليهم ، وهذا ما تؤكد به النصوص القرآنية التالية :

- * ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ (٥) .
- * ﴿وإلى عاد أخوهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ (٦) .
- * ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ (٧) .
- * ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره لقد جاءكم بينة من ربكم فآوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (٨) .
- * ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (٩) .
- * ﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ (١٠) .
- * ويقول الله تعالى على لسان المسيح عليه السلام :
- ﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ (١١) .

ويشكل عام يقول الله تعالى :

- ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسلاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطواغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (١٢) .

وجاء خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ليؤكد هذه القضية الأساس ، فيأمره ربه جلّ شأنه ليعلمها للناس جميعاً وفق قوله تعالى :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٣) .

والإسلام إذ يؤكد على إخلاص العبودية لله وحده لا شريك له ، إنما يهدف بذلك إلى تأصيل المنطلق الأساس ، وتأکید العامل الفاعل والحاسم ، في صياغة وتكوين شخصية الإنسان المؤهل لحمل مسؤوليات أمانة الاستخلاف في الأرض ، وليؤكد كذلك المراكز الفعل في تحقيق كرامة الإنسان وفق إرادة الله تعالى .

* فإخلاص العبودية لله وحده دون غيره ، يؤسس ويرسخ أرقى وأسمى مراتب حرية الإنسان ، وينشئ النفس البشرية على أكمل وأرفع مقومات كرامة الإنسان وعزته ، كما جسدها كلمات ربعي بن عامر وهو يرد على رستم قائد الفرس في معركة القادسية ، بعد أن سأله رستم ما الذي جاء بكم يا عامر ؟ فقال له : «لقد ابتعثنا ربنا بالإسلام لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة» (١٤) ، وهكذا ويوم ترسخ ثوابت حرية الإنسان وتستقر مقومات عزته وكرامته ، وفق إرادة ربه وعلى أساس من إخلاص العبودية له جل شأنه ، يومها يكون مؤهلاً للتحرر من كل مغريات الفساد ، ويومها يكون محصناً بقوة ضد كل عوامل الخنوع والظلم والعدوان ، ويكون مزوداً بكل مقومات الاستجابة لتحديات النهوض بمهام البناء الإيجابي في ميادين الحياة .

* وبإخلاص العبودية لله وحده لا شريك له ، تتأهل النفس البشرية لإقامة والتزام معايير العدل بين الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (١٥) ، وتنمو لديها حوافز الرفق والرحمة بالآخرين «مثل المؤمنون في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له الجسد بالسهر والحمى» (١٦) .

* وبإخلاص العبودية لله وحده دون غيره ، يتحرر الإنسان من عبودية ذاته وتعظيم شخصه ومكانته ، يتحرر من عبودية مكانته الاجتماعية فلا يستهين بمن حوله ، ولا يستعلي على الآخرين بظلم وجور ولا يقلل من شأنهم ولا يبخسهم في أنفسهم ولا في أفعالهم وأشيائهم بدون وجهة حق ، ﴿أفأريت من اتخذ إلهه هواه﴾^(١٧) ، وبالخضوع الخالص لله الواحد الأحد ، يتحرر الإنسان من جريمة التآله على إخوانه من بني البشر وتنصيب نفسه إلهاً لهم ورباً على تصريف شؤونهم والتحكم بمصائرهم ، يأمرهم بالباطل فيطيعون . . . ويكلفهم بالمنكرات فينفذون . . . ويطلبهم بما تشتهي نفسه من نزوات الشر والفساد في الأرض فيستجيبون . . . حتى إذا قال لهم أنا ربكم الأعلى . . . قالوا سمعنا وأطعنا وهم مذعنون ، والتاريخ قديمه وحاضره يحدثنا عن أمثال هؤلاء الطواغيت . . . ألم ينصب فرعون نفسه رباً على قومه ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾^(١٨) ، فلما استجابوا له استخف بهم فتمادى في غيه وطغيانه ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾^(١٩) ، وكذلك فعل قارون وكذلك يتكرر هذا النموذج النكد القبيح من عبادة الذات واستعباد الآخرين كلما انتكست قيم الإيمان ، وكلما اختلفت معايير العبودية الخاصة لله الواحد الأحد الفرد الصمد تباركت أسماؤه وتفردت صفاته وأحواله .

* وبالعبودية الخالصة لله وحده ، تتحقق المساواة الصحيحة بين الناس ، حيث لا تفاضل بينهم بسبب ألوانهم أو أعراقهم أو أجناسهم ، إنما التفاضل بالتقوى والعمل الصالح وبذل الخير ودفع الشر والفساد ، فالناس من حيث أصل الكرامة والمنشأ سواء ، إلههم واحد ، مثلهما أن أباهم واحد «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب»^(٢٠) .

وذات يوم مرت برسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة ، فقام لها احتراماً وإجلالاً فقيل له إنها جنازة يهودي ، فقال عليه الصلاة والسلام «أليست نفساً»^(٢١) ، فالنفس البشرية بالإسلام مكرومة لذاتها بصرف النظر عن هوية انتمائها ، وتحديثنا أخبار الخليفة

الراشد عمر بن الخطاب ، أن ابن والي مصر عمرو بن العاص دخل في سباق مع زميل له قبطي ، وفاز الشاب القبطي في السباق على ابن والي مصر ، الذي غضب لفوز القبطي فضربه بعصاه قائلاً له أتسبق ابن الأكرمين . . ؟! فغضب والد الشاب القبطي لإهانة ولده وارتحل إلى عاصمة دولة الخلافة الإسلامية يشكو أمره إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واستمع عمر لشكواه واستدعى عمرو بن العاص وولده ، وعقد محكمة برئاسة شخصياً ، وسأل ولد والي مصر عن صحة شكوى الشاب القبطي فأقر بجريمته ، عندها أعطى عمر بن الخطاب درته للشاب القبطي قائلاً له اضرب ابن الأكرمين ، فلما فعل وأخذ حقه ممن ضربه ، قال له عمر بن الخطاب ضعها - أي الدرة - على صلعة أبيه ، فقال الشاب القبطي يا أمير المؤمنين لقد أخذت حقي من خصمي فما بال أبيه . . ؟ فقال عمر رضي الله عنه ما كان ليضربك إلا بسلطان أبيه ، ثم قال قولته التي لاتزال تدوي في أذن الزمان من وراء القرون مخاطباً عمر بن العاص «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» (٢٢) .

❖ وبالعبودية الخالصة لله وحده دون غيره ، تستقيم النفس البشرية ويعمر وجدانها بالرقابة الذاتية ، فلا يحتاج إلى من يراقب سلوكياته وأفعاله ، فال التزام الفضيلة واجتناب الرذيلة في الإسلام هو من مقتضيات العبودية الخالصة لله ، لأن الله تعالى قد حدد لعباده المؤمنين ما حرم عليهم ، وأمرهم باجتنب ذلك وعدم الوقوع في مخالفته حيث يقول جلّ شأنه ﴿ قل تعالوا آتوا ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ * ولا تقرّبوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ * وأن هذا صراط مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به

لعلمكم تتقون» (٢٣)، وبالتوحيد الخالص لله يستقيم كذلك أداؤهم ويرتقي إنتاجهم ، لأن الله تعالى يربقهم ويشهد أعمالهم ، باعتبارها شاهد على إخلاص عبوديتهم له جل شأنه حيث يقول سبحانه : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ (٢٤) ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه» (٢٥) .

* وبإخلاص العبودية لله وحده ، تعمر النفس البشرية الرحمة والشفقة بالآخر أياً كان هذا الآخر إنساناً أو حيواناً ، حيث يخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن رجلاً دخل الجنة بكلب ، رآه يلعب على الشرى من العطش فسقاه الرجل وأذهب عنه ظمأه» (٢٦) ، «وأن امرأة دخلت النار في هرة ، لأنها حبستها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل مما في الأرض فماتت» (٢٧) .

* وبالتوحيد الخالص لله تعالى في ألوهيته وربوبيته ، يرتقي الوجدان الذاتي للإنسان في تحمل مسؤوليات الحياة وواجباتها ، وتنمو لديه نزعة جدية العمل والإنتاج ، على حساب نزوات عبثية الاستهلاك ، وعلى حساب عدم المبالاة في شؤون الحياة ومسؤولياتها ، حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الرجل في بيته راع وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيته ، والولد في بيت أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته ، والخادم في بيت سيده راع وهو مسؤول عن رعيته ، ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (٢٨) ، ويقول الله تعالى : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله﴾ (٢٩) ، ويقول عليه الصلاة والسلام : «إن الله يحب العبد المحترف» (٣٠) ، ويقول صلى الله عليه وسلم : «إن الله يغفر لمن بات كالاً من عمل يده» (٣١) .

من أجل كل ما تقدم . . . ومن أجل التأكيد على حرية الإنسان وانعتاقه من كل عوامل ومغريات العبودية والذلة لغير الله . . . ومن أجل تحقيق أرقى وأكمل صياغة تربوية لسلوكية الإنسان في ميادين الحياة . . . ومن أجل إعداد الإنسان المؤهل للنهوض بأمانة مهمة الاستخلاف في الأرض وعمارته . . . ومن أجل صياغة وجدان الإنسان المؤهل لإقامة العدل بين الناس بلا استثناء . . . جاء تأكيد الإسلام على إخلاص العبودية لله . . . لأن النفس البشرية المرتبطة بعظمة الله . . . تهون في عينها وأمام مهمتها تحديات ومعوقات الزمان والمكان ، فلا تحول دون النهوض والمضي في تحقيق إرادة الله في عمارة خيرة وأمنة للأرض ، ولا تحول دون إقامة العدل بين الناس ، وتحقيق التعايش الآمن بين أبناء الأسرة البشرية الواحدة ، وبعد هذا التوضيح لمرتكزات التأسيس الرباني لصيغة البناء التربوي للإنسان ، تتضح لمن شاء ملامح ومرتكزات فهمنا وتصورنا لمسيرة الإنسان في الحياة ، مما سيأتي تفصيله من خلال التعامل مع الأسئلة التي طرحناها في مطلع هذا البحث مثل . . . ما هي الحضارة . . . ؟ وما هي رؤيتنا الحضارية ؟ . . . ؟ وما هو الآخر وما هي نظرتنا لسيره الحضاري ؟ . . . ؟ وما هي مقومات رسالتنا الحضارية للتعايش البشري الآمن ؟ . . . ؟

لقد كتب الكثير في تعريف الحضارة ، ولا يزال المعنيون بالفكر والثقافة وعلم الاجتماع يكتبون ، حول تحديد معنى الحضارة ومفهومها ودلالاتها ومعاييرها ، مما يؤكد أن مصطلح الحضارة من المصطلحات الموسوعية ، التي تحتل كثيراً من المعاني وتتسع لكثير من الرؤى ، وأحسب أن هذه السعة أمر طبيعي لأن كل جهة تكتب عن الحضارة ، من منطلق ثقافتها ومعتقداتها وأعرافها وتقاليدها ورؤيتها الخاصة عن الكون والحياة ، من هنا يجد الباحث نفسه أمام كم هائل من التعريفات للحضارة ، تتقاطع أحياناً وتفترق وتتناقض في أحيان أخرى ، ولكنها جميعها تدور حول معنى واحد ، مفاده أن الحضارة تعبر عن حالة سير الإنسان في ميادين الحياة ، مع الاختلاف طبعاً فيما يطرح حول معايير الأداء البشري في مسيرة الحياة ، وسأجتهد في هذا الفصل في اختيار أبرز ما

قبل في تعريف الحضارة كما وردت في المراجع العلمية ، لعلني أوفق في عرض مشهد من ألوان الطيف الحضاري كما عكستها رؤى المفكرين ، لنقول من بعد وجهة نظرنا في سياق رؤية هذا البحث ومقاصده *

ونبدأ بما يقوله ابن خلدون عن الحضارة في مقدمته الشهيرة : «فالحضارة عند ابن خلدون تنتج عن الاجتماع الإنساني بوسيط هو الملك فهي ناتج طبيعي للملك الذي يسعى لتحقيق الرأفة ، وأن التاريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران الأرض . . وأن الحضارة أحوال زائدة على الضروري من العمران . . ويؤكد : على العلاقة الوثيقة بين ميلاد الحضارة وميلاد الدولة القوية . . ويقرر : أن الدين صاحب الدور الأساس في إحداث التغيير الاجتماعي والحضاري» (٣٢) .

أما مالك بن نبي فيرى : «أن الحضارة لها تعريفات عدة بحسب جوهرها ، أو مبدئها ، أو تركيبها ، أو وظيفتها ، أو وحدة كيانها ، أو حسب العلاقة بين روحها ومنتوجاتها

* فحسب جوهرها : هي مجموعة من القيم الثقافية . . فالثقافة هي جوهر الحضارة .
* وبحسب مبدئها : فهي إنتاج فكرة ما حية تجعل مجتمع ما يدخل التاريخ ، وتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم في خصائصه التي تميزه عن الثقافات الأخرى .
* وبحسب تركيبها : فهي مركب اجتماعي لثلاثة عناصر (الإنسان ، التراب ، الزمن) مع العمل الأخلاقي باعتباره الحافز على عملية الترابط بينها ، وبدونه تتحول إلى كومة لا شكل لها .

* وباعتبار وظيفتها : فهي جملة العوامل المعنوية والمادية التي تؤهل المجتمع لتقديم الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدم كل مجتمع فيه .

* وبحسب وحدتها وعلاقتها بمنتوجاتها : فهي مجموعة من الأشياء والأفكار المنسجمة بصلاتها ومنافعها وألقابها الخاصة وأماكنها المحددة .

فالحضارة ليست أي شكل من أشكال التنظيم للمجتمعات البشرية ، ولكنها شكل نوعي خاص يحمل سمات معينة ، ويهدف إلى غاية معينة ويتسم بالرقى . . . أي أن المعطيات النفعية والضمانات الحياتية هي المؤشر على أداء الحضارة لوظيفتها . . . وبالتالي فإن عملية التغيير الحضاري هي عملية تأليف بين الإنسان والتراب والزمن بواسطة الدين ، الذي يتيح توجيه الإنسان ثقافياً بما يؤهله لاستغلال وتوظيف طاقاته والمواد الأولية ، واستغلال الزمن عمياً واجتماعياً بما يؤدي إلى الحضارة»^(٣٣).

وأبو الأعلى المودودي يعرف الحضارة فيقول : «إنما هي نظام متكامل يشمل كل ما للإنسان من أفكار وأراء وأعمال وأخلاق في حياته الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أو السياسية بشكل عام» أما الحضارة الإسلامية فيعرفها قائلاً : «مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله سبحانه وتعالى لكل هذه الشؤون والشعب المختلفة لحياة الإنسان . . وهي المعبر عنها بدين الإسلام . . أو الحضارة الإسلامية»^(٣٤).

ويفرق تقي الدين النبهاني بين الحضارة والمدنية فيعرف الحضارة : « بأنها مجموعة المفاهيم عن الحياة ، أما المدنية فهي ما اقتصر على الأشكال المادية للأشياء المحسوسة التي تستعمل في شؤون الحياة . . وعلى هذا فالحضارة الإسلامية هي التي تقوم على الإيمان بالله وعلى أساس العقيدة الإسلامية»^(٣٥).

أما سيد قطب فإنه يصر على أن «الإسلام هو الحضارة وأن ماعدها تخلف ، وبذلك لا يجوز إطلاق لفظ حضارة على ما سواه من الأمم»^(٣٦).

أما سعيد حوى فيقول : «كثيراً ما يحدث لبس بين ثلاث كلمات الحضارة ، المدنية ، الثقافة . . ونتيجة لهذا اللبس فقد أراد بعضهم أن يحدد معاني هذه الكلمات فقالوا : مدنية أمة ما تعني الجانب المادي في هذه الأمة . . وثقافة أمة ما تعني الجانب الآخر في حياة الأمة ، والثقافة هنا ليس العلم بل هي التصورات والأفكار والسلوك

والآداب وكل المعاني التي لا تدخل في الجانب المادي ، وحضارة أمة ما تعني مجموع ثقافتها ومدنيتها ، ثم يتابع سعيد حوى ليقول على هذا الأساس فكل أمة من الأمم يمكن أن تكون لها حضارة . . إذ أن لكل أمة في هذه الحالة مدنية ما ، أي جانب مادي ، ولكل أمة ثقافة بصرف النظر عن مضمون هذه الثقافة . . ومن هنا نقول : الأمة ذات الحضارة المتقدمة هي التي اجتمع لها تقدم مدني وتقدم ثقافي ، والأمة المتخلفة حضارياً هي الأمة التي اجتمع لها تخلف مدني وتخلف ثقافي . . وقد نجد أمة متقدمة مدنياً وهي متخلفة حضارياً ، وقد نجد أمة متقدمة ثقافياً ومتخلفة مدنياً . . «ويلقى الشيخ سعيد حوى قائلاً : «فإذاً التقدم الحضاري إنما يكون عندما توجد ثقافة متقدمة ومدنية متقدمة ، والتخلف الحضاري يكون عندما تكون ثقافة متخلفة ومدنية متخلفة» (٣٧).

وأوزالد شينجلر Oswald Spengler سجل حول معنى الحضارة أفكاراً كثيرة منها :

- * لكل حضارة قيمها الخلقية الخاصة بها ، وليست هناك أخلاق إنسانية عامة .
- * إن أخلاق كل حضارة هي صادقة دائماً في داخل إطار هذه الحضارة أما خارج هذا الإطار فإنها باطلة دائماً .
- * لا يمكن أن تكون ثمة حضارتان متماثلتان كل التماثل فلكل حضارة تاريخ مستقل وقائم بذاته ولا يتأثر بغيره ، وإن حصل مثل هذا التأثير فإنه يتمثل بأشكال كاذبة تتنافى وأصالتها تنافياً كلياً .
- * لكل حضارة عناصر خاصة بها وأخرى غريبة عنها وأن هذه العناصر الخاصة والغريبة تحددتها النفس الأولية لكل حضارة .
- * من المستحيل على أفراد حضارة ما أن يفهموا فهمًا صحيحاً حضارة أخرى غير حضارتهم .
- * أن لكل حضارة دستوراً أخلاقياً يتجلى في العقيدة وقوة النفس وأن الدستور الحضاري لا يتمحور حول العقل بل حول الوجدان .
- * العقلانية بكل مذهبها هي فلسفة مدنية وليست حضارة ، والحضارة عندما تدخل الطور العقلاني تبدأ خريفها وتشيع ثم تتابع انحدارها نحو الزوال (٣٨) .

أما أرنولد توينبي Arnold Toynbee فقد تحدث عن الحضارة في سياق اهتمامه بالدراسات التاريخية والاجتماعية وطرح آراء كثيرة نختار منها ما هو داخل في صميم بحثنا ومقاصده :

- * التاريخ عبارة عن وحدات وكل وحدة تمثل «حضارة» وتوصل بذلك إلى إحدى وعشرين حضارة كلها بادت وبقي منها خمس حضارات :
- ١ . المسيحية الغربية . ٢ . المسيحية الشرقية .
- ٣ . الإسلامية . ٤ . الهندية .
- ٥ . الشرق الأقصى .

* إن الحضارات الإقليمية لا تفهم إلا في إطار انتمائها الحضاري الأوسع «إنجلترا تفهم كجزء من الحضارة النصرانية الغربية» .

* التحدي والاستجابة هو سبب نشوء الحضارة وولادتها .

* إن الاستجابة للتحدي تكون عادة من أقلية مبدعها تقود الأكثرية المقلدة ، كما أن الاستجابة من المبدعين ليست متماثلة ، وهذا سبب الفرق بين المجتمعات الصغرى في كيان الحضارة الواحدة .

* عندما تتفقر حالة الاستجابة للتحديات المتجددة تقف القدرة على الإبداع ، وتحول الأقلية المبدعة إلى أقلية مسيطرة تفرض وجودها على الناس بالقوة ، وهذا يشكل بداية سقوط الحضارات» (٣٩) .

وبتريم سوروكين يقول : «بأن نظرية التغيير الاجتماعي عنده تقوم على مبدئين :

الأول : مبدأ التغيير الذاتي Principle Of Immanence

يؤكد حتمية التغيير في المجتمعات ((فالتغيير سنة الحياة)) وأن العوامل الخارجية طفيفة ، إلى جانب العوامل الذاتية .

الثاني : مبدأ الحدود Principle Of Limits

يشير إلى القوى المضادة التي تواجه التغير عند مستواه الأفضل لأن التغير لا يستمر إلى ما لا نهاية . . مما يضطر النسق إلى تبديل اتجاهه أو يكرر اتجاهات سابقة له . ويقول بأن النسق الثقافي الكلي «الفوقي» يتكون من أنساق أساسية وهي « اللغة ، الدين ، الفن ، الأخلاق ، العلوم » .

ويمر المجتمع عند سوروكين بثلاث مراحل هي :

- ١ . مرحلة الثقافة الفكرية Culture Adeational
- ٢ . مرحلة الثقافة الحسية (المادية) Sensate Culture
- ٣ . مرحلة الثقافة المثالية (المختلطة) Idealistic Culture

الثقافة الفكرية :

العناصر المكونة للحضارة في هذه الحالة تكون قائمة على المعتقدات الدينية ، مما يجعله يتسم بالأدب الروحي والتقشف والثقافة تكون روحية وليست مادية «مسيحية العصور الوسطى» .

الثقافة الحسية ((المادية)) :

تتسم بالتخلي عن النزعة الروحية مع الانغماس بالماديات أي أن العناصر المكونة للحضارة تستند على العلم والنظرة الوضعية في الأمور القانونية والأخلاقية وحتى الدينية وبروز سمة الواقعية وتسود فلسفة الملذات ويبرز التقدم العلمي والصناعات الاستهلاكية حيث الترف والإسراف .

«الحضارة الغربية الحالية»

الثقافة المثالية :

هي مزيج من النسقين الفكري والحسي . . وتأتي هذه الحالة نتيجة طبيعية لتجارب الناس مع الالتين السابقتين الروحية والزهد مع غياب المادية والملذات ثم المادية والملذات مع غياب الروحية والزهد يتجه الناس إلى الوسطية والاعتدال .

ويرى سوروكين أن الغرب في مرحلة السقوط الحضاري مثل ما يقول شينجلر . . إلا أنه يرى أن عدم التماسك والانحلال في النسق الاجتماعي الثقافي لا يعني نهاية الحضارة . . . فالتدهور الثقافي السحي في الغرب يعني أنها تتجه إلى قمة ثقافة فكرية جديدة أو مثالية . . أي أن المهمة الإبداعية للثقافة الغربية سوف تستمر»^(٤٠).

ومن جانبه يذهب المفكر الغربي جورج باستيد George Bastide إلى أن الحضارة تعني «التدخل الإنساني الإيجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة ، تجاوباً مع إرادة التحرر في الإنسان ، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ورغباته ولإنقاص العناء البشري»^(٤١).

و أليار شفا بتزر يعرف الحضارة «إنها بذل الجهد من أجل التقدم»^(٤٢).

أما العالم الألماني غوستاف كلم Gustaf Kelmm فإنه يصف الحضارة قائلاً : «العادات والمعلومات والمهارات والحياة الخاصة والعامة في السلم والحرب ، والدين والعلم والفن وتمثل الحضارة في نقل تجارب الماضي للجيل الجديد»^(٤٣).

ويرى العالم الإنجليزي سير إدورد تليور Sir Edward Taylor «أن الحضارة والمدنية ذلك الكم المركب الذي يحتوي على المعلومات والمعتقدات والفنون والقيم والقوانين والتقاليد وجميع القابليات والعادات التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في مجتمع ما»^(٤٤).

ويتفق روبرت لوي Robert Lowie مع تيلر بأن «الحضارة مجموع ما يحصل عليه الفرد في مجتمعه ، أي المعتقدات والتقاليد ، والنماذج الفنية والعادات المتعلقة بالغذاء والحرف ، التي تصل إليه عن طريق فعالياته الإبداعية ، بل كمبررات في الماضي ينقل عليه بالتعليم العفوي أو المنظم»^(٤٥).

ومن ناحيته رالف بيدنقتن Ralph Piddington فإنه يعرف الحضارة قائلاً : «إن حضارة شعب ما تكون من مجموع الأدوات المادية والفكرية التي يستطيع بها ذلك الشعب إتباع حاجاته الحياتية والاجتماعية وتكييف نفسه لبيئته»^(٤٦).

ويعرف ميلفل هيركوفتس Melvidle Herkovits الحضارة بقوله : «إنها الجزء الذي يخلقه الإنسان من البيئة ، ويصفها بأنها تعلم وتلقن ، وذات كيانات متميزة وقابلة للتقسيم إلى أوجه مختلفة ومتغيرة ، وتتفرع من كل العناصر المكونة لوجود الإنسان»^(٤٧).

وبعد هذا العرض الموسع لأبرز ما قيل في تعريف الحضارة من قبل العلماء المسلمين وغيرهم ، نلمس بوضوح أن هناك قواسم مشتركة في فهم معاني الحضارة بين المفكرين والعلماء من أبرزها التأكيد على الدين والقيم والثقافة كعامل أساس في تكوين الحضارة ، وأحسب أن هذا الالتقاء حول كثير من معاني الحضارة ودلالاتها ، يعود إلى أصل وحدة تكوين نظرة الإنسان ، وإلى وحدة مصدر المهمة التي خلق من أجلها ، فالناس جميعهم خالقهم واحد وربهم واحد ، وكلهم لأدم وآدم من تراب ، وجميعهم ورثوا بالفطرة مسؤولية أمانة الاستخلاف في الأرض ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾^(٤٨) ، وجميعهم جاء خلقهم وتكوينهم مؤهلاً لمهمة الاستخلاف ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾^(٤٩) ، وهذا التماثل وهذه الأصول المشتركة للناس جميعاً من حيث وحدة الخلقة ، ومن حيث وحدة المنبت ، أو من حيث وحدة مصدر التكليف ، أو من حيث الكثير من جوانب التفكير ، وكثير من جوانب مقومات السعي في

الحياة الدنيا ، مرده إلى وحدة مصدر أصول التكوين الفطري للإنسان ، وأحسب بالمقابل أن جوانب الاختلاف في التفكير والتصور إنما يعود إلى الفوارق الجوهرية التي طرأت على أصول مقومات فطرة تكوين الإنسان ، وعلى أصول إعداداته وتأهيله لمهمة الاستخلاف في الأرض ، وهذا ما يشير إليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : «المولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . . .»^(٥٠).

وقولنا إن سبب الاختلاف في التوجهات والتصورات حول مفاهيم السير في ميادين الحياة ، إنما يعود لفوارق جوهرية ، لأننا نؤمن بأن الله تعالى هو سبحانه مصدر وحدة التكوين الفطري للناس حيث أخذ عليهم جميعاً عهده الأول ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى .. ﴾ الآية^(٥١) وذلك قبل أن تخرج سلالاتهم للحياة الدنيا ، وأشهدهم على أنفسهم بأنهم عباد المنصاعون لألوهيته وربوبيته ، وأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسله وأنبياءه من بعد ليؤكدوا العهد الأول ، بتبليغهم رسالة ربهم وتعاليمه وقيمه التي ارتضاها لهم منهجاً يلتزمون به في أداء مهمة الاستخلاف في الأرض ، وحيث أن كثيراً من الناس قد انحرف بهم السير عن رسالة الهدي الرباني ، وتفرعت بهم السبل عن وحدة سبيل الأنبياء والرسل المرتكزة على قول الله تعالى ﴿ أن اعبدوا الله مالمكم من إله غيره ﴾^(٥٢) ، حيث أن الكثير منهم عطل أو خرج على قيم ومبادئ وأخلاقيات منهج الاستخلاف في الأرض ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾^(٥٣) ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴿^(٥٤).

أجل إن مثل هذا الخلل الذي أصاب أصل وحدة التنشئة البشرية ، ولحق بأصل وحدة الاعتقاد الذي هو أساس صحة وسلامة التنوع والتعددية المنهجية ، في إطار وحدة المنهج الرباني هو الذي أفرز هذا الاختلاف ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من

الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» (٥٥) ، وهذا النص يؤكد من جهة أخرى بأن الاختلاف بحد ذاته ليس ظاهرة سلبية بقدر ما هو عملية إيجابية ، يوم يكون هذا الاختلاف وهذا التنوع يدور في إطار وحدة الهدف وعلى أساس من وحدة المنهاج الرباني العام ، ويوم يكون هذا التنوع أيضاً متسقاً مع مقومات ومقاصد أمانة الاستخلاف في الأرض وفق إرادة الله تعالى ، أما يوم يكون هذا الاختلاف وهذا التنوع مصدره النكوث بالعهود مع الله تعالى ، ومصدره الخروج على منهاج الله الذي رسمه لعباده للنهوض بمسؤوليات أمانة الاستخلاف في الأرض ، فإن مثل هذا التنوع ومثل هذه التعددية غالباً ما تكون مصدراً للاختلاف والتضاد ، ومصدراً لاضطراب مناهج السير في عمارة الأرض ، ومصدراً كذلك لخلل كبير في صيغة فهم تنوع الثقافات والسلوكيات ، مما يولد مصدراً لأسباب عدم الانسجام والاتساق بين أهداف وغايات ومصالح مجتمعات الأسرة البشرية الواحدة . . وهذا مما يجعل الثقافات متفاوته في طبيعة خدمتها في ميادين الإنتاج الحضاري . . حيث إن نوع الإنتاج الحضاري ومرتبة الإبداع الحضاري ، مرتبطة تمام الارتباط بطبيعة الثقافة ومقوماتها وقيمها ونظرتها للكون والإنسان والحياة . . وإن الثقافة تبقى العامل الأساس في تحديد هوية الحضارة ومضامينها القيمية والسلوكية ، لأن الشق المادي من أي حضارة هو شق محايد ، فالمادة باعتقادنا نحن المسلمين محايدة في أداؤها وعطاؤها بين يدي الإنسان ، باعتبارها مسخرة له لتسهيل مهمته بالنهوض بأمانة الاستخلاف الرباني لعمارة الأرض . . في إطار العبودية المشتركة لله تعالى ، حيث إن الكون كله -باعتقادنا- في عبادة الله تعالى إلا من أبي من الناس ، كما يؤكد ذلك قول الله تعالى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ (٥٦) .

﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾ (٥٧).

وهنا تتجلى لنا حكمة الله تعالى وفضله وعدله ، أن جعل المادة موحدة في عبادتها ، حيادية في أداء رسالتها الحضارية للناس ، لا تستعصي في عطائها على ثقافة ما أو سلوكية ما ، فهي تؤدي كامل مكنوناتها للكافر مثلما تؤديها للمؤمن أو المسلم سواء بسواء ، لا تنحاز لأحد دون أحد ، ولا تستعصي إلا على الجهل والجاهلين وعلى الكسالى والتنازل ، أيًا كانت هويتهم الدينية أو العرقية أو القومية أو الجنسية أو اللونية ، أما من يسعى إليها بالعلم والمهارة والجد والمثابرة ، فإنها تستجيب له وتتفاعل مع غاياته ومقاصده لا فرق عندها أن يكون العالم مصلحًا أو مجرمًا ، غنيًا أو فقيرًا ، امرأة أو رجلاً ، مؤمنًا أو كافرًا ، قويًا أو ضعيفًا ، فهي للجميع على أساس من شرط العلم والمهارة والثقافة والبحث والجد والمثابرة ، فهي لكل من طرق أبوابها واجتهد في الغوص في بحور مكنوناتها وكنوزها ، وهذا هو العدل الرباني المطلق . . لأن الله سبحانه وتعالى عندما استخلف الإنسان في الأرض ، استخلفه بصفته إنسانًا مكلّفًا ، تصدى لحمل أمانة الاستخلاف في الأرض ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا﴾ (٥٨) ، فالتكليف الرباني جاء مطلقًا للجنس الإنسان ، بصرف النظر عن طبيعة إيمانهم أو معتقدتهم أو ثقافتهم ، وهذا من أرقى وأكمل درجات الإكرام ، مثلما هو أرقى وأكمل مراتب العدل والإنصاف ﴿من كان يرد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ (٥٩) .

وبهذا يتجلى لنا أيضًا الفضل الأكبر والأسمى من الله تعالى أن جعل المادة حيادية الأداء والعطاء ، لتبقى مهمة الاستخلاف والنهوض بأمانتها متاحة لكل الناس بدون

استثناء ، ولتبقى المادة مسخرة للجميع ، تفتح خزائنها لكل من يحسن التعامل مع مفاتيحها ، وتقدم كنوزها لكل من يمتلك مهارة تفعيل مكوناتها ، ومن جهة أخرى فإن حرمان المادة من حق الاختيار جاء بحد ذاته نعمة كبرى من الله تعالى للإنسان وللخلائق جمعاء ، تصوروا كم ستكون الكارثة لو أن المادة أعطيت حق الاختيار في أداء مهمة التسخير التي كلفها بها ربها جل شأنه تجاه الإنسان وباقي الأحياء ، ثم انحازت باختيارها لمجتمع ما أو جهة ما من الأرض ، ولعلكم تتصورون كم تكون الكارثة مثلاً لو أن الهواء أعطي حق الاختيار في أداء مهمته ، ثم انحاز بمهمته لقوم دون غيرهم أو لجهة من الأرض دون غيرها ٠٠ ويمكنكم كذلك أن تتخيلوا ما هي حالة الناس وجميع الخلائق ، وماذا سيطرأ على حركة الكون لو أن الماء أعطي حق الاختيار ، ثم انحاز بمهمته الربانية ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾^(٦٠) ، لصالح قوم دون غيرهم أو لقارة من القارات دون غيرها أو لأي جهة من الأرض دون غيرها ، سبحانه ربي ما أعظم شأنك وما أجل حكمتك . . سبحانه أنت اللطيف ، الخبير ، العليم ، المدبر ، الحكيم ، لا إله إلا أنت . . ومن هنا نتجلى لنا حكمة التسخير المطلق للمادة لتكون في خدمة الإنسان بدون استثناء ، ولتكون فاعلة بين يديه للنهوض بأمانة عمارة الأرض ، وبهذا التسخير المطلق للمادة للناس جميعاً ، يعطي الله تعالى الفرصة للتنافس بين الناس ، مثلما يعطي الفرصة لتكامل القدرات والمهارات البشرية من أجل النهوض بعمارة الأرض ، وهذا يأتي متسقاً مع حكمة الله تعالى ، وقد خلق الناس بقدرات متفاوتة ومهارات متفاوتة وبأرزاق وثروات متفاوتة لتقوم قاعدة الحاجة بينهم ، للنهوض معاً بمسؤوليات عمارة الأرض ومسؤوليات إقامة العدل ، وبغير هذا التنوع بالقدرات والكفاءات وبغير التنوع بالثروات ومصادر الطاقة والحاجة لماقامت أسباب التكامل والتعاون بينهم ، ولتعطل من بعد واجب النهوض المشترك بمسؤوليات عمارة الأرض .

وعلى أساس من ذلك تتضح فلسفة وجوه نظرة الإنسان المسلم للكون ، وتتحدد كذلك وجهة نظره نحو طبيعة العلاقة بين المسلم والخلائق من حوله . . والتي هي علاقة

الأداء المشترك لإنفاذ إرادة الله في عمارة الأرض ، إنها علاقة الطاعة والعبادة الخالصة لله تعالى في محارب الكون المتنوعة . . . فالكل في عبادة . . . والكل في تسبيح وتبئل . . . والكل في واجب النهوض بعمارة الأرض . . . والكل في اتساق وتعاون من أجل أرقى وأكمل درجات الإبداع الحضاري ، بين يدي الغاية الكبرى المتمثلة في طاعة الله . . . وتحقيق كرامة الإنسان وإقامة العدل في الأرض ﴿ ولقد كرما بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً ﴾^(٦١) ، ويوم تعتل هذه النظرة وتختل هذه العلاقة بين الإنسان والخلائق من حوله ، ويوم تخرج مسيرة حركة الإنسان في الكون عن طبيعة هذه العلاقة التي رسمها خالق الكون ومدبر أمره ، تختل معه وتعتل ثمرات السير الحضاري للإنسان في الأرض ، وبقدر ما تعتل وتختل هذه العلاقة ، بقدر ما يتتاب ويعتري ثمرات الجهد البشري العيب والخلل والفساد ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾^(٦٢) ، والعلاقة بين الإنسان والكون تحددها عادة وترسم مسارها وسلوكياتها ثقافة الإنسان التي تربي بموجيها ، وصيغة معاييره السلوكية على أساس من عقيدتها وقيمها وتقاليدها ، وحيث إن الناس اليوم ومن قبل على تنوع في الاعتقاد ، وعلى تنوع في الثقافات ، وعلى تنوع في الفلسفة والنظرة للحياة والكون ، جاء على أساس من ذلك التنوع في التعددية الحضارية ، وبرزت في إطار التعددية الحضارية تعددية قيم ومبادئ وسلوكيات الأداء الحضاري بين الناس بكافة وبين المجتمعات الدولية بخاصة ، وأحسب أن الخطورة التي تواجهها المسيرة الحضارية في الأرض اليوم مصدرها التناقضات الثقافية والمعايير المضطربة والسلوكيات الشاذة في الأداء الحضاري ، ومردها إلى التدهور الأخلاقي والقيمي في ميادين استثمار وتوظيف العطاء الحضاري المادي ، والذي كما أوضحنا من قبل هو عطاء حيادي ، فالمادة ليس لديها إلا الخير ولم تسخر بين يدي الإنسان إلا لخير ، ولكن سلوكيات الإنسان وقيمه وأخلاقياته هي التي تحدد وترسم سلوكيات وأخلاقيات استخدام العطاء الحضاري واستثمار وتوظيف الناتج الحضاري ، ومن هنا يبرز جوهر العلاقة بين الشق المادي

للحضارة وهوية شقها الثقافي الذي أنتجها ، فالثقافة بوجهة نظرنا هي المسؤولة عن كفاءة ومهارة وحوافز الإنسان في عملية الإنتاج الحضاري ، مثلما هي المسؤولة عن سلوكياته وقيمه في توظيف واستثمار الناتج الحضاري ، والمعيار الدقيق في الحكم على إيجابية ثقافة ما وعلى صحة وإيجابية علاقتها بالشق المادي في حضارة ما ، هي درجة ومساحة الكرامة والعدل ، وسلامة البيئة والمصالح العامة التي يتمتع بها الإنسان في كنف تلك الحضارة ، حيث إن الشق الثقافي في حضارة ما هو الذي يحدد طبيعة وهوية الشق المادي (المدني) فيها ، وهو الذي يحدد كذلك الميادين والمقاصد الحياتية التي يتوجه إليها الإنسان ، وهو يمارس تطبيقات استثمار فعله ونتاجه الحضاري ، لتكون في صالح كرامة الإنسان أو على حسابها ، ولتكون في تنمية وحراسة سلامة البيئة أو لإفسادها ، ولتكون حارسة للعدل والدفاع عنه أو أنها عدوة للعدل وهادمة لقيمه ومعاييره ، ولتكون في خدمة النفع العام والمصالح العامة أو أنها لهدم المنافع ولاختلال التوازن بين مصالح الناس في الأرض ، وعلى أساس من ذلك وانطلاقاً من ذلك ، يكون الشق الثقافي في حضارة ما هو المسؤول عن استمرار ونمو تلك الحضارة مثلما هو مسؤول عن توقفها وانتكاستها ، ومثلما هو المسؤول كذلك عن تحجيم نفع وخيرية حضارة ما أو توسيع ميادين نفعها وتعميم خيريتها لتنال الناس جميعاً وفق معايير العدل والإنصاف ، والتاريخ قديمه وحديثه يقدم لنا نماذج واقعية عن مسؤولية الثقافة والقيم والمبادئ في تحديد هوية الحضارات وسيرها سلباً أو إيجاباً ، تقدماً أو تخلفاً ، استمرارية أو اندثاراً ، فالتاريخ يحدثنا أن أقواماً من بدء حركة الإنسان في الأرض بذلوا جهدهم وأعملوا عقولهم في تفعيل واستثمار طاقة الأشياء من حولهم ، وقامت حضارات واندثرت أخرى ، وأبدعت ثقافات أقوام في عطائها الحضاري وأخفقت أخرى ، وأحسن قوم وأسوأ آخرون ، والدراسات والتأملات في سيرة الحضارات البائدة ، تؤكد أن الجانب الثقافي والقيمي كان المسؤول الأول عن نمو وارتقاء الحضارات أو تخلفها واندثارها ، كما يجده الباحث واضحاً وبيّناً في تتبع سيرة بعض الحضارات مثل حضارة

(حمورابي ، وحضارات مانو وبوذا وكونفو شيوس والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية) ، مما لا يحتمل المقام التفصيل بشأنها واستعراضها ، ولكن يمكن القول وباختصار أنها بجملتها قامت على مزيج من الأوامر الدينية والأعراف والفلسفات ، وأنها خلطت في مسيرتها بين الخير والشر ، والعدل والظلم واحترام الإنسان في جانب ، واحتقاره وإذلاله في جوانب أخرى ، مثلما خلطت بين جملة من المتناقضات مثل الأخلاق والفساد ، واحترام الأسرة والإباحية الجنسية ، والشدة والإجرام بحق الإنسان والحيوان والرحمة والتسامح في بعض المواقف والتعاليم العامة^(٦٣) . . مما يجعل الباحث أمام تناقض عجيب ، يدل على اضطراب كبير في التكوين التربوي والثقافي لدى أهل تلك الحضارات . . وهذا الاضطراب الثقافي بتفديرنا كان السبب الرئيس في اندثار تلك الحضارات ، إلا ما بقي من آثارها المادية على ظهر الأرض أو في أحشائها ، مما يكشف عنه هنا وهناك ليدخل متاحف الآثار والتاريخ . . شاهداً على تجارب المسيرة البشرية عبر الزمان والمكان ، والقرآن الكريم يحدثنا كذلك عن حضارات مثل حضارات قوم عاد ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيذ ، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾^(٦٤) ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير حق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾^(٦٥) ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾^(٦٦) .

وثمود ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يكنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾^(٦٧) ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾^(٦٨) ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا

عاليها سافلها وأمطرتنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴿٦٩﴾ .

وأهل مدين ﴿٧٠﴾ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يكنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴿٧١﴾ .

وقوم فرعون ﴿٧٢﴾ وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴿٧٣﴾ ، وقد قامت هذه الحضارات وبادت بسبب من ظلم أهلها وتخلفهم الثقافي والقيمي ، رغم أنهم جميعاً بذلوا جهوداً كبيرة في البحث عن مكونات الأرض وتفعيل طاقاتها وأشادوا صروحاً شامخة من البناء الحضاري المادي ، التي لا يزال الكثير من آثارها شاهداً على عظمة إبداع ومهارات تلك الأقوام في أزمنتهم ، إلا أنهم للأسف بادوا واندثروا ولم يخلفوا للأجيال البشرية ما يعتد به على المستوى الثقافي والقيمي إلا قليل النادر ، مما لا يتكافأ مع شموخ بنائهم المادي العمراني وإبداعاتهم العلمية والصناعية ، مما يؤكد أن تقدمهم المادي كان متفوقاً ومتقدماً كثيراً على تقدمهم الثقافي والقيمي ، وهذا بتقديرنا هو الخلل الكبير في معادلة السير الحضاري عبر الأجيال وحتى تاريخنا المعاصر ، ولتدليل على هذه الحقيقة المتمثلة بأهمية التوازنية في السير الحضاري بين الشق الثقافي والشق المادي ، من أجل أن تستقيم حركة السير الحضاري وتستقيم معه وتطيب ثمرات العطاء الحضاري ، نقدم مقتطفات مما ذكر في القرآن الكريم حول هذه التوازنية ، وما أصاب الحضارات السالفة من اندثار وغياب بسبب من اختلالها واعتلال موازينها ، رغم أن أهلها حرثوا الأرض وثوروها وأتعبوا أنفسهم كدحاً ، إلا أنهم بادوا وبادت معهم ثمرات كدحهم وسعيهم بسبب من غياب التوازنية المطلوبة بين الإيمان والعلم والعمل وذلك في قول الله تعالى ﴿٧٤﴾ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها

وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿٧٢﴾ - وكما جاء في قوله تعالى ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴾ (٧٣).

وفي قوله تعالى ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وكانوا يستهزئون ﴾ (٧٤).

وفي قوله تعالى ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذين خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كنوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٧٥).

وفي قوله تعالى ﴿ قل إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ (٧٦).

وفي قوله تعالى ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾ (٧٧).

وفي قوله تعالى ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحاً

صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴿٧٨﴾ .

وفي قوله تعالى ﴿٧٨﴾ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴿٧٩﴾ .

ومن جهة أخرى فإن الواقع المعاصر يقدم شهادته على خطورة اختلال التوازنية في معادلة السير الحضاري ، ونذكر منها ما جاء على لسان أبرز الزعامات السياسية ممن تربعوا على سيادة أكبر إمبراطوريتين معاصرتين وغيرهم ، ولنبداً بشهادة الرئيس ميخائيل جوريا تشوف زعيم الاتحاد السوفيتي البائد في كتابه الشهير «البيريسترويكا» مشيراً إلى أسباب الدمار التي تهدد كيان إمبراطوريتهم إذاك ، وما أشادته من صروح حضارية مادية على حساب القيم والمبادئ وعلى حساب إنسانية الإنسان ، محاولاً تدارك ذلك باعثاً صرخاته ولكن بعد فوات الأوان . . وإليك نماذج مما يقول :

« يمكن لصواريخنا أن تصل إلى مذهب هالي وتطير إلى الزهرة بدقة مذهلة ، ولكن إلى جانب هذه الانتصارات العملية والتكنولوجية نجد نقصاً واضحاً في الكفاءة في استخدام المنجزات العملية للحاجات الاقتصادية ، كما أن كثيراً من الأجهزة المتزلية السوفيتية من نوع رديء ، ولسوء الحظ فليس هذا كل ما في الأمر ، فقد بدأ تدهور تدريجي في القيم الأيدلوجية والمعنوية لقيمتنا . . وبدأ الفساد يسري في الأخلاقيات العامة ، وزاد إدمان الخمر والمخدرات والجرائم ، وسنواصل بحزم النضال ضد المسكرات وإدمان الكحوليات » (٨٠) .

« ومهمتنا الرئيسية اليوم هي أن نرفع من روح الفرد ، ونحترم عالمه الداخلي ونعطيه قوة معنوية ، ونحن نسعى لأن نجعل كل قدرات المجتمع الفكرية وكل إمكانياته

الثقافية تعمل من أجل تشكيل شخص نشط اجتماعياً و غني روحياً ، ومستقيم وحيي الضمير ، وينبغي أن يعرف كل فرد ويشعر أن هناك حاجة إلى إسهامه ، وأن كرامته لا تخذش ، وأن يعامل بثقة واحترام ، وعندما يرى الفرد كل ذلك فإن في مقدوره أن يحقق الكثير»^(٨١).

✽ «ولكن طوال سنوات تاريخنا البطولي والمتألق عجزنا أن نولي اهتماماً لحقوق المرأة الخاصة . . واحتياجاتها الناشئة عن دورها كأم وربة منزل ووظيفتها التعليمية التي لا غني عنها بالنسبة للأطفال . . إن المرأة إذ تعمل في مجال البحث العملي . . وفي مواقع البناء . . وفي الإنتاج والخدمات . . وتشارك في النشاط الإبداعي لم يعد لديها وقت للقيام بواجباتها اليومية في المنزل - العمل المنزلي - وتربية الأطفال . . وإقامة جو أسري طيب ، لقد اكتشفنا أن كثيراً من مشاكلنا - في سلوك الأطفال والشباب . . وفي معنوياتنا . . وثقافتنا وفي الإنتاج تعود جزئياً إلى تدهور العلاقات الأسرية . . والموقف المتراخي من المسؤوليات الأسرية . . وهذه نتيجة متناقضة لرغبتنا المخلصة والمبررة سياسياً لمساواة المرأة بالرجل في كل شيء . . والآن في مجرى البيريستوركا . . بدأنا نتغلب على هذا الوضع . . ولهذا السبب فإننا نجري الآن مناقشات حادة في الصحافة . . وفي المنظمات العامة . . وفي العمل والمنزل . . وبخصوص مسألة ما يجب أن نعمله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النائية البحتة وهناك مشكلة أخرى هي استخدام المرأة في الوظائف الشاقة الصّارة بصحتها . . وهذا هو تراث الحرب التي فقدنا فيها أعداداً ضخمة من الرجال . . لقد بدأنا الآن نعالج هذه المشكلة بشكل جاد . وإحدى المهام الاجتماعية والأكثر إلحاحاً بالنسبة لنا وهي مهمة هامة كذلك في الحملة ضد المسكرات تتمثل في تحسين صحة الأسرة وتعزيز دورها في المجتمع»^(٨٢).

✽ «وإنه لفي وضوح البلور أنه في العالم الذي نعيش فيه ، عالم الأسلحة النووية ستكون أي محاولة لاستخدام هذه الأسلحة في حل المشاكل السوفيتية الأمريكية ، إنما

تعني الانتحار ، هذه حقيقة لست أعتقد أن الساسة الأمريكيين غافلون عنها ، وفضلاً عن ذلك ، فقد نشأ الآن وضع متناقض حقيقة ، فحتى لو انهزمك أحد البلدين في تعزيز الأسلحة باطراد بينما لم يفعل الآخر شيئاً ، فإن الجانب الذي يسلم نفسه لن يكسب مع ذلك شيئاً ، فقد يفجر الجانب الأضعف ببساطة كل شحناته النووية ، ولو فوق أراضيهِ ، وهذا يعني الانتحار بالنسبة له والموت البطيء بالنسبة للعدو . ولهذا السبب فإن أي مسعى للثغور العسكري يعني أن يدور المرء في حلقة مفرغة ، ولا يمكن استخدام ذلك في السياسة الواقعية»^(٨٣) .

* «إن الجانب الأكبر من الأسلحة النووية يتركز لدى الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، وفي الوقت نفسه فإن عشرة في المائة أو حتى واحد في المائة من إمكانياتها كاف لإنزال أضرار لا يمكن إصلاحها بكونبنا وبكل الحضارة البشرية»^(٨٤) .

وأمام هذا الخلل الرهيب الذي يتحدث عنه جوربا تشوف ، يحاول أن يستدرك ويتعقل ويتعامل بموضوعية مع الواقع المؤلم والخطير ، الذي وصلت إليه بلاده والعالم أجمع ، فينذر الناس ويحذرهم بأنه ليس أمامهم إلا الارتقاء إلى مستوى المسؤولية الجماعية ، التي تحول دون الغرق والهلاك الذي يهدد الجميع فيقول «ورغم كافة متناقضات عالم اليوم ، ورغم كل تنوع الأنظمة الاجتماعية والسياسية به ، ورغم كافة الخيارات المختلفة التي قامت بها البلدان في مختلف الأزمنة ، فإن هذا العالم يعتبر مع ذلك كلاً واحداً ، ونحن جميعاً ركاب على ظهر سفينة واحدة ، هي الأرض ، وعلينا ألا نسمح بأن تغرق ، فلن تكون هناك سفينة نوح ثانية»^(٨٥) .

وهكذا وبعد أن استعرضنا مقاطع مختارة من شهادة الرئيس جورباتشوف رئيس الجدار الحضاري المنقض المنهار ، شهادة الواقع المعاصر على اختلال العلاقة الدقيقة بين مقومات الحضارة الحقبة ، المتمثلة في اختلال العلاقة بين الإيمان والعلم والعمل أو بين الشق الثقافي والمادي للحضارة ، نستعرض في ما يلي مختارات من شهادة الرئيس

رتشارد نيكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية ، الجدار الذي يريد أن ينقض إذا لم تتداركه قيادته قبل فوات الأوان ، أو تتداركه العناية الربانية بالهداية والرشد ، وإليك بضع ما اخترناه من كتابه الشهير الفرصة التاريخية أو «الفرصة السانحة» حيث يقول :

« إن الولايات المتحدة سوف تخسر تفوقها الاقتصادي والتكنولوجي إذا فشلت في القيام بأداء أفضل في مجال إعداد الشباب الأمريكيين للواجبات التي تنتظرهم بمناسبة الانتقال من الاقتصاد الصناعي إلى اقتصاد التكنولوجيا الراقية . إن أكثر من ٢٥٪ من الأمريكيين لا يتخرجون من المدارس الثانوية والعديد من أولئك الذي يتخرجون منها تنقصهم المهارات كالرياضيات والعلوم نجد أن شبابنا يأتون وراء طلاب جميع البلاد الصناعية ، صحيح أن بعض مدارسنا العامة تقدم أداء جيداً غير أن الكثير منها أقل فاعلية من المدارس في عديد من بلاد العالم المختلفة ، إن معظم برامج المدارس أصبحت هينة إلى درجة أن الطلاب لم يعودوا يشعرون بحاجة إلى العمل الصارم ولذلك نجد أن ثلثي طلاب المدارس الثانوية يقضون ساعة واحدة أو أقل في إعداد دروسهم في المنزل بقراءة عشرة أسطر أو أقل من ذلك ومن ثم يشاهدون على مدى يزيد عن ثلاث ساعات كل يوم برامج التلفزيون المبلدة للذهن»^(٨٦).

« إن أمريكا تتحرك الآن باتجاه لولبي نازل نحو الأمية العلمية والتكنولوجيا ، ليس لأن الأميركيين فقدوا أهليتهم للعلوم ، بل لأن نوع المعرفة التي يعطونها قد تخطاها الزمن ، نحن ننشئ جيلاً جديداً سواء في الأكواخ الفقيرة بداخل المدن أم في الطبقات الاجتماعية الوسطى والعليا في الضواحي يمكن أن يطلق عليه اسم جيل الـ (mtv) إن الجهل المذهل للكثيرين من أبناء هذا الجيل ناجم ليس عن قلة ذكاء الشباب بل عن أن ذكائهم لا يستغل . إنهم يعيشون في عالم الموسيقى الصاخبة التي تطلق في ضجيج يثقب السمع والتلفزيون الذي يعرض صوراً على الشاشة بسرعة لا يكاد يتبعها النظر ومشاهد

متابعة تثير الجنس ، ولقد طبعت الشعارات على مصد بعد أن كانت تلصق على مصعد السيارة ولكنها بقيت خالية من أي مضمون^(٨٧) .

✽ «إن أغنى دولة في العالم لا يمكن أن يقبل أن يكون استهلاكها للمخدرات مساوياً تقريباً لاستهلاك دول العالم مجتمعة بالرغم من أن عدد سكانها لا يتجاوز جزء من عشرين من سكان العالم . إن أغنى دول العالم لا يمكن أن يكون لها أعلى معدل لارتكاب الجريمة في العالم وأن يموت في أمريكا قتلاً أثناء حرب الخليج عشرون ضعف الأميركيين الذي قضوا في هذه الحرب»^(٨٨) .

✽ إن أغنى دولة في العالم لا يمكن أن يقبل أن يكون فيها طبقة من الأشرار التي تجعل مدنا الكبر غير آمنة إلى درجة أن الحياة فيها صارت لا تطاق .

✽ «إن أخطر مشاكلنا الاجتماعية الجريمة والمخدرات والاعتماد على الغير في التعليم . تدور حول قيم المواقف والسلوك . إن هذه الأمور لا تتوقف على الدولارات والبرامج الموضوعة لمعالجتها والتي تحسب بالدولارات غالباً مما تؤدي إلى نتيجة . الحاجة تدعو ليس إلا الدولارات بقدر ما تدعوا إلى توجيه مجموعة من القيم والقواعد التي يقبلها المجتمع ويفرضها على نفسه»^(٨٩) .

✽ أما في كتابه (٩٩٩١م) نصر بلا حرب يقول الرئيس نيكسون:

«وفي القرن الواحد والعشرين سيقوم الإنسان بإعادة تشكيل العالم ، وعلينا أن نتطلع بدور محوري في هذا المشروع العظيم ، فمن الناحية المادية ، سنقوم بإعادة تشكيل العالم بفضل تفجير المبتدعات التكنولوجية ، وعلينا أن نحاول إعادة تشكيل العالم سياسياً من خلال استراتيجية تستهدف تحقيق سلام حقيقي ، وفي الوقت نفسه ينبغي ألا يغيب عنا التصدي لقضية البعد لروحي في الإنسان»^(٩٠) .

✽ «وعلينا ونحن نغير العالم المادي أن نجتهد في إعادة تشكيل العالم سياسياً ، ففي القرن العشرين خطا تقدمنا التكنولوجي خطوات أبعد من تقدمنا السياسي ، وهو أمر

ينبغي ألا ندعه يحدث في القرن المقبل . ، لأن تقدمنا المادي قد وصل إلى النقطة التي إن تعذر فيها اقترانه بتقدم سياسي ، فقد يفضي ذلك إلى دمار شامل ، وإذا أردنا أن نبلغ في تقدمنا المادي الحد الأقصى في القرن الحادي والعشرين - لا لمصلحتنا وحدنا وحسب ، بل وذلك لمصلحة الإنسانية جمعاء - فعلينا أن نلتمس الأسباب الكفيلة باقتران فتوحاتنا العلمية بمزيد من التقدم السياسي ، مما يقلل من فرص نشوب الحرب ، ويزيد من المشاركة في خيرات السلام»^(٩١) .

* «ولا يسع قوة السيف في موسكو أن تهزم قوة الروح في الغرب ذات يوم تسائل ستالين ساخراً ومزدرياً قوة الكنيسة في التأثير في أحدث العالم فقال : كم عدد الفرق تحت قيادة البابا ، إن هذا التعليق دليل على عجزه عن فهم العالم وما الذي يحركه ، فالتاريخ في خاتمة المطاف تقررته الأفكار لا الأسلحة ، وهذا يصدق خاصة عندما يتسلح الساسة - الذين يعرفون الدنيا وكيف تعمل - بمبادئ قوية»^(٩٢) .

* وفي هذا السياق يقول الشاعر الهندي الكبير طاغور لأحد مفكري الغرب : «صحيح أنكم استطعتم أن تحلقوا في الهواء كالطير ، وأن تغوصوا في البحر كالسمك ، ولكنكم لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كالإنسان»^(٩٣) .

* ويقول الأديب الأمريكي (جون ستاينيك) : « إن مشكلة أمريكا في ثرائها وأن لديها أشياء كثيرة ، ولكن ليس لديها رسالة روحية كافية . . إننا بحاجة إلى ضربة تجعلنا نفيق من ثرائنا ، لقد انتصرنا على الطبيعة ، ولكننا لم نتصّر على أنفسنا»^(٩٤) .

* ويقول (جون فوستر دالاس) وزير الخارجية الأمريكية الشهير : «إن الأمر لا يتعلق في الماديات ، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية . إنما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي ، فبدونه يكون كل ما لدينا قليل»^(٩٥) .

* أما (الكسيس كاريل) الحائز على جائزة نوبل للعلوم يقول في كتابه الإنسان ذلك المجهول : «إن علمنا بالحياة وكيف يجب أن يعيش الإنسان ، متأخر جداً عن علمنا بالماديات ، وهذا التأخر هو الذي جنى علينا»^(٩٦) .

* ويقول البروفيسور جود رئيس قسم الفلسفة في جامعة لندن : «إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالعظماء ، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش . . إن هذا التفاوت بين فتوحاتنا العلمية المدهشة ، وطفولتنا الاجتماعية المخجلة ، نواجهه على كل منعطف ومخرج»^(٩٧) .

* ويقول المستر إيدن رئيس وزراء بريطانيا المشهور : «من الغريب المضحك أن البلاد والدول ، تنفق الملايين من الجنيهات لوقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها ، ولكن لا تنفق شيئاً من أجل ضبطها»^(٩٨) .

* أما روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية المعروف فيقول : « ليس ما نملك هو المهم من أجل أن نكون أمة عظيمة ، بل المهم هو الطريقة التي نستخدم بها مما نملك»^(٩٩) .

وبعد ما هو تعليقنا نحن المسلمين على ما سبق ذكره على لسان كل من الرئيس جورياتشوف والرئيس نيكسون وغيرهم من اعترافات واضحة حول اختلال موازين ومعايير السير الحضاري في بلدانهم ودعوة كل منهم الناس في بلدانهم والعالم للعودة إلى القيم الروحية والتعامل بجدية مع العالم الداخلي للإنسان ، وإيقاظ الخير فيه وإحياء ضميره والمبادئ التي تعيده إلى توازنه وانضباطه الأخلاقي والسلوكي . . وتضعه أمام مسؤولياته الجادة تجاه مصالح بلاده وأمنها واستقرارها وتجاه مصالح العالم وأمنه وسلامه . . إن تعليقنا على ذلك كله هو . . أننا نحن المسلمين على أساس من تعاليم الإسلام وقيمه ومبادئه ، نظرب ونسعد لكل كلمة مسؤولة وموقف مسؤول ، ونرحب بذلك ونمد

يدنا بكل صدق وإخلاص للتعاون مع كل ما يصحح مسار البشرية وينقذ حضارتها ، التي هي ثمرة جهود أجيالها وشعوبها المتعاقبة عبر الزمان والمكان . . ونحن مع كل ما يعود على الإنسانية بالخير ، ويصرف عنها الشر والفساد ، ويطهرها من نوازع التسلط والاعتداء ، والظلم والطغيان ، والكبت والقهر ، ومع كل ما يؤكد كرامة الإنسان وأدميته ، ويطلق حريته في اختيار معتقده ومنهج حياته وقيمه ، التي تلي نداه الفطري وعالمه الداخلي المادي والروحي ، نحن المسلمين مع كل كلمة مسؤولة ، وتحرك مسؤول ومنهج مسؤول ، يعمل على تحقيق العدل والاستقرار والسلام من أجل تعايش إنساني حضاري آمن ، ولكن مع ترحيبنا بكل ما جاء من كلام إيجابي مسؤول على لسان كل من الرئيس جورجيا تشوف والرئيس نيكسون وغيرهما من عقلاء العالم مما ذكر بعض منه ، فإننا نأسف للتناقضات الميدانية والممارسات الظالمة المشهودة في أوروبا وأمريكا وفي كثير من بلدان العالم ، التي تنتقص من مصداقية هذه الأقوال وتحرجنا نحن عقلاء المسلمين ، من التحدث بها بين يدي أجيالنا والتي واجهت ولا تزال تواجه الظلم والقهر والذبح والإبادة ، والانتهاك الوقح للحرمان والقيم ولأدنى حقوق الإنسان في أكثر من مكان . . لذا فإننا نطالب وننصح بأن يصغي المسؤولون في الغرب وفي العالم إلى نداءات وصرخات الإصلاح التي ترتفع بها أصوات العقلاء والحكماء في العالم ؛ بما يؤكد حرصهم المعلن على نظام عالمي تسوده القيم والمبادئ ، ويقوم على التوازنية بين عالم المادة وطموحاته وعالم الروح وأخلاقياته ، ونحذر مع الأستاذ العلامة الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله تعالى - قادة الحضارة المعاصرة ونلفت نظرهم إلى التشريعات المخزية التي تتعارض مع كل كلمة مسؤولة ونداء مسؤول للإصلاح والإنقاذ من شروور العالم وجرائمه وانتكاساته الحضارية إذا يقول : «إن قادة الحضارة الحديثة في أوروبا وأمريكا ، لا يبالون بتحريم الحلال وتحليل الحرام ، ولا يكثرثون بذكر الله إلا عند الموت عندما يفرض الفراق نفسه ثم تمضي بعده مواكب الحياة مجنونة لا تلوي على شيء ، إن التشريع السماوي في الحضارة الحديثة أهيل عليه التراب ، ويعتبر ذكره تخلفًا

عقلياً ، وقد تم في القانون العالمي احترام الزنى إذا تم بالتراضي ، وألزمت بعض الدول الإسلامية على التزام ذلك في تشريعاتها ، كما ألغيت عقوبة الإعدام ، ورفض مبدأ النفس بالنفس والعين بالعين المقرر في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن ولا نزال نذكر كيف أباح مجلس العموم البريطاني اللواط حتى سن الثامن عشرة وكيف حاول رئيس الولايات المتحدة إدخال الشواذ في الجيش»^(١٠٠).

ونزيد على ذلك والأخطر من ذلك أن الأمم المتحدة والتي جاءت في أصل تكوينها وانبعثت فكرتها لتكون مرجعية الإصلاح والترشيد القيمي لمسيرة الحضارة البشرية . . تدعو اليوم وتبني جملة من القيم المنحرفة ، التي تكرس منهجية الانحدار الحضاري ، الذي يصرخ المصلحون والعقلاء في كل مكان ، للاستدراك عليه والتخلص من قيمه الهابطة ومبادئه اللامسؤولة ، فطرح مشروعاً لعقد مؤتمر دولي تحت عنوان (السكان والتنمية) في سبتمبر من عام (١٩٩٤م) في القاهرة ، على أساس من وثيقة تتضمن فيما تتضمنه من القيم الهابطة والتشريعات العاهرة ما يلي :

«إباحة الإجهاض لكل الأعمار بحجة أنه وسيلة من وسائل التنمية إذ يؤدي إلى قلة السكان فيرتفع المستوى المعيشي . !؟

الحرية الجنسية للمراهقين والأطفال حرية مطلقة .

حق المراهقين في أن تكون لهم حياة خاصة ، ومعلومات سرية لا تنتهك حتى من الأبوين .

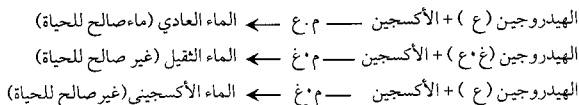
يعاون المراهقون والأطفال على احترام الحقوق السابقة من الحكومات ومن المؤسسات الأخرى ، وعلى الوالدين احترام حقوق هؤلاء»^(١٠١).

وأمام هذه الوثيقة الخطيرة ، نزيد في التعليق ونرفع أصواتنا مطالبين ومحذرين ، نطالب العقلاء والحكماء في العالم على اختلاف أديانهم وأعراقهم وأقوامهم وأجناسهم ،

ليتنادوا إلى لقاء عالمي تحت عنوان «البشرية في خطر» يتدارسون فيه الأخطار التي تواجه الحضارة الإنسانية المعاصرة ، والتي من أشدها وأفتكها الاعتداء على القيم الروحية والدينية ، والاعتداء على القيم والأعراق والأخلاق الأسرية ، ومحاولة تفتيت الروابط الأسرية ، ومسح العلاقات الروحية والأخلاقية والسلوكية في ترابط أفرادها وتماسك وحدتهم وبنيتهم المعيشية والاجتماعية والثقافية ، وكذلك الاعتداء على آدمية الإنسان ومسح قيمها ومعاييرها الفطرية ، وهدم مقومات الحياة والحشمة في طبيعتها ، وإثارة الغرائز لتكون صاحبة السيادة في سلوك الأفراد وأخلاقياتهم ، على حساب سيادة العقل والضمير وروح المسؤولية ، وليتدارسوا كذلك كل ما يؤكد التوازنية بين الشق المادي والشق الروحي ، أو المقومات المادية والمقومات الروحية والقيمية ، في صحة مسار الحضارة الإنسانية . ونرفع صوتنا نحن المسلمين مع العقلاء في العالم محذرين من التيارات العابثة والمعادية للقيم الروحية والإنسانية ، والتي هي صاحبة المصلحة في تدهور القيم والأخلاقيات واستمرار تدهور الحضارات وإقامة الصراع والتصادم بينها ، وذلك في خدمة مشروعها المدني العابث المتمثل في قيم التيارات العلمانية المتطرفة والإلحادية المدمرة ، والتي من أبرزها فلول الماركسية المنهارة والدوائر الصهيونية العالمية الحاقدة والمحافل الماسونية الماكرة .

وبعد فإننا نستأنف حديثنا عن تأكيد أهمية التوازنة الدقيقة بين مقومات السير الحضاري السليم ، وهي مقومات الإيمان والعلم والعمل وتأكيد التوازنية الدقيقة بين الشق الثقافي والمادي للحضارة بشكل عام ، وقد استعرضنا فيما سبق الشواهد التاريخية القرآنية والشواهد الميدانية المعاصرة . . والآن نتحدث عن المحاجة العقلية التجريبية . . معتمدين في هذا الشاهد على محاجة كيميائية توضح المقارنة التجريبية ، بين نتائج تفاعل العناصر عندما تتغير الخصائص لعنصر من العناصر ، أو تتغير شروط التفاعل ومنهجته أو طاقة التفاعل وحوافزه وضوابطه ، ثم نقارن ذلك مع المعادلة الحضارية القائمة على المفاعلة والتفاعل بين الإنسان والأرض ومنهج الحياة . . وأثر اختلال

خصائص عناصر هذه المعادلة أو تغير مادة المنهج ومقوماته على نتائج وصيغ العطاء الحضاري للجهد البشري ، وقد اخترنا من الميدان الكيميائي ، التفاعل الكيميائي الذي يعتبر أبسط تفاعل كيميائي من حيث مقوماته ، ولأن هذا التفاعل ينتج مادة الحياة الأساس ألا وهي الماء لقول الله تعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾^(١٠٢) ، ومن المعلوم أن الماء يتكون كيميائياً من الاتحاد بين عنصري الهيدروجين والأكسجين وفق شروط محددة وطريقة منضبطة ، ولنصطلح على عبارة المنهج العادي ونرمز له (م . ع) للتعبير عن الشروط والضوابط العادية لتفاعل الهيدروجين والأكسجين لتكوين الماء ، ولنصطلح كذلك على عبارة المنهج غير العادي للشروط والضوابط غير العادية للتفاعلات الممكنة بين الهيدروجين والأكسجين ونرمز له (م . غ) ، وسنشير عن الهيدروجين العادي برز (ع) والغير عادي برمز (غ . ع) وفق المعادلات التالية :



وبمقارنة بسيطة نجد أن نتائج هذه التفاعلات تتأثر بطبيعة منهج التفاعل ، وكذلك بتغير خصائص العناصر المتفاعلة والتي هنا طالت عنصر الهيدروجين دون الأكسجين فمثلاً في حالة ثبات الخصائص الطبيعية الخلقية للعناصر ، وثبات الشروط والضوابط الطبيعية ، ينتج لدينا ناتج طبيعي مستساغ وهو الماء العادي (ماء الحياة) التي تستمر معه وبه حياة الكائنات جميعاً ، بل وتستقر به جميع المفاعلات الطبيعية في الأرض ، وتستقر به ومعه جميع خصائص التوازن والاستقرار في الأرض . . أما مع اختلال الخصائص لأحد العناصر ، واختلال المنهج فإن النتيجة إما أن تكون (الماء الثقيل) غير صالح للحياة ونفعه التكنولوجي محدود ، أو تكون (الماء الأكسجيني) غير صالح للحياة وتطبيقاته التكنولوجية محدودة كذلك .

وبعد فهذه شهادة تجريبية في ميادين الكيمياء الحياة والتعليق عليها ، أردنا بها مقدمة توضيحية مبسطة لما يجري في ميادين كيمياء الحضارة ، حيث المفاعل الكوني الكبير ، المتكون من الأرض موطن الاستخلاف الحضاري ، والإنسان المؤهل ربانياً لمهمة الاستخلاف الحضاري ، والمنهج الرباني الحضاري ، فالمعادلة الحضارية قوامها على هذا الأساس (الإنسان ، الأرض ، المنهج) فعندما يكون المنهج هو المنهج الرباني بقيمه ومبادئه وأدبياته ، وضوابطه وتشريعاتها وحوافزه الإبداعية وتكامل شموليته المادية والروحية ، يكون الإنسان هو الإنسان الذي صيغت حياته وفق منهج الاستخلاف الرباني ، الملتزم بتعاليمه وقيمه والمنضبط وفق توجيهاته ومعاييرها ، فإن العلاقة بينه ومكونات الأرض تكون علاقة خلقة ، تفرز نتائج إيجابية ذات نفع مؤكد ونماء مبارك ومردود مأمون لا رعب معه ولا خوف ، ولا إسراف ولا طغيان ، ولا شح ولا تقتير ، لأنها ستكون نتائج منضبطة وفق قاعدة التسخير الرباني وضوابطها وأخلاقيها ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾^(١٠٣) ، ووفق قاعدة الهدى العام التي تنظم وفقه علاقة الإنسان مع الأشياء وعلاقة الأشياء مع الأشياء ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾^(١٠٤) ، أجل عندما تنضبط العلاقة بين مقومات المعادلة الحضارية (الإنسان ، الأرض ، المنهج) ، وفق معاييرها وقيمتها ومقاصدها الربانية تسير المعادلة الحضارية بشكلها الصحيح وذلك على النحو التالي :

إنسان + الأرض ————— منهج رباني ← حضارة ربانية

وعندما يختل المنهج وتختل معه سلوكية الإنسان ومقاصده ومنهجه في الحياة فإن المعادلة الحضارية تسير سيراً معطلاً ، تختلف درجة الاعتلال تبعاً لدرجة الاعتلال والاختلال في المنهج ونضرب لذلك مثلاً :

إنسان + الأرض ————— منهج علماني ← حضارة علمانية

إنسان + الأرض ————— منهج إلحادي ← حضارة إلحادية

إن هذه المعادلة الحضارية ، إنما تؤكد فكرتنا وفهمنا للحضارة ، «على أنها ثمرة الجهد البشري المبذول لعمارة الأرض وفق ثقافة ما ومنهج ما»^(١٠٥) ، وأن تنوع الثقافة وتنوع المنهج يتبعه تنوع حضاري ، هذا بشكل عام ، ولكننا نطرح تساؤلاً . . هل التنوع الحضاري . . تنوع تكامل أم تنوع تضاد . . ؟

وهل التنوع الحضاري . . تنوع تعايش أم تنوع تصادم ؟

هذه أسئلة وغيرها تطرح نفسها أمام كل مفكر وباحث ، وتطرح نفسها أمام كل ثقافة ومنهج ثقافي . . والموضوعية والعلمية والمسؤولية . . شرط أساس في الإجابة الصحيحة المقنعة ، بين يدي أجيال البشرية المتعاقبة عبر الزمان والمكان . . وفي هذه الدراسة التي تأتي تحت عنوان «الإسلام و . . الحضارات الأخرى» نسعى (أولاً) إلى تأكيد المفاهيم التالية بين يدي الإجابة على هذه الأسئلة وما سبقها .

- * إن الإنسان مستخلف بأمر ربه وخالقه في الأرض .
- * إن عمارة الأرض هي مهمة الاستخلاف وغايته .
- * إن الله سبحانه وتعالى وضع منهجاً متكاملًا لمهمة الاستخلاف في الأرض .
- * إن الله تعالى أرسل رسله ليلبغوا الإنسان مادة المنهج وقيمه ومبادئه .
- * إن منهج الاستخلاف الرباني يقوم على مرتكزين اثنين ، مرتكز مادي ومرتكز قيم .
- * إن العبودية الخالصة لله مطلب أساس في منهج الاستخلاف الرباني .
- * إن الله سبحانه قد أنصف الناس المؤمنين والكافرين على السواء ، في موقفهم من منهجه الذي اختاره لهم ، دون يخس لحق كل منهم في الحياة الدنيا وعمارته .
- * إن مرتكز القيم في منهج الإسلام أساس ملزم لترشيد وتسديد وضبط سير وفعاليات المرتكز المادي ووسائله ومهاراته .
- * مرتكز القيم في منهج الإسلام يتكون من منظومة عقيدته وفكرته ومنهجه ونظامه وإن التكامل الدقيق بين العقيدة والفكرة والمنهج والنظام في الإسلام مقتضى أساس لتحقيق منهج الاستخلاف الرباني

* منهج الإسلام يفرض فرض العقيدة بالإكراه ، ولكن يعرضها إلى الناس ويرغبهم بفكرة الإسلام ومنهجه ونظامه من أجل صحة سير العطاء الحضاري السليم .

* المسلمون يؤمنون بأنهم شركاء مع غيرهم ، في ميادين المراكز المادي ووسائله ومهارته في عمارة الأرض . إلا أنهم يؤمنون بأنهم يتحملون واجباً ربانياً في تقديم مبادئ وتعاليم وقيم منهج الاستخلاف الرباني للناسي ، لتسديد وترشيد السير الحضاري لعمارة الأرض .

ونسعى (ثانياً) . . وفي ضوء هذه المفاهيم السالفة الذكر أن نحدد إجابتنا عن الأسئلة السابقة بكل موضوعية وعلمية ومسؤولية كاملة إن شاء الله . . وبداية نقول : إن التنوع الحضاري في ميادينه المادية . . تنوع إيجابي . . لأنه يأتي متسقاً مع فضل الله تعالى على العباد . . ومنسجماً مع عدله المطلق بين الخلائق إذ أقام سبحانه وتعالى توازنية دقيقة بين توزيع خيرات الأرض ظاهرة وباطنة ، وأقام توازنية دقيقة في توزيع الثروات الطبيعية بعامه . . وتوازنية دقيقة في توزيع الأنهار والبحار والمحيطات واليابسة ، ومثل ذلك في توزيع التضاريس الجغرافية بأشكالها وأنواعها المختلفة . . وهذا التنوع الغزير في الأرض يحتاج استثمار مكنوناته وتفعيل مسخراته ، إلى تنوع الجهود والإمكانات والكفاءات والمهارات ، فاقتضت حكمته سبحانه وهو اللطيف الخبير ، أن استخلف الإنسان حيث هو وأطلق يده في استثمار ما سخر له حيث يعيش ، وبوسائله المتاحة وإبداعاته الإنتاجية وفق حاجاته وطموحاته ، مما نتج عنه تنوع في عمارة الأرض واستثمار مكنوناتها ، ومما تبلور في النهاية إلى تنوع حضاري مادي مفيد ، قابل لأن تتكامل معه حاجات الناس ومصالحهم المتبادلة ، ومثل هذا التكامل ضرورة حضارية . . تمليه حاجة الناس بعضهم إلى بعض ، وقد اقتضت حكمت ربهم وخالقهم ، أن تتوزع نعمه ومسخراته في الأرض ، حيث اختص كل شعب أو أمة بنوع من هذه المسخرات ، ويسر لكل منهم أسباب الإبداع في نواحي الحياة وفق قاعدة «كل ما يسر

لما خلق له» (١٠٦) وأوجب سبحانه مبدأ الحاجة والسخره بين الأمم ؛ لتقوم بينهم رابطة المصالح والتسخير المتبادل ، التي على أساسها تتولد وشيجة التعايش البشري وحوافز التنافس في عمارة الأرض ، وتقوم بينهم الحاجة لإقامة نظام عالمي يضبط علاقات التعايش والتعاون ، في إطار من الإحساس بمسؤولية التعامل المشترك في كل ما يحقق الخير للجميع . . كما جاء في تعاليمه الربانية الواضحة في قوله تعالى ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ (١٠٧) .

وهذه الحاجة بين الناس التي نرى أنها تتنامى مع تنامي وسائل الاتصال ومقومات وضروريات التعايش المشترك بينهم ، هي أساس ومقتضى التكامل بين جهودهم . . إلا أن قابلية التكامل في التنوع الحضاري المادي ، لا تتحقق ثماره المرجوة وغاياته الإنسانية النبيلة ، إلا بالتغلب على السلبيات والتناقضات التي نواجهها في التنوع القيمي ، حيث أن الواقع الميداني لمركز القيم في السير الحضاري لدى الأمم المختلفة ، يفرز اليوم - للأسف - ، تناقضات ثقافية وقيمية تتحول في السير والمفاعلة الحضارية المادية من مسارها الإيجابي البناء ، إلى مسارات سلبية هادمة ، مما جعل معايير الخير والشر متباينة تبايناً خطراً بين الناس ، ونجد مثل ذلك في معايير الظلم والعدل ، والحرية والقمرة والمساواة والتمييز ، والأمن والخوف والاستقرار والاضطراب ، والفضيلة والرذيلة ، والنافع والمؤذي ، والبناء والهدم ، والتقدم والتخلف ، والحرب والسلم ، والقناعة والجشع ، والمآثرة والاستئثار ، والتقتير والإسراف ، والأنا والآخر ، والفرد والجماعة ، والتكامل والتضاد ، والصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، والوفاء والغدر ، والمسئولية واللامسئولية ، والجدية والهزلية ، والانضباطية والعيشية ، والأدمية والبهيمية ، والتعاون والتنافر ، والتعايش والتصارع ، والإخاء والاعتداء ، والمفيد والمضر . . ونحسب أن سبب هذا التباين الخطير بين هذه الثنائيات إنما هو من

التناقضات القائمة في المناهج الثقافية ، وما تفرزه من تناقضات في القيم والمبادئ والقوانين التي تحكم سلوكيات الإنسان ومعايير ، وهو يمارس مهمة إعمار الأرض واستثمار مكنوناتها وتسخير طاقتها المادية ، مما يضعف من إيجابيات التنوع الحضاري المادي ، ويتحول به إلى تضاد حضاري عن كونه تكامل حضاري إيجابي . . أما عن سبب التناقضات الثقافية ، فنحسب أنه يعود لغياب المرجعية في الأصول والثوابت الثقافية لمسيرة الإنسان في الأرض ، وهذه المرجعية بفهمنا واعتقادنا نحن المسلمين لا تكون إلا بالتعامل مع منهج الاستخلاف الرباني لعمارة الأرض ، وقيمه ومنطلقاته التي ذكرناها قبل قليل ، وكما مرت معنا متفرقة في ثنايا هذه الدراسة . . أما الجواب عن التنوع الحضاري هل هو تنوع تكامل أم تضاد ؟ وكونه تنوع تعايش أم تصادم . . ؟

نقول وباختصار . . فيوم تصطلح الثقافات البشرية على كليات جامعة ، تتخذها منطلقاً لتحقيق مصالحها المشتركة وأمنها المشترك ، مثل الاتفاق على :

* أن الأرض سكنهم ومصدر عيشهم المشترك ، وأن خير الأرض للجميع على أساس من احترام حق التملك ومشروعية الانتفاع .

* أن التعارف والتواصل والتناصح الثقافي هو غاية لترشيد السير المشترك في ميادين الحياة .

* أن التدافع والتعاون لدرء المفاسد وجلب المصالح ، أمر واجب لصرف الفساد وتحقيق الخير للجميع .

* أن العدل هو الأساس التي ينبغي أن تقوم بموجبه وعلى أساس منه علاقات الأمم والشعوب .

وهكذا ويوم تنتظم إرادة المسيرة البشرية على مثل هذه الكليات الجامعة ، ويوم أن ينتفي التناقض بين مرتكز الماديات والوسائل والمهارات ، ومرتكز القيم والمبادئ

والسلوكيات في مناهج السير الحضاري العالمي ، يصبح التنوع الحضاري ، تنوع تكامل لا تنوع تضاد وتنوع تعايش لا تنوع صدام ، وهذا ما يؤكد الخطاب الإسلامي الحضاري للناس جميعاً كما هو واضح وبين في قول الله تعالى ﴿الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾^(١٠٨) - وقوله تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾^(١٠٩) - وقوله تعالى ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾^(١١٠) - وقوله تعالى ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل علي العالمين﴾^(١١١) .

وبعد فإن نظرة متفحصة من جهة أخرى إلي المعادلة الحضارية التي ذكرت سابقاً والتي قوامها (الإنسان ، الأرض ، المنهج) نخلص إلى أن هناك علاقة وثيقة قد أقيمت بين صيغة هوية الإنسان الفكرية والثقافية والعقدية ، وبين هوية منهجه في عمارة الأرض واستثمار مكنوناتها وتفعيل مسخراتها لصالح الإنسان ، وتبعاً لتعدد الصيغة الفكرية والثقافية كانت تعددية المنهج ، التي أفرزت بدورها تعددية حضارية مثل : حضارة الإسلام ، الحضارة العلمانية ، الحضارة الإلحادية وغيرها ، «حضارة أمة ما تعني مجموع ثقافتها ومدنيتها ، فإذا اعتمدنا هذا التعريف لكلمة حضارة ، تكون حضارة أمة في هذه الحالة هي مجموع ثقافتها ومدنيتها أي الجانب المادي فيها والجانب الآخر بآن واحد ، وعلى هذا الأساس فكل أمة من الأمم يمكن أن تكون لها حضارة ، إذ إن لكل أمة في هذه الحالة مدنية ما ، ولكل أمة ثقافة ما . بصرف النظر عن مضمون هذه الثقافات ، ما إذا كان حقاً أو باطلاً ، ما إذا كان مقبولاً أو غير مقبول ، ومن الابتداء نقول : الأمة ذات الحضارة المتقدمة هي التي اجتمع لها تقدم مدني وتقدم ثقافي والأمة ذات الحضارة المختلفة هي الآن التي اجتمع له تخلف مدني وتخلف ثقافي ، وقد نجد أمة متقدمة مدنية وهي متخلفة ثقافية ، وقد نجد أن أمة متخلفة ثقافياً ومتخلفة مدنياً»^(١١٢) .

ونحن هنا لا نريد أن نبخس الناس أشياءهم ، فننفي عن جهدهم المادي في تفعيل الأرض واستثمار مكنوناتها وتوظيف طاقاتها ومسخراتها صفة الحضارة ، فهذا إن وقع منا فهو من الظلم والبخس المنهي عنه في المنهج الرباني الحضاري ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (١١٣) .

حتى ولو كانت هذه الشيئية من إنتاج وملكية أقوام بيننا وبينهم تناقض عقدي وثقافي ، لأن هذه الشيئية من حقهم في الحياة الدنيا ، وجاءت بفعل كدحهم وجهدهم ومهاراتهم ومشيتهم في الأرض وتفعيلها ، وقد أنصفهم ربهم وخالقهم سبحانه ، ولم يبخسهم سعيهم . وذلك في قوله تعالى ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ (١١٤) .

فكل عمل يبذل لتفعيل واستثمار مسخرات السماوات والأرض فهو جهد حضاري وثماره المادية ثمار حضارية ؛ لأن هذا الجهد وهذا الإنتاج ، هو تحقيق لأمر الله تعالى في الدعوة لاستثمار ما سخره سبحانه للناس جميعاً ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ (١١٥) ، ولكن هذا لا يمنع من أن نفرق بين الجهد البشري في الإنتاج المادي والإبداع التكنولوجي ، والذي ينبغي أن يبقى موضع تقدير وإشادة وتشجيع ، وبين المنهاج القيمي الذي يتم وفقه هذا الإنتاج ، وتتم على أساس من معايير توظيف هذا الإنتاج ، لأن المنهاج القيمي . . هو الذي يقرر طبيعة هذا الإنتاج المادي وخصائصه الحضارية . . فنقول مثلاً حضارة إنسانية متوازنة آمنة ، أو حضارة مضطربة التوازن مضطربة الأمن ، أو حضارة معتمدة التوازن معتمدة الأمن . . وأن خاصية التوازنية وخاصية الأمان والنفع الإنساني لأي حضارة . . يقرره واقع الحال ومنهجية التعامل مع الإنسان ، وتحقيق مصالحه الحيوية والمعنوية من مأكّل ومشرب وكساء ودواء ومسكن ، وعدل وأمن وحرية واستقرار ورفاه وسلام . « إن غاية الحضارة الارتقاء بالحياة

الإنسانية، والحياة الإنسانية معقدة كثيرة الجوانب، فإن فيها حياة فكرية عقلية، وحياة مادية وعلمية معاشية، وحياة نفسية خلقية، وحياة اجتماعية، إلى جانب الحياة الفردية، والحضارة الصالحة الخيرة هي التي ترتفع بهذه الجوانب كلها وتعديل بينها، فلا يظلم جانب فيها جانباً آخر ولا ينمو واحد ولا يضمّر آخر»^(١١٦).

فالإسلام مثلاً على أساس من شريعته ومنهجه الحضاري الرباني حدد مقاصد وكرليات عليا لرسالته الحضارية هي :

١. حفظ النفس
٢. حفظ الدين
٣. حفظ العقل
٤. حفظ العرض
٥. حفظ المال

واعتبر النهوض بأمانة المحافظة على هذه المقاصد الخمسة، هي المعيار الأساس الذي بموجبه تقاس صلاحية وإيجابية حضارة ما، فأى منهج حضاري يعتدي على هذه الكليات، أو يعجز عن تحقيقها وتوفيرها وإقامة التوازن بينها، ويتخلف عن تقديم مقتضياتها وحاجياتها ومحسناتها، فهو منهج حضاري عاجز أو معتدى أو ظالم، يحتاج لتصحيح وترشيد ليكون عطاؤه الحضاري في خدمة الإنسان ومصلحه، لا عدواً للإنسان ومتطلباته وطموحاته. . . وعلى ذلك فنحن المسلمين في سيرنا الحضاري، نؤكد أننا مع التصحيح والتسديد، ولسنا مع الإلغاء والقهر الحضاري للآخر. . . ومن جهة أخرى يؤسفنا يوم تنهدم الحضارات في جوانبها المادية، وتنهار بسبب من انحدار القيم وعجز المبادئ وتخلف الأدبيات والسلوكيات، لأننا ننظر إلى الحضارات المادية، على أنها ثمرة جهود الأجيال البشرية المتتالية عبر الزمان والمكان، فهي إرث وملك الإنسانية جمعاء، ينبغي المحافظة عليها وتطويرها وترشيدها، لتكون في خدمة الإنسان وإسعاده. . . لا وبالأعلى عليه وحرّباً على وجوده وأمنه ورفاهه.

والواقع التاريخي المعاصر قد قدم الشهادة الواضحة لخصائص كل حضارة ومقوماتها وأثر ذلك على حياة الإنسان ، إيجاباً وسلباً ، فقد وضح كيف أن الحضارة الإلحادية (في الاتحاد السوفيتي سابقاً) قد فشلت فشلاً ذريعاً ، في تلبية متطلبات فكرة الإنسان ، وعقمت عن الاستجابة لنداءات تكوينه الداخلي وطموحاته الحياتية في عالمه الخارجي ، بعد أن أقامت وجودها وارتقاءها المادي على حساب وجوده وارتقاؤه الروحي والمعنوي ، وأشادت صروح صناعات الدمار الشامل ، على حساب صروح البناء والكفاية والرفاهية ، وأسرفت في اتخاذ أسباب حماية المنهج الظالم والنظام الطاغى ، على حساب حماية كرامة الإنسان وحقوقه في الحياة الإنسانية بحدها الأدنى ، المتمثلة في حريته وأمنه وغذائه وصحته وتعليمه ، وكبتت كل حوافز الإبداع والمنافسة ، وحولته إلى آلة تتحرك بإرادة النظام وأهواء النظام ومصصلحة النظام ، بل حولته إلى نسخة بهائية عليها أن تعمل كل ما يطلب منها ، وليس مقابل ذلك إلا لقمة غداء وشربة ماء وقطعة كساء وماوى بقيها بتواضع حر الشمس وقرص البرد . هذا في أحسن الأحوال وأكملها حيث أن الكثير من العمال والعمالات لا يتحقق لهم حتى هذا الأدنى من متطلبات البهيمية ، وبعودة لأقوال الرئيس جوربا تشوف فيما سلف ذكره وكذلك لما ذكرته زوجته «ريسية» في مذكراتها عن الواقع السوفيتي الذي فضح أمره وانكشفت عورته ، بعد أن أنهارت صروح حضارة صناعات الحروب والدمار ، أمام ثورة الحرية والعدل وثورة الرغبة والكساء والدواء ، ليتأكد للعالم وبالدليل القاطع بأن فاعلية الحرية والعدل وفاعلية الرغبة والكساء والدواء أقوى وأشد وأمضى في إشادة الأمن والاستقرار ، وإشادة الحضارات وحمايتها والارتقاء بعطائتها ، من فاعلية المدفع والدبابة والصاروخ والطائرة ومن كل المفاعلات النووية ومحطات الفضاء وغزوه . أليس من العبثية القتالة أن تسخر طاقات الإنسان وكفاءاته وطاقات الأرض ومكوناتها ومسخراتها ومسخرات السماوات من بعدها في غير مسارها الصحيح ، وفي غير متطلبات الحياة الإنسانية الكريمة ، وتطلعاتها الحضارية لإقامة مجتمع آمن مستقر تحكمه قيم العدل

والسلام وتسوده حوافز الارتقاء والرخاء . . أليس من الضلال والطغيان أن يحمل الإنسان على إنفاذ وتحقيق وإقامة كل ما يتعارض ويتناقض مع مصلحة الحيوية والمعنوية والروحية ، وتمر عشرات العقود من السنين وتعاقب الأجيال دون مراجعة أو تدارك لما يجري ، وفجأة تنهار عبثية الضلال والطغيان ، وتندثر إمبراطورية الوسائل المجردة من القيم ، لتجد الأجيال نفسها أمام رسوم وأطلال تحكي بكل الألم والحزن والندم مأساة الآباء والأجداد ، وتندب مسيرة العذاب الطويلة وقصة المعاناة المؤلمة والجهود المضنية ، بما انتهت إليه من إفلاس مخزي واندحار شنيع وتمزق وتبعثر ذليل ، يؤكد للناس الحقيقة الراسخة ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾^(١١٧) ، وليقدم الدليل القاطع على أن التاريخ والحضارة النافعة تصنعها في النهاية القيم والمبادئ والكلمات الطيبات ، لا العبثية والفساد والطلقات المعريبات .

أجل هذا ما كان من شأن الحضارة الإلحادية المنهارة في الاتحاد السوفيتي سابقاً ، وها هي أصوات العقلاء والحكماء ترتفع في الغرب تحذراً وتخوفاً ، من أن يصيهم ما أصاب نظراءهم في الاتحاد السوفيتي المنهار . وقد قرأنا ما جاء على لسان الزعيم الأمريكي المشهور (نيكسون) وقد تحدث عن تدهور الأسرة واندحار مناهج التعليم في أمريكا ، واتساع جريمة تعاطي المخدرات ، والمسكرات ، وتدهور ضوابط الأمن الاجتماعي . . الخ مما سبق ذكره في مقدمة هذا البحث ، ليختم (نيكسون) حديثه بالدعوة لتدرك الأمر قبل فوات الأوان مركزاً في دعوته على التزام القيم ووضع العقوبات الرادعة بحق الإجرام والمجرمين .

وعودة للمعادلة الحضارية . نقرر في ضوء كل ما تقدم . . بأن الحضارة الإلحادية غير صالحة وقد حكمت على نفسها بالفشل وأنهت وجودها بما لا تحسد عليه . . كما أن الحضارة العلمانية وعلى ما فيها من جوانب مشرقة إدارياً وتكنولوجياً ، ورغم شموخها في ميادين التطبيق الصناعي والزراعي والطبي والبحوث العلمية في البر والبحر والجو

وبحوث الفضاء ، إلا أننا نتحفظ على الجانب القيمي والثقافي ، الذي نرى أنه يتناقض ويتصادم في كثير من جوانبه مع المنهج الرباني وقيمة ومبادئه في عمارة الأرض ، وأصبح يهدد هذه الحضارة العملاقة في جوانبها المادية والإبداعية ، لذا فإننا نضم صوتنا إلى صوت العقلاء والحكماء في الغرب بعامة ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بخاصة من أمثال الرئيس نيكسون . . محذرين من انتكاسة خطيرة مقدماتها بدأت تهدد بذلك وتندرننا من ذلك ، ونطالب زملاءنا في الغرب بإعادة النظر في المراكز القيمية والأخلاقية ، لتكون في خدمة المراكز المادية ووسائلها ومهاراتها ولتقيم التوازنية الدقيقة معها ، مما يبعد أسباب الخطر عن الحضارة الغربية ، وأسباب الانتكاسة والانهيال . . ويحفظ هذه الحضارة المادية العملاقة ، ويجعلها في المسار الصحيح والمنهج الصحيح ، الذي يحول عطاها باتجاه مصلحة الإنسان وخير الإنسان وأمن الإنسان ، ولتكون حضارة عدل لا حضارة ظلم وطغيان ، وحضارة سلم لا حضارة حرب وعدوان . . وحضارة تعايش لا حضارة تصادم ، وحضارة تكامل لا حضارة تضاد ، وحضارة استمرار للتاريخ لا حضارة نهاية التاريخ ، على حد مقولة - فوكوهاما - ومن هم على نهجه ونظريته وعنصريته وتعصبه وغروره . . ولتكون من بعد حضارة تعاون إنساني وتكامل إنساني وتنافس إنساني ، لا حضارة استعلاء وقهر وغلبة واستئثار . . ونحن إذ نعبر عن حرصنا في الترشيد والتناصح للحيلولة دون انهيار الحضارة الغربية والتحول بها إلى الخيرية والرشاد ، انطلاقاً من إيماننا بأن الحضارة بعامة إرث بشري ينبغي المحافظة عليها وتطويرها وترشيدها ، وذلك على أساس من معتقداتنا وقيمنا ومبادئنا الإسلامية ، التي تدعوا إلى ذلك وترغب منه ذلك كما في قوله تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾^(١١٨) وقوله تعالى ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾^(١١٩) وقوله تعالى ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت

الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين» (١٢٠) ، ولقول الرسول عليه الصلاة والسلام «خير الناس من نفع الناس» (١٢١) ولقوله صلوات الله وسلامه عليه «والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن من بات شعبان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم» (١٢٢) .

فالحضارة عندنا وفي معتقدنا ليست حضارة قوم بعينهم ولا جنس بعينه ولا حضارة عرق بعينه . . ولا حضارة لون معين . . بل حضارة ربانية ، إنسانية عالمية ، غايتها وهدفها التعايش العالمي ، والرفاه العالمي والسلام العالمي . . على أساس من التصور المحاييد لمفهوم الحضارة .

«والحضارة برأينا . . هي ثمرة التوازن الدقيق بين مرتكز القيم والمبادئ والأخلاقيات ومرتكز الماديات والوسائل والمهارات ، عبر حركة الجهد الإنساني لعمارة الأرض وفق منهج الاستخلاف الرباني» (١٢٣) ، ومنهج الاستخلاف الرباني باعتقادنا ليس منسوباً لأحد وليس هو من وضع أحد فهو منهج رب الناس جميعاً وخالقهم ومدبر أمرهم . . . فهو منهج اللطيف الخبير . . اللطيف بعباده . . الخبير بأحوالهم وما يصلح لهم . . فهو منهج محايد بشرياً . . لا يحابي أحداً . . ولا يظلم أحداً . . ولا ينتصر لأحد على أحد إلا بالحق . . ومنهج محايد جغرافياً . . فهو ليس مع الشمال ضد الجنوب . . ولا ينحاز للجنوب في مواجهة الشمال . . وليس لغرب الأرض على حساب شرقها . . ولا لشرقها في معاداة غربها . . فهو منهج للناس في شمال الأرض وجنوبها ولمشارك الأرض ومغاربها . . وهو منهج محايد اقتصادياً . . لا ينتصر للأغنياء ضد الفقراء ولا يتعاطف مع الفقراء على حساب حقوق الأغنياء . . ولا يشجع الصناع ويبخس الزراع . . ولا يبارك الزراع ويمحق الصناع . . فهو للجميع تشجيعاً وتحفيزاً . . وللجميع عدلاً وإنصافاً . . وللجميع مآخاة وتكاملاً . . وهو منهج محايد سياسياً لا يمنح حق (الفيتو) للكبار في وجه مصالح الصغار . . ولا يدلل الصغار على حساب حقوق الكبار وإبداعاتهم ومهاراتهم بل هو للكبار والصغار . . وللأقوياء والضعفاء . . والقوي عنده

ضعيف حتى يرده عن الظلم والطغيان . . والضعيف عنده قوي حتى يأخذ له الحق ممن ظلمه وطمع عليه . . وهو منهج محايد جنسياً . . لا يتزلف الرجال على حساب النساء . . ولا يتعاطف ويرق للنساء على حساب الرجال . . فهو للذكورة والأنوثة على السواء . . ينصفهم ويكرمهم بالقسطاس المستقيم . . وهو منهج محايد بيئياً . . فمثلاً أن للإنسان حقوقاً واجبات فللحيوان حقوقه واجباته وللنبات حقوقه واجباته فهم جميعاً في معياره خلأ خلق مسخرة بعضها لبعض والجميع مسخر لعمارة الأرض ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (١٢٤) ، هذا هو منهج الاستخلاف الرباني . . منهج الحضارة الإنسانية الآمنة . . منهج الإسلام . . منهج الناس جميعاً ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (١٢٥) .

وخلاصة القول وللموضوعية ينبغي أن نعترف بأن مسيرة عمارة الأرض اليوم تعاني من خلل كبير . . خلل في القيم والمبادئ والأخلاقيات وخلل في الماديات والوسائل والمهارات . . فجحات من الأرض أجاد أهلها المشي في الأرض ، وأحسنوا تفعيل مسخراتها واستثمار طاقاتها ومكنوناتها . وارتقوا في ذلك وأبدعوا إبداعاً عملاقاً في الإنتاج الصناعي والتكنولوجي ، والبحث العلمي وتطبيقاته العامة إلا أنهم أخفقوا إخفاقاً ذريعاً في عالم القيم والمبادئ والأخلاقيات ، مما أحاط إنتاجهم الحضاري المادي بكثير من السلبيات والمخاطر . . وجهات أخرى من الأرض لدى أهلها مخزون عظيم من القيم والمبادئ والأخلاق وتراث ثقافي إنساني غزير ، وثروة عملاقة لتطبيقات ميدانية مع هذه القيم والمبادئ جديرة بالاحترام والتقدير ، وجديرة بالتعامل معها والأخذ بفضائها والاستفادة من تجاربها العملية ، والاجتماعية والاقتصادية ، والسياسية والعسكرية والأمنية والصناعية والزراعية والتجارية وغيرها ، إلا أنهم في الغالب تخلفوا عن مواصلة السير الحضاري المادي إلا من رحم ربي ، لأسباب من داخلهم ولأسباب من خارجهم ، تكالبت عليهم فأحدثت خللاً كبيراً في مسيرتهم ، فهم يعانون من خلل

في ميادين الماديات والوسائل والمهارات ، مثلما أن غيرهم يعاني خللاً في القيم والمبادئ والأخلاقيات ، فهناك خلل لدى الفريقين . . وندأونا للجميع أن يتداركوا الخلل ويصلحوا مناهج السير الحضاري لديهم لتكون في توازنية وتكامل . . توازنية القيم والماديات وتوازنية المبادئ والوسائل ، وتوازنية الأخلاق والمهارات وفق منهج الاستخلاف الرباني لعمارة الأرض . . ليستقيم من بعد السير الحضاري العالمي . . وتحقيق ثماره الطيبة المنشودة للناس جميعاً على السواء مصداقاً لقوله تعالى ﴿ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّه﴾ (١٢٦) .

وختاماً وبعد هذا كله يبقى السؤال الكبير المطروح اليوم . . كيف لنا أن نحقق طموحاتنا في الترشيح الحضاري . . وكيف لنا أن نعطف بالمسيرة الحضارية البشرية إلى أجواء التعايش البشري الآمن في زمن العولمة . . ؟ وقبل أن نجيب عن هذا السؤال الكبير والملح . . يحق لنا أن نتساءل كذلك هل العولمة ظاهرة بشرية طارئة ؟ أما أنها نتيجة طبيعية لتطور العلاقات البشرية وتناميها عبر الزمان والمكان ؟ وهل هناك علاقة بين النظام العالمي والعولمة ؟

وجواباً على ما تقدم من أسئلة وتساؤلات نقول : نحن المسلمين نؤمن بأن العالمية والعولمة أمران متلازمان ومتكاملان ، فالعالمية قيم وخلق ، والعولمة سلوك وأداء ، والعالمية مبادئ ومثل وأخلاقيات ، والعولمة تفعيل وتنفيذ لنظم المصالح بينهم . والعالمية بدون عولمة تبقى آمال وتطلعات ، والعولمة بدون نظام عالمي عادل تبقى عرضة للعبثية والتخبطات ، فهما طرفا المعادلة الصحيحة المتزنة لحركة الإنسان في مهمة عمارة الأرض ، وهما الأساس إقامة العدل والأمن في أرجائها . وبقدر ما تنتظم العلاقة وتتوثق بين العالمية والعولمة ، بقدر ما ينتظم السير الحضاري الصحيح في الأرض ، وبقدر ما يتحقق التفعيل الإيجابي لمكوناتها لصالح كرامة الإنسان وأمنه ورفاهته ، والإسلام جاء من وراء أربعة عشر قرناً ونيف ليقرر العالمية والعولمة ، ولينشئ

العلاقة الموضوعية الوثيقة بينهما ، بعد أن قرر التحول بالنهج البشري من القومية إلى العالمية ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾^(١٢٧) ، والتوسع بمصالح الناس والنفع العام من الخصوصية إلى العولمة ، على أساس من التمايز والتعايش والتكامل «الناس شركاء في ثلاثاء .. الماء والكلاؤ والنار»^(١٢٨) ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خير الناس من ينفع الناس»^(١٢٩) ، وبعد أن قرر قاعدة التدافع والتعاون البشري من أجل صرف الفساد عن الأرض وإقامة الأمن فيها ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾^(١٣٠) ، وبذلك يكون الإسلام قد أحدث تحولاً جذرياً في حياة الناس ، وهو يرتقي بهمومهم واهتماماتهم ومسؤولياتهم من المستوى القومي والإقليمي إلى المستوى الأممي والعالمي ، مقررًا وحدة الأسرة البشرية وتكامل مصالحها وأمنها ، وأن الأرض سكنهم المشترك ، ينبغي المحافظة على سلامتها وعدم إفسادها ، وأنها خزانة رزقهم ، عليهم أن يحسنوا استخدام مفاتيحها ، وأن يتقنوا فنون ومهارات تفعيل مخزوناتنا ، وعليهم أن يلتزموا قيم العدل والإحسان في نظم ومعايير الانتفاع بمسخراتها بما يحقق كرامة الإنسان وأمنه وكفائته ، ومما ينبغي أن يتنبه إليه المسلمون ، وأن يعرفه الناس من حولهم هو أن الإسلام عقديّة وشرعية ، فلأن كانت العقيدة تمثل مرتكزات وثوابت ومنطلقات خصوصية الهوية الدينية الصحيحة للمسلمين ، فإن الشريعة تمثل مرتكزات ومنطلقات عالمية وعولمة المنهج المحكم لعمارة الأرض وإقامة العدل والأمن ، وتحقيق المصالح المشتركة بين الناس على اختلاف انتماءاتهم القومية والعرقية والجنسية واللونية والدينية ﴿ ولا يجبر منكم شئنان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾^(١٣١) .

وعلى أساس من ذلك فإن الإسلام يقرر أن الناس جميعاً شركاء في مهمة الاستخلاف الرباني للإنسان في عمارة الأرض ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾^(١٣٢) ، وأن الناس جميعاً مؤهلون خلقة ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن

تقويم ﴿١٣٣﴾ ، ومهيئون فطرة لأداء هذه المهمة ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ (١٣٤) .
والناس مكلفون بالتعاون لتحقيق عمارة آمنة للأرض ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا
تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (١٣٥) ، ومدعوون للتكامل والتعارف ، من أجل إنجاز
شامل وعادل لمهمة الاستخلاف الرباني ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (١٣٦) ، والإسلام يقرر
كذلك أن الناس شركاء في الانتفاع العام بنتائج سيرهم وكدهم لعمارة الأرض ، وبكلمة
أخرى هم شركاء في الانتفاع بثمرات العطاء الحضاري التكنولوجي والصناعي والزراعي
والحيواني ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ (١٣٧) ، ولكن ذلك
كله وفق قواعد ومعايير صيانة حق التملك ، والتزام ضوابط ومعايير نظم وآليات
الانتفاع . وبعد أليس من الموضوعية والمشروعية أن يستوقفنا سائل ليسأل : ما هو الأمر
الملح والمطلوب والملح من الناس على أساس مما ذكر آنفاً من أجل الوصول
بالمجتمعات البشرية إلى عالمية راشدة وعولمة آمنة . . . ؟ والجواب باختصار ما يلي :

أولاً : العمل معاً على تجديد القيم الروحية والأخلاقية وبعث روح المسؤولية بين
الأجيال البشرية .

ثانياً : إعادة التوازن بين حركة العلوم والتكنولوجيا من جهة وبين القيم الأخلاقية
والدينية الربانية من جهة أخرى لضبط النتائج المعرفية ، لتكون في صالح كرامة الإنسان
وسلامة البيئة والتعايش البشري الآمن .

ثالثاً : اعتماد الحوار الجاد بين الحضارات كأساس للتعارف من أجل :

(١) أن يتعلم الناس كيف يتعامل كل منهم مع الآخر وكيف يجعل الجميع كرامة
الإنسان .

(٢) أن تكتشف القيم المشتركة وتراعى الخصوصيات الثقافية في سبيل تحقيق تعايش
آمن .

- (٣) العمل معاً لمنع العدوان والاضطهاد والظلم بين الناس .
- (٤) التأكيد على أن الأسرة المؤسسة على التزاوج الشرعي بين الرجل والمرأة هي الوحدة الأساس في بناء المجتمعات الآمنة .
- (٥) التأكيد على أن الأسرة وحدة أساسية من مؤسسات المجتمع المدني وأنها المصدر الأكفأ لأجيال مسؤولة ومنتجة .
- (٦) التأكيد على أن المسؤولية المشتركة بين الرجل والمرأة في ميادين الحياة يجب أن تؤسس على قيم التكامل المنصف بينهما .
- (٧) العمل معاً على إقامة العدل الرباني بين جميع الناس على اختلاف أقوامهم وأجناسهم ومعتقداتهم وألوانهم .
- (٨) العمل على إزالة خلل التوازن بين حقوق الإنسان وواجباته ، باعتبار أن مثل هذا الخلل من العوامل الكبرى في اضطراب مسيرة الحضارة البشرية .
- (٩) العمل على مساعدة الفقراء لتحرير أنفسهم من الظروف القاسية التي تتنافى مع كرامة الإنسان وشائج الأخوة الإنسانية .
- (١٠) العمل على إنهاء ظاهرة التعامل بالمعايير المزدوجة إقليمياً ودولياً .
- (١١) العمل على إزالة العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية لاستفحال ظاهرة العنف والإرهاب في العالم .
- (١٢) التأكيد على ضرورة السير معاً بسلام ووثام على أساس من إرادة الله تعالى وطاعته لحماية المجتمعات البشرية من الكوارث والفقر والجهل . ووقف ظاهرة التدهور الأخلاقي والتفسخ الأسري ، ووضع حد لمروجي تجارة الحروب وتكنولوجيا أسحلة الدمار الشامل ، وإلا سيكون الناس عرضة لمزيد من الهلاك والدمار .
- أجل إن التجديد الديني للقيم الربانية ، والضبط التكنولوجي والمعرفي ، والحوار الثقافي والحضاري بين الناس ، هي من الضرورات الملحة من أجل الوصول إلى نظام عالمي رشاد وعولمة عادلة آمنة .

الهوامش

- (١) سورة المائدة ، ٣ .
- (٢) رواه البخاري .
- (٣) سورة الأعراف ، ١٥٨ .
- (٤) سورة الشورى ، ١١ .
- (٥) سورة المؤمنون ، ٢٣ .
- (٦) سورة الأعراف ، ٨٥ .
- (٧) سورة الأعراف ، ٧٣ .
- (٨) سورة الأعراف ، ٨٥ .
- (٩) سورة العنكبوت ، ١٦ .
- (١٠) سورة الإسراء ، ٢ .
- (١١) سورة المائدة ، ٧٢ .
- (١٢) سورة النحل ، ٣٦ .
- (١٣) سورة الأعراف ، ١٨٥ .
- (١٤) معركة القادسية ، محمود شيت خطاي .
- (١٥) سورة النحل ، ٩٠ .
- (١٦) حديث شريف .
- (١٧) سورة الجاثية ، ٢٣ .
- (١٨) سورة النازعات ، ٢٤ .
- (١٩) سورة الزخرف ، ٥٤ .
- (٢٠) خطبة الوداع ، أخرجه أحمد في مسنده .
- (٢١) حديث شريف .

- (٢٢) أخبار عمر (رضي الله عنه) .
- (٢٣) سورة الأنعام ، ١٥١ - ١٥٣ .
- (٢٤) سورة التوبة ، ١٠٥ .
- (٢٥) رواه الطبراني والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما .
- (٢٦) حديث شريف .
- (٢٧) حديث شريف .
- (٢٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري للعسقلاني .
- (٢٩) سورة التوبة ، ٩٠ .
- (٣٠) رواه الطبراني والبيهقي .
- (٣١) حديث شريف .
- (٣٢) ابن خلدون ، التاريخ ، ص ٣٥ / ٤٠ / ١٢٠ / ١٢١ / ١٣١ .
- (٣٣) ميلاد مجتمع ، ص ٢٤ ؛ مشكلة الثقافة ، ص ٩٨ ؛ مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص ٤٩ ؛ تأملات ، ص ١٩٨ ؛ فكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر بانءونغ ، ص ١٣٤ ؛ شروط النهضة ، ص ٤٣ .
- (٣٤) الحضارة الإسلامية ، أسسها ومبادئها ، أبو الأعلى المودودي ، الصفحة ٢٨٨ .
- (٣٥) نظام الإسلام ، تقي الدين النبهاني ، ٦٠ / ٥٩ .
- (٣٦) معالم في الطريق ، سيد قطب ، فصل الإسلام والحضارة .
- (٣٧) منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة ، سعيد حوى رحمه الله ، الإسلام والحضارة ، ص ٤-٦ .
- (٣٨) خلاصة الفكر الأوربي ، شبنجلر ، ص ٢٥ ، ٥٠ ، ٧٠ ، ٧٢ .
- (٣٩) مختصرات دراسة التاريخ ، تويني ، ج ٤ ، ص ١٢-١٣ ، ١٦-١٧ ، ٢٤ ، ٩٠ ؛ ترجمة فؤاد محمد شتيل ، ج ١ ، ص ٤٧٦ ، ص ١٦٠ ، ١٩٤ .
- (٤٠) Lauer. roberth, op,cit, p.42-44,47,A ppelbeaam, r, op,cit, p.101-103. (٤٠)

- (٤١) جورج باستيد (المدنية) ، ترجمة عادل العوا ، ص ١٢١ وما بعدها .
- (٤٢) الإسلام والحضارة ، ملتقى الندوة العالمية ١٣٩٩ ، مج ٢ ، ص ٢٠٧ .
- (٤٣) التحديات الحضارية المعاصرة للأمة المسلمة ، فيصل حسون ، ص ٢٠٨ ،
ملتقى الندوة العالمية للشباب المسلم ١٣٩٩ ، المجلد الثاني .
- (٤٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .
- (٤٥) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .
- (٤٦) المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .
- (٤٧) المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .
- (٤٨) سورة البقرة ، ٣٠ .
- (٤٩) سورة طه ، ٥٠ .
- (٥٠) حديث شريف .
- (٥١) سورة الأعراف ، ١٧٢ .
- (٥٢) سورة المؤمنون ، ٢٣ .
- (٥٣) سورة الإنسان ، ٣ .
- (٥٤) سورة الشمس ، ٧-١٠ .
- (٥٥) سورة المائدة ، ٤٨ .
- (٥٦) سورة الإسراء ، ٤٤ .
- (٥٧) سورة الحج ، ١٨ .
- (٥٨) سورة الأحزاب ، ٢٧ .
- (٥٩) سورة هود ، ١٥ .
- (٦٠) سورة الأنبياء ، ٣٠ .
- (٦١) سورة الإسراء ، ٧٠ .
- (٦٢) سورة الروم ، ٤١ .

- (٦٣) الإسلام والنظم الدولية ، د. حامد الرفاعي .
- (٦٤) سورة هود ، ٦٠ .
- (٦٥) سورة فصلت ، ١٥-١٦ .
- (٦٦) سورة الفجر ، ٦-٩ .
- (٦٧) سورة هود ، ٦٧-٦٨ .
- (٦٨) سورة فصلت ، ١٧ .
- (٦٩) سورة هود ، ٨٢ .
- (٧٠) سورة هود ، ٩٤-٩٥ .
- (٧١) سورة الفجر ، ١٠ .
- (٧٢) سورة الروم ، ٩ .
- (٧٣) سورة غافر ، ٢١-٢٢ .
- (٧٤) سورة غافر ، ٨٢-٨٣ .
- (٧٥) سورة التوبة ، ٦٩-٧٠ .
- (٧٦) سورة القصص ، ٧٨ .
- (٧٧) سورة فاطر ، ٤٤ .
- (٧٨) سورة فصلت ، ١٥-١٦ .
- (٧٩) سورة محمد ، ١٠-١٤ .
- (٨٠) البيروستريكا ، ميخائيل جورباتشوف ، ص ١٨ ، ١٩ .
- (٨١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .
- (٨٢) المرجع السابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .
- (٨٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .
- (٨٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .
- (٨٥) المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

- (٨٦) الفرصة السانحة ، ريتشارد نيكسون ، ص ٢٥٨ .
- (٨٧) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .
- (٨٨) المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .
- (٨٩) المرجع السابق ، ص ١٦٨ .
- (٩٠) المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .
- (٩١) المرجع السابق ، ص ٣٢٧-٣٢٨ .
- (٩٢) المرجع السابق ، ص ٣٣١ .
- (٩٣) Guide to modern wickness p.293
- (٩٤) حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لزمنا ، يوسف القرضاوي ، ص ٥-٧ .
- (٩٥) جون فستر دالاس ، حرب أم سلام .
- (٩٦) الكسيس كاريل ، الإنسان ذلك المجهول .
- (٩٧) Guide to modren wickness
- (٩٨) من خطابه الشهير عام ١٩٢٨ م ، أبو الأعلى المودودي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ٢٩٦ .
- (٩٩) المسلمون والغرب ، د. حامد الرفاعي .
- (١٠٠) جريدة المسلمون ، عدد ٤٩٠ ، ٤ يونيو ١٩٩٤ م .
- (١٠١) وثيقة الأمم المتحدة في مؤتمر السكان والتنمية ، سبتمبر ١٩٩١ م بالقاهرة .
- (١٠٢) سورة الأنبياء ، ٣٠ .
- (١٠٣) سورة الجاثية ، ١٣ .
- (١٠٤) سورة طه ، ٥٠ .
- (١٠٥) المملكة العربية السعودية والنهج الحضاري ، د. حامد الرفاعي .
- (١٠٦) حديث شريف .
- (١٠٧) سورة الزخرف ، ٣٢ .
- (١٠٨) سورة الملك ، ١٥ .

- (١٠٩) سورة الحجرات ، ١٣ .
- (١١٠) سورة هود ، ٨٥ .
- (١١١) سورة البقرة ، ٢٥١ .
- (١١٢) الإسلام والحضارات الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ص ٧٣٦ .
- (١١٣) سورة هود ، ٨٥ .
- (١١٤) سورة هود ، ١٥ .
- (١١٥) سورة الجاثية ، ١٣ .
- (١١٦) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ، الشيخ محمد المبارك (رحمه الله) .
- (١١٧) سورة يونس ، ٨١ .
- (١١٨) سورة الحجرات ، ١١٣ .
- (١١٩) سورة الحج ، ٤٤ .
- (١٢٠) سورة البقرة ، ٢٥١ .
- (١٢١) ذكره المتقسط في كثر العمال .
- (١٢٢) حديث شريف .
- (١٢٣) المسلمون والغرب ، د. حامد الرفاعي .
- (١٢٤) سورة الإسراء ، ٤٤ .
- (١٢٥) سورة الأعراف ، ١٥٨ .
- (١٢٦) سورة إبراهيم ، ٢٤ .
- (١٢٧) سورة الأعراف ، ١٥٨ .
- (١٢٨) سنن الإمام ابن ماجه رواه الطبراني والبيهقي .
- (١٢٩) ذكره المتقي في كثر العمال .
- (١٣٠) سورة البقرة ، ٢٥١ .
- (١٣١) سورة المائدة ، ٨ .

- (١٣٢) سورة البقرة ، ٣٠ .
- (١٣٣) سورة اليقين ، ٤ .
- (١٣٤) سورة البقرة ، ٣١ .
- (١٣٥) سورة المائدة ، ٢ .
- (١٣٦) سورة الحجرات ، ١١٣ .
- (١٣٧) سورة الجاثية ، ١٣٧ .

صراع الحضارات أم حوار الثقافات؟

نماذج متبادلة

د. حسن حنفي (*)

المستخلص

أوضحت الدراسة أنه بعد انهيار المعسكر الشرقي عام ١٩٩١م تسارع الغرب الذي أخذته العزة بالنصر والثقة بالرأسمالية في إبداع مفاهيم جديدة، شغل بها العالم، وانشغل بها المثقفون العرب، وغيرهم من الشعوب في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ومن هذه المفاهيم (صراع الحضارات)؛ (حوار الثقافات)؛ (نهاية التاريخ)؛ (المجتمع المدني)؛ (حقوق الإنسان)؛ (حقوق المرأة)؛ (الخصخصة) . . . إلخ، موضحاً أنها مفاهيم غير بريئة في ظاهرها الفكر وفي باطنها السياسة، في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب، والمستفيد الأول المتفوق حضارياً؛ فمن يخسر في الواقع يخسر أيضاً في الذهن ومن يهزم في الحاضر يهزم أيضاً في الماضي!

وتحدث البحث عن صراع الحضارات . . . نموذج الغرب الحديث، الذي قسم مرحله إلى ثلاث مراحل: القديمة والوسطى والحديثة، مشيراً إلى أن أوروبا ذاتها مسترجعة تاريخها الوثني الأسطوري القديم باعتبارها مكوناً بنيوياً ومن مصادر تكوين الوعي الذي تأثر بها المصدر اليوناني الروماني والمصدر اليهودي المسيحي والبيئة

(*) رئيس قسم الفلسفة بجامعة القاهرة سابقاً، حصل على الدكتوراه من جامعة السربون بباريس، تولى نيابة رئاسة الجمعية الفلسفية العربية، وتولى السكرتارية العامة للجمعية الفلسفية المصرية، عضو بلجنة التضامن الآسيوية والأفريقية وعضو لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة.

الأوروبية ذاتها بأساطيرها القديمة وثقافتها الشعبية، مشيراً إلى أنه عندما انتشر الإسلام على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط، وأسس حضارة جديدة ورثت حضارة اليونان والرومان والحضارة اليهودية والمسيحية؛ بدأ عداء الغرب في العصر الوسيط للعالم الإسلامي بالحملات الصليبية المتتالية، التي أفرزت النموذج الغربي الحديث (صراع الحضارات) كمحاولة للقضاء على الثقافات الوطنية واللغات المحلية باسم التثاقف أو المثاقفة، وتعني في الظاهر التحديث والتمدين والتفاعل الثقافي والحوار المتبادل والأخذ والعطاء وفي الحقيقة تعني التغريب وانتشار ثقافة المركز على ثقافة الأطراف ابتداء من اللغة حتى انقسمت أفريقيا إلى أنجلوفونية وفرانكوفونية لدرجة أنه لم يستطع الأفارقة الحديث بين أنفسهم بلغات الرجل الأبيض أو الاتصال جغرافياً بين مناطقهم إلا عبر عواصم المتروبول!

ثم تناول البحث حوار الثقافات: النموذج العربي الإسلامي القديم، الذي وصفه بأنه نموذج يقوم على الأخذ والعطاء وعلى مستوى الندية بين الطرفين؛ مشيراً أن الوحي نزل بلسان عربي مبين، مؤكداً البلاغة العربية، ومتجاوزاً الشعر العربي وأساليب بنائه، معطياً إعجازاً أدبياً بطريقة العرب، ولم يقض الوحي على الثقافات الموجودة في شبه الجزيرة العربية، اليهودية والنصرانية والوثنية بل حاورها ووصف تطورها التاريخي ومذاهبها وانحراف بعضها عن الأصول الأولى، أكد بعض القيم العربية القديمة، مثل نجدة الملهوف، والغريب، والشجاعة والكرم الشهامة والصدق في القول، والإحساس بالطبيعة وفي الوقت نفسه غير النموذج الإسلامي قيماً أخرى وعادات جاهلية، مثل وأد البنات وعلاقة الرجل بالمرأة والتمايز بين العبيد والأشراف، مشيراً إلى أنه قديماً يعني حوار الحضارات الآن لا غالب ولا مغلوب؛ فقد جربت شعوب البحر الأبيض المتوسط هذا النموذج عبر التاريخ: إذا قوي الشمال، فاض على الجنوب، وإذا قوي الجنوب فاض على الشمال...!

صراع الحضارات أم حوار الثقافات؟

نماذج متبادلة^(١)

أولاً: ملاحظات أولية.

إن الحديث عن حوار الحضارات وموقف الثقافة العربية فيه يتطلب أولاً عدة ملاحظات أولية للمفاهيم وسياقاتها التاريخية. فمن الملاحظ أنه في العقد الأخير بعد انهيار المعسكر الشرقي في ١٩٩١ إن تسارع الغرب الذي أخذته العزة بالنصر، والثقة بالرأسمالية في إبداع مفاهيم جديدة شغل بها العالم، وانشغل بها المثقفون العرب وغيرهم من الشعوب في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية يهمشون ويكتبون الحواشي والتخريجات وهم ما زالوا قريبي عهد بعصر الشروح والملخصات أيام الخلافة العثمانية. ولما كان معدل إفراز المفاهيم والتصورات والمصطلحات في المركز أسرع من تهميشها وشرحها والتعليق عليها وتفسيرها في المحيط لم تعد هناك فرصة لشعوب المحيط لإبداع مفاهيمها وتصوراتها الخاصة التي تعبر عن رؤيتها للعالم، وتظل تلهث وراء فهم ما يعطى كطعم لها. وهي فرحة بأنها على مستوى العصر، تدخل في عصر الحداثة، وتفكر فيما يفكر فيه الغرب فيقل الإحساس بالدونية أمامه، عصره عصرها، وتفكره تفكيرها، وهمومه همومها، وألفاظه ألفاظها، ودون أن تدري أن متونه شروحها، وأن إبداعه استهلاكها، وأن الإحساس بمركب العظمة والتفوق لديه يزيد.

ومن هذه المفاهيم «صراع الحضارات»، «حوار الثقافات»، «نهاية التاريخ»، «العولمة»، «الحكم GOVERNANCE»، «المجتمع المدني»، «حقوق الإنسان»، «حقوق المرأة»، «الخصخصة». الخ. وكلها مفاهيم موجهة، غير بريئة في ظاهرها

الفكر وفي باطنها السياسة، في ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب. «صراع الحضارات» المقصود منه أن الصراع بين المعسكرات وبين الأيديولوجيات والنظم السياسية، الاشتراكية والرأسمالية، الشرق الغرب، الشمال والجنوب، الأغنياء والفقراء، المركز والمحيط، الاستعمار الجديد وحركات التحرر الجديدة قد انتهى لصالح طرف واحد هو الطرف الأول، فقد كان الطرف الأقوى. وعلى الطرف الثاني أن يعترف بالهزيمة. الصراع الآن لم يعد بين نظم سياسية وقوى اقتصادية بل صراع حضارات. والمتفوق في السياسة والاقتصاد يكون بالضرورة متفوقا في الحضارة لأنها هي التي جعلته متفوقا وحتى تتم زعزعة ثقة شعوب الأطراف في ثقافتها ونزعها عن حضارتها. ومن يخسر في الواقع يخسر في الذهن. ومن ينهزم في الحاضر ينهزم في الماضي.

وربما يكون المقصود هو إشغال شعوب الأطراف بشئ عزيز عليها، متمسكة به، ترى فيه سبب بقائها في التاريخ واستقلالها وهويتها وهو الحضارة، وبيان أن هذا الشئ العزيز في خطر يهدده صراع حتى تتمسك به الشعوب وتشغل نفسها بالدفاع عن هويتها حتى تشيح بوجهها عن الصراع الحقيقي وهو الصراع الاقتصادي في عصر العولمة، واقتصاديات السوق، والشركات المتعددة الجنسيات. وكأن العالم قد انقسم قسمين، للمركز والاقتصاد وللأطراف الحضارة.

وربما يكون القصد حقيقيا، وهو إعلان ما كان الغرب يخفيه دائما، العنصرية والمركزية الحضارية كدافع دفين. فلم يكن دافع الاستعمار اقتصاديا سياسيا فقط بل قام أيضا على النظريات العنصرية في القرن الماضي التي كانت تقوم على التفرقة بين الأبيض والأسود، بين السامي والآري، بين المتحضر والمتوحش، بين الحضرة والبدو.

وقد تنبأ هنتنجتون بمستقبل يتحد فيه الإسلام بالبوذية في الشرق في مواجهة المسيحية واليهودية في الغرب. قد يكون الهدف هو إبعاد المسلمين عن الأخذ بأسباب القوة في الغرب، وزيادة ثقافتهم ثقافة، وإيمانهم إيمانا، وروحانيتهم روحانية بعيدا عن حضارة العقل والعلم والعالم.

ويقال نفس الشيء على باقي المفاهيم مثل «حوار الحضارات». فالمقصود منه في الغرب أن يخف التوتر بين الشعوب في حوار على مستوى الثقافة بعيدا عن السياسة ومشاكلها والاقتصاد وهمومه. الثقافة توحد الشعوب والاقتصاد يفرقها. فبدلا من كل أشكال الصراع بين من يملكون ومن لا يملكون، بين الأغنياء والفقراء، بين المستغلين والمستغلين، بين القاهرين والمقهورين، بين المركز والمحيط يمكن عقد حوار بين الطرفين تألفا ومحبة وإخاء كما هو الحال في «حوار الأديان».

أما «نهاية التاريخ» فتعني إيقاف الزمان، واكتمال التاريخ، وتحقيق النبوة. فالرأسمالية المنتصرة بعد هزيمة «الاشتراكية» في ١٩٩١م هي خاتم النبوة، ونهاية المطاف. فعلى كل الأنظمة التكيف معها وتبنيها. وهي قادرة على تجديد نفسها، وتغيير أشكالها حتى لا تتحجر وتنهار كما حدث للاشتراكية. وقد بلغت نظرية «نهاية التاريخ» أوجها في القرن الماضي عند هيجل في ألمانيا اعترازا بالروح الألماني ويدولة بسمارك الموحدة. وكانت تلك النهاية قد تحققت من قبل في «الثورة الفرنسية». وقد لا تعني «نهاية التاريخ» الانتصار بالضرورة. فقد لاحظ فلاسفة التاريخ في الغرب أن القرن العشرين هو نهاية الغرب. ولما كان الغرب هو التاريخ، والتاريخ هو الغرب فقد انتهى التاريخ في «أفول الغرب» عند اشبنجلر، و«أفلاس الفلسفة» عند هوسرل، و«قلب القيم» عند شيلر، و«الغرب في قفص الاتهام» عند رسل، و«الغرب مصادفة» عند جاردودي، و«موت الإله» عند نيتشة. وفي حضارات أخرى قد تعني «نهاية التاريخ» في الغرب «بداية التاريخ»، تاريخ أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية في دورة حضارية جديدة للشعوب التاريخية ممثلة في حركات التحرر الوطني، وفجر النهضة العربية، والصحو الإسلامية، والنمور الآسيوية، وريح الشرق.

وتعني «العولمة» نهاية عصر الاستقطاب، وبداية العالم ذي القطب الواحد، تحت شعار «العالم قرية واحدة»، اقتصاديات السوق، مجموعة الثمانية، الشركات المتعددة

الجنسيات، ثورة المعلومات، الثورة التكنولوجية الثانية، نهاية الأيديولوجيا، ويعني «الحكم» GOVERNANCE نهاية الدولة الوطنية، وأنها في حاجة إلى إدارة عليا من موظفي بنوك قادرين على تحويل الأموال من الداخل إلى الخارج. فالبنك الدولي وصندوق النقد، واتفاقية «الجات» والأمم المتحدة كلها حكومات بديلة عن الحكومات الوطنية. لا جمارك ولا حدود ولا حماية. فالأحلاف موجودة، وقوة الولايات المتحدة منتشرة في كل مكان تدخل كل العصاة والنشاز إلى بيت الطاعة.

وتقوم «ثورة المعلومات» على احتكار المعلومات وحجبها أو نقلها، وتظل مراكز السيطرة فيها لمن أبدعها. فالمعلومات قوة. والأقمار الصناعية كلها في أيدي مبدعيها. وأصبح تسرب المعلومات من أكبر الجرائم. فالمعرفة ليست حقا للجميع، بل لمن يملكها فحسب. ثورة المعلومات من ناحية يقابلها احتكار المعلومات من ناحية أخرى. وتزدهر صناعة نظم المعلومات وصناعتها بحيث أصبحت تفوق الصناعات العسكرية.

و«الخصخصة» للشعوب في الأطراف فقد فشلت هذه الشعوب في التحول من الثورة إلى الدولة. كلفت الثورة المعسكر الشرقي الملايين ثمنا للسلاح حتى انهيار، وكلفت الدولة الولايات المتحدة والغرب مليارات في التنمية والخدمات حتى تفاقمت مشكلة ديون العالم الثالث. أصبحت «الخصخصة» عنوانا لفشل التجارب الاشتراكية العربية والأفريقية في الستينات، نهاية للقطاع العام، تدعيم الدولة للمواد الأولية رعاية للفقراء ومحدودي الدخل، ونهاية التخطيط والملكية العامة لوسائل الإنتاج، واتباع قوانين السوق، العرض والطلب، وحرية سعر الصرف والبنوك الخاصة، ومجانية التعليم، وخصخصة الماء والكهرباء والمواصلات، ولم يبق إلا الهواء والصرف الصحي. وفي نفس الوقت وفي اتجاه مضاد تتحول الحياة الخاصة إلى حياة عامة، فتزدهر تجارة الجنس الإعلانات الفاضحة والعلاقات الخاصة بما في ذلك حياة الرؤساء. وتأتي مفاهيم أخرى مثل «المجتمع المدني»، «حقوق الإنسان»، «حقوق المرأة» كي

تساعد المفاهيم الأولى كبديل عن «الدولة» و«الأمة» و«الشعب» و«المواطن». فالمجتمع المدني أو الأهلي مجتمع خاص، حر، ينشط من خلال الجمعيات الأهلية للخدمات العامة والدولة غائبة. فآزمة الحريات في دول العالم الثالث هي سيطرة الدولة على المجتمع. والحل هو أولوية المجتمع المدني على الدولة، أزمة وحل على طرفي نقيض. مع أن الحل هو ألا تكون قوة أحد الطرفين على حساب الآخر. وأن يكون النظام السياسي منتخبا من الشعب، ومن ثم تخف حدة التناقض بين الدولة والمجتمع. أما مفاهيم «حقوق الإنسان» و«حقوق المرأة» فإنها إسقاطات غربية صرفة على باقي الشعوب. فحقوق الإنسان تقوم على فلسفة فردية، أن الإنسان الفرد محور الكون. في حين أنه في ثقافات العالم الثالث أن الجماعة هي البداية بما تمثله من تعاون وتراحم وألفة ومحبة. فإذا كان الغرب قد أعطى العالم «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» في ١٩٤٨م فإن العالم الثالث قد أعطى العالم أيضا «الإعلان العالمي لحقوق الشعوب» في الجزائر ١٩٧١م. أما «حقوق المرأة» فإنها أيضا تقوم على مفهوم فردي جنسوي، بعد تجزئة الفردية إلى فرديات. رجل، امرأة، طفل، شيخ، شاب. وهذا كله تفتيت للمجتمع الواحد، وقضاء على مفهوم المواطن الذي لا يتمايز فيه الإنسان جنسيا أو طبقا للأعمار.

وكلها مفاهيم أحادية الطرف، تظهر جانبا واحدا من الحقيقة وتخفي الجانب الآخر عن قصد. تظهر جانب المركز، وتخفي جانب الأطراف. مثلا «صراع الحضارات» يقابله «حوار الثقافات»، «نهاية التاريخ» تقابلها «بداية التاريخ»، «الحكم» تقابله «المشاركة الشعبية»، «حقوق الإنسان» وجهها الآخر «حقوق الشعوب»، «الخصخصة» في مواجهة «القطاع العام». وقد يشتق مصطلحان من نفس الاشتقاق مثل «الخصخصة» PRIVATIZATION وتعني تحويل القطاع العام إلى القطاع الخاص، و«الخصوصية» SPECIFICITY وتعني الهوية والأصالة في مقابل العولمة GLOBALIZATION.

وهي في الحقيقة ليست مفاهيم أو تصورات بل هي أحداث وقعت وتحاول أن تجد شرعية لها في مفهوم «صراع الحضارات» مثلاً حدث في تاريخ الغرب الحديث وهو العنصرية الأوروبية التي قضت على ثقافات الشعوب المغلوبة. و«العولمة» تشريع للرأسمالية بعد انهيار المعسكر الاشتراكي في ١٩٩١ م. و«نهاية التاريخ» تبرير للرأسمالية وانتصارها بعد انهيار الاشتراكية وإيقاف الزمن حتى تظل الرأسمالية هي المنطلق الثابت والمرحلة النهائية لتطور البشرية لإخفاء تناقضاتها الداخلية وأي حركات مناهضة لها. و«الحكم» يعني سيطرة جهاز الإدارة العليا الممثل في المؤسسات المالية الدولية من أجل إدارة اقتصاد الدول بصرف النظر عن حاجات الشعوب ولصالح الرأسمالية العالمية.

ولا يقوم بإخراج هذه المفاهيم العلماء بدافع نظري خالص وبهم علمي صرف بل تخرج من مراكز أبحاث تخطط للسيطرة على العالم اقتصادياً وسياسياً وثقافياً وفنياً. فهي مفاهيم موجهة. ومن الطبيعي في الغرب أن تتفاعل مراكز الأبحاث والجامعات والمؤسسات العلمية والفنية الخاصة مع مراكز إصدار القرارات في الدول الكبرى كنوع من التنسيق بين العلماء والقادة بما في ذلك الاستشراق. ويتم ذبوعها ونشرها على نطاق واسع ومن خلال أجهزة الإعلام ودور النشر والترجمة والرحلات وتجنيد كل وسائل الاتصال لذلك.

بل إن هذه المفاهيم ليست آراء ووجهات نظر بل تعبر عن لحظة من لحظات تغير نظم العالم، من نظام قديم إلى نظام جديد. فهي سلاح فكري مثل باقي الأسلحة الاقتصادية والحربية. وظيفتها إعلان نهاية النظام القديم وبداية النظام الجديد، والمساعدة على القضاء على مخلفات النظام القديم التي مازالت رافضة للنظام الجديد واتهامها بالعنف والإرهاب والقتل والتعصب والتخلف والجهل وبقياء الماضي البعيد أو خطاب الستينات القريب. ومن هنا أتت ضرورة القضاء على بقايا حركات التحرر الوطني أو تطويرها في الحركات الأصولية أو غيرها من الحركات الشعبية GRASS-ROOT

MOVEMENTS بما فيها الصحوة الإسلامية في إيران والسودان وأوروبا الشرقية والجمهوريات الإسلامية المستقلة في أواسط آسيا والفلبين .

موضوع «صراع الحضارات» إذن موضوع في ظاهره الثقافة ، وفي باطنه السياسة . الشكل الثقافي لدى الشعوب التقليدية التاريخية التي ما زالت مرتبطة بماضيها . والمضمون سياسي لدى الشعوب التي انفصلت عن ماضيها باسم الحداثة لإلهاء شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية عن أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وشغلها بما تحب وتعشق . هو جزء من كل ، أحد أبعاد الصراع الدائم والمستمر بين المركز والمحيط في العصور الحديثة في الغرب .

ثانياً: «صراع الحضارات»، نموذج الغرب الحديث:

مر الغرب بثلاث مراحل ، القديمة والوسطى والحديثة ، اليونانية الرومانية ، اليهودية المسيحية ، ثم أوروبا ذاتها مسترجعة تاريخها الوثني الأسطوري القديم . وهي نفس المكونات البنيوية ومصادر تكوين الوعي الأوروبي ، المصدر اليوناني الروماني ، والمصدر اليهودي المسيحي ، ولبنة الأوروبية ذاتها بأساطيرها القديمة وثقافتها الشعبية^(٢) .

في المرحلة اليونانية الرومانية كانت هناك عقدة التفوق اليوناني والتقابل بين اليوناني والبربري . كانت أحلام الإسكندر ، تكوين إمبراطورية تجمع بين الغرب والشرق من اليونان الحديث حتى الشرق القديم . وانتشرت الثقافة اليونانية في مصر والشام ، وأصبحت اللغة اليونانية لغة الحاكمين وليست لغة المحكومين . وكانت تصطدم بقوى أخرى في الشرق مثل فارس على زعامة العالم القديم ومركزته في اليونان أم في فارس . كان هناك تناقض ثانوي بين أثينا وإسبرطة ، بين العقل والساعد ، بين الثقافة والحرب ، بين القلم والسيوف . كان تناقضاً فرعياً تجاوزته الإسكندر بتوحيد بلاد اليونان في مواجهة البرابرة .

واستأنف الرومان ما بدأه اليونان . وكان التوسع أكثر نحو الغرب في حوض البحر الأبيض المتوسط شمالا وجنوبا . كانت اللغة اللاتينية لغة المحتلين . وظلت الثقافات الوطنية في الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط باقية . وورثت المسيحية الرومانية المسيحية اليونانية ونشرتها في شمال أوروبا مع اللغة اللاتينية بعد أن تحولت روما من عاصمة للإمبراطورية الرومانية إلى عاصمة الإمبراطورية المسيحية بعد تحول قسطنطين في القرن الرابع الميلادي .

ولما انتشر الإسلام على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وأسس حضارة جديدة ورثت الحضارة اليونانية الرومانية والحضارة اليهودية المسيحية ، ودخلت المستعمرات الرومانية في آسيا وأفريقيا في الإسلام ، وساهمت في تكوين حضارته بدأ عدااء الغرب في العصر الوسيط للعالم الإسلامي بالحملات الصليبية المتتالية التي لم تحقق أهدافها النهائية ، بل حدثت للصليبيين . أجداد الغربيين المحدثين ، صدمة حضارية عن مدى تقدم المسلمين ثقافة وعلمًا وفنا وصناعة وعمرانا وحربا . وكانت أحد مصادر النهضة الأوروبية الحديثة . إذ بدأت الترجمات من العربية إلى اللاتينية مباشرة أو عبر العبرية في طليطلة وفي صقلية وفي بادو ثم عبر القسطنطينية فيما بعد .

وبعد سقوط غرناطة بعامين ، وبفضل الخرائط الجغرافية التي تركها العرب في الأندلس تم الالتفاف حول العالم من الغرب بعد أن فشل الدخول إليه من الشرق واحتلال القلب في فلسطين ، والحق بالهند من الغرب فتم اكتشاف القارة الأمريكية . وبدأ النزوح إلى الأراضي الجديدة غربا وشمالا وجنوبا . وتم القضاء على السكان الأصليين ، عرقا وثقافة . ومن تبقى منها يوضع في محميات فولكلورية لسينما هوليوود وللسياحة الأجنبية كالمحميات الطبيعية .

ولبناء «العالم الجديد» تم التوجه نحو أفريقيا بالالتفاف نحو البحار جنوبا وصولا إلى الهند شرقا عن طريق «رأس الرجاء الصالح» للأوروبي الأبيض وبداية الاستعمار

للأفريقي الأسود. وحدث أكبر نزح للسكان من أفريقيا إلى أمريكا خطفا وعبودية وأسرا لتشييد الطرق، وزراعة الأرض، وتعمير القارة، من ساحل أفريقيا الغربي إلى ساحل القارة الجنوبي. بل قامت حرب أهلية بين الشمال والجنوب، بعد الاستقلال حول تحرير الزوج. وما زال الاضطهاد قائما حتى بعد إعلان «وثيقة الحقوق»، والتعليم المختلط، والتوظيف المشترك. وبالرغم من تاريخ أفريقيا العريق، مملكة مالي، ومملكة غانا إلا أن ثقافتها قد تم اقتضابها في الرقص والتماثيل وطول الإيقاع. ودخلت ثقافة الرجل الأبيض فيها لتحل محل ثقافتها التقليدية عبر التبشير والاستعمار والتغريب حتى حركات التحرر الحديثة والعودة إلى «الزنجية» واستعادة تاريخ الصراع بين روما وقرطاجنة.

وما تم غربا من انتشار الغرب الحديث عبر القارتين في نصف الكرة الغربي وما تم جنوبا من التفاف الرجل الأبيض نحو القارة السمراء تم أيضا شرقا بالالتفاف نحو آسيا عبر الهند وجزر الهند الشرقية حتى أواسط آسيا والصين. وتم القضاء على إمبراطورية المغول في الهند والاستيلاء على أندونيسيا والملايو والفلبين والهند الصينية وهونج كونج. شاركت في ذلك معظم القوى الغربية فرنسا وإنجلترا وهولندا والبرتغال وأسبانيا من الجنوب، وإمارة موسكو من الشمال لوضع العالم الإسلامي في آسيا بين المطرقة والسندان كما وضعت أفريقيا من قبل باستعمار فرنسا وإيطاليا لها من الشمال وإنجلترا لها من الجنوب وشرق رؤوس طريق يربط بينهما «من الرأس إلى القاهرة»^(٣). وقضي على ممالك بخارى وسمرقند وطشقند ودهلي وكابل ولاهور. وبدأت عملية إحلال الثقافة الغربية ليبرالية أولا وماركسية ثانيا محل الثقافات التقليدية الإسلامية والبوذية والهندوكية والكونفوشوسية.

ولما كانت استراليا ونيوزيلاندا امتدادا لآسيا من الجنوب الشرقي فقد تم احتلال إنجلترا لهما والقضاء على السكان الأصليين، وتحويلها من قارة صفراء إلى قارة بيضاء. وتم تشريح آخر التسمانيين وتحويله إلى متحف التاريخ الطبيعي. وما زالت الأزمة حاليا في استراليا وهويتها، أوربية أم آسيوية؟

وكان من آثار هذا النموذج الغربي الحديث «صراع الحضارات» محاولة القضاء على الثقافات الوطنية، واللغات المحلية باسم التثاقف أو الماشاقفة ACCULTURATION . وتعني في الظاهر التحديث والتمدن والتفاعل الثقافي، والحوار المتبادل والأخذ والعطاء . وفي الحقيقة تعني التغريب، وانتشار ثقافة المركز على ثقافة الأطراف ابتداء من اللغة حتى انقسمت أفريقيا وآسيا إلى انجلوفونية وفرنكفونية . ولم يستطع الأفارقة الحديث بين أنفسهم إلا عبر لغات الرجل الأبيض أو الاتصال جغرافيا بين مناطقهم إلا عبر عواصم «المتروبول» . وباسم أسطورة «الثقافة العالمية» يتم الترويج للحضارة الغربية وكأنها آخر ما وصلت إليه البشرية من تقدم، وإن قيمها هي قيم لكل البشر بما في ذلك الفردية والشك والنسبية واللا أدرية، وأن مراحل تاريخها هي مراحل تاريخ كل الشعوب، القديم والوسيط والحديث، وأن لغاتها هي اللغات الدولية . كل ذلك في الحقيقة تعبير عن لحظة واحدة في التاريخ هو الغرب الحديث وكأن تاريخ البشرية الذي يمتد عشرات الألوف من السنين ما هو إلا مقدمة لتاريخ الغرب الحديث . بعدها يتوقف التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . التقدم التكنولوجي هو مقياس تقسيم الشعوب إلى متقدمة ومتخلفة أو نامية وفي طريق النمو . ونموذج الانقطاع بين القديم والجديد، بين التراث والحداثة هو نموذج كل الحضارات . فقد تقدم الغرب بهذا النموذج وأثبت نجاحه . مع أن اليابان والصين وكوريا وكثيرا من البلاد الآيوية قد تقدمت بنموذج مخالف، نموذج التجاور، تجاور القديم والجديد، القديم للحياة الخاصة، والجديد للحياة العامة في حالة من التجانس والوثام دون خلط بينهما أو تدخل أحدهما في الآخر تماما مثل وظيفة المرأة ووظيفة الرجل . وتبنى الحضارة العربية الإسلامية نموذجا ثالثا، نموذج التواصل، الجديد من القديم استمرارا له وتجديدا فيه . المسيحية من اليهودية، والإسلام من المسيحية . لذلك كان «الاجتهاد» مصدرا من مصادر التشريع، وظهور مجدد في كل عصر طبقا لحديث المجددين الشهير .

وقد أدى هذا النموذج الغربي لصراع الحضارات في العصور الحديثة إلى خلق عقدة عظيمة لدى الغرب، فهو حضارة العقل والعلم والحرية والعدالة والتقدم والعمران. التاريخ تاريخه، والعلم علمه، والقيم قيمه، والثورة ثورته، والحاضر حاضره، والمستقبل مستقبله. واللغات لغته، والثقافة ثقافته. وخلق عقدة نقص لدى الشعوب غير الأوروبية أنها ناقلة ومقلدة وتابعة ومتعلمة وهامش على المركز وفي محيطه. الغرب يبدع وهي تستهلك. الغرب يفكر وهي تنقل.

وكلما زاد النقل من حضارة المركز الى حضارات المحيط زاد التغريب. وكلما زاد التغريب يبدأ رد الفعل في الظهور، الدفاع عن الهوية ضد التغريب، والتمسك بثقافة الأنا ضد ثقافة الآخر. وتنشأ الحركات الأصولية ضد تيارات الحداثة. وربما يشق الصف الوطني بين جناحين متقاتلين وقوتين اجتماعيتين، العلمانية والسلفية، أنصار الجديد وأنصار القديم، الصفوة والجماهير، النخبة والشعب. وقد يصل الفصام إلى خصام واقتتال بين الأخوة الأعداء كما هو حادث في الجزائر.

ويبدأ تشويه ثقافات الأطراف في الاستشراق وعلوم الأنثروبولوجيا الغربية المعاصرة. فبعد أن أصبح الغرب ذاتا عارفة ووعيا خالصا حول غيره إلى موضوع للمعرفة، فنشأ الاستشراق. الغرب ملاحظ (بكسر الحاء) والشرق ملاحظ (بفتح الحاء). فنشأت علوم الصينيات والهنديات والإيرانيات والإسلاميات والمصريات تعبر عن رؤية الذات أكثر مما تكشف الموضوع^(٤). وبدأت نظريات التشيؤ للآخر التي تكشف عن العنصرية مثل «العقلية البدائية» (لوفي بريل)، «الفكر البري» (كلود ليفي شتراوس)، «العقلية السامية» (رينان).

وقد تبدو بعض المظاهر «الإيجابية» لصراع الحضارات في الظاهر ولكنها في الحقيقة كانت لخدمة الغرب في المركز أكثر منها لصالح شعوب الأطراف. فإذا كانت فرنسا قد نشرت اللغة والثقافة الفرنسية فقد كان ذلك على حساب اللغة والثقافة العربية

الإسلامية، ونزعا لشعب الجزائر من جذوره التي هي مصدر حركات التحرر مثل «جمعية العلماء». ويقدر ما تم تعميم اللغة الفرنسية والتعليم الفرنسي بقدر ما تم تدمير مدارس اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم. وكان من الطبيعي بعد الاستقلال أن تنشأ حركة إعادة تعريب الجزائر بل وحركة أصولية شعبية كرد فعل على فرنكفونية النخبة. وما تم في الجزائر تم أيضا في عديد من الدول الأفريقية الفرنكفونية أو الأنجلوفونية حتى قضى الأمل على تطوير اللغات الأفريقية الوطنية بما في ذلك «السواحيلي» كي تصبح لغة أفريقية وطنية يتم التخاطب بها بين شعوب أفريقيا التي ما زالت لغويا وثقافيا مرتبطة بالغرب حتى بعد الاستقلال. وبقت اللغات المحلية للأسواق وللغفون الشعبية أو مكتوبة بالحروف اللاتينية. وإذا كانت الهند قد توحدت لغويا بفضل الإنجليزية فان ذلك منع من تطوير اللغة الهندية قد تصبح لغة قومية لأكثر من مائة لغة وطائفة.

وقد يقال إن من مآثر «صراع الحضارات» تحديث المجتمعات وبناء الدول، وشق الطرق، وبناء المدن الحديثة، وتأسيس العمران، وإقامة الجامعات، وإدخال شعوب الأطراف عصر الحداثة وتأهيلها إلى وسائل العلم والتكنولوجيا وإلى أساليب الحكم التي تقوم على الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان والمرأة والطفل والشيخ والشباب والحقيقة أن هذه الإيجابيات كلها إنما كانت بالقصد الأول لصالح دول المركز. فالاتصالات لخدمته، والتصنيع للغرب من المواد الأولية والأسواق والعمالة الرخيصة، والتعليم لتكوين أطر مهنية وفنية لجهاز الدولة الذي تحكم دول المركز من خلاله، وحقوق الإنسان الفردي تعمية وغطاء لانتهاك حقوق الشعوب.

ثالثا: «حوار الثقافات»، النموذج العربي الإسلامي القديم:

في مقابل نموذج «صراع الحضارات» الذي تبناه الغرب هناك نموذج «حوار الثقافات» الذي تبناه الشرق القديم حتى ظهور الحضارة العربية الإسلامية. وهو نموذج يقوم على الأخذ والعطاء على مستوى الندية بين الطرفين.

بدأ في الصين القديمة عندما انفتحت على البوذية الوافدة من الهند جنبا إلى جنب مع الكونفوشيوسية والطاوية . وبدأت في اليابان القديمة عندما انفتحت أيضا على البوذية جنبا إلى جنب مع الشنتوية ثم مع المسيحية والإسلام فيما بعد . وتتجاوز الديانات الأربع في الأسرة الواحدة للصلاة في نفس الحجرة . وانفتحت فارس القديمة على ديانات الشرق ، المانوية والمزدكية والزرادشنية أولا وعلى ديانات الوحي ثانيا ، اليهودية والمسيحية والإسلام .

كما ظهر هذا النموذج في حضارات ما بين النهرين وكنعان ومصر القديمة مع حضارات اليونان والرومان غربا ، والهند وفارس شرقا ، والنبط جنوبا . وحدث تداخل حضاري بين مصر والشام ، بين العبرانيين والكنعانيين ، بين مصر والعبرانيين ، وبين اليونان وبابل ، فارس وبابل .

وقد تأكد هذا النموذج وبلغ الذروة في الحضارة العربية الإسلامية . فقد نزل الوحي بلسان عربي مبين . مؤكدا البلاغة العربية ومتجاوزا الشعر العربي وأساليب بيانه ، معطيا إعجازا أدبيا بطريقة العرب . ولم يقض الوحي على الثقافات الموجودة في شبه الجزيرة العربية ، اليهودية والنصرانية والحنيفية والثنية بل حاورها ووصف تطورها التاريخي ومذاهبها وانحرف بعضها عن الأصول الأولى . أكد بعض القيم العربية القديمة مثل نجدة الغريب ، والشجاعة ، والكرم ، والشهامة ، والصدق في القول ، والاحساس بالطبيعة . وفي نفس الوقت غير قيما أخرى وعادات جاهلية مثل وأد البنات ، وعلاقة الرجل بالمرأة ، والتمايز بين العبيد والأشراف .

ولما بدأ عصر الفتوحات ، وانتشر الإسلام كدين لدى الشعوب المفتوحة حدث أكبر حوار حضاري بين الحضارة الإسلامية الناشئة والحضارات القديمة ، يونانية ورومانية غربا ، وفارسية وهندية شرقا . وقام النصارى العرب في الشام في الرها ونصيبين ، وفي بغداد في «ديوان الحكمة» الذي أسسه الأمون بأكبر حركة ترجمة عرفها التاريخ القديم .

فقد كان المترجمون عرباً لغة، ونصارى ديناً، ومسلمين ثقافة. كان ولاؤهم للثقافة العربية، فنقلوا التراث اليوناني في العلم والحكمة إلى اللغة العربية مباشرة أو عبر السريانية، لغة الأديرة.

ولا توجد ثقافة غالبية عظمت ثقافات الشعوب المقلوبة قدر الثقافة العربية الإسلامية. فأرسطو هو المعلم الأول، والفارابي المعلم الثاني، وأفلاطون صاحب الأيد والنور، وسقراط أحكم البشر، وأفلوطين الشيخ اليوناني، وجالينوس أفضل المتقدمين والمتأخرين، وابقراط فاضل الأطباء، وهرمس الحكيم، وابن الهيثم بطليموس الثاني.

بل إن ترجمة كتب اليونان تمت بناء على حلم المأمون، فقد ظهر أرسطو له في المنام يسأله عن الحسن والقبح، وبأن اتفاق العقل والشرع، منطق اليونان وأساليب القرآن. فاستيقظ المأمون، وأسس ديوان الحكمة برئاسة حنين بن اسحق وبدأ بترجمة كتب أرسطو.

ولقد بلغ من إعجاب الحضارة العربية الإسلامية به أن وضعت أحاديث على لسان الرسول تعظيماً له مثل «والله لو كان أرسطو حياً لكان أخلص أتباعي» أو قول أرسطو «لو كنت حياً أيام الرسول لكنت أحد أتباعه» مما يرمز إلى الاتفاق التام بين الفلسفة والدين، بين الحكمة والشرعية. وهو ما يتفق عليه الفلاسفة جميعاً الكندي، والفارابي وإخوان الصفا وابن سينا وابن رشد. وترمز قصة «حي بن يقطان لهذا الاتفاق». وقد جعل إخوان الصفا حكمة اليونان شرط صحة تفسير الإسلام.

وبدأ الشرح والتلخيص ثم التأليف في موضوعات اليونان حتى حدث التراكم الفلسفي الضروري. فبدأ الإبداع الفلسفي الخالص. نشأت الثقافة العربية الإسلامية إذن بفضل ترجمة الثقافة اليونانية أولاً واللاتينية ثانياً. ولم يجد الحكماء أي غضاضة في استعارة الألفاظ اليونانية للتعبير بها عن المعاني الإسلامية الموروثة كنوع من «حوار

الحضارات» بين اللفظ والمعنى، فالله هو المحرك الأول، والعلة الأولى، وواجب الوجود بلغة أرسطو، وهو مثال المثل، والخير الأقصى بلغة سقراط وأفلاطون، وهو الواحد بلغة أفلوطين وفيثاغورس. وفي نفس الوقت ترجم لفظ «آلهة» في النصوص اليونانية «ملائكة» حرصاً على التوحيد. وعربت كثير من الألفاظ اليونانية وأصبحت عربية مثل جغرافيا، هيولي، اسطقس، موسيقى، فلسفة. كما دخلت ألفاظ عربية في عصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية مثل جبر، كلام، شريعة، صوفي.

وتم إكمال الفلسفة اليونانية وأحكامها والجمع بين آرائها. فإذا نقصت أرسطو إلهيات بالإضافة إلى المنطق والطبيعات نسبت إليه أجزاء من تاسوعات أفلوطين حتى يصبح الفيلسوف الكامل. وإذا اختلف أفلاطون وأرسطو عند الشراح جمع الفارابي بينهما في «الجمع بين رأيي الحكيمين» ثم أوضح كليهما في رؤية إسلامية يونانية جامعة في «تحصيل السعادة» و«فلسفة أرسطو طالس» و«فلسفة أفلاطون».

كانت الفائدة إذن متبادلة بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة اليونانية، حوار على مستوى الندية نحو غاية واحدة وهي الحقيقة التي يمكن الوصول إليها بالعقل والوحي. كانت علوم الوسائل وعلوم العرب علوم الغايات. والوسائل متاحة للجميع أي أدوات البحث والتطوير، والغايات كمال النفس واكتشاف الحقيقة.

وفي نهاية العصر الذهبي للحضارة الإسلامية في القرن السابع الهجري الذي يقابل القرن الثالث عشر الميلادي بدأت الترجمة من العربية إلى اللاتينية مباشرة أو عبر العبرية في طليطلة وفي بادو وبالرمو وفي القسطنطينية فيما بعد للفلسفة والعلم العربي. بل كانت اللغة العربية هي لغة البلاط عند فردريك الثاني والذي كتب له ابن سبعين «المسائل الصقلية» رداً على أسئلته الفلسفية حول خلق العالم وخلود النفس التي لم يستطع أحد من الفلاسفة الغربيين الرد عليها^(٥).

وكان من آثار ترجمة الفلسفة أن ظهر نموذج فكري جديد في أواخر العصر الوسيط وفي أوائل عصر النهضة يوحد بين الفلسفة والدين كما هو الحال في علم الكلام الاعتزالي والفلسفة الإسلامية عند الكندي والفارابي وابن سينا وابن طفيل وابن باجة وابن رشد. ونشأ تيار عقلاني جديد مشابه يرفض الحلول والاتحاد والتجسيم والتشبيه في العقائد ويقول بالتنزيه، ويرفض الجبرية والقدرية بل والتوماوية وهي نوع من الأشعرية اللاتينية دفاعاً عن حرية الإرادة الإنسانية وخلق الأفعال، وإقامة العقائد المسيحية على أصلي التوحيد والعدل. ونشأ صراع بين الجدليين، أتباع المسلمين، واللاهوتيين في القرن الحادي عشر لصالح الجدليين. وظهر أويلار في القرن الثاني عشر ليؤسس النقل على العقل، ويبين تناقض النقل في أقوال الكنيسة في كتابه «نعم ولا»، ويوحد بين الفلسفة والدين في أول حوار بين الأديان في كتابه «حوار بين يهودي ومسيحي وفيلسوف»، والفيلسوف هو المسلم.

وكان من آثار ترجمة العلم العربي أن نشأت العلوم الغربية الحديثة الرياضية، الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، والطبيعية والفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة والنبات والحيوان والمعادن. فترجم «الجبر والمقابلة» للخوارزمي و«المناظر» للحسن ابن الهيثم. وترجمت رسائل ابن حبان في الكيمياء. وظل الطب الإسلامي يدرس في الغرب. حتى القرن السابع عشر بعد ترجمة «الحاوي»، للرازي، و«القانون» لابن سينا، و«الكليات» لابن رشد. أعطت الحضارة الإسلامية أساساً جديداً للعلوم الطبيعية وهو اتفاق نظام العقل ونظام الطبيعة. فاتحدت الأنساق الثلاثة، العقل والوحي والطبيعة. وكان هذا النسق الجديد هو العامل الرئيس وراء النهضة الأوروبية الحديثة بعد تحرير العقل من كل مظاهر الخرافة.

بل إن الإصلاح الديني في الغرب عند مارتن لوتر في القرن الخامس عشر إنما تم بناء على نموذج الحضارة العربية الإسلامية. الكتاب وحده مصدر العقيدة والشريعة وليس

أقوال آباء الكنيسة، وأن لكل مجتهد الحق في التفسير وليس الكنيسة وحدها، وأنه لا واسطة بين العبد والرب. وكلها مبادئ من الحضارة الإسلامية. وقد رغب لوثر في تعلم العربية لمعرفة التراث الإسلامي من أصوله الأولى. وظل هذا النموذج هو أيضا نموذج الإصلاح اليهودي عند اسبينوزا، رفض تسلط الأحبار والدولة الشوقراطية التي يحكم فيها الملوك باسم الله، وأثبت تحريف التوراة، ورفض عقيدة شعب الله المختار والميثاق الأبدي الذي عقده «يهوه» مع بني إسرائيل يعدهم بالأرض والنصر والمعبد دون أن يقابل ذلك عمل صالح أو تقوى وإيمان.

وفي فجر النهضة العربية بدأ الاتصال بالغرب الحديث في عصر ترجمة جديد بفضل رواد النهضة في الشام ومصر سواء العلمية مثل شبلي شميل وفرح أنطون ويعقوب صروف وسلامة موسى وزكي نجيب محمود أو الليبرالية مثل الطهطاوي وأحمد لطفي السيد وطه حسين والعقاد، أو الإصلاحية مثل الأفغاني ومحمد عبده وقاسم أمين ينقلون الثقافة الغربية ويترجمون أمهاتها. وتأسست مدرسة الألسن شبيهة بديوان الحكمة، أيام المأمون. وذاعت مفاهيم التنوير، العقل والحرية والإنسان والطبيعة والعلم والتقدم والعمران. ما أخذه الغرب منا في نهاية نهضته وبداية نهضتنا. وما زال الحوار قائما، بالرغم من انبهار البعض بالغرب وتبني العلمانية مما سبب رد فعل فريق آخر رافضا للغرب ومتبنيا السلفية. وانقطع الحوار بين الفريقين، ووصل إلى حد الخصام والاقتتال كما هو الحال في الجزائر.

وذاعت ألفاظ الحرية والديموقراطية والدستور والشعب والبرلمان والدولة والكفاح والنضال والصراع والقومية والاشتراكية والليبرالية حتى أصبحت من مكتسبات الثقافة العربية المعاصرة. وتم تعريب عديد من الألفاظ مثل الأيديولوجيا والتكنولوجيا والبرجماتية. عندما يكون حوار الحضارات بين طرفين غير متكافئين، يعطي الطرف لفته للطرف الآخر. وهذا ما تم في فجر النهضة العربية منذ القرن الماضي كما تم من قبل في

أوائل النهضة الأوروبية وأيضا في عصر الترجمة الأول في القرن الثاني الهجري . وقد تم ذلك أيضا في أوائل عصر النهضة الأوروبية بدخول المصطلحات العربية اللغات الأوروبية القديمة والحديثة . فحوار الحضارات مشروط بصراع القوى بينها ثقافيا وليس عسكريا . ففي حركة الترجمة الأولى كان العرب فاتحين عسكريا ومتلقين ثقافيا . وفي عصر الترجمة الثاني كانت مصر فاتحة عسكريا ومتلقية ثقافيا . وإبان عصر النهضة الأوروبي كان العرب منتصرين عسكريا في نهاية الحروب الصليبية وكان الغرب في نكوص ، وكانت الثقافة تنتقل من الطرف الأقوى إلى الطرف الضعيف .

رابعا: حوار نظري أم حوار عملي؟

ان حوار الثقافات كبديل عن «صراع الحضارات» ليس فقط حوارا نظريا حول القيم والمبادئ والعلوم والفنون . بل هو حوار يتضمن هذا المستوى النظري كنوع من التقارب بين طرفي الحوار ، واكتشاف العناصر الإنسانية المشتركة بينهما عبر تاريخ طويل من التفاعل المشترك على ضفتي البحر المتوسط ، مرة من الشمال إلى الجنوب في عصر الإمبراطورية الرومانية ، ومرة من الجنوب إلى الشمال في عصر الفتوحات الإسلامية ، ومرة من الشمال إلى الجنوب أثناء الاستعمار الأوروبي الجديد ، ومرة من الجنوب إلى الشمال أثناء حركات التحرر الوطني .

ربما يعني حوار الحضارات الآن ، لا غالب ولا مغلوب . فقد جربت شعوب البحر الأبيض المتوسط هذا النموذج عبر التاريخ . إذا قوى الشمال فاض على الجنوب ، وإذا قوى الجنوب فاض على الشمال .

وما يحدث من صراع بين الشمال والجنوب يحدث أيضا بين الشرق والغرب . إذا قوى الشرق العربي الإسلامي امتد نحو الغرب الأوروبي حتى الأندلس من أجل تحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة عربية وعودة الفاتحين من دمشق إليها من جديد عبر

شمال المتوسط ، أوروبا ، بعد أن أتوا إلى الأندلس ، عبر جنوبه ، شمال أفريقيا . وإذا قوى الغرب امتد إلى الشرق كما حدث أيام الحملات الصليبية من الغرب إلى الشرق والاستيلاء على الأراضي المقدسة . وبعد رد العدوان الصليبي وامتداد الدولة العثمانية من الشرق إلى الغرب حتى قلب أوروبا عاد الاستعمار الغربي الحديث من الغرب الأوروبي الصهيوني إلى الشرق من جديد للقضاء على دولة الخلافة واحتلال أراضيها . وبعد حركات التحرر تم تحرير الشرق من جديد في جنوب المتوسط وشرقه ورد الغرب إلى حدوده الطبيعية شمال البحر وغربه وربما عبر الأطلنطي ، امتداد الغرب القديم إلى العالم الجديد .

تم « صراع الحضارات » حول البحر الأبيض المتوسط ، قلب العالم القديم ، بين شماله وجنوبه ، وشرقه وغربه مرتين . وكل طرف غالب مغلوب مرتين . مما يجعل عقدة التاريخ قابلة للحل عبر الزمن ، طالما تم التخفف من ثقل الماضي والعمل المشترك من أجل تحديات الحاضر نحو مستقبل تتساوى فيه الأطراف ومع نموذج جديد بديل ، من « صراع الحضارات » إلى « حوار الثقافات » ، وهذا هو معنى الحوار بين الشمال والجنوب ، الحوار العربي الأوروبي ، والحوار بين الشرق والغرب الحوار العربي الأمريكي ، فالغرب يمتد عبر الأطلنطي ، والحوار العربي الآسيوي .

لم ينجح حتى الآن الحوار العربي الأوروبي لأن أوروبا ما زالت تنظر إلى العرب كمجال حيوي لها ، أسواقا وطاقة وعمالة ومناطق نفوذ تكرر الصورة الغرب الاستعماري القديم . والعرب ينظرون إلى أوروبا باعتبارها المتحكمة في أقدار البشر ، اقتصادا وسياسة وثقافة . تريد أوروبا الاقتصاد قبل السياسة . ويريد العرب السياسة قبل الاقتصاد ، تفهم قضايا العرب في رفع الحصار عن ليبيا والعراق واسترداد حقوق شعب فلسطين . وتقدم إيران وهي ظهير الوطن العربي ، والثورة الإيرانية رصيد الثورة العربية الحوار الثقافي . للعرب رصيد تاريخي طويل في الثقافة قبل ثقافة الغرب في العصور الحديثة .

والتفاهم الثقافي سابق على التبادل الاقتصادي والتعاون السياسي . وكما ساعد الشرق الجنوب إبان حركات التحرر يستطيع الغرب أن يساعد الجنوب لبناء الدول الحديثة والتنمية خاصة وأن الجنوب يعاني من مشاكل التصحر والفقر والتخلف ومعظمها من آثار الاستعمار الأوروبي .

وما زال الحوار العربي الأمريكي متعثرا نظرا لحصار ليبيا والعراق والتأييد شبه المطلق لإسرائيل ، والعمل على تفتيت الوطن العربي وشرذمته وتفتيته حتى تبقى العولمة نظام العالم الجديد في عالم ذي قطب واحد . ويبقى للعرب صراعاتهم بين العرب والبربر والأكراد والمسلمين والشيعة والأقباط ، نزاعات عرقية و طائفية ومذهبية في مصر والسودان والعراق ولبنان والخليج والمغرب العربي كله والسودان . ان وطنا عربيا موحدا في مقابل أوروبا موحدة على شاطئ المتوسط لقادر على أن يحيل قلب العالم القديم إلى قلب العالم الجديد . فالشمال والجنوب على شاطئ المتوسط متكاملان تاريخيا وجغرافيا وثقافيا . وكلاهما مفتوحان على آسيا من الشرق وعلى عبر الأطلنطي من الغرب . فهما مركز الثقل في العالم .

والحوار العربي الآسيوي هو استئناف لتضامن شعوب أفريقيا وآسيا وباندونج وقلب العالم لثالث مع أمريكا اللاتينية . والشرق امتداد طبيعي للوطن العربي . ليس بين الاثنين إرث استعماري كما هو الحال مع الغرب . ساهما في حركة التحرر العربي ، وكونا كتلة عدم الانحياز . وكان الإسلام أول ما انتشر انتشر شرقا نظرا للامتداد الجغرافي للوطن العربي في آسيا . بل إن ما يزيد على ثلاثة أرباع المسلمين في آسيا . وأكبر دولة إسلامية في آسيا . وأصبحت النهضة الآسيوية اليوم مظهر إعجاب ومنافسة من النهضة الغربية التقليدية بالأمس . وأصبحت النور الآسيوية بالرغم من الأزمة الأخيرة نموذجا يحتذى به في التنمية في وسط عالم متبادل المصالح مع المحافظة على الاستقلال الوطني .

ويتحدث الغربيون أنفسهم عن «أفول الغرب» و«ريح الشرق». إذ يبدو أن العصور الحديثة الغربية قد أوشكت على النهاية بعد أن بدأت منذ الإصلاح الديني في القرن الخامس عشر، والنهضة في السادس عشر، والعقلانية في السابع عشر، والتنوير في الثامن عشر، والثورة الصناعية الأولى في التاسع عشر، والثورة الصناعية الثانية في القرن العشرين مع حربين عالميتين طاحنتين أدت إلى الإحساس ببداية النهاية. وتحدث الفلاسفة عن «قلب القيم» (شيلر)، و«إفلاس الفلسفة» و«أزمة العلوم الأوروبية» (هوسرل)، و«الآلة التي تصنع آلهة» (برجسون). وإذا كان نيتشه قد أعلن في نهاية القرن الماضي «موت الإله» و«حياة الإنسان فان كارل بارت قد أعلن في نهاية هذا القرن موت الإنسان. فسادت العدمية والشك والنسبية واللاإرادية. وظهرت في فلسفات ما بعد الحداثة والتفكيكية التي تنكر النظام والعقل والقانون والنسق في العقل والطبيعة والفن والمجتمع. البداية في «مقال في المنهج» عند ديكارت، والنهاية في «ضد المنهج» لفايبر أبند. البداية في «العقل النظري» عند كانط والنهاية في «وداعا للعقل» لفايبر أبند، البداية في «البناء العظيم» لبيكون، والنهاية في «التفكيكية» لدريدا أو «الكتابة في درجة الصفر» لبارت.

ليس صعباً أن يكون لحضارات الشمال والجنوب والغرب والشرق برنامج مشترك. فالاهتمامات واحدة ولكن على درجات متفاوتة ونظام للأولويات متفاوت. فإذا اهتم الشمال بتلوث البيئة وبعيوب مجتمعات الوفرة، وبالمخدرات والشذوذ الجنسي والجريمة المنظمة وغياب المثل والعنصرية ومظاهر الرأسمالية فإن الجنوب يهتم أيضاً بالفقر والبطالة والتخلف والتعليم والإسكان والنظافة وكل مظاهر الحاجات الأساسية التي استطاع الغرب توفيرها. وإذا كان البشر يعيشون في عالم واحد، وكان العالم قرية واحدة فإنه يمكن صياغة مبادئ كوكبية واحدة. فالعدالة الاجتماعية لا تتحقق فقط في المجتمعات والدول بل أيضاً على مستوى العالم بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب. فما يستهلكه الشمالي قدر ما يستهلكه الجنوبي عشرات المرات. وأقلية في

الشمال لا تتجاوز ٥٪ من مجموع سكان الأرض يملكون ويتحكمون في ٩٥٪ من سكان العالم. ذلك سوء توزيع للثروات. فالعولمة ليست فقط اقتصاديات السوق وتصدير السلع بل أيضا توفير الخدمات على قدر متساو على شعوب العالم. وأن ما ينفق في صناعات السلاح في الدول الرأسمالية ليكفي في إشباع الحاجات الأساسية للشعوب التي ما زالت تحت خط الفقر.

إن التحول من «صراع الحضارات» القديم إلى «حوار الثقافات» الجديد ليس فقط على مستوى النظر، العلوم والفنون والآداب، ولكن أيضا على مستوى العمل في صياغة برامج عمل مشتركة تسترد فيها الإنسانية وحدتها، وتكامل إمكانياتها، بحيث تتساوى كل أطراف الحوار وتنتج نحو هدف مشترك يحقق مصالح الجميع بداية بالمنظمات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة ونهاية بشعوب العالم، أطفال ونساء وشيوخ، المهمشين في الأرض، ولو على مستوى الصراع والأثنين.

الهوامش

- (١) مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الندوة العالمية «الإسلام وحوار الحضارات»، محرم ١٤٢٣هـ الموافق مارس ٢٠٠٢م.
- (٢) انظر كتابنا: مقدمة في علم الاستقراب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١م، ص ١٠٧-١٥٠.
- (٣) FROM CAP TO CAIRO.
- (٤) SINOLOGY, INDIALOGY, IRANOLOGY, ISLAMOLGY, EGYPTOLOGY.
- (٥) انظر دراستنا: روح الأندلس ونهضة الغرب الحديث، قراءة في المسائل الصقلية لابن سبعين، هموم الفكر والوطن - التراث والعصر والحداثة، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٤٥-١٤٦.

الحضارة المعاصرة ومعركة البدائل

د . فهمي راجح جدعان(*)

المستخلص

أكدت الدراسة على أن الفوضى المتعاظمة وتشتت المسارات واضطراب الموازين وغموض حس الاتجاه تبدو (الحضارة المعاصرة) لكل وعي اليوم أكثر الوقائع الإنسانية والمادية صلابه وتشخصاً وانتشاراً وتأثيراً مشيراً إلى أنها لم تجبُ عدداً من الحضارات الكبرى التي ما تزال حية فاعلة، وإن فقدت في أزمنة الحداثة قدراً عظيماً من قوتها وحيويتها ونفاذها في الفضاءات الكونية التي تتجاوز حدودها.

واستعرضت الدراسة جوانب الحضارة الغربية مقارنة بالحضارات الشرقية، ومن بينها الإسلامية والبوذية والكنفوشيوسية، مؤكدة على أن الذي يتبقى من جملة التقابل بين الحضارة الغربية المعاصرة وبين الحضارات الأخرى، هو أن المعطى الإسلامي، هو وحده الذي يشخص في الفضاء الكوني كمعطى يزعم أنه يمثل بديلاً للحضارة المعاصرة وقوة تصارع هذه الحضارة، وتتصدى لها فيما أسماه صموئيل هنتينجتون (صدام الحضارات) وفي ما عززت التوجه إليه ليكون أول معارك القرن الحادي والعشرين، أحداث الحادي عشر من سبتمبر الماضي وهي الأحداث الرهيبة المدمرة التي لحقت

(*) نائب رئيس جامعة البترا الأردنية، رئيس تحرير مجلة (دراسات) التي تصدرها عمادة البحث العلمي بالجامعة الأردنية، ورئيس تحرير مجلة (البصائر) التي تصدرها عمادة البحث العلمي بجامعة البنات الأردنية/ البترا، عضو مجلس إدارة معهد العالم العربي بباريس، وعضو لجنة البحث العلمي بالجامعة الأردنية، وعضو اللجنة العليا لاعتماد الجامعات الأهلية.

برجى مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاجون في واشنطن بالولايات المتحدة وكانت مبدأ لإعلان الحرب على الإرهاب!

وعن ملامح الرؤية الحضارية الإسلامية التي يتجه فريق من المسلمين النشيطين المعاصرين إلى اعتبارها بديلاً حتمياً للحضارة المعاصرة، دعت الدراسة أن نميز اليوم بدون أي لبس بين رؤيتين شاخصتين للرسالة الإسلامية والدور الحضاري الإسلامي: الرؤية الأصلية والرؤية الأصولية، باعتبار أن هذا التميز قد فرض علينا من وجهه ومفروض علينا من وجه آخر...، مشيرة إلى أن الرؤية الأصلية قد خضعت لتعديل جوهري في عصرنا الحديث ووفقاً لهذا التبدل الجوهرى باتت الرؤية الأصلية مشتقة متشددة متصلة، يعلم الجميع أن الاسم الذي أطلق عليها هو الأصولية الإسلامية وأحياناً الإسلام السياسي، وأسقط عليها (فهى جدعان) اسم (الإسلام الآخر)! كما دعا البحث إلى ضرورة الحرص على القضايا الجوهرية الآتية:

- * دراسة الأسباب والدواعي الحقيقية التي تبعث على تنامي الشعور المضاد للغرب والحضارة الغربية في المناطق العربية والإسلامية.
- * أهمية التمييز القاطع بين الإسلام الحضاري وبين الحركات الإسلامية المتشددة، والتنبك عن الاعتقاد بأن الإسلام نفسه المحرض الأيديولوجي لهذه الحركات.
- * بذل الجهود الفعالة من أجل تدخل حقيقي لحل المشكلات الكبرى المعقدة المزمنة التي تشكو منها المناطق التي يتولد فيها العنف ويتنامى، وفي مقدمتها الصراع العربي الإسرائيلي والمسألة الفلسطينية.
- * كشف اللقاءات الإسلامية المسيحية لدراسة المسائل التي تهم الطرفين من أجل تشكيل مفاهيم مشتركة حولها وتحرير النفوس والعقول من وطأة الصراع الإسلامي المسيحي التاريخي.
- * كبح النزعات الحضارية الشوفينية التي تبشر بهزيمة الحضارات والثقافات المبانية للحضارة الغربية والإقرار بالقيمة الذاتية لهذه الحضارات وفق مبدأ النسبية الحضارية والثقافية واعتبار هذه الحضارات والثقافات مكملات للحضارة الغربية لا حضارة بديلة لها.

الحضارة المعاصرة ومعركة البدائل

(١)

برغم الفوضى المتعاظمة وتشتت المسارات واضطراب الموازين وغموض حس الاتجاه ، تبدو «الحضارة المعاصرة» لكل وعي ، اليوم ، أكثر الوقائع الإنسانية والمادية صلابة وتشخصاً وانتشاراً وتأثيراً . وتدلل كل القرائن في جملة الفضاءات البشرية الحية على أن الحضارة المعاصرة هذه ليست في نهاية المطاف ، وقبل أية حضارة أخرى ، إلا الحضارة الغربية على وجه التحديد والخصوص ؛ فبفضل الكشف العلمية الهائلة والتقدم التقني المنقطع النظير ، والقوة المادية والعسكرية الجبارة والتنظيم الإداري والقانوني المحكم والانتشار الإعلامي الخارق ، باتت هذه الحضارة سيدة العالم وصاحبة الكلمة النافذة في جملة أمور البشر .

بيد أن هذا الواقع «التاريخي» الظافر الذي تحقق لحضارة الغرب خلال هذين القرنين الأخيرين وجعل منها «الحضارة المعاصرة» بإطلاق يخفي واقعاً آخر يتمثل في حقيقة أساسية هي أن هذه الحضارة لم تجبّ عدداً من الحضارات الكبرى التي ما تزال حية فاعلة . لاشك في أن هذه الحضارات قد فقدت في أزمنة الحداثة قدراً عظيماً من قوتها وحيويتها ونفاذها في الفضاءات الكونية التي تتجاوز حدودها ، لكنها لم تفقد فعلها وتأثيرها وجاذبيتها وفاعليتها لدى أبنائها في حياتهم الفردية والاجتماعية الخاصة فضلاً عن قدرتها على التواصل أو التفاعل مع الحضارة المهيمنة ، وبرغم غزو «الحضارة المعاصرة» لفضاءات هذه الحضارات وتحكمها في كثير من وجوه حياتها وفي مستقبلها ، إلا أن بعض هذه الحضارات على الأقل يتعلق بالتربة التي يتغذى منها وبالجزور التي تثبت وجوده في الأرض وبجملة من «الرؤى الشاملة» التي تعزز الثقة بالذات وبالقيمة

العليا لحضارته ، ومبعث هذه الثقة الاعتقاد بأن القيمة الحقيقية لا تأتي فقط من مبدأ «القوة» بأشكالها المختلفة ، وإنما من هذه الثنائية الأبدية التي تجمع بين القيمة والمعنى من وجه أول وبين الفعل والقوة من وجه ثان .

يتعين علينا قبل المضي قدماً في النظر في مشكل البحث ، أن نقرر أننا حين نستخدم مصطلح «الحضارة» هنا إنما نعني ، إجرائياً ، وعلى وجه التحديد ، أن المقصود هو جملة المحدثات والمنجزات البشرية التي تنتجها جماعة مدنية ما في حقول المعرفة والعلم والإبداع والتقنية ، وطريقة الحياة وفق نظرة شاملة إلى العالم ، وبتعبير آخر لا يكفي أن تولد منجزات مادية وأدبية معينة لتتشكل حضارة ما وإنما ينبغي أيضاً أن تقوم هذه المنجزات على قاعدة «ثقافية» محددة ، أي على «ثقافة» ، وماهية هذه الثقافة تتمثل في فلسفة في الحياة والوجود ، أي في نظرة شاملة إلي العالم وفي نمط ما من السلوك والنشاط وطريقة الحياة ، أي في ثلثة من «القيم» الموجهة للفعل .

وفي إطار التقابل بين الحضارات يبدو واضحاً أن الوجوه المادية للحضارة تتفاوت وتباين وتتفاضل فيتقدم بعضها على بعضها الآخر ، وذلك بما تجسده من «أحكام وجودية» تقبل الإطلاق ، بينما يسود مبدأ «النسبية» حين يتعلق الأمر بالثقافة وقيمتها ، فهنا لا يملك أحد أسباباً وجيهة للزعم أنه حاصل على إجماع الاعتقاد بأن ثقافته تتفوق على كل ثقافات الآخرين ، إذ الأحكام هنا هي «أحكام قيم» والأمر نسبي تماماً ، لاشك في أن كل جماعة أو أمة أو دولة أو حضارة ترى أن ثقافتها الخاصة هي «أفضل» من جميع الثقافات الأخرى ، لكن ذلك حق فقط في «عين» أبناء هذه الثقافة وحدهم . من البدهي أن يقول المسلم أن ثقافته ترقى وتعلو على الثقافات الأخرى بما تشتمل عليه من قيم وأفكار ومعتقدات وطرائق فعل ، لكن الأمر نفسه يجري عند الغربي والمسيحي والبوذي والكونفوشي والهندوسي وكل الآخرين ، أي أن جميع الحضارات الحاملة لثقافات ترى أنها الأنسب أو الأصلح أو الأرقى . وبالطبع لا سبيل إلى «فض النزاع» حول هذا المبدأ

اليوم إلا بإحدى ثلاث وسائل : القسر والإكراه والعنف ، أو الحوار ، أو «قوة ونفاذ الانتشار الثقافي» . وما يهمني تقريره هنا هو القول : إن الواقعة الراسخة في الفضاء الحضاري الإنساني الراهن هي أن أرضنا المسكونة مازالت تحمل في جنباتها حضارات حية عدة وأن هذه الحضارات ذات حضور مشخص حقيقي وذات قوى متفاوتة متباينة ، وأن التطور الحضاري الشامل لم يدرك الآن حالة «الوحدة الحضارية» برغم ما يدعيه دعاة الليبرالية الجديدة من الزعم أن «الديمقراطية الليبرالية» هي خاتمة الحضارات . بيد أنه لا بد من القول : إن هذا التقرير لا يصلح إلا في أمر «البعد الثقافي» للحضارة ولا يصلح في أمر البعد «التقني» لها ، لأن التطور الحضاري قد هباً فعلاً لحضارة واحدة من بين جميع الحضارات القائمة ، هي الحضارة الغربية المعاصرة ، أن تدفع بالعلم والمعرفة والتقنية إلى حدود عظمى تجعلها مالكة للأدوات المادية للحضارة وقادرة على نشرها في المعمورة ووضعها ، بمقدار ، بين أيدي أبناء جميع الحضارات توجه حياتهم المادية وتحكم وسائل وأساليب إنتاجهم التقني ورفاهيتهم المادية . وهذا الوضع يهيئ لهذه الحضارة قوة غير عادية تجعل منها الحضارة المهيمنة والحاكمة على كل الحضارات الأخرى ، وذلك بما لها من قوة العطاء أو الحجب . وهذا الوضع ينتج تفاوتاً واقعياً حقيقياً بين هذه الحضارة وبين الحضارات الأخرى التي تجري أو تلهث خلف تلك الحضارة . يستطيع أبناء الحضارات الأخرى أن يشيروا بأصابعهم إلى المثالب والنقائص ووجوه الخلل «القيمية» في بنية وتشكلات تلك الحضارة ، وأن يجردوا القول في التقدم المادي لتلك الحضارة ، ولكن أيضاً في التخلف الروحي والأخلاقي لها ، وعند هذه النقطة ندرك مسألة التقابل أو التدافع أو الصراع الحضاري بين الحضارات «المغلوبة» وبين الحضارة «الغالبة» . . بين الحضارة الغالبة التي نطلق عليها اسم الحضارة المعاصرة - حضارة الغرب الحديث بالتحديد - وبين الحضارات المغلوبة أو المقهورة القوية بثقافتها الضعيفة بتقنياتها . . حضارات الإسلام ، والهند ، والصين . . وبكلمة قديمة «حضارات الشرق» . ههنا صوّب الليبراليون الجدد في الغرب - وأسماء بعضهم على كل

شفة ولسان - إلى هذه الواقعة قصودهم ووجهوها بصراحة وجهة «تحريضية» نحو القتال والصراع ، وهذا ما سأعود إلى بعض وجوهه بعد حين .

(٢)

الحضارة المعاصرة هي على وجه التحديد الحضارة الغربية الغالبة ، الحضارة المستبدة بالمعرفة والعلم والتقنية وأذرعها المرعبة : وسائل الإعلام ، وهي ليست هذا كله فحسب وإنما هي أيضاً رؤية شاملة خاصة للعالم والوجود والأشياء .

نحن نعرف اليوم حق المعرفة الوجوه المتعلقة بالعلم والتقنية والحدود التي انتهت إليها هذه الوجوه ؛ فمنجزات العلوم الأساسية والطبيعية ومشتقاتها التقنية ماثلة للعيان . وقد بلغت الهندسة الوراثية وعلوم الفضاء والأدوات الإعلامية والمبدعات العسكرية والصناعات الاستهلاكية مبلغاً عظيماً . ومن المؤكد أن القرن الحادي والعشرين سيشهد مكتشفات ومبدعات ومنجزات خارقة . بيد أن ما يثوي وراء هذه الوجوه من رؤى فلسفية أو ثقافية ليس واضحاً تمام الوضوح لكل الناس ، وذلك يتطلب قدرًا من البيان .

والسؤال المقصود هنا هو : ما هي الغائية الجوهرية للحضارة المعاصرة الغالبة؟ وما هي الرؤية الشاملة لها ، أعني الرؤية الموجهة والحاكمة للفكر وطرائق الحياة وأسلوب المعاش والمقاصد العليا أو البعيدة لها؟ وبيان هذه المسألة ضروري لمقابلته بما لدى الحضارات الأخرى المغلوبة ، ولما يقتضيه واقع النظر من معالجة مشكل «البدائل» الحضارية النائر الآن والنائر بشكل أشد غدًا .

يتفق الباحثون المعاصرون على الاعتقاد بأن الحضارة المعاصرة هي ثمرة (الحدائث) وأن الأسس الثقافية التي تستند إليها هي نفسها المقومات التي تؤسس الحدائث ، أي العقلانية والعلم والفردانية . وهذا التحديد يصدق بشكل أكمل على «الحضارة

الحديثة». إذ إن «الحضارة المعاصرة» التي تنتمي بشكل أخص إلى القرن العشرين - قد أحدثت تطوراً أساسياً في الحداثة التقليدية التي تستند إلى ما يسمى بـ «العقلانية الموضوعية». والعقلانية الموضوعية تعني تطابق العقل مع الواقع وتوجيه الواقع وفقاً لمبادئ العقل النظرية والموضوعية، وهذا يعني أن الحداثة الموضوعية نظرة «إيستيمولوجية» بالدرجة الأولى، وهي نظرة تستبدل بالمرجعية «الدينية» التقليدية، مرجعية العقل والعلم الموضوعي. وثمرة ذلك استبدال الدولة المدنية - أو العلمانية - بالمؤسسة الدينية أو الكنيسة في السياق الغربي؛ لذا فإن الحداثة تمثل جباً لمرحلة (ما قبل الحداثة) التي هي مرحلة ذات مرجعية دينية مثالية روحانية. أما الحضارة المعاصرة، حضارة الغرب في القرن العشرين بشكل خاص، فإنها تجسد انزياحاً من «العقلانية الموضوعية» إلى ما يسمى بالعقلانية الذرائعية أو الأداتية، وفيها - أي في العقلانية الأداتية - يتم التركيب بين العقل العلمي وبين النتائج التجريبية العلمية لنشاط هذا العقل. وهذه النتائج تجسد على وجه التحديد بالتقنية النفعية السائدة نحو التخلي عن المقاصد القيمة الإنسانية التقليدية. وبالطبع تمثل الليبرالية الرأسمالية الثمرة المشخصة المباشرة لهذه التقنية النفعية. في هذه الصيغة التي مثلها الاقتصاد الرأسمالي على طرائق (آدم سميث وكينز) يتم الاحتفاظ بمبدأ تدخل الدولة (الدولة - العناية والدولة - الرعاية) في حياة المجتمع والأفراد، لكن تعاضم القوى الرأسمالية الكبرى والشركات العملاقة وتنامي التيار الليبرالي نفسه وتفجر الثورة الإعلامية قد عدلت من مسار الليبرالية الرأسمالية لتربط كل شيء باقتصاد السوق الحر وبمنطق الحرية المطلقة ولتتنكب عن كل ما هو «اجتماعي» و«أخلاقي». وباتت الدولة نفسها بمنأى عن مجرى التيار متمثلة دور «الحماية» القانونية والمادية لهذا النظام الجديد، راعية للحرية والديمقراطية وفق منظور معدل لهما، منظور يجنح نحو إطلاق الفعل الاقتصادي والديني غير آبه بمبدأ «العدالة» ومبشر على نحو تحريضي بعدد منتقى من «حقوق الإنسان» يضغط لإنفاذه وفق مقاييس مزدوجة في حالات عديدة.

لكن الديمقراطيين «الجماعيين» Communitarians لا يسلمون بهذا المنطق «الليبرالي الجديد» ويدافعون عن دور الدولة والقيم المجتمعية والأخلاقية والعدالة ويشخصون بما هم المناهض الفعلي الواقعي لهذا التيار المدمر الذي تتمثل غاياته الأساسية في نظام ينشد المنفعة والمتعة والحرية المطلقة والفردانية الشرسة والهيمنة الكونية الشاملة التي تحمل اسم (العولمة) .

ويعتقد «جون نيف» أنه ليس علينا أن نبحث عن الأسس الثقافية للحضارة الحديثة في نهضة العلم الحديث وتقدمه ، ولا في نهضة الاقتصاد الحديث وتقدمه ، وإنما الذي ينبغي تقريره هو أن الينابيع الرئيسة لهذه الحضارة قد تمثلت في الجهود التي تكثفت بالنجاح بقدر ما والتي بذلت من أجل إقامة رابطة قوية بين نشدان الجمال ونشدان الفضيلة في مجتمع يطلب اللذة . وكل الخصال الإنسانية السامية - الرحمة ، المحبة ، الشرف ، العدالة ، الفكر النير - مما تعبق في الحضارة الحديثة ولا يعيره العلماء والأخصائيون أية أهمية ليست إلا ثماراً من ثمار المسيحية ، وكذلك فإن التقدم الروحي وطلب الكمال للإنسان بكلّيته اللذين تعلقت بها الحضارة الحديثة منذ مطلع القرن السادس عشر لم يكونا ثمرة التقدم العلمي والاقتصادي وإنما ثمرة المسيحية نفسها . (انظر كتابي : الطريق إلى المستقبل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص ١٧٠)

لاشك في أن الحضارة الغربية الحديثة لم تَجِبْ المسيحية فهي قد احتفظت بها في لحمة النسيج الاجتماعي والفرداني في البلدان الأوروبية التي تسود فيها ، ومن المؤكد أن تأثيرها قد بقي حياً في شتى القطاعات الحياتية . وقد اعتقد هيجل أن المسيحية مهدت الطريق لنشوب الثورة الفرنسية بفضل إرسائها لمبدأ المساواة بين جميع البشر على أساس قدرتهم على الاختيار الأخلاقي . ولاحظ صمويل هنتنجتون أن معظم الديمقراطيات الجديدة منذ عام ١٩٧٠م هي دول كاثوليكية . ومن المؤكد أيضاً أن العقيدة الدينية لكثير

من رجال السياسة الأوروبيين قد كان لها أثر شخصي مباشر في توجيه سياساتهم الخارجية . بيد أن من الثابت أيضاً أن الحضارة الحديثة في ما هيتها قد هجرت هجراً غير جميل القيم المسيحية العليا واستبدلت بها قيماً دنيوية خالصة ، وأن مقابلة المسيحية بالحضارة المعاصرة ينم ، من حيث الطبيعة ، عن تضارب في الغائيات التي يقصدها كل منهما ؛ فمبدأ المنفعة المادية القصوى ، والحرية السادرة في غيها ، والحركة الاستعمارية الشرسة المرتبطة بالمصالح الدنيوية لدول الغرب في العصر الحديث ، وهجر العدالة في العلاقات الإنسانية . . كل ذلك ليس من المسيحية وإنما مما ينعت به بعض المفكرين بـ «ما بعد المسيحية» ، وبكلمة توجز كل القضية : إن المفاهيم التي تتعلق بها المسيحية في مسائل المعرفة والفرد والتقنية الدنيوية ليست هي عينها المفاهيم التي تقوم فلسفة الحداثة وحضارتها . وحالة المفارقة والتباين والاختلاف أشد حين يتعلق الأمر بالحضارة المعاصرة المندفعة في تيار الليبرالية الجديدة ، إذ هي بكل تأكيد مضادة كل التضاد لروح المسيحية . وإذا بدا لبعض أبناء الحضارات الأخرى أن مسيحية الغرب أو «صليبيته» وفق الاستخدام غير الموفق الذي يحذه «الإسلاميون السياسيون» هي المحرك لحالة الصدام والعداء بينهم وبين المسيحية ولأن الفعالية النقدية عندهم تتجه إلى «فعل الآخر» وحده ولا تطال «فعل الذات» الذي يمكن أن يكون باعثاً على سياسات العداء والكراهية والاضطهاد .

والحقيقة التي أرى تكرار القول بها هنا هي أن غائية الحضارة المعاصرة ليست هي غائية المسيحية ، برغم أن أبناءها ينتمون في الغالب الأعم إلى المسيحية ، لكنه انتماء «تاريخي» لا يطال الجوهر الاعتقادي ، إذ المعتقدات هنا تنتمي في الغالب الأعم إلى «رؤية دنيائية علمانية» ليست هي الرؤية المسيحية . ولا يشك أحد في أن المسيحية في جوهرها «لا هوت» يند عن مبادئ الاقتصاد النفعي الراديكالي مثلما يند عن مسلمات «العلم الوضعي» المتمرد على الحقائق الدينية ، وعن نزعان «العقل» التي تخص الإنسان بوضع بروميثي وإلهي يشجبه هذا اللاهوت .

من أين يأتي إذن هذا الاعتقاد الذي يأخذه - على تفاوت في التعليل - مفكرون مسيحيون ومفكرون إسلاميون ، وهو أن الحضارة الغربية حضارة مسيحية؟ إنه يأتي ، عند الأولين ، من ملاحظة احتفاظ الحضارة الغربية بعدد من القيم الأخلاقية المسيحية ، ومن انتشار التراث المسيحي في الفضاءات الغربية فضلاً عن الانتماء الديني المسيحي «الشخصي» للغرب برمته ، وكذلك لوطأة الصراع التاريخي الديني بين الإسلام والغرب المسيحي ، وهو صراع لم ينجح أحد في تبديد هواجسه ومخاوفه ومخاطره ، ولم تفض فيه حوارات الأديان إلى أية نتائج حقيقية وعميقة . لا بل إن عدداً من الوقائع المستخدمة في العالم العربي والإسلامي من ناحية وفي الغرب من ناحية ثانية قد جاء ليؤججه ويعزز قواعده وجذوره ويعمق من آثاره المدمرة على الحاضر والمستقبل .

نقول إذن إن الغائية الجوهرية للحضارة المعاصرة ، حضارة الغرب ، تنكشف في الاعتقاد بأن مقومات هذه الحضارة الآن عند نهايات الألفية الثانية ومطلع الألفية الثالثة ترتد إلى نشدان المنفعة واللذة والحرية والعقلانية والتقنية العالية والسلطة وفق ما يسمى بالمنظور الليبرالي الجديد الذي يتطلع إلى أن يكون هو المنظور الكوني العالمي . وبالطبع لا يخالف أصحاب هذا المنظور أي شك في أن يكون هذا المنظور أفضل من أي منظور آخر سواه وبأنه يتفوق على كل الأنظمة التي عرفها البشر حتى اليوم . وكلمة فرنسيس فوكوياما خير تعبير على ذلك : «في نهاية التاريخ ليس ثمة منافسون إيديولوجيون للديمقراطية الليبرالية . وقد رفض الناس في الماضي هذه الديمقراطية الليبرالية لاعتقادهم أن الملكية والارستقراطية والثيوقراطية أو الحومة الدينية والشمولية الشيوعية وسائر الإيديولوجيات التي اتفق أن آمنوا بها أفضل منها . أما الآن فيبدو أن ثمة اتفاقاً عاماً - إلا في العالم الإسلامي - على قبول مزاعم الليبرالية بأنها أكثر صور الحكم عقلانية ، وهي صورة الدولة التي تحقق إلى أقصى حد ممكن إشباع كل من الرغبة العقلانية والاعتراف العقلاني (نهاية التاريخ وخاتم البشر ، الترجمة العربية ، ص ١٨٩) . وفقاً لهذا القول تبدو لفوكوياما كل الرؤى الحضارية الأخرى لفوكوياما - باستثناء

الرؤية الحضارية الإسلامية - منصاعة للمنظور الديمقراطي الليبرالي . وبالطبع إذا كان هذا المنظور هو المجسد الحقيقي لنهاية التاريخ فإن الذي يترتب على ذلك هو حتمية تصفية التاريخ من أية رؤية أخرى لا تنصاع لهذا المنظور . لكن ما هي هذه الرؤى الأخرى التي تشخص الآن في المعمورة بما هي « حضارات » قائمة حية على نحو أو على آخر .

(٣)

حضارات الإسلام والهندوسية والبوذية والشتوية والكونفوشية - وكلها حضارات « شرقية » وفق المصطلح التقليدي القديم - هي الحضارات « الأخرى » . وهي الحضارات التي تحمل شعوبها - وليس بالضرورة دولها - رؤى شاملة يمكن أن يقدم بعضها نفسه بما هو « رؤى بديلة » للحضارة الغربية المعاصرة .

قمت في عمل سابق بتقديم تحديد شامل لجملة المبادئ الغائية التي تستند إليها هذه الحضارات ، وقرنت بعضها بما أسميته « حضارات الظواهر » وبعضها الآخر بما أسميته « حضارات الأعماق » ، وجعلت حضارة الإسلام مركباً من الظواهر والأعماق (الطريق إلى المستقبل ، ص ١٥٥ - ١٧٠) . وأستحضر من جملة هذه التحديدات ما يسمى بإيجاز شديد حضارات « الشرق القديم » التي ما زالت قائمة بشكل أو بآخر ، وأقف عند المشكل الحضاري الإسلامي لخصوصيته الفريدة بالنسبة لنا .

في مقدمة هذه الحضارات الحضارة الهندية ، وهي حضارة تستند إلى نظرة شاملة إلى العالم قوامها الديانة الهندوسية ونظامها الروحي الممتد في الـ (ريجفيدا) وفي (الأوبانيشاد) . وهذه الحضارة حضارة أعماق ، قوامها الزهد والخلاص والانعقاد من العالم ، عالم الوهم والخداع ، بالعفة وطهارة الروح واجتناب النجاسة والتركيز الفكري والاستغراق في التأمل (اليوجا) وفق قانون الجزاء (الكارما) والتوحد مع المطلق بالولادة والبعث المتكررين (السمسارا) . والهندوسية ديانة تتردد بين عبادة الآباء والأسلاف وبين

تقديم القرايين للنار والآلهة ذكوراً وإناثاً . وفي ما هيتها هي ديانة غنوص وانعتاق وخلاص روحي فردي يؤدي بصاحبه إلى «النمو في الله» والتحرر من أغلال التناسخ والاتحاد الروحي النهائي بالإلهي اتحاداً يفضي إلى السعادة القصوى .

والجينية والبوذية المنتشرة في بلدان شرقية عديدة (الهند ، الصين ، سيريلانكا ، اندونيسيا ، ماليزيا) مشتقتان من الديانة الفيدية الهندوسية ، وهما تنشدان أيضاً التصدي لمشكلة وجود البشر في العالم وللمعاناة التي يلقونها في هذه الحياة وللحاجات الروحية التي يتشوقون إلى إشباعها . والمقصود هنا التحرر من (الدوخا) ومن عللها النكدة (المرض والشر والضيق والسخط والنقص والبلاء) ، ومن الشهوة التي تنبع منها ، وذلك بتجاوز الانفعالات الطاغية كالكرهية والجشع والوهم . وكل ذلك بسلوك (الطريق) المؤدي إلى قطع «الرغبة» ومتعلقاتها وإلى طلب (الحكمة) بالرياضة الروحية .

أما الكونفوشية التي تؤسس الحضارة والثقافة في الصين القديمة فهي حضارة ظواهر تستند إلى معتقدات وثنية «إحيائية» تغلب عليها الاهتمامات والهواجس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقومية ، أي أن الغاية النهائية بناء «مدينة أرضية» منخرطة في عالم الظواهر المادية . لكنها مع ذلك في صورها المتطورة والمتمثلة في الطاوية تنجح إلى ثقافة ممتدة في (الأعماق) ، تتطلع إلى إدراك حالة من السكينة والطمأنينة الروحية والوجد وفقدان الشعور بالذات (نرفانا) طلباً للتحرر من قيود الوجود والعبور إلى عالم الخلود وإدراك الخلاص بالتأمل والرياضة الروحية (اليوجا) .

من بين هذه الرؤى الشاملة والغائيات المحددة تبدو الرؤية الكونفوشية - التي اختلطت في الصين الحديثة بالتجربة الشيوعية - أكثر الرؤى الحضارية الحديثة انخراطاً في العالم الحسي الدنيوي . ويمثل البعد الجيوسياسي والسكاني للفضاء الصيني عاملاً معززاً لأهمية هذه الحضارة ولخطورتها في حياة العالم الحديث . وبالطبع فإن هذا العالم قد اكتسب ، بفضل أيديولوجية السياسة المضادة لأيديولوجية الحضارة المعاصرة ، وضعاً

فذاً هيأه لأن يمثل «حضارة بديلة» . ومع ذلك فإن علينا أن نقر بأن انهيار المعسكر الشيوعي الشرقي قد وجه «العالم الكونفوشي الشيوعي» إلى أن يكون أكثر تمثلاً لعلاقات غير صدامية مع العالم الغربي ، وأكثر تقبلاً لحوار متصل يوجه إلى توحيد هذا العالم وإلى وقف توسعه الأيديولوجي وتبدد أي طموح لأن يكون «بديلاً» كونياً لحضارة الغرب . وفي سياق انهيار العالم الشيوعي ، ونجوم النزعات الراديكالية الإسلامية المناهضة للغرب ، والحضور السكاني الملموس للمسلمين في العالم الكونفوشي الصيني ، وهواجس الخوف والصراع في الغرب ، نجمت فكرة التحالف بين الإسلام والكونفوشية للتصدي للغرب ، وهي الفكرة الوهمية التي روج لها بعض المفكرين الليبراليين الجدد وتداولتها الأوساط الدولية خلال العقد الأخير من القرن العشرين . لكن الحقيقة هي أن المعطيات الراسخة المتعلقة بطبيعة الرؤى الشاملة الخاصة لا تسمح بولادة مثل هذا التحالف ، إذ تظل الكونفوشية وعالمها الأيديولوجي مناقضين للرؤية الحضارية التي نافحت عنها وأرادت تجسيدها الحركات الإسلامية المعاصرة التي جعلت من الصراع والتصدي والمدافعة ديدناً لها في علاقاتها مع الغرب وحضارته . وليس يخفى على أي مراقب أو باحث أن منطق هذه الحركات منطق نوعي خاص بها وحدها ، وأنها حركات «إقصائية» ، لا تنبذ الصيغ المعتدلة للإسلام فحسب وإنما تنبذ كل رؤية مبينة باعتبارها نظاماً من نظم الكفر لا يجوز موالاته والتحالف معه . وإذا كان ثمة علاقات «خاصة» بين «دولة إسلامية» كباكستان مثلاً وبين الصين الحديثة فليس ذلك ، بكل تأكيد ، وجهاً لتحالف إسلامي كونفوشي بقدر ما هو تحالف جيوسياسي تفرضه الصراعات الإقليمية والعلاقات الصدامية بين أطراف ثلاثة على الأقل هي : الصين والهند وباكستان . غير أن الذي حدث ويحدث في جملة السياقات التاريخية ، هو أن الحركات الإسلامية الراديكالية المعاصرة - التي تحمل اليوم اسم الحركات الأصولية - قد تفردت بالعمل لحسابها الخاص ولرؤيتها الأيديولوجية متذرة بامتلاكها للحقيقة الخالدة ، أي لمفهومها للإسلام ، وبأن هذه الحقيقة هي البديل النهائي لكل رؤية أخرى ، وبالتالي لكل حضارة مخالفة .

وبطبيعة الحال يحتل الغرب والحضارة الغربية خط المقاومة والهجوم الأول في معركة «الرؤى والنظم البديلة» .

إن الذي يتبقى من جملة التقابل بين الحضارة المعاصرة ، الحضارة الغربية ، وبين الحضارات الأخرى ، هو أن «المعطى الإسلامي» هو وحده الذي يشخص في الفضاء الكوني كمعطى يزعم أنه يمثل «بديلاً» للحضارة المعاصرة وقوة تصارع هذه الحضارة وتتصدى لها في ما أسماه صمويل هنتنغتون «صدام الحضارات» ، وفي ما عززت التوجه إليه ليكون «أول معارك القرن الحادي والعشرين» أحداث الحادي عشر من أيلول من العام الأول من القرن الحادي والعشرين ، وهي الأحداث الرهيبة المدمرة التي لحقت بمركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى البنتاغون في واشنطن بالولايات المتحدة ، وكانت مبدءاً لإعلان «الحرب» على «الإرهاب» .

بطبيعة الحال لا يمكن أن نغفل عن خطورة الحالة «الصينية» ، فهي أيضاً تمثل حالة حضارية صراعية بالغة الخطورة يخصصها الغرب بأقصى درجات التصدي . لكن ليس ههنا موضع الخوض في وجوه هذه الحالة مثلما أنه ليس ههنا موضع القول في الصدام الهندوسي - الإسلامي في شبه القارة الهندية .

ما هي ، في سياق هذا المبحث ، ملامح الرؤية الحضارية الإسلامية التي يتجه فريق من المسلمين النشطين المعاصرين إلى اعتبارها «بديلاً حتمياً» للحضارة المعاصرة؟

علينا أن نميز اليوم بدون أي لبس بين رؤيتين شاخصتين للرسالة الإسلامية وللدور الحضاري الإسلامي ، الرؤية «الأصلية» والرؤية «الأصولية» . ولقد أصبح هذا التمييز فرضاً علينا من وجه ومفروضاً علينا من وجه آخر . هو فرض علينا لأن ضرراً يحدث ويتحتم علينا دفعه . وهو مفروض علينا لأننا لسنا مسؤولين جميعاً عن نجومه وإنما هو قد وقع علينا على كره منا وقسراً لدواع يتعلق بعضها بنا وبأحوالنا الزمنية العارضة ويتعلق

بعضها الآخر بالتدخل التاريخي الكوني وبتطور أحوال العالم والعلاقات الإقليمية والدولية .

فأما الأصل الذي هو مبدأ للرؤية الأصلية التي وجهت الظاهرة الإسلامية وأسست قوامها النظري الحضاري والتاريخي ، فيرتد إلى القول بكل بساطة وبدون تمحل كبير إن العالم المرئي ، العالم المادي ، في مبدأ وجوده ، لا يوجد ولا يتقوم بذاته وإنما بفعل خالق صادر عن إله واحد عالم بكل شيء قادر على كل شيء رؤوف رحيم مريد الخير لمن خلق ، وإن الإنسان قد نجم على الأرض بإرادته ليعمر الأرض ويكون خليفة لله في عمرانها . ومن أجل ذلك يحتاج هذا الإنسان لهداية إلهية في أمور الغيب حملها رسل وأنبياء خاتمهم محمد بن عبدالله ﷺ ومن واجبه أن يستخدم كل ملكاته الطبيعية ، العقلية والحسية والوجدانية ، من أجل ترقية وجوده الفردي والاجتماعي في كل ما يمت إلى أمور الدنيا بصلة . وهذا الإنسان في حياته الزمنية على الأرض مدعو في حدود طاقته لأن يلتزم بثلة من القيم الأخلاقية والاجتماعية في إطار جماعة منظمة تحميه وترعاه وفق مبادئ الخير العام والمصلحة والعدالة ورضوان الله . والسعادة الدنيوية والأخروية هما القصد النهائي لوجود الإنسان هنا على الأرض ، وغداً في العالم الآخر . وهذه الرسالة ليست رسالة مبتدعة ابتداعاً مطلقاً ، وإنما هي عود إلى الديانة الإلهية الحنيفية الأولى ، وضبط وإحكام لأصول هذه الديانة . والأصل أن تتم الدعوة إلى هذه الديانة بالحكمة والموعظة الحسنة ، إذ السلام والأمن والتسامح هي الأصول المفضية إلى عموم الخير والسعادة وما سواه عرض زمني ناجم عن «تدافع» البشر في حياتهم على الأرض .

ذلك هو الوجه الأصيل الذي يمكن تجريده بإنصاف من جملة نصوص الوحي التي تؤسس هذه الرؤية ومشتقاتها الحضارية . هل هذا هو الوجه الذي تحقق «تاريخاً» ومثلته التجربة التاريخية الإسلامية ؟ الجوانب على ذلك أن التجربة التاريخية الإسلامية ليس «نصاً» من «النصوص» أو وحيًا من الوحي ، على ما يزعمه بعض المفكرين الإسلاميين

المتابعين لسينوزا وفلسفة وحدة الوجود . وهذه التجربة هي حقل للممارسات البشرية بصواباتها وبزلاتها وخطئاتها . وأصحابها هم الذين تقع عليهم المسؤولية عنها ، ولا تزر وزر وأزر أخرى . ومع ذلك فإن المسألة لا تترد إلى هذه الصيغة البسيطة من النظر والتقدير ، فإن التجربة التاريخية ذات خطورة عظيمة في تحديد طبيعة العلاقات المعاصرة مع (الآخرين) وفي توجيه مستقبل هذه العلاقات . غير أن الذي يتحتم التمسك به وإقراره هو أن الصيغة الأصلية للرؤية النظرية والحضارية الإسلامية تدور في الإطار الذي ألمعت إليه الآن .

لقد خضعت «الرؤية الأصلية» التي حددت عناصرها الرئيسة الآن لتعديل جوهري في عصرنا ، ومنذ أواسط القرن العشرين ، لا بل من تلك الفترة التي تمتد بين الحربين العالميتين ، وإلى أيامنا هذه . ووفقاً لهذا التعديل الجوهري باتت الرؤية الأصلية هذه رؤية «مشتقة» ، راديكالية متصلة ، يعلم الجميع أن الاسم الذي أطلق عليها هو «الأصولية الإسلامية» ، وأحياناً أخرى «الإسلام السياسي» ، وأنا أذهب في سياق مقابلتها بالإسلام-الأصل ، إلى أن أسقط عليها اسم «الإسلام الآخر» .

كان منطلق هذه الرؤية المستحدثة «السلفية الإسلامية التاريخية» التي عبرت (جماعة الأخوان المسلمين) منذ أواخر العشرينات من القرن الماضي عن صيغة جديدة معدلة لها (انظر بحثي : السلفية- جذورها وتحولاتها : مراجعة شاملة ، منشور في مجلة عالم الفكر ، العددان الثالث والرابع / خاص ، يناير/ مارس-أبريل / يونيو ١٩٩٨م ، ص ٦١-٩٦) . في هذه الرؤية يتدخل مفهوم «تغيير المجتمع والعالم» ، ولا تقف الظاهرة الدينية عند حدود التقوى والإيمان والعمل الصالح والتكافل الاجتماعي في الأمور الحياتية وغير ذلك من الوجوه الشخصية أو الاجتماعية . مع جملة الأخوان المسلمين يتحول أمر (تغيير الذات) إلى أمر (تغيير المجتمع) ، وهذا يقضي إلى حقل الدولة ومؤسساتها ونظمها ، أي الحقل السياسي وعالمه غير الآمن ، أي إلى الصراع . ويحدث الصراع

العينف في أواسط القرن ليمتد بعد ذلك قرابة عقدين من الزمن . وكانت قد نجمت أثناء ذلك الدولة العبرية ، وهي واقعة دفعت العالم العربي في طريق أزمة عميقة لم تنجح الدول والأنظمة القطرية في تجاوزها . ومع تفاقم الأوضاع الاقتصادية في عدد من هذه الاقطار واستشراء الفساد وتعاضم التدخل الخارجي وغياب العدالة والمشاركة السياسية والحرية ومشتقاتها ، تشكلت داخل التيار الإسلامي وعلى أطرافه أجنحة غاضبة قدرت أن الحل يكمن في الخروج والعصيان والعنف . فكان ذلك ، واتجه العنف صوب «الذات» وصوب «الآخر» . وتبلورت رؤية شاملة للإسلام جعلت منه في أعين أصحابها (البديل الحتمي) للأنظمة القائمة ولديمقراطية الغرب والحضارة الغربية . ووحدت وسائل الإعلام الكونية بين الإسلام وبين العنف ، وأخيراً بينه وبين الإرهاب ، وبات الإسلام في عين (الآخر) عدوانياً إرهابياً ، وغابت الملامح الطيبة الرحيمة الأصلية لهذا الدين .

(٤)

«الإسلام هو الحل» . . . «الإسلام هو البديل» . . . «إما الإسلام وإما الجاهلية» . . . «إما حكم الله وإما حكم الجاهلية» . . . «الحاكمية لله» . . . تلك هي الصيغ التي أطبقت عليها في جملة أرجاء العالمين العربي والإسلامي الحركات الإسلامية المعاصرة . قد يظن لأول نظرة أن هذا الشعار ليس شعاراً لجميع هذه الحركات وإنما هو فحسب شعار الحركات المتصلبة الراديكالية ، أو حركات «الإسلام السياسي» التي تنعت بالأصولية والتي يمكن بتقدير ما اعتبار أبي الأعلى المودودي وسيد قطب وتقي الدين النبهاني ملهمين رواداً لها . وقد يمكن أن يقال إن هذه الشعارات هي على وجه التحديد شعارات ما يسمى بالجماعات الإسلامية : جماعة المسلمين (التكفير والهجرة) ، وجماعة الجهاد الإسلامي ، وجبهة الخلاص الإسلامي ، والجبهة العالمية الإسلامية ،

و(القاعدة) وغيرها . لكن الحقيقة أن جميع الحركات الإسلامية الأخرى تأخذ بهذه الصيغ ، ولكن بحدود وبمقادير من الاختلاف في الفهم والتأويل وطريقة العمل . ومعظم هذه الصيغ نجم بمبادرات من مفكرين ينتمون إلى جماعة الأخوان المسلمين أو قريبين منها . والرأي السائر هو أن هذه الجماعة جماعة معتدلة على وجه العموم برغم ما علق بها من سمة «عنيفة» عند الخمسينات من القرن العشرين في حراكها وتدخلها السياسي في الفترة الأخيرة من العهد الملكي وفي السنوات الأولى لحكم (الضباط الأحرار) في مصر . وليس يجهل أحد أن أدبيات هذه الحركة تجنح صراحة للسلم والشورى والعدالة الاجتماعية وغير ذلك من القيم التي تنأى بالحركة وأهلها عن الصراع العنيف . لكن كبرى الجماعات الإسلامية هذه تعلقت دوماً بالمبدأ القائل إن الشريعة الإسلامية هي النظام الأمثل وإن الإسلام بما هو نظام إلهي هو الطريق إلى الخلاص وهو البديل السديد لكل الأنظمة البشرية . وتشارك الجماعة هذه في الأخذ بهذا المبدأ حركات أخرى ذات نزعات اجتماعية دينية معتدلة ، ومفكرون إسلاميون «مستقلون» ، وقوميون أحياناً . غير أن اختلافاً في طريقة الفعل وفي طريقة إدراك وتحقيق (النظام الإسلامي) يفرض تمييزاً حقيقياً بين جملة هذه الحركات ، الراديكالية منها والمعتدلة . وهذا التمييز يقع في منطقة النهج العملي لإنفاذ المبادئ . فالجماعات الإسلامية الراديكالية تختار طريق الجهاد العنيف والقتال والمواجهة و«العقل المباشر» ، إذ ترى أن «طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف» وأن «إعادة الخلافة على منهاج النبوة» لا تتم «إلا بقتال الطواغيت وجهادهم إذ أنهم لا يخلعون البتة عن سلطانهم بغير قتال» (وثيقة الفريضة الغالبة) . وقد جسد بعض هذه الجماعات هذا النهج بعمليات عنيفة في داخل عدد من الأقطار العربية (سورية ، مصر ، الجزائر ، أفغانستان) ، ونسب إليها عدد من العمليات «الإرهابية» خارج هذه الأقطار (أوروبا ، وأفريقيا ، وأمريكا مؤخراً) . أما الجماعات المعتدلة فتناهى بنفسها عن هذا النهج أو تتنصل منه وتعلن أنها لا ترضى به وأن الطريق الذي ينبغي أن يتبع هو طريق الحوار والحكمة والدعوة الطيبة الحسنة . والحقيقة

أن هذا الطريق هو الطريق الذي يلتزم به جمهور المسلمين وعامتهم إذ يعتقدون أن الإسلام دين محبة وأخوة وسلام عند المسلمين في أنفسهم وفيما بينهم ، وعند مباشرتهم للآخرين . وفيما عدا الجهاد والقتال لتحرير الأرض المغتصبة فإنه لا أحد منهم يأخذ بطريق «الجهاد العنيف» على النهج الذي تأخذ به الجماعات الراديكالية .

بيد أن هذه الحال لا تطابق تمام المطابقة ما تجري عليه الأمور في دوائر العالم الخارجي المعاصر - أي في إطار «الحضارة المعاصرة» - إذ إن الذي حدث هو أن «الفعل الإسلامي الراديكالي» . الذي أعقب انهيار المعسكر الاشتراكي وتميز بالتحدي والمناهضة وبإطلاق بيانات العداء ومظاهر الصراع وإعلان النوايا حول (نظام بديل) لنظم الغرب ، قد عزز في الغرب شتى المخاوف والهواجس ومشاعر الحذر وبوادر الكراهية التي راحت تتنامى وتتعاظم إلى أن عبرت عن نفسها بأطروحات الليبراليين الجدد حول «صراع الحضارات» . وقد فجرت حوادث سبتمبر ٢٠٠١ الكراهية والعداء والصراع وإثارة مشكل (الصراع الحضاري) على نحو لم يسبق له أي نظير في الأزمنة الحديثة . وتشير كل القرائن - وبرغم تصريحات «التهدة» السياسية والدبلوماسية التي تصدر في أمريكا وأوروبا عن كبار المسؤولين - إلى أن حالة الصراع والكراهية التي يراد لها أن تقوم بين «حضارة الغرب» وبين «حضارة الإسلام» قد قامت فعلاً . ومع أن برلوسكوني ، رئيس وزراء إيطاليا اليميني ، قد تنصل من تصريحاته «الاستعلائية» إلا أن ذلك لا يجرده من الاعتقاد الحقيقي بتفوق الغرب على الإسلام وغيره . وبرغم حرص رجال الدولة الغربيين - الأنقياء منهم وغير الأنقياء - على ضرورة التمييز بين الإسلام بما هو دين محبة وسلام وبين الحركات الأصولية بما هي حركات خارجة عن الإسلام ، إلا أن شبح (القاعدة) والجماعات المناظرة التي علقت بها اللوثة «الإرهابية» ، بات يخيم على المخيال الجمعي الغربي ويوحد بينه وبين شبح الإسلام نفسه ، ممهدا الطريق للمشخص لعلاقات دقيقة حرجة خطيرة بين عالم الإسلام وبين عالم الغرب . والذي يبدو هو أنه سيكون من العسير جداً أن ترد الأمور إلى نصابها خلال فترة قصيرة بحيث يتشكل في

المخيال الجمعي الغربي تصور جديد يفصل فصلاً حقيقياً بين صورة الإسلام الرحيمة وبين المشتقات التاريخية والزمنية «النكدة» . والحقيقة هي أن المسألة بالغة التعقيد ، فالذي يحدث الآن هو عملية «تراكب» تلتحق فيها مخلفات الماضي بوقائع الزمن الحاضر . ذلك أن التجربة التاريخية في علاقات الإسلام بالغرب ليست تجربة زاهية في جميع الأحوال . فهذه العلاقات تكتنفها منذ عصور متطاولة شتى مظاهر القلق والتوتر والحذر والصراع الآمن أحياناً غير الآمن أحياناً أخرى . وذلك من جانب كلا الطرفين على حد سواء . «والصور المتبادلة» تشي بمفهوم وتصورات ومواقف لا تبعث على البهجة والسرور ، وهي في جملتها تفضي إلى حالة من «الثقة المفقودة» . وأجدني مضطراً إلى أن أذن لنفسي هنا باسترجاع نص طويل سقته في مكان آخر واصفاً فيه حالة المخيال المعرفي التاريخي الغربي ، والحالة الإسلامية المقابلة للغرب ، إذ ذهبت إلى أنه : «لا يشك أحد في أن صورة الإسلام في المجال المعرفي التاريخي الأوروبي هي صورة قبائل يشبه أن تكون بربرية ضاقت بحياة الصحراء ووجدت في (نبي الإسلام) قائداً عسكرياً فذاً أدرك بذكائه الفطري الحاد وبخياله الحسي النافذ ومعرفته المشخصة والمادية ، مطالب العرب والأعراب الحسية وتطلعاتهم الدنيوية ، واستطاع بعبقريته الإنسانية المتميزة أن «يوظف» هذه المطالب والرغبات والقوى والتطلعات في غزو العوالم القديمة وتغيير قواعدها وأركانها وبنائها ، حتى أمكن له بناء دولة عسكرية لم تلبث أن تداعت لتخلي السبيل لدولة أخرى لم تدم طويلاً ثم لأخرى وأخرى حتى انقضى أجل جميع الدول الكبرى التي ولدتها دفعة القوة الأولى . وبطبيعة الحال كان الغرب الحديث هو الذي أدى الرسالة «الثأرية» التي أجهزت على آخر معاقل هذه القوة : الدولة أو الخلافة العثمانية . لاشك في أن هذا المجال المعرفي التاريخي الأوروبي يقر لهذه الجماعات التي شكلها الإسلام - وبخاصة منها تلك التي هي من أعراق غير عربية - بإنجازات «حضارية» راقية كان لها أثر في يقظة الغرب وتقدمه لكنه ، في الغالب الأعم وعلى وجه الإجمال ، يرد إلى السلف اليوناني الفضل في تمكن المسلمين من وجوه

العلم ومن إحراز إنجازات مرموقة فيها . والذي يلوح هو أنه لا يقر للإسلام وأهله إلا لمأماً بدور ذي دلالة في عملية «التقدم الإنساني» الشامل . ومرة ثانية لا مفر من أن يكون الأثر المباشر لهذه الصورة أن صورة الإسلام في المجال المعرفي التاريخي الأوروبي هي مما لا يمكن الوثوق به في أنظار المسلمين وفهومهم .

أما المخيال الشعبي الأوروبي فقد غذته بحوث الاستشراق العرقي والأدبيات الغرائبية المنحدرة من القرن التاسع عشر على وجه الخصوص ، والأعمال الأدبية والفنية - وبخاصة السينمائية - «الملوثة» سياسياً أو عرقياً أو أيديولوجياً ، وأجهزة الإعلام «المعادي» ، وقوى الضغط الجمعي الدينية والسياسية أو العرقية . . . ، غذته بجملة من التشكلات «الروحية» ذات السمة النفسية - الاجتماعية التي جعلت من الإسلام «ديانة» غارقة في شتى الصور النمطية المنحرفة : فهو عدواني ، شهواني جنسي ، متعصب ، ذميم ، عدو للحرية ، أناني يحتقر المرأة ويجردها من حقوقها الإنسانية ، مستبد ، خرافي ، قذري ، تراثي . . . وفي العقدين الأخيرين أتاحت الحركات الدينية والسياسية الراديكالية لأجهزة الإعلام الأوروبية والغربية ولقادة الفكر والسياسة وللجماعات «العامّة» النشطة أن تجرد للإسلام صورة عدمية قوامها العدوان والوثوقية والتطرف وكرهية «الغير» ومعاداة القيم المدنية الكبرى الحديثة . وتم نقل هذه الصورة بأشكال متفاوتة من المطابقة أو التحريف زو التعديل فتولد لدى خاصة المسلمين وعامتهم يقين قوي أن الأمم الأوروبية أمم معادية مبغضة وأنه لا فائدة ترجى من طلب ودها أو من بذل الجهد في سبيل تعديل الصورة النمطية العدمية التي استقرت في مخيلتها الجمعية في أمر دين الإسلام .

وأخيراً ضرب المسلمون ، في أعين الأوروبيين ، أمثلة صارخة لجماعات تناصب نفسها العداء ، برغم ما تزعمه من أخوة الإيمان ، فلا يكاد أحد يفلح في لمّ شملهم وفي جمعهم حول قضية واضحة يتفقون في أمرها اتفاقاً حقيقياً ، ولا يتورع بعضهم عن التآمر على بعضهم الآخر ، ويمكن أن يتم اللجوء إلى العنف والقسوة لحل الخلافات بينهم -

وهي لا عد لها ولا حصر - وما يدعونه لأنفسهم من أنهم «أمة واحدة» تسخر منه أحوالهم ووقائع حياتهم سخرية مريرة . أما المسلمون في حياتهم الشخصية فلا يشك الأوروبيون على وجه الإجمال - وبخاصة من انتهت إليهم معرفتهم عن بعد أو بوسائط ، ومن لم يألفهم وشاركهم بعض وجوه الحياة - في أنهم أناس لا همّ لهم إلا منافعهم الدنيوية وأنهم ليسوا أهلاً لأية ثقة أو لأي عمل تحضيري حقيقي ، وأشياء كثيرة أخرى تجعل منهم أناساً تقضي الحكمة و«الحضارة» باجتناّبهم أو إهمالهم وازدراؤهم . وقد عززت سيرة بعض المسلمين في بلاد الغرب هذه الصورة ورسختها في نفوسهم . والمسلمون يعلمون ذلك ، ويعلمون أن الأوروبيين ، بسبب من هذا كله وبسبب من غيره لا يرتاحون إلى الحضور الإسلامي بينهم ويميلون إلى ممارسة سياسات «العزل العنصري» والتمييز المعنوي في حقهم . وبطبيعة الحال لا يتولد عن ذلك في نفوس هؤلاء المسلمين سوى مشاعر الحرج والتحفّظ والإنكار ، فينفضون أيديهم منهم . ويتبدد الاطمئنان إليهم والخلوص إلى نواياهم ومقاصدهم .

في القطاع المقابل تشي الصورة الأخرى هي أيضاً بمثل ما تشي به الصورة الأولى . فالأوروبيون في الجهاز الإدراكي والشعوري الإسلامي ليسوا أهلاً للمودة وللثقة التي لا غبار عليها .

فأولاً : لا يجهل المسلمون أن أوروبا تعني التقدم المعرفي والعلمي والتقني والتنظيمي . كما أنها تعني جملة من القيم «المدنية» الحديثة التي تقصد إلى تعزيز سيطرة الإنسان على الكون وتنمية الروح الفردية والطبيعة العقلانية للإنسان والمجتمع والدولة . لكنهم يعتقدون أيضاً أن القيم التي تحرك الحضارة الأوروبية ليست جميعاً قيماً «بريئة» أو محايدة أو مما يمكن الرضا به «إسلامياً» . وفي تصوراتهم الثابتة أن أوروبا مادية علمانية نفعية لا إنسانية لا أخلاقية تدير ظهرها للدين وتعلّق بالدنيا . وذلك برغم ما يتسبب به بعض المسلمين من القول أن أوروبا «مسيحية» قلباً إن لم تكن كذلك قالباً . ومن الثابت

أن صورة أصلية كهذه لا يمكن أن تكون مبعث اطمئنان ورضا من جانب جمهور المسلمين وعامتهم فضلاً عن «الملا» منهم .

وثانياً : لا يبدو الفعل التاريخي الأوروبي مما يسر الناظر المسلم بالعلاقات التاريخية الإسلامية- الأوروبية لا تحكمها فقط الآثار العلمية والفلسفية العربية والإسلامية التي أتت أكلها في ثقافة القرون الثلاثة الأخيرة اللاتينية (١٢- ١٤) وفي مطالع الحضارة الأوروبية الحديثة ، وإنما هي محكومة أيضاً بجملة من الوقائع السياسية «الثأرية» الكبرى أبرزها :

- ١ . الحملات الصليبية على ديار الإسلام .
- ٢ . استرداد إسبانيا (الريكانكوستا) .
- ٣ . الإجهاز على الدولة العثمانية .
- ٤ . تجزئة العالم العربي والإسلامي وإخضاعه استعمارياً وتحويله إلى «دول تابعة» أو ضعيفة .
- ٥ . المساعدة في تأسيس دولة يهودية على أرض فلسطين .
- ٦ . السيطرة الاستراتيجية على ثروات العرب والمسلمين الطبيعية (البترو) .
- ٧ . مناصبة حركات النهضة الإسلامية الحديثة العداء و«التأمر» للحيلولة دون «عودة الإسلام» إلى الحياة ونظمها .

وكل واقعة من هذه الوقائع تكفي وحدها لكي تلقي في نفوس المسلمين لا بذور الشك والريبة فحسب ، وإنما أيضاً بذور عداً وغضب ونقمة لا حدود لها .

وثالثاً : استقر في المخيال الجمعي الإسلامي أن أوروبا تمثل جملة من الوقائع والقيم الصلبة التي تثير التوجس والحيرة والحذر : القوة ، الغطرسة ، الهيمنة ، التقدم العلمي والتقني ، الإمبريالية ، الغنى والرفاهية ، الخداع السياسي ، الحرية الفردية ، المسرفة ، عبادة الآلة ، التحلل الأخلاقي ، التفكك الأسري ، المخدرات ، الجريمة ،

الاستهتار بالدين وبالقيم . . . وليس شيء من هذا كله يباعث للمسلمين على طلب حياة الغرب ومودة أهله والاطمئنان إليهم .

ورابعاً : يعزز كثير من الحالات الفردية التي يشهدها المسلمون في الحياة اليومية تمثلات المخيلة الجمعية الإسلامية ، كما أن الأفعال السياسية «العدوانية» التي يمارسها الأوروبيون على الدوام تمثل «صدمة» حية للأمال والمطامح الإسلامية وتغذية دائمة لمشاعر الإحباط والنفور والشجب وانسحاب الثقة . (انظر مقالتي : الإسلام وأوروبا - الثقة المفقودة ، في كتابي : الماضي في الحاضر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٩٨م ، ص ٥١٧ - ٥٢١) .

ويزيد من تفاقم هذه «الصور المتبادلة» المدمرة الآن ، عند نهايات القرن العشرين ومطلع القرن الجديد ، وغداة انتشار موجة المؤلفات التي تقطع بتفوق الغرب ورقبه وتجعل حضارته غاية الحضارات وخاتمها ، أو «تبشر» بصراع حتمي غير آمن معها - أن الوعي الجمعي العربي والإسلامي بات أكثر اقتناعاً بأن الوضع يشي تماماً بـ «مؤامرة كبرى» حقيقية . كما يعاظم من تفاقم هاجس الصراع نجوم سلسلة من الحوادث المروعة أفضعها حوادث نيويورك وواشنطن في العام الأول من القرن الجديد ، وهي حوادث كان «المشتبه الأول» فيها «حركة إسلامية إرهابية» . وقد عززت هذه الوقائع الجديدة الوعي الغربي الذي تولد في العقود الأخيرة من القرن الماضي بأن عالم الإسلام يحمل بذور العداء المطلق للغرب وحضارته ، وأن هذا العالم يتطلع إلى اختيار كل أسباب القوة من أجل أن يدمر الحضارة الغربية ويحل محلها حضارته «بديلاً حتمياً» . ومع أن أصابع الاتهام قد وجهت على وجه التحديد إلى «الحركات الإسلامية الإرهابية» بما هي حركات «شريرة» ترمي إلى «تغيير نمط الحياة» الأمريكية والغربية وإلى تجريد الحضارة الغربية المعاصرة من مقوماتها وفضائلها العظمى وبخاصة الحرية والعقلانية والرفاهية ، إلا أن الذي بات يخشى حقاً هو أن تكون هذه الهواجس المرعبة للوعي

الغربي هي هواجس متعلقة بالإسلام نفسه وبالعالم المسلمين على وجه الإجمال بحيث يتجه الفعل الاستراتيجي في نهاية الأمر إلى حتمية رد هذا «الدين» إلى حدوده الدنيا، والإجهاز على مخلفاته الحضارية بأمضى الوسائل - الثقافة الإعلامية البديلة - ، وإفقار العالم العربي المفكك اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وعلمياً وتقنياً . وتشكل الآن في بعض مناطق المخيال العربي والإسلامي أن المقصود هو الإجهاز نهائياً على هذا العالم، وأن ما يجري الآن من الانتقال من حالة «شبه الحرب» إلى «حالة الحرب» إنما يجري في هذا الاتجاه . أما في الفضاءات الحضارية الغربية فقد اشتدت وتيرة «المواجهة» ووجد «الصداميون» أسباباً قوية جديدة لتسويغ نزعاتهم العدوانية ولحق ضرر بالغ بـ «المرافقة» البارة التي عرضها (فريد هاليداى) إذ ذهب إلى أن «المواجهة» المزعومة بين الإسلام وبين الغرب هي مجرد «خرافة» (Fred Halliday, Islam and the Myth of Confrontation, London, 1995).

(٥)

من الذي يؤجج الصراع؟ من الذي يعمق الفروق والخلافات والاختلافات ويدعمها في طريق الصدام العنيف والحرب بين الإسلام وبين الغرب؟ من هم المحرضون على العنف الثقافي وعلى العنف المادي وعلى الحرب؟ للإجابة عن هذه الأسئلة لا يكفي أن نقول إن التجربة التاريخية هي التي تفعل ذلك ؛ فالتجربة التاريخية تساعد على ذلك فحسب ، طالما أن الذاكرة الجمعية لم تتحرر من وطأتها . الذين يفعلون ذلك اليوم هم على وجه التحديد «الأصوليون» المتصلبون أو الراديكاليون من كل «المعسكرات» . ونحن في هذه اللحظة على وجه التحديد من القرن الجديد لا نملك إلا أن نستحضر ثلاثة أطراف فاعلة ومحرضة وموجهة للطابع الدرامي للعلاقات :

الراديكاليون الإسلاميون .

أصوليو الدولة العبرية .

الليبراليون الجدد .

ثم انضم إلى هؤلاء جميعاً أصوليون مسيحيون خارجون على تعليم الكنيسة الكاثوليكية ممثلة في حبرها الأعظم .

فأولاً لا أحد يجهل معالم الحركة السياسية الإسلامية المتصلبة التي شهدها العالم الإسلامي نفسه وعانى منها خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين . فمنذ أواسط هذا القرن نجم تحول متنام في بنية الفكر الديني الإسلامي وجهها على نحو متعاظم وجهة الفعل العام الاجتماعي في مرحلة أولى ، ثم السياسي في مرحلة ثانية . ولا يتسع المقام هنا للتفصيل في دواعي هذا التحول ومناصيه ووجوهه . لكن يمكن اختزالها في دواع قومية تتقدمها واقعة نجوم الدولة العبرية على أرض فلسطين والهيمنة الغربية ، وسياسية تتمثل في غياب المشاركة السياسية والحريات الأساسية والاضطهاد السياسي ، واجتماعية تتمثل في غياب العدالة ، واقتصادية ترتد إلى أحوال الفقر والتفاوت الطبقي وسوء توزيع الثروة . وقبله حالة «الآفاق المسدودة» واليأس وإخفاق التجارب الوطنية والاشتراكية أفرز التيار الإسلامي العام ثلثة من الحركات الراديكالية المتصلبة التي وجهت غضبها نحو المجتمع والدولة في الداخل ، ونحو قوى الهيمنة الخارجية ، أي الغرب على وجه العموم . وتبنت هذه الحركات العقيدة «الخارجية» القديمة التي تقيم حدوداً قاطعة بين (دار الإسلام) وبين (دار الكفر) . وشملت هذه القسمة ديار الإسلام وديار الغرب على حد سواء . وتابعت هذه الحركات في إيديولوجيتها المشخصة دعاوى أبي الأعلى المودودي ومن بعده سيد قطب في تبني مفهوم «التصادم» مع الحضارة الغربية وقيمها المدنية «الفاسدة» ومع النظم «الجاهلية» السائدة في العالم الإسلامي والعمل على إقامة شرعة الله «لإنقاذ العالم كله» بـ «الجهد المستمر والعنيف» (المودودي : نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون والدستور ، الدار السعودية ، جدة ، ١٩٨٥م ، ص

٧٩-٨١؛ أيضاً المودودي : الإسلام والمدنية الحديثة ، الدار السعودية ، ١٩٨٧م ، ص ١٠-١٣ ، ٢٥). وفي حراكها العملي اختارت هذه الحركات ، فعلاً ، سبل «الجهاد القتالي» والحديد والنار ، وصوبت فعالها إلى الأفراد والجماعات والدول في الداخل . أما في الخارج ، أي في علاقاتها مع «الأغيار» وعلى وجه التحديد مع الغرب ، فقد أدانت القواعد والأس والقيم التي تستند إليها الحضارة الغربية وأعلنت عن عدائها الصريح للديمقراطية الغربية وللحريات الأساسية التي تقوم عليها حضارة الغرب فضلاً عن فعلها السياسي «التأمري» على العالم الإسلامي ، وبشرت بتدمير هذه الحضارة وإحلال الإسلام «بديلاً» لها . ولم تغفل وسائل الإعلام العالمية عن فعال هذه الحركات وعن نواياها ومقاصدها فحرصت على ترويج الأشكال المثيرة للنفور والاشمئزاز مما يصدر عنها وبخاصة ما يتصل بوقائع القتل والتدمير واحتقار حقوق الإنسان ، وامتهان المرأة . وقد أدت فعال حركة طالبان الأفغانية في المسائل الاجتماعية على وجه التحديد دوراً حاسماً في تشويه صورة الإسلام نفسه وفي تشكيل «وعي بائس» بالنظام الاجتماعي والأخلاقي للإسلام نفسه . وفاقم من هذا الوعي مظاهر الاقتتال العنيف والإرهاب الدموي الذي مارسته هذه الحركات في أحشاء المجتمعات الإسلامية نفسها . كما فاقم من هذه الأحوال غياب «دولة مدنية موحدة» وسيادة حالة التفكك وتفاوت الأوضاع والظروف المحلية . أما دعوة هذه الحركات لمناسبة الغرب العداء المطلق ولربط هذا العداء بـ «النصرانية» وبحتمية فناء الحضارة الغربية وحلول الإسلام وحضارته بديلاً لها ، فقد دفعت بحالة التقابل لا إلى حدود الكراهية والنفور والتوجس فحسب وإنما إلى حدود الوعي الغربي بما بدا أنه «عودة» مرعبة للإسلام تقتضي تحدياً عالياً ودفعاً للأمور إلى حالة الصدام الحضاري والتحول عما يسميه صموئيل هنتنغتون حالة «شبه الحرب» إلى حالة «الحرب» (Samuel Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, New York, 1996 .

وثانيًا : لا ريب في أن قيامالدولة العبرية في قلب العالم العربي بفلسطين قد ولد خللاً عميقاً في أوضاع هذا العالم . ولم يتمثل هذا الخلل في زعزعة الأوضاع الداخلية السياسية والاقتصادية في أرجاء هذا العالم فحسب وإنما أيضاً في توليد مشاعر الذل والمهانة والإحباط وفقدان قيمة الكرامة وتقدير الذات . وبرغم عمق الهزيمة والخسائر القومية الكبرى المترتبة عليها . إلا أن العالم العربي اتجه في السنوات الأخيرة إلى قبول «الحدث» والرضا بمصالحة تاريخية انطلاقاً من اتفاقيات أوسلو (عام ١٩٩٢م) . بيد أن هزيمة حزب العمل أمام (الليكود) وصعود اليمين الإسرائيلي المتصلب بزعامه الأصولي أرئيل شارون ، فاقما من مخاطر المسألة . وكان هذا الإرهابي قبل وصوله إلى السلطة قد خرق «قداسة الحرم الأقصى» وتسبب في اندلاع الانتفاضة الثانية . وحين هزمت «الديمقراطية الإسرائيلية» حزب العمل وحملت شارون إلى السلطة ، وضع هذا الإرهابي نصب عينيه تصفية هذه الانتفاضة أولاً ، وكان سلاحه في ذلك التدمير والإرهاب والقتل بغير حدود . وحتى نهايات العام الأول من القرن الحادي والعشرين لم يفلح الغرب في كبح إرهاب الدولة العبرية وقياداتها الأصولية ، وتتجنب الولايات المتحدة الانخراط في دور فعال لفض النزاع وإعادة الفرقاء إلى مائدة المفاوضات . ثم ما لبثت أن انحازت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى جانب «الإرهاب الإسرائيلي» الذي قوبل مع ذلك بنقد شديد من (الغرب الأوروبي) ، وهو نقاد طال سياسة «الغرب الأمريكي» نفسه . وصاحب ذلك جو عام مشبع بدعوات «الصدام الحضاري» و«الحضارة البديلة» من جانب الراديكاليين الإسلاميين من جهة ومن جانب عدد من الليبراليين الأمريكيين الجدد من جانب آخر . واشتدت على نحو منقطع النظير دعوى «التفوق الحضاري الغربي» ، وأطلق سيلفيو برلوسكوني عبارته الصارخة : «لا يمكن وضع كل الحضارات في مستوى واحد . يجب أن نكون مدركين لتفوقنا ، لتفوق الحضارة الغربية» . وقبل ذلك بستين ، كان فرنسيس فوكوياما وصمويل هنتنجتون وعدد من الليبراليين الجدد قد أعلنوا عن انتصار «الليبرالية الديمقراطية» بصيغتها الاقتصادية الرأسمالية - الراديكالية ، صيغة

«اقتصاد السوق الحر» . وكان هؤلاء هم في حقيقة الأمر الفريق الثالث الذي رفع من وتيرة التناقض والصدام بين الحضارات ، وبخاصة الحضارة الغربية وحضارة الإسلام وحضارة الصين ، وشهر بالتنافر بينها ، وقرع ناقوس الخطر الإسلامي و«عودة الإسلام» على وجه الخصوص . والحقيقة هي أن المحرض الأول على الصدام كان مؤرخ الإسلاميات برنارد لويس الذي تكلم على ما أسماه بـ «الغضب الإسلامي» الذي يتلبس العالم الإسلامي ، وهو غضب يرى أنه موجه ضد كينونة الحضارة الغربية وقيمتها الأساسية وجوهرها بالذات ، وذلك بسبب الهزائم التي حلت بالعرب والمسلمين في العصر الحديث ، وعلى وجه التحديد بسبب تراجع «هبة السلطنة» فيهم The Roots of Muslim Rage, Atlantic Monthly, 1990 وفي كتابه «الغرب والشرق الأوسط» يذكر لويس صراحة أن الاستياء في الشرق الأوسط يعكس حالة «صدام بين حضارتين» . وفي «جذور الغضب الإسلامي» يؤكد أن العلاقة بين الغرب والإسلام محكومة بصراع حضاري وأن صراعاً حضارياً مبرراً مع الإسلام ينتظر الغرب ، يقول : «ليكن الآن واضحاً أننا بصدد سورة غضب وحركة أعلى بكثير من مستوى القضايا والسياسات والحكومات التي تتبناها . فليس هذا بأقل من صراع حضارات - صراع غير عقلاني ولكنه رد فعل تاريخي مؤكد لخصم قديم ضد الأثر اليهودي - المسيحي وضد حاضرتنا العلماني وضد الانتشار العالمي لكليهما معاً» . ورؤية برنارد لويس التحريضية هذه هي ، كما يرى محمد أركون بحق ، «رؤية إيديولوجية محضة تقيم تضاداً مانوياً بل شيطانياً بين الإسلام وبين الغرب ، فضلاً عن أنها تستند إلى تحليل يزيغ الوقائع ويصرف الأنظار عن كل القوى التاريخية والاجتماعية والاقتصادية الشغالة في كلتا الجهتين ، وهي قوى داخلية في الصراع المتواصل بين الإسلام وأوروبا والغرب منذ عام ١٤٩٢ ، بل وحتى قبل ذلك التاريخ ، (وهو صراع) حمي أكثر وزادت ضراوته بسبب الهيمنة الاستعمارية وحروب التحرير الوطنية والفوضى الاقتصادية والمصرفية السائدة اليوم ، والتي تؤدي إلى التحكم

باقتصاديات الدول الفقيرة والسيطرة عليها تماماً» (محمد أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، ط ١، ١٩٩٥م، ص ١٦٦).

تابع هنتنجتون برنارد لويس وبدا هو نجم (الصراع) والداعية الأبرز إلى التنبيه على مخاطر الإسلام وعلى سبيل الحفاظ على قوة الحضارة الغربية وعلى حتمية «كبح القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية للدول الإسلامية والصين» ، والحرص على «التفوق التكنولوجي والعسكري على الحضارات الأخرى» . وبالرغم من أن عدداً من الملاحظات التي يبديها هنتنجتون في شأن عالم الإسلام وأوضاعه وأحواله هي ملاحظات يمكن الإقرار بها ، إلا أن قدراً من التقارير يبدو مما يقضي إلى «التشهير أحياناً» و«التحريض» أحياناً أخرى . فهو مثلاً يسوق دون تمحيص ملاحظات جون ب . كيلى التي يرى فيها أن الطفرة النفطية جعلت بعض أهلها يصرون على «أن يظهروا احتقارهم للمسيحية وتفوق الإسلام عليها» ، وأن «تصرفات الدول الإسلامية الغنية بالنفط ، إذا وضعت في إطارها التاريخي والديني والعرقى لا تصل إلى أقل من محاولة واضحة وقوية لاختضاع الغرب المسيحي للشرق المسلم» (صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي ، ص ١٩٢ من الترجمة العربية) . وهو يقرر أن «الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك» . ويعزز بالإحصاءات الرقمية مشاركة المسلمين في القسم الأعظم من الصراعات الدموية في العالم داخل الإسلام وخارجه ، خلال التسعينات من القرن العشرين ليقول أن الميل الإسلامي إلى القتال والعنف من حقائق أواخر القرن العشرين التي لا يستطيع أن ينكرها المسلمون أو غير المسلمين ، (نفسه ، ص ٤٢) . وهذه الملاحظة سابقة بالطبع على حوادث نيويورك وواشنطن . وهو يقدم تفسيراً قوياً للصراعات داخل الإسلام وخارجه ، هو «غياب دولة مركز أو أكثر في الإسلام» فضلاً عن أسباب أخرى تتعلق بالانفجار السكاني والبطالة العالية لدى الشباب وعدم القابلية لهضم الأقليات غير الإسلامية . غير أنه يبرز ظاهرة المزج بين الدين والسياسة والتمييز في الإسلام بين (دار الإسلام) وبين (دار الحرب)

هو سبب من أسباب «العنف الإسلامي» . وقد يبدو من باب «التحريض» أيضاً أن يشكك هنتنجتون في أن المشكلة في الغرب وعند كلنتون نفسه ليست مع الإسلام وإنما مع الحركات الإسلامية المتطرفة . وقد كان هذا منذ أحداث سبتمبر هو ما حرص على تأكيده الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بليير والرئيس الفرنسي جاك شيراك وآخرون غيرهم من قادة الغرب .

ولم يفعل برلوسكوني ، برغم تنصله مما نسب إليه ، سوى ما سبق الترويج له من إعلان حتمية انتصار «الديمقراطية الليبرالية» بصيغتها الاقتصادية الرأسمالية المتطرفة ، صيغة اقتصاد السوق الحر . وهذه القضية مشهورة عن فوكوياما في شأن الظفر النهائي للديمقراطية الليبرالية وفي ملاحظاته حول دين الإسلام وأنه «لا يكاد يكون له جاذبية خارج المناطق التي كانت في الأصل إسلامية الحضارة» ، وأنه «قد يبدو بأن زمن المزيد من التوسع الحضاري الإسلامي قد ولى» . . و«إن كان بوسع الإسلام أن يكسب من جديد ولاء المرتدين عنه ، فهو لن يصادف هوى في قلوب شباب برلين أو طوكيو أو موسكو» . (نهاية التاريخ وخاتم البشر ، ص ٥٦ من الترجمة العربية) . ومع ذلك فقد أصاب فوكوياما الحق إذ نوّه ، في شأن تفسير ظاهرة الصحة الإسلامية المعاصرة بـ «قوة الخطر الملموس من جانب القيم الغربية الليبرالية على المجتمعات الإسلامية التقليدية» (ص ٥٧) ، و«عمق الجرح الذي أصاب كبرياء المجتمع الإسلامي بسبب فشله المزدوج في الحفاظ على تماسك المجتمع التقليدي والتمكن من تمثل تقنيات الغرب وقيمه» (ص ٢١٠) .

وليس من الدقة بمكان أن يعتقد بأن هنتنجتون قد «حرّض» على الصدام بين الحضارات وبخاصة حضارات الغرب والصين والإسلام ، لكن الدقة هي في القول إنه نبّه إلى مواطن احتمالات الصدام وإلى أن هذا الصدام غير مستحيل ، حتى لقد ذهب إلى تصور سيناريو شامل لحرب حضارية كونية وهمية . وخالص رأيه أن «مستقبل كل من

السلام والحضارة يعتمد على الفهم والتعاون بين القادة السياسيين والروحانيين والمفكرين في حضارات العالم الرئيسة (صدام الحضارات ، ص ٥٢٠ من الترجمة العربية) . وهو يعقب على قول بعض الغربيين - ومنهم الرئيس كليتون - «إن الغرب ليس بينه وبين الإسلام أية مشكلة وإنما المشكلات موجودة فقط مع بعض المتطرفين الإسلاميين» ، بالقول : «أربعة عشر قرناً من التاريخ تقول عكس ذلك» . «العلاقات بين الإسلام والمسيحيين سواء الأرثوذكسية أو الغربية كانت عاصفة غالباً» . ثم يضيف : «الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك . وقد قفل ذلك مرتين على الأقل» (نفسه ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩) . وهو يثبت حقيقة «الصراع بين الإسلام والغرب في أواخر القرن العشرين» ويشير إلى دواعيه (ص ٣٤٢) ، كما يستحضر نصاً لبرنارد لويس مستقي من (جذور الغضب الإسلامي) يؤكد فيه أننا أمام «صدام حضارات» هو «رد فعل تاريخي لتنافس قديم ضد تراثنا اليهودي والمسيحي وحاضرنا العلماني» . ويعزز هذا الاتجاه بأقوال قوميين وليبراليين عرب ومسلمين من أمثال الكاتب الصحفي محمد سيد أحمد الذي يتكلم على «علامات لا تخطئها العين على صدام يتنامى بين الفكر اليهودي المسيحي الغربي وحركة الإحياء الإسلامي والذي يمتد الآن من الأطلنطي إلى الصين شرقاً ، أو كاتب هندي يتنبأ بأن «المواجهة القادمة للغرب ستأتي تحديداً من العالم الإسلامي . . مع زحف الدول الإسلامية من المغرب إلى باكستان سيبدأ صراع من أجل نظام عالمي جديد» ، أو محام تونسي يرى أن هناك صراعاً حقيقياً وأن هذا الصراع ليس صراع بين الأديان وإنما هو صراع بين الحضارات ، أو فاطمة المرينسي نفسها . . «المسلمة التقدمية الليبرالية» التي تحمل في كتابها «الإسلام والديمقراطية» حملة شعواء على ممارسات الغرب السياسية والإعلامية والتكنولوجية والعسكرية وتدعو إلى التحرر من الغرب وبناء الذات) . ، أو راشد الغنوشي الذي يباعد بين النظرتين الإسلامية والغربية . ولا يغفل هتنتجتون عن التنويه بهواجس الخوف والاستياء والكراهية في

الغرب ، وأن حالة «شبه حرب» حضارية بين الإسلام وبين الغرب قائمة فعلاً منذ الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩ م . ويخلص من هذا التقابل إلى القول إن «المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام : فهو حضارة مختلفة ، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته وهاجسه ضالة قوته» ، وإن «المشكلة المهمة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات المركزية الأمريكية ولا وزارة الدفاع ، المشكلة هي الغرب : حضارة مختلفة شعبها مقتنع بعالمية ثقافته ويعتقد أن قوته المتفوقة إذا كانت متدهورة فإنها تفرض عليه التزاماً بنشر هذه الثقافة في العالم» . وفي اعتقاده أن «هذه هي المكونات الأساسية التي تغذي الصراع بين الإسلام والغرب» (ص ٣٥٢) . ومع أن الذي توهم به تحليلات هنتنغتون رصد الظاهرة ووصفها . إلا أن من الواضح أن يمكن توظيف هذا الرصد لغايات «تحريضية» ، لكن مذهبه في المسألة يباين مع ذلك مذهب برلسكوني الذي استخدم لغة استفزازية عدائية ، ولا يمكن مقارنته أبداً بما ورد على لسان الأسقف النمساوي الكاثوليكي كورت كرين الذي خرج على توجيهات الحبر الأعظم وصرح في مقابلة نشرتها مجلة (فومات) بتاريخ الأول من أكتوبر من هذا العام بأن الإسلام يقوم على أساس «نوع معين من التعصب والقومية» وأنه «يتعارض مع حقوق الإنسان» وأنه دين سياسي ، يتعين أن ينظر إليه بما هو «مسألة سياسية» لا بما هو دين ، وأنه «ليس هناك ما يدعو إلى أن تتجنب المسيحية الدخول في خلاف مع الإسلام» . وقد ذهب هذا الأسقف إلى مدى أبعد إذ أضاف قائلاً إنه «ليس من الخير أن نقول أن هناك عدداً قليلاً من المتعصبين فقط وأن القرآن ككل لا يمكن لومه ، يجب أن يتم إثبات ذلك أولاً» . ومثل هذه التصريحات لا تجعل الإسلام مذهباً سياسياً وتجرده من طبيعته الدينية فحسب ، وإنما هي تحرض على إثارة الشقاق والصدام بينه وبين المسيحية ، وتجعل القرآن نفسه سبباً «ممكناً» من أسباب الشقاق والعنف . وهذا هو على وجه التحديد ما حرص الحبر الأعظم على أن ينزه عنه دين الإسلام بما هو دين محبة وخير وسلام .

(٦)

يبين تمامًا أن المشهد الذي يشخص أماننا لا يوحى بالطمأنينة . ويعاظم من مخاطره حوادث الحادي عشر من سبتمبر . لاشك في أن المواقف السياسية الرسمية المعلنة للدول الغربية الكبرى يمكن أن تساعد على تسديد المسار الدرامي للأمر ، إذ حرص على أن تنأى بالإسلام نفسه عن أن يكون باعًا على الإرهاب ، وعلى أن تعلن أنه دين سلام ومحبة ، وأن جريمة «الإرهاب» تقع على عاتق الحركات الإسلامية الراديكالية المتطرفة ، غير أن ذلك لا يكفي ، على المدى المنظور وال المدى البعيد لرد الأمور إلى حدود العدل ولتبيد المخاوف والهواجس لدى المسلمين في بلادهم وفي بلاد الغرب نفسها ، ولو أددعوى «الصدام الحضاري» أو «الديني» أو «السياسي» بين الحضارة الغربية وبين عالم الإسلام بأجنحته العربية وغير العربية .

لقد حدث صدع جديد ، ونمت بذور الكراهية والنفور بكل تأكيد . واضطربت صورة الإسلام في الغرب بكل تأكيد . وكان هذي الاضطراب أكثر عمقًا في (الغرب الأمريكي) حيث أسهمت أجهزة الإعلام الشرسة المسكونة بقوى الأصولية الصهيونية تعزيز هذا الوضع والتنويه به ليل نهار . أي طريق نتبع من أجل الخروج من جو «الحرب الباردة» الجديدة هذه ومن جو الصدام والحرب بإطلاق؟ يقول الراديكاليون الإسلاميون إن الحل يكمن في تصعيد جو الحرب وفي «الجهاد» . ويقول أضرابهم من الغربيين من الأصوليين الأيديولوجيين إنه المحاصرة والكبح والحرب . ومنذ عدة عقود يرى مفكرون القوميون والإسلاميون المعتدلون أن الخروج من الأزمة التاريخية لن يتم إلا بواسطة «الحوار» . وأنفذت «حوارات» كثيرة عربية -أوروبية ، وإسلامية -مسيحية . لكنها لم تجد ولم تفرض إلى أية نتيجة ، أو أنها على الأقل لم تنته إلى أية نتائج ملموسة . ومع ذلك فإنه -برغم غموض مفهوم «الحوار» وتعذر تبين وجوه الإنفاذ العملية له - لا ينبغي هجره على نحو قاطع إذ إنه يظل ذا فائدة حقيقية في الحفاظ على علاقة «التواصل» مع

«الأغيار». لكن ينبغي قبل إنفاذ الحوار مع الأغيار ، إنفاذ حوار مع «الداخل» ، حوار مع الذات ، بمعنى أن تتم «مراجعة» أحوال الفعل لدينا والإقرار بالتجاوزات وبالأخطاء وبالتعميمات الخطيرة ، تصفية للذات وتنقية لها من شوائب الفعل وآثارها المدمرة . وأخطر من ذلك كله يتحتم مواجهة مفهوم «السلطة» في عالم الإسلام ، وأقصد «السلطة الاجتهادية» والسلطة السياسية . لقد أصاب هتنتجتون إذ رد أحد أسباب الصراع بين عالم الغرب وبين عالم الإسلام إلى غياب «دولة - مركز ، أو أكثر في الإسلام» تكون قادرة على فرض «صورة» وأوضاع وسياسات نافذة . والحقيقة هي أن السمة «التعددية» الحرة لأصل «الاجتهاد» جملة تثير الإعجاب ، لكنها يمكن أيضاً أن تفضي إلى أوضاع لا تطاق ، لا بل إنها يمكن في أحوال معقدة أن تفضي إلى الكوارث . أليس من المحرج أن يظن أن ما يجري في داخل عالم الإسلام وخارجه من أحداث دموية اليوم ومنذ ثلاثة عقود على الأقل ، إنما يرجع إلى إطلاق الحرية في «تعدد الاجتهادات» وتضاربها ، وإلى غياب «سلطة» أو «دولة» أو «مجتمع» أو «عصبة» ترد الأمور إلى نصابها؟ المسألة خطيرة وتتطلب المراجعة والنظر .

ثمة مشكلة حقيقية الآن قائمة ، ثمة «علاقات غير آمنة» تتشكل بين عالم الغرب وبين عالم العرب والإسلام . قد تكون المشكلة فعلاً مشكلة بين الغرب وبين الحركات الإسلامية الراديكالية ، وأن الإسلام والمسلمين على وجه الإجمال والعموم ليسوا طرفاً حقيقياً في الصراع ، لكن من المؤكد أن الطابع «المختلط» و«الملتبس» الذي يكتنف حدود العلاقة بين «الإسلام - الأصل» وبين «الإسلام الآخر» ، يجعل المسألة في غاية التعقيد والدقة . ودفعاً لأية مجابهة راديكالية ممتدة بين الغرب وبين الإسلام ، ونشداناً لـ «مصالحة تاريخية تواصلية» تتوخى «التفاهم والتعاون والسلم العالمي» فإن كلا الطرفين مدعو لاتخاذ إجراءات أساسية للخروج من حالة المجابهة وفض «حالة الصدام» .

أما الطرف الأول - عالم الإسلام - وتمثله الدول والمؤسسات والمنظمات وقوى المجتمع المدني وقادة الفكر ، فيتحتّم عليه الشروع الفوري في إنفاذ الاستراتيجيات والسياسات النوعية الآتية :

- ١ . إعداد وإنفاذ حملة «تنوير» في الفضاءات الغربية على وجه الخصوص . وليس المقصود إجراء «حوار» على الطريقة التقليدية ، إذ الحوار يستند إلى وضع أطروحتين مترافعتين والنقاش حولهما للوصول إلى أطروحة ثالثة توفيقية . والحال أن واقع الأمور الآن يفصح عن حقيقة كبرى هي أن الوعي الغربي قد بات مسكوناً بصورة عن الإسلام وحضارته بعض جوانبها حق وبعضها الآخر زائف . والمقصود المطلوب هو «توضيح الحقائق» و «تصفية الصورة» ورد الأمور إلى نصابها . وهذا الجهد شاق وطويل ممتد . وهو يتعلق بالدرجة الأولى بتقديم صورة إيجابية للمخيال الجمعي الغربي ، ويتأكد حقيقة أساسية هي أن الإسلام بما هو دين وعقيدة وطريقة حياة شيء ، وما تدعو إليه «الحركات الإسلامية السياسية» شيء آخر ، وأن الإسلام دين سلام ومحبة لا دين إكراه وقسر وعنف .
- ٢ . أن تتصدى الدول العربية والإسلامية ومؤسساتها لمعالجة الأسباب الحقيقية التي أدت وتؤدي إلى انتشار واستشراء العنف والصدام داخل هذه الدول وخارجها ، وأن تتخذ إجراءات تنفيذية فعلية من أجل تطوير نظمها السياسية والاجتماعية والتنمية للاستجابة لحاجات المواطنين بكافة أعمارهم وبخاصة الشباب منهم ، وحل مشكلاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وأن يقرن ذلك باتخاذ الإجراءات العملية الكفيلة بوضع حد لكل أشكال العنف والإرهاب من جميع المصادر .

- ٣ . أن تسعى الدول الإسلامية مجتمعة إلى إنشاء (مجمع إسلامي عالمي) يحظى بالتقدير والمكانة والحجبة ويفوض إليه أمر الاجتهاد في القضايا الكبرى التي

تتطلب اجتهاداً دينياً أو شرعياً متوافقاً مع روح الأزمنة المتجددة ومع أصل «المصلحة العامة» لجملة عالم الإسلام .

٤ . أن تتدخل الدول العربية والإسلامية تدخلاً مباشراً شاملاً ضاغطاً من أجل الوصول إلى حل علمي عادل للمسألة الفلسطينية وللصراع العربي الإسرائيلي .

٥ . أن تستند استراتيجية العلاقات مع الحضارة الغربية والدول الغربية إلى «ثقافة التفاهم والتعاون والتواصل والسلم» . وهذا يقتضي الكف عن استحضار المواد المحتقنة في تلافيف «الذاكرة التاريخية» أو المعاني والأقوال والصيغ المثيرة للاستفزاز والكراهية والعداء . ويتعلق بذلك التنكب تنكباً نهائياً عن التعريض بالنصرانية والنصارى ، أو المسيحية والمسيحيين ، أو التحريض على المعتقدات الدينية للآخرين أو التنكب عن النقد العلمي لقيم الحضارة الغربية والتعلق بالتنديد والشجب فحسب ، بدلاً من التوجه إلى إبراز وجوه الاتفاق والمعاني والقيم المشتركة التي توحد وتقرب ولا تنفر وتبعد وتولد الأحقاد والضغائن . وقد يكون من الضروري التوجه إلى العمل على تشكيل تضامن إسلامي - مسيحي يسهم في تجذير هذه «الثقافة» وإشاعتها .

٦ . أن يراجع المسلمون بالنظر العملي والموضوعي جملة القضايا المتعلقة بالإسلام وحضارته وتاريخه ، وأن تتم المراجعة بروح نقدية إيجابية .

٧ . أن يباشر العرب والمسلمون إلى حل المشكلات السياسية المتنازع عليها حلاً نهائياً . وأن يتوخوا في هذه الحلول السمة العملية وخيرهم العام .

٨ . أن يراقب المسلمون أنماط سلوكهم الاجتماعي والأخلاقي والإنساني ويتنكب «البائسون» منهم عن كل أشكال السلوك والفعل المشينة التي تنتشر في حياتهم اليومية وفي علاقاتهم مع أنفسهم في حدود بلادهم ، وفي سلوكهم ومنشطهم حين يتحركون في فضاءات الحضارة الغربية وأهلها .

- ٩ . أن تتم الدعوة إلى بناء حضارة إنسانية شاملة تسهم فيها الحضارات المختلفة على قدم المساواة وبقدر ما تستطيع كل حضارة منها تقديمه والإسهام فيه .
 - ١٠ . التنكب عن إطلاق الشعارات الصدامية التي تعلن عن أفضلية أو سمو أو تفوق حضارة على أخرى ، واحترام الثقافات الأخرى بما هي «ثقافات» إنسانية لها أحكامها الذاتية وقيمتها الخاصة عند أبنائها ، وبما هي موضوع لأحكام لا يمكن إلا أن تكون ، في ملة الفضاءات الكونية ، «نسبية» لا يملك أي منها حكم الإطلاق . وتستوي هنا دلالة كل دعاوى التفوق . والمقصود هو التنكب عن كلتا الدعوتين : دعوى التفوق الحضاري ، ودعوى التفوق الأخلاقي .
 - ١١ . أن يتم التوجه إلى الإعلاء من القيم الإنسانية العليا المشتركة بين حضارتي الإسلام والغرب .
 - ١٢ . تزويد أئمة المساجد المسلمين والوعاظ والدعاة وطلبة المعاهد والكرليات الشرعية بمفهوم إنساني منفتح للإسلام وثقافة عصرية مستنيرة تساعدهم على وعي العصر والتطورات الكونية وعياً موضوعياً تاماً .
 - ١٣ . تبني وإشاعة وبث صورة إنسانية رحيمة للإسلام تنأى به عن المناطق الصدامية التي تكمن فيها نصوص دينية قابلة للتأويل «الصدامي» وحمالة للوجوه التي من شأنها تشكيل صورة : «عداونية» أو «استفزازية» مدمرة للنص الديني الأصلي .
- أما الطرف الثاني -العالم الحضاري الغربي- وتمثله الدول والمؤسسات والمنظمات والكنائس المسيحية وقوى المجتمع المدني وقادة الفكر ووسائل الإعلام ، فمن الضروري أن تقصد جهود التنوير إلى أن تنقل إليه أهمية الحرص على القضايا الجوهرية التالية :
- ١ . دراسة الأسباب والدواعي الحقيقية التي تبعث على تنامي الشعور المضاد للغرب والحضارة الغربية في المناطق العربية والإسلامية .

- ٢ . أهمية التمييز القاطع بين الإسلام الحضاري وبين الحركات الإسلامية الراديكالية ، والتتكب عن الاعتقاد بأن الإسلام نفسه هو المحرض الأيديولوجي لهذه الحركات ، وقبول التحليل المشخص الذي أكدته البحوث الميدانية بأن التطرف والإرهاب اللذين نجما في العالم الإسلامي في العقود الأخيرة من القرن العشرين إنما يرجعان إلى شروط تاريخية وموضوعية معاصرة لا إلى «النصوص الدينية» نفسها .
 - ٣ . بذل الجهود الفعالة من أجل تدخل حقيقي لحل المشكلات الكبرى المعقدة المزمنة التي تشكو منها المناطق التي يتولد فيها العنف ويتنامى . وفي مقدمة هذه المشكلات الصراع العربي الإسرائيلي والمسألة الفلسطينية .
 - ٤ . تكثيف اللقاءات الإسلامية المسيحية لدراسة المسائل التي تهم الطرفين من أجل تشكيل مفاهيم مشتركة حولها وتحرير النفوس والعقول من وطأة الصراع الإسلامي المسيحي التاريخي المزمنة .
 - ٥ . بذل الوسع من أجل تطهير الذاكرة التاريخية الغربية مما علق بها من وجوه الصراع والعداء والكراهية ، وتوجيه الوعي إلى ضرورة نبذ ثقافة الكراهية ، وإلى أهمية إشاعة «ثقافة التفاهم والتعاون والتواصل والسلام» وبناء علاقات سياسية واقتصادية وإنسانية محررة من أوهام «المؤامرة» والغطرسة والتفوق والهيمنة .
 - ٦ . كبح النزعات الحضارية الشوفينية التي تبشر بهزيمة الحضارات والثقافات المبانية للحضارة الغربية والإقرار بالقيمة الذاتية لهذه الحضارات وفق مبدأ «النسبية» الحضارية والثقافية ، واعتبار هذه الحضارات والثقافات «مكملة» للحضارة الغربية لا حضارة بديلة لها .
 - ٧ . مساعدة الحضارات الضعيفة على تجاوز مشكلاتها النوعية بقدر ما يسمح بذلك التقدم العلمي والاقتصادي والتكنولوجي في الحضارة الغربية .
- إن مثل هذه الإجراءات من جانب كلا الطرفين ، إذا ما تم إنفاذها بنزاهة وصدق ، سيمثل «حرباً» حقيقية فاعلة في وجه كل أشكال العنف والكراهية ، وسيكون هو البديل

الإنساني الخير لنوازع الصدام والصراع والعداء ، مثلما أنه سيمثل «البديل المطلق»
لحرب «البدائل» . مطلب جوهري يتقدم على كل المطالب الأخرى . وإنفاذ هذا المطلب
لا يجري من باب غطرسة القوة واستعلاء الغلبة وإنما من باب الفهم والإدراك والتعاطف
الإنساني .

الحوار الحضاري في المشرق العربي في زمن الإمبراطوريات القديمة

د . نقولا زيادة (*)

المستخلص

منطقة المشرق العربي المقصودة في هذا البحث تشمل أرض الرافدين وبلاد الشام

ومصر .

أولاً : مجمل تاريخ المنطقة :

١ . إلى فتح الإسكندر :

أ- قامت الحضارة الزراعية في أرض الرافدين منذ الألف السابع ق . م وفي الألف الخامس ق . م نشأت المدن في سومر (جنوب أرض الرافدين) وكانت كل منها دولة مستقلة . وهذه توسعت وازداد عددها في الألف التالي . وكانت أهمها نيبور ولاغاش وإسين ولارسد وأورك . والشعب السومري هو الذي اخترع الكتابة المسمارية حوالي ٣٢٠٠ ق . م

كانت ثمة محاولات لوضع البلاد تحت نفوذ دولة واحدة . وقد تم ذلك لملك

لاغاش فأسس أسرة ملكية سومرية في أواخر الألف الثالث ق . م .

(*) أستاذ شرف في التاريخ بالجامعة الأمريكية وعضو شرف جمعية المستشرقين الألمان ، حصل على الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة لندن ، مشرف على رسائل الدكتوراه في التاريخ في جامعة القديس يوسف في بيروت ، عضو عدد من الجمعيات العلمية .

وفي القرن الثالث والعشرين ق. م. احتل سرجون الأكدي السامي سومر وأقام إمبراطورية دامت نحو قرن ونصف القرن. نشر الأكاديون لغتهم السامية وكتبوها بالكتابة المسمارية منذ حوالي ٢١٦٠ ق. م إلى ٣٣٠ ق. م. حكم المنطقة ملوك أور السومرية ثانية والبابليون (وكان أكبر ملوكهم حمورابي) ثم الآشوريون ثم الكلدانيون ثم الفرس الذي استمر حكمهم حتى فتوح الإسكندر سنة ٣٣٠ ق. م.

ب- في فجر التاريخ كانت مصر قد قامت فيها مدن ، لكن هذه أصبحت أربع أو خمس ولايات رئيسة ، ثم انتقلت إلى دولة شمالية وأخرى جنوبية وأخيراً تم توحيد المملكتين ٣٠٥٠ ق. م وكان أهم إنجاز حضاري بعد الزراعة وقيام المدن هو اختراع الكتابة (الهيروغليفية) وتاريخ مصر مقسم إلى فترات ثلاث تسمى المملكة القديمة ٣٠٥٠ ق. م إلى ٢١٦٠ ق. م والوسطى ٢١٦٠ ق. م إلى ١٧٨٥ ق. م ، وفيها تعرضت مصر لحكم أجنبي علي يد الهكسوس ثم جاءت المملكة الحديثة ١٧٨٥ ق. م إلى ١٠٧٠ ق. م التي أخرج ملوكها الهكسوس واحتلوا بلاد الشام فكانت لهم إمبراطورية واسعة استمرت حتى نحو ١٢٠٠ ق. م ولو أنها أخذت بالتأخر منذ أواسط القرن الثالث عشر ق. م.

بعد هذا تدهورت شؤون مصر السياسية فحكمها النوبيون والليبيون والآشوريون والكلدانيون والفرس. وقد استمر حكم هؤلاء حتى فتوح الإسكندر سنة ٣٣٢ ق. م.

ج- بلاد الشام مرت في العصور المبكرة بالذي مرت به أرض الرافدين ومصر أصلاً. ولكن في الألف الثالث ق. م تظهر في الميدان السياسي ممالك - مدن منها أريحا وحازور وحازر وصور وصيدا وماري وإبلا وأوغاريت ومدن مؤاب وسواها وكان الطابع الأساسي للحياة السياسية في بلاد الشام ممالك - مدن ، وقد تتوسع الواحدة على حساب المدن الأخرى. لكن بلاد الشام تعرضت لاحتلال الملك سرجون الأكدي وحمورابي البابلي وملوك آشور والكلدانيين، وذلك في فترات متقطعة بين القرن الحادي والعشرين والقرن السادس قبل الميلاد. وأخيراً وقعت البلاد تحت الحكم الفارسي سنة ٥٣٩ ق. م، وظلت على ذلك حتى سنة ٣٣٣ ق. م لما احتلها الإسكندر.

د - كان لاحتلال الإسكندر للمنطقة دلالة تاريخية مهمة بالنسبة للحوار الحضاري فكل الدول التي قامت قبل ذلك جاءت من المنطقة بقطع النظر عن أصولها الأثنية . وما كان بين حضاراتها من حوار فقد تم بين العناصر المختلفة وبلغت هي في النهاية سامية الجزر .

لكن مجيء الإسكندر كان معناه بدء حكم أجنبي - يوناني من الإسكندر إلى مجيء الرومان في القرن الأول قبل الميلاد ولغته اليونانية ، وروماني منذ ذلك الحين حتي الفتح الإسلامية (وقد سمي بيزنطيا بدءاً من القرن الرابع الميلادي) وكانت لغة الحكم والإدارة لاتينية لكن لغة الفكر ظلت يونانية . هذا مع العلم أن اللغة الآرامية كانت ذات سيطرة في أرض الرافدين وبلاد الشام منذ القرن الخامس عشر وكانت تستعمل لغة رسمية في أيام الفرس .

ثانياً: الحوار الحضاري

الحوار الحضاري في المشرق العربي في أيام الإمبراطوريات القديمة

حوار الحضارات قبل الإسكندر

(١)

الحضارة، كما أراها، تشمل جميع شؤون البشر: المادية ومنها شؤون المعاش بجميع مقتضياته من عمل في الأرض أو في المصنع لإنتاج ما يحتاجه المرء في حياته؛ والمعنوية أي الروحية والفكرية، أدبا وشعرا وفلسفة؛ والاجتماعية تنظيما وعلاقات شخصية ومؤسسات تعنى بخير الإنسان وتعليمه؛ والسياسية حكما ونظاما ودفاعا؛ والاقتصاد توزيعا وسوقا وتجارة.

وقد عرفت أرض الرافدين وبلاد الشام ومصر هذا كله. ولكن على النحو الذي اقتضته أحوالها ووضعها في تلك الأزمنة السحيقة.

ونحن عندما نتحدث عن حوار الحضارات في هذه الأيام لدينا من الوسائل والسبل ما لم يكن متيسرا لأهل الحضارات القديمة. فالصحافة والكتب والتلفاز أتاحت لنا وسائل فنية سريعة التناول والتبادل والحوار حول هذه الشؤون جمعاء. أما تلك الشعوب والأقوام فكان مجال الاتصال والتحاور فيما بينهم محدودا. ويمكن إجمال ذلك بالتقليد بسبب الجوار والعيش المشترك، والتجارة. إذ إن التاجر الذي كان يحتاج أياما، وأحيانا أسابيع وشهورا، كي يحمل سلعه من مكان إلى آخر وكى يتمكن من بيعها تبادلا ومقايضة، كان ينقل ما عند جماعته من قصص وحكايات وأدب وشعر (في بعض الحالات) مع سلعه ويتحدث عنها عندما يسمر مع تجار آخرين أو في الأسواق. وكانت

الحرب والانتصار فيها أو الانكسار كثيرا ما يؤدي إلى نوع من تقليد الفريق الواحد للفريق الآخر .

وفي هذه الحالات جميعا، وبسبب التجاور، فإن الأمور الأكثر جاذبية كانت هي المتغلبة على الأقل منها، خاصة فيما يتعلق بالعواطف البشرية الرفيعة أو بما يحيي الآمال أو ما يمكن الناس من اتقاء الشرور والمآسي . والأقوى قد يفرض أحيانا ما عنده على الأضعف . ولكن قد يؤدي الأمر إلى عكس ذلك . وقد تكون نتيجة حرب واحدة وانتصار كبير الأمرين معا . فلما احتل الأكديون بلاد سومر وأخضعوها لسلطانهم بعض الوقت ، تعلم المنتصرون الكتابة السومرية وانتشرت لغة الأكديين السامية في بلاد سومر . كما أن المنتصرين أخذوا بأساليب اللباس السومري ، على الأقل عند الملوك ومن حولهم ، كما يتضح ذلك من التماثيل التي عثر عليها في تلك الديار .

ولعل أول ما يلفتنا هو انتشار الأساطير السومرية أصلا في بلاد الشام شفويا أصلا ، ثم عن طريق النص المدون اعتبارا من حلول القرن السابع عشر قبل الميلاد، لما دونت هذه الأساطير بالكتابة المسمارية واللغة السامية على أجرات عثر على المئات منها مؤخرا في الأماكن التي تم الكشف عنها وخاصة في المكتبة الملكية الآشورية . ولم يقتصر انتشارها على بلاد الشام بل تعدت ذلك ، فيما بعد إلى اليونان . ويرى بعض دارسي هومر ، الشاعر اليوناني ، أنه قد تأثر ببعضها في الإلياذة .

والأسطورة البابلية (كما سميت بسبب تدوينها في أيام الدولة البابلية الأولى (١٨٩٤-١٥٩٥ ق.م.) لم تكن مجرد حكاية للتسلية ، بل إنها كانت تعبر عن إلهيات تلك الأيام وأشواق الإنسان نحو الارتفاع ورغبته في الحصول على الحياة الأبدية وخوفه من غضب الآلهة فيما إذا صنع الشرفي عنها . ولنتمثل على ذلك بالنماذج الآتية :

١ . أسطورة الخلق ، التي أوردنا بعض تفاصيلها في مفتتح هذا الحديث . إن الإنسان ، في تأليفه هذه الأسطورة ، الأمر الذي لعله احتاج إلى وقت طويل حتى وصلت

إلينا على ما انتهت إليه، أراد أن يحلّ لغز وجود هذا الكون ووجوده فيه. فاعتبر أن الأمر حدث بسبب قوة قادرة على ابتداع الأشياء، ومع أن تطلعاته كانت كبيرة، فإن أفقه كان محدوداً إلى درجة كبيرة. فتصور أن آلهة متعددة، لا إلهاً واحداً، هي التي فعلت هذا كله. وقد انتشرت هذه الأسطورة، أسطورة الخليفة، في المنطقة جمعاء وكان أن ظهرت في أسفار التوراة (من الكتاب المقدس). إلا أنها هنا تقول إن صانع هذا كله هو إله واحد. اكن التفاصيل تكاد تكون واحدة. ولولا أننا نخشى الإطالة (وقد طال بنا الحديث كثيراً حتى الآن) لكننا نقلنا عبارات من المصدرين ليطلع القارئ بنفسه على مدى التشابه بين النصين.

٢. وثمة أسطورتان أخريان هما أسطورة أديا وأسطورة برج بابل. وهاتان تمثلان شوق الإنسان إلى الارتفاع نحو السموات العلى. فالأول سلّح نفسه بما يعينه على الارتفاع لكنه سقط لأنه لا يجوز لإنسان أن يصل إلى مكان الآلهة. أما أسطورة برج بابل فالأصل الأول فيها كان محاولة لتكريم الآلهة ببناء «زقورة» لا مثيل لها لتكريم إله المدينة، أي مدينة التي كانت يومها الأغنى والأقوى. لكن لما وصلت إلى التوراة كانت قد تبدلت طبيعتها فأصبحت تقول إن البشر أرادوا أن يبنوا برجاً للوصول إلى الإله ومقارعة. لذلك بَلَّلَ الإله ألسنتهم - أي نوعها بحيث لا يفهم الواحد كلام الآخر - فلم يستطيعوا إتمام العمل أي أنه فشَلهم. لكن اسم بابل - المدينة والبرج - مشتقة من كلمتي باب وإيل، وإيل معناها إله. وبرج بابل سَمِيَ باسم المدينة. والذي عليه الباحثون أن كلمة بابل لا علاقة لها بكلمة «بَلَّل» الواردة في التوراة، وهذا القول تحريف للاسم الأصلي.

٣. وأسطورة الطوفان (التي ترد في ملحمة غلغامش) هي تفسير القوم للعقاب الذي يستحقه أولئك المخالفون لأصول تكريم الآلهة وعبادتها. عقابهم أن تغطي مياه المطر الغزير على بلادهم فتقضي عليهم. لكن لأنه يوجد بين الأشرار الكثير بعض الصالحاء،

فإنه يجب إنقاذهم. وتختلف وسائل الإنقاذ باختلاف الرواية. وهذه الأسطورة وصلت أيضاً إلى «التوراة»، ودونت فيها على نحو يناسب الذين دونوها، فسموها طوفان نوح. ونشر هنا إلى أن تدوين أسفار التوراة بدأ في القرن العاشر قبل الميلاد، لكن النص النهائي الذي بين أيدينا لم يتخذ شكله المعروف إلا بعد نحو عشرة قرون.

٤. وملحمة غلغامش التي لعلها من أمتع ما وصلنا من أساطير أرض الرافدين، تروي حكاية ملك أوروك الذي رغب في الحصول على الحياة الأبدية. وبعد مجازفات في اجتياز طرق مخيفة ومزعجة والمرور بصعوبات كبيرة، وصل إلى «عشبة الحياة الأبدية» وتملكها. لكن وهو في طريق عودته إلى مدينته طلب الراحة، وأغفى، فخرجت حية سرقت منه «عشبة الحياة الأبدية». فعاد صفر اليدين. هذه الأسطورة الملحمة، مثل حكاية «أدبا» تقول للإنسان إن الحياة الأبدية لن تعطى له.

والمهم أن هذه الأساطير كان لانتشارها الواسع أثر كبير في تطوير أساطير أخرى نشأت في المنطقة مثل قصة عشتار وتموز عند الفينيقيين وسواها مما عرف في أوغاريت (راس الشمرا-شمال اللاذقية). وكان الجو الطبيعي الذي تنشر فيه الأسطورة وتتطور يؤثر في تركيبها وصيغتها. فالأسطورة البابلية نشأت في سهول يخترقها نهرا دجلة والفرات وتفرعات لهما وأنهار أصغر تصب فيهما، أما ديار الانتشار فتختلف بين آسيا الصغرى الجبلية وبلاد الشام الجبلية والسهلية والساحلية التي يحاذيها «البحر الكبير» في عرف الأساطير الآتية من الشرق.

وكما وزعت أرض الرافدين أساطيرها وقصصها تقبلت من جيرانها في الشرق والشمال بعض ما عندهم. ولعل هذه أثرت في الأسطورة الأصلية، فاختلف طعمها تبعاً لذلك كما تبدلت صياغتها. هذا واضح في نسخ الآجرات المختلفة لبعض هذه الأساطير في أجزاء منها. وأقدم مثلاً واحداً لذلك جاء في ملحمة غلغامش. فيها ذكر لغابة الأرز. فاية غابة أرز هي المقصودة. هل هي التي في جبال لبنان الشمالية أم تلك التي في جبال زَعْرُوس الإيرانية؟

(٢)

بدءاً من مدينة نيبور، مدينة إليل التي خُلِقَ فيها الإنسان أول ما خلق، والمدينة ذات البهاء والزقورات الفخمة، والتي عرفت سرجون الأكدي فاتحاً لها محترماً إياها (سنة ٢٣١٠ ق.م.)، وبذلك تمكنت من السير قدماً في توجهها العلمي. فقد نبش علماء الآثار الأميركيون في القرن التاسع عشر حوالي أربعين ألف رقيم تحتوي في مجملها لوائح بأسماء الآلهة والملوك وبالأمثال والدين والطب والقوانين والأدب، ولكن ثمة بينها ما يختص بعلوم الفلك والرياضيات والفيزياء.

وعين هؤلاء العلماء دورية الكواكب وتعاقب أطوار القمر ودوران الشمس والدورات الزراعية. والتقويم الذي استنبطه هؤلاء القوم ظل مستعملاً قرابة ألف وتسعمائة عام أي حتى عصر الإسكندر.

والكثير مما عرفه علماء نيبور انتشر في المنطقة غرباً، وأصبح أساس ما تكشف لسواهم فيما بعد، وخاصة التقويم القمري.

(٣)

حكم حمورابي بين سنتي (١٧٩٢ و ١٧٥٠ ق.م.) والرجل فضلاً عن مقدرته الإدارية وعنايته بالعمران والحياة الاقتصادية هو الذي وضع أقدم قانون متكامل ونقشه على مسلة أسطوانية جميلة، وأمر بنحت نماذج متعددة منها نصبها في أنحاء مملكته. ولعل المسلة الموجودة في متحف اللوفر (باريس) هي المسلة الأصلية.

كان قانون حمورابي يمثل أعرافاً ومراسيم سابقة وقوانين جزئية سنّها ملوك سبقوه، وقد نقشوها على لويحات من الصلصال في أور وفي نيبور. لكن قانون حمورابي كان

الأوفى وكان الكثير منه نتيجة عمل الملك نفسه ، ونتيجة للإصلاحات التي أدخلها في المملكة . والقانون بحد ذاته يرسم صورة عن المجتمع البابلي .

ولسنا ننوي أن نفصل ! لكننا نشير إلى أن العقوبات التي نص عليها القانون روعي فيها جرما وعقبا ، الوضع الاجتماعي للجاني والمجني عليه ، إذ كان المجتمع يتكون من طبقات ثلاث هي : الناس الأحرار وهم المواطنون الذين يتمتعون بالحقوق كاملة ؛ والتابعون الذين ينالون بعض الحقوق لقاء ما يقدمون للدولة من خدمات ؛ والعبيد الذين كانوا أسفل السلم الاجتماعي . وتظهر في هذا القانون أمور خاصة مرتبطة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية . فهو يميل نحو إفادة التجار . وقد فرض عقوبات قاسية للاغتصاب ونظم الزواج وحمل البناء مسؤولية تهديم البيت غير المدعم . وهكذا دواليك .

وكثر ما أفادت الجماعات المجاورة والتابعة زمنا من هذا القانون . وهو أيضا وجد طريقه إلى التوراة . وفيها ذكر أنه هبة من يهوه (الإله الأعظم) .

(٤)

وهنا نأتي إلى واحد من أهم ما أنتجته أرض الرافدين وانتشر في المنطقة التي نتحدث عنها باستثناء مصر- والمقصود الكتابة المسمارية الاختراع الأكبر أثرا . فهذه الكتابة قبلها الأكديون وكتبوا بها لغتهم وكتب بها لغات أخرى في عيلام إلى الشرق . وكانت هي التي استعملتها مصر للتراسل مع إمبراطوريتها الشامية أيام أخناتون على ما كشفته رسائل (أرشيف) تل العمارنة (افق آتون) التي كانت عاصمة الدولة في زمنه . كانت لمصر كتابتها الهيروغليفية لكن استعمالها ظل مقصورا على مصر .

ولعله من المناسب أن نتحدث هنا عن تطور الكتابة في العالم القديم بحيث انتهى الأمر إلى اختراع الألف باء . إذ إن هذه الناحية تمثل التواصل الحضاري الأهم في تاريخ الشرق القديم .

عرفنا أنه كان ثمة نموذجان للكتابة - السومرية والهيروغليفية - اللذان ظهرا في الألف الرابع قبل الميلاد . وكان أسلوب تدوين الكتابة السومرية بأن تنقش بما يشبه المسمار على ألواح الصلصال ، ثم تُشوى هذه ، فيثبت ما نقش عليها ويبقى (وقد بقي قرونا) أما الهيروغليفية فكانت تنقش على جدران الهياكل والنصب التذكارية من أعمدة وتمائيل وهذه كانت طقسية ورسمية .

وفي أحوال أخرى كانت تكتب على البردي .

ومن حيث المبدأ فإن الكتابتين السومرية والهيروغليفية متشابهتان من حيث إنهما صورتان وقد مرتا بأطوار ثلاثة تكاد تكون متشابهة أيضا . ففي الطور الأول كانت الصورة تمثل الشيء نفسه وتعنيه . هذا هو الدور الصوري . وفي أوائل الألف الثالث قبل الميلاد كانت الكتابتان قد تطورتا فلم تعد الصورة تقتصر على الشيء بالذات بل أصبحت تعبر عن فكرة مرتبطة بها . فصرة "قَدَم" تعبر عن أفكار أخرى مثل بدء الجبل أو المشي أو الأمر بالسير أو الذهاب ، وذلك بإضافة إشارة صغيرة إلى الصورة الأصلية . ويأتي الطور الثالث عندما تصبح الصورة تمثل مقطعا لفظيا لا يمت ، بالضرورة ، إلى المعنى الأصلي . لنمثل على ذلك من الكتابة الهيروغليفية :

الصورة	اللفظ	المعنى الأصلي	المعنى الجديد
خنفساء	حبر	خنفساء	الصيرورة
صقر	وَر	صقر	كبير ، مرتفع
مَنْ	خشب	للعب	البقاء أو الاستقامة

ويأتي بعد ذلك أن تمثل الصورة مقطعا لفظيا أو الحرف الصوتي الذي هو أول صوت في الكلمة الأصلية فحبر تمثل «ح» و وَر تمثل «و» ومن تمثل «م» ، واسم البحر يعني حرف «ص» وهو الحرف الأول من اسم البحر وصورة الثعبان تمثل الحرف «ض» أو «ج» لأن أيا منهما يمكن أن يكون هو الحرف الأول من كلمة ثعبان ضَت أو جَت .

وهذا أقرب ما يمكن إلى الحرف في الكتابة ولما كانت اللغة السومرية أحادية المقطع اللفظي، وكذلك اللغة الأكديّة التي اتخذت تلك الكتابة سبيلا لها، لما احتل الأكديون سومر وأمسوا لهم إمبراطورية واسعة، فإن التطور فيها كان أيسر من الهيروغليفية ولعله كان أسرع.

فضلا عن ذلك فإن الهيروغليفية كانت أصلا كتابة للأمور الدينية والطقسية، الأمر الذي أخر تطورها. أما الكتابة السومرية- الأكديّة، كما يجب أن نسميها منذ الآن، فقد كانت مرتبطة أصلا بحاجات التجارة والحسابات والفواتير والإيصالات. فضلا عن ذلك فقد أصبحت كتابة تعبر عن الإنجازات الأدبية والعلمية كالرياضيات وسواها التي تمت على أيدي سكان أرض الرافدين.

يضاف إلى ذلك أن الهيروغليفية لم تستعمل خارج مصر، فيما انتشرت الكتابة السومرية، الأكديّة خارج أرض الرافدين. فقد استعملها العيلاميون (في سوسة شرقي بلادها الأصلية) وحتى في سنة (٢٥٠٠ ق.م.) كانت مملكة إنبلا (تل مردوخ إلى الجنوب من حلب في سورية) تستعمل الكتابة المسمارية (السومرية) لتدوين وثائقها. ولما ازدادت الحاجة إلى الكتابة والقراءة خلال الألف سنة التالية اقتبست شعوب كثيرة، في سورية وفلسطين، هذه الكتابة المسمارية لتدوين لغاتها في جميع حاجاتها الدينية (الطقسية) والأدبية والتجارية والزراعية.

وعلى العكس من ذلك فإن الهيروغليفية المصرية لم يستعملها أحد خارج مصر. وبهذه المناسبة فإن استعمال الحروف لم ينتشر في مصر بحيث تسيطر هذه على الكتابة، فظلت لها صفتها العالية، الدينية والملكية وما إليهما. وقد تطورت كتابة خاصة التي استعملت تجاريا وما إلى ذلك كانت تعرف باسم الهيروطيقية. حتى لقد كان ثمة نوع ثالث من الكتابة يعرف باسم الديموطيقي أي الشعبي. وهذه الكتابات الثلاث لم تكن مسيرتها متوازية زمنا، بل جاءت على سبيل التتابع الزمني وعند اقتضاء الحاجة.

كانت المدن الواقعة على سواحل البحر المتوسط الشرقية المجال الذي تشابكت فيه المصالح المصرية مع مصالح بلاد الشام من جهة والبلاد الواقعة إلى الشرق منها، وكانت هذه العلاقات تجارية. فمصر كانت تستورد خشب الأرز من لبنان منذ (٢٦٠٠ ق. م.) وكان تجار أرض الرافدين يتاجرون مع الموانئ المذكورة حتى قبل ذلك على ما تدل الأساطير السابقة والقيود اللاحقة.

ويبدو أنه في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد كانت كتابة الف بائية أولية قد بدأت تظهر في كل من أوغاريت (رأس الشمرا) وفي جبيل (بيبلوس). وقد ظهر من الحفريات التي تمت في أوغاريت أن الكتابات التي استعملت لمختلف أنواع المراسلات والقيود كانت لا تقل عن خمس: الهيروغليفية المصرية والسومرية الأكادية (المسمارية) والهيروغليفية (التصويرية) الحثية والقبرصية/ الميناوية وكتابة خامسة لا تزال مجهولة الهوية. واللغة الأوغاريتية، بهذه المناسبة لغة سامية من الفئة الغربية. والذي دُوِّن بهذه الكتابات المختلفة، والكتابة الأوغاريتية كانت بينها، يشمل أولاً الوثائق المحلية من رسائل مع الخارج ونصوص قانونية وإدارية. إلا أن أشياء أخرى دونت بالكتابات المذكورة. وهذه تشمل الأدب والأساطير والطقسيات الدينية. ويبدو أن أنواعاً من الكتابة الألفائية انتشرت في مناطق مختلفة في سورية وفلسطين.

والذي انتهى إليه البحث حول هذا الموضوع، إلى الآن، أنه بين القرن الرابع عشر والقرن الحادي عشر قبل الميلاد، استعملت هذه الألفبائيات المتنوعة في أغراض مختلفة بما في ذلك نقوش على الصخر لدى كنعاني فلسطين.

وقد اختلفت أعداد الحروف في هذه الألف بائيات. فالأوغاريتية كانت مؤلفة من ثلاثين حرفاً، والفينيقية (جبيل) كان فيها اثنان وعشرون حرفاً، وبسبب أن اللغات السامية متقاربة جذوراً، فإن اقتباس أي منها لكتابة لغة معينة أو أخرى كان أمراً شبه عادي. على أنه يجب أن نتذكر أن الألف باء الجبيلية كانت الأسبق عهداً ولأن جبيل كانت مركزاً

تجاريا كبيرا ولأن التجار كانوا يهتمون بالكتابة التي تيسر أعمالهم، تغلبت الكتابة الفينيقية (الجبيلية) على سواها. وأقدم نص كامل بالألف باء الجبيلية هو النص الموجود على قبر أحيرام ملك جليل ويعود إلى حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م.

ومن هذا الأصل الفينيقي (الجبيلي) تحدّرت الكتابات الأخرى في العالم، إلا ما اعتمد في الصين وجوارها من الكتابة الصينية.

(٥)

لو أننا أردنا أن نتابع التبادل الحضاري الأدبي والديني (الطقسي والمجرد) لوجدنا أن حضارة المنطقة في القرون السابقة لفتح الإسكندر كانت مزيجا كبيرا من كل تجربة مرت بأرض الرافدين وبلاد الشام ومصر، إلا أن ما انتشر من حضارة مصر كان أقل بكثير مما انتشر وترعرع من البلاد الشرقية.

مع أنه قامت في مصر حركة دينية توحيدية أيام أخناتون، فقد كان أثرها محدودا في بلاد الشام. إنها لم تنتقل إلى هذه المنطقة الأخيرة، ولعل ذلك يعود إلى أن الفكرة الأخناتونية بالذات لم يكتب لها البقاء طويلا في مصر. ذلك بأن توت عنخ آمون خليفة أخناتون وكبار رجال الدين قاوموها بعنف داخل مصر، فلم يكتب لها البقاء طويلا بحيث تتجذر وتنمو.

حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين كان العهد القديم من الكتاب المقدس يعتبر مصدرا تاريخيا موثوقا به. وهناك من المؤرخين المعنيين بتطور الآراء الدينية خاصة والنواحي الاجتماعية والاقتصادية يجمعون على ذلك. لكن «النقد الداخلي» لهذه الأسفار انتهى إلى القول بأنها لم تكن من حيث النص أصلا على نحو ما وصلنا، بل أنها لما بدأ تدوين الأخبار فيها (في القرن العاشر قبل الميلاد) كانت قد مرت

على البلاد تطورات وتبدلات لم يدون منها شيء، بل كل ما فعلته أنها نقلت فكرة الإله الواحد "يهوه" إلى نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد وأن اختيار يهوه لشعبه المختار وما قيل عن أرض الميعاد (فلسطين) لم يتم القول فيها إلا قبيل المسيح ببضعة قرون. والبحث الحديث أثبت أن هذه الآراء، التي اعتبرت أصلاً في الدين اليهودي، هي نتيجة تبديل وإعادة النظر في مواد الكتاب. ومن ثم لم يثبت الطرح الكتابي أمام هذا النقد، ولم يعد ينظر إليه على أنه يتمتع بالحصانة التي أصّلت له.

إلا أن ثمة من المؤرخين الذين ظل عندهم الاعتقاد بأن الرواية الكتابية صحيحة وصادقة، حاولوا أن يقولوا بأن حركة أختاتون التوحيدية لعلها كانت ذات أثر في نمو التوحيد الإلهي عند اليهود؛ أنهم رأوا أن موسى هو الذي حمل فكرة التوحيد من مصر إلى فلسطين. لكن مثل هذا الرأي لا يقبله الكثرة من الباحثين. ومن الطبيعي أن لا يقبله اليهود المتمسكون بحرفية العهد القديم لأنه يعطى التوحيد اليهودي عنصراً فيه آثار الوثنية.

إننا نسمح لأنفسنا بإبداء ملاحظة عن التبادل الحضاري في هذه الفترة الطويلة من التاريخ. إن عناصر الحياة على تنوعها وتطورها، وقضايا الأدب على ما فيها من نزوع نحو الحق والحياة والجمال والحب، وأمور التشريع والإدارة على ما قد تحويه من محاولة لإحقاق الحق، والإيمان بما يحمله من دعوة إلى عبادة إله واحد أو آلهة متعددة، والعبادات وما يدور حولها من تراتيب طقسية - كل هذا تمازج وتقارب وتطور ونما وتبدل بسبب الاحتكاك المستمر والتنقل الدائم والحروب التي لا بد أن يكون فيها منتصر ومهزوم. فكان من ذلك كله هذا المزيج الرائع، الذي انتقل فيما بعد شرقاً وغرباً منح سكان تلك البلاد، حتى النائية منها، الكثير من عناصره التي كانت ذات أثر في تطوير الحياة الروحية والأدبية والفكرية والعلمية. ولعلنا لا نستغرب أن نقع على بعض هذه الهبات تقطن في ضمير الحياة المعاصرة.

حوار الحضارات في الفترة اليونانية

دخل الإسكندر آسيا الصغرى فاتحاً من جهة الغرب سنة (٣٣٤ ق. م.) وسار في فتوحه إلى بلاد الشام فمصر فأرض الرافدين ففارس حتى وصل شمال الهند. وعاد منها محاذياً للبحر في جنوب فارس إلى بابل. وكان هناك يخطط لمستقبل هذه الإمبراطورية الواسعة. لكنه حم وتوفي سنة (٣٢٣ ق. م.).

زوبعة عاتية هبت من بلاد اليونان على الشرق، لكن الإسكندر، على ما يرى المؤرخ اليوناني بلوتارك (ح ٤٦-١٢٠ م)، كان ينوي توحيد العالم كي تزول منه الحروب والعداوة وتقطنه المحبة والوئام. وكان يرى، على نحو ما يقول عدد من المؤرخين المحدثين، إن نشر الحضارة اليونانية بنظمها السياسية وفلسفتها وعلومها وآدابها في العالم الذي فتحه (وحتى الذي كان يأمل في فتحه) هو العلاج الوحيد لأمراض البشرية جمعاء وبذلك يقوم عالم جديد: الناس فيه سواسية، والعقل هو المرشد، والمعرفة اليونانية هي الدليل. ولسنا نحسب أن الإسكندر لم يعن بما كان الشرق قد أنتجه فيقضي عليه بالمرّة. لعله أراد مزج ما عند اليونان وخير ما في الشرق، ليحصل على ما حسبه العلاج الشافي.

لكن أحلام الإسكندر ونياته وتصورات ذهبت، بعد وفاته سنة (٣٢٣ ق. م.)، أدراج الرياح. كان الإسكندر قد أنشأ إمبراطورية واسعة. لذلك دخل قواده في حروب طويلة، وكل يأمل أن يقتطع الجزء الأكبر من هذه الإمبراطورية الواسعة. وفي سنة (٣٠١ ق. م.) تم الاتفاق على تقسيم الإمبراطورية. وبالنسبة إلى المنطقة التي تعيننا الآن فقد صارت مصر إلى بطليموس الذي أنشأ فيها دولة كانت حتى (١٩٢ ق. م.) تشمل سلطتها الجزء الجنوبي من بلاد الشام أيضاً. وحكم سلوقس جميع الأملاك الآسيوية، باستثناء آسيا الصغرى. وظل جنوب بلاد الشام موضع نزاع بين السلوقيين والبطالمة حتى (١٩٢ ق. م.) إذ ضم إلى الأملاك السلوقية. لكن الدولة السلوقية سرعان ما فقدت

سيطرتها على أملاكها الآسيوية الواقعة إلى الشرق من دجلة . هذه كانت خارطة المشرق العربي في فترة الحكمين السلوقي والبطلمي حتى مجيء الرومان في القرن الأول ق . م . فتغير الحاكم .

كان الإسكندر يرى في بناء المدن سبيلا للحكم والعناية بالتجارة وتقدم الصناعة ، لكنه كان يرى في المدينة «نواة الحضارة الأصلية» ، والنقطة التي ستشع منها الحضارة اليونانية . والذي سار عليه أسلافه يشمل هذه الأمور جمعا . وكان السلوقيون شديدي العناية ببناء المدن . بعضها كان من إنشائهم أصلا : إنطاكية (التي أصبحت العاصمة فيما بعد) واللاذقية وسلوقية الميناءان المهمان على شاطئ المتوسط الشمالي وأفامية (في حوض العاصي) وهذه كانت العاصمة العسكرية للسلوقيين ، إذ كانت تحفظ فيها الأفيال وتربى فيها الخيول .

كما بنى السلوقيون : خلقيس (عنجر) وهليوبوليس (بعلبك) في جبال لبنان وإنطاكية (نصيبين) وإنطاكية (إديسا) (في مناطق الجزيرة الفراتية) وإنطاكية (على بحيرة طبريا) وأكاروس (فيلكه في الجزيرة المسماة بها الاسم في الخليج العربي وهي جزء من دولة الكويت) .

أما ما رمم وأعيد إليه بهاؤه في المملكة السلوقية فمنه : بوريا (حلب) وإيفانية (حماة) وهيرابوليس (منبج) وزوغما (الجسر) وهذه تقع في شمال شرق بلاد الشام . وفي أرض الرافدين بنيت سلوقية/ دجلة وسواها ، وأصلحت مدن أخرى .

ولم يقم السلوقيون مدنا جديدة في الجزء الأوسط من الساحل الشامي ، لأن المدن الفينيقية كانت قد انتظم أمرها أيام الحكم الفارسي إذ نشطت تجاريا وكانت مراكز للأسطول في الحروب التي قامت بين دارا الفارسي واليونان .

والمدينة الوحيدة التي عني بها السلوقيون في فلسطين كانت القدس ، بسبب ما قام فيها من خلاف في الرؤية الكونية بين اليهودية والوثنية - السلوقية .

أما البطالمة فقد اكتفوا بمبديا بالإسكندرية (التي بناها الإسكندر نفسه) التي أصبحت أهم مدينة في المنطقة بأجملها والتي كانت مركز العلم والفلسفة والأدب على أعلى المستويات في تلك الفترة والفترة التالية . وبني البطالمة مدينة ميليتوس (في مصر العليا) وأعادوا إلى نيوكريتس دورها (وهي ميناء يوناني يقع غرب الإسكندرية ويعود إنشاؤه إلى القرن السابع قبل الميلاد).

لكن الانتشار اليوناني التجاري كان واسعا في وادي النيل .

والمدن التي بناها الإسكندر ، والتي بنيت فيما بعد جاءت على غرارها . فهي مدن تقع في أماكن استراتيجية للحماي أو على الطرق التجارية (برية وبحرية ونهرية) . وكانت خاصة أصلا بالمقدونيين واليونان . يسكنها أفراد الجيش والمتقاعدون من الجندية والتجار والمستثمرون في مجال الصناعة والزراعة ورجال الأدب ورجال الدين ومن لفّ لفّ هؤلاء .

كانت المدينة يونانية التنظيم ، مستقلة تدبر شؤونها على أساس ما عرفته المدينة اليونانية عن طريق مسؤولين منتخبين ومجلس «بوله» وقوانين يونانية الصيغة . وكان يقوم حول هذه المدن منشآت سكنية يقيم فيها البعض من أهل البلاد أو حتى الطائرين ، والجميع يعمل في المهن التي تزور السكان اليونان بحاجاتهم . هؤلاء لم يكونوا مواطنين بالنسبة للمدينة .

لكن من الناحية العملية فإن المدن التي أقيمت في الدولة السلوقية خاصة كانت تقوم بعون كبير من الملك . أرضا ومالا وعمالا (في بعض الأحيان) ولذلك فقد كانت تدفع ضرائب معينة للملك . وكان للملك من ثم بعض النفوذ .

ماذا كان نصيب حوار الحضارات هنا؟ لما دخل الإسكندر مصر فاتحا توجه إلى واحة سيوه ودخل الهيكل وهناك أخبر على أنه ابن الإله آمون . وقبل الإسكندر إلها في

مصر، وفي بلاد الشام وأرض الرافدين روج له بذلك. فكان الملك الإله. ولأن هذا الأمر كان مقبولا في مصر وأرض الرافدين فلم يكن ثمة صعوبة. لكن الأمر بدا غير ذلك في فارس. أن الملك الاوتوقراطي هناك لم يعتبر إلها. ولكن اليونان والمقدونيون لم يكونوا يعتبرون صاحب السلطة، مهما علت رتبته، إلها.

ورث السلوقيون والبطالمة فكرة تأليه الملك. بدءا كان يؤله بعد وفاته، ثم أُلَّه في حياته. لكن مع أن الفكرة كانت طبيعية في المشرق، فإن اليونان لم يتقبلوها. هم أصلا لم يتقبلوا فكرة الملكية، فكيف بالوهية الملك، لكن يبدو أن الفكرة أخذت تتجذر حتى بين اليونان أنفسهم، ولعل ذلك جاء من عدوى الجوار بين الشعبين.

يرى بعض الباحثين في تاريخ الدولة السلوقية أن اليونان - حكاما ومواطنين - لم يحاولوا تعليم اللغة اليونانية لأبناء البلاد، ولم يتعلم الحكام وسواهم اللغات المحلية. وكان الشعبان بذلك يقفان، الواحد من الآخر، متجاورين لكن صامتين - لا سبيل إلى التفاهم. ومن ثم فلم يكن تبادل حضاري، وإذا فلن نجد حوارا حضاريا. إن تصور مثل هذا الوضع أمر صعب.

لنبدا من الأعلى: الحكم الملكي له آلهة وطقوسه ورسومه، فهناك أولا القصر الملكي بالعرش والرسوم المحيطة به وآلة الاحتفاظ بذلك وطقوس قبول الحكام واستقبال الرسل. هذه أمور لم يحملها اليونان معهم، فكان لا بد من تعلمها وممارستها على أيدي من خبروها من قبل. وكل هذا لا يمكن أن يتم إلا بالاختلاط والتعليم والتعلم والممارسة. هذه ناحية من الاقتباس الحضاري على مستوى رفيع.

وإذا نزلنا السلم حتى نصل إلى العامة من الناس وجدنا أنه لم يكن بد من تبادل المصالح والمعارف المتعلقة بشؤون الحياة والمجتمع من لباس وأثاث وطبخ. فالمواد المتوفرة في المشرق العربي لتدبير شؤون المعاش لها أساليبها التي يجب أن يتعلمها القادم من الخارج، كي يتدبر أموره. والثياب تجري على مثل ذلك.

والمدينة إذ بُنِي أو تُوهِل تحتاج إلى من يبني ومن يزخرف . ولعل الزخرف كان من حيث العامل والنوع يونانياً في أكثر الحالات . لكن ثمة البناء المحلي وقصاب الحجارة ابن البلدة . وهما إذ يساعدان يتعلمان ويقومان ببغض ذلك في أبنية يقيمها الأثرياء وأصحاب النفوذ حتى في الأماكن النائية ومن هنا هذه الأفاريز والأعمدة والواجهات التي يعثر عليها بعيداً عن المدن . هذا اقتباس فني ينقله المحلي عن الوافد .

ولا بد والتشابك بين أفراد الفريقين أو حتى جماعات منهما أحياناً على ما ذكرنا ، من أن «يرطن» البعض من أبناء البلد باللغة اليونانية ، ويقلده اليوناني فيتعلم لغة الجماعة التي هي أقرب التصاقاً به .

وثمة أمر لا بد أن التبادل (أو الاستعارة) فيه كان لها أثر في التطور الحضاري . ف فيما يتعلق بالأديان والآلهة والعبادات التي كانت تتبع في هذا العالم الذي غيّر سادته لكنه لم يغير طبيعته كثيراً . فلا بد من تبادل أو اقتباس حول هذه الآلهة المحلية (وحتى القادمة) من حيث طبائعها أو قصصها أو مغامراتها . وإلا فكيف وصلت بعض هذه الأساطير الشرقية إلى اليونان على ما ظهر في الأساطير اليونانية المتأخرة .

وهناك القواعد والقوانين التي كانت تسود المنطقة ، والتي تتحكم في السوق وما يقارب السوق ، ألم يكن لها حظ في أن تستمر وتؤثر في العلاقات بين شعبين عاشا متقاربين متجاورين يتعاملان معاً . وثمة سرقة أو تسارق لألفاظ من اللغة البلدية إلى اليونانية ، وتعامل عند البعض في أن يرطن باليونانية .

وهكذا فلنأخذ نرى آثار هذا الحوار العملي بين الحضارتين الأصلية والمجلوبة . وقد يزداد هذا الأمر في الفترة التالية .

لكن على ما يبدو كان ثمة مجال واحد كان لمدن الساحل فيه مشاركة . هذه المدن كانت قد بدأ الإتجار مع بلاد اليونان في القرن الثامن قبل الميلاد ، وكان الأمر مستمراً في

عهد السلوقيين . وكان من أثر ذلك أن معرفة سكان هذه المدن باليونانية ، وحتى ببعض نواحي الفكر اليوناني ، سابقة حتى لفتح الإسكندر . ومما يمكن أن يحدث هو تقوي هذه الصلات في الفترة الجديدة . ومن هنا فإننا نجد أن الفلسفة اليونانية تجد لها مسرعا هنا فالمدرسة الرواقية يونانية أصلا ، فصاحبها هو أبيقور المولود في ساموس سنة (٣٤٢ ق . م .) وقد أنشأ مدرسته سنة (٣٠٦ ق . م .) عرفت في السواحل الشامية بعض الشيء .

وهناك المدرسة الرواقية التي أنشأها زينون الفينيقي ، المولود في كيتيون (اوكيسيون) في قبرص (٣٤٢ ق . م .) ولكنه أنشأ مدرسته في أثينا ، التي دعا فيها إلى التخلي عن الفلسفات السابقة التي لم تعن بالإنسان ، والنظر في شؤون هذا العالم من حيث إنه مكان يقيم فيه البشر .

لما ذهب زينون إلى أثينا ليبدأ تعليمه فلسفته جديا لم يجد مكانا يدرس فيه ، فاستعمل الرواق المدهون (الأزرق؟) ، لذلك سميت فلسفته الرواقية . قالت الرواقية بأن العقل (الذي قُصد به الإله) هو أساس الكون ، وإن النفس البشرية هي شعلة من النار المقدسة ، وأن الرجل العاقل هو الذي يعيش باتساق مع الطبيعة . (توفي زينون سنة ٧٢ ق . م . التاريخا احتماليان) .

وعرفت فينيقيا أفليدس الرياضي ، الذي انتقل إلى الإسكندرية حيث تم له إعداد كتابه «المبادئ» ، الذي جمع فيه المعرفة الهندسية في قواعد أساسية منتظمة . وقد ظل هذا الكتاب أصلا في تعليم الهندسة حتى أوائل القرن العشرين . (وقد تعلمت أنا في دار المعلمين بالقدس ١٩٢١-١٩٢٤ في كتاب وضعه بالإنجليزية هول وستيفنس ، ونقل إلى العربية في وزارة المعارف في مصر ونشر للاستعمال في المدارس المصرية سنة ١٩١٠ أو ١٩١٢ م) .

عني السلوقيون بإنشاء مدارس ومكتبات في بعض المدن مثل أديسا وسرديس (آسيا الصغرى) وإنطاكية ، وكان ثمة تعليم حتى للفلسفة لكن هذه أفاد منها أبناء اليونان . ومهما

قيل فإن الكثير المتفرق من شؤون الفلسفة انتشر في بلاد الشام وأرض الرافدين . وكان يحتاج إلى بعض الوقت حتى يوتي أكله .

أما المدينة التي احتضنت العلم والفلسفة والأدب والتاريخ بحثا وتعلما واستنباطا واختراعا وتعلما ومناقشة فهي الإسكندرية . إن الوسائل والأسباب والفرص للبحث والدرس التي أتاحت لهذه المدينة لم تتح لمدينة أخرى في الأزمنة القديمة . مكتبتها ومجمّعها كانا ملتقى جميع أصناف أهل المعرفة . ولكن لأن العمل كله فيها كان باليونانية فقد ظل نطاق عملها محدودا . صحيح أنه جاءها باحثون وطلاب من أثينا وبرغاموس (آسيا الصغرى) وليبيا وصيدا وصور ، ولكن ظل المجال محصورا بالذين يعرفون اللغة .

لكن ما قيل عن الدولة السلوقية يقال هنا أيضا عن مصر : إن الفكر اليوناني بأدبه وفلسفته وعلومه وفنونه قد حط رحاله في المشرق العربي . وإن لم يؤثر يومها فلا بد أن يكون له أثر فيما بعد . فالتربة صالحة للإنتاج ، كما دل عليه تاريخها ، لكن الزرع والغرس الأخيرين كانا محدودين .

المشرق العربي في العصر الروماني

(حوار حضاري)

حكم الرومان المنطقة ستة قرون ونيف (كانت الدولة بيزنطية منذ أوائل القرن الرابع) . وكان الاحتلال على فترات متفاوتة ، امتدت من القرن الأول قبل الميلاد حتى أوائل القرن الثاني بعد الميلاد . لكن القسم الأكبر منها (مصر وبلاد الشام وجزء من الجزيرة الفراتية) كان قد خضع للرومان خلال نحو مئة سنة منذ مجيء يومبي سنة (٦٣ ق.م) .

لا يختلف قديم الرومان عن قدوم اليونان من حيث الغاية-التوسع والاستعمار وضمان الطرق التجارية مع آسيا والمحيط الهندي .

حمل الرومان معهم إلى الشرق فن المعمار بكل تطوراته الإغريقية المتأخرة والرومانية المبكرة . وليس من شك في أن العمارة الرومانية زادت صنعة ورونقا واتقاناً بعد التجربة الرومانية في إمبراطوريتها الواسعة . وهذه التقنية المعمارية الفائقة تألقت بشكل خاص في الهياكل الضخمة وعمداتها الممشوقة ودور التمثيل وما فيها من تنسيق للممثل والحاضر التمثيل وفي الكنائس التي أقيمت بعد أن اعتنق الرومان المسيحية رسمياً!

على أن أحد نواحي التفوق عند الرومان هو هذه الطرق التي رصفوها تيسيراً لنقل الجيوش ، فأفاد منها التجار فائدة قصوى . واهتمام الرومان بالتجارة وسبلها وأسبابها وأسواقها حرية بالاهتمام . وحمل الرومان معهم أحد مظاهر عبقريتهم وهو القانون الروماني . وكان من الطبيعي أن تكون لغتهم اللاتينية لغة الإدارة والقانون .

لكن اللغة اللاتينية لم تنتشر في البلاد إلا في منطقتين هما بيروت وبعلبك بسبب التمرکز الإداري والعسكري أولاً وبسبب مدرسة الحقوق التي أقيمت في بيروت والتي ظلت حتى الزلزال الكبير سنة (٥٥١م) ، فقد كانت اللاتينية لغة التعليم فيها .

وظلت اللغة الفينيقية منتشرة في المناطق الساحلية ، والآرامية لغة الداخل من بلاد الشام ومنطقة الجزيرة الفراتية ومركزها إديسا (الرها) وظل لليونانية ما كان لها من انتشار شبه عادي في أماكن محدودة .

على أن الأمر الذي طرأ على المنطقة في الفترة الرومانية هو ظهور المسيحية ، التي لقيت ، حتى قبل أن يشتد ساعدها ، الاضطهاد من خصوم ثلاثة أشداء : اليهودية والهلينستية والدولة الرومانية .

ولد المسيح في بيت لحم (سنة ٤ ق . م .) ، ونشأ وترعرع ودعا إلى المسيحية في فلسطين . ومن المرجح أنه وصل جنوب لبنان في رحلاته التبشيرية .

فما هي هذه الدعوة الجديدة التي قضت مضجع الخصوم؟

كانت اليهودية قد ادعت، وبدلت في التوراة (من أسفار العهد القديم) ما شاء لها أن تبدل في سبيل تثبيت ذلك، فقالت أن يهوه هو الإله الحي الوحيد وأنه اختار شعبا خاصا به هو إسرائيل (أي اليهود بشكل عام) وأنه وعد هذا الشعب المختار بأرض الميعاد أي فلسطين. ومع أنه قامت فرق يهودية متعددة وتباينت آراؤها في أمور تتعلق بالعبادات والطقوس، فإن الكل أصر على هذه الأمور على أنها أساس العقيدة.

وقالت المسيحية بأن أساس عقيدتها أقانيم ثلاثة متوحدة هي الله، وأن المسيح واحد من الأقانيم، وأنه مساو للآب. ولم تقبل المسيحية بأن يخص الله بشعب واحد؛ وقالت أن ملكوت الله للبشر أجمعين، وأن الحصول عليه يتم بالتوبة. بالظاهرة القلبية. بالولادة الثانية.

وانتشرت المسيحية على أيدي تلاميذ المسيح وآخرين قبلوا الإيمان وعملوا عن نشره. وكتاب المسيحية هو الكتاب المقدس، ولكن التشديد هو على العهد الجديد. وأسفار العهد الجديد تشمل الأناجيل الأربعة التي كتب ثلاثة منها تلاميذ المسيح (بين سنتي ٦٥ و ٩٠ م). وكتب يوحنا الإنجيل الرابع في العقود الأولى من القرن الثاني للميلاد. أما أعمال الرسل (أي المبشرين) والرسائل فإنها تحوي أخبار أعمال التبشير في الفترة الأولى من الزمن المسيحي (تقريبا إلى حول ١٠٠ م).

كانت خصومة اليهودية للمسيحية واضحة في الدورين. الأول يشمل العقود الأولى. فقد اعتبر اليهود في القدس أن هؤلاء المسيحيين فرقة خارجة من الدين اليهودي وعليه، ولذلك وقع اضطهاد كبير على المسيحيين. والدولة الرومانية لم يكن لها يومها موقف، إذ اعتبرت الأمر انقساما داخليا بين أبناء دين واحد.

لما ثار اليهود على الحكم الروماني وقضى تيطس على الثورة سنة (٧٠ م)، غضب اليهود حيث كانوا يقيمون، وحزنوا ومزقوا الثياب حدادا على تدمير الهيكل. ولأن

المسيحيين لم يهتمهم الأمر ، اتضح أنهم لم يكونوا فرقة يهودية خرجت عن القطيع ، بل أنهم أصحاب دعوة جديدة .

وكانت المسيحية خلال ذلك تنتشر في فلسطين و حوران وشمال سورية والساحل الشامي . وأصبحت للمسيحيين شخصية معينة ولو أنها لم تتضح تماما للحكام الرومان . فالأرشييف الروماني في القرن الأول م مثلا ، لا إشارة فيه إلى المسيحية أو المسيحيين .

وإذا نحن أخذنا سنة (١٠٠م) نقطة لتدبر الأمور التي كانت قد تمت وجدنا أن المسيحية كانت قد ثبتت مواقعها في فلسطين والساحل الشامي من جهات غزة (غزة لم تدخلها المسيحية إلا في القرن الرابع) إلى صور وصيدا وفي إنطاكية وما حولها وإديسا ، ثم في بيشنيا وبنطس (آسيا الصغرى) وقبرص وكرت والإسكندرية وفي أرمينية .

لكن النجاح الذي حققته المسيحية في الفترة التالية ، أي في القرن الثاني الميلادي ، هو الذي جلب عليها التقمة الكبيرة من خصومها . وهؤلاء الخصوم كانوا اليهود في كل مكان ؛ والجماعة الهلينيستية ، أي أولئك الذين كانوا من أتباع الفلسفة والفكر اليونانيين ، والذين ظهروا في العصر الروماني ؛ ثم الدولة الرومانية نفسها .

اليهود هاجموا المسيحية لأن المسيح (١) قضى على العهد المزعوم بين يهوه والشعب (الشعب المختار وأرض الميعاد) . (٢) تخطى الشريعة اليهودية فيما يتعلق بالقوانين المتعلقة بالطقوس الدينية . (٣) دعا إلى مساواة الابن للآب . وأضاف اليهود إلى ذلك أن المسيحيين يختفون وقت الصلاة (لأنهم يمارسون طقوسا شائنة) .

واتباع الهلينيستية كانوا يخاصمون المسيحيين على مستويين : فالمتعلمون كانوا يعتبرون خصومهم جهلة ، لأنهم لا يفهمون الفلسفة . والبعض كان يهتمهم بالتعصب وضيق الأفق العقلي . ومعنى هذا أنهم يقبلون إلها واحدا ، فيما كانت الفلسفة والديانات الشرقية الأصيلة تقبل بتعدد الآلهة والأسرار المرتبطة بالآلهة .

وفي مطلع القرن الثاني الميلاد دخلت الدولة الرومانية على خط الخصومة . وكانت شديدة لأنها اعتمدت الاضطهاد والعقوبات القاسية التي كانت تتصف بالوحشية . ومع أن نيرون ، الإمبراطور الروماني (٣٧-٦٨م) ، كان أول من اضطهد المسيحيين ، فإن القرن الثاني والثالث هما اللذان شهدا العنف والظلم يقع على المسيحيين . وقد كان سبب ذلك أن المسيحيين رفضوا تقديم القرايين للإمبراطور (على أنه إله) ، إذ إن هذه كانت العبادة الرسمية في الإمبراطورية . ومن يرفض تقديم القرايين يعد ثائرا على الدولة ومن ثم حق عليه العقاب .

فضلا عن ذلك فقد صدرت نشرات رسمية تدم المسيحية وتتهم المسيحيين بإتيان الموبيقات أثناء تجمعاتهم السرية (أي أوقات عبادتهم) من قتل وشرب دم وتحلل خلقي .

ولن نتابع قضية الاضطهاد هذه ، بل نكتفي بذكر بعض الشهداء الأوائل الذين كانوا من كبار أهل العلم والقلم في تفسير المسيحية والدفاع عنها أمام الدولة والناس . وهم أغناطيوس (١١٥م) كان أسقف (أي رئيس كنيسة من الدرجة الأولى) إنطاكية ثم أصبح أسقف رومه ؛ ويوستين (١٦٥م) وهو مبشر بالمسيحية أصله من نابلس (فلسطين) لكنه استشهد في رومه ؛ وبوليكارب (١٦٥م) الذي استشهد في أزمير . لكن كان إلى جانب هؤلاء الأفراد اضطهادات شملت جماعات كبيرة ، وقد قتلت بأساليب شريرة .

من المهم أن نتنبه إلى أن المسيحية نشأت وتطورت في الأدوار الأولى في جزء من العالم كان متباين النزعات الأدبية والفلسفية والدينية ، وإنه كان يرث تجارب حضارية عمرها آلاف السنين . وإن هذا الجزء من العالم كان سكانه مختلطي الأرومة واللغة . ففي الجزء الشرقي منه كانت السريانية (أي الأرامية الجديدة المتطورة) لغته ، وكان الأراميون سكانه ، مع كثير من الشعوب السامية التي سبقت . أما غرب بلاد الشام وآسية الصغرى وبلاد اليونان والإسكندرية فقد غلبت عليها اللغة اليونانية . وقد تزامنت المسيحية مع فترة إحياء الفلسفة الأفلاطونية فيما عرف باسم الأفلاطونية الحديثة .

فمن المتوقع إذن أن تقوم داخل المسيحية بدع تمثل اتجاهات مختلفة . فثمة محاولة للتوفيق بين الفلسفة والمسيحية ، بشكل دعوة إلى الأفلاطونية الحديثة . كان فيلون (٢٠٠م - ٥٠م) اليهودي الإسكندري قد حاول التوفيق بين فلسفة أفلاطون والدين اليهودي ، وتابعه في ذلك المؤرخ اليهودي يوسفوس (٣٧-١٠٠م) لكن ذلك لم يكتب له النجاح (وما كان ليُكتب له نجاح!) وعادت هذه الفلسفة مجددة نفسها على يد أفلوطين (تو ٢٧٠م) وكانت قد تأثرت بالتصوف الهندي الذي غزا الإسكندرية مع التجار الهنود الكثر . هذه هي الأفلاطونية الحديثة . ولا بد أنها امتصت بعض آراء من الديانة المصرية القديمة .

كان ثمة في الإسكندرية مدرسة لاهوتية ، هي الأقدم في تاريخ المسيحية . ومع أننا لا نعرف تاريخ إنشائها فالمعروف أنها كانت قائمة سنة (١٩٠م) . وكان أعضاؤها هم المسؤولون عن صياغة الأفكار المسيحية اللاهوتية وعن وضع التفسيرات للكتب المقدسة . ولكن مما يلفت النظر أن هذه لم تقتصر على تعليم اللاهوت المسيحي بل كانت تُدرّس فيها الإنسانيات (أي جماع الأدب والفكر القديم وأكثره من اليونانية) والعلوم والرياضيات .

وكان في الإسكندرية بطريرك على نحو ما كان في رومه وإنطاكية (وكل يدير الكنيسة في المنطقة التي كانت من قبل ولاية رومانية) . وقد ظلت مدرسة الإسكندرية حرة حتى سنة (٢٣١م) ، إذ تبعت للبطريرك ، وذلك لما تخلى عن رئاستها اوريغون (تو ٢٥٤ في قيسارية قيصرية/ فلسطين) .

والكتّاب المسيحيون كثر ، ولكن لن نتوقف عندهم . إنما نود أن نشير إلى أن أسلوب الجدل والمناقشة كان أساس الحوار . ومن هنا صدرت يومها كتب توضح المسيحية أولاً على شكل حوار بين وثني ومؤمن . وممن فعل ذلك أرسطو وهو مواطن من فيل (بلا) في غور الأردن .

ولكن كان ثمة من يكتب ردا مباشرا . فقد وضع كلُّسوس (سنة ١٨٠م) كتابا شنع فيه على المسيحية فادعى بأن انتشارها زعزع أركان الإمبراطورية الرومانية وقال بأن المسيحيين قوم محتالون وما يتبع ذلك من كلمات السوء . فرد عليه اوريغون مفندا أخطائه موضحا الفضائل التي تدعوا اليها المسيحية مع شرح واف للعقيدة نفسها .

ولنعد إلى إدبسا للتذكير فقط . كانت هي المدينة الأهم للمسيحية في العالم الآرامي أي شرق بلاد الشام وأرض الرافدين ؛ ومدرستها اللاهوتية كانت ذات شأن كبير في صياغة المسيحية الشرقية .

هذا الجو المعقد ذو الوجوه المختلفة ، وبعضها متنافر ، وذو الخبرات العقلية والروحية المتنوعة ، وأكثرها متخاصم ، هو الذي نمت فيه المسيحية وتطورت ومن ثم تباينت الكنائس رأيا . ولعلنا نستطيع في هذه القرون المسيحية التي تمتد من أوائل الثاني حتى السادس للميلاد أن نقع على معنى الحوار الحضاري على نحو واضح ، بعد أن ما عثرنا عليه قبلا كان تبادلا واقتباسا حضاريا .

يمثل القرن الرابع الميلادي نقلة مهمة بالنسبة للمسيحية . ذلك أن قسطنطين (حكم ٣٠٥-٣٣٧م) اعتنق المسيحية . وفي أيامه اعتبرت المسيحية ديناً من أديان الإمبراطورية الرسمية (لم تصبح المسيحية دي الإمبراطورية الرسمي إلا في أواخر القرن الرابع) .

يتوجب علينا أن نوضح هنا بضع كلمات كان لها في القرن الرابع الميلادي وما بعده دلالة خاصة .

لما اتخذت الكنيسة النظام الروماني الإداري من حيث تقسيم الولايات والوحدات الإدارية الأصغر أساسا لها ، حتى في القرن الثالث ، أصبح للكنيسة قوامون على أمرها . فالولاية الكبيرة كان يرئسها بطريرك - وكان ثمة في بادئ الأمر بطاركة وهم بطريرك رومه (الأول منزلة) ثم بطريرك الإسكندرية ، يلي هذا بطريرك إنطاكية . فلما اعتنق قسطنطين

المسيحية أصبحت البطريكيات أربعاً: رومه والقسطنطينية والإسكندرية وإنطاكية. وأعيد ترتيبها فأصبحت على الترتيب التالي: رومه والقسطنطينية والإسكندرية وإنطاكية (أما القدس فلم تصبح بطريركية إلا سنة ٤٥١م). أما الأسقف فكان رئيساً لكنيسة هي جزء من الولاية كأن تكون محافظة مثلاً.

وكانت القضايا الكنسية تعالج عند الحاجة في مجلس أسقفي وهو الذي يدعو إليه البطريك، ويدعى إليه رجال الدين من البطريركية نفسها ولا يتعداهم. وتبحث هذه المجالس في شؤون أكثرها إدارية. أما القضايا اللاهوتية الكبرى فكانت تعالج في مجمع مسكوني (أي من المسكونة المسيحية). وقد دعي أول مجمع مسكوني سنة (٣٢٥)، وكان الداعي إليه قسطنطين بالذات. (لكن كان يجوز لبطريك ما أن يدعو أخوته البطارقة إلى مجمع مسكوني).

وثمة أمر هام يجب توضيحه قبل التحدث عن القضايا التي اختلف فيها المسيحيون وتداولوا (وحتى تخاصموا) بشأنها.

إن الإمبراطور الروماني كان، بحكم تطور تاريخي سابق هو الحبر (الكاهن) الأعظم لكل دين يقوم في رومه وإمبراطوريتها. ويعني هذا المزج بين الرسمية والأبوية أنه كان يعتبر «رأس» تلك الديانة. ولما اعتنق قسطنطين المسيحية اعتبر نفسه حبرها (كاهنها) الأعظم أي رأس الكنيسة الرسمي، لكنه لم يكن رأس الكنيسة اللاهوتي، إذ إن هذا موضع اهتمام البطريك. لكن قسطنطين وخلفاءه من بعده تصرفوا تصرف صاحب السلطة في هذا المنصب.

كانت القضية الأولى التي اختلف المسيحيون بشأنها، وكان ذلك على درجة عالية من الخلاف، هي: القول بأن المسيح (الابن) يساوي (الأب) في الجوهر. هذا ما كان يسمى «الأرثوذكسية»، وأتباعها يسمون الأرثوذكس أي اتباع الرأي القويم (أو

المستقيم). ولكن أريوس (٢٥٦-٣٢٥م) لم ير هذا الرأي فقال بأن الأب هو وحده الجوهر الأول وهو الذي يستحق لقب الإله. أما الابن فلم يكن سوى إله ثانوي منخفض الرتبة. لكنه تميز عن بقية المخلوقات في أنه كان صورة الأب في جوهره. ومن الطريف أن ألكسندروس (أسقف الإسكندرية) دعا أريوس إلى مناقشة علنية كانت، على ما روي عنها، ممتعة جدا. هذا هو الحوار الذي كنا نبحت عنه من قبل تحقق في تلك الأيام.

دارت مناقشات وحوارات وتشاور وتناوب بين الفريقين ودامت وقتا طويلا. لكن لم ينته الأمر إلى نتيجة (وما كان له أن ينتهي إلى ذلك). فالقضية لا تحلها المناقشات. وأخيرا دعا قسطنطين إلى «مجمع مسكوني» (٣٢٥) هو الأول من نوعه. (وتبعته على طول الزمن مجامع كثيرة) وقد عقد في نيقية (في شمال غرب آسيا الصغرى) ولذلك فإنه يسمى مجمع نيقية أو المجمع النيقاوي. وحضره جميع الأساقفة من أنحاء الإمبراطورية لبحث هذه القضية.

ترأس حفل الافتتاح قسطنطين نفسه (بوصفه «الحبر الأعظم» لهذا الدين الذي اعتنقه حديثا).

وانتهى المجمع إلى إقرار ما يسمى قانون الإيمان المسيحي. وقد جاء في هذا القانون أن المسيح مساو للأب في الجوهر. أي أنه أخذ بالرأي الأرثوذكسي. ولم يقبل أريوس وأتباعه بذلك وخرجوا ينشرون فكرتهم في المشرق، لكن الأريوسية بالذات ضعف شأنها في المشرق وانتقلت إلى أوروبا ومن ثم إلى شمال إفريقيا.

وكان من آثار الخلاف الذي استمر بعد المجمع أن الأباطرة كانوا يختارون الأرثوذكسية أو الأريوسية أساسا لمعتقدهم، وكان كل يؤيد جماعته وقد يقع بعض الاضطهاد على الخصوم. وعندنا في أواسط القرن الرابع خبر ماوية ملكة العرب في بادية الشام التي كانت جماعتها على الأرثوذكسية، وكان الإمبراطور البيزنطي (التسمية بدأت

بإنشاء مدينة القسطنطينية، على أنقاض بيزنطة، على يد قسطنطين إشارة إلى فترة جديدة وعهد جديد ونظام جديد). فالنس (٣٦٤.٣٧٨) أريوسيا، فأراد الضغط على ماوية وقومها عن طريق تعيين أسقف اريوسي لجماعتها الأرثوذكسية. فشارت مع قومها وانتصرت على الجيش الإمبراطوري وحملت فالنس على السماح بأن يرسم لها أسقف أرثوذكسي (اسمه موس) على يد أساقفة أرثوذكس كان فالنس قد سجنهم في فلسطين أو سينا.

والمسألة الثانية الكبرى التي تحاور المسيحيون بشأنها زمننا ووضعوا الكتب حولها هي طبيعة المسيح.

والقضية هي: أن المسيحية تعتبر المسيح ابن الله أي أن له طبيعة إلهية. والمسيح عاش على الأرض حياة إنسانية عادية. فما هي الطبيعة التي كانت للمسيح أثناء وجوده على الأرض. كثرت الآراء لكن في النهاية تركزت حول رأيين: الأول أنه كان للمسيح طبيعتان وهو على الأرض أي أن طبيعته الإلهية ظلت قائمة ولكن قائمة مع طبيعة بشرية. والثاني هو أن الطبيعتين امتزجتا فأصبحتا طبيعة واحدة.

القرن الرابع كان، كما رأينا زمن نشاط وخلاف من جهة، ولكنه كان فترة انتشار واسع أيضا. لعل هذه الخلافات لفتت الناس إلى المسيحية. ثمة أمر آخر نشير إليه وهو أن عدد كبيرا من الكنائس الهامة بنيت في بيت لحم والقدس وسواها أيام قسطنطين الأمر الذي كان مدعاة للاهتمام.

وعلى كل فإن الخلاف حول طبيعة المسيح استمر. وقد أضيف عنصر آخر للقضية على يد نسطوريوس (٣٨٠-٤٥١م) الذي قال بأن الطبيعتين في المسيح لم تتحدا، وظلتا منفصلتين.

هذا الرأي النسطوري انتشر خارج منطقتنا التي نحن بها معنيون، إذ طرد النساطرة منها.

ولنخلص إلى القول أن منطقة المشرق العربي كانت في القرن السادس قد توزع فيها الرأبان الأصليان - الطبيعة الواحدة والطبعتان - على أساس لغوي، فاليعاقة، كما أصبح اتباع الطبيعة الواحدة يسمون يومها، انتشروا في أرض الرافدين وشرقي بلاد الشام، وتكلموا السريانية وكتبوا بها، وكانت مصر أيضا يعقوبية المذهب. أما القائلون بالطبعتين فكانوا يقيمون، بالنسبة إلى منطقتنا، في الأجزاء الغربية، وكانوا في الغالب، يلجأون إلى اليونانية وكان اتصالهم بالعالم اليوناني أقوى.

ولكن مما يجب أن يذكر هو أن هذا الانقسام الطائفي كانت له دلالة سياسية أيضا. إن أتباع الطبيعة الواحدة اضطهدوا رسميا، فأصبح مذهبهم، بالنسبة إلى الدولة البيزنطية يمثل العصيان ضدها وبالنسبة لهم كان مذهب المقاومة الوطنية ضد الحكم البيزنطي: اضطهاد وظلم من الحاكم (القائل بالطبعتين) يقع على القائلين بالطبيعة الواحدة.

وظل الأمر على ذلك إلى زمن الفتوح العربية الإسلامية.

لم يقتصر الاقتباس والتبادل في شؤون الحضارة على ما ذكرنا. فقد حمل الرومان إلى المنطقة فنهم المعماري الذي انتج هذه الآثار التي تقع عليها العين في كل بقعة من المنطقة، فتمتلئ النفس سرورا بما تشاهد من أماكن عبادة وبقايا قلاع وآثار طرق على ما أشرنا إليه.

وكان لا بد، وقد وجد الرومان هنا ستة قرون ويزيد، من أن تتأثر البلاد بما كان عند القوم من قانون ونظم. فمدرسة الحقوق في بيروت، وقد كانت من أكبر المعاهد لتدريس هذه الموضوعات في الإمبراطورية، لا بد أنه كان لها أثر في تربية الحس التشريعي والفكرة الحقوقية. وقد عثر المستشرق ساخو على نسخة من مخطوطة لكتاب سماه، إذ نشره، «كتاب القانون الروماني السوري» يعود إلى القرن السادس الميلادي يوضح دون ريب أن شمال شرق بلاد الشام تأثر بالتشريع الروماني.

لكننا توقفنا عند الحوار المسيحي المسيحي لأنه كان الأهم والأوضح .

منطقة كان قد مر عليها ، لما فتحها العرب المسلمون في أوائل القرن السابع الميلادي ، نحو سبعة آلاف سنة من التجارب الحضارية ، على جميع أنواعها وتعدد أصنافها . الاقتصادية والسياسية والدينية والأدبية والعلمية . وتبدلت فيها دول ، واختلطت فيها شعوب وتنوعت فيها ألوان الحياة . فكان لها من ذلك تجربة فريدة . تبادلت شعوبها الخبرات واقتبس الشعب الواحد من الآخر . وكان التبادل أفقيا معاصرا كما كان عمودا زمنيا . وكان هذا الذي وجده العرب فيها لما دخلوها . وتأثروا بتجاربيها وأفادوا من خبراتها . ومر بهم ، لما استقر بهم المقام ، بعض ما مر بمن سبقهم . فأنتجوا حضارة رائعة ، واختلفوا فيما بينهم فكرا وأدبا وشعرا . فكان ثمة تراث عظيم ، سببه هذا التحاك الذي ينتج عن حوار الحضارات . ولا يزال الحوار قائما في الدنيا ، وهو في صالح البشرية يقودها دوما إلى الأمام .

الإسلام والعالم . مركزات التصور الإسلامي للآخر

د . محمد نور الدين أفايه (*)

المستخلص

يتعلق الأمر في هذه الدراسة ، باستجلاء النمط الذي أنتجه التراث العربي الإسلامي في إدراك الغير والحضارات الأخرى . سواء تقدم هذا الآخر بوصفه اختلافاً دينياً أو ثقافياً ، أو باعتباره خصماً تاريخياً وحضارياً تحددت ملامحه داخل معمة المواجهة والصراع ، أو في سياق التساكن والتبادل ، كما تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف عند الصور التي عملت الثقافة العربية الإسلامية الكلاسيكية من خلالها على استحضار الآخر وكيف قدمته ، وحددت له صفات وملامح ، وأصدرت في حقه أحكاماً .

يفترض البحث في هذا الموضوع العودة إلى النص التأسيسي للنظر العربي الإسلامي إلى الآخر ، ألا وهو القرآن الكريم . فالدعوة المحمدية أكدت على وجوب إقامة مسافة جذرية مع ما كان سائداً وقتئذ من عقائد وتصورات وعلاقات ، وصياغة وعي جديد بالذات وبالحضارات الأخرى ، ولذلك تضمن التصور القرآني إداركاً قوياً للاختلاف بين الكائنات والأجناس واللغات والعقائد .

(*) أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط ، حصل على الماجستير في فلسفة التواصل من الكلية نفسها ، وكذلك الدكتوراه حول موضوع الغرب في الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر من الكلية نفسها .

وسيبين هذا البحث الكيفية التي عمل الإسلام من خلالها على إقامة «نظام عالمي جديد» ، وصياغة تصورات محددة للحضارات المختلفة التي احتك بها ، وتعامل معها ، سواء بطرق مهادنة ، أو بواسطة الصراع والمواجهة ، وذلك من منطلق أنه لم يكن من الممكن التبشير بالمشروع الجديد دون الاهتمام الفائق بمواقع وبرود أفعال من لم يتخبط في المنظومة الاجتماعية والعقائدية والتاريخية التي أتى بها المشروع الإسلامي مع العلم أن «عروبة» الإسلام لم تكن لتعارض مع الميل الجارف نحو التعارف والتواصل مع الغير ومع الحضارات الأخرى .

وهذا ما يظهر بجلاء في موقف الإسلام من الذمّي ، وفي نصوص علماء الكلام وجدالهم مع أصحاب العقائد الأخرى . وإذا كانت المجادلات مع النصارى وغيرهم ، بما تقتضيه من مهار في المناظرة والمحاورة والمناقضة ، تستهدف الدفاع عن الإسلام ، فإن المجهودات الفكرية التي بذلت في عمليات الدفاع المختلفة أعطت للهوية الإسلامية إزاء الآخر ، مضامين فكرية واضحة ، لا سيما وأن معرفة الآخر النصراني استلزمت وقتاً وجهداً ، وافترضت اطلاعاً وتمكناً من اللغات .

لم تكن الحضارة الإسلامية لتتحرّج في الانتهاز من الحضارات كلها ، أو شعرت بالنقص إزاء الآخرين على صعيد الفكر والمعرفة ، إذ كان طلب العلم يرقى إلى مستوى الواجب الديني ، مهما كانت المملل والثقافات التي تأخذ أو تقتبس منها . هذا ما أبرزه أكثر من مفكر إسلامي ، وما وقف عنده ابن خلدون بشكل مركز . فهو يعبر عن اقتناع راسخ بكون التجربة الحضارية العربية الإسلامية اخترنت قدرة لا محدودة على استضافة الاختلاف واستقبال الآخر . وذلك أن عملية «الاستعجام» مثلاً أنتجت تشاقفاً هائلاً على صعيد العلوم ، وأظهرت العرب «المستعجمة» كفاءات لافئة لفضل المرجعية الحضارية الراسخة في تكوينهم .

وسيعمل البحث ، في كل فقراته ، على تبيان الدور الحاسم للتخيّل الديني في النظرة العربية الإسلامية إلى الغير . ذلك أنه إذا كان القرآن ، والآداب السلطانية ، وكتب

المؤرخين والجغرافيين والرحلات، وبعض الكتاب والمفكرين هي التي تسمح للباحث بالوقوف عند بعض صور وتعبيرات الآخر، سواء كان ذميًا، أو منتسبًا لحضارات الهند والصين، واليونان، والبلغار أو كان زنجيًا أو روميًا أو إفرنجيًا . . . فإن الاجتهادات العربية الإسلامية في موضوع التعامل مع الآخر حكمتها المنظومة الدينية، حتى ولو تدخلت مستويات فكرية أخرى، وهكذا اتكأ للتخيل في اشتغاله على القاعدة الدينية، وجعل منها المرجع والملجأ في النظر إلى الغير، وفي الحكم على الحضارات الأخرى.

الإسلام والعالم

مركزات التصور الإسلامي للآخر

١. تقديم :

من المسلم به أن الإسلام تضمن تصوراً شمولياً ونظرة دينية للعالم وللإنسان، فالحق خلق الكون والطبيعة والإنسان، وسخر السماوات والأرض للإنسان للارتفاع بها اعتماداً على ما يتمتع به من قدرة على التمييز والتدبر، وحدّد له نمطاً سلوكياً وعملياً يتقدم فيه الآخر باعتباره يختلف باختلاف انتمائه واعتقاده وموقفه، أي أن كل الأمور ينظر إليها من زاوية دينية، وتعايش داخل وجدان يعطي للبعد القدسي قيمة مطلقة، لكن الأصالة الاعتقادية في الإسلام لا تتمثل في «التسليم» الساذج بالقول الجديد، وإنما في الدعوة إلى ربط مضامين الاعتقاد بتفاصيل الحياة، وقد استلزم ذلك في سيرورة الرسالة إقامة مسافة جذرية إزاء ما كان سائداً وقتئذ من عقائد وتصورات وعلاقات، وبالتالي صياغة وعي جديد بالذات وبالآخر.

هناك من يعطي أهمية خاصة للمفهوم الفردي للمسلم، والاستقلالية النسبية التي يحوزها الشخص لاكتسب دلالاتها الفعلية إلا ضمن علاقات «تداوتية»، أي داخل «أنا جماعية» تحتضن الذات المختلفة في تجلياتها المتشخصة، في توازن بين الخاص والعام، وبين الذات والآخر. فالإقرار بالأنا أو بالذات هو تأكيد على وجود الآخرين، والأنا تحوز استقلالها النسبي داخل ترابط متشابك مع النحن، ينسحب هذا الفهم القرآني للتفاعل بكل ما يفترضه من شحنة رمزية، على البسيط والمعقد، الخاص والعام، العرب والعالم، ذلك أن التصور القرآني موجه بمشال تُحرّكه الدعوة النبوية في اتجاه الشمول

و«تضرب بجذورها في أعماق الأشواق التاريخية للبشرية»^(١). فالنبي (ﷺ) رسول الجميع، وبلاغه لا يقتصر على العرب من الناس بقدر ما يصر على القول بأنه ﴿رسول الله إليكم جميعاً﴾^(٢) وهو وإن كان واحداً من «الأميين العرب»، أي ﴿رسولاً من أنفسهم﴾^(٣)، فهو حسب الخطاب الإلهي، مرسل إلى كافة الناس ﴿بشيراً ونذيراً﴾^(٤).

يحتوي هذا التصور الشمولي إدراكاً قوياً للاختلاف، بين الكائنات والأجناس، واللغات والعقائد، فهناك اختلاف بين الذكر والأنثى، بين الألوان واللغات^(٥)، وبين الكافرين والمؤمنين، لكن قاعدة التفاعل والتداوت هي حجر الأساس في الاجتماع البشري، وهي التي تحدد هذا التصور والتداوت، في التصور القرآني تعارف وترابط تسنده معايير وضوابط أخلاقية تأتي التقوى في طليعتها^(٦)، وقد اعتبر الأستاذ رضوان السيد أنه «إذا كان القرآن قد نظر إلى الوضع البشري في القرن السابع الميلادي باعتباره وضعاً ناضجاً للتصحيح والتطوير باتجاه الأمة (الجامعة للشعوب والقبائل)، فإن النبي حامل القرآن لم يكن يمكن أن يفهم نفسه ودعوته إلا في السياق ذاته، سياق استمرارية المثال، مع شموله وسياق الخاص (العربي) الذي يطمح إلى الانضواء في العام والتوحد معه (أمة الإسلام)»^(٧).

٢. شمولية الاعتقاد وكونية التصور :

لا جدال في أن الإسلام مثل لحظة فاصلة في التاريخ، فقد أعاد ترتيب الجزيرة العربية أولاً، والمناطق المحيطة القريبة والبعيدة بطريقة لم تحصل من قبل، وتمكن من بسط سلطة مختلفة على أنقاض الأنظمة القائمة آنذاك، ولا سيما البيزنطية والساسانية، وخاض من أجل ذلك، حروباً وغزوات انتهت كلها بإقامة عالم جديد، بل و«بنظام عالمي جديد» وقتها، يشر بدين توحيدى، وبسلطة سياسية، وينمط علائقي مغاير،

وفرض الإسلام بذلك سلطته من خلال إقصاء كل السلط التي كانت تزاخمه أو تعاديه أو تهدده، وقد تقدم الإسلام بوصفه منظومة شاملة تحمل تصورا محددا للعالم وأخلاقيات جديدة تدعو إلى الجمع بين الفهم الميتافيزيقي، والعمل على نحت علاقات تداونية وتفاعلية، وقد تبلورت معالم هذه المنظومة بالتدرج، وضمن سياق صراعي داخل فضاء اجتماعي وثقافي وعقائدي خاص كانت فيه الناس تتكلم وتفكر وتؤمن، تتكلم العربية وغيرها، وتفكر بانتهاج أنماط يتداخل فيها الفكر السحري والديني والأدبي . . . إلخ، وتؤمن بالله (اليهودية والنصرانية)، وبالوثنية وغيرها، لذلك لم يكن «إمكان الكتاب الجديد أن يتجاهل كتب القدماء»^(٨). وهو بقدر ما مَوْضِع، عقائديا، رسالته ضمن الدين التوحيدي، أسس بالمقابل كيانه ومصيره ضد الآخرين بالتي هي أحسن، أو بالحزم الاضطراري، ولأن الدعوة المحمدية كانت تواجه واقعا فسيفسائيا، من النواحي الاجتماعية والعقائدية؛ فإن الهواجس التنظيمية كانت لها، ولاشك اعتبار خاص بحكم الاستراتيجية المتوازنة التي نهجها النبي (ﷺ) بين المجادلة والإقناع بفعل الدفق القرآني، وبين أساليب ترجمة الرسالة إلى واقع قائم، وحتى لو اعتبر البعض بأن موقف الإسلام من الآخرين أملت اعتبارات «من طبيعة عملية»^(٩)، فإن الفوران الديني، والشغف العام الذي حرك المؤمنين الذين اعتنقوا الإسلام جعل المتخيل الديني يكتسح كثيرا من مستويات الحياة الاجتماعية، ومنها النظر إلى الآخر سواء بوصفه اختلافا دينيا، أو باعتباره خارجا عن الحكم الديني.

ويمكن القول بأن الرؤية القرآنية للآخر تتحدد في المتخيل الديني العام على أساس وحدة الانتماء الإنساني والعقائدي من جهة، وعلى قاعدة التمايز والاختلاف من جهة ثانية، فالأساس التكويني الأول لا ينفي القاعدة الثانية، هكذا يقر الخطاب القرآني بالاختلافات العرقية واللسانية والاجتماعية، وكذا في الدين والرأي، وهو إذ يؤكد على هذا المبدأ فللدعوة إلى التواصل و«التعارف» بكل ما يفترض ذلك من نبذ للتعصب، ولإرادة الإلغاء.

في تقديمه لمشهد الاختلاف تحكم الخطاب القرآني نظرة ثنائية: فهناك الكون الديني، وهناك العالم اللاديني. والحكم على «أهل الكتاب» ليس عامًا، وإنما يميز فيه بين اليهود والنصارى، وبعد صراع مرير مع اليهود بشكل أخص انتهى القرآن إلى تشكيل تصور عنهم في غاية السلبية، فهم يتميزون بالنفاق والكذب، والجشع وإثارة المصلحة المادية، والغطرسة والجبن والتآمر والغدر، وانعدام الالتزام، والسفاهة... إلخ، ومع ذلك، فإنه لم يخلط فيهم بين الكافر والمؤمن، ودعا إلى محاربة الكافر، وأقر للمؤمن بشرعية اختلافه الديني مع الإسلام، فالتأكيد المتكرر للقرآن على كونه ينتمي للكتاب الواحد لم يمنعه من الاعتراف بالاختلاف، لذلك حمل عن المسيح والإنجيل والنصرانية صورة أقرب إلى الإيجابية منها إلى الموقف السلبي، فالمسيح نبي مؤيد بروح القدس، وتميز من اتبعه بالرفقة والرحمة، أمّا من لم يحترم تعاليمه فإنه من الفاسقين، اتخذ النصارى من الدعوة المحمدية موقفًا متفهماً فيه «مودّة» وتعاطفًا، لكن تأليه المسيح أو اعتباره ابن الله، فذلك ما لا يمكن تصديقه أو القبول به دينيًا، وأمّا الكفار والمشركون فإنهم خارج الحكم الديني؛ لذلك يتعين الاستمرار في محاربتهم مهما كانت الظروف والأحوال، لأن الإقرار بالاختلاف الديني شيء والمواقف اللادينية، أو المناهضة للدين تفترض نهجًا آخر.

يوفر النص القرآني أكثر من آية لتسوية القول بالاختلاف، ويجد المرء في نفس الآن آيات كثيرة تدعو إلى التشدد سيما إزاء الكفر والشرك فهو ينفي الإكراه في الدين، ويعترف بأنه لكل منكم «شرعة ومنهاجا»، وكل ﴿يعمل على شاكلته﴾^(١٠) كل ذلك من أجل بلورة أخلاقيات للتعارف والتساكن، فهو على الرغم من موقفه الحازم من الكفار، يدعو الناس إلى أن يدخلوا ﴿في السلم كافة﴾^(١١)، وأن يتحاوروا بالتي هي أحسن ويسيروا هذا الحوار على قاعدة العدل، لأن الله «يأمر بالعدل والإحسان»، وهو إذ يقول بالمعاملة بالمثل، فليؤكد من ناحية أخرى على العفو والصفح والتسامح.

لقد أشار النص القرآني في أكثر من سياق، إلى بعض الجماعات التي استوطنت الجزيرة حيث كانت تقرأ وتتلو وتكتب، وتحوز علما وتشره حسب قنواتها وأساليبها الخاصة، من أهل الكتاب ومن غيرهم، هكذا تقدم الإسلام إلى العالم بوصفه تعبيرا عن فوران قدسي وإنساني جديد، وهو يحمل مقومات المشروعية الدينية والرمزية لإعادة بناء إنسية جديدة تدعو إلى تأسيس منظومة مغايرة ضمن فهم خاص للأخر وللأختلاف الديني، افترض التبشير بالمشروع الجديد ضرورة الاهتمام الفائق بصور الآخر، بمواقفه، بردود أفعاله، وبوظائفه في التشكيلة الاجتماعية والتاريخية والعقائدية التي كشفها الاسلام... ولأن المشروع اندرج ضمن سياقات متعددة للصراع والتوتر، بل وللتنافس والمواجهة بين جماعات دينية تنتمي لنفس الجذر التوحيدي (أهل الكتاب)، أو فئات اهتزت مواقعها ومصالحها بسبب بعده التغيير، فإن الخطاب النبوي وأنماط التدخل التي نحتها في صيرورة التبشير والبناء، تميزا بإحساس لاف بقيمة الآخر، سواء في صوره المهادنة أو في مواقفه العدائية، لقد كان الأمر يتعلق برهان متعدد الأبعاد يوجهه شغف ناظر في التاريخ، أو بالأحرى شغف من النوع الذي يخلخل اطمئنان التاريخ، ويؤسس تاريخية جديدة، فضلا عن أن ذلك كان يفترض إقامة سلطة على أنقاض سلط متعددة، سلطة نزعت إلى الوصل والفصل في نفس الآن، بين ما يوجد وما لم يوجد بعد، كما عملت على نحت نظام مغاير للمعنى في تمفصل خارق مع إرادة جامحة للقوة، عملت على الجمع، سواء في زمن النبي (ﷺ) أو في فترات من اثمن على نهجه من الخلفاء الراشدين، بين «الترغيب والترهيب»، أي توظيف عامل العنف - حين تفترض اللحظة ذلك - في سيرورة بناء المشروع، واستثمار الوسائل الرمزية في عملية إقامة تمدن جديد، غير أن القوة كانت عنوان المرحلة التأسيسية، فمعارك بدر وأحد والخندق والحديبية كانت حاسمة في فرض النظام الجديد، وأما الدخول إلى دمشق، والقدس، وفتح العراق وفارس، والتوسع جهة الغرب بضم مصر وشمال إفريقيا، فإن الإسلام بذلك يكون قد بسط سلطته على حساب أكثر من سلطة، وصاغ عناصر هوية ضد آخر

يتخذ في كل مرة صورا ومضامين مختلفة، فالمواجهة مع اليهود في المدينة والاتفاق مع نصارى الجزيرة؛ خوّل للإسلام إمكانية تحديد موقع لهذا الآخر الداخلي ضمن تصور ووظيفة مميزين في التشكيلة الرمزية والاجتماعية الجديدة، كما أن طرد البيزنطيين والساسانيين من شمال الجزيرة أتاح له فرص الاحتكاك العنيف، والمسالم أحيانا، مع آخر من نمط مغاير يحمل بعض صور الاختلاف الذي صاغه الخطاب القرآني، كما يحرك عناصر أخرى أملت على السلطة الإسلامية الجديدة ضرورة اجتراح أساليب ملائمة للتواصل أو الصراع، بما فيها المراسلات أو الوفود تبعا لمنهج دبلوماسي واضح ودقيق، يدعوهم إلى الالتحاق بالعقيدة الجديدة^(١٢).

وعلى الرغم من مقتضيات التفاوض المختلفة التي فرضتها ملابسات الزمن؛ فإن الاجتماع الجديد استلزم تدخلات تشريعية ملائمة للأنماط المختلفة للمعيش داخل البلدان التي وقعت تحت السلطة الإسلامية، فالنظرة القرآنية للآخر، ولأهل الكتاب افترضت اجتهدا إسلاميا متجددا حسب الظروف والأوضاع والتحديات التي واجهها المد الإسلامي^(١٣)، سيما وأن الفاتحين الجدد «لا يملكون خططا بعيدة المدى، أو تصورا واضحا لطرائق إدارة الدولة وتنظيمها، وقبل ذلك وبعده ما كانوا- باستثناء نص الجزيرة- يدرون كيف يتعاملون معهم من الناحية الدينية، وقد توصلت تلك الأطراف لإقامة علاقات في ما بينها بدافع ضرورات العيش والاستمرار من جهة المسيحيين، والمصلحة، من جهة المسلمين»^(١٤). ولأن المسيحيين كانوا يشكلون جماعات وطوائف تعتمل داخلهم خلافات وتناقضات في التأويل والطقوس والمواقع، بين السريان، والنساطرة واليعاقبة، أو الأرثوذكس المرتبطين، بأشكال مختلفة، بالدولة البيزنطية، فإن السريان بقدر ما رأوا «في الإسلام سوطا من سياط الله سلطه على البيزنطيين الذين انحرفوا عن الدين الحق»^(١٥)، اضطر الأرثوذكس من جهتهم، للتعامل مع المسلمين على الرغم من ارتباطهم الديني والسياسي بالدولة البيزنطية إذ «احتاجوا إليهم في الإدارة، واحتاجوا إليهم في البناء، واحتاجوا إليهم في التعرف على

البلاد»^(١٦). كان لابد إذن من ترتيب هذه الاختلافات ، فيإرادة القوة لم تكن كافية ، وحدها لبسط الهوية السياسية والاجتماعية للفاتحين ؛ لأن الأمر افترض تنظيم اتفاقات ، وإجراء عقود صلح ، وتنظيم أمور الضرائب ، من جزية وخراج ، أي إقامة مؤسسات الدولة وبناء شروط التوازن ونحت أساليب لتسيير الاختلاف .

ولعل من الأليق أن نشير إلى أن التتويج الديني المطلق لمفهوم التوحيد مع الإسلام ، والصيغة الشمولية المكتملة التي تقدم بها إلى المسلمين وإلى الآخر ، والانتصارات الكبيرة التي أنجزها في ظروف استثنائية ، وبإيقاع زمني فريد ، كل ذلك جعل المسلمين ، قادة وتابعين ، يقتنعون بأن «الدين عند الله الاسلام» ، وبأن الآخرين عليهم التسليم بهذه الحقيقة ، إن بالعنف ، أو بالتفاوض ، أو بالتساكن ، المهم أن يقبل الآخر الداخلي ؛ من أهل الكتاب أو غيرهم ، و«الآخر الخارجي» ، من الدول المحيطة بدار الإسلام ، بتفوق المشروع الإسلامي ، ديناً واجتماعاً وحضارة .

اقتضت السيرة التاريخية للإسلام من المسلمين إيجاد آليات مبتكرة لإدارة الاختلاف الذي ما انفك الفاتحون يواجهونه في عمليات اختراقهم للفضاءات والثقافات الجديدة التي أخضعوها لمنطق السلطة الإسلامية ، ومن الارتباط الحميمي والوجداني بالنص اضطر الفاعل الإسلامي إلى اجترح حلول واقتراح مخارج لمشاكل مستجدة ولحالات إنسانية جديدة ، فاستدعى العقل والمخيلة من أجل ذلك ، وانخرط في عملية معقدة للجمع بين منطق القوة وقوة العقل ، وفي رهانات تأويلية وجدالية للنص للواقع وللآخر .

٣. الإسلام والعالمية :

افترض دخول الإسلام إلى العالم انشغالا لافتا بالتاريخ والجغرافيا ، واستلزم منطق الفتح الاهتمام بالفضاء المفتوح كشرط لترتيب شؤون السيادة ، وصار «وصف الأقاليم

والعناية بها جزءاً من أخبار الفتوح والمغازي والتنظيم . ثم جاء الاهتمام بدور المنطقة من حيث ثروتها ومقدرتها على دفع الضرائب ، وهنا نجد أول استقلال لما يصح أن يسمى الجغرافية الإدارية أو السياسية عن الفتوح والمغازي»^(١٧) ، وشكلت أدبيات «الممالك والممالك» أدوات إجرائية لتسهيل شؤون تنظيم السلطة الاقتصادية والسياسية .

تمثل هذه الكتابات نمطاً خاصاً من النظر إلى المكان والانسان والآخر ، إذ تلى ذلك نصوص لا تقتصر فقط على هذا الاعتبار تحركها أسباب الحج والتجارة وطلب العلم وتقدير الخبرة والسفر ، وسواء حصل هذا الانتقال داخل «مملكة» الإسلام أو خارج «حدودها» فإن عمليات الترحُّل هذه تسعف الكاتب أو الراوية المسلم على الاحتكاك بالآخرين ، و«الاحتكاك العملي والتعامل اليومي يؤديان إلى التجربة ، والتجربة تفيد التعرف ، والتعرف عنصر أول من عناصر المعرفة»^(١٨) من ناحية أخرى فإن «بدايات التأليف الجغرافي العربي خضعت لتأثير يوناني وروماني واضح ، ذلك أن مجموعة الجغرافيين الذين كتبوا في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) كانوا متأثرين إلى درجة كبيرة بالمعرفة اليونانية الرومانية ، وإذا جاز لنا تسمية هذه المجموعة من النتاج الجغرافي لسميناها الجغرافية اليونانية مترجمة أو معربة»^(١٩) ، ويدخل ضمن هذه الفئة ابن خردادبة ، واليعقوبي ، وابن رسته والخوارزمي وابن الفقيه . . . وقد أخذ هؤلاء المعرفة الجغرافية إما عن اليونان رأساً أو عن الترجمات أو الخلاصات السريانية والأرمنية . وعندما نقول المعرفة الجغرافية اليونانية فإننا نعني بطليموس وآراءه الجغرافية»^(٢٠) وأما المدرسة العربية فإنها تمثلت في البلخي ، والأصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي . التأثير البطليموسي واضح على مستويين : الأخذ بالطول والعرض والموقع من جهة ، وتبني تقسيم العالم إلى سبعة أقسام من جهة ثانية . أغلب الجغرافيين والرحالة العرب التزموا هذا التصور وأخذوا به في النظر إلى جهات العالم وإلى «مواضعه العامرة» وشعبه .

هكذا نعرش على كتابات كثيرة عن الهند والصين ، لدرجة أن بعض الباحثين رأى إمكانية إدراجها ضمن «استشراق» عربي وسيط^(٢١) نظرا للمعلومات الهائلة التي اكتسبوها عن هاتين الحضارتين ، وليس من الصعب الوقوف عند نظام عربي إسلامي من الصور عن الهند والصين والزنج ، وصاغ العرب خطاباتاً جغرافياً عن بعض الحضارات ، وأما شعوب الشمال من ترك وصقالبة وروس وبولونيون فذلك ما نجد العشرات من الكتب تتعرض لهم بالوصف والتعليق وإصدار الأحكام غير أن الشمال باعتباره إقليماً يخضع لتصور «كوسمولوجي» خاص ، يضم شعوباً ، منها ما استطاع الفضول العربي التعرف عليها ، فقد بقي منفلتاً لإرادة المعرفة العربية ، أو على الأصح في أشكالها الواضحة والتميزة .

تميز العرب ، عموماً ، في الأمصار بين عالم العرب وعالم العجم ، بين الإيمان والكفر ، وبين التحضر والهمجية ، ولكل كاتب إقليمه المرجعي ومركز العالم ، بغداد أو دمشق أو القسطنطينية أو قرطبة^(٢٢) . فروق هائلة بين الكتاب ، في التصور والموقف والإحساس من إقليم إلى آخر ، ومن انتماء إلى آخر ، داخل المجال الإسلامي العام ، لدرجة أنهم ينسبون «التمييز الجوهري من حيث المبدأ بين البلدان الإسلامية (دار الإسلام) ، وباقي البلدان الأخرى ، البلدان المعرضة للحرب من أجل الإيمان (دار الحرب)^(٢٣) . الأمر الذي انعكس بكيفيات مختلفة على الفهم الذي أنتجه الكتاب العرب للمكان وللحدود ، ذلك أن لمملكة الإسلام حدود متموجة في الواقع وفي المخيلة ، فمفهوم الحدود غير واضح في القاموس المستعمل من طرف هؤلاء الكتاب ، أو بالأحرى لا ينطبق على معنى الحدود التي تفترض سلطة أو رقابة ما^(٢٤) . لاتعدم اللغة العربية ألفاظاً أخرى للإشارة إلى ما يفيد الحد أو الحدود ، مثل الثخم أو الرباط ، أو الثغر . . . إلخ ، وهذه مصطلحات لها حمولة «حربية» تستعمل في سياق العلاقة المتوترة مع من يترقب بالإسلام ، سواء مع بيزنطة في آسيا الصغرى أو في شمال الأندلس بإسبانيا .

ومع ذلك مثلت الصحراء والهند والسند والقوقاز مع البلدان الأناضولية والشواطئ المتوسطية الشمالية وإسبانيا «حدود» طبيعية اختلطت أحيانا مع فهم ملتبس للحدود الدينية والثقافية، بين ما مثل في الوعي العربي الإسلامي «مملكة الإسلام»، وعالم التوحش والهمجية والكفر... إلخ. وسواء كانت هذه الحدود ثغورا أو تخوماً أو رباطات فإن الفهم العربي الإسلامي للحواجز الفاصلة بين الإسلام والآخر بقي فهما غامضاً ومنزاحاً، إلا أن الجغرافية السياسية قد أسعفت النخب المسلمة من تعيين مجموعة من الشعوب ومنها سمات حضارية تخصها، فالأتراك يتميزون بالشجاعة وخوض الحروب، والبيزنطيون بعلم تحويل المعادن والميكانيكا، والهنود بالطب وعلم التنجيم، والصينيون بالصناعة التقليدية، وأما العرب فإنهم شعب الكلمة بكل أشكالها التعبيرية سمواً في الشعر أو في غيره من أنواع البيان والبلاغة.

ولأن بيزنطة مثلت في الوعي الجغرافي والسياسي العربي الآخر المعاند باستمرار بل الآخر العدائي المهدّد لتطلعات الواقعة الإسلامية باعتبارها إرادة جهادية للقوة، وحقيقة عالمية جديدة، فإنها - أي بيزنطة - تقدمت باعتبارها تناقضاً فعلياً ومُتخِلاً، «قريباً وبعيداً، محتقراً ومُعرباً، مختلفاً وشبيهاً، ولكنه عدو بلا أدنى شك»^(٢٥). وعلى الرغم من الاحتكاك المباشر والمستمر بين الإسلام وبيزنطة، فإن ذلك لم «يؤد إلى معرفة قريبة، بل أدّى إلى بعض من المعرفة الإدارية المضبوطة المختلطة بغير المضبوط منها، وبعض المعلومات حول نظام المراتب السياسية وغيرها... وهو مصور على أسس نماذج الحكم السلطانية، كما أن هذا التماس المستمر حرباً وسلماً وسفارة وأسراً واقتداء، وأثراً وتعلماً وتعليماً هو ما جعل من بيزنطة مكاناً محسوساً بالفعل ببشره وعاداته وحياته اليومية، بل استقرت بيزنطة في عرف الكتابة العربية مساحة جغرافية إدارية وسياسية من جهة، ومساحة خيالية تختلط فيها الأسطورة بحقيقة السلطان البيزنطي وإرادة الدلالة عليه من جهة أخرى»^(٢٦). ومهما تكن وظائفهم ومهارتهم، مؤرخين جغرافيين، كتاباً أو مسافرين لعبت الخلفية الدينية للنخب العربية الإسلامية الدور الحاسم في إدراك الآخرين

في تعبيراتهم الواقعية، أو في تجلياتهم المتخيلة، لاشك أن لكل آخر حساب في التجارة، والسياسة، والحرب والسفر، يعترف المثقف المسلم بوجود مظاهر حضارية لدى شعوب مختلفة، يقر بجذارة عطاءاتها، ولو أن بعضها يخضعها لحسابات استراتيجية وسياسية، كما هو الشأن بالنسبة للمناطق الشمالية «من تركستان إلى أوروبا المتوسطية»^(٢٧) إلا أن مقياسي الإيمان والكفر، التحضر والتوحش مثلاً القاعدة المرجعية التي من خلالها أصدرت النخب العربية الإسلامية أحكامها على الآخرين، ولم يكن ذلك أمراً هيئياً، لأن معرفة الآخر، أو التمازج مع حضارته، بعد التعرف عليه، تظهر من خلال الكتابات العربية الإسلامية في منتهى الصعوبة والتعقيد، فيها ما يشكل الداخل مصدرها الأساس، ومنها ما يفترض التنقل والترحُّل والمغامرة للقاء المجهول، وقد «قام الاحتكاك في الداخل على عنصرين: الكتب والاسترقاق أدت الكتب المنقولة عن اليونانية وغيرها، إضافة إلى التصورات العامة عن الشعوب الأخرى التي انتشرت في البلاد التي أضحت أراضي دار الإسلام إلى وجود انطباعات أولية عن كافة الشعوب وأخبار متداولة حول الشعوب الوهمية كأهل جزيرة النساء ويأجوج ومأجوج، أما الاسترقاق فقد أدَّى إلى تصنيف الشعوب حسب أنواع الخدمات التي تقدمها، كالحرب والقهر للترك والصقالبة، والعمل اليدوي للزنج، والمتعة للنوبيات، أما الاحتكاك الخارجي، فقد قام بدوره أيضاً على الكتب وإن قام إلى درجة على الاحتكاك الحربي، إذ ذهب التجار والرحالة إلى خارج دار الإسلام بانطباعات وتوقعات مسبقة ورجعوا وهذه الانطباعات لم تنكسر بل ازدادت تحديداً بالأخبار التفصيلية، وحدة تبعاً للصلة إلى ربطتهم بغيرهم، فشدد زوار القسطنطينية على السلطة والأسطورة، وألح ملاحو المحيط الهندي على الغرائب والعجائب، وأفاض الخبراء في القارة الإفريقية بوصف الغرابة والهمجية»^(٢٨).

لاشك أن عملية الحكم على الآخر تنهض دوماً قياساً إلى النظرة إلى الذات، لذلك لاشيء بريء، كل مشاهدة أو وصف أو كتابة أو حوار أو حكم متورط في المسابقات

والمقاصد، لأن المعرفة لم تكن تنتج لذاتها أو لأغراض الفضول المحض، اعترف بعض الكتاب العرب بالطابع العجائبي لما شاهدوه، سيما إذا كان العجب، حسب تعبير القزويني، هو تلك الحيرة التي «تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره»^(٢٩) ولم يقتصر الأمر على الكائنات الحية أو التضاريس الطبيعية، فالجماعات البشرية، بدورها تتقدم إلى المرء كموضوع للتعجب، الذي لا يسقط إلا بـ«الأنس وكثرة المشاهدة»^(٣٠).

تعرضت مناطق كثيرة للمسح «الانثوغرافي» العربي الإسلامي، وبلدان وشعوب اتخذت موضوعا للمشاهدة والمعاينة، ولكن هل سمح ذلك بإنتاج معرفة بالآخر، وهل التراث الجغرافي العربي الضخم يسعف على تكوين نظرة محددة عن العالم الأوروبي، ببزنطية وإفرنجية خصوصا في فترة تاريخية أشرت على منعطف حاسم في تاريخ البحر المتوسط؟

يحضر الوعي العربي الإسلامي بالآخر حسب مراتب ومستويات، وسواء اكتسبه من خلال المشاهدة أو التجارة أو السفر أو الكتب أو الاسترقاق... إلخ فإن هذا الوعي انجذب نحو قارات بعينها دون غيرها، واقترب من شعوب محددة واصفا حياتها اليومية وعاداتها و«غرائبها»، في حين بقيت أقرب المناطق لعالم الإسلام - بيزنطة والشمال الغربي الأوروبي - هلامية في تفاصيل هذا الوعي.

٤. انتقال الأفكار وتلاقح الحضارات :

يلاحظ جل الدارسين للتراث العربي الإسلامي، أن الواقعة الإسلامية تميزت، منذ بداياتها، بميل مثير نحو الانفتاح والتركيب والتشاقف سواء على الصعيد الديني، الإنساني، السياسي أو الثقافي، نهلت من كل الحضارات بدون أدنى شعور بالنقص أو الحرج، وبنت حضارة نموذجية بفضل هذه القدرة، الاستثنائية في حينها، على استنبات

التجارب والإنصات إلى عطاءات وإبداعات الآخرين، سواء البيزنطيين، اليونانيين، الفارسيين الهنود أو الصينيين إلخ، في السياسة والإدارة، في الفلسفة والطب، في الفن وأساليب الحرب، وفي التجارة وأنماط العيش... إلخ. عملية ثقاف لا مثيل لها أعطت للواقعة الإسلامية وهجها الحضاري وطابعها النموذجي، بل إن المواجهة التي استغرقت أكثر من قرنين مع المسيحية الغربية ولدت نمط ثقافتها الخاص، وهنا إذا تبرّم المسلمون من الصليبيين لاعتبارات عقدية، فلأنهم تعاملوا معهم، على الرغم من انكسارهم العسكري في الحملات الأولى من موقع المتوفق، سيما وأن الهمجية التي عبّر عنها الصليبيون لم تكن على الإطلاق، لتحفز المسلمين على التواصل معهم، بل إنهم مثلوا أثناء حملاتهم وبعدها، ولربما إلى الآن أكبر عملية «اغتصاب»^(٣١) للوجود العربي الإسلامي، ورضة حقيقية في الوعي واللاوعي الجمعي، في حين أن الإفرنج تمكنوا من الاستفادة من أنماط العيش الإسلامية، «وتبلدوا»^(٣٢) - بتعبير أسامة بن منقذ-، بل ومنهم من تحرك للوقوف على الأسباب العلمية والدينية والفكرية التي كانت وراء البناء الحضاري العربي الإسلامي.

إذا كان سؤال انحطاط العرب والمسلمين، مع أنهم انتصروا عسكرياً على الإفرنج، مازال يصاغ بطرق مختلفة لحد الآن، فإن انطلاقة أوروبا المسيحية غير منفصلة عن الاحتكاك الذي حصل طيلة قرون على صعيد البحر الأبيض المتوسط، احتكاك متعدد الأشكال وفي كافة المجالات، هناك من الباحثين الغربيين من رأى في ذلك سبباً في تأخر النهوض الأوروبي، على اعتبار أن الاكتساح الإسلامي لمناطق شاسعة في القارات المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط عطل الانطلاقة الاقتصادية الأوروبية، وهذا ما يذهب إليه «هنري بيرين» في كتابه عن «محمد وشالمان»^(٣٣)، في حين أن «موريس لومبار»، يرى، على العكس من ذلك، أن تكون الإمبراطورية الإسلامية وامتدادها على الفضاء المتوسطي أدت بالعرب إلى اقتراح أسباب نهضة الغرب، بل أن «إبداع الإمبراطورية الإسلامية الجديدة أنتج، بالنسبة لهذا الغرب ذاته، نمواً مذهشاً. وإذا كانت الغزوات

الجرمانية قد عجلت بانحطاط الغرب، فإن الغزوات الإسلامية ولدت استنهاضا جديدا لحضارته»^(٣٤).

ومهما كانت الأسباب التاريخية والحضارية التي كانت وراء انطلاقة أوروبا، أو العوامل الإثنية، والسياسية، أو المؤسسية التي أدت إلى التراجع الحضاري العربي الإسلامي، فإن ما هو مؤكد هو أن قاعدة الصراع والتنافس كانت في أساس النظام العلائقي بين الإسلام وأوروبا المسيحية. وبحكم آليات اشتغالها المختلفة في الحرب والتجارة، وفي السفر والدبلوماسية، في الجدل والترجمة، أنتجت ثقافتها وأنماط تبادلها الفكري والثقافي.

وعلى الرغم من كل الصور النمطية التي شحنت المتخيل المسيحي بكثير من مشاعر العدا والتبرم والاستبعاد، فقد حصلت أكبر عملية ثقاف شهدتها حوض البحر الأبيض المتوسط في كل المجالات، التقنية والاقتصادية والعلمية والفكرية والدينية والحياتية. وإذا كان مؤرخو الأفكار الغربيين يقفزون على اللحظة العربية الإسلامية في تاريخ العلم والفكر، فإن البعض منهم يخرج على هذا «الإجماع» الإيديولوجي الغربي، منطلقين من ضرورة الاعتراف بجدارة التاريخ العربي الإسلامي، حضارة وعلماء وفلسفة، والالتزام، أقصى ما يمكن، ببعض شروط «الموضوعية». وهكذا، ولكي تتفادى السقوط في نزعة سطحية لتمجيد الذات، فإننا سنستدعي كتابات بعض الباحثين الأوروبيين الذين خرجوا عن هذا «الإجماع الإيديولوجي» الذي بناه «العقل» الأوروبي المسيحي لإقصاء اللحظة العربية الإسلامية الوسيطة من تاريخ الأفكار الإنسانية.

لا يهمننا هنا إعادة إنتاج مأخذ واحتجاجات العرب على «لاموضوعية» الباحثين الغربيين، أو عن نزعتهم، «المتمركزة حول أوروبا»، أو عن «عنصريتهم»، أو عن استمرار التأثير الكنسي الوسيط في الموقف من الإسلام... الخ، بقدر ما تشغلنا الكيفية التي تمت بها عملية انتقال الأفكار من الإسلام إلى أوروبا المسيحية، من الثقافة العربية

الإسلامية، كتركيب فكري وحضاري لروافد ومصادر حضارية مختلفة، إلى الثقافة الأوروبية المسيحية التي اضطرت إلى الانفتاح على عطاءات الإسلام على الرغم من الانسداد العقدي والتحوط الديني، والمتخيل العدائي الذي أقامته المؤسسة الكنسية ضد الإسلام، كما أننا سوف لن نتوقف عند القدرة اللافة التي أبانت عنها الثقافة العربية الإسلامية على التفتح والاقتراس والأخذ من الغير مهما كان هذا الغير، واستنبات معارف وعلوم وفلسفات داخل التربة العربية بدون أدنى شعور بالنقص أو التبرم من الاختلاف. فإلى جانب المرجعية القدسية الضابطة، كان طلب العلم يرقى أحيانا إلى مستوى الواجب الديني، تحصيل المعرفة كيفما كان مصدرها ووطنها، وعقائد ناسها، وتعويض النقص المعرفي دون أدنى شعور بالنقص.

يعتبر «موريس لومبار» أن التاريخ الإنساني شهد مرحلة شرقية بكل المقاييس، ففي «كل المجالات، وكل المظاهر مثل العصر الوسيط، من تأسيس القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي، إلى الحركة الكبرى للصليبية، إلى القرن الحادي عشر- مرحلة شرقية في التاريخ». ^(٣٥) ينطبق هذا الحكم بالدرجة الأولى على القرون الثلاثة التي تمتد من أواسط القرن الثامن إلى أواسط القرن الحادي عشر، والتي تصادف وصول العالم الإسلامي إلى قمة ازدهاره ونهضته. أنتج الشرق الإسلامي «أكبر المراكز المنشطة للحياة الاقتصادية والثقافية» ^(٣٦) في الوقت الذي كان فيه الغرب لا يوفر إلا فضاءات فارغة ومتلقية لعالم انسحبت منه الأنشطة التجارية والثقافية منذ انحطاط روما والغزوات «البربرية».

ولعل تنظيم الواقعة الإسلامية لعمليات التثاقف داخل الأطر الحضارية وفي المدن الإسلامية الكبرى، جعلتها تنقل هذا التقليد إلى كل فضاء جديد تمكنت منه، هكذا تحولت الأندلس وبعض الجزر المتوسطية إلى مراكز حقيقية للتحصيل والترجمة، مراكز لعبت دور جسور لا تتوقف فيها الحركة على صعيد الاقتباس واللقاء والتثاقف، ويرى

البعض أن إشعاع الثقافة العربية الإسلامية «ساهم، بشكل كبير، في التطور الثقافي لباقي أوروبا والغرب المسيحي، وذلك أنه على الرغم من الحروب، وفي لحظات الهدنة، كانت تتم لقاءات سلمية كثيرة، تجارية وثقافية بين أوروبا التي بقيت «أوروبية» وأوروبا العربية»^(٣٧).

وكان اللقاء الإسلامي المسيحي الأوروبي، الذي دام أكثر من سبعة قرون على أرض أوروبا نفسها، أبعداً هائلة على تطور الحالة الثقافية الأوروبية، فالإسلام في لحظات امتلاكه للوهج الروحي، ولقدرته على إعادة ترتيب المكان والتحكم في الزمان، استطاع أن يُحول «فكره إلى أفق كوني وإلى كلية أسعفته على إبراز هويته»^(٣٨). ومن هذا الموقع تمكن من توصيل معارفه وعلومه وتجاربه في التأمل الفلسفي وفي العلاقة بين الدين والفلسفة... الخ.

ولعل إرادة القوة الإسلامية، في عفوانها وزخمها، بما افترضته من انتزاع لفضاءات واسعة من يد المسيحية ومن تحدّ عسكري، حتى في عقر مناطق نفوذها بأوروبا، ومن نموذج حضاري متفوق، كل هذه الاعتبارات دفعت المؤسسة الكنسية إلى أن تنتفض في شكل رد فعل إيديولوجي وعسكري من خلال الحملات الصليبية المختلفة، أولاً - ببناء نسق دعائي لحدود لخيالاته في تشويه النموذج الإسلامي، نبيا ودينا وإنسانا وحضارة، وثانياً - بتجيش جحافل من كل الفئات طمعاً في استعادة الأماكن المقدسة وهزم «الظلام الإسلامي» وإشاعة أنوار المسيحية و«الإيمان الحق». انطلق المشروع الصليبي في «كليرمون فيران» على يد أوربان الثاني، لكن مقدماته تأسست في الأندلس، مثلما أن عمليات الثقافت ابتدأت في الأندلس^(٣٩). وإذا كان التشويه المبالغ فيه الذي تعرض له الإسلام من طرف المؤسسة الكنسية تمّ للتعويض عن نوع من «الشعور بالنقص» و«إسقاط الجانب المظلم في الشخصية الأوروبية على الإسلام» كما يقول «مونتغمري واط» فإن هذا الباحث نفسه يعتبر أن فتح الإسلام لأجزاء من أوروبا «ليس فتحاً أجنبياً» لأن

العرب ، باعتبارهم ممثلين لحضارة خصبة تمكنت إنجازاتها من تغطية جزء كبير من العالم ، ومددت منافعها وميزاتها الإيجابية ، فيما بعد ، إلى المناطق المجاورة ^(٤٠) .
 ويجمع الباحثون على أن الأندلس وصقلية مثلتا قاعدتا انطلاق كبير لعمليات الاقتباس التي قام بها الأوروبيون من الثقافة العربية الإسلامية ^(٤١) . ونحن حين نستعمل لفظة «تثاقف» للتعبير عما حصل ، في هذا المنعطف التاريخي والثقافي الكبير ، فإننا نعني به لجوء أوروبا إلى الاقتباس من النظام الثقافي الإسلامي من جانب واحد ، فالتثاقف تم على صعيد البنية الثقافية الأوروبية من حيث إدخالها إعطاءات إبداعات العرب والمسلمين ، أكثر مما جسد تبادلاً فعلياً . صحيح أن المسلمين لم يترددوا في الأخذ عن الإغريق والثقافات الراقية الأخرى ، وبدون أدنى شعور بكونهم اقترفوا تعدياً ما للحدود الثقافية التي تفرضها العقيدة ، سيما وأن النصيحة النبوية تدعو المسلم إلى تخطي كل الحدود لطلب العلم . بل إنهم تمكنوا ، وباقتدار لافت ، من تكييف ما أخذوه من الغير بالتربة الثقافية العربية الإسلامية ، بشيء من المقاومات ولاشك ، بسبب الصراعات الإيديولوجية والسياسية اللامتوقعة التي ميزت التاريخ العربي الإسلامي ، لكن عملية الهضم أنجزها «العقل» العربي الإسلامي بأشكال ساهمت باقتراح انفتاحات فكرية وعلمية لحدود لها للغرب اللاتيني .

وعلى الرغم من المتخيل العدائي التي عملت المؤسسة الكنسية على إقامته وإشاعته ضد الإسلام ، فإن هزيمة الصليبيين في الشرق العربي وما تلاها من تحولات على الصعيد الأوروبي الداخلي ، أفضت إلى الإنتباه إلى ماتحملة الثقافة العربية الإسلامية من أسباب القوة على الصعيد العلمي والفكري ، بل إن « التأثير المتصاعد للشرق الإسلامي في أوروبا نشط التطور الذهني » ^(٤٢) . ومن الحذر التام انتقل الفضول الأوروبي اللاتيني إلى إعلان الرغبة في « معرفة » هذا الكيان الذي يمثل وجوداً تناقضياً ، ثم إلى الأخذ والاقتباس من علمه وفكره وذوقه . . . الخ . انطلق الفضول من الرغبة في تجاوز الجهل المسيحي الأوروبي بالإسلام وانتهى إلى اكتشاف قارة فكرية وعلمية تجند لها «العقل» الأوروبي

لاستلهم إنتاجاتها وعطاءاتها وانفتاحاتها مثلما تجند لاكتشاف قارات أخرى وتغيير اتجاه الصراع إلى مجالات لم يعد بإمكان المسلمين الوصول إليها أو التصارع من أجلها.

كان قرار بطرس الناسك، أثناء زيارته للأندلس سنة (١١٤١م)، بترجمة القرآن وتجميع معلومات ذات صدقية^(٤٣) حول الرسول العربي إيذانا بحركة ستتخذ مدى أوسعاً من خلال تعلم اللغات الشرقية، وعلى رأسها اللغة العربية^(٤٤)، واقتباس عناصر معمارية وفنية، وترجمة كتب كثيرة في العلم والفلسفة... الخ، بل وشمل التأثير الإسلامي لأوروبا اللاتينية حتى بعض مظاهر الحياة اليومية ومجالات الذوق، أو ما نعتة البعض، بـ «الذوق السارازاني»^(٤٥).

لم يمنع الستار الحديدي الذي فرضته المؤسسة الكنسية على أوروبا في علاقاتها مع البلاد الإسلامية، والجيوش الحربية التي أقامتها هنا وهناك من الحدود الفاصلة بين العالمين، من بروز «تيارات سلمية ومن استمرار المبادلات بل ومن انتعاشها بشكل مضطرب»^(٤٦) على صعيد التجارة بشكل أخص، وأما العلم والمعرفة والإبداع فقد كانت لأوروبا اللاتينية حظ الاقتباس والترجمة أكثر مما استفاد الطرف العربي الإسلامي من ذلك. ويرى بعض الباحثين أن حركية الحضارة العربية الإسلامية، واختراقها للحدود والفضاءات ترجع إلى كون الدين الإسلامي كان أولاً وقبل كل شيء «دين تجار أكثر مما كان دين سكان الصحراء أو فلاحين»، «وانتشار الثقافة الإسلامية يعود، بلا ريب، إلى مهارات وقدرات العرب في مجال الأعمال والتجارة»^(٤٧).

هكذا حصل تشابك هائل بين الحضارة العربية الإسلامية وأوروبا اللاتينية، في الحرب والتجارة والسياسة والثقافة، وجرب الطرفان كل الوسائل لفرض إرادتهما على الآخر، غير أنه في الوقت الذي كان المسلمون، سواء في حالة الانتصار أو الانكسار، ينظرون إلى الآخر بكثير من التعالي والإحساس الذاتي بالتفوق، انتقلت أوروبا اللاتينية من الاستبعاد التام إلى الاهتمام بتعبيراته الدينية والعلمية والثقافية، ومن اعتباره عدواً إلى

الانشغال بحضارته وأنماط تعامله مع مظاهر الحياة ، ذلك أنه بالنسبة لعدد يتكاثر مع الزمن من التجار والمثقفين والشعراء ، حلّ التفهم والإنصات محلّ الخشية ، وانتقل العدو إلى مستوى اعتباره حضارة تستحق التقدير ، ينظر إليها بوصفها الوارثة الشرعية للعصور اليونانية القديمة . فاللباقة المهدبة للمجتمع الغربي في عز لحظته الانتقالية وجدت لدى المسلم عدداً كبيراً من المعارف والفضائل الأخلاقية التي كثيراً ما تتجاوز خشونة الأوروبيين واللاتسامح البابوي^(٤٨) . اندحار الغرب اللاتيني في المشرق العربي ومحاصرة الظاهرة الصليبية في بلاد الإسلام أملى ذلك على المسيحيين الأوروبيين الدخول في «صليبية Croisade من نوع آخر ، أولاً بالدخول في عملية نقل واسعة للعلوم والفلسفة العربية الإسلامية واقتباس أسباب الرقي الحضاري العربي الإسلامي ، وثانياً بتغيير اتجاه البحث عن التمرد الأوروبي نحو آفاق تتجاوز حدود حوض البحر الأبيض المتوسط ، وسيترتب عن هذه النقلة الكيفية الكبرى تأسيس أطر جامعية ، واكتشاف قارات جديدة ستوفر للكيان الأوروبي المتنامي أكثر من مجال حيوي للتحرك والانتعاش وإعادة البناء . فما كان عصراً وسيطاً بالنسبة للتحقيب الأوروبي كان عصراً ذهبياً في العالم العربي الإسلامي ، ومن كان يتصور أن العصر الوسيط يمثل فترة ظلام ينسى أن «أنواراً» كانت تشع في أكثر من جهة حول البحر المتوسط ؛ لهذا السبب يعتبر «الآن دوليبيرا» أن أول شيء يتعين على الباحث في العصر الوسيط معرفته هو أن «العصر الوسيط لا يوجد»^(٤٩) لسبب أساسي هو أن هذه الفترة من التاريخ ، حتى من المنظور الأوروبي ، شهدت «لحظات متعددة : اللحظة اللاتينية ، واللحظة الإغريقية ، اللحظة العربية الإسلامية ، واللحظة اليهودية»^(٥٠) ، لذلك من يسعى إلى كتابة تاريخ الفلسفة الوسيطة عليه أن ينطلق من الإقرار بوجود تعددي : «تعدد الثقافات ، تعدد الأديان ، تعدد اللغات ، وتعدد مراكز البحث وإنتاج المعارف»^(٥١) لهذا السبب يمكن القول بأن العصر الوسيط لم يكن له مركز ، ليس لأنه شهد مراكز متعددة بل لأنه عرف عوالم وسطى متعددة ، وهكذا فإن بغداد القرن الثالث الهجري و«إيكس» القرن التاسع من التحقيب الميلادي كانتا

معاصرتين غير أنهما لم يكونا لا في نفس الوقت ولا في نفس العالم ولا في نفس التاريخ^(٥٢).

داخل هذه الأزمنة المتعددة تميز العالم العربي الإسلامي بالافتقار الحضاري غير أنه مع إيقاع المد والعجز، والانتصار والانكسار الذي شهده حوض الأبيض المتوسط بين الإسلام وأوروبا المسيحية، حصلت، بالإضافة إلى التجارة، هجرة فعلية للأفكار والعلوم والمعارف، وإذا كانت بغداد، في زمن العباسيين، عبّرت عن شغف استثنائي باكتساب معارف الغير، وامتلاك قواعد العلم وترجمة النصوص الفلسفية... إلخ، إذا كان الأمر قد حصل كذلك مع بغداد، فإن أوروبا اللاتينية، من خلال الاحتكاك المتوتر والمتساكن مع الإسلام على الأراضي الإيبيرية، أنتجت، أهم حركة مثاقفة تعرض لها العالم الغربي الناطق باللاتينية، إذ في غضون عقود قليلة تدفّق على أوروبا جزء كبير من الثقافة الفلسفية التي تراكت طيلة قرون عديدة على أرض الإسلام^(٥٣)، الأمر الذي سمح للأوروبيين بالانخراط «في عملية تملك ثقافي متشابهة لتلك التي شهدتها بغداد العباسية»^(٥٤).

ولم يتم ذلك بدون عنف أو مقاومات، بل إن الشعور «بالصدمة الثقافية» كان في منتهى القوة إذ كان على النخبة «الطليعية» التي أبانت عن إرادة للمعرفة بالإسلام، ديناً وثقافة وحضارة، أن تحارب على أكثر من جبهة، حتى لو كان حافزها محاربة الإسلام.

بواسطة التعرف عليه، كما هو الشأن لبطرس الناسك وغيره، على جبهة تصلب المؤسسة الكنسية ضد الإسلام، وعلى صعيد اختراق الصور النمطية القوية التي أقامها المتخيل الجمعي المسيحي الأوروبي، وعلى مستوى الأحكام المسبقة المنبثة في لاوعي من دخل في عملية الاكتساب، ثم على جبهة اللغات لتعلمها والتمكّن منها لنقل معارف المسلمين وترجمة علومهم ومنطقهم وطبهم وفلسفتهم^(٥٥).

أنتجت هذه العملية التاريخية والفكرية ظهور ما نعت به «المثقفين»، وتأسيس الجامعات داخل المدن، ويلاحظ محمد عابد الجابري انطلاقاً من التحليل الذي يقوم به «جاك لوكوف» في كتابه عن «المثقفين في العصر الوسيط»، أن المثقفين ظهوروا من خلال الاتصال بالعرب، الاتصال التجاري أولاً. الذي كان وراء نشأة المدن وترعرعها والاتصال الفكري ثانياً. الذي كان وراء بقضة العقل الأوروبي وفتحه»^(٥٦) للمخاض الداخلي الذي كانت تعيشه أوروبا اللاتينية دور حاسم في استقبال «الصدمة» الثقافية العربية الإسلامية، وتوترات كبرى كانت تعرفها أوروبا على الصعد الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية. فإذا كانت الكنيسة قد استطاعت تشديد «المراقبة الإيديولوجية»، فإن عملية التعليم انتشرت بشكل فلت من سيطرتها، سيما مع نشوء الجامعة باعتبارها مؤسسة تعتمد على مناهج جديدة لتلقين العلوم، ما أنتج «حساً نقدياً وساعد على تنمية معارف ومهّن قانونية وطبية خرجت عن سلطة الكنيسة فيما بعد»^(٥٧) إلى جانب ذلك تعرضت «العقلانيات» لتغييرات بارزة: «مواقف جديدة تجاه الزمن، والمال، والعمل، والعائلة، بدأت تبرز على الرغم من القوة الصاعدة للنماذج الأرستقراطية التي تعززت بتكوين مثل الكياسة (civilité) التي تشكل أول نسق غربي خالص للياقة والمجاملة، مهما كانت المؤثرات العربية عليه واندفاعه التقاليد الفلاحية التي انتشرت من خلال فكر فلكلوري»^(٥٨).

وعلى الرغم من النسيان المقصود الذي مارسه تاريخ الأفكار الغربية للنموذج الفكري والثقافي العربي الإسلامي، وكيفما كانت درجة التأثير الذي مارسه الواقعة الإسلامية في تعبيراتها الثقافية والعلمية على أوروبا اللاتينية، فإن ما ميّز العصر الوسيط اللاتيني، من تطوير مراكز حضرية وبناء جامعات ارتبط، بكيفيات مختلفة، بالحضور العربي البارز في المشهد الفكري لحوض البحر الأبيض المتوسط، تمخض عن ذلك بروز ظاهرة «المثقفين»، سواء كان ذلك داخل الجامعة أو خارجها فإن «ألان دوليبيرا» يرى أن «روح الفلسفة الوسيطة»، و«ولادة المثقفين» يرجعان إلى التأثير العميق الذي

«مارسه مفكروا الإسلام على العصر الغربي الوسيط»^(٥٩). وبعبارة أخرى فإن الانبعاث الثقافي الذي ظهرت حركته في كثير من مناطق أوروبا الجنوبية استمد كثيرا من انفتاحه من العطاء العربي، الذي أنتج ما أسماه «دوليبرا» بـ«تجربة الفكر». ولو أن الفلاسفة العرب بنوا أنساقهم خارج الجامعة، فإن امتدادهم لدى «المثقفين» اللاتينيين اخترق أطر المؤسسة الجامعية الناشئة بقدر ما ساهم في إشاعة الفكر الفلسفي خارجها، لذلك فإن تجربة الفكر التي قامت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين أتت جراء عملية «جلب للمثل الفلسفي الأعلى»^(٦٠) من بلاد الإسلام، لم يكن انتقال هذه المثل أمرا هينا أو حصلت عملية المشاقفة بدون مقاومات، فالمؤسسات والأطر التعليمية المختلفة كانت خاضعة لرقابة الكنيسة مهما حاول البعض الانفلات منها، وبحكم الزخم الكبير الذي اتخذته «تجربة الفكر»، فإن سلطة فكرية مضادة، مستترة ومعلنة أحيانا، نشأت في مواجهة سلطة الكنيسة على الرغم من الاستثمار الهائل الذي قامت به للمتخيل العدائي ضد الإسلام لمحاصرة أي تأثير «للنزعة العروبية» على الحقل الفكري الأوروبي، ورفعت الرقابة شعار الأخلاق سيما ما يتعلق فيها بالحب والجنس؛ لهذا السبب كثيرا ما اقترنت «اتهامات ١٢٧٧ بالرقابة على نوع خاص من التحرر الثقافي سمي بـ«الرشدية الشعبية»، وذلك بالجمع بطريقة لأساس تاريخي لها بين الإدانة المؤسسية (غزو الجامعة بالأفكار العربية الإسلامية) والتخريب الاجتماعي (الانحطاط الأخلاقي الذي يصيب مجتمعا تنحدر فيه نخبة»^(٦١).

لا يمكن لمنطق الرقابة أن يضع أسلاكاً شائكة على تحركات الفكر، فإرادة المعرفة الجامحة التي عثر عليها المثقفون اللاتين لدى المتكلمين والفلاسفة العرب تحولت إلى نموذج للفكر يعاند المؤسسة الكنسية وينشر قيما جديدة عملت مع الزمن على خلخلة الثوابت التي حرصت الكنيسة على رعايتها في المجالات الفكرية والعلمية، إلا أن العملية الكبرى التي شهدتها حركة الأفكار بين بلاد الإسلام وأوروبا اللاتينية تمت في وقت بدأ «الشغف الإسلامي» يتراجع، وشرعت أوروبا في إعادة بناء ذاتها انطلاقاً من

المكتسبات العلمية والفكرية العربية الإسلامية، واعتمادا على الفتوح الجديدة التي قامت بها خارج المتوسط، لتدخل في مرحلة تاريخية ستعطي لأوروبا اللاتينية أبعادا حضارية أنتجت بواسطتها نموذجا مازال العالم يعيش امتداداته إلى الآن.

لم تنته الفكرة الصليبية بطرد ملوك وجيوش الإمارات اللاتينية من المشرق، بل استثمرت في مناطق أخرى، وعملت اللغات الأوروبية المختلفة على إدخالها في قواميسها للتدليل على مختلف أشكال التعبير عن إرادة القوة الأوروبية في العلم والفكر، في التجارة والتبادل، في الحرب والغزوات، التي أدت إلى بروز الظاهرة الاستعمارية باسم «مهمة حضارية» ملقاة على أوروبا المسيحية الصاعدة من صلب امتحان غني بالعبر في مواجهتها التاريخية مع الواقعة الإسلامية.

غير أن ما يلاحظ على صعيد العلاقات المتوترة دوما، والمتساكنة أحيانا بين بلاد الإسلام وأوروبا المسيحية هو قدرة الثقافة على تجاوز العوائق العقديّة والنفسية، وعلى خلخلة بعض أجهزة الرقابة الدينية والمؤسسية، والمقاومات المختلفة التي ميزت هذا الطرف في تعامله مع الآخر، لقد جاء الإسلام منذ البدء بوصفه صيغة تركيبيّة للديانات التوحيدية السابقة، واعترف بها كجزء من الاعتقاد التوحيدي، وعلى الرغم من تمييزه بين دار الإسلام ودار الكفر- وهو تمييز لم تترتب عنه إجراءات عملية أو عسكرية دائما نظرا للحس البراغماتي اللافت لكثير من السُلط العربية الإسلامية في علاقاتها مع الاختلاف الديني والسياسي- فإن الميل الإنساني للإسلام أملى على معتنقيه البحث عن اكتساب العلم كل أصناف العلم بدون حدود ولا حساب للتمايز الحضاري أو الديني، في حين أن أوروبا المسيحية، ولو أنها شيدت أكبر نظام للصور النمطية المعادية للإسلام، وأقامت متخيلا جمعيّا في منتهى القسوة في أحكامه على التجربة الدينية والحضارية العربية الإسلامية، اضطرت- أي أوروبا- إلى الاقتباس من العطاء العلمي والفلسفي والثقافي العربي، وإلى الأخذ بالأسباب التي كانت وراء ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في

الزمن الوسيط، للمتخيل قدرة خارقة على الانتقاء وعلى الانسحاب مؤقتاً، ليترك للعقل إنجاز بعض مهامه الكبرى في اللحظات الانتقالية، بل إن الأبعاد العدائية لمتخيل جمعي قد تكون وراء تحريك إرادة خاصة للقوة لامتلاك أسباب القوة، حتى ولو جاءت من الخصم ذاته.

اعتباراً لكل ذلك يمكن القول بأن الفكر العربي الحديث، على الرغم من الكثير من المجهودات التي بذلها، يبدو وكأنه مازال يتأرجح في عملية فهم الآخر، صحيح أن المرء يواجه أسئلة من نمط مختلف، لكن للمتخيل قدرة خارقة على تخطي الأزمنة وتكسير الحدود فسؤال الآخر كما يتجلى في إرادة القوة الغربية، من حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ إلى الآن، لم يعد سؤالاً خارجياً بقدر ما أصبح هاجساً مركزياً في الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة، بل وعاملاً مولداً للأسئلة الكبرى التي تطرحها على ذاتها ووجودها وماضيها ومستقبلها هل تمكن الفكر العربي الحديث والمعاصر على صياغة تصور محدد الملامح واضح الصور عن الغرب، باعتباره آخراً يمثل إرادة جارفة للقوة، وجموحاً غير منقطع للمعرفة لدرجة أنه أنتج مؤسسات وخبراء لدراسة وتحليل تاريخ وحاضر الوجود العربي الإسلامي برمته، ضمن الاهتمام الاستشراقي التقليدي والحديث؟ ما السر الذي جعل الغرب من المعرفة هاجساً دائماً ومن الفهم قضية كبرى لترتيب شروط التدخل والفعل، في حين أن العالم العربي يركن إلى نوع من التعالي أو إلى ردود الأفعال إما بالالتجاء إلى التبرير في الماضي والحاضر، أو الهروب من مواجهة الواقع؟

الهوامش

- (١) رضوان السيد؛ الأمة والجماعة والسلطة، دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي؛ دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٤١.
- (٢) الأعراف، ١٥٨.
- (٣) آل عمران، ١٦٤.
- (٤) سبأ، ٢٨.
- (٥) ﴿واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ (الروم، ٢١).
- (٦) ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمهم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات، ١٣).
- (٧) رضوان السيد، نفس المرجع السابق، ص ٣٨.
- (٨) Jean Luis Déclais, *Les premiers musulmans face à la tradition biblique*, trois récits de Job, Ed l'harmattan, Paris, 1996, P92.
- (٩) W. Montgomery Watt; *Mahomet à Médine*, traduit par S.M. Guillein et F.Vandan; Ed. Payot, Paris, 1959, P383.
- (١٠) الإسراء. ٨٤.
- (١١) البقرة، ٢٠٨.
- (١٢) انظر محمد التابعي، السفارات في الإسلام، مكتبة مدبولي القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٣٣.
- (١٣) رضوان السيد، العلاقات الإسلامية المسيحية، ثقافة الجدل وثقافة الحياة، مجلة الاجتهاد، العدد ٢٨، ١٩٩٥م، ص ٥.
- (١٤) نفس المصدر ص ٦-٧.
- (١٥) نفس المصدر ص ٨.

- (١٦) نفس المصدر ص ٩ .
- (١٧) نقولا زيادة؛ الجغرافية والرحلات عند العرب؛ الأهلية للنشر والتوزيع، ص ٣، بيروت، ١٨٨٢م، ص ١١ .
- (١٨) عزيز العظمة، العرب والبرابرة، المسلمون والحضارات الأخرى، رياض الريس للكتاب والنشر، لندن، قبرص، ١٩٩١م، ص ١٣ .
- (١٩) نقولا زيادة، نفس المرجع السابق، ص ١٧ .
- (٢٠) نفس المرجع، ص ١٧ .
- (٢١) انظر عزيز العظمة، نفس المرجع، ص ١٣ .
- (٢٢) André Miquel; *La géographie Humaine du monde musulman, jusqu'au milieu du 11e siècle*, Ed. Mouton- la Haye, 2^e edition, Paris, PP 528, 522, 530.
- (٢٣) Ibid, P533.
- (٢٤) André Miquel; *La perception de la frontière aux approches de L'an mil R.O.M.M; n°49, 1983, P23.*
- (٢٥) André Miquel, *la géographie humaine*, op.cit, p480.
- (٢٦) عزيز العظمة، نفس المرجع السابق، ص ١٢٤ .
- (٢٧) André Miquel, *la géographie humaine*. Op.cit. PP115.116.
- (٢٨) عزيز العظمة، نفس المرجع السابق، ص ٢١٨ .
- (٢٩) زكريا القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، قدم له وحققه فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٣م، ص ٨١ .
- (٣٠) زكريا القزويني، نفس المرجع السابق، ص ٣٥ .
- (٣١) Amin Maalouf; *les croisades vues par les arabes*, Ed.J.C lattes, Paris1983, p 304.

- (٣٢) أسامة بن منقذ؛ كتاب الاعتبار، تحقيق وتقديم الدكتور قاسم السامرائي، دار الأصاله للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، ١٩٨٧م، ص ١٥٩.
- (٣٣) Henri Pirennee, Mahomet et Charlemagne, Ed. PUF, Paris, 1970.
- (٣٤) Maurice Lombard. *L'Islam dans sa première grandeur*; Ed. Flammarion, Paris, 1971, P18.
- (٣٥) Maurice Lombard op. cit, P15
- (٣٦) Ibid, P15
- (٣٧) Charles Emmannel Dufourcq, *la vie quotidienne dans l'Europe médiévale sous domination arabe* Ed. Hachette, Paris, 1987, P12
- (٣٨) FATHI TARIKI, *L'esprit historien dans la civilisation arabe et islamique*, Ed -Maison tunisienne de l'édition et faculté des sciences humaines et sociales de Tunis, 1991, P175.
- (٣٩) للوقوف عند دور الأندلس في هذه العمليات انظر على أحمد، المؤثرات الحضارية العربية الأندلسية والمغربية في الغرب الأوروبي وكيفية انتقالها خلال العصور الوسطى، في الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ١٩٩٥م، ص ٢١٢-٢١٣، وما بعدها.
- (٤٠) W.M Watt, L'influence de L'islam sur l'europe médiévale, *Revue des Etudes Islamiques*, TXL, 1972, PP 8-9.
- (٤١) Edgar Morin, *Penser L'Europe*, Ed. Gallimard, Paris, 1987, pp 99-40.
- (٤٢) Philippe Sénac, *L'image de l'Autre, histoire de l'Occident médiéval face à L'islam*; Ed. Flam marion, Paris 1983, P121.
- (٤٣) G.C ANAWATI, islam et christianisme, la rencontre de deux cultures au Moyen Age, *MIDEO* N°20 1991, P 248.

Jean Richard; l'enseignement des langues orientales en Occident au (٤٤)
Moyen Age, Etudes Islamiques, TXLIV, 1976, PP150-151

Philippe sénac, op. cit, p121. (٤٥)

Jaques le Goff; *le civilisation de l'Occident médiéval* , Ed Arthaud, (٤٦)
Paris, 1984, P169.

W.M Watt, op. cit, P25. (٤٧)

Philippe Sénac, op. cit, P123 (٤٨)

Alain de Libera, *la philosophie médiévale*, Ed-PUF, Parid, 1993, P (٤٩)

XIII

Ibid, P XIII (٥٠)

Ibid, P XIV (٥١)

Ibid, P XIV (٥٢)

Ibid, P308 (٥٣)

Ibid, P311 (٥٤)

Jean vernet; *ce que la culture doit aux Arabes* في هذا الموضوع انظر
d'Espagne d. Sindbad; Paris 2eme édition, 1985, P106.

(٥٦) محمد الجابري؛ المتقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد،
مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥ م، ص ٢٩.

Jacques le Goff; *la civilisation de l'Occident médiéval*; oP.cit, P10 (٥٧)

Ibid. P10 (٥٨)

Alain de libéra; *Penser au Moyen Age*; Ed du Seuil, Paris, 1991, P142 (٥٩)

Ibid, P14. (٦٠)

Ibid, P14. (٦١)

تطور استراتيجية الحوار

في الحضارة الإسلامية مع الحضارات : قديما وحديثا

د . بكر مصباح تنيرة(*)

المستخلص

الحوار في مفهومه الشامل ، يفيد معاني عدة ، فهو من الناحية اللغوية يعني المناقشة التي تدور بين أكثر من طرف حول موضوعات تهمهم أو مشكلات قائمة بينهم يبحثون عن حلول لها . وهو منهج للبحث عن الحقائق يستخدمه العلماء ، وطلاب العلم والمعرفة في دراسة الظواهر الإنسانية والكونية ، كما أنه وسيلة للتفاهم بين الأفراد والجماعات وتبادل الآراء والأفكار ؛ لتحقيق التعايش بين الشعوب ذات الديانات والثقافات واللغات والأعراف المختلفة ، وكذلك التعايش بين الدول والحضارات بغرض تبادل المنافع .

وقد عرفت الحضارة الإسلامية الحوار منذ فجر الدعوة ، وكان وسيلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده للدعوة إلى الحق ، وعبادة الله الواحد الأحد وتنظيم علاقات المسلمين بعضهم مع بعض وعلاقاتهم مع غير المسلمين فهو نهج من مناهج الإسلام الأساسية ، وقاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية وينبع مفهوم الحوار ومقوماته في الحضارة الإسلامية من أصولها الدينية ، القرآن الكريم والسنة النبوية

(*) حصل على الماجستير في العلوم السياسية من جامعة القاهرة ثم على الدكتوراه من الجامعة نفسها ، عمل في عدة هيئات ومؤسسات عربية ، حيث عمل باحثاً في معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، ومحاضراً بجامعة قسنطينة بالجزائر ، وأستاذ العلوم السياسية بجامعة بنغازي في ليبيا ، شارك في بعض اللقاءات والمؤتمرات العلمية والثقافية العربية .

الشريفة، وما تعارف عليه المسلمون، وهو يقوم على مبادئ واضحة حددتها هذه الأصول، وهي الاحترام المتبادل وحرية الاختيار والعدالة والمساواة والتسامح، ويسعى إلى تحقيق أهداف إنسانية في إقامة مجتمع إنساني متعاون في ظل مكارم الأخلاق.

وطبق المسلمون هذه المبادئ في حوارهم مع جميع الحضارات القديمة والحديثة، وأقاموا علاقاتهم مع الشعوب والأمم والديانات والثقافات في الماضي والحاضر على أساس الحوار الحضاري ونبذ النزاع والصراع، والمحافظة على حقوق الإنسان وترقية الإنسان مادياً ومعنوياً وخلقياً. وحافظوا على تراث الحضارات السابقة وأضافوا إليها وقدموا ثمار جهود علمائهم إلى الحضارة الحديثة وضربوا المثل في سبيل التقدم الإنساني في المجالات كافة.

والنماذج التي قدمتها الحضارة الإسلامية في حوارها مع الحضارات الأخرى يمثل تجربة ينبغي أن تتجدد في عصرنا ويتم الاستفادة منها في تكرار هذا الحوار مع الحضارات المعاصرة، ونبذ نظرية الصراع والنزاع التي يقول بها البعض من مفكري الغرب وفي هذا البحث نتعرض لكل ذلك بالتحليل العلمي وفقاً لآيات القرآن والأحاديث الشريفة، والمراجع العلمية.

تطور استراتيجيّة الحوار في الحضارة الإسلامية مع الحضارات : قديما وحديثا

نماذج الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى

لقد قدمت الحضارة الإسلامية في مختلف مراحل تطورها التاريخي على مدى أربعة عشر قرناً ونيفاً ، نماذج عديدة ومتباينة من الحوار الذي دار بين المسلمين وغير المسلمين من أتباع الديانات والثقافات والحضارات الأخرى ، سواء من عاش منهم في ظل دولة الإسلام ، أو خارجها ، وسواء منهم من سالم المسلمين وتبادل معهم الاحترام ، أو من عاداهم ، وخاض معهم في نزاع وصراع . وفي جميع الحالات اتخذ الحوار أشكالا عدة أبرزها :

- ١ . الحوار بين الحكام المسلمين وغيرهم من حكام الأمم الأخرى والذي كان يدور بواسطة الرسائل وإرسال المبعثين من الرسل من كيلا الطرفين .
- ٢ . الحوار الذي كان يدور بين العلماء في مجالس العلم .
- ٣ . الحوار بين المدارس الفلسفية وغالباً ما كان يدور بطريقة غير مباشرة .
- ٤ . الحوار الذي كان يدور أثناء ممارسة الناس لحياتهم اليومية في كنف هذه الحضارات في ظل الدولة الإسلامية وغيرها من الدول .

وقد بين الله جل وعلا للأمة الإسلامية مكانتها ورسالتها ودورها في هذا الحوار الحضاري ، لكي تضرب للأمم المثل الأعلى في الاعتدال والتسامح وحرية الرأي والفكر والعمل والانحياز إلى جانب الحق والحقيقة مهما كان مصدرهما . يقول تعالى :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾
(سورة البقرة آية ١٤٣) .

فمن هذا الموقع المعتدل المتوسط يحاور المسلمون غيرهم فلا يميلون إلى التطرف أو التعصب أو المغالاة ذلك أن هذه الصفات تعطل لغة الحوار بين أطرافه .

وغاية كل حوار الاستفادة من تجارب الحضارات الأخرى والانتفاع بما يفيد عندها في تقدم الإنسان ورفقه . يقول تعالى : ﴿قد خلت من قبلكم سُنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ . وقال رسول الله ﷺ «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها» رواه الترمذي .

ويدعو الله المسلمين للأخذ بسُنن الأمم السابقة أن وافقت الإسلام وشريعته وآدابه ، يقول تعالى : ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سُنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم﴾ (سورة النساء آية ٢٦) . ويوجب جل شأنه على المسلمين معاملة الآخرين بالحسنى فيقول تعالى : ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ (سورة النساء آية ٨٦) . ويسمح الله للناس بالعمل كل حسب قدرته وطبيعته ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ (سورة الاسراء آية ٨٤) .

في ضوء هذا الهدى الرباني السامي ، دار الحوار بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات . وفيما يلي سنعرض أمثلة لهذا الحوار الحضاري والثمار التي أتى بها للإنسان على مر القرون .

أولاً : الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارات القديمة :

من المعروف أن الدعوة الإسلامية عمت مناطق شاسعة من العالم القديم ، امتدت من الأندلس في الغرب إلى حدود الصين في الشرق ، وكانت توجد في بلدان هذه

المناطق حضارات قديمة وديانات مختلفة ، وشعوب وأمم متباينة في لغاتها وقومياتها وثقافتها ، وأن كثيراً من هذه الشعوب والأمم أعتنق الإسلام وأصبح جزءاً من حضارته ، وبعضها بقي على ما كان عليه قبل الإسلام . ولم يرغب المسلمون أحد من هؤلاء على أتباع دينهم أو التخلي على حضارتهم ولغتهم ، بل تركوا له الحرية التامة في ذلك ، ليس ذلك وحسب ، بل ترك المسلمون آثار وتراث تلك الحضارات كما هي دون أن يمسوه بسوء أو يحاولوا النيل منهم أو التقليل من أهميته ، بل حافظوا عليه ليكون لحظة وعبرة واستفادوا مما صلح منه في تطورهم الحضاري^(١) .

ومن أبرز الحضارات القديمة التي التقت بها الحضارة الإسلامية :

١ . الحضارة الفارسية فهي من الحضارات القديمة التي امتد وجودها في إيران ، العراق ، وجنوب غرب آسيا وبعض مناطق الجزيرة العربية الواقعة على الخليج العربي واليمن . وقامت بين العرب والفرس قبل الإسلام علاقات حضارية عديدة ، كانت تقوى أحياناً وتضعف أحياناً أخرى . فالعربي بطبعه يميل إلى الحرية ، ويرفض الخضوع لأي أحد ، ويأبى الظلم والذل ، ويشعر بالفخر والاعتزاز بنفسه وقومه . وكثيراً ما دافع عن حريته وكرامته وأرضه في وجه محاولات دولة الفرس لفرض سيطرتها وسلطانها عليه^(٢) .

ولكن هذا الوضع تبدل تبديلاً كاملاً وجوهرياً بعد الإسلام ، واعتناق الفرس له بعد أن منحهم الحرية والكرامة ، وعاملهم المسلمون بالعدل والمساواة وقامت بينهم علاقات أخوية ، بعد أن كانوا خاضعين لظلم الحكام وأتباعهم في دولة الأكاسرة^(٣) .

ومثل لقاء الحضارتين الإسلامية والفارسية نموذج للحوار الإيجابي الذي يستفيد منه كل طرف ، وكما يقول أحد العلماء العرب في ذلك : «ذهب ابن خلدون إلى أن

المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب ، ولكن الحقيقة في اللقاء الحضاري بين العرب والفرس كانت تبادل القيم بين الأمتين . ولم يكن هناك تعصب في فترة اللقاء ، فالإسلام دين الكل . وأقبل الفرس على هذا الدين إقبالاً مبشراً ، تعلموا اللغة العربية وأتقنوها أجزومية وأدباً ، وحفظوا القرآن وفهموا معانيه وتابعوا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذوا عنه» (٤) .

ونبغ من الفرس في ظل الإسلام وحضارته علماء وأدباء وشعراء أمثال أبو حنيفة النعمان ، وسيبويه ، وابن المقفع ، وبشار بن برد ، وغيرهم كثير . وترجم العرب كثير من كتب الفرس وأخذوا عنهم نظم الإدارة وأبرزها فكرة الديوان التي طبقها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتولى الفرس في دولة الإسلام لا سيما في ظل الخلافة العباسية مناصب الوزارة والحكم وقيادة الجيوش وأصبح لهم نفس الحقوق التي يتمتع بها كل المسلمون دون تمييز أو تحيز .

هذا اللقاء الحضاري يمثل نموذجاً للحوار بين الحضارات ، بل يعتبر رداً واضحاً وعملياً على النظريات التي تقول بصراع الحضارات ، فرغم العداء الذي كان يغلب على العلاقات العربية الفارسية قبل الإسلام ، فإن هذه العلاقات أصبحت أخوية حميمة بعده ، وأثمرت تقدماً حضارياً في شتى فروع العلم والفلسفة والفكر والأدب والفنون .

٢ . الحضارة اليونانية القديمة التي أزهت في ظلها كثير من فروع العلم والمعرفة والفلسفة والفكر والأدب والفنون . فلم يقدر لحضارة من الحضارات القديمة أن تقدم ما قدمته هذه الحضارة إلي التراث الحضاري الإنساني . ولم يزل ما قدمه فلاسفة اليونان في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد يمثل أساساً للمعرفة الإنسانية بشتى فروعها في العصر الحديث (٥) .

ومن الجدير بالذكر هنا ، أن الحضارة اليونانية لم تحفل كغيرها من الحضارات التي عاصرتها في الشرق والغرب ، لم تحفل بالغزو والتوسع وتأكيد سلطة الحكام المطلقة ، وتحقيق طموحاتهم الشخصية ، ذلك أن اليونانيين وجهوا اهتمامهم إلى التأمل والتفكير في مختلف الظواهر الكونية والإنسانية ، ونبع منهم العلماء والفلاسفة ، أمثال فيثاغورس وأرسيميدس ، وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأبقراط ، الذين أرسوا أصول النظريات العلمية التي قامت عليها كثير من العلوم الحديثة ، كما وضعوا أصول مناهج البحث العلمي ، وسبق أن ذكرنا أن الحوار كمنهج للبحث عن الحقائق ظهر أول ما ظهر في ظل الحضارة اليونانية .

وكانت العلاقات الحضارية بين بلاد اليونان وبين بلدان البحر الأبيض المتوسط قوية ومتعددة ومتواصلة لا سيما مع مصر وسوريا والعراق وبلاد فارس وقد دار بين هذه الحضارات حوار متعدد الجوانب وقام عدد من فلاسفة اليونان بزيارة هذه البلاد والاستفادة من علومها وتقدمها في ذلك الحين^(٦) .

ولما ظهر الإسلام ، وانتشر في هذه البلاد ، وبدأت حضارته تنمو وتتطور ، حافظ المسلمون على تراث الحضارة اليونانية ، ودرسوا مصادر هذا التراث وترجموا العديد من الكتب ونقلوها إلى العربية^(٧) وقد قام الخليفة العباسي المأمون بإنشاء دار الحكمة كجامعة تضم العلماء والمترجمين للإشراف على البحث والترجمة في علوم الحضارة اليونانية . وهذا في حد ذاته مظهر من مظاهر الحوار الحضاري بين الحضارتين الإسلامية واليونانية^(٨) وتعلمد فلاسفة المسلمين على تراث الحضارة اليونانية أمثال الفارابي وابن سينا والكندي وابن رشد ، وحافظوا على هذا التراث وضافوا إليه ، وكان لهم فضل نقله إلى أوروبا الحديثة . وكان هذا العمل العلمي أحد أبرز ثمار الحوار الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارة اليونانية . وبوسعنا القول إنه لولا ما قام به المسلمون في هذا المجال لضاع التراث الحضاري اليوناني^(٩) .

ثانياً : حوار الحضارة الإسلامية مع حضارات العصور الوسطى :

شهدت أوائل العصور الوسطى منذ مطلع القرن الرابع الميلادي حسب التقويم التاريخي الغربي^(١٠) ، شهدت انقسام الحضارة الرومانية وكذلك انقسام الديانة المسيحية إلى قسمين :

القسم الأول : ويقع في الغرب ويشمل الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها السياسية والروحية روما ، ومذهبها المسيحي الكاثوليكية ، وتمتد حدودها الجغرافية من إيطاليا إلى وسط وغرب أوروبا وشبه جزيرة إيبيريا (الأندلس) .

والقسم الثاني : ويقع في الشرق ، ويضم الإمبراطورية الرومانية الشرقية وحاضرتها القسطنطينية ، ومذهبها المسيحي الأرثوذكسية ، وتمتد حدودها الجغرافية من تركيا إلى شرق أوروبا ومنطقة البلقان .

وقد قامت علاقات حضارية بين هذين القسمين للحضارة الرومانية في العصور الوسطى ، وبين الحضارة الإسلامية التي سادت الشرق العربي ، والمغرب العربي والأندلس . وتعددت أشكال الحوار بينهم وشملت مختلف نواحي الحياة الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية^(١١) .

١ . الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الرومانية في الشرق :

على الرغم من الصراع الطويل الذي دار بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية في الشرق ، ووقعت خلاله حروب عديدة بينهما ، إلا أن الحوار الحضاري لم ينقطع ، وكان يدور على جميع المستويات السياسية والدينية والعلمية والثقافية تحدثنا كتب التاريخ بذلك ، ويصور لنا الخطيب البغدادي أحد مراسم استقبال سفراء القسطنطينية في حاضرة الخلافة العباسية بغداد في زمن الخليفة المقتدر بالله ، فيقول :

«ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر بالله ، ففرشت الدار بالفروش الجميلة ، وزينت بالآلات الجليلة ، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم على أبوابها ودهاليزها ومحارباها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها . ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة . ثم استدعى بعد أن طيف به في الدار إلى حضرة المقتدر بالله وقد جلس وأولاده من جانيه فشاهد من الأمر ما هاله» (١٢) .

وفي القرن الرابع الهجري ، أرسل عضد الدولة بعثة علمية لمناظرة ملك الروم في القسطنطينية ورجال الدين المسيحي ، وكان على رأسها العالم المسلم أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي . وقد قال الأستاذ محمود محمد الحصري والدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة في مقدمتهما لكتاب التمهيد «إن هذه المناظرة جرت في مجلس الإمبراطور باسيلوس الثاني الذي حكم من سنة ٣٦٥هـ إلى سنة ٤١٦هـ . ومهما يكن أمر سفارة الباقلائي بين عضد الدولة وبين ملك الروم ، فنحن لانعرف ظروفها التاريخية ، وربما كان ملك الروم قد أراد من يُبين له أمر الإسلام ، أو يجيب عن أسئلة النصارى بشأن ما يعتقد المسلمون ، ويتبين من تفصيل المناقشات أن مهمة الباقلائي كانت مدنية علمية هي أشبه ببعثة تبادل الآراء ، ومعرفة وجهات النظر الدينية» (١٣) .

في ظل هذا المناخ الحضاري قامت علاقات الحوار بين المسلمين والمسيحيين وكان لها انعكاسها في الحياة اليومية بينهم ، يقول المستشرق النمساوي جرونيباوم في تصوير ذلك : «كان المسلم يعيش في نفس العالم البطلمي الذي كان يعيش فيه البيزنطي ، وكان الدين محور فكر البيزنطي والعربي على السواء ، ولم يكن معيار القيم لدى المسلم ولا أفكاره السياسية لتشف في حد ذاتها على فهم البيزنطي أو تستعصي على عطفه ، وينطبق هذا القول نفسه على علاقة المسيحي اللاتيني بكل من المسلم واليوناني . نجد أن نظرة العالم الإسلامي إلي اللاتيني كان يغشاها من الإبهام النسبي ما جعل القرابة الأساسية في الأفكار والاتجاهات أكثر وضوحاً بين اليونان والعرب ، منها بين العرب واللاتين» (١٤) .

وحظيت هذه العلاقات الحضارية بين المسلمين وجيرانهم المسيحيين على اهتمام الباحثين والدارسين الغربيين على مر العصور . يقول إليكس جورافسكي في بيان ذلك : «في الدراسات الأوروبية المعاصرة حول الإسلام (الدراسات الإسلامية) عندما يجري الكلام عن الجوار «الإسلام المسيحي» يكون المقصود به في أغلب الأحيان مجمل العلاقات التي تكلف بين هاتين الديانتين على مدى أربعة عشر قرناً تقريباً من تجاوزهما ، أو وجودهما المشترك ، والواقع أن هذه العلاقات نمت وتطورت في أربعة مجالات ومستويات أساسية : اقتصادية وعسكرية وسياسية وثقافية ودينية» (١٥) .

هكذا يتضح لنا من هذا النموذج من نماذج الحوار الحضاري ، كيف أن الحضارة الإسلامية كانت بحق جوهرة من جواهر القرآن الكريم الذي دعا إلى التسامح والأخوة والسلام بين جميع الناس .

٢ . الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الرومانية الكاثوليكية في الغرب :

منذ نهاية القرن الأول الهجري ، القرن الثامن الميلاد ، اتسعت رقعة دولة الإسلام فضمت تحت سلطانها شبه جزيرة إيبيريا (الأندلس) المعروفة في عصرنا بإسبانيا والبرتغال . وامتدت حدودها الجغرافية من جبال البرانس في الغرب على الحدود الفرنسية إلى تخوم الصين في الشرق ، وشملت كذلك جزر البحر الأبيض المتوسط ، مالطا وصقلية وقبرص ووصلت في بعض الأحيان إلى جنوب إيطاليا (١٦) .

ولم يقتصر هذا التوغل الإسلامي على الجانب العسكري فقط بل كانت له أبعاده السياسية والثقافية والدينية في بعض الأحيان ، وكان من أقوى الأسباب التي أدت إلى قيام علاقات حضارية بين شعوب منطقة البحر الأبيض المتوسط من أوروبيين ومسلمين وأفارقة ، وقامت بين حكام المسلمين وغيرهم من حكام هذه البلاد علاقات سياسية ودبلوماسية ، وجرت بينهم الاتصالات وتبادل السفراء والوفود ، لا سيما ما كان قائماً

بين الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وملك فرنسا شارلمان ، كذلك العلاقات بين الخليفة الأموي في الأندلس عبدالرحمن الناصر ، وملك الروم في القسطنطينية^(١٧) ، وأسهمت أسفار التاريخ في ذكر تفاصيل هذه العلاقات ، يصف أحد المستشرقين الإيطاليين ذلك فيقول : « كانت شبه جزيرة إيبيريا هي المكان الذي جرى فيه الاتصال المثمر والمشرق بين الإسلام والحضارة الأوروبية الناشئة ، وهو الاتصال الذي تطور على مدى سبعة قرون »^(١٨) .

وبفضل سماحة الإسلام وما وفره من حرية وعدل ومساواة لجميع الأجناس والديانات عاش جميع أفراد المجتمع في حب وتعاون وسلام وكانت هذه السمة الخالصة الإنسانية أحد أبرز خصائص الإسلام الحضارية « ذلك لأن الحرية والرفاهية اللتين بسطنا أجنحتهما والحضارة التي ازدهرت بها كانت تابعة فعلاً للنظام الاجتماعي والأدبي القائم بها ، فاليهود والنصارى كانوا يعيشون هناك أحراراً محافظين على عقائدهم وتأسيساتهم الدينية وكذلك أهالي البلاد القدماء فإنهم لم يضطهدوا ولا استعبدوا أو أكرهوا على نبذ دينهم بل زن الحرية بلغت هناك إلى درجة أن اليهود الذين ذاقوا بأوروبا من التعذيب والاضطهاد أصنافاً جاؤوا أفواجاً أفواجاً إلى ديار الخليفة مطمئين إذ تسنى لأهالي تلك البلاد المغلوبين بفضل تسامح الحكومة الإسلامية ولين إدارتها ليس فقط أن يبنوا لأنفسهم الكنائس والمعابد بل وأن يعقدوا المؤتمرات ومن أهم هذه الاجتماعات مؤتمر أشبيلية وطليلة أما المؤتمر الذي اجتمع بقرطبة عام ٨٥٢ فإنه التام بطلب من الخليفة نفسه وذلك لحمل الأساقفة على اتخاذ قراراً لكف الاضطرابات والقلقل التي أثارها متعصبوا النصارى على بعضهم وفي اجتماع طليطلة استقر رأي الأحرار على إذاعة هذه النصيحة المستمدة من التسامح الإسلامي وهي « لا يكره أحد على نبذ دينه »^(١٩) .

ولا نغالي أن قلنا إن هذه الحرية التي عاش في ظلها جميع الأجناس ما هي إلا ثمرة من ثمار المبادئ التي قام عليها الحوار في الحضارة الإسلامية ، يقول المفكر الإسلامي السيد أمير علي في بيان آثار ذلك على حياة الناس في البلاد التي أظلمها الإسلام .

«وتعد إسبانيا الإسلامية خير مثال يوضح لنا طابع الإسلام السياسي وصلاحيته لكافة المجتمعات على اختلاف صورها وأحوالها . . ولما دخل الإسلام في هذه البلاد تحررت الناس كما تحررت الأرض من رق النظام الإقطاعي . وما أن وطئت أقدام العرب أرض إسبانيا حتى اصدروا أمراً يكفل لكل الأجناس أوفى قسط من الحرية فأصبح السوفي القوط والوندال والرومان واليهود على قدم المساواة مع المسلمين» (٢٠) .

ولم يكن هذا النموذج الحضاري من التعايش السلمي بين الأديان والأجناس والثقافات هو الثمرة الوحيدة للحوار الحضاري الإسلامي مع الحضارة المسيحية في الغرب بل كانت هناك ثمار أخرى أبقى على مر الزمن أنها ثمار التعاون العلمي والبحوث العلمية التي قام بها العلماء المسلمون أمثال ابن رشد والإدريسي وابن حزم وابن طفيل الذين تلمذت على مؤلفاتهم أوروبا الحديثة (٢١) .

وهذا يؤكد صحة النظرية الإسلامية في الحوار ، التي تقوم على الاحترام المتبادل بين جميع أطراف الحوار وحق كل منهم في حرية الاختيار ، والمحافظة على حقوقهم في ظل مبادئ العدالة والمساواة والتسامح .

فالحوار أساس التفاهم بين الناس ووسيلة حضارية لحل مشكلاتهم والخلافات التي تقع بينهم والطريق إلى تبادل منافع وفوائد العمل الإنساني والفكر الإنساني .

ثالثاً : الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الحديثة :

اتضح مما سبق أن الحوار منهج أساسي من مناهج الإسلام ، كعقيدة دينية تدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد ، وشرعية تنظم العلاقات والمعاملات بين الناس على

أساس العدل والمساواة والإخاء والحرية . وأن الحوار وسيلة لتبادل الآراء والأفكار والعلوم ، وهو قاعدة أخلاقية تقوم عليها الحياة في المجتمع الإنساني . وهو بالإضافة إلى ذلك هدف حضاري من أهداف الحضارة الإسلامية التي تسعى إلى ترقية الإنسان مادياً ومعنوياً وخلقياً . وقد أثبتت التجارب صحة كل ذلك .

يقول العالم الفرنسي جوستاف لوبون : «فالعرب بعد الرومان هم الأمة الوحيدة التي استطاعت أن تمدن مختلف الشعوب وأن تجعلها ترضى بكل عنصر من عناصر حضاراتها أي بدينها ونظمها وفنونها . وهم بدلاً من أن يتقلص نفوذهم بعد الذي طرأ على كيانهم السياسي تراه أكثر من ذي قبل ويبلغ مبلغاً لم يتفق لهم أيام دولتهم العظيمة النضرة ، وعلة ذلك أن القرآن والمبادئ التي تستنبط منه يلائم احتياجات الأمم المبتدئة لبساطته» (٢٢) .

ويبين ذلك بالأمثلة المصلح الإسلامي أمير علي فيقول : «وإنك لتجد الإسلام حبشاً حل بين قوم لديهم الاستعداد للرقي والثقافة ويساير الاتجاهات النقدية ، ويشد أزر المدينة ويقدم للناس صورة المثل الأعلى للدين» (٢٣) .

فقد استطاع الإسلام أن يُدخل شعوب كثير إلى مدارج الحضارة الحديثة ، منهم التتار والمغول والترك والأفارقة ، لأنه يحث على العلم والعمل معاً ويدعو إلى مكارم الأخلاق . كما دخل في الإسلام أعداد متزايدة من الأوروبيين الأميركيين لا سيما العلماء والمثقفين منهم ، فهو دعوة عصرية لإنقاذ الإنسان من مشكلات الحضارة المادية (٢٤) .

يقول أحد العلماء الفرنسيين الذين أسلموا وهو الدكتور جرنيه «وكان أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقلية وجميع درجات المدينيات» (٢٥) ولم يقتصر دور الحوار الحضاري على ترقية الشعوب والأمم وحل المشكلات والمنازعات التي تحدث بينها ، بل امتد لتحقيق نهض العلوم في جعل الحضارة الإسلامية أم للحضارة الحديثة وعلومها ، يقول المستشرق الفرنسي فكتور

دوري في مؤلفه «تاريخ القرون الوسطى» : «بينما أهل أوروبا تائهون في دجى الجهالة ، لا يرون الضوء إلا من سم الخياط إذ سطع نور قوي من جانب الأمة الإسلامية من علوم وآداب وفلسفة وصناعات وأعمال بدو غير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وفاي وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف» (٢٦) .

فالعلوم الحديثة في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطب ومناهج البحث العلمي ، لم يكن من الممكن أن تبلغ ما بلغته من تقدم وازدهار في ظل الحضارة المعاصرة ، لولا الجهود المتواصلة والاكتشافات والنظريات التي توصل إليها العلماء المسلمون .

اعترف بذلك العالم بريغولت مؤلف كتاب «بناء الإنسانية» فقال : «إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مذهبة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم إلي الثقافة العربية بأكثر من هذا إنه يدين لها بوجوده نفسه» (٢٧) .

ويشاركه هذا الرأي العالم هومبولدت صاحب كتاب «الكون» حيث يقول : «يجب أن نعتبر العرب المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية التجريبية بالمعنى الذي اعتدناه اليوم فأنهم بلغوا في التجارب إلى درجة كاد يدركها المتقدمون» .

وأكد العالم الفرنسي المعروف أوغست كونت : «أن العرب هم الذين ادخلوا العلوم المثبتة إلى أوروبا» (٢٨) .

فالحوار الحضاري الذي دار بين الحضارتين الإسلامية والحديثة هو القنطرة التي انتقل إليها تراث الحضارات إلى العصر الحديث وبفضل هذا الحوار تفتحت العقول ، وازدهر التفكير وقام التعاون بين جميع الأجناس من أجل بلوغ هدف إنساني واحد هو تقدم الحياة الإنسانية (٢٩) .

فالحضارة الحديثة وما وصلت إليه من تقدم هائلة ثمرة من ثمار حوار الحضارات ،
ذلك أنه لما فقدت هذه الحضارات لغة الحوار فيما بينها لم يحدث التقدم ولم يتم
التعايش بين الناس بل ظلت في صراع وحروب استمرت قرون طويلة . فالصراع لا يؤدي
إلى التقدم وإنما إلى تدمير الحياة الإنسانية^(٣٠) .

خاتمة

رسالة الحضارة الإسلامية في تجديد الحوار بين الحضارات :

لقد قدمت الحضارة الإسلامية للحضارة الحديثة وللتراث الإنساني عموماً فتوحاً في العلوم والفكر والفلسفة والتشريع والآداب والفنون ، وخلفت تراثاً مدوناً يربو على ثلاثة ملايين مخطوطة موجودة في المكتبات العالمية الكبرى المنتشرة في البلاد العربية والأوروبية والآسيوية والأفريقية^(٣١) وقدمت هذه الحضارة الإنسانية نماذج حية من الحوار الإيجابي البناء بين الحضارات طوال ألف وأربعمئة عام ونيف ، حققت خلالها تعايشاً سلمياً بين جميع الأديان والثقافات والأجناس^(٣٢) وحافظت على تراث الحضارات السابقة ونقلت عدد من مصادره إلى العصر الحديث ، وأضاف العلماء المسلمون إليه الكثير من النظريات والاكتشافات التي قامت عليها حضارة عصرنا^(٣٣) وأثبتت تجربة الحضارة الإسلامية في الحوار أن الخلافات والاختلافات بين الناس وعقائدهم وثقافتهم ولغاتهم لا تعتبر سبباً رئيسياً للصراع بينهم ، بل تمثل أسباباً للتعاون وتبادل المنافع في ظل مبادئ الاحترام المتبادل وحرية الاختيار والعدالة والمساواة والتسامح . والأصل في كل ذلك أن الحضارة الإسلامية وجوهرها القرآن الكريم قامت وما زالت قائمة على مكارم الأخلاق والتعاون والحوار . ولم تقم على القوة والقهر ، ولم تسع إلى فرض سيطرتها وهيمنتها على غيرها من الحضارات ، فهي تعمل إلى الاستفادة من جهود الإنسان لترقية حياة الإنسان ، يقول الله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً وما يؤقودون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (سورة الرعد آية ١٧) .

وتؤكد تجارب التاريخ القديم والحديث ، أن الحضارات ودولها التي تقوم على القوة ، تنتهي إلى الدمار والانحيار ، حدث ذلك للحضارة الفرعونية القديمة ، والحضارة

البابلية والحضارة الرومانية وهو ما حدث في عصرنا إلى ألمانيا في عهد النازي هتلر وروسيا في ظل الشيوعية ، يقول المفكر المسلم مصطفى صادق الرافعي : « ما هلاك الأمم بالانقراض ولا بالأوثنة ولا بما يجتاحها من اصطدام النواميس ، فإن لكل شيء من هذه ونحوها عذره القائم وضرورته الملجئة ولكن الهلاك الذي لا هلاك غيره أن تضعف الضمائر المؤمنة وأجسامها ضارية ، وتمحف الفضائل والشهوات عنفية ، وتموت العقائد والحياة قتابل ونزاع»^(٣٤) .

ولا أحسب الحضارة المادية الحديثة إلا مصابة هذه الأمراض التي تقضي على مكارم الأخلاق ، وتجعل التعاون على الخير نزاع وصراع على المكاسب والمصالح الخاصة ، وتتخذ من التفوق والقوة وسائل لبسط السيطرة والنفوذ لذا ظهرت نظريات صراع الحضارات وصدامها من قبل المفكرين الغربيين الذين نشأوا في ظل أمراض الحضارة المادية ، وخسروا الخلافات والاختلافات على أنها الباعث الأول والدافع الوحيد إلى ما يشهده العالم المعاصر من نزاعات وصراعات وحروب بين الدول والقوميات والأقليات ، وهذا تفسير مادي سطحي قاصر عن معرفة جوهر هذه الصراعات الذي يكمن في المذهب المادي المعاصر ، الذي سبق وأن ذكرنا أن الحضارات القديمة فئيت وانهارت بسببه ، وهو ما توصل إليه العالم الإنجليزي أدوارد جيبون في تحليله لأسباب انهيار الحضارة الرومانية^(٣٥) .

وفي ضوء ذلك ، نقول إن دور ورسالة الحضارة الإسلامية هو بعث الحوار بين الحضارات من جديد لمواجهة النظريات التي تقول بالصراع والصدام . فالحضارة الإسلامية لها من المبادئ التي قامت عليها ، والتجارب التي خاضتها على كدى القرون ، والنماذج الناجحة التي قدمتها لها من كل ذلك ما يجعلها قادرة على قيادة الجوار بين الحضارات المعاصرة ينبع ذلك من جوهر رسالة الإسلام ، يقول تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء آية ١٠٧) . وصدق رسول الله ﷺ

عندما يقول : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» رواه أحمد والحاكم وقد صدق الحق جل وعلا في أم الكتاب فقال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم آية ٤) . وقال عنه العالم الإنجليزي كارلايل : «لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة ، وبحقائق الكون والكائنات لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينيه بأهواله ومحاسنه ومخاوفه لهذا جاء صوت هذا الرجل منبعثاً من قبل الطبيعة ذاتها لهذا وجدنا الأذان إليه مصغية والقلوب لما يقول واعية» (٣٦) .

ويقول الأديب الروسي تولستوي عن رسول الإسلام ﷺ : «لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخراً ، أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا ، ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال» (٣٧) .

هذه شهادات أناس غير مسلمون وغير عرب وغير شرفين ، ويؤكدون نجاح التجربة الإسلامية في إقامة الحضارة الراقية والتعايش بين جميع بني البشر تمثل كل ذلك فيما أداه رسول هذه الأمة إلى الإنسانية كلها من خدمات وأعمال جليلة .

ولا نغالي إن ذهبنا إلي القول ، إلى أن الإنسانية في عصرنا تحتاج إلى إحياء هذه الرسالة الخالدة .

المراجع والهوامش

- (١) جوستاف ، فون جرونباوم ، حضارة الإسلام ، ترجمة عبدالعزيز توفيق ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م ، ص ١٤- ١٥ .
- (٢) يحيى الخشاب ، التقاء الحضارتين العربية والفارسية ، القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٠م ، ص ٨٨- ٨٩ .
- (٣) المصدر السابق ، ص ٩٦- ٩٧ .
- (٤) المصدر السابق ، ص ١٥٤ وما بعدها .
- (٥) انظر التفاصيل في د. عبدالرحمن بدوي ، ربيع الفكر اليوناني ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨م ، ص ٣١ .
- (٦) انظر العلاقات الحضارية بين بلاد اليونان وبلدان البحر المتوسط في عباس محمود العقاد ، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبرانيين ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م .
- (٧) انظر تفاصيل الكتب التي ترجمها العرب عن اليونانيين في الفهرست لابن النديم ، بيروت : دار المعرفة ، [د.ت] ص ٣٤٣ ، ٣٧٣ ، ٤٠١ .
- (٨) د. إحسان عباس ، ملامح يونانية في الأدب العربي ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٧م .
- (٩) د. عمر المالكي ، الفلسفة السياسية عند العرب ، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر ، ١٩٧١م ؛ وانظر أيضاً : عبدالرحمن بدوي ، الأصول اليونانية للنظرية السياسية في الإسلام ، ج ١ ، القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٤م .
- (١٠) القرون الوسطى أو العصور الوسطى ، هو مصطلح تاريخي استخدمه المؤرخون الغربيون لتقسيم المراحل التاريخية التي جرت بها الحضارة الغربية بصفة عامة وهو على ارجح تقدير يبدأ من القرن الثالث الميلادي وإلى أوائل القرن الثالث عشر ،

انظر كرين برنتن ، أفكار ورجال قصة الفكر الغربي ، ترجمة محمود محمود ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٥م ، ص ٢٢٣ .

(١١) انظر التفاصيل في أليكس جورافسكي ، الإسلام والمسيحية ، ترجمة د. خلف محمد الجراد ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٢١٥ ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة ، ١٩٩٦م .

(١٢) جوستاف خون جرونيباوم ، مصدر سابق ، ص ٤٦ .

(١٣) كتاب إعجاز القرآن للباقلاني ، تحقيق السيد أحمد صقر ، مصر : دار المعارف ، ١٩٨١م ، ص ٢٤ .

(١٤) جرونيباوم ، مصدر سابق ، ص ٢١ .

(١٥) أليكس جورافسكي ، مصدر سابق ، ص ٣٦ .

(١٦) فرانثيسكو غابرييلي ، «الإسلام في عالم البحر المتوسط» ، في كتاب تراث الإسلام ، مصدر سابق ، ص ٩٥ وما بعدها .

(١٧) أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن البناهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٠م ، ص ٦٦-٦٨ .

(١٨) فرانثيسكو غابرييلي ، مصدر سابق ، ص ١١٨ .

(١٩) أحمد رضا (بن) وثائق عن الحروب الصليبية ، ترجمة محمد بورقية ومحمد الصادق الزمرلي ، ط ٣ ، تونس : دار بوسلامة ، ١٩٧٧م ، ص ١٩٢-١٩٣ .

(٢٠) السيد أمير علي ، روح الإسلام ، ترجمة أمين محمود الشريف ، ط ١ ، القاهرة : مكتبة الآداب ، ١٩٦١م ، ص ١٧٣ .

(٢١) فرانثيسكو غابرييلي ، مصدر سابق ، ص ١١٢ وما بعدها .

(٢٢) الدكتور غوستاف لوبون ، روح السياسة ، ترجمة محمد عادل زعتير ، مصر : المطبعة العصرية ، [د.ت] ، ص ١٧٥ .

(٢٣) السيد أمير علي ، مصدر سابق ، ص ٥٣ .

- (٢٤) سيد قطب ، الإسلام ومشكلات الحضارة ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٣ م ، ص ١٦٦ وما بعدها .
- (٢٥) انظر تفاصيل شهادات العلماء الغربيين في حضرة الإسلام وآثارها في حضارة أوروبا الحديثة في مؤلف الدكتور عبدالحليم محمود ، أوروبا والإسلام ، القاهرة : دار الشعب ، ١٩٧٢ م ، ص ٨٥ .
- (٢٦) خير الدين التونسي ، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تحقيق وتعليق المنصف الشفوفي ، تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٢ م ، ص ١٢٠ .
- (٢٧) محمد إقبال ، تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ترجمة عباس محمود ، ط ٢ ، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ م ، ص ١٥٠ .
- (٢٨) أحمد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٦٤ .
- (٢٩) المصدر السابق ، ص ١٩٠-١٩١ .
- (٣٠) مولاي محمد علي ، الإسلام والنظام العالمي الجديد ، ترجمة أحمد جودة السحار ، القاهرة : مكتبة مصر ، [د.ت] ، ص ١٦-١٧ .
- (٣١) موسوعة تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ، الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٩٨٣ م ؛ وانظر أيضاً ، المخطوطات العربية ثلاثة ملايين مخطوط عربي ، ملف جريدة الثورة السورية ، دمشق بتاريخ ٢٨/٣/١٩٨٢ م ، ص ٦-٧ .
- (٣٢) جرونيباوم ، مصدر سابق ، ص ٢٣٢-٢٣٣ .
- (٣٣) انظر التفاصيل في قدرتي حافظ طوقان ، العلوم عند العرب ، نابلي : دار اقرأ ، [د.ت] .
- (٣٤) مصطفى صادق الرافعي ، تحت راية القرآن ، ط ٧ ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٤ م ، ص ٢٣٨ .

- (٣٥) دوارد جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة د . محمد سليم سالم ، ج ٣ ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٦٩ م .
- (٣٦) الدكتور عبدالحليم محمود ، مصدر سابق ، ص ٥١ .
- (٣٧) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

البوشيدو روح اليابان وقيم الحضارة العربية الإسلامية

الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم (*)

المستخلص

إذا كانت اليابان تعد من بين الجماعات الوثنية وينظر لها كأنها دولة متأخرة من ناحية السمو الديني، نظراً لعدم وجود كتاب يدون معتقداتها ويضبط شرائعها الدينية كما هو الحال لدى أصحاب الديانات السماوية، إلا أن اليابان لم تتغافل هذا الأمر، فقد أوضح العلماء اليابانيون في مؤلفات عدة عادات بلادهم ومذاهب أمتهم في التفكير وتفسير الأحداث الاجتماعية والكونية وهكذا شرح الفيلسوف الياباني الدكتور (إينازو نيتوبيه) تلك الأمور، وفسر مفهوم «البوشيدو» التي تعد روح اليابان ودستورها الأخلاقي، وقد كتب ما يأتي:

«... ورد في القرآن الكريم - ما معناه - أن الله تعالى أرسل لكل أمة نبياً ينطق بلغتها، لكننا لو اتجهنا في جميع الأنحاء نبحث عن مصدر نستوحي منه النور والهداية والنشاط والقوة فلن نرى مصدرًا خليقاً بأن يحتل مكانة البوشيدو» انتهى.

وهكذا كان اختيار الباحث لموضوع البوشيدو وقيم الحضارة العربية الإسلامية يفسر معني البوشيدو، ويلقي الضوء في مبادئها، ثم يقارن بين هذه المبادئ والقيم وبين مبادئ

(*) الأستاذ بعمادة شؤون البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

وقيم التراث العربي الإسلامي ، فما حققته اليابان من نهضة جذبت إليها الأنظار لم يكن وليد الاندماج الأهوج مع تقاليد الغرب وعاداته ، وإنما كان نتيجة حرص اليابان الشديد على روحانياتها وأخلاقيها القومية التي يمكن الوقوف عليها من خلال تعاليم البوشيدو التي تمثل بالنسبة لليابانيين روح اليابان .

وقد أوضح الباحث تقاليد البوشيدو وقيمها وفضائلها التي كانت وليدة الفروسية أو ما يطلق عليه في تاريخ الآداب العربية والفكر الإسلامي « الفتوة » كما أوضح الباحث كيف أن البوشيدو تمثل مجموعة القيم اليابانية والمثل العليا للشعب الياباني مثلما تقوم الفتوة العربية الإسلامية ، وتعتمد في أسلوبها على القيم السامية للحضارة العربية الإسلامية ، وتعتمد في أسلوبها على تعاليم الإسلام الجليلة ، كما أشار الباحث أيضاً إلى أنه إذا كانت البوشيدو قد استمدت تعاليمها من الكونفوشية والشتوية أساساً فإن الفتوة قد استمدت قيمها ومثلها من تراث الحضارة العربية ، ومبادئ الإسلام ونهجه القويم .

ويخلص الباحث بعد المقارنة بين التربية في البوشيدو والتربية في الإسلام ، وقضايا أخرى مثل موقف البوشيدو من المرأة وموقف الإسلام من المرأة إلى أن الأمة اليابانية بما لديها من قيم حضارية ومثل عليا تقترب كثيراً من الأمة العربية الإسلامية ؛ نظراً لما للأمتين من قيم حضارية مشتركة .

وفي النهاية يوصي الباحث بضرورة تعريف الأمة اليابانية بقيم الحضارة العربية الإسلامية ، ولقاء الضوء في التراث الياباني والقيم اليابانية التي تتشابه إن لم تكن تماثل القيم العربية الإسلامية في جوانب كثيرة .

البوشيدو روح اليابان وقيم الحضارة العربية الإسلامية

مقدمة البحث :

إذا كانت اليابان تعد من الجماعات الوثنية ، وينظر إليها على أنها دولة متأخرة من ناحية السمو الديني ، نظرا لعدم وجود كتاب يدون معتقداتها ، ويضبط شرائعها الدينية ، كما هو الحال لدى أصحاب الديانات السماوية إلا أن العلماء اليابانيين لم يتغافلوا هذا الأمر ، فأوضحوا في مؤلفات عديدة عادات بلدهم ، ومذاهب أمتهم في التفكير ، وتفسير الأحداث الاجتماعية والكونية^(١) وهكذا شرح الفيلسوف الياباني الدكتور إينازو نيتويه^(٢) هذه القضية ملقيا الضوء ومفسراً لمفهوم «البوشيدو» التي تعد - بحق - روح اليابان ودستورها الأخلاقي حين كتب ما يلي :

« . . . ورد في القرآن الكريم - ما معناه - أن الله تعالى أرسل لكل أمة نبيا ينطق بلغتها^(٣) لكننا لو اتجهنا إلى جميع الأنحاء نبحت عن مصدر نستوحي منه النور والهداية والنشاط والقوة فلن نرى - في اليابان - مصدرا خليقا بأن يحتل مكانة البوشيدو^(٤) . »

ومن هنا كان اختيار الباحث لموضوع «البوشيدو روح اليابان وقيم الحضارة العربية الإسلامية» يفسر فيه معنى البوشيدو ، ويلقي الضوء على مبادئها ثم يقارن بين هذه المبادئ والقيم ، وبين المبادئ والقيم العربية الإسلامية ، فما حققته اليابان من نهضة ، جذبت إليها الأنظار ، لم تكن وليدة الاندماج الأهوج مع تقاليد الغرب وعاداته ، وإنما كانت نتيجة حرص اليابان الشديد على روحانياتها وأخلاقها القومية التي يمكن الوقوف عليها من خلال تعاليم البوشيدو التي تمثل بالنسبة لليابانيين «روح اليابان» ومجموعة القيم التي يؤمنون بها ويتمسكون بها ، فالبوشيدو هي المثل الأعلى للأمة اليابانية ، وقيم البوشيدو هذه تشبه إلى حد كبير قيم الفتوة والفروسية العربية الإسلامية التي تعتمد في

أسلوبها على القيم السامية للحضارة العربية الإسلامية ، وعلى تعاليم الإسلام الجليلة ، وإذا كانت البوشيدو قد استمدت تعاليمها من الكونفوشية والشتوية أساسا ، فإن الفتوة أو الفروسية قد استمدت قيمها ومثلها من تراث الحضارة العربية ، ومن مبادئ الإسلام ونهجه القويم .

البوشيدو روح اليابان :

لا تزال الدراسات والبحوث تناقش حتى يومنا هذا العوامل التي حفظت للأمة اليابانية تماسكها وتجانسها ، وتتلخص السبيل الذي مضت عليه هذه الأمة ، فحفظ لها وحدتها القومية وروحها السامية التي يطلق عليها الفيلسوف الياباني «إيتازو نيتوبه» (البوشيدو) فهو يصف البوشيدو بأنها «روح اليابان» .

وتجدر الإشارة إلى أن لليابان على عكس ما يرى البعض - ثقافتها الدينية وحضارتها الدينية ، فلدى اليابانيين تهافت غريب على اتخاذ المثل الأعلى والسمو الخلقي أساسا لتنظيم حياة الفرد والجماعة ، واليابان ليست ، كما يصورها البعض وبخاصة في الغرب ، أمة مال لا هم لها إلا الريح ، ضاربة في سبيل ذلك كل حاجز واعتبار معنوي حتى وصفت بأنها «حيوان اقتصادي» ، وإنما هي وليدة بطولة عريقة ، أصابت من الزهد في الحياة ، والصدوف عن توافه المادة ، والتبذل المفروض في الارتقاء على أسباب الربح ، ومطالب الاتجار ، نسبة واسعة (٥) .

وسوف يتضح هذا الأمر من خلال هذه الدراسة ، إذ يلاحظ وجود تقارب غريب بين مبادئ البوشيدو وقيمها ، وبين قيم الحضارة العربية الإسلامية بل - وكما ذكر مختار كنعان في تقديمه لترجمة البوشيدو - «هناك شبه جلي جدا بين مبادئ البداوة والعروبة الصادقة الخالصة ، وبين خلق الياباني وإغراقه في الإباء والبطولة ، والفرق هو أن العربي أغفل بطولته بين حين وآخر ، بينما الياباني حرص عليها كل الحرص فنسج من البطولة والخصائص القومية شبك مدنيته ، ومظاهر تطوره ورقيه الحالي» (٦) .

أصل البوشيدو ومفهومها :

تتكون كلمة البوشيدو من ثلاثة مقاطع : (بو) بمعنى فارس ، و(شي) بمعنى سيد ، و(دو) بمعنى طريق . وهي بهذا تعني حرفياً «طريق السيد الفارس» ولكن مفهومها الاصطلاحي باللغة اليابانية هو : «المنهج الأخلاقي الذي ينبغي على الفارس أن يتخذه أسلوباً في حياته العملية» وبعبارة أخرى : ما هو السلوك الواجب على الفارس وهو يمارس مهنته - إن صح القول بأنها مهنة ؟! - ومع هذا فالبوشيدو تاريخياً تعني مناهج خاصة في التفكير والتأمل ، كما أنها تعني التعبير عن شخصية مستقلة بارزة ، لطائفة من الجماعات البشرية ، ومع هذا فيصعب التعبير عن مغزى هذا المصطلح أي البوشيدو ، لكن يمكن القول بأن البوشيدو عبارة عن سلسلة تعاليم ومبادئ أخلاقية ، يفرض تطبيقها والعمل بها على كل فارس ياباني (ويطلق على الفارس لقب سامورائي).

ومن العجيب أن تعاليم البوشيدو لم تدون ، لكنها اندمجت تماماً مع نفسية الياباني ، ومع أخلاقه ، فصارت إرثاً طبيعياً يتناقله الأبناء عن الآباء ، والأحفاد عن الأسلاف .

ولما كان من الصعب على الباحث أن يحدد تاريخ نشأة المبادئ الأخلاقية ، فهكذا يصعب تحديد بداية البوشيدو ، لكن إذا افترضنا الحديث عن تطورها بالمعنى التاريخي ، فمن المرجح أنها بدأت في العهد الإقطاعي^(٧) الذي لم يأت هو نفسه كنظام فجأة^(٨) .

ففي بداية العصور الوسطى ولنقل قبل القرن الثاني عشر الميلادي أطلق على جنود قصر الميكادو (أي الإمبراطور) لقب «سامورائي» بمعنى جنود الحراسة^(٩) ، لكن حين بدأ نظام الإقطاع ، وذلك منذ استيلاء «ميناموتو يوريتومو» على مقدرات البلاد ظهرت عبارة «بوكي او بوشي» وتعني فارس بطّاش ، وتشير إلى فئة اجتماعية كان دأبها القتال

والتنازع ، ولهذا كانت تتألف من أشد الأفراد رجولة ، وأكثرهم إقداما ومغامرة^(١٠) وهكذا كانت نشأة السامورائي وتكوينه الاجتماعي ، واتخذت كلمة السامورائي في ظل النظام الإقطاعي لتعني طبقة المحاربين كلها أي طبقة العسكريين ، وهي شبيهة بطبقة الممالك في مصر ، مع الفارق ، وقد ترجمها المتخصصون في الغرب بكلمة gentry الإنجليزية أو military class أو warriors ذلك لأن الكلمة تحمل عقب التاريخ الياباني وتعني أن جميع السادة gentlemen المحترمين يجب أن يكونوا جميعا جنودا في خدمة الوطن ، وجميع الجنود يجب أن يكونوا سادة مهذبين gentlemen^(١١) ، وقد حددت هذه الطائفة لنفسها مناهج عامة ، ونظما مشتركة ، لتحديد طرائق عيشها ومنهج حياتها ، وتوحيد شكلها العملي .

وإذا كان بازيل هال في كتابه «الأشياء اليابانية» يذكر بأن السامورائي تشابه مع طبقة الفرسان في أوروبا ، تلك الطبقة التي ظهرت في العصور الوسطى ، وكانت في طاعة الإقطاعيين ، يحافظون على الحكم وعلى الحكام ، انطلاقا من الحق المقدس ، وهي طاعة تصل إلى حد الموت في سبيلها ، وإلى حد التضحية بالروح ، لكن الفيلسوف الياباني الدكتور اينازو نيتوبيه يرى بأن الفروسية اليابانية تختلف عن الفروسية التي كیفها النصرانية في أوروبا ، واتجهت بها وفقا لأوضاعها الروحية^(١٢) .

ويوافق الكاتب الغربي على هذا الرأي ضمينا فيذكر بأن الاهتمام كان بالميلاد والولد ، وليس النقود ، كما كان الحال لدى فرسان أوروبا ، كما أن كلمة الفارس الياباني كانت هي شرفه ، وقد تربى ليكون مهذبا وليكون شجاعا ، وبينما كان الله والنساء هما شعار الفرسان في أوروبا ، لم يكن الأمر كذلك عند الفارس الياباني .

ولا شك أن المتغيرات التاريخية والاجتماعية في اليابان أثرت على وضع السامورائي ، ففي عام (١٦٠٠م) تصدى الشوغن (الحاكم العسكري) للنصرانية بعد أن تحولت إلى قوة سياسية استخدمها أطراف النزاع على السلطة^(١٣) كمدخل للتعاون مع

قوى خارجية من البرتغال والإنجليز والألمان والأسبان وغيرهم . . ووصل الحد إلى إعلان بعض قادة السامورائي انتماءهم الصريح إلى النصرانية ، مما أثار رد فعل محلي متزايد لدى كل من قيادة الشوغن ورجال البوذية ، ومن هنا بدأت سلسلة تدابير تهدف إلى حفاظ اليابان على تقاليدها التراثية وقيمها الأخلاقية ، مما جعلها تعتمد إلى سياسة العزلة الطوعية .

ويرى البعض - ولا يوافقهم الباحث في رأيهم - أن الأفكار النصرانية أثرت على نظام القيم الصارم المعروف باسم «البوشيدو» والمتمثل اختصاراً في الحكمة واليقظة والشجاعة ، وهي الركائز الثلاث لنظام القيم الذي يعتمده الفارس الياباني^(١٤) .

تغيرت كلمة السامورائي إلى «شيزوكو Shizoku» سنة (١٨٧٨م) والكلمة مصطلح صيني يحمل تقريباً نفس مفهوم السامورائي ، وتحت هذا المصطلح استمر وجود السامورائي كطبقة ضمن الطبقات التي تشكل المجتمع الياباني^(١٥) .

إلا أن طبقة السامورائي ظلت تحتفظ بمكانتها داخل المجتمع ، فقد كانت تملك قدراً مهماً من الثقافة العصرية ، فشارك قسم كبير من هذه الطبقة بنشاط في تعليم اليابانيين إلى جانب المعابد البوذية^(١٦) وكان التعليم داخل طبقة السامورائي يشمل الذكور والإناث ، ويتم داخل المنزل العائلي حتى الخامسة عشرة ، ثم ينقل الطالب أو الطالبة إلى مدرسة المقاطعة^(١٧) وظل هذا حكراً على أبناء السامورائي حتى مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ثم تغير الوضع سريعاً ، وفتحت المدارس الثانوية أمام جميع طبقات الشعب^(١٨) .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أنه نظراً لاهتمام السامورائي التاريخي بتعليم أبنائهم وانفتاحهم على العلوم العصرية ، كان أبناء السامورائي أكثر المؤهلين لرفد الجهاز الإداري في اليابان بأفضل الكوادر المدربة ، وذات الخبرة في إدارة شؤون المقاطعات ،

وأفسحت إدارة الشوغن (الحاكم العسكري) المجال واسعا أمام أبناء السامورائي ، فانخرط هؤلاء في العمل المنتج ، وخاصة في المدن ، وأطلق عليهم اسم شونين أي أبناء المدينة ، ولما كانت الشرائح المنتجة من السامورائي تشكل الغالبية الساحقة من أبناء هذه الطبقة ، فإن إصلاحات الإمبراطور «مييجي» في هذا المجال بدت سهلة التنفيذ حين دعا السامورائي إلى التخلي عن الأمور الشكلية التقليدية (طريقة تصفيف الشعر وحمل السيفين . . إلخ^(١٩)) إلا أن قيم البوشيدو الأخلاقية الرفيعة ظلت كما هي لم تتغير ، لأنها راسخة في أعماق الفرسان اليابانيين ، فضلا عن أن الديانة البوذية تدعو إلى طاعة ولي الأمر والنظام ، والتمسك بنظام القيم السائدة ، والتضحية في سبيل الوطن والجماعة^(٢٠) ويلاحظ أن مؤسسي العائلات المالية والتجارية مثل سوميتومو Sumitomo وكونويكيه Konike وميتسوي Mitsui يعودون بجذورهم إلى عائلات السامورائي العريقة المتمسكة بقيم البوشيدو ، وقد شملت نشاطاتهم جميع مدن اليابان الكبرى .

أهمية البوشيدو في عصر حوار الحضارات :

إن تطور اليابان ، وتحديث المجتمع الياباني ، وتغيير البنية الاقتصادية والاجتماعية معا ، واجه بلا شك مصاعب ، تمثلت في الصراع بين الحديث والقديم ، وبين الأنماط التقليدية السائدة والأنماط الجديدة ، وبين الثقافات والقيم المحلية وبين الثقافات ذات النزعة الكونية !!

لكن اليابان اتخذت من ثقافتها التراثية ، واتخذت من قيمها الأصيلة ركيزة لنجاح عملية التطوير والتحديث ، فلا تزال الثقافة التراثية هي التي تحدد ملامح الشخصية القومية لليابان حتى يومنا هذا ، فقد اهتم المصلحون اليابانيون بتحديث المجتمع الياباني انطلاقا من تراثه الأصيل عبر تطوير الجوانب الإيجابية فيه ، وأولوا مسألة الحفاظ على الثقافة التراثية ، إبان عملية التحديث ، الأهمية القصوى في برامجهم الإصلاحية^(٢١) ،

وقد أدركوا أن التحديث الذي يقود إلى التفريط بالثقافة التراثية هو أقصر السبل إلى التغريب ، ولا يقود إلى التحديث الحقيقي ، فالتحديث يجب أن يكون على نتائج البيئة المحلية أولاً وليس من صنع أي عامل خارجي .

وقد أوضح العالم الياباني ناجيما نوبيتشيرو أن القيم في اليابان والشرق بعامة تتميز بالاستجابة للثقافات الأخرى ، وفصل الحديث عن استجابة الثقافة اليابانية للحضارات الأخرى في مناطق متفرقة من العالم^(٢٢) موضحاً أنه كان بإمكان اليابان بناء مجتمع قومي حديث مع الاحتفاظ بقيمها التقليدية المستمدة من الكونفوشية أو البوذية أو معارفها القومية ، ولم يتعارض هذا مع اهتمام اليابانيين بالثقافة الغربية من خلال الترجمة - وإرسال البعثات وما إلى ذلك^(٢٣) .

ولاشك أن صراعاً ظهر ما بين التحول للطابع الغربي ، والتحول للطابع الياباني ، وشغل هذا الأمر الأوساط التعليمية والدراسية منذ عهد مييجي حتى يومنا هذا ، ومال المفكرون اليابانيون - لأسباب يطول شرحها - إلى الطابع القومي أي إلى الطابع الياباني ، وكانت ميزة التحول إلى الطابع الياباني هي أن الثقافة المحلية ستعمل على ارتقاء المجتمع رغم وجود صعوبة التواصل بين اليابان وشعوب العالم الأخرى^(٢٤) .

وهنا نشير إلى أن طبقة السامورائي (الفرسان) التي حملت بين جنباتها قيم البوشيدو ومبادئها هي التي تولت مسئولية النهوض بتلك الدراسات الغربية أثناء حكم الإمبراطور (كوكا) ١٨٤٨م والإمبراطور كياي (١٨٥٤م) فانتشرت المعارف الغربية بسرعة في مجال علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية ، واعترف اليابانيون بسيادة قيم البوشيدو وتعاليمها في عالم الروح ، وسيادة العلوم الغربية في مجال التقنية ، لذلك اعتمدوا على العلوم الغربية لتحقيق شعار «الأخلاقيات شرقية أما التقنيات فغربية» أو «الروح اليابانية والمعرفة الغربية» .

ولم يكن غريبا أن لا يتجاوز قادة حركة التغيير في عهد الميجي الخمسين رجلا، كانوا من الموهوبين الذين قاموا بوضع أسس اليابان المعاصرة^(٢٥) وكانوا من أصحاب المثل والقيم ، لكنهم لم يكونوا من أصحاب النظريات ، وكانت تستهويهم كلمة جيتسوجاكو (بجيم قاهرية) Jitsugaku وتعني السعي وراء المعرفة العملية ، وقد سافر بعضهم إلى أمريكا وأوربا ، ويذكر هنا أن هؤلاء استفادوا من خلفياتهم السابقة ، فهم ينتمون إلى طبقة الفرسان ، لأن الصفات المطلوبة آنذاك كانت تتمثل في المبادرة ، والجسارة ، والقوة الدافعة ، وهي من أهم قيم البوشيدو التي تمثل روح اليابان حتى اليوم .

ومن الملاحظ أن التحديث في اليابان كان نتاج التراكم الإيجابي الذي جمعه اليابانيون إبان مرحلة توكوجاوا (بجيم قاهرية) ، وتم توظيفه بشكل إيجابي في عصر الإصلاحات ، ففي مرحلة الحكم الإقطاعي برز الفرسان (السامورائي) الذين انتدبوا أنفسهم للدفاع حتى الموت عن قدسية أرض اليابان التي لا يجوز أن تطأها أقدام الغزاة ، وهكذا تمكنت السلطة المركزية في اليابان لاحقا من استعادة هذه النزعة الاستشهادية لدى البوشيدو أو لدى قادة السامورائي ، لتوظيفها من أجل الدفاع عن وحدة اليابان ، ومقاومة أي جيش أجنبي يحاول احتلال أراضيها ، وهي النزعة التي تخيف ذكراها الدول الغربية حاليا ، وتكفي الإشارة هنا إلى ما تشيره وسائل الإعلام الغربية إذا ما زار رئيس وزراء ياباني أي مبنى ياباني يرمز إلى أرواح اليابانيين الذي ماتوا دفاعا عن وطنهم^(٢٦) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كبار قادة السامورائي من العسكريين الذين فرضوا الوحدة اليابانية بالقوة المسلحة ، نهوا إلى مخاطر حركة تغريب مبكرة في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي ، وحتى الثلث الأول من القرن السابع عشر الميلادي ، وما يقال عن تحول اليابان إلى الثقافة الغربية أو إلى مظاهر الحضارة الغربية عار عن الصحة ، فعالم اليابانيات الأمريكي أدوين رايشاور يشير بوضوح - وهو الذي ولد وعاش

في اليابان وعمل سفيرا بلاده بها - إلى أن اليابان استطاعت أن تحافظ على حس واضح لشخصيتها الذاتية (ذكر عدة أسباب) رغم أن اليابانيين رحبوا بالثقافة الوافدة عليهم من الصين ، ومزجوها بثقافتهم الخاصة (ق ١٩) فأنتجوا توليفة ثقافية جديدة تماما (٢٧) ، وعلى كل حال فقد اهتم الفرسان (السامورائي) كثيرا بالتركيز على الفضائل (العسكرية) مثل الشجاعة ، والشرف ، وضبط النفس ، وتقبل الموت والتضحية بالنفس بصبر وجلد ، كما كانت فضيلة الولاء الشخصي في النظام الأخلاقي الذي نقله اليابانيون عن الصين ، يركز على المبادئ الأخلاقية ، أكثر من تركيزه على القانون ، بل إن القانون نفسه كان خاضعا لتقويم المحاكم الأخلاقي الذي يصدر أحكامه من الناحية النظرية على أساس ما يتمتع به من حكم ومبادئ أخلاقية سامية .

وبالنسبة لمفهوم الولاء في اليابان فإن الولاء للمحاکم أي لولي الأمر هو الأساس الذي يقوم عليه النظام كله ، رغم أهمية الولاء للأسرة الذي يأتي متأخرا عن الولاء للمحاکم ، وهكذا عرفت اليابان منذ القديم المجموعة الأسرية ، أو النظام الذي يشبه نظام القبيلة ، الذي يعلو أي مستوى آخر كأساس يفوق في الأهمية الأسرة نفسها ، وقد سهل هذا - في العصر الحديث - عملية انتقال الولاء إلى الأمة وإلى الجماعات التي لا تربطها علاقات قرابة أو نسب (٢٨) ، واستمرت سمات وملامح النظام الياباني السياسي والاجتماعي في العصور الوسطى باقية ، وانتقلت إلى المجتمع الياباني المعاصر ، ونجح اليابانيون - كما يقول رايشاور - في الاحتفاظ بكثير من السمات التي شملها التطور في تلك العصور ، لذا كان من السهل على الجيش الياباني الحديث إحياء روح الفروسية وقيمها ، والحفاظ على روح الولاء الواجب ، وضبط النفس وإنكار الذات (٢٩) وهو ما يمثل أساسيات تعاليم وقيم البوشيدو ، ومن هنا نلاحظ أنه إذا كان المجتمع الياباني يتغير تغيرا سريعا لكي يتلاءم مع أي نموذج متناسق ومنضبط ، فهو يتخذ من ثقافته التراثية أساسا لهذه العملية .

ويقتضي هذا من الباحث أن يناقش مصادر البوشيدو التي تمثل الثقافة التراثية للشعب الياباني .

مصادر البوشيدو وتأثيرها على القيم الحضارية اليابانية :

مع ظهور حركات مذهبية جديدة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين مثل بوذا أميدا ، ومثل لوتس سوترا ، وجماعة نيتشرين ، نجد السامورائي يفضلون من بين مذاهب البوذية مذهباً عرف باسم الزن ZEN نقل من الصين في عهد كاماكورا^(٣٠) ، وهو يركز على فلسفة التأمل ، والبساطة ، والاتصاف بالطبيعة ، ونادى هذا المذهب البوذي أيضاً بتقشف الفرسان ، والانضباط الصارم للنفس من أجل ممارسة فلسفة الزن zen في التأمل كوسيلة لتنمية إرادة التحكم في النفس ، والوصول إلى الشخصية الحازمة ، وهو الهدف من الحياة^(٣١) .

ولم يكن النظام الإقطاعي في اليابان إلا سلسلة تطويرية لارتقاء نظام الفروسية «السامورائي» (القائم على تعاليم البوشيدو) وارتقاء الفتيان في تفكيرهم وشعورهم نحو السمو والنبيل الأخلاقي ، إلا أن تعاليم بوذا كان لها أثرها في دفع نفسية الياباني إلى الإيمان بالقدر ، وأوحت له استسلاماً هادئاً للأمر الواقع ، وتفاؤلاً غريباً عند المصائب والمخاطر ، كما أخذت اليابان من البوذية الزهد في الحياة ، واستقبال الموت في غبطة وانسراح .

والفتى (الفارس) حين يصل إلى أرقى الدرجات ، يتجه إلى التدريب طبقاً لجماعة الزن zen أي التغلغل في أعماق الفكرة البشرية بطريقة التأمل والشعور ، وليس بوسائل التعبير والاصطلاحات اللفظية ، فالزن معناها التأمل والإيمان بأن وحدة نظامية تسود الحادثات الكونية ، والإيمان بوجود حقيقة مطلقة مع العمل على الاندماج مع روح هذه الحقيقة^(٣٢) .

وما تقدر البوذية على تقديمه للبوشيدو قدمته الشنتوية ، والمقصود هنا واجب الإخلاص للحاكم الأعلى : الإمبراطور أو الملك ، والشعور العميق الصادق باحترام ذكرى السلف ، والطاعة البنوية ، فالشنتوية تؤمن بذلك (٣٣) .

والشنتو تنكر قضية الخطيئة الغريزية ، وهي ترى نقيض ذلك ، وتعتقد بطهر الروح الإنسانية أي نقاء الفطرة ، فكل إنسان يولد على الفطرة ، وهي تلمس بها مصدرا يردد صدى صوت الإله في صدق وأمانة ، لهذا لا يوجد في مزارات الشنتو أي زخرفة أو رموز دينية ، ويكتفي بمرآة تعبر عن قلب الإنسان الصافي الطاهر النقي ، وهكذا أوجدت الشنتو في أعماق اليابانيين حبا غريبا لطبيعة البلاد ، وحرمة قوية لأراضيها المقدسة ، بالإضافة إلى عبادة السلف مما جعل العائلة المالكة هي مصدر القومية المشتركة لأبناء الوطن على السواء ، فالوطن ليس أرضا وتربة بل هو مرقد الآلهة المقدسة ، يطوي في بطنه روح السلف الخالد .

وقد أدى هذه الشعور ذاته بالمسلم الياباني إلى الإحساس القوي بحرمة الأراضي المقدسة هنا في الجزيرة العربية ، فهو يرى منطقة الحرم هذه حرما للمسلمين دون غيرهم ويشعر بهذا المعنى العميق ، خاصة بعد أن يقف عند البوابة التي تقوده إلى مكة المكرمة في طريقه إلى الكعبة (٣٤) .

والإمبراطور في الشنتوية هو ممثل السماء على الأرض ، أو بتعبير آخر خليفة الله على الأرض مع الفارق في التعبير ، مثلما المسلم يدرك أن الإنسان الكامل هو خليفة الله على الأرض ، وهكذا غرست الشنتوية في البوشيدو فضيلة الإخلاص للملك الحاكم ، وأخصّتها أصدق العواطف حبا له ، وتعلقا غريبا بربوع الوطن (٣٥) .

فيما يتعلق بالنظريات والتعاليم الأخلاقية المحضة تعد مبادئ الكونفوشية بمثابة أخصب المصادر وأغزرها مادة ، استوحت منها البوشيدو فضائلها واعتمدتها في تكوينها

الخلقي ، فأقرارها للعلاقات الأخلاقية الخمس :

- ما بين السيد والمسود
- والحاكم والمحكوم
- وبين الأب والابن
- وبين الزوجين
- وبين الأخوين والأصدقاء فيما بينهم .

هو تأييد لما كانت تتمخض عنه الغريزة اليابانية قبل تسرب تعاليم كونفوشيوس إلى اليابان قادمة من الصين^(٣٦) وقد لقيت تعاليم كونفوشيوس^(٣٧) قبولا في قلوب السامورائي ، ولا تعلق البوشيدو كثيرا من الاهتمام على المعرفة المجردة ، ولا تقول بالسعي إليها كغاية مستقلة ، وإنما ترى فيها وسيلة لإدراك الحكمة ، وقد عبر عن ذلك الفيلسوف الياباني اينازو نيتوييه قائلا : « إن من يجد معارفه على أساس العلم كغاية مستقلة هو شبيه بألة ميكانيكية تنسج شعرا وتحيك أقوالا »^(٣٨) .

فالمعرفة بالمبادئ تكون باتخاذها أساسا وبرنامجا تطبيقيا في الحياة العملية ، وهذا يعني ضرورة أن يقترن العلم بالعمل أو بعبارة أوضح أن يقترن القول بالعمل ، فهما كل لا يتجزأ .

ويرى الفيلسوف الياباني أن تعاليم البوشيدو مثل تعاليم الديانات السماوية ، ونقل عن أحد تلامذة « وان يانغ مينغ »^(٣٩) اليابانيين قوله : « لما كان رب السماء والأرض ، وجميع الكائنات الحية تسكن قلب الإنسان ، يصبح إذًا روحه وفكره ، فالروح الإنسانية في هذا المعنى هي شيء حي باق ، وضيء أزلي خالد . إن ضياء الروح الإنسانية أمر طاهر نقي ، وهي تجعلنا نميز بين الخير والشر لذلك تصقل الضمير والوجدان ، وتكون في هذه الحالة أشعة تشرق علينا من نور السماء »^(٤٠) .

إن تعاليم البوشيدو التي تعد بمثابة الروح بالنسبة لليابان - ولا يبالغ الباحث إن قال إنها بالنسبة للياباني مثل تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية بالنسبة للمسلم - لا تزال حية باقية ، تحكم سلوكيات المجتمع الياباني ، وهي لم تتعارض مع تعاليم الحداثة التي وصلته من الخارج ، فالبوشيدو حجر الزاوية في الثقافة اليابانية ، والبوشيدو الدرع الثقافي في مواجهة الثقافات الغربية إبان سنوات الانفتاح على الغرب ، بعد العزلة الطوعية التي استمرت قرنين ، إذ ليس في تعاليم البوشيدو ما يتناقض مع ما طرحته الحداثة الوافدة ، وهكذا احتوت مناهج التدريس في المدارس اليابانية قيم البوشيدو وتعاليمها الأخلاقية حتى تتم المحافظة على الروح اليابانية ، من خلال ما تضمنته هذه المناهج الدراسية من حكايات وقصص أدبية وأشعار وحكم ، بل وأساطير ، تشكل لدى الدارسين دستوراً أخلاقياً يشبه إلى حد كبير ما تتضمنه الكتب العربية الموجهة لتربية الشبيبة في بلادنا العربية على قيم الحضارة العربية والأخلاق الإسلامية الجليلة .

ولهذا ذكر الفيلسوف الياباني أن البوشيدو هي دستور اليابانيين الديني ، وهي مثل القرآن عند المسلمين ، ولمعرفته بمكانة القرآن في قلوب المسلمين ، استشهد بآيات القرآن الكريم في أكثر من موضع ، ولعل ما دفعه إلى تنظير قيم البوشيدو في كتابه (البوشيدو روح اليابان) هو شعوره بواجبه تجاه إحياء تعاليمها وقيمها الأخلاقية ، وشعوره بضرورة أن يشرح للغرب ما لم يستطع مفكروه فهمه من أخلاقيات الشعب الياباني ، وأن يثبت أن ما لدى الشعب اليابان من مبادئ وأخلاقيات ومعتقدات شبيه بما لدى أصحاب الديانات الأخرى في العالم .

وعلى كل حال فروح البوشيدو قائمة حتى اليوم داخل المجتمع الياباني مثلما روح القرآن الكريم قائمة الآن ، وستظل قائمة داخل المجتمع العربي الإسلامي إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

البوشيدو والتربية وأساليب التقويم :

إن تقاليد البوشيدو في تربيتها للفارس ، تفرض اهتماما زائدا ، وجهدا كبيرا في تربية الأخلاق ، وتكوينها تكوينا صالحا ، لحياة حرة ، غرض سام رفيع في المجتمع الإنساني ، بينما تنظر نظرة ثانوية لمواهب الفرد الأخرى كالذكاء وحدة الذهن ونباهة العقل بالمقارنة بسمو الخلق وقيمته الخالدة الدائمة في الحياة الاجتماعية ، ويصدق هنا قول الشاعر العربي : إنما الأمم الأخلاق ما بقيت . . . إلخ .

وكلمة الثقافة أو مدلول كلمة «شي shi» باليابانية يعني الحكمة من التخلق بالخصال الحميدة^(٤٢) واليابانيون يركزون على «شي جن يو- الحكمة والإحسان والشجاعة» التي اتخذت البوشيدو منها دعامة لإقامة تعاليمها وإشادة بنائها .

وللسامورائي أو للفارس عقلية عملية صرفة ، وقد يسرف بعض الأحيان بالاستسلام لمطالبها لذلك فهو قليل الاهتمام بالثقافة العلمية المجردة ، ولا ينظر إليها كناحية أساسية في نشاطه العملي ، وإذا أعارها البعض من اهتمامه ، فهو يقصد من ذلك الانتفاع منها بما يتفق ومهنته كفارس ومحارب^(٤٣) ومن هنا كان السامورائي يترك أمر الدين ومعالجة قضاياها إلى الكهنة ، ولم يكن اهتمام الفتي الفارس بالدين إلا بقدر ما يستمد منه شجاعة ، ويوحي إليه جرأة وإخلاصا ، والسامورائي يحترق المال ، ويستقيح طرق جمعه ، وأساليب ادخاره ، والسبب هو تعويد النفس على الامتناع عن الشهوات ، ومقاومة الرغبات الحيوانية التي يحتاج تحقيقها شيئا من التدبير ، فالرفاهية في العيش عدو لدود لمبادئ البطولة ، وهي تفسد معنى الرجولة وغاياتها الرفيعة ، بينما ينظر الفارس الياباني إلى خشونة العيش على أنها في مقدمة الفضائل ومبادئ الرجولة الحرة^(٤٤) .

ومن هنا يرى الفيلسوف اينازو نينوبيه أن استسلام اليابان لمؤثرات المدنية الحديثة واسترسالها في مهاري المادة ، عامل يعرض نزاهتها المعنوية لكبير الويل ، وقد يجعل

منها أمة تقيم فضائلها على نسبة الإثراء والوفور الاقتصادي ، وهذا هو سر اهتمام اليابانيين الآن بالتربية والتعليم ، وقلقهم المتزايد من غياب القيم التراثية لدى الشباب الياباني المعاصر ، بعد أن حققوا تطوراً اقتصادياً مشهوداً .

فالتربية والتعليم لهما مكانة رفيعة لدى الياباني ، فهما بمثابة أب للتييم ومرشد لمن كتبت عليه الضلالة ، والحكمة اليابانية ترى أن الأبوين هما بمثابة الأرض والسماء ، والعلم بمثابة الشمس والقمر ، والبوشيدو ترفض التوزيع المالي الذي اتخذته الجيل الحاضر أسلوباً يقابل به الخدمات والجهود الصادقة .

فالمعلم والأستاذ ترى في جهودهم خدمات لا يمكن لأي قيمة نقدية مالية أن تعادل وتقابل نتائجها وثمارها الطيبة .

وهنا نلمس ابتعاد البوشيدو عن المبادئ المالية والاقتصادية وقصر احترامها وتقديرها بالقيم ذات الكنه والجوهر المعنوي والأخلاقي^(٥٤) .

ومما يتصل بالتربية حرص البوشيدو على تربية الروح وتعويدها على الانتظام مع تقاليد المجتمع ، ولا بد أن يحتفظ الإنسان بما يكنه من مشاعر ، فالكاشف عن المشاعر فيه نقيض بالرجولة ، وادعاء باطل بالحزم والقوة ، لذلك يقال في اليابان بأن إخفاء السرور والغضب هما من ميزات الرجولة الصادقة^(٤٦) .

وهكذا صارت الطبيعة اليابانية تمج التحدث والتقول بما يتصل بالشعور والعاطفة التي تعتقد بأنها أصابت من القداسة والإجلال درجة ، بحيث لا يجوز التعبير عنها بالألفاظ المتداوله ، ولا أثقل على أذن الياباني من التشدق بمشاعر القلب ، وجعل الحياة الخاصة موضوعاً للسلوى ، وإشغال الفارغ من الوقت^(٤٧) .

ومن أهم ما يجب ذكره هنا أن البوشيدو تربي الفرد على الاستقامة التي تعتبر أكثر الفضائل احتراماً وإجلالاً في الدستور الأخلاقي عند الياباني ، وهي كما وصفها مشاهير

السامورائي قوة الإنسان على اتخاذ رأي منطقي بحزم ودون تردد ، مثل اختيار الموت إذا قضى الواجب بذلك ، والتمسك بالحياة إذا كان يفرضها المنطق المشروع والعقل القويم ، ويرى آخر أن الاستقامة هي العضو الذي يستمد منه الحزم ، فالرأس دون الأعضاء لا يعقل أن يبقى في أعلا الجسد ، والفضيلة مع الاستقامة اكتمل تكوينهما في أواخر العهد الإقطاعي ، وذلك نتيجة مراحل طويلة من الهدوء الذي صرف جماعة الفروسية عن النزاع والصراع إلى السكينة والهدوء والإبداع الفني مما جعل الجماعات والأفراد يتفنون في تناول الفضيلة ، وابتداع الأساليب لإدراكها .

والفضيلة التي تشعبت عن الاستقامة يطلق عليها الياباني كلمة Gishi وتعني المنطق القويم ، لكنها أخذت تعني بشكل ما واجب عقدي أو الشعور بالواجب الذي يتحتم على الجميع أدائه^(٤٨) والتعبير الياباني Gi-Ri يعني الواجب بصورة مطلقة ، وهو يعني الواجب تجاه الوالدين ، وتجاه الرؤساء ، وتجاه الجماعة ، وباختصار تجاه المجتمع ككل^(٤٩) .

وتربي البوشيدو الفرد على الشجاعة التي تعد من الفضائل إذا انتفع منها العدل ، ولا تكون الشجاعة في الاستماتة الطائشة ، إنما الشجاعة في إيثار الموت على الحياة عند الحاجة والعكس بالعكس .

وإذا كان هذا البحث يتناول البوشيدو وقيم الحضارة العربية ، فإن هذا لا يعني أن الباحث يعقد مقارنة بين القيم اليابانية وقيم الحضارة العربية الإسلامية ، لكنه يكتفي بالإشارة إلى ما يستحق المقارنة ، لأن للأمة الإسلامية منهجاً إسلامياً مغايراً أو متميزاً عن مناهج أمم الحضارات الأخرى ، ومنهج الأمة الإسلامي وإن كان رباني المصدر إلا أنه إنساني الموضوع ، وهو منهج متميز جعل الإنسان المسلم مميزاً عن غيره في الوحدة والشرعية ، وفيما أثمرت عنه من حضارة متميزة هي الحضارة الإسلامية ، والمنهج الإسلامي يختص بالوسطية فالمسلم يتصف بالكرم ، وهي صفة بين الشح والإسراف ،

ومن هنا فهو يتصف بالتدبير والبذل والعطاء ، والمسلم يتصف بالشجاعة ، وهي مغايرة لكل من الجبن والتهور ، فهو يتصف بالحنو والإقدام ، وهو موقف وسط وقد شرح القرآن الكريم ^(٥٠) هذه الوسطية ^(٥١) .

أما فيما يتعلق بمفهوم الفضيلة ، أو ما صار في اليابان واجبا عقديا تجاه المجتمع ممثلا في الوالدين والرؤساء والجماعة ، بحيث يفنى الفرد أحيانا في الجماعة ، فنشير إلى أن الإنسان في الإسلام له شخصيته ، وهو فرد اجتماعي بطبعه ، ومكانة الأمة والجماعة في التصور الإسلامي لا تلغي دور الفرد ومكانته ، والنهوض بالمسؤوليات الفردية هو السبيل إلى إقامة التكليف الاجتماعية كما أن إقامة التكليف الاجتماعية هو الذي يهيئ للفرد الوفاء بحقوق تكليفه العينية . . وهذا الترابط بينهما هو التعبير عن ارتباط الفرد بالأمة في منهج الإسلام ^(٥٢) .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الأمة في الإسلام مقام فريد يعلو بها عن مجرد الجمع العددي والتراكم الكمي لدى أفرادها وأحاديها ، وأمة الإسلام تتألف من الشعوب والقبائل التي تعارفت بالإسلام وعليه ، فهي أمة لا تمزق وحدتها الاختلافات العرقية أو ماشابه ذلك ، لأن هذا لا يناقض الإسلام وإنما يهذهبه فينظمه في نسق العقيدة الواحدة والحضارة الواحدة ^(٥٣) .

والإسلام لا ينكر على المسلم ولاءه لوالديه ، ولا ينكر على المسلم حبه لوطنه بالمعنى الإقليمي ، وهذا لا يتناقض مع حقيقة أن الولاء الأول والانتماء الأعلى للإنسان المسلم هو الجامعة الإسلامية ، فجماعة الإسلام تحتضن كل دوائر ورموز الولاء والانتماء ، وقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نميز بين حب الوطن وبين تحول هذا الحب إلى النقيض المعوق للانتماء الأعظم لرسالة الإسلام :

قال صلى الله عليه وسلم يخاطب مكة : « إنك أحب أرض الله إليّ ، ولولا أن قومك أخرجونني ، ما خرجت » ^(٥٤) .

وهنا يكمن الفرق بين ما تراه البوشيدو من الولاء الكلي للإمبراطور وللوطن بالمفهوم الضيق ، وبين ولاء المسلم حتى لو كان يابانيا للجامعة الإسلامية ، وهي لا تنكر عليه حبه لوطنه ، لكنها تنكر هذا الحب إذا كان سيعوق انتماءه وولاءه الأعظم لرسالة الإسلام .

وتربي البوشيدو الفرد على الإحسان النابع من المحبة ، والأمة اليابانية تصف المحبة ومشتقاتها بفضائل الأمراء ، لأن الإحسان والرفقة ميزات للفضيلة النبيلة ، وتلك الخصال ضرورة لازمة لكل أمير ، ولكل من يطمع في قيادة الجماعات والأمم فالإحسان يأتي في طليعة فضائل الأمراء ، والرفقة في مقدمة واجباتهم^(٥٥) وهذا الجانب التربوي مأخوذ من قول كونفوشيوس : «إذا الأمير غرس الفضيلة ، لا شك أن الأمة تنحدر إليه ، ويلتف الشعب من حوله وعندما تحب الأمة أميرها ، تأمن له الثروة ، ويمسي الغني حليفه ، لذلك تكون الفضيلة بمثابة بذار ، وتكون الثروة ثمارا لها» .

وليس أدل على هذه الحقيقة من النظر إلى النظام الإقطاعي الياباني الذي كان يُحتمل أن يتحول إلى استبداد عسكري لولا الرفقة التي اتصف بها قادته ، فاليابانيون - كما يذكر نيتوبيه - لا يزالون مدينين بحرياتهم واجتناب مآسي العبودية ومظالم الاستبداد إلى الرفقة والإحسان اللذين يتصف بهما رجال العهد الإقطاعي^(٥٦) .

لقد دعت البوشيدو إلى تشكيل حكومة أبوية تستمد نفوذها من العطف والمحبة ، وليس كما تعود الناس أن يروا الحكومات التي تقيم نفوذها على القوة والإرهاب ، وتبني سلطتها على حماية المصالح المؤقتة ، فالفرق بين الحكومات المستبدة والحكومات الأبوية نلتمس - كما يقول الفيلسوف الياباني سابق الذكر - في تأملنا النواحي الآتية : أن الأمة في ظلم الأولى إنما تطيع مكرهة مرغمة ، بينما في رعاية الثانية نراها تستلذ الاستسلام وتغبط بالطاعة^(٥٧) .

إن ممارسة الحكم المطلق في اليابان لا يؤدي للشعور بعبئه الثقيل الذي تبدو آثاره على عاتق رعايا بعض الحكومات، إنما نلاحظ بصورة عامة أن هذا النظام تتلطف خشونته نظرا لما تظهره الحكومة في اليابان من العطف الأبوي نحو رعاياها (٥٨).

وتحذر البوشيدو مما قد يؤدي إليه كل إفراط وإسراف في نزعة من هذه النزعات، إن الإفراط بالحزم يستحيل إلى خشونة كما أن التطرف بالشفقة والرفقة ينقلب إلى ضعف، وهذا هو مفهوم المنهج الوسط أو ما يطلق عليه الوسطية.

والبوشيدو تفرض ميزة الشفقة كقوة تعمل إما تأييدا لمصلحة من المصالح، وإما لاستنكارها (٥٩) ومثل هذا الأمر جعل الفارس في معظم الأحيان، وبعد نهاية الحرب، يميل إلى العزلة، ويلقي سلاحه، ويلتف بثوب الرهينة والزهد وينصرف عن الحياة إلى حب الله، فيبحث عن الجنة التي تمنحه السلام (٦٠) مثله مثل معظم جماعة الفتوة في التاريخ الإسلامي التي مالت إلى حياة التصوف في النهاية نتيجة ظروف معينة شملت العالم الإسلامي.

ومن الجوانب التربوية التي تحرص عليها البوشيدو معرفة الإنسان لواجباته في الحياة الاجتماعية، مثل المجاملة وحسن المعاملة، وهما من المزايا التي استأثرت بها الأمة اليابانية.

ويؤكد الفيلسوف نيتويه أن الأمة اليابانية استأثرت بهما دون سواهما في معاملتها للأغراب والأجانب (٦١) ويصل الفرد إلى هذه الأمور عن طريق رياضة النفس والتأدب، اللذين يفرضان احترام التقاليد العرفية، والمراكز الاجتماعية القائمة على أساس الجدارة، والاستعداد الشخصي، وليس على فوارق الطبقات.

واحترام التقاليد والأعراف يرتبط أيضا بالمحافظة على أناقة المظاهر الخارجية التي اتفق المجتمع على اتخاذها أسلوبا حسنا، وطرزا ملائما لحسن المعاشرة، وطيب

المعاملة في الحياة الاجتماعية ، وهذا أمر مهم لتقويم الشبيبة ، وتسييرها في سبيل تتناسب مع أحكام الحياة والاحتكاك الاجتماعي ، لذلك نرى الآباء يعلمون الأبناء كيفية الجلوس في المجالس العامة وأساليب التعارف والمعاشرة^(٦٢) .

ومن العجيب أن الياباني يرى الغرفة العادية المجردة من كل زخرف أمرا طيبا وهو في هذا يخالف الأوروبي الذي اعتاد نظره على الزخارف والبدع الملونة^(٦٣) وهكذا عبر الياباني المسلم سوزوكي تاكيشي عن ارتياحه حين زار مكة المكرمة لأداء فريضة الحج فشاهد الغرف وبساطتها وخلوها من الزخرفة^(٦٤) .

ومن الجوانب التربوية أيضا الصدق أو الصراحة والإخلاص ، فالسامورائي يرى أن التأدب الذي يفتقد إلى الصراحة إنما هو وهم وحقيقة مشبوهة ، وهكذا لا يميل السامورائي إلى الإكثار من الأيمان والتغليظ بها ، فهذا يدل على استخفاف بالشرف وهزء بقيمة الرجولة ووزن الكلام .

ولسنا بحاجة إلى التذكير هنا بأن روح الحضارة العربية قائمة أساسا على الصراحة والوضوح ، وإذا كانت مظاهر صدق النفس كثيرة ، وصورها شتى فإن أولها بالعناية وأحقها بالتأمل ما يتصل منها بالاعتراف بالخطأ ، والرجوع إلى الصواب والإنصاف في الحكم ، ولو كان مما يجبر إلى الانتفاص من النفس ، وهو ما يطلق عليه الآن الموضوعية ونقد الذات .

وتاريخنا الأدبي فيه الكثير والكثير من الأشعار التي يطلق عليها المنصفات^(٥٦) وهي القصائد التي أنصف قائلوها أعداءهم فيها ، فالشاعر المنتصر لا يغره انتصاره فينسيه ما رآه من عدوه من بسالة في الطعن والضرب والرمي ، فهو يزهو بانتصاره لكنه يعترف لعدوه بالثبات والجلد وهذا هو خلق الفرسان .^(٦٦)

أما الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ففي تاريخنا العربي منه الكثير ، ومن باب صدق النفس الصبر على الأجوبة المسكتة التي يصبر لها كبار النفوس ، لأنها تردهم إلى الحق ، وتهديهم إلى الصواب ، ما روته كتب التراث وهو كثير (٦٧) .

ويحكي الفيلسوف الياباني حكاية فارس قتل عدوه «ولما انتهت الحرب رأينا بطلنا يعود بإكليل النصر ، ولكنه كان مطأطأ الرأس ، مقطب الجبين ، وكانت الكأبة تمحو في ثغره ابتسامة الظفر . . .» (٦٨) ذلك لأنه قتل فارسا شابا أسيرا لا يزال حديث عهد في ضروب الفروسية والقتال .

ورغم أن كلمة «أوسو» المجردة تترجم في اللغات الأخرى بمعنى الكذب ، لكنها تعني في اليابانية كل أمر ليس بالواقع والحقيقة (٦٩) .

ويذكر الفيلسوف نيتويه أن «هناك شائعات مرذولة تحوم في الخارج حول أخلاقية التاجر الياباني ، تركت آثارا ذميمة ، ونتائج قبيحة ، قد تتناول كرامتنا القومية بشيء من السوء والتحدي» (٧٠) ويذكرنا هذا بما نشرته بعض الصحف العربية منذ سنة ونصف تقريبا ، تصف اليابان ، في محادثاتها التجارية بأنها مثل التاجر البخيل ، مما أثار الصحف اليابانية والمستولين اليابانيين .

إن المستوى الأخلاقي في اليابان يتمثل في الفارس الذي يتمسك بقيم البوشيدو وأخلاقها ، وتنبه في بطولته وجرأته ، بينما العمل التجاري هو أبعد المهن اتصالا في أعمال الفروسية (٧١) .

أما أصحاب التجارة في العهد الإقطاعي فقد حاولوا إيصال التجارة إلى أكمل درجاتها عن طريق استنباط الأساليب والطرق ، فإبداعهم نظام التعاونيات والمنظمات المالية كالبنوك والبورصة وما يتفرع عنها يدل دلالة صريحة على أن أرباب التجارة كان لهم نصيب كبير من التعاليم الأخلاقية (٧٢) .

ومع الصدق والصراحة يجب تنمية الشعور بالخجل في تربية الأبناء وقد قال بعض الحكماء إن حاسة الحياء هي التربة التي تنبت فيها جميع الفضائل الإنسانية ، وفي الإسلام الحياء شعبة من شعب الإيمان .

وإذا ما أصاب الإنسان من الشرف والسيرة الحميدة وهو في شبابه أفضل من إدراكهما وهو على شيخوخته^(٧٣) .

ومن الجوانب التربوية أيضا الأمانة ومفهوم الأمانة هنا يختلف عن المفهوم الضيق للأمانة في العربية ، فاليابان تتخذ من الأمانة والإخلاص شعارا للواجب البشري ، بينما في الصين يرون أن طاعة الوالدين تأتي في مقدمة الواجبات الإنسانية ، والبوشيدو تؤثر الواجب والأمانة على العاطفة والشفقة .

والأمانة التي كانت الأمهات يحملنها هي إشراب أطفالهن حب الإمبراطور والإخلاص والتفاني في سبيله ، وقد شملت هذه الفكرة جميع الطبقات ، وهكذا ذكر كبار علماء الاجتماع بأن الحكومة من الفرد هي بمثابة أب أكبر ، وليس الفرد إلا جزءا صغيرا منها ، لذلك أصبح في مقدمات واجباته أن يحيا من أجلها ، ويستमित دفاعا عن كيانها وأوامرها^(٧٤) .

البوشيدو ومسألة القصاص :

يرى الفيلسوف الياباني أن «الفارس (السامورائي) جُبِلَ نتيجة تربيته على حب العدل ، والعدل يقتضي القصاص ، مثلما ورد في القرآن الكريم (ما معناه) : العين بالعين والأذن بالأذن والجروح قصاص»^(٧٥) فعاطفة الشأر من الدقة لحدّ تشبه فيه الحرص والتدقيق في الأصول الرياضية ، فطالما لم نتوصل لإيجاد مساواة بين المعادلات الجبرية لا نزال بعيدين عن إدراك التوازن المطلوب في القواعد الرياضية ، والأخذ بالشأر يقاس على هذا المثل^(٧٦) .

والبوشيدو تختلف مع التعاليم التي ترى أن الشار أو القصاص ينبغي أن يترك أمره لقوة غير القوة البشرية ، بل ترى بأن القصاص من الواجبات الأولية التي يرتبط بها الفرد في مسؤولياته وحياته الاجتماعية لاسيما وأن البوشيدو لا تعتقد بأن نظم الطبيعة وقوانينها العادية يسعها الاقتصاد والشار ممن أساء لإخوانه في المجتمع^(٧٧) إن صوت كونفوشيوس ينادي بأن العدل يفرض القصاص ، وينبغي أن يقوم على أساس مشروع ، ومبدأ عادل ، بينما الانتقام واستباحة الدم لشتيمة أصابت أزواجنا وأولادنا كانت من الأمور المكروهة في تعاليم البوشيدو^(٧٨) .

ويتضح من استشهاد الفيلسوف الياباني بآيات القرآن الكريم أنه يتفق تماما والآيات القرآنية ، وقد صدق الله العظيم خالق الخلق حين قال : ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ، ويصعب حصر الكتابات التي صدرت في موضوع القصاص في الإسلام ، ويمكن لمن شاء أن يرجع إلى الكتب والأبحاث الخاصة بهذا الموضوع^(٧٩) .

البوشيدو وتربية المرأة :

إن البوشيدو تكبر تلك المرأة التي تتحرر من خنوع جنسها ، وتتقرب من بطولة الرجل ، وهي تقصد تعويد المرأة على الوسائل الدفاعية لغرض فردي وغاية تعود لمصلحة التربية المنزلية ، فالمرأة قد يتفق أن تكون دون زوج ، يصون عرضها ، ويدافع عن كرامتها ، فتصبح والحالة هذه مرغمة على الدفاع عن نفسها ، وتعليم الفتاة الرماية واستعمال السلاح ، إنما وراءه مقصد أخلاقي وأهداف معنوية^(٨٠) .

ومع هذا فمفروض في المرأة اليابانية العذوبة والرقه ، وكل ما يتصل بدلال الأنوثة من ملاحظة وظرف ، فالآداب الجميلة ، والفنون الجميلة ضرورة اجتماعية ، وواجب أعلى في المرأة ، والأدب الياباني يسجل في أبرز صفحاته أثر المرأة في النهضة الفنية^(٨١) إلا أن قيمة الفنون تقاس بنسبة اتصالها بالفضائل الأخلاقية ومدى تأثيرها على التربية

المعنوية والتكوين الروحي ، وهذا على العكس من الفنون التي تؤدي إلى الخلاعة والمجون^(٨٢) ، وهذه النظرة تتفق ونظرة علماء الإسلام إلى جميع أنواع الفنون ، إلى أن غلبت عليها علل المجون والتخنث وانحرافات الفساق حتى غدت معاول للهدم وشراكا للترف الذي أصاب قوى الأمة وقدراتها بالتفكك والانحلال ، مما دعا الفقهاء المسلمين إلى اتخاذ موقف حازم من بعض الفنون الجميلة لأنهم رأوا فيها شراكا تغش عقائد الأمة وتعطل طاقات الإبداع لدى أبنائها . كما ذكر الدكتور محمد عمارة^(٨٣) فالإسلام لا يخاصم الفنون الجميلة . . فقط هناك المعايير الإسلامية - الاعتقادية والأخلاقية - التي يجب أن تحكم موقف امسلم تجاه هذه الفنون ، حتى تظل مصدرا حقيقيا للخير والجمال في حياة الإنسان ، والاقتصاد والاعتدال هو ميزان الإسلام وعياره في كل ميادين النشاط الإنساني ، فالقرآن يأمرنا به ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إن الله لا يحب المسرفين ﴾ (الأعراف ٣١) ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا . ﴾ (القصص ٧٧) .

والإسلام دين الفطرة وانفعال النفس الإنسانية بجماليات الحياة هو فطرة فطر الله النفس الإنسانية السوية عليها ، والإسلام يريد للفنون الجميلة ألا تعاند الفطرة الإنسانية بل أن تكون عوناً على ترقيتها وتهذيبها ، يريد لها سبلاً لتهديب النفس والارتقاء بملكات الإنسان وغرائزه ولا يريد لها عوامل تحليل وانحلال ومعاول هدم وإثارة لغرائز العنف والغضب والشهوة واللذة المادية في الإنسان^(٨٤) .

وتربي البوشيدو المرأة كابنة تضحكي كل ما بوسعها في سبيل أبيها ، وكزوجة في سبيل بعلمها ، وكأم إرضاء لمطالب أبنائها ، وهي لا تعرف الاستقلال الفردي ، وتظل في خضوع دائم للواجب العائلي^(٨٥) ولا تقل التضحية التي تقدم عليها المرأة بطيب خاطر وصدر رحب نحو بيتها وعائلتها ، لا تقل في مصدرها إصلاحاً وشرفاً عن الاستبسال والتفاني الذي يقوم به الرجل في سبيل الدفاع عن وطنه ، والتعبير عن إخلاصه لسيده ومليكه .

قضية المساواة بين الرجل والمرأة :

ترى البوشيدو في المرأة نظيرة للرجل في جميع حالاته وأطواره ، ومن التجاهل الأعمى والحق الساذج الغريب أن نفترض وجود عدم التساوي بين الرجل والمرأة بالمعنى الذي تدل عليه هذه اللفظة ، ويذكر الفيلسوف الياباني اينازو نيتويه بأن قليلا من التأمل يجعلنا ندرك أن المساواة بين الرجل والرجل ليست متحققة من كل جانب . . . لذلك يبدو أمرا غريبا ذلك الانشغال المرهق بمناقشة قضية المساواة بين الجنسين ، إن إعلان الاستقلال الأمريكي حين ذهب إلى أن كل البشر خلقوا متساوين ، فإنه لم يكن يعني المساواة في السمات والمزايا العقلية أو الجسدية . . . كان المقصود بالمساواة التساوي في الحقوق القانونية ، ولو كان معيار الحقوق القانونية هو الميزان الوحيد الذي به توزن مكانة المرأة في مجتمع ما ، لكان الأمر في سهولة أن نحدد وزنها بالأرطال والأوقيات^(٨٦) .

وإذا كان القانون استقل بهذه الميزة وأصبح المقياس الوحيد لتقدير ظروف المرأة وعرض أحوالها في المجتمع ، فالأجدر بنا أن نحاول معرفة وزنها بالذهب ، وأن نبحث عن مقياس يليق بمقامها ، ويكون كفيلا لإعطائنا وزنا صحيحا عن قيمتها ، ويسعنا أن نتساءل عن وجود ميزان صحيح ، نتوصل عن طريقه للمقارنة بين قيمتي النوعين الاجتماعية أي الرجل والمرأة^(٨٧) .

ويتساءل الفيلسوف الياباني : هل يصح إقامة مقايسة بين الرجل والمرأة باعتبار مركزهما الاجتماعي كما يجوز ذلك على الذهب والفضة ، وأن نتبين من هذه الأمور العلاقات والروابط الرقمية بينهما ؟! إن اعتماد تلك القاعدة يجرّد النوعين (الرجل والمرأة) عن جوهرهما ومادتهما الإنسانية ، ونكون بذلك فقدنا القيمة الكبرى المتوخاة من هذه التجربة ، نظرا للقيم المعقدة التي يتمتع بها النوعين ، ونسبة لخطورة كل منهما في الحياة الاجتماعية^(٨٨) .

فالمقياس الصالح لتحديد مكانتهما وتحديد علاقتهما النسبية ينبغي أن يكون على شيء من العمق ، وإذا جاز لنا هنا استعمال الاصطلاحات الاقتصادية نقول فيه أن يكون مقياسا مضاعفا ومركبا ، فالبوشيدو لها مقياسها الخالص الذي تزن به قيمة المرأة وأثرها النسبي في ساحات القتال و حياة المنزل .

ففي الحالة الأولى المرأة خفيفة الوزن وضعيفة الأثر ، بينما هي في الثانية القوة الكاملة والكل المنتج ، وهكذا ينظر إليها في اليابان ، فهي المحترمة الجليلة كربة بيت وأم عائلة ، وإنما ككائن سياسي واجتماعي لم تخص بنفس القيمة وذات الوزن^(٨٩) .

إن مذهب البوشيدو فيما يتعلق بالقضية الزوجية يختلف ويتباين في بعض الوجوه مع الدين المسيحي^(٩٠) فالبوشيدو تذهب إلى أن الزوج والزوجة هما وحدة جديدة ، ووحدة معنوية ، وهذا يختلف عن النظرية القائلة بأن الزوج والزوجة شخصان مستقلان ، لكل منهما مصالح ومنافع يستقل بهما عن بعض ، فالبوشيدو تبحث عن مقياس للأخلاق الزوجية في مناخ يختلف عن أساليب الغرب شكلا وموضوعا ، فالمقياس الوحيد للأخلاق العامة ، والرابطة التي تصل الرجل في حياته الزوجية ، وتنظم علاقاته مع الغير هو الواجب ، وهنا يأتي ذكر مبدأ الإخلاص والصراحة الذي يقوم عليه التشابك الاجتماعي الذي يعد أساسا متينا للتعامل مع البيئة والجماعات التي تحيط بنا^(٩١) فالمجتمع الياباني في ظل تعاليم البوشيدو يقوم على مبادئ خاصة مستوحاة من فكرة الإخاء الصادق ، وينابيع الحب الصحيح^(٩٢) .

ومن الملاحظ أن المرأة اليابانية لم تستجيب لحركة التحرير النسائية التي ظهرت في بقاع كثيرة من العالم لأن هذه الحركة لا تناسب أسلوب حياتها ، ومن ثم يكون الارتباط بهذه الحركة بمثابة فخ وقعت فيه المرأة اليابانية التي تحظى بصفات السيدة المحترمة كما أن اليابانية لا تشعر برد الفعل الذي تشعر به المرأة الغربية نتيجة للظلم الواقع عليها

بوصفها الجنس الضعيف ، ذلك لأنها تفخر بدورها الحاكم المسيطر في الأسرة ، ولأنها تشعر فعلا - كما يذكر رايشاور الأمريكي الياباني المولد - بأنها الجنس الأقوى^(٩٣) .

لا بد أن نشير هنا إلى أن قضية المرأة لا تزال تثار حتى اليوم في اليابان فضلا عن بقاع كثيرة في العالم ، وكما هو معروف يخاطب الإسلام الإنسان المسلم من حيث كونه إنسانا ، رجلا كان أو امرأة هذا الإنسان ، فكانت نظرة الإسلام إلى الرجل والمرأة باعتبارهما : الإنسان المسلم ، يتساويان في ذلك مساواة الأعضاء في البدن الواحد ، وفي هذه النظرة بداية ضبط فلسفة الإسلام ومنهجه في علاقة الرجل بالمرأة وموقف المرأة من الرجل .

إن المساواة بين الرجل والمرأة في «الإنسانية» هي حقيقة موضوعية تدركها العقول وكل الحواس ، وإن المساواة بينهما في التكاليف ، حقوقا وواجبات ، وفي الحساب والجزاء ، وفي ما يلزم النهوض بالتكاليف من عقل وقدرات منحها الله لكل منهما وركبها فيه ، هي مما أجمع عليها ، ويجمع عليها الناظرون في فكر الإسلام ، لكن هذه المساواة التي قررها الإسلام بين الرجل والمرأة والتي جعلت منهما عضوان في بدن واحد هو بدن الإنسان المسلم قد اعترفت بالواقع الطبيعي المتمثل في تمييز المرأة بالأنوثة ، وتميز الرجل بالذكورة ، وبما لهذا التمييز من حكمة استهدفت تكاملها كما يتكامل الشقان المكونان للشيء الواحد ، فتجتمع لهما المساواة والتكامل في ذات الوقت ، مميزة تساويهما عن تساوي الأنداد ، فكما تساوى أعضاء البدن الواحد في عضويته مع تميز كل منهما عن الآخر ، كذلك الحال في علاقة المرأة بالرجل ، المساواة مع التميز دون ما تناقض بينهما^(٩٤) .

وقد أنزل الله وحيه على نبيه ليقرر واقع المساواة (انظر: الأحزاب ، آية ٣٥) فالقرآن يقرر : ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز

حكيم ﴿البقرة ٢٣٨﴾ وهنا الدرجة هي درجة القوامة التي لا تتغير لارتباطها بالثابت ، وهو الرجولة والأنوثة التي تمايز بين الرجل والمرأة .

كما أن الإسلام لم يحرم المرأة أيضا من القوامة بمعنى القيادة حيث تؤهلها لها أنوثتها فالراعي هو القائد القوام الدائم القيام على قيادة ميدانه ، وفي البخاري ومسلم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . . والمرأة راعية على بيت بعلمها وولده وهي مسئولة عنهم ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» .

وإذا كانت المرأة قد تعرضت في حقبة من تاريخنا الاجتماعي لمظالم أكثر مما أصاب الرجل فإن مهمة رفع هذه المظالم لم تصبح واجبا على الأمة الإسلامية ، كما أن هذا الأمر ليس مدعاة لأن يتبنى المسلمون المناهج غير الإسلامية في فلسفة تحرير المرأة ، كما يذكر الدكتور عمارة^(٩٥) فالمنهج الإسلامي الذي قام على مساواة الرجل والمرأة في الإنسانية وتكاملهما في وظائف الحياة يرفض مساواة «تمائل الأنداد» التي سادت الدعوة إليها في إطار الحضارة الغربية ، وفي فكر واقع التغريب ببلادنا الإسلامية ، فلا الرجل السوي يسعده تساويه بالمرأة كأثنى ، ولا المرأة السوية يسعدها مساواتها بالرجل في الرجولة ! ومن هنا تميزت (وتتميز) في المنهج الإسلامي فلسفة التحرير الإسلامي للمرأة ، فمع التساوي في الإنسانية تتمايز الطبيعة من حيث الأنوثة والذكورة تمايز وظيفة ودرجة ، لا تمايز سيطرة واستبداد وخضوع^(٩٦) .

وربما كانت هذه الحقيقة هي التي جعلت الفيلسوف الياباني إينازو نيتوييه يذكر ما نقلناه قبلا من أن اعتماد قاعدة المساواة بالمفهوم الغربي يجرّد النوعين (الرجل والمرأة) عن جوهرهما ومادتهما الإنسانية . . .

أثر تعاليم البوشيدو على المجتمع :

كان لتعاليم البوشيدو ونظام التربية القائم على أساس هذه التعاليم أثر واضح على المجتمع ، فالبطولة مثلاً جعلت من الفضائل الرفيعة ، والأخلاق النبيلة ، شعاراً لأغراضها ، ورمزاً لغاياتها ومقاصدها الإصلاحية من نشر مبادئها ، والدعوة إلى اعتناقها في المجتمع ، ولهذه الفضائل قيمة وأثار بالغة مستحكمة في المستوى العام للحياة القومية^(٩٧) فاليابان قديماً وحديثاً هي نتاج أثر البوشيدو وأثر السامورائي ، فالشعب يتلمس عندهم منهج الأخلاقي ، ويقتدي في حياته بأعمالهم وتقاليدهم ، مهما قيل بأنه يفصلهم عن الشعب هوة عميقة ، ومسافات بعيدة على المستوى الاجتماعي ، ولا أدل على قوة السامورائي المعنوية ، وامتداد أثارها إلى نفسية الطبقة العامة وأفراد الشعب من النظر وتأمل أبناء هذه الطائفة ، وهم يتحدثون عن مغامرة الفوارس وأقاصيصهم ، فالفرس الذي يطلق عليه لقب السامورائي هو مثل الماركة اليابانية المسجلة ، وهو سيد الرجال ، وقد تركت البوشيدو أثراً في نشوء الإمبراطورة اليابانية ، وارتقائها الاجتماعي ، لقد امتدت البوشيدو إلى سائر الطبقات الاجتماعية ، والدليل على ذلك انبثاق طائفة جديدة في اليابان معروفة باسم «او تو كوداته» التي تعني القادة الطيبون - حماة - الديمقراطية ، وقد ضمت تلك الطبقة خيرة رجال الشعب ، وأكثرهم إنتاجاً ، وأشدّهم قوة ، وقد تطوع هؤلاء للدفاع والنضال عن حقوق الشعب ، ضاربين في سبيل ذلك بمنافعهم ومصالحهم الخاصة عرض الحائط ، لا يتورعون عن التضحية ، حماية لحق الأمة المقدس .

وينظر إلى هذه القوة من الرجال التي يلتف حولها ألوف عديدة من الأفراد والجماعات ، بمثابة قوة رقيية على القائمين على مقدرات الأمة ، تحول دون استغلال صلاحتهم ، وإساءة نفوذ بلادهم^(٩٨) .

لقد انبثقت البوشيدو من طائفة معينة ، وطبقة محدودة العدد والنسبة ، واتحدت إلى عامة الشعب ، وكانت له بمثابة مثل أخلاقي وأ نموذج رفيع ، بعد أن كانت مبادئ البطولة وتقاليدها ميزة من ميزات فئة خاصة ، أصبحت نزعة عامة تنحى إليها الأمة بأكملها ، ووحى يستمد منه الشعب قوته وفتوة شعوره الذي يصبح هو روح اليابان (يا ما تو داماشي) أو المظهر الحقيقي للإمبراطورية اليابانية ، فتصبح هذه الروح واضحة ساطعة على الملأ .

التأثير المستقبلي لتعاليم البوشيدو (في ظل الدعوة للعولمة) :

(تغلغل التعاليم في الشعب - التأثير الغربي - بقاء التعاليم حية)

في ظل الدعوة إلى ما يسمى بالعولمة ، أثرت عدة أسئلة منها : هل يمكن للمدينة الغربية في تسربها وامتدادها إلى أوساط اليابان وبيئتها المختلفة أن تتخلل مبادئ اليابانيين ، وتقضي على طابعهم القومي ؟ وما هو مدى تأثير المدينة الغربية على عقائد اليابان وتقاليدها الاجتماعية ؟

تكمن الإجابة على مثل هذه التساؤلات في القول بأن روح القوميات وطوابعها الخاصة إنما هي من المتانة والخلود بحيث تستمر ، مثل استمرار الخصائص العضوية التي تمتاز بها الأنواع ، أما الأخلاق وما يترتب عليها من ميزات ، فلم تستأثر بملكيتها أمة دون أخرى ، وإنما هي وحدة ينتفع بها كل من له استعداد للتأثر بعواملها وأحوالها المتغيرة ، ويرى الفيلسوف الياباني إينازو أن البوشيدو دون حاجة إلى تدوين ستبقى الباعث الوحيد على النشاط القومي وروح الوحدة الوطنية ، وهذا ما يثبت الواقع في اليابان في الوقت الحاضر .

ورغم محاولة البعض تقسيم اليابان إلى يابان قديمة لم تفن تماما ، ويابان جديدة لا تزال في مطلع البزوغ ، ويابان وسطى تمثل فترة الانتقال وتجتاز اليوم أدق المراحل

وأكثرها تقيدا إلا أن اليلسوف الياباني يرى أن هذا حكم يحتاج إلى مراجعة ، فالبوشيدو التي ينظر إليها كنتاج لليابان القديمة لا تزال تسيطر على مرحلة الانتقال وتوجه إلى ما يتلاءم مع مبادئها ومقاصدها ، وهي التي ستستولي على القوة الإبداعية وخصائص الإنتاج في العصر الجديد ، فقادة اليابان وكبار رجالها الذين تحققت على أيديهم النهضة القومية ، واشتركوا في تكوين اليابان الحديثة لم يتمذهبوا ويعتبقوا تعاليم أخلاقية تختلف عن مبادئ الفروسية وتغاير تقاليدها وروحها^(٩٩) . ويشير الفيلسوف الياباني إلى أن ما يعتقده البعض من أن الإرساليات النصرانية أسهمت في تكوين اليابان الحديثة ، رأي عار عن الصحة ، والقصد منه إيجاد جو من الدعاية والتضليل تقنع الرأي العام بأن الغرب له أباد بيضاء ، ومساع حميدة في إدراك اليابان للمدنية^(١٠٠) .

«إن ما خلق من اليابان مدنيته الحاضرة ، هو تمسك اليابان ، وحرص أمتها على الشرف ، ومبادئ النزاهة ، وهذا الأمر نفسه هو الذي ميز بين الاستبداد في اليابان والاستبداد في سائر البلدان الشرقية إن صح التعبير .

ولا شك بأنه توجد عوامل مختلفة وأسباب متباينة تضافرت جميعها على تكوين اليابان الحديثة ، والانهاء بها إلى هذا الانقلاب الاجتماعي الحاضر دائما ، وإذا صح وجود عامل أساس استفاد من أكبر نصيب ، وساهم بأوفر أثر على إنشاء اليابان الجديدة ، فالبوشيدو وحدها تكون هذا العامل ، ولا أعتقد - وهذا كلام الفيلسوف الياباني إينازو نيتوبه - ثمة من يجسر وينكر هذه الحقيقة^(١٠١) .

ويرفض المفكرون اليابانيون الفكرة التي يرددها البعض بأن لأوربا جليل الأثر بارتقاء اليابان ونهضتها ، ويرون أن تطور اليابان كان نتاج إرادة شخصية ، ورغبة مستقلة ، وأوربا والغرب لم يتطوعوا لتثقيف اليابانيين ، بل قام اليابانيون بنتائج التحكيم والمناقشة بالأخذ عن الأوروبيين المناسب من أساليبهم في تحسين الأوضاع المدنية والعسكرية ،

وربما استعانوا بمن يعينهم على إصلاح إنتاجها الفني والصناعي كما فعل المسلمون (الأتراك) من قبل اليابانيين .

إن مصدر الحركة التي ولدها هذا الانقلاب والتطور في اليابان إنما هو صنع الأمة اليابانية ، ولم يكن نتيجة مؤثرات غربية وعوامل أجنبية^(١٠٢) فقد انتقلت البوشيدو من مرحلة التفكير الشعوري القائم على التأمل والتحكيم إلى حالة لا شعورية ، يأتمر الفرد والجماعة بوحيتها دون مناقشة ومحكمة .

إن نظرة مجردة ، وقليلًا من التأمل إلى حياة اليابان اليومية ، تجعلنا نقف على قوى البوشيدو ومدى أثارها ، وهي تتضح في الأدب والأناقة والقوة والجلد الذي يتمتع به الياباني ، واليابان اليوم واليابان غدا مدينة إلى البطولة القومية ومبادئها السامية ، فالبطولة والفروسية وحدهما تستحقان الشكر والثناء والإعجاب .

أما ما يقال من مخاطر العولمة فإن أحدا لا يمكنه أن يجتث شجرة المعتقدات القديمة من جذورها ، ويستبدلها ببذور معتقدات أخرى ، قد يصلح هذا عند بعض الشعوب لكن ليس في اليابان ، فالعولمة تجد نفسها عاجزة عن اختراق حدود اليابان القومية التي شكلتها قيم وتعاليم البوشيدو الخالدة ، فمن الصعب القول بأن البوشيدو أو الفروسية أو الفتوة بتقاليدها الخالدة ، وقيمها المحكمة قد انتهت ، فانتصارات اليابان قديما - على سبيل المثال - لم تكن بسبب المدافع أو الأسلحة الأوربية لكنها كانت بسبب الروح ، فهي التي تحي وتبعث النشاط والهمة ، وما عداها ليس له أي قيمة فعالة ، فأكثر السلاح اتقانًا لا يُعقل أن ينطلق لوحده ، والتربية الحديثة مهما كانت ، لا يمكنها أن تخلق من الجبان شجاعا وتجعل من الميت حيا ، لكن الذي أحرز التقدم والتطور الياباني ليس سوى روح اليابان الخالدة ، أي الحفاظ على قيم وتعاليم البوشيدو^(١٠٣) .

ويرى المفكرون اليابانيون أن المحافظة على القيم والفضائل أمانة في أعناقهم ، ووقف للأجيال القادمة لا يتجزأ ، ولا يحق لأي كائن التصرف به ، وهم مكلفون

بالحرص على هذه الأمانة والسهر على مصيرها ، وأجد لزاماً أن أنقل هنا ثانية ما كتبه الفيلسوف الياباني اينازو نيتويه لبيان مكانة البوشيدو وقيمها التقليدية في المجتمع الياباني : «أنه ورد في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى أرسل لكل أمة نبيا ينطق بلغتها»^(١٠٤) لكننا لو اتجهنا في جميع الأنحاء نبحث عن مصدر نستوحي منه النور والهداية والنشاط والقوة - هنا في اليابان - فلن نرى مصدرا خليقا بأن يحتل مكانة البوشيدو^(١٠٥) .

بين البوشيدو والفتوة العربية :

لا يكتمل هذا البحث دون الإشارة إلى الفتوة العربية ، مع الاختصار الشديد لأن عقد مقارنة بين البوشيدو والفتوة العربية يحتاج إلى بحث قائم بذاته ، كما أن إهمال الموضوع كلية يعني وجود نقص في هذا البحث .

لعبت الفتوة العربية وما لها من تنظيمات دورا مهما عبر التاريخ العربي والإسلامي ، قبل الإسلام وبعده ، كما كان لها تأثير على الفروسية في أوروبا أيضا .

تطور نظام الفتوة عبر التاريخ العربي الإسلامي حتى صار نظاما اجتماعيا يهدف إلى رفاه المسلمين ، ويلعب دورا مهما في أداء حقوق العباد ، وحل قضايا المجتمع الأخلاقية والاقتصادية ، ويشارك أحيانا في حل القضايا السياسية ، وقد تأسس نظام الفتوة على قيم تراثية وحضارية يجعل من المثير حقا عقد مقارنة بينه وبين البوشيدو في اليابان ، أو السامورائي أي الفارس الياباني عبر مراحل التاريخ المختلفة ، مما يؤكد على وجود تشابه في القيم التراثية والقيم التقليدية بين أهل الشرق تختلف أحيانا عن القيم عند أهل الغرب .

والفتوة العربية الإسلامية مسلك أو نهج عملي متعارف عليه ، يحمل بين طياته قيما وتقاليد تراثية حضارية ، نابعة من البيئة والمجتمع العربي والإسلامي ، وقد شاع

استخدام لفظ الفتوة العربية في لغات الشعوب الإسلامية مع اختلاف طفيف في رسمه (١٠٦) .

الفتوة في الجاهلية :

في الجاهلية كان أهل الجزيرة العربية يطلقون اسم الفتى على من يتصف بالكرم غير العادي والشجاعة ، وحب القتال ، مع الدفاع عن الحق ، ونصرة المظلوم (١٠٧) ومن الفتيان نذكر حاتم الطائي (١٠٨) .

ماذا عن الصعاليك ؟

وقد نالت الفتوة اهتمام العلماء المسلمين ، فكتبوا عنها وأرخوا لها ، فذكروا أن نظام الفتوة يتعلق بحقوق العاد والأمور الاجتماعية والأخلاقية ، ومحور نظام الفتوة هو حقوق العباد .

وأصل الفتوة الإيثار والصدق والأمانة والسخاء والتواضع والتوبة ونصح الآخرين فالفتى لا يقوم بعمل في السر يخجل من إظهاره على الملأ ، والفتى الفارس يفيد الآخرين بما أنعم الله عليه من مال وثروة وكفاءة ، وإذا لم يتيسر له شيء منها فإنه يشكر الله أيضا ، ومن خصائص الفتوة الظاهرة ألا ينظر إلى الآخرين نظرة تحقير ، وألا يظن نفسه صاحب فضيلة ، بالإضافة إلى العفو عن الأعداء مع وجود القدرة على الانتقام ، والحلم وقت الغضب ، وأن يصدق الأعداء أيضا النصيح ، ولا يتورع عن إثارة الغير على نفسه حتى لو كان فقيرا .

وهذه صفات تنطبق تماما - رغم اختلاف البيئة والظروف - على السامورائي الياباني الذي نشأ وتربى على تعاليم البوشيدو .

ورغم أن موضوع الفتوة كما ذكرنا مرارا هو في الأصل حقوق العباد وأداء حقوق العباد إلا أن تفرعات كثيرة ظهرت لدى جماعات الفتوة، عبر عنها كل فريق بطريقة، لكنها كلها تصب في بحر واحد .

أصل الفتوة ومنبعها :

تشير كتب الفتوة إلى أن المنبع الأصلي لنظام الفتوة هو حياة الأنبياء عليهم السلام ، وأن الإرشاد النبوي للمؤمنين «تخلقوا بأخلاق الله» يفرض عليهم أن يجعلوا من أنفسهم نموذجا لما يجب أن يكون عليه الفتى ولما يجب أن تتسم به الفتوة .

وقد أرسل الله رسله حتى يكونوا هداية للبشرية ، ووقائع وأحداث حياتهم هي نبراس ومشعل الفتيان .

ويلقب الفتيان إبراهيم عليه السلام الجد الأكبر للأمة المسلمة ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ (٢٦:٧٨) يلقبونه بأبي الفتيان ، بينما يلقبون النبي صلى الله عليه وسلم بسيد الفتيان .

أساس منهج الفتوة :

مثلما ركزت البوشيدو على تعاليم الكونفوشيوسية والشتوية واستمدت منهما الكثير من القيم التي وجب على الفارس السامورائي التحلي بها والمضي على نهجها ، ثم استفادت فيما بعد من تعاليم البوذية ، فإن أصحاب منهج الفتوة بحثوا بالضرورة عن جواز شرعي لمسلكتهم ومنهجهم في أعمال وأفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو سيد الفتيان ، وقد وردت قصة حلف الفضول قبل البعثة وهو الحلف الذي يعد - في الجاهلية - نموذجا لجماعة الفتوة (١٠٩) .

وقد ذكر رسول الله بعد البعثة أنه حضر الحلف مع أعمامه في بيت عبد الله بن جذعان ولو أنه دعي اليوم إليه لقبيل الدعوة . وقد ذكرت كتب التاريخ بعض أعمال أصحاب حلف الفضول من مساندة المظلوم وإعانة .

ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق لهذا لم يجد أصحاب الفتوة صعوبة في اتباع الصفات الحسنة في حياته الطيبة : الشجاعة ، والكرم والسخاء ، وإكرام الضيف ، والعفو عن العدو ، وإعانة المظلوم وإغاثة ، وإعانة ذي الحاجة ، والشفقة والرأفة إلخ ، وكان النبي قبل البعثة يتصف بهذه الصفات الجليلة ، فرغم أن آية حكم الزكاة ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم ﴾ (الأنفال ١٥٣) نزلت بالمدينة المنورة في العام التاسع للهجرة لكن النبي في مكة أوجد قبل ذلك نظاما يقوم فيه الناس بمساعدة الآخرين مع عدم الكشف عن أنفسهم أو التفاخر بذلك .

وتشير كتب الفتوة إلى أوصاف وأخلاق الصحابة الكرام وبالأخص الخلفاء الراشدين (١١٠) .

ظهور تنظيم الفتوة الاجتماعي في العهد الإسلامي :

المقصود بظهور تنظيم الفتوة الاجتماعي هنا هو المشاركة العملية في عمل الخير الذي يقصد به صالح المجتمع الإسلامي ، والمشاركة العملية في نصرة المظلومين والوقوف في وجه الظالمين وتقديم العون للمحتاجين ، وهذا يتطلب تكوين جمعيات معينة أو تنظيمات معينة ، ويعتقد أن أول تنظيم ظهر كان في الكوفة وكان سبب ظهوره تلك الأحداث التي ظهرت أيام الحجاج بن يوسف الثقفي (٦٩٤-٧١٤هـ) وتشدد عمال الحكومة ، فظهر تنظيم الفتوة الذي ضم فتيانا ، كانوا يهجمون على عمال الحكومة سرا وينتقمون للمظلومين ، ويرفعون الظلم عن الأبرياء ، ويحاسبون العمال الظلمة بكل طريقة ممكنة ، وكان هؤلاء هم الفتيان الذين حادوا فيما بعد عن طريق الصواب ، وأطلق عليهم اسم عيار وشطار وغيرها من الأسماء (١١١) .

وشكل الفتيان مراكز أطلقوا عليها اسم زوايا كانت شبيهة بالخانقاهات ، وكانت هذه المراكز تستخدم في القرون الوسطى كمأمن يأوي إليه المسافرون ، وأصحاب الاحتياجات الخاصة من الناس ، فيتم إكرام المحتاجين والضيوف الواردين على هذه المراكز ، وكان الفتيان يقومون بكسب الرزق ، ويجمعون ما كسبوا ، أو ما يأخذونه قهرا أو عن تراض من الأغنياء ، فيقدمونه إلى رئيس المركز ، كما كانوا يجمعون الصدقات ، وينفقون على جميع تلك المراكز ، وكان هؤلاء الفتيان يعيشون بين عامة الناس لا يظهرون أنفسهم ، ولا يميزون أنفسهم عن غيرهم .

وتجدر الإشارة إلى أنهم لم يكونوا على مستوى ثقافي أو تعليمي كبير حتى يسطروا سيرتهم وأعمالهم ، وقل أن اهتم بهم مؤرخو زمانهم ، ومع هذا فقد كتب بعض مؤرخي القرنين السابع والثامن الهجريين عن أخلاق هؤلاء الناس وأعمالهم وعن تنظيماتهم ، وتطور الأبحاث في معظمها عن الفتيان في إيران وآسيا الصغرى (تركيا الحالية) ولكن يصعب أن نجد مواد تاريخية عنهم في جزيرة العرب (١١٢) .

ونشير هنا إلى أن ابن بطوطة المراكشي (متوفى ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م) كتب عن الفتيان في تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف باسم (الرحلة) وقد أوضح ابن بطوطة بالتفصيل أحوال «أخية الفتيان» أو أخوة الفتيان (١١٣) .

كانت أماكن تجمعات الفتيان مملوءة بسبل راحة الآخرين وفي أوقات الفراغ كان الناس يذهبون إلى مراكز التدريب ، وكانت آداب التدريب هي أيضا آداب الفتوة ، وكانت مراكز التدريب - حيث تتم التربية على الفروسية وركوب الخيل وفنون الحرب والقتال - متصلة بالخانقاهات والاستراحات ، وكان للحروب الصليبية دور في قدوم الناس للتدرب طواعية مما ساعد في تطوير الجيوش الإسلامية ، وقد أدت تنظيمات الفتوة العربية والإسلامية حق هذا العمل ، كما أدى فرسان فتيان مسلمي الأندلس

وصقلية chivalary دورا بارزا في ميدان الفروسية والشهامة ، وهذا اللفظ لفظ عربي شاول / تشاول (١١٤) .

الفتوة والتربية :

الفتوة نظام له منهج تربوي خاص ومفصل ، والدخول في تحت مظلة الفتوة يقتضي أن يكون الفرد شابا ، عاقلا ، بالغا ، صاحب مروءة وحياء واستقامة ، وهذه صفات تشبه كثيرا صفات السامورائي الذي يجب أن يتصف بالمروءة والحياء والاستقامة ، ويجب أن يقسم الفرد يمين الولاء لنهج الفتوة حتى يمكن أن يصير عضوا من أعضاء جماعة الفتوة ، وكانت هناك ضرورة تفرض على كل فتى الالتزام بصفات أخلاقية صارمة ، وقد أشار إلى ذلك ابن المعمار الحنبلي في كتاب الفتوة (١١٥) .

فالفتى الحقيقي هو الفتى الذي يتصف بصفات طيبة ظاهرة كالشجاعة والرجولة والوفاء بالوعد وطهارة القلب والعفة ، لا يلحق الضرر بكائن من كان في سبيل مصلحته الخاصة كما أن تحمل الضرر في سبيل مصلحة الآخرين هو بعينه الإيثار وهو بعينه روح الفتوة ، فالفتى لا يرفع يده على ضعيف ، بل يرفع الظلم عن المبتلين ، ويعين المحتاجين ، وينصف المظلومين ، يقول الصدق يأكل من مال حلال ، ويجعل من الوفاء واجتتاب الرياء شعارا له (١١٦) .

وهناك صفات سلبية لا يمكن لمن يرتكبها أن يصير عضوا في جماعة الفتوة ، كما كانت هناك حُرُف لا تسمح لأصحابها بأن ينضموا إلى جماعة الفتوة ، وهذا شبيه بطبقة السامورائي التي كانت تمثل طبقة في المجتمع لا يسمح باختراقها من جانب طبقات معينة ، لكن بعض من حرموا من عضوية الفتوة ، وخاصة في عهد ازدهارها قاموا بارتكاب بعض المظالم ، ونهب حقوق الناس ، والإخلال بأعمال الخير والإصرار على عمل الشر .

كان نظام التربية يقضي بأن يمر العضو بعدة مراحل حتى ينضم إلى حظيرة الفتوة ، والعضو الذي يطلق عليه طالب أو صغير ، يقدم خطاب توصية من أستاذ إلى نقيب الفتوة ويبقى ٤٠ يوما في خدمة الناظر أو الأستاذ ، ينال بعدها لقب ابن ، وكأنه صار أهلا لدخول جماعة الفتوة ولكن هذا الإعلان يكون وسط جماعة خاصة .

ويعقد حفل خاص من أجل ضم الابن أو عدة أبناء إلى جماعة الفتیان ولهذا الحفل مراسم خاصة^(١١٧) . إلا أن العلماء مثل ابن الجوزي (م ٥٩٧هـ)^(١١٨) وابن تيمية الحنبلي م ٨٢٧هـ^(١١٩) ذكروا أن هذه الرسوم بدعات في الدين ، ومع هذا فالعلماء يستحسنون نشاطات الفتیان .

مراكز الفتوة في الأندلس وتأثيرها على نظام الفروسية في أوروبا:

أشار الأدباء المسلمون إلى الأندلس وإلى جزيرة صقلية أيضا اللتين احتضنتا الحضارة الإسلامية عدة مئات من السنين ، وظهر هناك فتیان كان لهم دور مهم في مجريات الأحداث في تلك البقاع ، وفي التأثير على أوروبا بشكل عام ، وقد ورد ذكرهم لدى بعض الشعراء المسلمين^(١٢٠) .

وإذا كان من الممكن ملاحظة آثار وعلامات الفتوة واضحة في أوروبا في القرن الخامس الهجري (١١ م) ، حين اتبعت القبائل الجرمانية هذه الرسوم والآداب قبل بقية أوروبا ، فإن البروفسر الدكتور نكلسن قد اعترف بأن مؤسسي هذه الآداب والتقاليد هم العرب المسلمون وأكثرهم من أهل الشام ، وقد دعم هذا الرأي أيضا البروفسر حتي ، وكانت معظم مدن الأندلس الكبرى مثل إشبيلية وغرناطة وقرطبة مراكز لأصحاب هذه التقاليد والقيم الحضارية السامية ، وكان كبار أفراد العائلات النصرانية يرسلون أبناءهم إلى تلك المدن بغرض تربيتهم وتشتمهم على تلك القيم العالية ، واهتم النصارى اهتماما كبيرا بأن ينال أبناءهم أعلى تدريب في فنون الحرب والفروسية والتدريب العسكري ،

وكان هذا هو الحال في جزيرة صقلية ، والفتوة في الشرق الإسلامي ارتبطت بل مضت على طريقة موازية للأخلاقيات والتصوف بل ارتبطت بهما كثيرا ، إلا أن فتیان أرض المغرب اهتموا بالأمور الاجتماعية أكثر من اهتمامهم بالعبادات والتصوف ، فصارت هذه الأمور الاجتماعية جزءا لا يتجزأ من تنظيمات أهل أوربا وساعدت الثقافة المغربية أهل أوربا في وضع الاصطلاحات مثل : Knight Errancy chivalry وأيضاً Knighthood وغيرها (١٢١) .

والعصر الذهبي للفتوة الإسلامية في أسبانيا هو القرن الثالث والرابع الهجريين في عهد كل من عبدالرحمن الثالث (٣٠٠-٣٥٠هـ) والحكم الثاني والمستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ) وهشام الثاني «المؤيد بالله» (٣٦٦-٣٩٩هـ) فجهدوا رئيس وزرائه الفذ المنصور المتوفى ٣٩٢هـ معروفة ، وقد اهتم هؤلاء بإنشاء مراكز للفتوة ، تلك المراكز التي كان يسمح للمرأة أيضا بالانضمام إليها ، وكانت تشمل التدريب على الفروسية وركوب الخيل ، والرمي بالسهم والرمح والمبارزة بالسيف ، والتحلي بالشجاعة بشكل عام والشهامة والكرم ، وأوصاف أخرى عجيبة من بينها العشق العفيف والحب العذري اللطيف وقرض الشعر ، وهذا أمر يشبه تماما ما كان عليه السامورائي في اليابان من اهتمام بالأدب والشعر (١٢٢) .

كان الفارس المسلم في الأندلس على خلق و اتصف بالحياء ، وكان فصيحاً بليغاً وكان شاعرا يمجج قلبه بأموج العشق المجازي ، لكنه عشق عفيف ، وهو عشق تدرج ليصل إلى مراحل العشق الحقيقي ، ومن هنا كثيرا ما أخرج العشق الحقيقي الفتیان من مصاف الفتوة ، لأنه لم يبق على تعفف الفتى (١٢٣) .

إشراف الخلفاء والسلاطين والملوك على نظام الفتوة :

من المعروف أن حكام وقادة الأندلس أشرفوا على نظام الفتوة ، مثلما كان الحال في البلدان الشرقية من العالم الإسلامي ، ويظهر هذا واضحا في النصائح التي سطرها

الأمير عنصر المعالي كيكافوس الزياري حاكم منطقة كركان ونواحيها في الفصل الأخير من كتابه قابوس نامه الذي ألفه سنة (٤٧٥ هـ) (لابنه كيلانشاه) والذي خصه بأداب الفتوة.

أما صلاح الدين الأيوبي ففتوته وأعماله النبيلة موجودة في الكتب والمصادر المختلفة ، فبينما ريتشارد (قلب الأسد) ملك النصارى يسفك دماء الأبرياء العزل من السلاح ، نشاهد سلوك صلاح الدين المتسامح ، الذي يعد مظهراً للأخلاق الإسلامية والتعليم الإسلامي ومظهراً للفتوة الإسلامية ، وهو ما جعله يعفو عن النساء والأطفال والأسرى والفارين وغيرهم ، بل ويعطى الأمان للجيش المدجج بالسلاح حين طلب أفراد ذلك ، وصرف النظر عما ارتكبه من مظالم .

ويعتبر الخليفة الناصر لدين الله العباسي (٥٧٥-٦٣٢ هـ) أوضح مثال على رعاية الخلفاء لنظام الفتوة ، إذ يمكن مشاهدة عظمة نظام الفتوة بتأثير هذه الرعاية الرسمية أو شبه الرسمية لحوالي ٣٠٠ سنة .

ففي زمن الخليفة الناصر واجهت الخلافة العباسية الزوال والتدهور وزاد السلاجقة من قوتهم وجعلوا من الخليفة «شخصية محترمة مقدسة» لكنه بشكل عملي لم يكن له سلطة سوى منح النياشين . . . وكان بلاط الخلافة يتعرض للأخطار الخارجية والفرقة والفوضى العامة إلا أن الخليفة الناصر ببعد نظره أعطى نظام الفتوة مكانة مركزية وحاول بنجاح أن يبقي على سلطته قوية .

في البداية بدأ الخليفة إلباس الشباب زي الفتيان ، وأخذ يرسل الشباب جماعات جماعات لقتال الصليبيين ، وبعد أربع سنوات (٥٧٨ هـ) لبس هو أيضاً لباس الفتوة ، واتباع طريقة وأسلوب الفتوة وجعل من الشيخ مالك بن عبد الجبار الحنبلي (المتوفى سنة ٥٨٣ هـ) «شيخ الفتوة» وانضم الخليفة إلى جماعة الفتيان فجعل بذلك من نظام الفتوة

نظاما رسميا وصارت جميع جمعيات الفتوة تنتسب إلى الخليفة وتشكل بإذن منه، وهكذا أضيفت مراسم وتقاليده الجديدة إلى جماعة الفتوة الناصرية نسبة إلى الخليفة الناصر، فأرسل الرسائل الخاصة كان يتم عن طريق تربية نوع من الحمام أطلق عليه اسم (طيور المناسيب)، كما كانوا يصنعون سهاما ورمحا خاصة أطلق عليها (رمي البندق) وكان من الضروري ارتداء زي الفتوة الذي قرره الخليفة، وقد أمر الخليفة الناصر جميع حكام وأمراء المسلمين بأن يلتزموا بأداب الفتوة تلك وأن يعملوا على نشرها، وقد قام بعض الأمراء مثل أمراء حلب وحمص وحماة بإصدار أوامره للخطباء بتلاوة آيات الذكر الحكيم في خطبة الجمعة التي تحت على الأخوة والإيثار (١٢٤).

كما ارتدى السلطان عز الدين كيكازس الأول (٦٠٧-٦١٦ هـ) وخليفته السلطان عز الدين كيكازس الثاني (٦١٦-٦٣٢ هـ) في تركيا، وفاتح الهند السلطان شهاب الدين الغوري (متوفى ٦٠٢ هـ) وغيرهم من الملوك والأمراء (لباس الفتوة) الذي أرسله لهم الخليفة الناصر لدين الله، وراج هذا التقليد في جميع أنحاء العالم الإسلامي (١٢٥).

ومما يذكر أيضا أن سلاجقة الروم قاموا بصدهجمات الكفار القره خنائيين في وسط آسيا بمساعدة منظمات الفتوة سنة ٦٣٢ هـ.

وقد نفذ الخليفة الناصر لدين الله الحدود الشرعية بشدة وقوة من أجل القضاء على غارات فرق الشطار والعيارين، كما أقام عدة مراكز في أماكن مختلفة من أجل التربية العملية لكيفية رعاية الفقراء، وتقديم واجبات الضيافة، والتبرع بالصدقات، وقد اتخذت البلدان الإسلامية من هذه التقاليد والعادات الطيبة منهجا لها.

وقد ظل نظام الفتوة لفترة طويلة يحظى بالرعاية الرسمية من قبل الحكام المسلمين بعد وفاة الخليفة الناصر ٦٢٢ هـ (١٢٦).

زوال الفتوة :

ذكر الأدياء زوال الفتوة في شعرهم ، واشتهر هذا البيت لسيد عبد الواسع الكرجستاني (متوفى ٥٥٥ هـ) لكنه ينسب للحكيم سنائي (متوفى ٥٤٥ هـ) :

منسوخ شد مروت ومعدوم شد وفا زين هر دو مانده نام جو سيمرغ و كيميا

انتهت المروءة وانعدم الوفاء ، وما بقي من اسمهما صار مثل طائر الرخ الخرافي ومثل الكيمياء ويمكن أن تكون شكوى الشاعر شكوى شخصية لكن بعض بدع الشطار والعيارين وحركاتهم السيئة كانت تدل على انتهاء الفتوة والمروءة ، وقد أطلق ابن الحنبلي على حركاتهم تلك اسم « بدعات السوء » وقد جاء في رسالة الفتوة لأمير سيد علي همداني ما يلي : « . . كثير من الناس انقادوا وراء شهوات النفس ، وأطلقوا على هذا صفة الفتوة بينما علاقتهم اتسمت بالنفاق ولم تكن سوى العداء والأنانية » .

ولم تتروّع جماعة الشطار عن ارتكاب جرائم النهب والقتل لنشر أفكارها ، وقد تدخلوا في شئون الحكومات في الأندلس ، وفي إيران ، وفي وسط آسيا ، مما أدى إلى الاضطراب والفتن (١٢٧) .

كما تدخل هؤلاء أيضا في الخلاف بين ولدي هارون الرشيد (م ٨٠٩ هـ) أي الأمين (م ٨١٣ هـ) والمأمون (م ٨٣٣ هـ) ، وقد ظهرت فرق أخرى عديدة ، انطوت تحت لواء الصوفية منها الملامتية الصوفية وغيرها (١٢٨) .

وقد عرف بعضهم باسم الصعاليك ، وكانت لهم مراكز خاصة في بغداد ودمشق والكوفة والقاهرة والبصرة والموصل وفي مدن إيران ما وراء النهر .

وقد تسبب كل هذا في زوال الفتوة ، بالإضافة إلى تغير أحوال الزمان ففي إيران قام اسماعيل الصفوي بتنظيم تشكيل الجيش ، ونفس الشيء حدث في البلاد العربية وفي تركيا ، وهكذا لم تعد هناك ضرورة لوجود حتى جماعات الفتيان التي تمسكت بالقيم

ومضت على نهج الفتوة الأصيلة ، مثل جماعة فتيان الأصناف^(١٢٩) ، كما أن الثورة الصناعية في أوروبا أضرت بأصحاب الحرف وبمهارتهم وفنهم ، ويذكر أن بعض جماعات الفتوة وجدت في المشرق الإسلامي حتى أوائل القرن العشرين^(١٣٠) .

أما الهند فنظرا لبعدها عن مركز الخلافة الإسلامية فلم تنتشر فيها هذه التقاليد ، رغم أن السلطان شهاب الدين الغوري كان يرتدي لباس الفتوة (خرقة سلطاني) كما تخلص (أي اتخذ اسما أدبيا يعرف به بين القراء) بعض الشعراء بفتوت مثل حبيب الله فتوت كشميري ، وفتوت حسين خان فتوت كشميري ، ومرزا أبو تراب فتوت لاهوري وهم من شعراء القرن الحادي الهجري^(١٣١) .

خاتمة :

كان السبب الرئيس الذي دفع الباحث للكتابة عن البوشيدو روح اليابان ، وقيم الحضارة العربية الإسلامية هو تساؤل البعض عن القيم التي تحكم اليابان مع عدم وجود معتقدات دين سماوي من جهة ، وما يظنه البعض من أن اليابان تتجه بحضارتها أو بقيمتها الحضارية إلى الحضارة الغربية ، لهذا حاول الباحث أن يوضح أن ما لدى الأمة اليابانية من حضارة تتمثل في القيم والتقاليد والتراث ، هو بمثابة معتقد للأمة اليابانية تحرص عليه حرص أهل الديانات الأخرى على ما لديهم من معتقدات .

واليابان عادة تفتح ذراعيها لما يقدم لها من ثقافة ، وما يقدم لها من عناصر حضارية ، لكنها غالبا ما تعيد النظر في كل هذا ، لتتخلص من عناصر التنافر والتضاد مع ثقافتها وقيمها الحضارية ، وبعبارة أخرى تقوم «بغربة» كل ما يصلها من جديد في جميع المجالات النظرية والعملية .

وهكذا عمد الباحث إلى محاولة الكشف عن عناصر من الحضارة العربية الإسلامية ، يقدمها للأمة اليابانية حتى تدرك هذه الأمة أن ما في قيمنا ، وتقاليدنا ،

وتراثنا الحضاري لا يتنافر مع ما لديها من قيم وتقاليد وتراث حضاري . وإذا كان العالم يتجه اليوم إلى الحوار ، بل إلى حوار الحضارات ، فيجب أن نسعى لإيجاد التفاهم فيما بيننا من خلال فهم ثقافة الآخر وفكره وعواطفه ، ولا شك أن هناك محاولات من الجانبين العربي الإسلامي والياباني لتبادل المعلومات وإيجاد حوار ثقافي أو تلاقح فكري ، لكنها محاولات تحتاج إلى دعم على جميع المستويات .

إن الأمة اليابانية مثلها مثل الأمة العربية والإسلامية تؤمن بأن الحضارة تقوم على التواصل بين القديم والجديد ، وتدرك أن الانقطاع عن القديم يعني فقدان الهوية الحضارية ، ولهذا أكد الدكتور إينازو نيتويه على ضرورة وصل الحاضر بالتراث حتى لا تفقد الأمة هويتها ، والأمة العربية والإسلامية تنتمي إلى ثقافتها التي تمتد جذورها عبر التاريخ ، وتنتمي أيضا إلى ما يطلق عليه الوطن ، وهكذا غطت قيم الحضارة العربية الإسلامية مساحة واسعة من الكرة الأرضية ، وقد يفهم البعض أن قيم الحضارة العربية الإسلامية تتوقف عند مشاعر الدين ، لكن يجب أن نفهم أن الدين وقديسه شرائعه يشمل القيم الخالدة التي بنيت عليها الحضارات كلها ، وقد أدرك الفيلسوف الياباني هذا الأمر ، فذكر أن القرآن الكريم يقرر بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولا ينطق بلغتها وهو يشير إلى قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم...﴾ (الآية ٤) .

عمد الباحث في بحثه إلى الاختصار - غير المخل - في مناقشة مجموعة القيم الحضارية الراسخة في أعماق الأمة اليابانية ، وهي تعد المثل العليا أو المعتقد الذي يجب على كل ياباني أن يتمسك به ، ثم أوضح الباحث أن هذه المثل هي نفسها تلك المثل التي شهداها المجتمع العربي قبل الإسلام ، ثم جاء الإسلام فأعطاهما دفعات قوية حتى استوعبت الثقافة العربية فيما بعد ثقافة العالم ، وبرزت الحضارة العربية الإسلامية قوية مؤثرة ، وغطت قيمها ومثلها بل وشرائع دينها مساحة شاسعة من العالم .

ومن هنا كان بيان الباحث لتقاليد الفروسية والفتوة التي يمكن مقارنتها بقيم وتقاليده البوشيدو ، تلك القيم التي كانت موجودة قبل الإسلام ، واستمرت بعد الإسلام في المجتمع العربي الإسلامي ، بل رفعها الإسلام إلى مستوى العقيدة حين أمر المسلمين أن يعدوا لأعدائهم ما يستطيعون من قوة ومن رباط الخيل ، وحين حث المؤمن على الثبات وعدم الفرار من ميدان المعركة .

وهناك توافق غريب بين سمو خلق الفارس الياباني وسمو خلق الفارس العربي المسلم ، كما أن قصص البطولات اليابانية لها مثيل في قصص البطولات العربية قبل الإسلام وبعده ، لكن المجال لم يكن يسمح حتى يكتب الباحث بالتفصيل عن هذه الأمور .

واليوم ونحن في عام حوار الحضارات في حاجة ماسة إلى أن نفتش في قيم الحضارة العربية الإسلامية عما افتقدناه ، نتيجة انفتاح أبوابنا على قيم أخرى قد لا تتماشى مع قيمنا التراثية ، بينما تحاول اليابان اليوم شرح ثقافتها للعالم ، ومن الملاحظ أنه قد يصعب على بعض أصحاب الحضارات الأخرى فهم ما يقدمه اليابانيون من شروحات بينما يسهل الأمر على أصحاب الحضارة العربية الإسلامية ، كما يحاول اليابانيون في نفس الوقت فهم قيم الحضارة العربية الإسلامية ، لكنهم لا يزالون بحاجة إلى من يقدم لهم يد العون ، في وقت غلبت فيه الصراعات بين الدول على المفهوم الحقيقي لقيم الحضارة العربية الإسلامية وتراثها ، مما يوجب علينا القيام - على الأقل - بترجمة ما نشره المثقفون اليابانيون الذين كتبوا عن العالم الإسلامي ، بعد أن ارتحلوا إليه وعاشوا أهله ، واستشعروا الألفة في كل ما شاهدوا ورأوا لأنهم أدركوا أن قيم الحضارتين العربية الإسلامية واليابانية تتحد تماما في كل ما يخص الإنسان كبشر ، والطبيعة التي سخرها الله لهذا الإنسان ، وأمره بالمحافظة عليها ، من خلال الحفاظ على العلاقات الإنسانية ، والعيش في وئام وتوافق مع كل ما هو حي على وجه هذه البسيطة ، فهذه هي تعاليم شريعتنا وهذه هي تقاليدنا العربية الإسلامية عبر تاريخنا الطويل ، لكن

الصراعات التي فرضت نفسها على منطقتنا أوجدت تلك الصورة التي يراها البعض من على بعد ، بشكل مختلف .

وإذا كانت الحضارات تنتهي وتلاشى وتندثر ، وتنشأ حضارات أخرى تتغذى على بقاياها مثلما حدث عبر التاريخ ، إلا أن حضارة الإسلام - كما يذكر الدكتور حسين مؤنس - لا تنطبق عليها هذه النظرية لأن أساسها ليس عنصرا بشريا يناله الضعف والبلوى ، لكن أساسها العقيدة ، وهي لا تزال تتجدد وتتعاقب على حملها الأجيال ، وأداتها اللغة العربية ، لغة القرآن ، وهكذا بفضل الإسلام واللغة العربية ظلت - وستظل - قيم هذه الحضارة حية لأن العقيدة لا تبلى ما دام هناك من يؤمنون بها ، على حد قول الفيلسوف الياباني إينازو نيتويه حين ذكر أن البوشيدة كعقيدة ستظل باقية حتى لو ظن البعض أنها انتهت .

لقد أدرك العلماء والمفكرون اليابانيون أهمية ما في الحضارة الإسلامية من قيم إنسانية يكفي لإحلال السلام والأمن على هذه الأرض ، فبدأوا في دراسة الإسلام واللغة العربية ، وبدأوا في التعرف على الحضارة العربية الإسلامية من خلال الترجمة ، وتشهد الدراسات العربية الإسلامية هذه الأيام تطورا بفضل جيل من الباحثين اليابانيين المتشربين بين الجامعات ومراكز الدراسات اليابانية ، مما أوجد توجهها لإنشاء أقسام للغة العربية وأدبها والدراسات الإسلامية والتاريخ العربي الإسلامي في معظم الجامعات اليابانية .

وليس من شك في أن هذا سوف يثري الحوار الحضاري بين اليابان والعالم العربي الإسلامي عن طريق التواصل المباشر ، ويصبح من واجب المسؤولين هنا إقامة علاقات وثيقة ومباشرة مع المثقفين اليابانيين ، ودعوتهم لزيارة الجامعات العربية ومراكز البحوث وخاصة أن المسؤولين اليابانيين - على أعلى مستوى - حريصون أشد الحرص على تعميق العلاقات بين اليابان والعالم العربي الإسلامي في وقت يطالب فيه المثقفون اليابانيون ببناء علاقات وطيدة مع العالم العربي والإسلامي ، ويساعد على نجاح هذه المساعي ما ورد في هذا البحث من تماثل بين قيم الحضارة العربية الإسلامية وقيم الحضارة اليابانية .

الحواشي والتعليقات

- (١) انظر سمير عبد الحميد إبراهيم ، الإسلام والأديان في اليابان مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م الصفحات الأولى .
- (٢) ولد الفيلسوف الياباني اينازو نيتويه سنة ١٨٦٢م ومات سنة ١٩٣٣م وقد درس في بداية حياته اللغة الإنجليزية ليلتحق بكلية الزراعة حيث كانت أغلب المحاضرات بالإنجليزية ، تحقيقاً لرغبة الإمبراطور الياباني الذي زار مقر جد نيتويه في سانبونغي sanbongi سنة ١٨٧٦م وقد التحق نيتويه بالكلية الإمبراطورية بعد تخرجه من كلية الزراعة ، وتخصص في الأدب الإنجليزي لأنه أراد أن يكون همزة الرصل في التقاء الحضارة الشرقية بالحضارة الغربية ، وقد تقلد مناصب عدة منها مناصب ديبلوماسية سمحت له بعرض أفكاره على الغرب ومن ثم تأليف كتابه البوشيدو روح اليابان بالإنجليزية حتى يشرح للغرب قيم الحضارة اليابانية الشرقية ، وكان الدكتور غينازو نيتويه عضواً بالمجلس العلمي الإمبراطوري في اليابان وأحد أساتذة الجامعة الإمبراطورية في طوكيو .
- (٣) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ... ﴾ (الآية ٤ سورة إبراهيم) .
- (٤) انظر البوشيدو للدكتور اينازو نيتويه ترجمة مختار كنعان، الناشر؟ سنة ١٩٣٨م، ص ٢٥٨ .
- (٥) انظر مقدمة الترجمة العربية للبوشيدو مختار كنعاني، ص ١٩ .
- (٦) المصدر السابق، ص ٢٠ .
- (٧) مع القرن الثاني عشر الميلادي ضعفت سلطة الحكومة المركزية في اليابان ، وفقدت قوتها فاتحدت المجموعات المختلفة من زعماء الأقاليم المحليين ، وأقاموا علاقات ترابط فيما بينهم لتوفير الحماية المتبادلة ، وكانت تلك

المجموعات تضم في البداية الأقارب والجيران الذين التفوا حول شخصية زعامية توجي لهم بالولاء ، ونظم أعضاء هذه الجماعات أنفسهم ، وكانوا في حقيقتهم فرقا من الفرسان ما لبثوا أن شكلوا أرستقراطية محلية ، وشاركوا بعد ذلك في شؤون الحكم ، وفي القرن السادس عشر الميلادي تعرض النمط الإقطاعي «الزراعي» في اليابان لتطورات من خلال إدماج الإقطاعيات الصغيرة الأقل كفاءة في الإقطاعيات الناجحة ذات التنظيم الإداري المحكم ، واستمر هذا النظام قائما حتى استعادت اليابان وحدتها السياسية بعد وصول الأوربيين إليها ، ونتيجة لجهود القادة العسكريين اليابانيين مثل اودا تويوناجا و هايدوشي وأخير توكوجاوا إياسو الذي تلقب بالشوجن وقسم أراضي اليابان كلها إلى قسمين قسم خاص به وقسم خاص لأبنائه . لمزيد من التفاصيل انظر أدوين رايشاور اليابانيون ترجمة ليلي الجبالي سلسلة عالم المعرفة الكويت رقم ١٣٦ ابريل ١٩٨٩م، ص ٩٦ وما بعدها ؛ وانظر أيضا الثورة الإصلاحية في اليابان إعداد ناجي متشيو وترجمة عادل عوض ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة الألف كتاب الثاني رقم ١٠٨ ، ١٩٩٢م، ص ٥٧ وما بعدها ، ص ٢٢٣ وما بعدها .

(٨) البوشيدو الترجمة العربية لمختار كنعان، ص ٣٠ والفصل المتعلق بالاقطاع في كتاب رايشاور اليابانيون ترجمة ليلي الجبالي .

(٩) Basil Hall Chamberlain, Japanese Things Tokyo, 1985 P.415

(١٠) البوشيدو الترجمة العربية ، ص ٣١ .

(١١) Japanese Things p. 415

(١٢) البوشيدو ، ص ٣٤ .

(١٣) مسعود ضاهر ، دكتور النهضة العربية والنهضة اليابانية تشابه المقدمات واختلاف النتائج ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٢٥٢ ، ديسمبر ١٩٩٩م، ص ٤٧-٤٨ ، وعن النصرانية في اليابان انظر الإسلام والأديان في اليابان الفصل المتعلق بالنصرانية .

(١٤) المصدر السابق، ص ٩٤ .

Japanese Things p. 416 (١٥)

(١٦) كان يطلق على مدارس هذه المعابد «تيراكويا» Terakoya .

(١٧) كانت تعرف باسم «هانكو» Hanko .

(١٨) مسعود ضاهر، النهضة العربية و النهضة اليابانية ، ص ١٥٢ .

(١٩) المصدر السابق، ص ١٥٨؛ وعن الإمبراطور مييجي انظر رايشاور، اليابانيون؛

وانظر أيضاً الثورة الإصلاحية (مييجي ايشن) لناجي متشيرو وآخرون ترجمة عادل

عوض .

(٢٠) نفسه، ص ١٤٤ .

(٢١) نفسه، ص ٣٧-٤٧ .

(٢٢) ناجي متشيرو وآخرون، الثورة الإصلاحية في اليابان (مييجي ايشن) ترجمة عادل

عوض، ص ١٦٠ .

(٢٣) المصدر السابق، ص ١٧٤ .

(٢٤) نفسه، ص ١٧٦ .

(٢٥) الثورة الإصلاحية، ص ١٣٨ .

(٢٦) حين قام رئيس وزراء الياباني الحالي كوي زومي جونيتشيرو Koizumi

Junichiro بزيارة معبد يسكوني جنجا في طوكيو والذي يرمز وجوده لأرواح

اليابانيين الذين ماتوا في الحرب العالمية، ثار الغضب وضجت وسائل الإعلام في

الولايات المتحدة خشية أن يكون في ذلك إحياء لروح القومية اليابانية وبالتالي

إحياء لروح العسكرية اليابانية .

(٢٧) انظر رايشاور، اليابانيون، ص ٧١ .

(٢٨) المصدر السابق، ص ٨٤ .

(٢٩) نفسه، ص ٨٥ .

- (٣٠) انظر سمير عبد الحميد ، الإسلام والأديان في اليابان ، ص ١٢٨ وما بعدها البوذية في عصر كاماكورا ، وعن عقيدة الزن انظر ، ص ١٣٤ وما بعدها .
- (٣١) اليابانيون ، ص ٨٨ .
- (٣٢) البوشيدو الترجمة العربية ، ص ٣٧ .
- (٣٣) نفسه ، ص ٣٨ .
- (٣٤) انظر تاكيشي سوزوكي ، ياباني في مكة ، ترجمة سمير عبد الحميد وسارة تاكاهاشي ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م ، انظر ص ١١٣ وما بعدها ، ص ١١٨ وما بعدها .
- (٣٥) البوشيدو ، ص ٤٢ .
- (٣٦) نفسه .
- (٣٧) انظر سمير عبد الحميد ، الإسلام والأديان في اليابان ، الفصل الخاص بالكونفوشية ، ص ١٩١ وما بعدها .
- (٣٨) البوشيدو ، ص ٤٦ .
- (٣٩) انظر ما ورد ذكره عن وانغ يانغ مينغ في كتاب جوزيف مندهام موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين ، ترجمة محمد غريب جودة سلسلة الأف كتاب الثاني العدد ١٩٤ ، القاهرة ، ١٩٩٥ م .
- (٤٠) البوشيدو ، ص ٤٨ .
- (٤١) فقد ذكر قوله تعالى في سورة المائدة ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾ (الآية ٥٤) كما أورد أيضا قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ... الآية﴾ (إبراهيم آية ٤) ونقل عن حديث رسول الله قوله «جعلت الجنة تحت ظلال السيوف» الفقرة الأولى من الفصل الثالث عشر من البوشيدو ونصها : (جعلت البوشيدو السيف رمزا لقوتها وشعارا لشجاعتها وبأسها ، وحين قال

محمد (صلى الله عليه وسلم) : « جعلت الجنة تحت ظلال السيوف » فكأنه كان يردد صدى عاطفة يابانية)

(٤٢) أوضح الدكتور حسين مؤنس في معرض حديثه عن الثقافة والحضارة أن الثقافة ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع عن البيئة ومعبر عنها أو مواصل لتقاليدها في هذا الميدان أو ذاك . الحضارة ، ط ٢ سلسلة عالم المعرفة رقم ٢٣٧ ، سبتمبر ١٩٩٨م ، ص ٣٧٠ .

(٤٣) البوشيدو ، ص ١٤٢-١٤٣ .

(٤٤) نفسه ، ص ١٢٩ .

(٤٥) نفسه ، ص ١٤٥ .

(٤٦) نفسه ، ص ١٥٥ .

(٤٧) نفسه ، ص ١٥٨ .

(٤٨) البوشيدو النص الإنجليزي ص ٢٥ Inazo Nitobe, Bushido The Soul of Japan Tokyo, 1983

(٤٩) النص الإنجليزي ، ص ٢٥ .

(٥٠) قوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانوا بين ذلك قوما ﴾ (آية ٦٧) وقوله في سورة الإسراء ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ﴾ (آية ٢٦) .

(٥١) د. محمد عمارة ، معالم المنهج الإسلامي دار الشروق ط أولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، ص ٧٩ وما بعدها .

(٥٢) عمارة ، ص ١٦٠ .

(٥٣) عمارة ، ص ١٦٢ .

(٥٤) نقلا عن عمارة ، ص ١٧٤ .

(٥٥) البوشيدو ، ص ٧٠ .

- (٥٦) نفسه ، ص ٧١ .
- (٥٧) نفسه ، ص ٧٣ .
- (٥٨) نفسه ، ص ٧٥ .
- (٥٩) نفسه ، ص ٧٧-٧٨ .
- (٦٠) نفسه ، ص ٨٤ .
- (٦١) نفسه ، ص ٨٧ .
- (٦٢) نفسه ، ص ٩٠ .
- (٦٣) نفسه ، ص ٩٤ .
- (٦٤) انظر ياباني في مكة الترجمة العربية ، ص ١٦٢ وما بعدها .
- (٦٥) سماها الجاحظ في البيان والتبيين ٤/ ٢٣ الأشعار المنصفة .
- (٦٦) جمع الأستاذ عبد المعين الملوحي عددا من القصائد من هذه الأشعار المنصفة مع مقطوعات شعرية ونشرها سنة ١٩٦٧م وصدرت عن وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد السورية نقلا عن د . محمود الطناحي ، مستقبل الثقافة العربية ، مايو ١٩٩٩م كتاب الهلال ، العدد ٥٨١ القاهرة .
- (٦٧) الطناحي نقل ما جاء في ربيع الأبرار ١/ ٦٦٠ في كتابه مستقبل الثقافة العربية ص ٣٥١-٣٥٠ .
- (٦٨) البوشيدو ، ص ٨١ .
- (٦٩) نفسه ، ص ١٠٦ .
- (٧٠) نفسه ، ص ١٠٦ .
- (٧١) نفسه ، ص ١٠٦ .
- (٧٢) نفسه ، ص ١٠٩ .
- (٧٣) نفسه ، ص ١٢٨ .
- (٧٤) البوشيدو ، ص ١٣٢-١٤٦ .

(٧٥) أورد معنى الآية الكريمة ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ..﴾ (المائدة آية ٤٤).

(٧٦) البوشيدو ، ص ١٨٠ وما بعدها .

(٧٧) نفسه ، ص ١٨٢ .

(٧٨) نفسه ، ص ١٨٣ .

(٧٩) انظر أبا الأعلى المودودي شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط أولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م . وكتاب عقوبة القتل في الإسلام، د. محمد الغامدي، دار السلام الرياض، وهناك عدد كبير من البحوث والرسائل العلمية المتخصصة في الموضوع- انظر محمد عبد العزيز ، احكام البذل في الفقه الإسلامي ، جامعة الإمام ، ماجستير ١٤٢١هـ ، وعبد الله محمد الجمعة ، القصاص في النفس في الشريعة الإسلامية جامعة الإمام دكتوراة ١٤١٣هـ ، وعبد الله آل مساعد ، نظرية القصاص في الشريعة جامعة الإمام، دكتوراه ، وحسن بن إبراهيم شروط وجوب القصاص في النفس والأطراف، جامعة الإمام ، دكتوراه ، ١٤٠٩هـ .

(٨٠) البوشيدو ، ص ١٩٧ وقد انتبه الشاعر حافظ إبراهيم وأنشد قصيدته غادة اليابان ضمنها صفات المرأة اليابانية . انظر ديوان حافظ إبراهيم ، ج ٢ ، ص ١٠ طبعة بيروت ، ١٩٦٩م .

(٨١) البوشيدو ، ص ١٩٩ .

(٨٢) نفسه ، ص ٢٠١ .

(٨٣) عمارة ، ص ٢٤٠ .

(٨٤) انظر ما كتبه عماره تحت عنوان التربية الجمالية ، ص ١٩٥-٢٤٨ في كتابه معالم النهج الإسلامي .

- (٨٥) البوشيدو ، ص ٢٠٢ .
- (٨٦) ترجمة نصر أبو زيد للبوشيدو ، ط أولى ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ١٩٩٣ م ، ص ١٨٩ .
- (٨٧) البوشيدو ، ص ٢١٢ .
- (٨٨) نفسه ، ص ٢١٣ .
- (٨٩) البوشيدو ، ص ٢١٤ ؛ وانظر نصر أبازيد ، ص ١٨٩-١٩٠ .
- (٩٠) البوشيدو ، ص ٢١٩ .
- (٩١) نفسه ، ص ٢١٨ .
- (٩٢) نفسه ، ص ٢١٩ .
- (٩٣) رايشاور ، اليابانيون ، ص ٣٠٣ .
- (٩٤) عمارة ، ص ١٥٣ .
- (٩٥) نفسه ، ص ١٥٨ .
- (٩٦) نفسه ، ص ١٥٨ .
- (٩٧) البوشيدو ، ص ٢٢١ .
- (٩٨) نفسه ، ص ٢٢٨ .
- (٩٩) نفسه ، ص ٢٣٧ .
- (١٠٠) نفسه ، ص ٢٣٨ .
- (١٠١) نفسه ، ص ٢٤٠ .
- (١٠٢) نفسه ، ص ٢٤٢ .
- (١٠٣) نفسه ، ص ٢٥٦-٢٥٧ .
- (١٠٤) نفسه ، ص ٢٥٨ .
- (١٠٥) نفسه ، ص ٢٥٨ .

(١٠٦) المعروف أن الفتوة اسم صفة من فتى والجمع فتيان وقد ورد اللفظ في القرآن الكريم مفردا ومثنى وجمعا (النساء ٢٥ ، يوسف ٣٠ ، ٣٦ ، ٦٠ ، والكهف ١٠ ، ١٣ ، ٦٣ ، والأنبياء ٦٠) . وقد استعمل لفظ فتى أيضا في الأدب الجاهلي ، لكن مصطلح الفتوة وضع فيما بعد ، ثم وضعت مصطلحات مشابهة في اللغات الشرقية غير العربية كالفارسية والأردية مثل : فتوت ، وجوانمردي ، ونظام فتوت ، وأئين جوانمرد ، وشيوه جوانمرد ، ومسلک فتوت ، وجميعها تقريبا بمعنى واحد وهو الفتوة أو نظام الفتوة أو نهجها ومسلکها .

(١٠٧) انظر ما كتبه أحمد أمين في كتابه الصعلكة والفتوة في الإسلام دار المعارف ، القاهرة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م وما جاء في كتب تتعلق بالفروسية مثل : عمر الدسوقي ، الفتوة عند العرب أو أحاديث الفروسية والمثل العليا مكتبة النهضة ، القاهرة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م ؛ وأيضا سيد حنفي حسنين ، الفروسية العربية ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠م ؛ وأيضا وديع ياسين التكريتي ، مبادئ الفروسية الحديثة الموصول ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، وكتاب تقاليد الفروسية عند العرب من تأليف واصف بطرس غالي وتقديم طه حسين وترجمة أنور لوقا ومراجعة وتحقيق حسني محمد النجار ط دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠م ومن كتب التراث كتاب ابن القيم الفروسية وله طبعات عديدة متنوعة محققة وغير محققة .

(١٠٨) حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي (المتوفى حوالي ٥٧٥م) الذي اشتهرت حكايات كرمه وشجاعته على كل لسان حتى صارت مضرب المثل في آداب اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية أيضا ، وقصة ابنة حاتم الطائي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة وقد قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في أبليك صفات المؤمنين (انظر الكامل لابن الأثير ٢م وقائع سنة ٩ هجرية . وتوضح هذه الواقعة أهمية منهج الفتوة ومسلکها قبل الإسلام) .

(١٠٩) وهو الحلف الذي ذكره ابن الأثير (م ٦٣٠هـ) في الجزء الثاني من الكامل) .

(١١٠) كتاب الفتوة ابن المعمار ، ص ٩٨ ، نقلا عن ماهنامه فكر ونظر ابريل ١٩٧٠ م صفر ١٣٩٠ هـ العدد العاشر المجلد السابع إداره تحقيقات إسلامي إسلام آباد ص ٧٥٩ .

(١١١) فكر ونظر ص ٧٦٠ مقال للدكتور محمد رياض عن نظام الفتوة الاجتماعي في الإسلام .

(١١٢) يمكن الوقوف على معلومات تاريخية من خلال ما كتبه ناصر أو ناصري سيواسي أناتوليائي ، كان شاعرا نظم يوانا باسم «فتوت نامه» أكمله في ٦٨٩ هجرية ويتضمن ٨٥٠ بيتا من الشعر (سرجشمهء تصوف در ايران سعيد نفيسي تهران ص ٢١٨-٢١٩ ، كما نشرت مجلة فرهنگ ايران زمين عدد ١٠ وعدد ١١ سنة ١٣٤١-١٣٤٢ شمسي هذه الأشعار وتتضمن هذه الأشعار معلومات قيمة عن نظام الفتوة .

(١١٣) ضرب أمثلة على ما شاهده ، وذكر أن أحد الفتيان ويدعى «خراز» كان يشرف على مائتي من الحرفيين وكانوا يسلمون ما يسكبونه إلى رئيس جماعتهم من أجل الإنفاق على الخانقاهات والاستراحات ، وذكر ابن بطوطة أحوال بعض الفتيان المتمردين مثل جمال لوك سيستاني .

(١١٤) انظر المنجد ط بيروت ويطلق عليه في الفرنسية chevalier وبالفارسية شواليه وقد تطور لدى الإفرنج نظام الفتوة أو الفروسية التي يطلق عليها knighterrancy أو knighterrancy انظر بالفرنسية : J.Flori, L Essor de la chevalerie, Xie s., Geneve, 1983. R.Amiot, Le Cheval, Paris, 1949 وبالإنجليزية انظر H. ThomAs, Spanish and Portuguese Romances of Chivalry, Cambridge 1920

(١١٥) انظر ص ٢٥٦-٢٦٠ ذكر أن على الفتيان أن يتجنبوا تماما مائتي كبيرة وصغيرة (ووضع قائمة طويلة بذلك) وخلاصة القول أن العمل الذي من شأنه أن يلوث

إسلام المرء يلوث أيضا فتوة الفتيان . ويجب على الفتى أن يضع أمام عينيه ثلاثة أمور :

- ١ . أن يقرن القول بالعمل .
 - ٢ . أن يحرص على الصدق في القول والعمل .
 - ٣ . أن يجعل من الصبر والتحمل شعارا له .
- وتعكس مطابقة القول للعمل والصدق والصبر جميع أوصاف الفتوة .
- (١١٦) انظر أمير عنصر المعالي كيكأؤوس الزيارى ، قابوس نامہ الفصل الأخير ط الثانية ، طهران ، ص ٢٢٢ وما بعدها بمقدمة الدكتور عبد المجيد بدوي .
- (١١٧) انظر أمير سيد علي همداني ، رسالة الفتوتية ، وناصرى فتوت نامہ .
- (١١٨) تلبیس إبليس أو نقد العلم والعلماء ، ط القاهرة ١٩٢٨ م ، ص ٤٢١ .
- (١١٩) رأي الإمام ابن تيمية ورد في الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفى الشبيبي ، مجلد ٢ ، بغداد ١٩٦٤ م ، ص ١٣٣ .
- (١٢٠) ذكرهم إقبال الشاعر في ديوانه بال جبريل . يقول : آه وه مردان حق ، وه عربي شهسوار حامل «خلق عظيم» صاحب صدق ويقين جن كي نكاهون نكي تربيت شرق وغرب ظلمت يورب مين تهى جنكي خرد راه بين هم رجال صادقون هؤلاء الفرسان العرب ، هم على " خلق عظيم " ، صادقون مؤمنون ، كان لهم فضل تربية الشرق والغرب وكانوا مشاعل نور أضاءت طرقات أوربا المظلمة .
- (١٢١) يلاحظ أن كلمة Errant /errancy جذرها Err بمعنى خطأ أو غلط وقد وضع له بالفارسية والأردية (عيار) .
- (١٢٢) انظر البوشيدو الصفحات المعنية .
- (١٢٣) دائرة المعارف الإسلامية ، ط ١٩٦٥ م ، المجلد الأول كلمة Furosiat .
- (١٢٤) الكامل تاريخ حوادث ما بعد سنة ٦٢٢هـ ، ط استنبول ، ص ١٤٣ .

- (١٢٥) كتاب الفخري لابن الطقطقي ، ط القاهرة ، ص ١٦٠ - ٢٣٤ والجامع المختصر لابن الساعي مجلد ٩ بغداد ، ص ٢٢١ .
- (١٢٦) انظر فكر ونظر مجلة شهرية عدد مايو ١٩٧٠م ادره تحقيقات إسلامي إسلام آباد باكستان ، ص ٨٥٢ وما بعدها .
- (١٢٧) انظر تاريخ أدبيات إيران ، مجلد أول د. ذبيح الله صفا طهران ، ص ٣٢ وما بعدها وبالعربية انظر جرجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي مجلد ٥ .
- (١٢٨) انظر أبو العلاء عفيفي ، الملامتية الصوفية وأهل الفتوة ط القاهرة وانظر أيضا رحلة ابن جبير الأندلسي م ٦١٤هـ ، ط بغداد ، ص ٢٣٠ .
- (١٢٩) فرقة الأصناف إشارة إلى الفرقة التي احترف أتباعها الفتوة ، وكانوا من أهل الحرف والصناعات ، فلم يعتبروا من الجديدين بالانضمام إلى جماعة الفتوة ، خاصة منذ تطبيق نظام الفتوة الناصري ، ورغم زوال نظام الفتوة إلا أن آثار احترام الفتوة ظل باقيا من الشرق إلى الغرب ، ونال الأصناف الاحترام والتقدير في البلاد العربية وفي إيران وغيرها وقد أطلق عليهم لقب غازي وأبدال وخدام المجتمع ، وقيل لهم قزلباش أي أصحاب الطواقي الحمراء . انظر فكر ونظر عدد مايو ١٩٧٠م ، ص ٨٥٢ وما بعدها .
- (١٣٠) قد كتب عبد الله مستوفي في كتابه شرح زندكاني من مجلد ١ ، صفحة ٤٠٨ - ٤١٨ أن نشاط هذه الجماعة ظل موجودا في مدن إيران وخاصة في مدينة مشهد وكان يطلق عليهم داداش مشهدي أو اخوة داداش . ومن العجيب مثلا أن فتيان طهران ظلوا لفترة يعملون طبقا لتقاليد الفتوة الناصرية مثل تربية الحمام وإكرام الضيف ، والورع والتقوى ، ورعاية الفقراء والتسامح ، وقد استمر وجود هؤلاء حتى أواخر زمان الدولة القاجارية (أوائل القرن العشرين) .
- (١٣١) انظر تذكره شعراء بنجاب ، ص ٢٧١ ، وتذكره شعراء كشمير نكملة جلد سوم ، ص ١٠٨٧ .

أهم المصادر والمراجع

بالعربية :

- أبو العلاء عفيفي ، الملامتية الصوفية وأهل الفتوة ط القاهرة .
- أحمد أمين ، الصعلكة والفتوة في الإسلام ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢ م .
- إدوين رايشاور ، اليابانيون ترجمة ليلي الجبالي سلسلة عالم المعرفة ١٣٦ الكويت إبريل ١٩٨٩ م .
- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ط استنبول .
- ابن بطوطة ، الرحلة ط بيروت .
- ابن جببر الأندلسي الرحلة ط بغداد .
- ابن الجوزي ، تلبس إبليس طبعات مختلفة .
- ابن الساعي (علي بن أنجب بن عثمان ابو طالب تاج الدين) الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير المجلد التاسع بغداد .
- ابن الطقطقي كتاب الفخري في الأداب السلطانية والدول الإسلامية ط القاهرة .
- أبو الفداء (إسماعيل بن علي بن أيوب) المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ أبي الفداء طبع استنبول .
- إينازو نيتوييه ، دكتور ، البوشيديو ، ترجمة غسان كنعان الناشر ١٩٣٨ م .
- إينازو نيتوييه ، دكتور : البوشيديو ترجمة نصر أبو زيد دار سعاد الصباح الكويت والقاهرة ، ط أولى ، ١٩٩٣ م .

تاكيشي سوزوكي ، ياباني في مكة ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشي
مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩ م .

جوزيف مندهام ، موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين ترجمة محمد غريب جوده
سلسلة الألف كتاب (الثاني) ١٩٤ القاهرة ١٩٩٥ م .

حسين مؤنس ، دكتور : الحضارة سلسلة عالم معرفة ٢٣٧ ط الثانية الكويت سبتمبر
١٩٩٨ م .

سمير عبد الحميد إبراهيم ، دكتور : الإسلام والأديان في اليابان ، مكتبة الملك عبد العزيز
العامة بالرياض . ١٤٢١هـ / ٢٠٠١ م .

عمر الدسوقي ، الفتوة عند العرب أو أحاديث الفتوة والمثل العليا مكتبة النهضة بالقاهرة
١٣٧٠هـ / ١٩٥١ م . .

كامل ناصر الشيبني ، دكتور : الصلة بين التصوف والتشيع مجلد ٢ ط بغداد ١٩٦٤ م .

محمد عماره ، دكتور : معالم المنهج الإسلامي دار الشروق بمصر ط أولى ١٤١١هـ /
١٩٩١ م .

محمود الطناحي ، دكتور : مستقبل الثقافة العربية القاهرة مايو ١٩٩٩ م .

مسعود ضاهر ، دكتور ، النهضة العربية والنهضة اليابانية سلسلة عالم المعرفة ١٥١
الكويت ديسمبر ٩٩٩١ م

ناجي متشيو ، الثورة الإصلاحية في اليابان ترجمة عادل عوض الهيئة العامة للكتاب
مصر ١٩٩٢ م .

بالأردية :

محمد إقبال : ديوان بال جبريل ط لاهور .

محمد رياض ، فتوت يا جوانمردي : مسلمانون كا ايڪ اجتماعي ورفاهي نظام (بحث

عن نظام الفتوة الاجتماعي في الإسلام) ماهنامه فكر ونظر لإبريل ١٩٧٠م

العدد العاشر المجلد السابع اداره تحقيقات اسلامي اسلام آباد باكستان .

محمد رياض ، نفسه عدد مايو ١٩٧٠م .

بالفارسية :

امير عنصر المعالي كيكائوس الزيارى ، قابوس نامه ط الثانية تهران .

ذبيح الله صفا ، دكتور : تاريخ ادبيات ايران جلد اول ط تهران .

سعيد نفيسي سرجشمه تصوف در ايران تهران .

عبد الله مستوفي ، شرح زندكاني مجلد اول ط تهران .

بالإنجليزية :

Basil Hall Chamberlian, Japanese Things, Tokyo 1985.

Inazo Nitobe, Bushido The Soul of Japan, Tokyo 1983 .

كلمة الدكتور سيد زين العابدين

إن منشأى ماليزيا ذلك البلد الإسلامي المتعدد الثقافات ؛ لذلك نحن نتفهم معنى التسامح ، ومن أجل معرفة الثقافات المتنوعة ونفهمها يجب علينا التسامح ، والتسامح ليس مهما فقط بل ضرورة في ماليزيا وذلك بسبب التعددية العرقية والدينية في البلد .

وهناك سؤال عام دائماً يأتيني حينما أخالط أصحاب الأعراق وكذلك الأمم والديانات الأخرى وهو كيف أقوم بواجبي تجاه الخالق؟!

فأنا أحمد الله على أنني نشأت مسلماً وخلقني الله مسلماً ، وهناك أمر مهم وهو ليس المهم من يملك الحقيقة ؛ ولكن الأهم هو كيفية التعايش مع بعضنا البعض مع اختلاف ثقافتنا ، ودياناتنا .

كيف أمكن أن أكون متأكد أنني على الديانة الصحيحة وأني أملك الحقيقة ، فالطفل البوذي مثلاً لديه القناعات نفسها ، فهم يعتقدون أنهم أصحاب الحقيقة .

إذن لا يوجد لدينا جوابٌ شافٍ إلا إذا كان هناك احترام لتلك الديانات ، وكان لدينا إيمان بالبحث عن الحقيقة .

والبحث عن الحقيقة والمعرفة لا يأتي من طريقة واحدة فنحن كمسلمين منهجنا الرجوع إلى الحقيقة من خلال الفقه الإسلامي ، ونحن في بلدنا تعودنا احترام الديانات الأخرى وهذا ليس مهما فقط بل ضرورة لتعايشنا معه .

إذن ما هو السياق والممدلول لكلمة (الرحمن) حينما نقول : «بسم الله الرحمن الرحيم» فهذا السياق يدل على الرحمة وهي تشمل كل بني البشر بغض النظر أكانوا مسلمين أو غير مسلمين ، وهذا هو السياق الرئيس الذي يجعل من الحوار حواراً بناءً .

وحتى حينما نقف عند ممدلول السياق السابق فإنه يدل على طلبنا النعم والفضائل من الله التي دائما نغفل عن الاعتراف بها ، ومع ذلك علينا ألا نصبح قلقين مما يحصل حولنا .

وعلى أن نفهم الإسلام ونعرف كيف نقدم واجباته للآخرين من حيث موقفه ووجهة النظر نحو الآخرين ، قد يكون السهل أن نحزن وأن نعبر بالبكاء عما يتحصل حولنا ، ولدينا ، لكن علينا أن ننظر إلى ذاتنا حتى نفهم كيف نتعامل مع الآخرين ، وهل حقيقة حاولنا أن نكون مسلمين؟! وهل بذلنا كل الجهود الضرورية حتى نفهم الإسلام ، ونتمثله في ذاتنا؟! بحيث نؤثر في أنفسنا وفي الآخرين ، ونأخذ موقفنا من الآخرين على أسس إسلامية واضحة .

إن التقدم التكنولوجي الهائل اليوم أصبح مشكلة لدينا إذ ابتعد الكثير عن الخط القويم بظنهم أنهم حصلوا على التقدم وأنهم متحضرون ، وهذا مفهوم جاء من بعض الثقافات الأخرى .

وحينما نعود إلى القرآن الكريم ، وإلى الحضارة الإسلامية ، فالسؤال هو كيف نتصرف كمتحضرين؟! هناك اتجاهات لهذا السلوك الحضاري ، فهناك الهدف من الوجود والحياة ونحن ننزعج حينما ننسى الهدف الأساسي الذي أراده الله بنا من هذا الوجود ، وابتعدنا عن المنهج القرآني والسنة الشريفة .

وأنا أدعو بالآ نهتم بما يقوله الآخرون عنا ، بل علينا أن نبذل جهداً جماعياً بأن ننظر إلى ذاتنا من أجل أن نفهم أنفسهم وكيفية تقديم أنفسنا للعالم من هذه الرؤية ، فنعرف

كيفية تقديم أنفسنا للمسلمين أولاً ، ومعرفة الحوار معهم على أسس إسلامية قويمة ؛ بهذه الطريقة يعرف العالم من حولنا الإسلام الحقيقي والمسلم الحقيقي كما جاء في القرآن .

علينا ألا نطالب الآخرين أن يفهموا الإسلام ونحن غافلين عن أنفسنا وعمّا يحدث لنا ، علينا أن نترك ذلك كله لله ، ونبحث عن الحقيقة .

فماليزيا تتسم بالتسامح والتفهم للثقافات المتعددة حتى إن بعض غير المسلمين يتصرفون ، وكأنهم إخوة لنا ؛ ولكننا لم نعط اهتماما لما يحصل حولنا في الخارج ، لا ننشغل بالتباكي لما يقوم به الغرب ، وليس بالضرورة أن كل ما في بلدنا سيء ، وأنا أقل من الغرب ؛ لأن كل الأمور بيد الله ويصرفها كيف شاء .

وأود أن أشير إلى السورة القرآنية التي تدل على أن لكل حدث حدثاً مقابلاً خيراً منه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب﴾ .

الإسلام وحوار الحضارات حول نحن والآخر

د. سيد محمد صادق الحسيني (*)

المستخلص

أجمع العرب على أن الاختلاف والمخالفة في اللغة تعني أن ينهج كل شخص طريقاً مغايراً للآخر في حاله أو في قوله والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين. وإذا تتسع مقولة الاختلاف والخلاف لتشمل مناحي كثيرة من الحياة، لكن الاختلاف يبقى سنة كونية لا مناص منها. وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في مناسبات عدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ (الذاريات / ٨) .

﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ (مريم / ٣٧) .

﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (يونس / ٩٣) .

﴿ولا يزالون مختلفين﴾ (هود / ١١٨) .

وعلى هذا يمكن القول بأن الاختلاف والخلاف يراد بهما مطلق المغايرة في القول أو الرأي أو الحالة أو الهيئة أو الموقف .

(*) الأمين العام لمنتدى الحوار العربي-الإيراني في طهران ، كاتب وباحث متخصص بالشؤون العربية والإسلامية والإيرانية ، درس في جامعات لبنان وألمانيا .

لا شك أن كل واحد منا يعرف أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس بعقول ومدارك متباينة إلى اختلاف الألسنة والألوان والتصورات والأفكار، وكل ذلك عادة ما يفضي إلى تعدد في الآراء والأحكام والمواقف والثقافات والحضارات... وهو ما يدل دلالة لا لبس فيها على أن إعمار الكون والأرض وما عليها لم يكن ليتم، كما هو حاصل لو أن البشر خلقوا سواسية في كل شيء.

قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ (هود- ١١٨-١١٩).

وهكذا نجد أن الاختلاف سنة كونية طبيعية، وإذا ما لتزم الناس بأدابها فإنها لا شك ظاهرة إيجابية، ولا يبدأ تحولها إلى مشكلة؛ إلا عندما تتحول معالجة الخلاف والاختلاف لتصبح نزاعاً وشقاقاً؛ فتذهب ريح الجماعات والأقوام، وتشيع الحروب، ويتشر الخراب والدمار في الديار.

القبول بالآخر شرط لاحترام الذات: قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ (الحجرات / ١٣).

فالإسلام هنا يعترف بالآخر وبشروط متساوية في الخلق والنشأة دون أن يحدد هوية الآخر، أو نمط تفكيره أو انتماءه، بل إنه يحدد سلفاً بأن معيار التقويم والخطأ والصواب والحساب والكتاب والثواب والعقاب كلها أمور تتلخص بالتقوى. وبمعنى آخر بتأثير سلوكيات ذلك الإنسان أيًا كانت أصوله وجذوره أو انتماءاته وارتباطاته.

وتكرر هذا المقولة التاريخية الخالدة في الأحاديث النبوية الشريفة للنبي محمد (ﷺ) وأقوال من اتبعوه من صحابة وتابعين في أكثر من مقام وموقع، وفي إطار يجمع على أن الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق. وهو من قبيل التأكيد

والإقرار على الحقوق المتساوية للجميع، لجماعات الرأي والرأي الآخر سواء كانت أقليات فكرية أو عرقية أو دينية لا سيما أمام الحاكم وأمام القانون.

أليس هو ذلك التشريع الإلهي الذي يرفض التمييز والفروق بين البشر من رعايا الدولة الواحدة، بل من رعايا المجتمع الدولي عموماً عندما يقول الحديث الشريف: «كلكم لآدم ولآدم من تراب» وكلنا يعرف كم هو آدم مكرم ومعزّز ومقدّر عند الله سبحانه وتعالى وكيف أنه مفضل على الملائكة أجمعين.

ضرورة تعميم ثقافة الحوار:

ونحن نعيش على عتبة الألفية الثالثة للميلاد فإن الحوار بات برأيي ضرورة عالمية لامتصاص منها ما دام الواحد منا جاد في سعيه نحو رفعة الإنسان في البيت وفي المدرسة وفي المعمل وفي القرية وفي المدينة وفي الوطن وفي العالم أجمع. ولما كان العالم يتجه نحو التكامل في المجالات كلها، وأضحى من المستحيل على جماعة أو دولة بمفردها أن تتحمل أعباء التطورات العلمية المذهلة وانفتاح الحدود في ظل ثورة الإعلام والاتصالات والمعلومات، وعلى الرغم من وجود دوافع أنانية للسيطرة والهيمنة واستغلال ظاهرة العولمة، إلا أن الحاجة للتكامل تجعل من ظاهرة الحوار حاجة ضرورية وماسة للجميع.

من جهة أخرى فإن شبح العدوان والحروب المتعددة التي ما تزال ترمي بظلالها على العالم وبعد مضي قرن مملوء بالمآسي والآلام الإنسانية استغل فيه كل شيء - حتى الدين في بعض الحالات - أسوأ استغلال فإن الواجب يستدعي الواحد منا للدفاع عن فكرة الحوار مع الآخر ومقولة التعايش معه بكل ما نملك من عقل وعاطفة، ليس فقط إيماناً بمبدأ الحوار كسنة كونية بل ومن أجل رفع الظلم الواقع بحق المبادئ والقيم الإنسانية وفي مقدمتها القيم الدينية الرفيعة والسامية، والتي يتم تشويهها للأسف الشديد على أكثر من يد وفي أكثر من مكان وعلى أكثر من منبر.

الإسلام وحوار الحضارات حول نحن والآخر

الاختلاف سنة كونية والتنوع أمر محمود :

أجمعت العرب على أن الاختلاف والمخالفة في اللغة تعني أن ينهج كل شخص طريقاً مغايراً للآخر في حاله أو في قوله . والخلاف أعم من الضدّ ، لأن كل ضدين مختلفان وليس كلّ مختلفين ضدين . وتتسع مقولة الاختلاف والخلاف لتشمل أحياناً المنازعة والجدل والجدال والمجادلة وما إلى ذلك . لكن الاختلاف يبقى سنة كونية لا مناص منها . وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم (وهو مرجع إجماع العرب قاطبة من حيث البلاغة والبديع والبيان أيّا كانت معتقداتهم وانتماءاتهم) في مناسبات عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر عدداً من الآيات الكريمة للتأسيس لمقولة أن الاختلاف سنة كونية لا مفرّ منها وهي :

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ [الذاريات ٥١/٨] .

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ [مريم ١٩/٣٧] .

﴿ إِنْ رُبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس ٩٣/١٠] .

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود ١١٨/١١] .

وعلى هذا يمكن القول : إن الخلاف والاختلاف يراد به مطلق المغايرة في القول ، أو الرأي ، أو الفعل ، أو الحالة ، أو الهيئة ، أو الموقف .

من جهة أخرى فإن كلاً منا يعرف تماماً بأن الله سبحانه وتعالى خلق الناس بعقول ومدارك متباينة ، إلى جانب اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتصوراتهم وأفكارهم ، وكل

ذلك عادة ما يفضي إلى تعدد في الآراء والأحكام والمواقف ، كما ورد في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم ٣٠/٢٢] الأمر الذي يؤكد بدوره أيضاً على دلالة لا لبس فيها ، وهي أن إعمار الكون ومنه الأرض وما عليها من رطب ويابس وحي وجامد ، لم يكن ليتم كما هو حاصل لو أن البشر خلقوا سواسية في كل شيء ، ذلك أن نتائج أفعالهم وممارساتهم وصنعتهم ومحصولهم لم يكن بالإمكان أن يأتي بمثل هذا التنوع المشهود والتمايز المعروف ، ولخلت الأرض وما عليها من كل أشكال التزاحم والتنافس والتعارض الذي نعيشه بكل جوارحنا على امتداد طول حياتنا وعرضها .

قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود ١١٨-١١٩] .

وهكذا نجد أن الاختلاف سنة طبيعية . وإذا ما التزم الناس بأدابه وأقروا بقوانينه ، كان ظاهرة اجتماعية إيجابية ، لأنه سيكون في سياق التكوين والخلق والنشأة الأولى . نعم المشكلة تبدأ فقط عندما يتحول هذا الاختلاف إلى نزاع وجدل وشقاق ؛ فتذهب ريع الأفراد والجماعات والأقوام ، وتفشل جهودهم ومساعيهم من أجل إعمار الأرض ومن عليها وما عليها ، وتشيع الحروب والخرائب في ديارهم مما يمكن اعتباره تضاداً مع السيرة الطبيعية للنشأة الأولى ، وتهديماً متعمداً لقانون الخلقة ، أو محاولة يائسة لفرض إرادة ضعاف الكائنات على سيد الكائنات الذي لا نظير له ولا قادر مثله على فعل ما يريد .

القبول بالآخر شرط لاحترام الذات :

قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات ١٣/٤٩] .

فالإسلام هنا عملياً يعترف بالآخر ، ويقر له بشروط متساوية في الخلق ومنذ النشأة ، دون أن يحدد هوية الآخر أو نمط تفكيره أو انتماءه . بل إنه لا يحدد معياراً للتقويم والخطأ والصواب ، وحتى الحساب والكتاب والثواب والعقاب ، إلا بمدى التزام الفرد والجماعة بمنهج قياسي واحد يمكن أن ينطبق على الجميع بشكل متساو ، ألا وهو التقوى . بمعنى آخر بنتائج سلوكيات الإنسان وحصيلته أعماله وأثار فعله وتداعياته وانفعالاته ، ومدى مواءمتها لمجموعة السنن الكونية العامة أيًا كانت أصول ذلك الإنسان وجذوره أو انتماءاته ومعتقداته التي تربي عليها .

وصدق رسول الله محمد الأمين ﷺ حامل كتاب الوحي ، وناقل الرسالة الخاتمة إلي البشر أجمعين ، عندما قال في هذا السياق أيضاً : «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد» .

وإنه : «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»

حيث يظهر مرة أخرى كم هي مفتوحة معايير التقويم والتصنيف للنشر على احتمالات الفعل والعمل الإنساني ونتائجه وتداعياته في كل مرحلة ، وحسب الظروف ، وإن القاعدة الوحيدة للتقويم تبقى هي مدى وحجم التقوى التي ترافق ذلك العمل ، وإنه لا شرط مسبقاً يضع إنساناً بعينه متقدماً على إنسان آخر نتيجة لنسبه أو جذوره العرقية ، ولا حتى انتماءاته أو معتقداته . وهلاً يُذكرنا هذا المعيار مرة أخرى بذلك التشريع الأزلي الذي يرفع الفروق والامتيازات بين الطبقات والجماعات ليس فقط من رعايا الدولة الواحدة بل ومن أبناء الإنسانية جمعاء ، وإنهم يتمتعون بكافة المميزات الإنسانية بشكل واحد كما ورد في الحديث الشريف المأثور عن النبي محمد ﷺ حيث يقول : «كلكم لأدم وآدم من تراب» .

وكلنا يعرف كم هو مكرم ومعزز ومقدر آدم عند الله سبحانه وتعالى ، وكم هو مفضل لديه حتى على الملائكة أجمعين . فإذا به يعيده إلى التراب وهو الوحدة البسيطة

التي لا ميزة طبقاتية أو فئوية فيها ، على الرغم من ميزته المركبة من حيث العناصر الفنية التي تحتويها من جهة ومن حيث تنوعها وعمقها من جهة أخرى .

وفي هذا السياق أيضاً لا بدّ من الإشارة إلى تلك الرسالة القانونية الشهيرة التي أظهرت بشكل مبكر شفافية الرسالة الإسلامية المحمدية تجاه حقوق الإنسان بشكل عام ومدى احترام الدين الإسلامي للآخر بالمطلق ، أيّا كان ذلك الآخر ، ألا وهي رسالة الخليفة الرابع للمسلمين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهو ابن عم النبي والقرآن الناطق كما يطلق عليه بعض المسلمين ، حيث يقول في رسالته الشهيرة إلى واليه على مصر الأمير مالك الأشتر : «ثم اعلم يا مالك . . فإنهم (الناس) صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» .

أليس هذا من قبيل الإقرار بحقوق متساوية للجميع من ذكر وأنثى ، وإلى أي دين أو مذهب انتمى . والذي هو بحكم معايير الفكر المعاصر الاعتراف بالرأي والرأي الآخر ، سواء كان الآخر من الأقليات الفكرية أو العرقية ، أو الدينية أمام الحاكم وأمام القانون؟! إنه احترام للذات وتكريمها وتقديرها قبل أن يكون احتراماً للآخر برأينا ، فمن يكرم نفسه ويحترمها حق احترامها هو الذي يحترم الآخر ويكرمه . فلولا الاحترام والتقدير البالغ لأدم سيد البشر لما كان كل ذلك الاحترام لكل من هو من صلب آدم من بني البشر من يوم بدأت الخليقة حياتها الأولية على هذا الكوكب حتى قيام الساعة .

ثقافة الحوار والاعتراف بالآخر ليست ترفاً فكرياً :

بعد أن بدأنا بالرأي القرآني والمدرسة الإسلامية التي تتادي بتنوع البشر واختلاف مشاريهم نأتي إلى ما يمكن تسميته بالضرورة العصرية لما نحن بصدد تكريسه مبدأً عاماً بشأن الاعتراف بالآخر .

أقول ذلك ونحن ندخل سنة حوار الثقافات والحضارات سنة بداية الألفية الثالثة للميلاد ، حيث العالم كله يتجه نحو التكامل في كافة المجالات ، وحيث بات من

المستحيل لجماعة أو دولة بمفردها تحمل أعباء التطورات العلمية المذهلة وانفتاح الحدود في ظل ثورة الإعلام والاتصالات والمعلومات .

نعم فالاعتراف بالآخر والإقرار له بخصوصية لم يعد مبدئيًا شأنًا دينيًا ، أو عقيديًا فحسب ، ولا نظرية متزعة عن الحياة العملية للإنسان ، بل حاجة ماسة في ظل الحضور الكثيف والفاعل للرأي والرأي الآخر ، وفي لحظة زمنية واحدة على مسرح الحياة اليومية في عالم باتت تحكمه نظرية العولمة الشهيرة . صحيح أن الدوافع الأنانية للسيطرة والهيمنة واستغلال ظاهرة العولمة من جانب بعض أصحاب النفوذ من القوى الكبرى تقضي باتجاه تسطيح وتنميط الفكر والرأي وذبح الخصوصيات والهويات الثقافية والفكرية وغيرها ، إلا أن الحاجة للتكامل تجعل ظاهرة الحوار حاجة ضرورية لا مناص منها حتى لأرباب نظرية القطب الواحد في الإدارة العالمية للعالم .

من جهة أخرى فإن شبح الحروب المتعددة والاقتتال الحربي والفكري والسياسي الذي يلقي بظلاله على العالم وبعد ما خلف وراءه من آلام ومآسي إنسانية لا تحصى ، حيث استغل فيه كل شيء حتى الدين ، وفي بعض الحالات ، أسوأ استغلال ؛ فإن الواجب يستدعي الواحد منا للقيام بمهمة الدفاع عن فكرة الحوار ومقولة التعايش مع الآخر بكل ما يملك من عقلانية وعاطفة معاً ، ليس فقط انطلاقاً من الإيمان النظري بمبدأ الحوار بوصفه سنة كونية معترفاً بها ، بل من أجل رفع الظلم الواقع بحق المبادئ والقيم الإنسانية وفي مقدمتها القيم الدينية الرفيعة والسامية التي يتم تشويهها يومياً ، وعلى أكثر من صعيد ، وعلى أكثر من يد ، وفي أكثر من مكان ، وعلى أكثر من منبر .

ولما كان نجاح أي حوار اختياري أو إجباري لا يمكن أن يتم من دون احترام الآخر والإقرار له بحق الدفاع عن رأيه وفكرته ، والإتيان بالحجج والبراهين والأدلة بكل حرية ، فإن الاعتراف بالآخر يصبح ليس من قبيل الترف الفكري بل لازمة من لوازم التقدم الإنساني دون تردد .

الله القادر يحاور إبليس العاجز :

كثيراً ما نسمع بأن الحوار والاعتراف بالآخر إنما يحصل بين ضعيفين أو قويين متساويين في القوة نظراً لاستحالة إجهاز أحدهما على الآخر أو قدرته على إلغائه وإقصائه أو دحض مقولاته . هذا في الوقت الذي تقوم فيه حضارتنا وثقافتنا الإسلامية بالأساس ، بل والنص الديني لدينا يؤيد ذلك ، على مبدأ الاعتراف بالآخر ، وإفساح المجال أمامه لتجذبه قدراته ، بل واستعراض عضلاته برغم معرفة صاحب الحق ببعجزه واستطاعته إنهائه برمشة عين أو بضربة واحدة .

إنها قصة الله تعالى القادر وصاحب قوة الفعل بمعادلة ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ تراه يصبر على إبليس ، الملك الذي رفض السجود لآدم ، وقرر التمرد على قدرة رب العالمين المطلقة ، بل ويفتح الباب واسعاً أمامه ليأخذ نصيبه من كل إمكانيات الدنيا وجبروتها للتهديد بتضليل من استطاع من العباد ﴿ لأَعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وطلب قبول التحدي بالقول ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ﴾ فيقول له الرب تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ [الحجر : ٣٦-٣٩] .

لقد كان بإمكان رب العباد أن يشطب القصة من أساسها ، وألا يذكرها بتاتاً في الذكر الحكيم ، لكنه أبى إلا أن تكون معلماً من معالم الاعتراف بالآخر ، وضرورة محاورته ، وفتح باب السجال معه ، ومنحه الفرصة المتكافئة أيّاً كانت مواقفه وقدراته حتى ليتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود في أثناء الحوار ، وبالتربية العملية الملموسة وليس من باب القطع النظري المسبق بصحة هذا الموقف أو ذاك .

إن من يرجع إلى مصادر الذكر الحكيم في هذا السياق يرى أن هذه القصة ليست الفريدة من نوعها ، بل إن مرجعية الاختلاف ، والتعددية والتنوع في القرآن الكريم تعتمد على سنة كونية تحكم كل أعمالنا وسلوكياتنا نحن البشر بالإطلاق ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ

مَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿سبأ ٢٤-٢٥﴾ . فبرغم أن مصدر رزق الجميع هو الله كما تقرر الآية الآتفة الذكر لكن الله أبى إلا أن يترك باب الهدى والضلال مفتوحاً لبني البشر ، ليثبت بالفعل والممارسة من هو القادر على نيل الهدى من خلال التجربة الإنسانية ، وليس بالاختيار والانتخاب المسبق ، كما أن الحساب والكتاب ترك لله سبحانه وتعالى الذي يقف فوق الميول والاتجاهات وليس لبني البشر أنفسهم ليحسموا ثواب الهداية وعقاب الضلال!

إنها قمة التعددية والتنوع والانفتاح على الرأي والرأي الآخر في ثقافة القرآن المفتوحة على احتمالات الخطأ والصواب دون حساب ، ومن قبل من؟ من جانب من يعلم الغيب ويعرف مصير وعاقبة كل دابة تمش على الأرض ، وليس بني البشر فقط!

الله الذي ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن ٥٥/٢٩] خالق الأضداد المتعايشة ، خالق النور والظلام ، خالق النهار والليل ، خالق الخير والشر ، خالق الوجود والعدم ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، والقادر على أن يفعل بقاعدة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ كما أسلفنا أبى إلا أن يترك الحياة أمام الإنسان مفتوحة في تنوعاتها وأضدادها وتشعباتها وتعقيداتها دون حسم الخيار على آخر سلفاً ، بل جاعلاً ذلك من عواقب الأمور وخواتيمها وليس من بداياتها . فلو كان الناس أمة واحدة لفسدت أرض ومن عليها . حتى وهم يبحثون عن الحق والحقيقة المطلقة أبى المسلمون إلا أن يطلعوا على الحقيقة الموضوعية أولاً ، وتثبيتها إقراراً واعتراضاً ، ومن ثم الإعلان عن التوصل إلى الحقيقة وفرزها عن الباطل . جاء ذلك قبل نحو ثلاثة عشر قرناً قبل ظهور فلسفة هيغل الألمانية الشهيرة الخاصة بالمادية التاريخية والمادية الديالكتيكية ، على لسان نبينا الكريم محمد رسول الله ﷺ حيث قال : «اللهم أرني الأشياء كما هي ، وأرني الحق حقاً وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه» .

وكما نلاحظ كيفية تقديمه لضرورة رؤية الأشياء وتسجيلها كما هي أولاً ، ومن ثم الإعلان عن الحق وفرزه عن الباطل . وهي نظرية متقدمة وفي غاية الدقة والشفافية في الفلسفات المعاصرة للقرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين .

إذن وعلى الرغم من معرفته المطلقة سبحانه وتعالى بمصيرنا وخواتيم أعمالنا فقد ترك لنا أن نجرب بأنفسنا خياراتنا نحو السلم أو الحرب ، مثبتاً لنا حقنا في صناعة الكوارث والمصائب الإنسانية ، أو صناعة التعايش والوئام ، وإشاعة المحبة والوداد . أن ننزل إلى مستوى الشيطان البائس الغارق بظلام العبودية والأحقاد ، أو نرتفع ونسمو إلى درجة خليفة الله المفضلة على الملائكة .

ملاحظات في الإبداع والخصوصية والرأي الآخر :

إن قراءة متأنية وعميقة لتطور الفكر الإنساني عبر العصور المختلفة في سياق ما نحن فيه من نقاش تقودنا إلى ما يلي :

أولاً : إن طرق الوصول إلى الحقيقة متعددة ومتنوعة ولا تعد ولا تحصى ، وكما يقول الحديث العرفاني الشهير : «إن طرق الوصول إلى الله بعدد أنفاس الخلائق» . وبالتالي لا بد من الإقرار بوجود الرأي والرأي الآخر بوصفه حقيقة لا يمكن تجاوزها بأي حال من الأحوال ، أيّاً كان رأينا بهذا الرأي أو ذاك .

ثانياً : إن المقولات الدينية الأصولية ، أو القومية ، أو الوطنية ، أو العقائدية ، أو الإيديولوجية ليست مشكلة بحد ذاتها بقدر ما هي المشكلة بقراءتنا الأحادية لهذه المقولات ، وما ينتج عنها من تخندقات عصبوية خلف هذه القراءة أو تلك . وبالتالي فإن إشاعة قراءات متعددة ومتنوعة لكل مقولة من شأنه أن يفتح الباب أمام الإبداع الإنساني وقدرة بني البشر على الابتكار والتجديد ، وهو ما يميزهم عن سائر الأحياء والموجودات . ومن يحترم إبداعه الإنساني هو الذي يقر بإبداع الآخرين ويحترمهم ،

ومن لا يحترم إبداع الآخرين يسقط في داء احتقار الذات ونفي إمكانية الإبداع الإنساني بالمطلق . وهذه آفة البشر التي تدفعه إلى الاستبداد بالرأي ونفي الآخر .

ثالثاً : إن التطور البشري قد وصل في عصرنا الراهن إلى درجة معينة من (الكمال الإنساني) النسبي ، مما يفرض علينا احترام عقول البشر ، واحترام المواثيق والعهود الخاصة التي توصلت إليها الإنسانية في دائرة حرية التفكير والتعبير والرأي ، مما يجعل تالياً ضرورة اعتبار مثال هذه الحريات والمواثيق الخاصة بها أشبه بالدساتير والقوانين التي تحكم سلوكياتنا تماماً ، كما تتحكم الدساتير وقوانين كل بلد مسيرة مواطني ذلك البلد وحكامهم .

رابعاً : إذا كان لا بد من قبول ثوابت معينة في مجال التشريع الكوني القائم على الأديان ، فإنه لا بد من إبقاء الباب مفتوحاً دائماً وأبداً للعقل البشري ليدع ويجتهد في باب الإدارة اليومية لحياته وسبل تطوير معيشتة بعد انقطاع الوحي والرسل تماماً كما ورد في الحديث الشريف عن الرسول ﷺ : « أنتم أدرى بإدارة شؤون دنياكم » .

الأمر الذي يطرح مسألة حق تقرير المصير للأفراد والجماعات والشعوب والدول حق مقدس لا ينبغي المساس به .

خامساً : أيّا كانت ضرورات التأكيد على وجود وحدة في المرجعيات الدينية والفكرية حفاظاً على النص الديني أو الفكري الجامع للهويات الحضارية و(الفكرية والثقافية) وفي العصور المتأخرة الوحدات السياسية ، فإن احترام الخصوصيات الفردية والجماعية الثقافية منها والدينية والحضارية وكذلك العرقية والقومية من شأنه أن يشحذ الهمم الإبداعية ، ويسهم عميقاً في رفعة البحث عن الحقيقة وتوقد الفكر البشري عموماً للحؤول دون حصول (التخندقات) حادة حول هذه الخصوصيات القومية أو الدينية وردع مساوئ هذه (التخندقات) الإجبارية يمكن إشاعة نوع من القراءات لمتصالحة بين الدين

والقومية من جهة ، وبين الدين والعلم والعقل البشري من جهة أخرى ، وكذلك بين السلطة السياسية والرأي العام عبر إشاعة ثقافة المشاركة الجماهيرية بما يؤسس لمصالحات تاريخية باتت ضرورية على المستويين المحلي والعالمي بين المستويات المختلفة للحكم وصناعة القرارات الدولية تصلح إطاراً لحوار شامل بين الثقافات والحضارات .

سادساً : من أجل المحافظة على «طهارة النص الديني وقديسيته» وفتح باب الاجتهاد والتفسير والمناورة أمام واضع القوانين اليومية الملحة في القضايا المستحدثة لا بأس من استبدال قاعدة «أن تكون القوانين الموضوعية متطابقة مع النص الشرعي» وهو أمر غالباً ما يكون عسيراً للغاية إن لم يكن مستحيلاً في حالات عديدة . بقاعدة : «ألا تكون متعارضة مع النص الشرعي» .

سابعاً : لمواجهة مشكلة ما يسمى بالأقليات الدينية في بلادنا ، ولا سيما مع أهل الكتاب من المسيحيين في إطار الاعتراف بالآخر والإقرار له بكل شروط الحوار على قدم المساواة ، لا بد لنا من الإقرار أولاً برأبي بأن إخواننا المسيحيين لا يختلفون كثيراً عنا في نشأتهم وتربيتهم الثقافية والحضارية ، بل يكاد المرء أن يصفهم بأنهم «مسلمون يذهبون إلى الكنيسة» لشدة ارتباطهم بالثقافة والحضارة الإسلامية . وأنهم ينهلون مما نهل منه منذ طفولتهم وصولاً إلى شيخوختهم . المهم كيف نتعامل نحن ، المسلمين ، مع أهل هذه الديانة التوحيدية؟ وكيف يجب أن نعترف لهم بخصوصياتهم وعدم استفزاز مشاعرهم وأحاسيسهم ، بل واعتبار شكل الديانة التي يحملونها نوعاً من القراءة الخاصة المختلفة والتممايزة عنا للحضارة والثقافة المشتركة ، بل ولدين هذه الأمة الواحد بالأساس ، لاشتراك الديانات التوحيدية في جوهرها الإيماني .

ثامناً : الشيء نفسه يمكن تطبيقه على ما يسمى بالأقليات العرقية إلى حد كبير أيضاً ، وذلك عندما نقل المشكلة من قضية حدود وأوطان وسياسة مقبنة في الغالب إلى

قضية ثقافية يجب حلها في إطار الحضارة الواحدة التي تستوعب التنوع في الوحدة . وبهذا يتم الانتقال من مستوى ممارسة القمع والاضطهاد ضدهم نظراً لكونهم من أبناء الأطراف ومواطني الهامش ومواطنين من الدرجة الثانية والثالثة إلى مواطنين من الدرجة نفسها! يخترنون ثروات فكرية ومادية هائلة يمكنها أن تشارك المركز في صناعة القرار وصياغة النهائية وإغنائه ، بدلاً من ممارسة الهيمنة والتعالي من جانب أبناء المركز ضدهم لا لشيء إلا لأنهم يعيشون في الأطراف ، ولم تتوفر لهم إمكانات المركز العاصمة!

تاسعاً : إن ديننا وإسلامنا يحثنا على السؤال والشك قبل الحصول على المعرفة والحقيقة واليقين ، في أكثر المسائل خطورة وجدية وأهمية ، بما فيها التوحيد ، وليس فقط في المبادئ البسيطة . وفي إطار الدفاع عن الرأي والرأي الآخر ، ومنعاً من قيام مجتمعات أو حكومات استبدادية تعبت بفكر الأمة وثقافتها ، لا بد لنا من شحذ همم النخب المثقفة ودفعها إلى تعميم ثقافة المساءلة بين الناس ، ورفع لواء : أن مجتمعاً لا يسأل مجتمع ميت ، وأن توسيع المدارك المعرفية والعقلية لا يتم إلا عبر السؤال .

عاشرأ : إن نموذج بعض بلداننا ، وخاصة نموذج لبنان الدولة والمجتمع الأكثر التصاقاً بفكرة ومقولة التعايش مع الآخر ، يُقدم لنا يومياً أروع لوحة جمالية من لوحات الإبداع الإلهي للعيش المشترك البديع بين الثقافات والمذاهب والديانات والحضارات ، كما يصلح لبلورة مفهوم بديع للمواطنة العالية الذي يقوم على أساس الجوهر الإيماني الواحد للأديان والمعتقدات ، والذي ينبغي لنا أن نرعه بوصفنا مثقفين لعل في ذلك إمكاناً لقيام نظام سياسي إنساني بديع فريد ومتميز من نوعه يصلح نموذجاً قابلاً للتأمل ، بل وربما قابلاً للتعميم على امتداد العالمين العربي والإسلامي .

ثقافة قبول الآخر خيار المصالحة :

بين المثقف والسياسي :

استناداً لما سبق من مداولات بشأن احترام الرأي والرأي الآخر لا بد من التسجيل بأن نظرية قبول الآخر هي جزء لا يتجزأ من ثقافتنا وحضارتنا وديننا الحنيف ، وأن نجاحها ونجاحتها في حل مشكلة السلطة والرأي العام في بلادنا في تعاملهما مع الآخر الثقافي أو الفكري أو السياسي غير ممكن إلا من خلال فصل نظرية قبول الآخر عن السياسة والسياسيين ، واعتبارها مقولة ثقافية فكرية حضارية يتم التعامل معها بعيداً عن الشأن السياسي اليومي المتلوث والقائم على المصالح المؤقتة والطائرة . ولا بد أيضاً من تعميم ثقافة تحمل الآخر والتعايش معه والدفاع عن حقه في التعبير عن نفسه ما دام يلتزم قانون التعايش والحوار .

وفي هذا السياق لا بد من إفهام الحكومات أياً كانت طبيعتها أو المعتقدات المعلنة التي تنتمي إليها في الوطن العربي والإسلامي بأن رسالة المثقف في بلادنا أياً كان انتماءه الإيديولوجي أو السياسي ليست المدح والثناء والتمجيد والتطويل والتبجيل والتزوير للحاكم ولأرباب السيف والسلطان أبداً . بل إن رسالة المثقف الحقيقي تكمن في توسيع المدارك العقلية والعاطفية والحسية للمواطنين وإيجاد التوازن والتعادل بين العقل والعاطفة والتنبيه لاحتياجات البشر الطامح نحو الكمال من خلال المشاركة الفعالة على كافة المستويات .

ولا بد للحاكم أي حاكم أن يدرك بأنه طارئ ومؤقت مهما طال أمد حكمه ، ذلك لأن الدار والوطن والدولة والقطر والبلاد ستظل لأهلها من أبناء الرأي العام من الأمة ونخبها الفكرية والثقافية ، أصحاب الحق الشرعيين في الحكم بما هو صناعة قرار إلى جانب جمهور الرأي العام ، وأن الحاكم إنما يحكم باسمهم لمدة بصورة اعتبارية ، وفي

إطار عقد اجتماعي لا أصالة له ، بعيداً عن تواقع أهل الدار الحقيقيين ، وخير من يمثل أهل الدار ويعبر عن مشاعرهم وأحاسيسهم واحتياجاتهم هم أصحاب الفكر والرأي والقلم من الفنانين والأدباء والمثقفين ، أو هكذا يجب أن يكونوا ، وأن واجب الحكام أن يرجعوا إلى أهل القلم وأرباب الفكر والثقافة لفهم أوضاع البلاد ، وأوجاع أهلها وآلامها وأفراحها ، وأنه في غير ذلك سيضطر المثقفون لمراجعة الحكام وأرباب السلطان ، لإيصال صوت الشعب إليهم وعندها غالباً ما يتوصل هؤلاء لمثقفينا بالفساد (والإفساد) وعند ذلك فبئس المثقفين وبئس الحكام .

وهنا لا بد من إفهام الحكام بأن عظمة أي حكومة وإبداعها في إدامة حكمها لبعض الوقت على قاعدة مستقيمة لا يكمن في مدى قدرتها على إظهار المجتمع هادئاً ومستقراً وبلون واحد من خلال قمع الرأي الآخر بالقوة والسيف ، بل في قدرتها على التعايش مع الآخر واستيعابه في مقولة التنوع في الوحدة وتحمله باقتدار .

وأخيراً وليس آخراً في هذا المجال والسياق فإنه قد يكون مطلوباً منا على المستوى العالمي . مثقفين عرب أو مسلمين ألا ننبهر بالآخر القادم من خارج دائرتنا الحضارية فنستسلم له ونذوب فيه ، كما لا ينبغي أن نرفضه أو نقاطعه أو نفيه أو نظرده ، من ذاكرتنا ونرفض التعامل معه ، بل التصرف معه على اعتباره أمراً بين أمرين ، أن نعترف به ونقرّ بحقه في الوجود والتعبير عن ذاته ، كما هو لا كما نشتهي ، وأن نقبّس منه ما يفيدنا على أن تتمسك بجذورنا وتراثنا وأصالتنا . أي أن نمزج بفعالية وحيوية بالغتين بين التراث والأصالة من جهة والتجديد والحداثة من جهة أخرى . بين الجذور والفروع والأعصان والتي هي بالمناسبة من نتاج البشرية كلها وملك لنا جميعاً ، بعيداً عن كل أنواع القيمومة الاثنية أو السلالية أو العنصرية الاستعلانية ، وذلك في إطار التواصل البشري المفتوح والدائم بين الثقافات والحضارات .

وفي ختام هذا الجزء من البحث لا بأس من الاستئناس بأبيات من الشعر العربي القديم الذي يؤكد ضرورة معرفة الآخر لإغناء الذات وتجديد حيويتها ، قال الشافعي :

تغرَّبَ عن الأوطان في طلب العلا وسافرُ ففي الأسفار خمسُ فوائد
تفرَّجُ همُّ واكتسابُ معيشةٍ وعلمٌ وآدابٌ ، وصحبةُ ماجد
أو كما قال الشاعر الكبير أبو تمام :

وطولُ مقامِ المرءِ في الحيِّ مخلُوقٍ لذيَّابته به فاغترب تتجدد
فلأنني رأيت الشمس زيدت محبةً لدى الناس أن ليست عليهم بمرمد

التعددية والحركية لازمتا العقل البشري أيضاً :

منذ دخولي المبكر في حركة المجتمع وأنا أسأل نفسي بصوت منخفض ولكن بالبحاح شديد السؤال الذي ظل يلاحقني بعد ذلك طوال مسيرة حياتي الفكرية والسياسية حتى سمعت ما طمأنني نسبياً من عدد من أصحاب الرأي ، وآخر ما سمعت هو ما سمعته نقولاً عن المرحوم الدكتور عباس محمود العقاد . والسؤال هو :

لماذا انقطع الوحي عن البشر عند خاتم الأنبياء محمد ﷺ ؟

وماذا يعني انقطاع الوحي ، وانتهاء عصر الرسالات الربانية ، وزمن المعجزات الإلهية ؟

بيني وبين نفسي كنت أجيب دائماً بأن الله سبحانه وتعالى ، وهو الأدرى بسننه والمخلوقات كافة ، لا بد أنه أعرف بسر هذا الخلق وتالياً بسر الانقطاع ودلالاته ، وعليه فإنه لا خوف على البشرية من التيه والضلال ، خاصة وأنها قد تعلمنا منذ نعومة أظفارنا بأن الله العالم بكل شيء عالم الغيب والشهادة ، قد ختم وحيه ورسالاته بدين جاء للبشرية أجمعين وللعالم كافة ، وإنه صالح لكل زمان ومكان ، وبالتالي فإن الحلول لكل شيء ، لا بد ، موجودة ومتوافرة بإذن الله .

لكنه ومع مرور الزمان وتطور مراحل الوعي وكثرة التحديات وتسارع حركة الأحداث والوقائع وانفجار ثورة المعلومات كانت التساؤلات بدورها تتزايد وتتنامى ، وصار السؤال المركزي يكبر ويكبر حتى بات يقلقني ، إذ لم يعد الجواب التقليدي ، مهما كان صحيحاً يكفيني أو يروي عطشي لمزيد من المعرفة والاطلاع ، إلى أن بدأت تتبلور لدى الفكرة القائلة بأن الله سبحانه وتعالى وهو علام الغيوب ، ما كان ليُقدم على قطع الوحي عن عباده ، وينهي رسالاته ، لولا أن يكون ابن آدم قد وصل إلى درجة عالية من الوعي والإدراك والقدرة على الاستنباط بما يجعله مكتفياً بآخر رسالة بيّنة واضحة وجامعة مانعة بين يديه وهي رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ ، تجعله مستغنياً عن ظهور رسالات جديدة ، واتصال مستمر بالوحي عن طريق أنبياء جدد ، والله أعلم .

وظلت الفكرة تكبر وتنمو وترشح حتى سمعت بأن العقاد - رحمه الله - قد كتب في أحد مؤلفاته واصفاً العقل البشري بأنه : « آخر الأنبياء » - (مجازاً بالطبع) دون أن يعني ذلك تجرؤاً أو تحريفاً بخصوص الدين ، ذلك أن معنى كلمة النبي تحمل في طياتها تبادل الذهن إلى الاتصال بالوحي في حين إن المقصود هنا المرجعية المادية لا غير - الأمر الذي أضفى اطمئناناً زائداً على نفسي وروحي وعقلي المحدود .

ولا بد أن مقصود العقاد من هذه العبارة وهذا التحليل أن العقل البشري بات قادراً على استنباط أو استنتاج الحلول الناجعة للقضايا المستحدثة التي تطرأ على حياة الإنسان في العصور المختلفة انطلاقاً من قوة الأصول الدينية الجامعة والمانعة التي باتت متبلورة في الرسالة الخاتمة .

أردت في الواقع من خلال استعراض هذه الفكرة أن أدخل بمقولة الاعتراف بوجود الآخر واحترام رأيه ، والإقرار بقدراته من زاوية أخرى مختلفة عما ذهبنا إليه في الصفحات الماضية . حيث اعتمدنا النصّ الديني داعياً لقبول الآخر مستنجدين به للبرهنة على صحة نظريتنا فيما نحن الآن بصدد البحث عن مصاديق تتعلق بتجربة الإنسان النسيية .

فماذا تقول تجربة الإنسان العاقل الذي فضله الله سبحانه وتعالى حتى على ملائكته بالعقل مميزاً بينه وبين سائر الأحياء والموجودات ؟

منذ اللحظة الأولى التي يدخل فيها الإنسان إلى ساحة الحياة وحتى قبل أن يكبر عقله ويكتمل ، أي منذ لحظة ولادته ، تراه ينتقل من عالم أحادي ليس فيه أي تنوع أو تعدد إلى عالم شديد التنوع وحافل بالتعددية ، من عالم مظلم وأحادي التغذية ومتعادل الحرارة ودون أن يشعر حتى بوزنه لسباحته داخل ذلك الماء الداخلي في بطن أمه ، وقبل كل ذلك وبعده عالم لا أحد فيه إلا هو وحده ، إلى عالم غريب جديد شديد التحول والتعدد والتنوع والتلوث ، عالم فيه عدد الآخرين من غيره يبلغون مالا نهاية ، والتغذية فيه متنوعة الأساليب والأقنية ، والحرارة فيه متغيرة ومتذبذبة في صعود ونزول ، والنور فيه يتناوب مع الظلام ، والخشونة فيه إلى جانب النعومة ، بل حتى أمه التي اعتاد عليها وهو في بطنها أن تكون أحادية المسلك معه ، لا تغذي غيره ، باتت بعد ولادته الثانية إذا ما اعتبرنا ولادته الأولى خلقه نطفة داخل بطن أمه ، منشغلة عنه في كثير من الأحيان بأمور ومسائل أخرى . إنه العالم المتعدد في أشكال الحياة والذي كلما كبر الإنسان وكبرت مداركه ، ونمت سوف يراه مع الأيام غير قابل للتحمل والاستمرار إلا بقبول الآخر ممن هو مثله أو نظير له أو نذّ منافس ، بل إن خروج الجنين من بطن أمه بعد تسعة أشهر خير دليل على أنه لو لم يفعل ذلك سيموت ، وربما سيقتل أمه معه إذا لم يخرج للتعایش مع الآخر .

وكلما تقدم الإنسان في العمر وكبر في هذا العالم الجديد يكشف مع الأيام بأنه حتى وهو يعيش حالة العائلة الواحدة التي تجمعه في إطار وحدة منسجمة ومتناسقة نسبياً تتحول مع الزمن إلى ارادات متفاوتة ومتمايزة ومختلفة ومتعددة الميول والاتجاهات إنها سنة الحياة التي لن تجد لها تبديلاً .

ومع الأيام نكتشف أن كل شيء من حولنا يتحرك ، ويتغير ويبدل جلده باستمرار متحفظاً للعب دور جديد . وحيثما نولي وجوها نرى أن بني آدم في سعي وجهد مستمرين

لتطوير العالم وإعادة بنائه ، بل وإعادة صياغته والتحديات لا تنتهي ، وما قد يغفل عنه بعضنا في مكان ما أو في مرحلة زمنية ما نراه موضع توجُّه والتفات آخرين .

ويلتقط الإنسان قاعدة الخطأ والصواب باحثاً عن الحقيقة معتمداً على تلك الجوهرة التي لا تعوض ولا تستبدل بكل جواهر الأرض والحياة المادية ، إنها العقل وملكة التفكير التي تصنع القرار والقرار المضاد بين اللحظة واللحظة الأخرى . ويستنفر الإنسان كل ما لديه من قوى الاجتهاد لاثباتها وتكريسها في كل لحظة .

وما السعي للاستنباط والتفسير والتحليل من أجل إعادة البناء من جديد ووضع الحلول العصرية المناسبة لكل قضية مستحدثة إلا تأكيداً لهذه الحقيقة الساطعة . نعم قد يخطئ وقد يصيب . ولكن ما الحيلة أمام تغير وتحول وتطور اللحظات التاريخية أمامنا في زمن انحسرت عنه المعجزات ، ولا مجال فيها للقيام بأي نوع من أنواع القفزات الإعجازية؟

كما أنه لم يعد بيننا من يوحى إليه بالحلول الربانية الجاهزة .

صحيح أن فينا ومن بيننا من هم أقدر من غيرهم على استنباط أو اجتهاد الحلول المناسبة لكل قضية ، خاصة منهم من هو أقدر على استلهام مبادئ الوحي وعقائد الشريعة والرسالة الخاتمة وسائر مقومات الدين القيم وأعمدة التراث ومصادر التشريع والمعرفة الدينية ، ولكن أليست كل هذه الجهود والاجتهادات ومهما علت وتعالَت تبقى أسيرة العقل البشري المحدود؟!

ولما كان المطلق في أفكارنا بات مفقوداً بعد تجاوز مرحلة الاتصال المباشرة بالوحي ، ومع ابتعادنا المتزايد عن زمن الوحي ألا يعني ذلك أن من واجبتنا إفساح المجال بحجم أوسع لدائرة العقل لأن تلعب دورها في قيادة دفة التحولات وإدارة شؤون العباد؟! ويصبح الأمر أكثر إلحاحاً مع كل يوم يمر علينا ، ونحن ندخل عصر المعادلات السياسية

والاجتماعية والثقافية والفكرية والاقتصادية المركبة ، وكذلك عصر التحولات الأدبية والفنية والحسية الشفافة والشديدة الحساسية ، وعصر ثورة المعلومات التي تطلق في كل ثانية آلافًا بل مئات الألوف من القضايا المستحدثة كما يسميها الفقهاء من الأشياء والوقائع والأحداث والقضايا والملفات التي تتطلب اجتهادات جديدة ومستحدثة .

فهل يمكن للعقل البشري المحدود لفرد واحد أن يتصدى لهذه القضايا مجتمعة ؟!

ومن خلال مرجعية أحادية أيًا كان اسم تلك المرجعية وصفتها أكانت مرجعية الحاكم الواحد أم الحزب الواحد أم الدولة الواحدة أم حتى المرجع الديني الواحد؟!

باختصار شديد إن تفعيل هذا «النبي الجديد» الذي اسمه العقل ، وهو الوحيد المتبقي لدينا في زمن انحسار المعجزات وانقطاع الوحي ، يبدو غير ممكن إلا بتفعيل لازمتين اثنتين إلى جانبه .

الأولى : وهي الاعتراف بوجود الآخر أيًا كان هذا الآخر وكيفما كان وبالعقد والحجم الذي يكون عليه ، إنها التعددية الإجبارية التي من دونها لا يمكن تفعيل مجموع العقل البشري . وبها فقط نمارس قانون الخطأ والصواب بأقل الخسائر الممكنة ، وعن طريقها فقط نكتشف الضد ونقيضه ، ونتعرف على نسبية صحة نظرياتنا أو خطئها ، بل وبها فقط نعيش تلاوين الحياة وأبعادها المختلفة ، نتوازن ونتزن ونسلم ويسلم المجتمع من أخطار وأمراض كثيرة ، ليس أقلها عمى الألوان ، وفقدان البصر ، وضعف البصيرة .

واللازمة الثانية : هي الحوار ، الحوار بين الشيء وضده ، بين الفرد والآخر ، بين الجماعة والآخرى ، وعلى مستوى المجتمعات والدول والأمم ، داخل الأسرة الواحدة والحزب الواحد ، كما داخل الشعب الواحد والإقليم الواحد ، والمنظمة الإقليمية والعالمية الواحدة ، وفيما بين ذلك جميعاً . فبالحوار وحده نستطيع اكتشاف ذاتنا أولاً ، والتعرف عليها جيداً ، وتحديد أحجامنا وقدراتنا وإمكاناتنا ومن ثم تطوير أنفسنا للحاق

بركب التحولات والتطورا ، بينما الانغلاق والانعزال أو الانطواء على النفس قد يخسرنا ذاتنا ويضيع علينا فرصة البرهنة على صحة نظريتنا ، ناهيك عن اكتساب المعارف الجديدة وإضافتها إلى ما نملك من ذخائر . وفي خطوة متقدمة أكثر استحالة قدرتنا على مواكبة اللحظة التاريخية التي نعيش ، تلك اللحظة التي تتطلب ليس فقط الاعتراف بالآخر والإقرار له بحق الحياة ، بل والتعايش معه ومشاركته في صناعة الحاضر والمستقبل في إطار من القواعد والمعادلات التي إن لم نسهم في صياغتها وصياغتها فإنها ستفرض علينا فرضاً . من هنا يصبح الاعتراف بالآخر ومحاورته وقبوله شريكاً في صناعة القرار ، حكماً عقلياً بمستوى الأحكام التعبدية التي نقبلها جزءاً من مبادئ ديننا الحنيف ، إنه جزء من قانون التنمية والبناء وال عمران ، إنه ليس فقط من المبادئ النظرية التي يجب أن نسترشد بها ، بل مسلمة تاريخية لا يمكن التجاسر عليها أو الخروج عليها حتى من قبل أعتى المستبدين من رجال الهوى والسلطان ، إنها السنة الكونية التي لن تجد لها تبديلاً .

نحن والآخر (الغربي)؛ وفاق أم افتراق؟

أن نكون مسلمين يعني فيما يعني أننا نسلم بما تفرضه علينا أحكام السنن الكونية المتحركة بحركة العالم بعيداً عن رغباتنا ، أو إدراكنا ، أو اسقاطاتنا الذاتية الخاصة بنا حول العالم . ومما تفرضه علينا السنن الكونية التي لا محيص عنها هو كون هذا العالم مليئاً بمن هو غيرنا ، ومن هو لم يسمع بنا ، ولم يتعرف علينا ولم نتعرف عليه نحن أيضاً ، لكنه برغم ذلك قد يكون مثلنا ، ويتحدث عن الشيء نفسه الذي نتحدث عنه دون أن يدري هو ، وأيضاً دون أن نعلم نحن بأنه يتحدث عن الشيء نفسه الذي نتحدث عنه .

فكما العالم المادي (غير العقلي) أو (غير العقلاني) متنوع ومتعدد الأشكال والصيغ والهيكليات ، لكنه يؤدي وظيفة واحدة ، ويعبر عن حقيقة واحدة ، فإن العالم البشري العقلي والعقلاني المتنوع والمتعدد في أشكاله وهيئاته يبدو أنه في النهاية يلهج بلغة

واحدة ، وإن تحدث بلغات متعددة . وفي هذا السياق ينقل أحد كبار العلماء نكتة ذات دلالة خاصة في هذا الباب ، مفادها أن ثلاثة فقراء من المسلمين ، فارسي ، تركي ، وعربي ، كانوا يجلسون على قارعة الطريق ، فمرَّ بهم رجل فتصدق عليهم بمبلغ من المال ، فقال الفارسي : لا نشترى به إلا (أكور) ، وقال التركي : لا ، بل نشترى به (رستخيس) ، وقال العربي : لا ، بل نشترى به (العنب) ، وتجادلوا كثيراً حتى كاد يصل جدالهم إلى الصدام ، حتى مرَّ بهم رجل يعرف اللغات الثلاثة فقال لهم : إنكم إنما تتكلمون عن شيء واحد! ..

إن تجربة العالم المعاصر التي تكاد تقرب الشعوب والأمم بعضها من بعض إلى درجة التماثل والتطابق (ولا تدخل القلة القليلة من أرباب المال والثروة والسلطان التابعين لحكومة «اليهود» الخفية التلمودية) تؤكد يوماً بعد يوم أن الإسلام ديناً ومنهجاً وقاعدة عمل بات متشراً في العالم سنة كونية متحركة في مسيرات الأمم والشعوب سواء بطريقة البحث للوصول إلى الحقيقة المطلقة ، أو بطريقة الإنجازات المترتبة على جهود ومساعي العلماء والباحثين والمفكرين ، أو بطريقة العيش اليومي الذي تمارسه شعوب الأرض المختلفة .

صحيح أننا قد لا نرضى أو نقبل أو نفر بالعديد من تصرفات وسلوكيات سكان العالم الآخر الذي نطلق عليه العالم الغربي ، باعتبارها تصرفات وسلوكيات لم تنشأ عن تعاليم الإسلام وإرشاداته ، التي نعرفها أو نظن أننا الوحيدون الذين نعرفها ، ولكن المتبحر بكثير من تلك التصرفات سرعان ما يجد فيها تصرفات أقرب ما تكون من دعوة الإسلام وندائه ، وهو ما يجعلنا نقول كما قال المفكر والمصلح محمد عبده ، عندما زار بعض بلاد أوروبا في القرن التاسع عشر قال : «رأيت أن الإسلام موجود عندهم من دون مسلمين ، هذا فيما نرى ساحات بلادنا خالية في كثير من الأحيان من الإسلام المقدم إلى الرأي العام برغم تكديس المسلمين في ثناياها وزواياها ومساجدها وتكاياها» .

وبرأينا المتواضع فإن صدق التعامل الذي نراه غالباً لدى الطبقة العليا من الناس في الغرب مجسداً دعوة الإسلام و(غش) التعامل الذي نراه أحياناً لدى الطبقات الموعلة في النهب باسم التجارة في الشرق مجسداً مخالفة صريحة لدعوات الإسلام والمسلمين إنما تشكل سلوكين معبرين عن حقيقة واحدة ، فالأول يأتي نزولاً واستسلاماً أو تسليمًا ليحقق الوعد الإلهي ، فيما الثاني تمرداً ووجوداً في مواجهة انقلاب أهل الدار والدعاة باسم الإسلام على قواعد الإسلام الحقيقية وسننه المفترضة .

من هنا فإنني على اعتقاد يمضي قدماً في الترسخ مع الأيام بأن إسلاماً ما قد يطبق في مجتمع ما من مجتمعات الغرب لا يعرف أهله بأنه الإسلام ، ولا نعترف به نحن المسلمين بأن الإسلام بسبب التعقيدات الطارئة على حياة البشر المعاصرة وتشابكات وصعوبات النسيج البشري المكون لكل مجتمع ، كما أن سلوكيات بعض مجتمعاتنا التي غالباً ما (نكفرها) و (نفسقها) ظناً منا بأنها قد خرجت عن الإسلام ليست في الواقع سوى علامة من علامات الخروج الإجباري لهذه المجتمعات على واقع ظالم ومجحف وهيمني يزعم رفع راية الإسلام ! في الوقت الذي هي فيه أبعد ما تكون عن الإسلام .

وتأسيساً على ما تقدم فإنني أكاد أجزم بأن الحل الأمثل في فهم حقيقة الشعوب والأمم يكمن في الإقرار سلفاً بوجود الآخر ليس فقط داخل كل واحد فينا وداخل مجتمعاتنا ، بل وداخل كل وحدة اجتماعية في العالم أياً كانت توجهات أهلها وانتماءاتها الفكرية ومعتقداتها . وتالياً فإن الإسلام الذي تعلمناه على أنه رسالة للعالمين وللناس أجمعين قد يكون قد وصل إلى العديدين من ديار غير المسلمين دون أن نحمله نحن ، كما أنه قد يكون قد غاب واختفى من مجتمعاتنا كما نظن فيما هو كامن ، بل ومرتسخ في داخل كل واحد فينا ، حتى وإن أظهرنا عكس ذلك في دعوتنا النظرية أو ممارساتنا العملية .

إن ذلك لا يتأتى لأحد منا إلا بالاعتراف بوجود الآخر وضرورة احترامه ومحاورته على قاعدة من المساواة ، وتكافؤ الفرص ، حتى يتم اكتشاف كنهه وحقيقة ميله واتجاه البوصلة التي يسير عليها .

من هنا فإن القول : إننا والغرب على طرفي نقيض يكون صحيحاً إذا ما كان المقصود تلك القلة القليلة من نخب الغرب التي ترفض الاحتكام للعقل (النبي) ، وأما الأكثرية ممن تعود يومياً في استنباطاتها وقراءاتها إلي العقل بوصفه مرجعية مقبولة وتتخذ من العقل مفتاحاً للتعامل مع الظواهر الكونية فنحن وإياها قد نكون على اتفاق في كثير من الأمور والشؤون ، بما فيها الشؤون الدينية إذا ما أحسنت استخدام العقل ، وأحسننا بدورنا استخدامه . وكما ورد في أحد الكتب المرجعية المهمة للمسلمين : «ما حكم به العقل حكم به الشرع والعكس صحيح» .

الأمر الذي يجعلنا نؤمن بإمكانية الوفاق مع من هم في عالم (الغرب) جغرافياً وتاريخياً وحضارياً . . شرط أن نلتزم بقواعد الحوار والتعددية ، وهو أيضاً أمر مسموح به ، بل ممدوح شرعاً ، وتتم الدعوة إليه باستمرار من خلال الآية القرآنية الخالدة :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران ٦٤ / ٣] .

نعم وما (كتاب) أهل الغرب اليوم سوى العقل ، والعقل العلمي الذي يقترب يوماً بعد يوم من حقائق السنن الكونية الربانية .

لقد جاءت الحداثة التي نعرفها في عالم الغرب اليوم في الواقع ، ابتداءً بسبب قرار الغرب المسيحي باللجوء إلى العقل للخروج من عصر الظلمات ، فأفرزت الجانب الخير والعلمي (والإسلامي) من الحداثة ، أي كل ما يتناسب مع السنن الكونية والقوانين المرعية في سلم الصعود العلمي ، ويوم تخلي الغرب عن العقل ولجأ إلى منهج التمرد عليه أفرز خواء الروح ، وأنتج أسباب تدمير عقله وتدمير مدينته وحضارته .

إن مستقبل الحضارة الإنسانية اليوم رهن بعودة المسلمين للإسهام في صناعة المدنية الإنسانية انطلاقاً من قواعد الاعتراف بالآخر ، ومحاورته استناداً إلى قانون «ما حكم به العقل حكم به الشرع والعكس صحيح» . ولا يكفي المسلمين ويغنيهم عن هذه المشاركة الفعالة والجسورة والشجاعة كونهم يمتلكون حضارة مجيدة في العصور الغابرة ؛ لأن ذلك يعني ويساوي عمل ذلك الرياضي أو الفيزيائي الذي كلما عرضت عليه مسألة رياضية معقدة أشار إلى قانون نيوتن دليلاً للحل فيها ، فيما الأمر يتطلب منه ترجمة عملية لذلك القانون ، بل واكتشاف قوانين تفصيلية جديدة لمعالجة المسائل المستحدثة التي لا يمكن أن تحل جميعاً بقانون واحد عام أو بالقانون نفسه في كل الحالات والمصاديق .

إن اكتفاء البعض من أبناء أمتنا وأهلنا ولا سيما النخب الواعية والمثقفة من أبناء وطننا الإسلامي الكبير بأقطاره المتنوعة والمختلفة والملبئة بالتجاعيد والتضاريس المحلية المعقدة والمتشابكة بشعار «الإسلام هو الحل» يشبه تماماً ذلك العالم الفيزيائي أو الرياضي المشار إليه آنفاً .

إن العالم اليوم بهوياته المركبة من جهة وتحدياته المشتركة من جهة أخرى ، ولا سيما ما بات يعرف بتحديات العولمة ، تجعل من واجب المسلمين أكثر من أي وقت مضى أن يفتحوا ذراعيهم للآخر أيّاً كان ذلك الآخر ، لا من أجل التوحد معه بالضرورة أو الذوبان في حضارته ومدنيته الغالبة ، بل من أجل البحث عن القواسم المشتركة وهي الكثيرة ولا سيما أن هذه (المدنية) الغالبة هي في جزء كبير منها صناعة إنسانية مشتركة . ومثل هذا لا يحصل بغير الاعتراف بوجود الآخر والإقرار له بحقه في الدفاع عن وجهة نظره والاسماع إليه جيداً من دون أن تتخذ من دون الله أرباباً لنا ، لا شرقيين ولا غربيين ، ولكن بالتأكيد في إطار الترجمة الحية للقول المأثور لأحد علماء أهل الحديث والجماعة والذي يقول ما مضمونه : «إن رأينا صواباً يحتمل الخطأ ، ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب» .

ثم أخيراً فإن مراجعة متأنية وعميقة لدعوة الباري تعالى لأهل الكتاب بقوله : ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ ما هي في الواقع إلا دعوة للكلمة الجامعة وليس دعوة للأنا كما قد يتصور البعض . دعوة للكلمة الوسط بين الأنا والآخر ، ألا وهي الله سبحانه وتعالى بما يعني الحقيقة الخالصة والكمال المطلق الذي هو أكبر وأعلى وأكثر رقياً وسمواً من كل أشكال الأنا والآخر .

ثقافة «الخطاب اللينيني» وراء نفى الآخر :

يعتقد الكثيرون في عالمنا العربي والإسلامي بأن صعود (الأصولية) بوصفها حركة دينية سياسية تستند إلى عقيدة الإسلام مرجعية فكرية إنما جاء بمثابة حصاد طبيعي لفشل التيارات القومية والماركسية واليسارية عموماً ، وكذلك الليبرالية بأنواعها في التصدي لأزمات المجتمعات العربية والإسلامية . ونحن إذ نعتقد بوجود مثل هذا البعد في ذلك الصعود المتسارع للحركة الأصولية بشكل عام والأصولية السياسية بشكل خاص ، إلا أننا نعتقد أن التفاعلات العميقة الكامنة تحت السطح الظاهري لمجتمعنا كانت تنبئ بصورة إسلامية كبرى ، سواد فشلت تلك التيارات الأنفة الذكر أم لم تفشل ، كل ما هنالك أن ذلك الفشل المتسارع والذريع والمترافق بالهزات الاجتماعية والسياسية المؤلمة خصوصاً أسهم بشكل خطير في ذلك الصعود (الصاروخي) للحركات الأصولية السياسية .

إن هذا التحول الدراماتيكي خلال عقد من الزمان ، وهو أساساً عقد الستينيات ، ولا سيما بعد هزيمة حزيران الشهيرة ، وتداعيات النكبة التي حلت بالأحزاب والحركات القومية واليسارية والنخب العربية والإسلامية المثقفة عموماً ترك آثاره على نوع المسار الذي رافق صعود الحركات الأصولية .

من جهة أخرى فإن سيادة نهج الأحزاب اليسارية أو ما ظل يعرف لعقود طويلة (بالنهج اللينيني) إذا جاز التعبير ، على الحركة السياسية في المنطقة عموماً ، أضفى بدوره بظلاله على أجواء وفضاءات صعود الحركات الأصولية الدينية في مجتمعاتنا .

لقد مرت فترات طويلة على بلادنا كان فيها من النادر أن يقرأ الواحد منا أدبيات غير أدبيات الحركات الإسلامية العاملة تحت الأرض أو المحظورة من النشاط العلني عموماً ، فإن النهج التحليلي الغالب كان هو النهج (اللينيني) المعروف الذي لا يعرف إلا البعد الواحد في الخطاب والتوجه .

إن استعارة الحركات الأصولية الدينية للنهج اللينيني (المقاوم) للسلطات التي كانت تقمعها في وقت الشدائد والمحن وبقاء هذا النهج سواء من خلال أشكال تنظيمية أو خطاب إعلامي سياسي حتى بعد ارتفاع سياسة البطش عن البعض ، خوفاً من عودة سياسة البطش أو حذراً مما تخبئه سياسات الحكومات والسلطات غير (المؤدجلة) إسلامياً في غالبها هو الذي جعل في الواقع الطابع العام لخطاب الحركات الأصولية خطاباً أحادي البعد ينذر أن يقبل بالآخر أيّاً كان ذلك الآخر .

وهكذا نرى أن الحركات الأصولية السياسية تذهب مرة لتكفير المجتمع كله ، أو تفسق أجزاء كبيرة منه ، أو نفي وطراد أطراف أساسية منه أحياناً ، وفي كل الأحوال التحفظ تجاه سياسة أو خطاب (التضامن) والوفاق مع الآخر برغم غزارة التراث الإسلامي بأدبيات ضرورة الوحدة والاتحاد والوئام والتلاحم بين أطراف ووحدات المجتمع المختلفة ، بل وتحمل الحاكم الظالم والغشوم من أجل التصدي لتحديات الخارج إلى ما هنالك من مبررات قبول الآخر .

ثمة من يعتقد أيضاً أن الحركات الأصولية المتأثرة بشدة بأدبيات الخطاب اللينيني المذكور ، قامت أيضاً بعملية (أدلجة) واسعة للفكر الديني القرآني حتى تتمكن من

استخدام هذا السلاح الإيديولوجي باتجاهين ؛ الأول لمقاومة السلطات (المؤدجلة) التي كانت تواجهها بإيديولوجيات القومية والاشتراكية والماركسية وغيرها ، ومن جهة أخرى حتى تنافس الأحزاب والقوى والمنظمات التي ظلت لها بالمرصاد في معركة الصراع على السلطة رغم خسارتها لمواقع قوية للتنافس بسبب تجاربها الفاشلة أثناء التصدي لقضايا الأمة لعقود طويلة كما ذكرنا .

أيّا تكن الحال فإن الخطاب الأحادي الذي يرفض الآخر أو يطالب بإقصائه ، ولا يتحمل وجوده ، وتالياً قد يستخدم العنف ضده لإخراجه من ساحة التنافس السلمي ، والذي نراه في سلوكيات الحركات الإسلامية هنا وهناك وإن كان بشكل متفاوت ، ناشئ بعقيدتنا في بعض أبعاده على الأقل بسبب تأثر هذه الحركات في غالبيتها بالنهج اللينيني الأحادي البعد ، والحاد المزاج ، والانقلابي الطابع ، وهو ما يخالف طبيعة مدرسة الشريعة الإسلامية السهلة والسمة والحنيفية المستقيمة في كل الأحوال .

النسبية والكمال والبحث عن الحقيقة :

عندما أعلن العالم الرياضي والفيزيائي الكبير أينشتاين بأن للأشياء بعداً رابعاً هو الزمن ، وأن الأبعاد الثلاثة التي كانت معروفة قبل ذلك ، وهي الطول والعرض والارتفاع ، لا تكفي وحدها للحصول على تصور (جيد) أو نهائي للأشياء ، ظهرت النظرية النسبية المعروفة التي أخذت تقرب الأشياء أكثر فأكثر من الواقع وتجعلها أكثر ملائمة . وإذا كانت الأشياء وحركتها النظرية (الجامدة) أو (الحافة) بتعبير أدق لا يمكن استيعابها على حقيقتها إلا باكتشاف أبعاد جديدة لها ، أو إن اكتشاف بعد جديد لها يمكن أن يؤثر على طبيعتها التي نعرفها ، وبالتالي يغير الكثير من القوانين التقليدية المعروفة ، ويطور الكثير من الطموحات والتطلعات المختزنة في عقول العلماء ، فكيف بالإنسان الحي المتحرك بصورة حيوية وفعالة في خضم الواقع السيّال ، أن يبقى على بعد واحد ،

أو نكتفي منه بما نعرفه عنه من أبعاد ستاتيكية ، وهو الذي ينبغي أن يكون أيضاً آية من آيات الله على هذه البسيطة بل (خليفة) لله في أرضه . وهو الذي يقول عن نفسه سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن ٢٩/٥٥] .

إن الإنسان الذي يبحث بطبيعته منذ ولادته حتى اللحظة الأخيرة من حياته الدنيوية عن الحقيقة ، ويبدل الجهد ، ويسعى نحو الكمال دوماً لا يمكن له في الواقع الاستمرار بالحياة من دون وجود الآخر والإقرار به وبفعله وانفعالاته . وعليه فإن مجرد بقائه حياً مستديماً لفترة معينة مهما كانت قصيرة بالنسبة إلى عمر الكون وكوكب الأرض الذي نعيش عليه لا يمكن تصور إمكانه دون وجود الآخر المتعدد إلى جانبه إن لم يكن في داخله باستمرار .

من هنا فإن طبيعة الأشياء كما هي على الطبيعة ، تقتضي منا التسليم سلفاً ، حتى قبل اكتشاف المعادل الميدانية وبمصاديقها المختلفة ، بأن الإنسان الفرد والجماعة وفي شتى صوره الاجتماعية المتحركة في صيغة الملل والأقوام والشعوب لا يمكن أن يعيش ويستمر بالحياة من دون قانون الاعتراف بالآخر ، وضرورة إفساح المجال له بالحياة ، بل والتعايش السلمي معه والتمازج والتلاقح والتداخل معه . وإلا لكانت الحياة البشرية على وجه البسيطة قد انقرضت منذ زمن طويل . ثم إن الإقرار بوجود أبعاد مختلفة للحياة ، كفيل بإبقاء الأمل حياً لدى الإنسان بإمكانيته في اكتشاف الجديد باستمرار ولو بعد حين ، الأمر الذي يجعله يتطلع ويطمح نحو الكمال واكتشاف مزيد من أوجه الحقيقة وأبعادها المختلفة .

إن هذا التصور للأشياء وللأحياء يجعلنا نبحث عن التكامل في الآخر من بني قومنا ، والآخر من سائر الملل والأقوام ، وبالتالي صيانة حقوق ذلك الآخر ورعايتها .

إن ما يطرح اليوم من نظريات للحوار البناء والفاعل سواء بين الأفراد أو الجماعات وآخرها ما ابتكر من مبادرات للحوار بين الثقافات والحضارات ليس في الواقع سوى

التبلور الواعي والمنظم لما تقوم به الشعوب منذ أمد بعيد دون الحاجة إلى معلم ، إنها سنة الحياة التي ظلت تمارسها وتعيشها الشعوب باعتبارها القدر الحتمي الذي من دونه تصبح الحياة عسيرة للغاية إن لم تكن مستحيلة .

إن ذلك جميعاً يجعلنا نقول وبملاء فمنا : إنَّ قانون احترام الآخر والاعتراف بحقوقه قدرٌ حتمي اعترفنا به أم لم نعترف ، قبلنا به أم لم نقبل ، اكتشفناه أم لم نكتشفه ، صالحناه أم خاصمناه ، ذلك أنه قانون موجود في حركة الحياة ، وهو من طبيعة الحركة الجوهرية للإنسان ، وعدم اعتراف البعض به أو عدم اكتشافه لن يغير من كونه موجوداً وفاعلاً . وكما يقول المناطقة فإن : «عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود» .

ولذلك كله يصبح من الأفضل لنا أن نعترف ونقر به بمشابهة الحقيقة الساطعة ، والعمل على تشذيبه وتهذيبه حتى نسرع بعملية الحركة نحو الكمال واكتشاف المزيد من أبعاد الحياة في حركة الإنسان الجوهرية . ولنكن على ثقة بأن الأبعاد التي نعرفها عن الإنسان ليست إلا جزءاً بسيطاً مما نعرف ، وقطرة من بحر لا تنفذ جزئياته . وكما ورد في القول المأثور في هذا السياق واصفاً الإنسان :

«أترعّم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر» . فيا أيها الإنسان الفرد ، والإنسان الجماعة ، والإنسان الشعب والأمة ، فإنك بقدر ما تحترم وتقدر حرّيات الآخر وتفصح المجال للآخر بالتعبير عن نفسه وتوفير مناخات تطوره ، بقدر ما تحترم وتقدر ذاتك وحرّيات نفسك وتفصح المجال لها بالتعبير وتوفير مناخات التطور والتقدم . فإن نقدم بأنفسنا على احترام ذواتنا من خلال احترام الآخر على طريق البحث عن الكمال والتعرف على الحقيقة أفضل ألف مرة من المشي على طريق لا نعرفه فنضطر للزحف فيه بفعل قانون استمرارية الحركة وضرورتها .

فضيلة الاستماع للآخر :

ليس كافيًا في قانون التطور والتكامل أن نعترف بالآخر ونقر له بحرية التعبير ، بل المهم والمهم جدًا إذا ما أردنا أن نسعى جادّين نحو الكمال هو أن نحسن الاستماع إليه ، والاستماع للآخر هنا ليس فقط ينتج عنه ما يفيد تطور الطرف المقابل ، إذ تكون الفرصة قد سنحت له أن يعبر عن نفسه بحرية ، وبالتالي إفساح المجال لأن يعطي أفضل ما عنده ، بل المهم جدًا هو أن حسن الاستماع يجعلك تضع نفسك في موقع الطرف الآخر ، فتكون بذلك قد حصلت على ما حصل عليه من فوائد توفير فرص التصحيح والتطور والتقدم على قدم المساواة .

وهكذا يكون الواحد منا ممن تشملهم فضيلة الاستماع للآخر قد تعلم مرتين ، مرة عندما تحمل غيره أقصى درجات التحمل فكسب قدرة تخطي وتجاوز الأخطاء ، ومرة أخرى عندما تدفقت عليه إيجابيات حديث الآخر ومواقفه دون محدوديات مقص الرقابة الذاتية ، التي غالبًا ما يتم ممارستها من قبل الواحد منا عندما يضيق صدره بآراء الآخرين من باب إسقاط فهمه الذاتي على قول الآخر وخطابه وتصرفاته .

أن تستمع للآخر جيدًا لا يعني أن تسمع كل ما يقوله دون حدود فقط ، بل أن تحاول إيجاد المبررات كل المبررات التي دفعت به لاتخاذ الموقف المتخذ وتاليًا حصول القناعات الواصلة إليه من دون أن يعني ذلك بالضرورة موافقتك على مواقفه أو قناعاته المعلنة . فتفهم الموقف غير قبول الموقف . نعم قد لا توافق الآخر موقفه لكنك إذا ما عشت كافة الظروف التي عاشها وأنت تستمع إليه سيكون تفهمك الاستفادة من نقاط القوة والضعف لديه بأحسن صورة ممكنة ، وبالطاقة والسعة القصوى .

هذا في حين أن عدم الاستماع بالطريقة المشار إليها آنفًا يعني فقدانك لحيز كبير من الدروس المستفادة ، وأيضًا دفعك باتجاه تكرار أخطاء الآخرين وعدم التعلم من تجاربهم .

ثم إن الاستماع الجيد والصحيح والكامل يجعلك أفضل من يميز بين الحق والباطل ، وأكثر من يحسن اختيار الطريق الأفضل والأنجع للخروج من المنعطفات . إذن الاستماع المقصود هنا ليس الاستماع السلبي بل هو الاستماع الإيجابي والبناء .

من هنا جاء الحديث النبوي الشريف القائل : « اللهم أرني الأشياء كما هي ، ثم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه » .

وهذا الحديث برأي العديد من المحللين يكشف الأهمية التي يوليها الدين الإسلامي وسلوكية الصحابة بل والرسول الأعظم وخاتم الأنبياء محمد ﷺ الذي يمثل الحصيلة المكشوفة لرسالات السماء للحقيقة الموضوعية قبل الحقيقة الذاتية ، حتى نراه يقدم حقائق الأشياء (الخام) كما هي قبل عملية الفرز بين الحق والباطل برغم الأهمية التي تعنيها عمليات التعرف على الحق وعلى الباطل . لكن التعرف على الأشياء كما هي على ما يبدو هو الوسيلة الأنجع لتخفيف عملية الانتخاب السيء من جهة ، كما أنها الوسيلة المثلى لتصنيف وفرز الحق عن الباطل .

إن فضيلة الاستماع المقصودة هنا لا تعني بالتأكيد الاستماع السلبي ، أي أن تصبح متلقياً غير متفاعل مع ما هو قادم من الآخر ، وبالتالي كأنه أمر لا يعينك ، في حين أنك عندما تستمع إليه بشكل إيجابي ومتفاعل فإن درجة وحجم التأثير والتأثير على الطرف المقابل ستكون باستمرار أعلى وأكبر الأمر الذي يجعل عملية هدر الطاقات ولا سيما النافعة منها في أقل نسبة ممكنة .

إن فضيلة الاستماع للآخر إذن بإمكانها أن تتحول إلى وسيلة ناجحة ومفضلة في إطار عملية تقليل وخفض حجم الطاقات الهائلة التي تهدر على نطاق واسع في عمليات التصحيح والترميم وإعادة البناء ، كما أنها لطريق الفضلى للتخفيف من حجم الحروب والصراعات وسفك الدماء وتداعياتها الإنسانية المدمرة .

وهكذا تكون الجهود والمسعاعي الإنسانية تذهب في غالبيتها نحو التنمية والتقدم وتحقيق أرفع مستوى من مستويات العدالة ، أيضاً ذلك أن عملية تكافؤ الفرص تكون قد تحققت في أحسن صورها .

ثم إنك عندما تكون مستمعاً ستكون متحدثاً وموصلاً جيداً وكما يقول المثل : «فهم السؤال نصف الجواب» ، فإن القدرة على الحوار بل وتوجيه حركة واتجاه وبوصلة التعاون وتضافر الجهود على أفضل ما يكون ، أمر يخفف من حجم الأخطاء وحجم التساقت الذي غالباً ما يرافق عمليات التنمية على كل المستويات .

أخيراً وليس آخراً فإن فضيلة الاستماع للآخر من شأنها أن تقوي وتنمي حركة التجديد المطلوبة في حياة الشعوب والمجتمعات والاطلاع على الرأي الآخر باستمرار ومنح الفرصة له ولا سيما من هم ينتمون إلى الأجيال الشابة للإسهام اليومي والدائم في صناعة القرار وصياغته النهائية ، الأمر الذي يقلل كثيراً من الأخطاء المرتكبة ، وكذلك يمنع كل أشكال الاستبداد بالرأي .

باختصار مكثف : إن الاستماع بكل جوارحك للرأي الآخر ووضع نفسك في ظروف الآخر التي دفعته لاتخاذ هذا الموقف أو ذاك ، يجعلك مساهماً قوياً وشريكاً فاعلاً في تصحيح مسار الآخر ، وبالتالي الدفع باتجاه تكون وتشكل أعلى مستويات العمل الشوري دون التفريط بأي رأي من آراء الأفراد كل على حدة ، وهذا بدوره أيضاً يشكل أكبر مساهمة فردية وجماعية في إعادة تقويم عمل الحكومات والأنظمة السياسية المختلفة في العالم أياً كانت درجة تطورها وأشكالها ونماذجها الديمقراطية .

إنها فضيلة راقية ، فضيلة الاستماع للآخر ، ينبغي أن تكون المظلة التي تستظل بها كل عمليات السلوك الإنساني الفردي والجماعي ، ومعيار الصواب والخطأ في العمل الثقافي والفكري والسياسي والاقتصادي ، وفي كل مجالات السلوك والتصرف الإنساني ، من أجل أن نميز حقاً بين الإنسان والجماد .

إنها بحق ما يمكن وصفها بالبعد الخامس للإنسان إذا ما اعتبرنا أن الزمن هو بعده الرابع كما صنف بعد إعلانه من جانب العالم الفيزيائي والرياضي العالمي الكبير أينشتاين .

عود على بدء ، مع المنهج القرآني :

في آيتين منفصلتين يدعو الله سبحانه وتعالى الآخر إلى تسوية مراوحة ليس فيها غبن ولا إجحاف ، بل فيها من عناصر الانتخاب والاختيار وعدم الانحياز كما لم يفعل أي دين أو مذهب أو عقيدة من قبل أو من بعد .

ففي قوله تعالى : ﴿ ... وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات ١٣/٤٩] . تبدو فيها الدعوة واضحة وصريحة للتعرف على الآخر والاطلاع عليه ، بل والاعتراف به رسمياً وتسجيل هويته ، وهي في الوقت نفسه دعوة مشتركة للإدراك المتبادل وإشراك الآخر في عملية التعارف والاطلاع ، وليس دعوة الأنا فقط للتعرف على الآخر ، بل دعوة متساوية ومتكافئة لطرفي أو أطراف المعادلة الإنسانية لإدراك المقابل أو الثاني أو الآخر بالمطلق ، ووضعه في قائمة المتنوعات .

وأما في قوله تعالى : ﴿ ... قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [آل عمران ٦٤/٣] .

فهي أيضاً دعوة حيادية وتسوية بين الأنا والآخر للارتقاء معاً إلى درجة الكمال والمطلق والتعالي عن الذات الأنانية . إنها ليست دعوة إلحاقية أو تهميشية ، أو هيمنية ، ولا استعلائية من جانب طرف إلى الأنا ، بل دعوة إلى موقع متقدم من السمو والرفي بين المختلفين والمتمايزين ليجتمعاً تحت راية التحرر من الأنا ، والانتماء إلى مدرسة الكمال المطلق .

إن هذه الدعوة القرآنية إذا ما تمت دراستها بشكل متعمق ويتأمل شديد سنرى أنها ربما تكون الدعوة الوحيدة والفريدة في تاريخ الحوار بين الأنا والآخر على الإطلاق لا تتم فيها الدعوة إلى الالتحاق بما يظن ويعتقد به صاحب الأنا بأنه هو الحق .

إنها نهج ومدرسة تنير لنا الطريق للتعرف على سبل الدعوة وطرائق الحوار ، ووسائل الوصول إلى الأسمى الذي نبحت عنه جميعاً باعتباره الهدف الغائي للبشرية جمعاء .

ثم لننظر أيضاً إلى أدب الحوار والمخاطبة المتبعة في الدعوة ، وكيف أن صاحب الأنا هنا ، وهو الذي يفترض به أنه القادر على أنه يقول لكل شيء في الكون ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة ٢/ ١٧] وفي مواضع كثيرة] إنما يخاطب الآخر ، والذي هو ليس من جنسه تماماً ، بل يفترض أنه ممن ضل الطريق أو ابتعد عنها أو انحرف إليها أو تاه في ظلماتها أو في أحسن الأحوال توقف في محطة رجعية جامدة وغير متحركة ، بتعابير بالغة الأدب وعميقة المعنى وشديدة الرهافة والحساسية وغير جارحة للوجدان ، وذلك بوصفه إياه بصاحب الكتاب . . ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ أي يا أصحاب الرأي والبيان والفكر والكلام المكتوب والمدون في التاريخ ، والذي نقر به وبتأثيراته . . تعالوا لترتفع سوية إلى ما هو أعلى وأعلى وأرفع وأسمى ﴿ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ۖ ﴾ ليس فيها هيمنة لأحد على أحد ولا استعلاء ولا إملاء قرارات ولا أحكام مسبقة ، بل ولا تحديد سلفي لمن الغلبة ، بل نحتكم سوياً للواحد الأحد وصاحب الكمال المطلق .

وهنا يبرز السؤال الكبير الذي ظل يلاحق البشرية طوال القرون المتمادية ، وسيظل يلاحقها ما دامت هناك حياة على الأرض ، وما دام الإنسان يسعى من أجل الكمال ، ألا وهو معنى السر الكامن من وراء فلسفة الموت وانتهاء للحياة المادية لبني البشر بصورة متساوية ومتكافئة ، أيًا كانت مواقعهم وانتماءاتهم العقيدية ومعتقداتهم الفكرية ؟

إلا يعني هذا فيما يعني أن الوصول إلى الحقيقة المطلقة والكمال المطلق أمر غير ميسر في هذه الدنيا النسبية التي نعيشها وأن الأمر ، أي أمر اليقين ، موكول للآخرة ويوم الحساب والكتاب الأخير !

ألا يعني امتداد هذه القضية ومعاشتها لكل العصور والأزمان وفي ظل مختلف الأقاليم والكيانات والحكومات والإمبراطوريات والمدنيات والحضارات ، وعدم حسمها إلى يوم القيامة المجهول في الحسابات المادية المتوفرة للبشر بأن هناك مصير واحد مشترك ينتظر هذه البشرية بكل تلاوينها وتجاعيدها وتضاريسها ، لا يستطيع أي واحد منا أن يحدد موقعه فيه سلفاً اللهم إلا من باب الحدس والتخمين والتمني والترجي والتأمل من الله صاحب الكمال المطلق أن يجعلنا من الناجين والظافرين بالجادة .

ثمة من يعتقد هنا بأن المذاهب والإيديولوجيات والمدارس الفكرية المختلفة ، من صناعات البشر على مر التاريخ ، وكذلك الطرائق الدينية المتبعة ما هي إلا وسائل وأساليب ومناهج للوصول أو التوصل إلى الطريق الأقرب والأقصر والأقل كلفة لليقين ، وإن أخطأ أحدها أو كلها الجادة الموصلة إلى ذلك الكمال المطلق . ومن هنا يعتقد من يؤمن بهذه الطريقة في التحليل والتفكير بأن الأديان بدورها ما هي إلا شرائع وطرائق مختلفة جوهرها الإيماني واحد ، وهو الخط الواصل بين الشك واليقين .

وإلا ما معنى أن كافة الأنبياء والرسل العديدين الذين يذكرهم القرآن الكريم ، إنما ينتمون إلى دين واحد هو الإسلام؟

إنه التشريع الواضح والصريح والشديد الشفافية للرأي والرأي الآخر ، للمدرسة الفكرية والأخرى ، للمذهب الفكري والآخر ، للدين التوحيدي والآخر ، للقراءات المختلفة والتمايزة ، وللخصوصيات الخاصة بكل قوم وملة وجماعة ، وبالفعاليات وطرائق التفكير والتعبير المتنوعة والمتعددة الباحثة عن الحقيقة الواحدة .

بمثابة خاتمة :

إننا كمسلمين عرباً كنا أم إيرانيين أم إلى أية ملة أو قوم انتمينا ، إذ نؤكد على ضرورة الاعتراف بالآخر ومحاورته ، وإفساح المجال له بعرض آرائه وأفكاره ونظرياته بحرية في إطار مقولة الحوار بين الثقافات والحضارات ، لا يمكننا حتى للحظة واحدة أن ننسى قضيتنا المركزية والأولى وهي القضية الفلسطينية ، وهي القضية التي لا يمكن أن تجد حلاً جذرياً وعادلاً لها من غير رفع أساس الظلم وجذره عن هذه الأمة ، والذي لا بد أن يشمل استعادة أصحاب الحق لكافة حقوقهم ، وجلاء جيوش الاستعمار والاحتلال والعدوان عن الوطن السليب ، وإعادة الخريطة الطبيعية لهذه القطعة الغالية من وطننا الكبير ، إذ من دونها يبقى أي حديث عن الحوار وأدب الحوار ، أو الاختلاف وأدب الاختلاف نظريات ناقصة ومبتورة وعقيمة ، وإنه لا حوار يصلح بين الضحية والجزار ، ففي الوقت الذي ينهمك فيه عقل الاستعمار الجديد المفصل على رغبات الاجتياح الأمريكي للشعوب والأمم والثقافات والحضارات ، وذلك من خلال إعادة حساب الفوارق الاثنية والسلالية والمذهبية والدينية طمعاً بالتحكم بها وتفجيرها في الوقت المناسب منعاً لقيام أي مشروع تنموي أو نهضوي ناجح ، تزداد لدينا القناعة بضرورة إعادة البحث عن القواسم المشتركة فيما بيننا نحن أبناء الأمة الواحدة ، وإن تنوعنا في إطار خصوصيات طائفية أو دينية أو حتى اثنية . ولعل أول احتياطات حضاري ينبغي أن نستذكره هو أن نعيد الوعي الديني التوحيدي إلى حياتنا وعلاقتنا الداخلية ، حيث يأتي الإيمان باعتباره جوهر هذا الفكر الجامع الكبير الذي يضمنا في إطار بوتقة واحدة ، ومن أجل هذا أيضاً لا سبيل لنا إلا الحوار والحوار وحده طريقاً وحيداً ومدخلاً آمناً إلى معاصرة تحفظ لنا أصولنا وتدخلنا في موجبات المستقبل .

وفي هذا المجال لا بد من التأكيد على ضرورة فصل نظرية (قبول الآخر) التي استعرضنا بعض فصولها في هذا الباب من النقاش والحوار المفتوح عن السياسة

والسياسيين أولاً - لأننا نريد أن نتكاشف ونتصارح ونتحاور ونقول الحق في أنفسنا نحن أبناء هذه الأمة من المثقفين وأصحاب الرأي والفكر والفن والأدب بعيداً عن المجاملات والبروتوكولات التي تفرضها السياسة ولغة الدبلوماسية البلاستيكية والمطاطة على أجواء مثل هذه الحوارات مما سيفقدها حيويتها وروحها ، وثانياً - لأن السياسي والحاكم ما هو إلا موقع طارئ ومؤقت مهما طال أمد حكمه .

ولما كان أصحاب الدار ، وساء كان القطر أو الوطن الكبير هم المثقفين وأصحاب الفكر والرأي وأرباب الكلمة أو هكذا يجب أن يكون عليه الحال ، فإن على الحاكم أن يتعد قليلاً عن هذه الحوارات حتى لا يصيبنا بأمراض الشأن اليومي السلطوي المتقلب والمتلون .

فرسالتنا لا ينبغي أن تكون أبداً كيل المديح والثناء لهذا الحاكم أو ذاك ولا بد أن يعلم أرباب السيف والسلطان بأن أرباب الكلمة الذين يمثلون النبض الحي لأي مجتمع ، والمرآة العاكسة لخريطة الجغرافية الاجتماعية والفكرية والسياسية لمجتمعاتهم لن يقبلوا لأنفسهم أية وظيفة غير وظيفة توسيع المدارك العقلية والعاطفية معاً لأبناء شعوبهم ، ولا بد للحاكم ، أي حاكم ، أن يدرك بأنه إذا ما أراد نيل شرف المشاركة في هذا الحوار وهذا العطاء أن يتعلم أولاً وقبل كل شيء كيف يتعامل مع الآخر ويتحمّله ويعترف له بحق التعبير والاختيار والانتخاب ، ومن ثم إشراك أرباب الفكر والقلم ومراجعتهم أثناء صنع القرارات ، وهي بالمناسبة أسهل الطرق وأقصرها وأقلها كلفة في كسب رضا العامة التي ستقول نعم الحاكم ونعم صاحب الفكر والقلم ، وفي غير ذلك سيضطر صاحب الفكر والقلم لمراجعة الحاكم ومجاملته وعندها ستقول العامة بشن الحاكم وبشن صاحب القلم وصاحب الفكر !

نعم قد يستطيع الحاكم إسكات وقمع الرأي الآخر لبعض الوقت ، لكنه لن يستطيع ذلك طول الوقت ، لأنه لا بد أن يضعف وينهار يوماً أمام التيار الجارف للسنن الكونية

التي ترفض نفى الآخر وتجاهله . ومن هنا فإن عظمة أي حاكم وفنه وحنكته لا تظهر إلا في قدرته في معايشة الآخر واستيعابه وتحمله باقتدار والتكيف مع تلاوين الحياة وتجاعيدها وتضاريسها المعقدة والمتشابكة ، من خلال أسلوب مرن ولين مستعينا بثقافة الحوار وحوار أرباب الكلمة . ولا أظن أن هناك كشافاً أمثل وأرفع وأسمى في تبیین قواعد التعارف والتثاقف بين الرأي والرأي الآخر من ثقافتنا التوحيدية الرائدة . كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ ٣٤ / ٢٤ - ٢٥] .

وأما فيما يتعلق بالوافتد إلينا من الثقافة العالمية بشكل عام فإننا مرة أخرى ، بوصفنا مثقفين مسلمين عرباً كنا أو إيرانيين أو من سائر ملل وقوميات وأعراق هذا الوطن الكبير الممتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ ، لا بد لنا أن نستقبل كل قادم بانفتاح ، فندرسه ونمحّصه فلا ننهبه به حتى الذوبان أو الاستسلام ، ولا نذوب فيه فنفقد هويتنا وخصوصيتنا ، كما لا ينبغي أن نرفضه أو نقاطعه أو ننفيه هكذا وبالجملّة ، بل لا بد أن نتعامل معه كأمر بين أمرين ، نعتز ونقر بحقه في الوجود والتعبير عن الذات أولاً ، ومن ثم نأخذ ونقتبس منه ما يفيدنا ، وأيضاً نقرأه كما هو لا كما نشتهي ، ونتحرك باتجاه صناعة ثقافة عالمية من صناعة كل من هو قادر .

تطوير الحوار بين المسلمين والنصارى وبعض المقترحات اللازمة لذلك

أ. د. محمد أركال (*)

المستخلص

إن مؤسسي الحضارة الغربية الحديثة، الذين لهم أثر بالغ في تأسيس هذه الحضارة في هذا العصر عصر التنوير والثقيف، يرون أن العصرية أو الحداثة (Modernism) اليوم هي حرمان أثر الدين بمعناها العام، وحرمان النصرانية بمعناها الخاص عن الوجود، أو إهباط رتبة الدين في الحياة كلها، ومما لا شك فيه أن هذا التعريف الذي عرفوا به العصرية يعد وصفاً مميزاً للحضارة الغربية الحديثة، وهذا الوصف يشير ضمناً في نظرهم إلى أنهم هم الذين يمثلون الإنسانية دون غيرهم.

في الحقيقة فإن كان هذا يقال في المستوى النظري فلا نرى أن ذلك صحيح، لأنه لا يوجد في المستوى العملي من يؤيد ذلك في البحوث العلمية، إذ إن الإغريقين والرومانيين من ناحية، واليهود والنصارى من ناحية أخرى هم الذين يشكلون الأساس والأصل للحضارة الغربية الحديثة، وحتى يرى بعض الباحثين أن الحضارة التي تتمتع بها أوروبا اليوم هي استمرار تلك الأسس والعادات والتقاليد التي أخذت نصيبها من حضارة اليونان والرومان، وتأثرت في الوقت نفسه باليهودية والنصرانية، وبذلك نستطيع أن نقول: إن الحوار بين الحضارات هو بمثابة الحوار بين الأديان، والحوار بين الأديان

(*) نال درجة الدكتوراه في جامعة أتنا تورك، كلية العلوم الإسلامية، عميد كلية الإلهيات بجامعة صاقريا بمدينة صاقريا بتركيا.

وخاصة بين الإسلام والنصرانية قد اكتسب في يومنا هذا أهمية كبرى ، ومن أجل ذلك سأخصص هذا البحث للحوار بين المسلمين والنصارى .

إن العلاقة بين المسلمين والنصارى قد بدأت من فجر الإسلام واستمرت إلى يومنا هذا بشكل ملموس ، إلا أن هذه العلاقة لم تكن مبنية على الحوار ، بل كانت منبثقة عن الحقد والعداوة والبغضاء ، ولذلك فإن الصورة الموجودة اليوم في أذهان أهل أوروبا عن الإسلام والمسلمين ناجمة عن التخوف النفسي وبعيدة عن الأسس الموضوعية .

وفي الختام أستطيع أن أستخلص بحثي هذا في ثلاث نقاط رئيسة ، وهي :

- ١ . تقييم النصارى للإسلام عبر التاريخ .
- ٢ . تقييم المسلمين للنصارى والحضارة الغربية في ضوء تجارب الدولة العثمانية . وانطلاقاً من هاتين النقطتين سأطرق إلى أسس أخرى مهمة والانكسار والتحول الحاصل بين المسلمين والنصارى .
- ٣ . في ضوء وجهة هذه النقاط الرئيسة سأذكر أبعاد هذا الحوار والاقتراحات الضرورية ؛ لتكون فائدة الحوار أنفع وأشمل إن شاء الله تعالى .

تطوير الحوار بين المسلمين والنصارى

لا يمكن تحقيق السلام بين الشعوب دون تحقيقه بين الأديان
ولا يتحقق السلام بين الأديان إلا بالحوار بين الأديان
ولا يتحقق الحوار بين الأديان إلا بعد البحث لمبادئ الأديان

Hans Kunk

نستطيع أن نقول قبل كل شيء إن الحضارة التي تتحكم في يومنا هذا على العالم هي حضارة واحدة ، وهي الحضارة الغربية مع وجود بعض الاعتراضات في التسمية أو أن هذه الحضارة محدودة جغرافيا ، مخصصة على بعض البلدان دون الأخرى ، أو مع وجود بعض الآراء بأن هذه الحضارة ثمرة بني آدم المشتركة بمعناه الواسع^(١) . ويمكن القول أيضا بأن الحضارات وإن كانت قد تسمى بأسماء مختلفة فهي كلها تابعة للبشر مشتركة ، وليست تحت ملك فئة من الناس أو من الأمم^(٢) ، وذلك انطلاقا من قول دورانت Durant في تاريخ الحضارة بأنه متى انهضت حضارة تابعة لأمة من الأمم قد تنشأ حضارة أخرى من قبل أمة أخرى إذا كانت لديها قدرة متمكنة منشئة لها .

وإن كان هذا الرأي قد يرى قبولا ، إلا أنه لكل حضارة من الحضارات الماضية المعلومة في التاريخ لها مبادئها الأصلية وحضانتها العريقة المحركة للشعوب ، ويمكن القول بأن كل حضارة من الحضارات قد تنشأ من هذه الدعائم والمحركات المنشئة العريقة الموجودة في الشعوب المتحضرة والمتمدنة ، وعلى سبيل المثال فإن الحضارات السابقة التي يبلغ عددها ما بين (١٢ - ٢٠) عبر التاريخ كلها يعتمد دين من الأديان .

وهناك رأي سائد بين أهل العلم الغربيين يقول : إن الدين إحدى الدعامات الأساسية للحضارة الغربية الحديثة تعبر عن كيانها بأنها خارجة عن الدين ولا علاقة بينها وبين الدين .

ومن هذا المنطلق قد تبين لنا منذ السبعينيات ظاهرة حتمية بأنه لا يمكن أن يتصور المستقبل بلا دين مع أن الدين قد أشعر كيان موجوديته وأثره في المجتمع العصري الحديث ، وإن كان هناك بعض التكهنات للمعاصرين بأنه لا مكان للدين إلا في ضمائر الناس بعيداً عن حياة المجتمع . وهذه الظاهرة قد تبلورت في الشرق والغرب حتى في أقصى الشرق مع بعض الفوارق النسبية .

إن الحوار بين الحضارات أو بين الثقافات في الحقيقة هو حوار بين الأديان ، لأن الصلة بين الدين والحضارة أو الثقافات المختلفة هي عنصر أساسي لا بد من وجوده لتحقيق السلام في العالم بأكمله . فهذا الجانب يقتضي أن يتطرق إلى معظم الأديان والثقافات والحضارات . مع ضرورة هذا الحوار فإن المطلوب في أول الأمر هو الحوار بين الأديان والثقافات والحضارات ذات العلاقات في المفاهيم والأصول المشتركة ، ثم يأتي في المرحلة الثانية الانتقال إلى الحوار لأصحاب الأديان والثقافات الأخرى المختلفة ، وبالخصوص يتناسب في البداية البدء بالحوار بما يسمى بالأديان الإبراهيمية ، ويجوز التوسع في هذا النوع من الحوار حتى يشمل الحوار مع الأديان الأخرى مثل : البوذية والهندوية والكنفجوية وغير ذلك من الأديان السائدة في أقصى الشرق .

كما هو معلوم أن الكاثوليكين حاولوا تأسيس الحوار مع اليهود والمسلمين ، إلا أنني في هذا البحث سأقتصر على الحوار المسيحي الإسلامي لسعة جوانب الموضوع ، ولصعوبة إكماله في هذه العُجالة السريعة في كل الميادين ، إلا أنني سأتناول في هذا البحث نظرة الإسلام إلى أهل الكتاب بشكل عام ، نظرة الإسلام إلى النصارى من أهل الذمة الذين عاشوا في أرض الإسلام عبر التاريخ ، ثم أتناول نظرة النصارى إلى الأديان

الأخرى غير النصرانية ، وبالخصوص نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين عبر التاريخ ، ثم بعد ذلك سأتناول الحوار الذي بدأ بكونسول الفاتيكان الثاني الذي يعد نقطة التحول في عالم النصارى الغربي .

نظرة الإسلام إلى غير المسلمين :

فإن مكة المكرمة التي بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته فيها كانت بعيدة عن أنظار العرب في تلك الفترة ، إلا أن هذا الوضع لا يقتضي أن يكون المجتمع المكي مجتمعاً على نمط واحد من الثقافة والعيش ، إذ إنه كان يوجد فيها بعض العناصر غير العربية ، وأصحاب الأديان المختلفة مع أن معظم السكان كانوا من مشركي العرب . وأما المدينة المنورة التي هاجر إليها النبي صلى الله عليه وسلم كان معظم سكانها اليهود ، وبجانب ذلك أن الجزيرة العربية بشكل عام كان النصارى أكثر سكاناً فيها من اليهود . والأماكن التي كانت توجد فيها مجتمعات مسيحية في الجزيرة : تغلب ، غسان ، قضاة ، إيالة ، دومة الجندل ، والأماكن التي كانت تعيشها فيها قبيلة طي . وكذل أهل نجران والأحباش الذين استمر وجودهم بعدما استقر الإسلام في الجزيرة^(٣) .

وإذا نظرنا من هذه الزاوية فإن الوحي عندما كان ينزل كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في مجتمع غير متزن في معتقداتها وثقافتها ، وكانت الكتب السماوية بمثابة محاورة الله تعالى مع الناس في شخصية أنبيائه عليهم السلام . والمقصود من الحوار هنا هو إحالة معالجة القضايا ومشاكل الصحابة والناس أجمع إلى الله تعالى . وفي ضوء هذا نستطيع أن نقول إن القرآن الكريم اكتسب دوراً فعالاً لجميع أشكال الحوار بعد تلك المحاورات التي تمت أثناء نزول الوحي لحل المشاكل والأمور المستجدة في تلك الفترة ، وكما نعلم أن اهتمام المفسرين بأسباب النزول كان من أجل ما أشرنا إليه آنفاً ، وهو معرفة حل القضايا المستجدة عن طريق النصوص القرآنية .

وفي ضوء هذا الحوار فإن القرآن الكريم يقسم الناس الذين خاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً قسمين : الذين استجابوا إلى دعوة الرسل ، والذين لم يستجيبوا إلى دعوة الرسل ، ثم يقسم الذين استجابوا إلى دعوة الرسل قسمين : إلى المؤمنين وإلى أهل الكتاب ، ويذكر في ضمن مفهوم أهل الكتاب : من كان له صلة بالوحي بشكل من الأشكال ، وقد خاطب القرآن الكريم الفريقين أحياناً باللفاظ «النصارى» و «اليهود» وأحياناً أخرى ذكرهما معاً في ضمن لفظ واحد ، وسماههما «أهل الكتاب» و ناداهما بـ «أهل الكتاب» . وذكر الصابئين مع هؤلاء ، ولذلك يمكن إلحاق الصابئين بأهل الكتاب . وأما المشركون فإن القرآن الكريم يذكرهم مستقلين عن هؤلاء مع اعترافهم بوجود الله سبحانه وتعالى . والذين لا يؤمنون فهم يسمون دهرين ، علماً بأننا أجرين هذا التصنيف انطلاقاً من الآيات الموجودة في القرآن الكريم^(٤) .

وسبب إلحاق أصحاب الديانات الأخرى غير اليهودية والمسيحية بلفظ أهل الكتاب ، فإن أبا حنيفة ومحمد الشيباني قد اعتبرا غير المسلمين ملة واحدة سواء كانوا من أهل الشرك أو غيره . وأما السرخسي يرى أن الذين ذكروا في القرآن الكريم بـ «أهل الكتاب» هم الذي تقبل منهم الجزية فقط ، وقول أبي يوسف في هذا الموضوع أوضح ، حيث إنه يرى أن الجزية تؤخذ من غير المسلمين جميعاً سواء كانوا من المجوس أو من عبدة الأوثان أو من الصابئين ما عدا مشركي العرب والمتردين عن الإسلام^(٥) .

والغرض الأساسي من إبداء هذه المعلومات هو : إظهار الحقيقة في حق الإسلام من أنه انتشر في أوساط أصحاب الديانات والثقافات المختلفة ، وإظهار موقف نبي هذا الدين في كيفية حوارهِ مع الآخرين ، حيث إن هذا النبي صلى الله عليه وسلم كان نموذجاً حياً لتطبيق القرآن الكريم في جميع نواحي الحياة ، ومن ذلك ما أسسه للحوار بين الإنسان وربه ، وبين أصحاب الأديان المختلفة .

إن فكرة النجاح تحتل مكانة عظمى في الدين الإسلامي كما تحتل في الأديان الأخرى ، والتصنيف الذي ذكرناه فيما سبق تناولناه من هذه الناحية . فإن النجاة المحضة

مع بعض الاختلاف اللفظي ستكون للمسلمين فقط . والبعض يُدخل اليهود والنصارى في قائمة الناجين استدلالاً بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦) .
إلا أن هذا الرأي لم يجد من يؤيده ممن يعتد به من العلماء المعترف بهم إلى يومنا هذا .

إن نظرة الإسلام هذه إلى الأديان حققت ظهور مؤسسة أهل الذمة في الوطن الإسلامي ، وإن هذا المفهوم لا وجود له في القرآن الكريم ، إلا أن هذا الصنف ظهر وجوده في المجتمع الإسلامي من أيام الفتوحات الإسلامية الأولى . وإن أسس عقد الذمة قد تعتمد على تطبيق رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الله عز وجل : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٧) .

فإن مفهوم «الذمي» ومؤسسة أهل الذمة كان يحقق استمرار حياة من لا يدين بالإسلام ولا يحارب ضد المسلمين ، ويقبل دفع الجزية ، حيث إن هؤلاء يعدون من أعضاء المجتمع الإسلامي مع كونهم غير مسلمين ، ويتمتعون بعضوية هذا المجتمع ، فبذلك يكون ماله ودمه وعرضه تحت حماية الدولة الإسلامية ، وهم في الوقت نفسه غير مطالبين بالخدمة العسكرية ، ولكنهم مطالبون بالتزام القوانين والتقيّد بالمعاهدات ، فتكون الجزية ضريبة مأخوذة من النصارى وغيرهم للحفاظ عليهم . ولذلك كان المسلمون يردون الجزية المقبوضة إليهم عندما لا يتمكنون بمراعاة حقوقهم كما في المعاهدات (٨) .

إن هذا التطبيق العملي استمر في المجتمع الإسلامي حتى القرن التاسع عشر للميلاد . وهناك أسباب جعلت الإسلام انتشر في وقت قصير في الجزيرة العربية والشرق الأوسط جميعاً ، وهناك سببان رئيسان من تلك الأسباب ، أحدهما : الشوق الديني الذي حققه الإسلام في قلوب المؤمنين والرغبة الجازمة في تبليغ دين الله إلى كافة

الناس ، والثاني : الصراع بين البيزنطيين والصاسانيين ومجاهدة غير المسلمين في الأماكن التي انتشر فيها الإسلام ، وعلى سبيل المثال كان يعقوبيون ونسطوريون لا يوافقون على الرأي الرسمي للدولة البيزنطية ، ولذلك اتفق غسانيون مع المسلمين في معركة «أجنادين» عام ٦٣٤م ضد البيزنطية ، واتفق أيضاً «لحميون» مع المسلمين في معركة «قادية» عام ٦٤٦م ضد الصاسانيين تاركين بلادهم رغم أنهم أتباع لهم ، وذكر هؤلاء فيما كتبوا سبب اتفاق النصارى مع المسلمين ضد أعوانهم في الدين ، وكان عليهم ضغط شديد بسبب تمسكهم بدينهم . ويدعي السريانيون أن لقب «الفاروق» لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ من لغتهم بمعنى «تفريق وإنقاذ» لأجل نجاتهم من قبل المسلمين في زعامة عمر من ظلم الروم والفرس ، حيث كان هؤلاء الروم والفرس يظلمون البطاريق في السجون لوجود خلافات مع البيزنطية في معتقداتهم الدينية^(٩).

كان المجتمع الإسلامي يشتمل على أصحاب ديانات مختلفة وثقافات متعددة في حوزته ، حيث كان يجتمع في هذا المجتمع كل الفرق الدينية التي توجد في الشرق الأوسط ، وكان لا يوجد أي فرق بين المسلمين وغيرهم في حرية الدين والمال والنفس والضمير مع كون المسلمين ركناً أساسياً في الدولة . وقد أفاد المسلمون والغربون معا في مناسبات وأوقات مختلفة أن موقف غير المسلمين في المجتمع الإسلامي مع صرف النظر عن بعض ما يحدث من ارتكاسات قليلة من موقف غير المسلمين . ولا بد أن يعتبر في يومنا هذا أن وجود اختلاف الثقافات والديانات في المجتمع ليس للتفرقة وتمزيق القوة وإنما هو من أجل استمرار الحياة المحترمة للجميع دون ظلم وضغط ، لأنه كما أشرنا فيما سبق أن تكوين المجتمع الموفق يتحقق من تحمل ذلك المجتمع على كثرة الثقافات والعادات والتقاليد ، ولذلك كان كثرة الثقافات والأديان هو السائد دون النظر إلى التجانس في عصر الأمويين والعباسيين والسلاجقة والعثمانيين الذين هم أقرب من عصرنا . ولم يثبت في التاريخ الإسلامي في الدول المذكورة من أجبر أو أكره على الدخول في الإسلام ، إذ إن غير المسلم (الذمي) - كما قلنا - يصبح يدفع الجزية عضواً من أعضاء المجتمع الإسلامي .

الحوار المسيحي الإسلامي :

مع كل هذا أنه لا مفر من وجود بعض النقاش بين الإسلام والمسيحية لكون كل واحد منهما يقوم على الدعوة ، ويريد الانتشار بين الناس . وبسبب ذلك نشأت بين هذين الدينين وبين أصحابهما أساليب مختلفة من آداب الخلاف والحوار ، وبعض هذه الخلافات والحوارات قد سجلت قديما من قبل النصارى ، وأما الوثائق التي وجدت لدى المسلمين حول الموضوع ترجع إلى القرن العاشر الميلادي فقط .

إن انتقادات المسلمين لغيرهم وخاصة لأهل الكتاب نستطيع أن نراها في النصوص القرآنية ، إذ إن هناك بعض الآيات القرآنية تنقد معتقدات أهل الكتاب في حين تؤيدهم في موقفهم مع المشركين والدهريين ، وقد حصل أول حوار ديني بين المسلمين والنصارى في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاء وفد نجران في المدينة المنورة وناقشهم في المسائل الدينية ودعاهم إلى الإسلام ، وهم لم يستجيبوا لدعوة الرسول وإنما قبلوا دفع الجزية ورجعوا إلى بلادهم تاركين المدينة المنورة ، واستمرت المناقشات الدينية بين النصارى والمسلمين بهذا الأسلوب الأول .

وكانت العلاقة بين المسلمين والنصارى جيدة من أيام تأسيس الدولة الإسلامية ، وكان المسلمون يعتبرونهم أقرب منهم بسبب اعتبارهم أهل الكتاب ، وحتى كانوا يعملون في دوائر الدولة الإسلامية ، وعلى سبيل المثال كان خلفاء أمويون وعباسيون يوظفونهم في الإدارة ، وكانوا يعملون أطباء ومترجمين في الدوائر الرسمية . ونقدر أن نقول إن وضع النصارى في الدولة الإسلامية كان أحسن بكثير من وضعهم في الدول المسيحية . وكنا قد بينا فيما سبق أنه لا مثيل للعلاقات بين المسلمين والنصارى ، ومن هذا الجانب كانت العلاقات في البداية وجها بوجه باستثناء ردية يوحنا الدمشقي ، وهكذا كان الأمر حتى تسجيل المناقشات في الكتب ، وعلى سبيل المثال قد تم الحوار بين البطريق البعقوبي المصري بنيامين وبين عمرو بن العاص رضي الله عنه عام ٦٤٣ م .

وألف بطريق من بطاريق النسطور رسالة حول حوار دار بين المسلم والمسيحي ، وهناك رسالة أخرى تناولت الحوار الذي دار بين الخليفة العباسي المهدي وبين البطريق النسطوري Timotheus عام ٧٨١م ، وهذا البطريق اعترف بقبول منهج الرسل انطلاقاً من موقف محمد صلى الله عليه وسلم ضد الوثنية رغم أنه لا يقبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم^(١٠).

ومن أقدم الرسائل التي كتبت رداً على النصارى من قبل المسلمين ووصلت إلى يومنا هذا ما ألفه علي بن ربان الطبري تحت عنوان «الرد على النصارى والدين والدولة» ، فإن المعلومات الموجودة المتعلقة بالنصرانية في المتون المختلفة مع وجود بعض المتون الأصلية إلى زمن علي بن ربان تتظاهر غالباً أنها مأخوذة من الروايات المنتشرة بين شعوب النصارى مع أن تلك الروايات لا يقبلها جمهور النصارى . وكان قد بدأ إكمال المعلومات الناقصة لدى المسلمين حول الكتاب المقدس بواسطة علي بن ربان والآخرين من المهتمين ، ولكن هذا لا يفيد أن المتون المتعلقة بالنصرانية كلها على هذا المنوال ، وإذا نظرنا إلى أن الكتاب المقدس قد تمت ترجمته إلى اللغة العربية في القرن التاسع الميلادي نستطيع أن نقول إن نقص المعلومات عن الكتاب المقدس استمر إلى هذا الوقت ، إلا أنه قد وجد لدى المسلمين ناقدون مؤرخون نقلوا عن الكتاب المقدس مثل : ابن حزم والمقدسي والذهبي .

ولا يمكن ذكر عدد الرسائل والكتب التي ألقت من قبل المسلمين للرد على النصارى ، فلا يعرف أوصل إلى يومنا هذا أم لم يصل ما كُتب حول هذا الموضوع ؟ مع وجود أسمائها في قوائم بعض الفهارس للمخطوطات ، وبالطبع فلا نملك حق الكلام في الرسائل أو الكتب التي لا ذكر لهم في الفهارس^(١١).

والمواضع - سواء كانت في الكتب أو في الحوار - التي يرد بها المسلمون على النصارى أو تنتظر أجوبة النصارى : التثليث ، والمذاهب التي نشأت من التثليث ، إثبات

نبوة عيسى عليه السلام وبشارته ، والتكفير والصليب ، وتحريف أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم وتبشيريه في الكتاب المقدس .

وبالمطالعة السريعة على الردود على النصارى التي كتبها المسلمون يظهر أن ما كتبه ليس لمجرد العداءة لهم أو لدينهم ، وعلى سبيل المثال أن الغرض من تأليف علي بن ريان الطبري كتابه «الرد على النصارى» دفاعاً لإسلامه لدى جماعته القديمة ، ومؤلفات قاسم بن إبراهيم وحسن بن إبراهيم وسعيد الإسكندراني تعد من هذا الباب أيضاً^(١٢).

نظرة النصارى إلى غير النصارى والمسلمين :

قبل أن ننظر إلى المصادر المسيحية التي تناولت الإسلام في الغرب نريد أن نتطرق إلى نظرتهم إلى الأديان عامة عبر التاريخ .

إن عيسى عليه السلام قد قام بتبليغ النصرانية في الشرق تحت سلطة الدولة الرومانية ما بين (٣٠-٣٣) بعد الميلاد ، إلا أن عيسى عليه السلام لم يشاهد نشر الدين الذي بلغ ، وإنما انتشر دينه بعد موته عام ٣٣ بعد الميلاد في المنطقة من أنطاكية وقبرص وطرصوص وبابولوس وبارناباس وفي أناضول وانتشر حتى اليونان ، ولم ير لا عيسى ولا أتباعه أنفسهم خارجين عن اليهودية بل رأوا دائماً أنفسهم من منسوبي اليهودية ، ولكن بابولوس ومن على شاكلته من النصارى بما أتوا من أفكار انفصلوا عن اليهودية وفتحوا طريقاً لدين جديد وهو ما يسمى النصرانية . وفي الحقيقة أن الانفصال الحقيقي بين اليهودية والنصرانية قد تحقق في ثورة (٧٠) للميلاد حين لم يؤيد النصارى اليهود حين استيلاء الرومانيين على القدس بموجب أن المسيح عليه السلام لم يرغب في الملك الدنيوي ، إثر ذلك قتل اليهود يعقوب ، وذهب النصارى المنسوبون إلى يعقوب بعد ذلك إلى مدينة بلا بآردن ، وبسبب ذلك عدهم اليهود منفصلين عنهم^(١٣).

وقد تحقق انتشار النصرانية بشكل أوسع في أوروبا من العصر الأول بعد الميلاد ، بدأ بانتشار النصرانية التي أسسها بارلوس ، والتي تعرف بنصرانية جنتيل في أوروبا بين القرويين والعبيد بمبدأ فكرة النجاح ، وهناك سبب آخر لانتشار النصرانية ، وهو وجود بعض الأديان التي منشأها الشرق اعتباراً من القرن الثالث الميلادي ، والتي انتشرت في أوروبا عن طريق السر ، ومع كل هذا أن النصرانية استمرت تنتشر سرا كالأديان الأخرى حتى القرن الرابع الميلادي .

وكان النصارى ذاقوا أكبر ظلم في عهد نرون ما بين (٥٤- ٦٨) ، وبسبب هذا الظلم تساند النصارى وأصبحوا قوة منتظمة ، ولكن مقابل هذا التساند أسرع الملك تيتوس Titus Flavius Domitian مع اليهود في إبادة النصارى عام ٨١ م .

ارتاح النصارى في عهد الإمبراطور قسطنطين عام ٣٠٦ م وأعطى لهم حرية الدين التي كان قد منعوا منها إلى عهده ، بل أصدر أمراً عام ٣١٧ م لجعل حريتهم الدينية حرية رسمية ، وفي عام ٣٨٠ م بأمر من Gratianus صارت النصرانية هي الدين الوحيد للدولة ، وفي عام ٣٩٢ م بأمر من Theodosius منعت ثقافات أخرى رسمية وغير رسمية .

والقبائل البربرية التي كانت تأتي من الشمال بدءاً من القرن الثالث الميلادي أحرقوا روما مركز النصارى ، وأجبروا نصارى الغرب على البحث عن الأماكن الأخرى ، وبذلك تحركت حركة التبشير وتوسعت دائرتها ، وقد تنصرت بذلك الإنجليز وبعض القبائل الفرنسية التي يرجع جذورها إلى الألمان . وفي القرون الوسطى ملك بلغاريا بوريس استعان بملك إفرنجة لينصّر شعبه ، وأما ملك البيزنطة قال إن تنصير الشعوب الذين يعيشون في المنطقة الصلاوية على أنفسهم لا على غيرهم . والغرض من إعطاء فكرة موجزة عن انتشار المسيحية هو إظهار أن المسيحية لا تتحمل لدين آخر في المكان الذي يوجد فيه هو . وفي تاريخ أوروبا نرى أن المسلمين عاشوا في تلك القارة مدة طويلة مطبقين الإسلام في حياتهم إلا أن بعد سقوط الأندلس حاولوا على تنصير المسلمين هناك لعدم تحملهم لأكثر من دين في أوطانهم .

الردود المسيحية إزاء شروق السمعة الإسلامية في الغرب :

معلومات النصارى الغربيين عن الإسلام والمسلمين تعتمد على ما نقل إليهم من نصارى الشرق ، ولذلك تلزم الإشارة إلى هذه الحقيقة : إن وعظ النصارى الشرقيين وعلماءهم مثل يحنا الدمشقي كانوا يقومون بأعمالهم الدعوية مبنية على إزالة أثر الدين الإسلامي^(١٤) ، وإن Normal Daniel يرى أن ما يعرفه أهل الغرب عن الإسلام كان مبنياً على أفكار يحنا الدمشقي ، والرسول صلى الله عليه وسلم في نظر يحنا الدمشقي نبي كاذب أخذ بعض معلوماته من العهد القديم والعهد الجديد .

وقد ألف بعض البيزنطيين الذين كان فيما بينهم منافسة سياسية ردوداً على الإسلام ، فكانت هذه الردود هاجمة على الإسلام دون تراث تماماً لرجل جهلهم وسوء نيتهم ، فظهرت بسبب ذلك مؤلفات لا علاقة لها بصلب الموضوع ، وذلك مع الأسف مثلاً وجهة نظر الكنيسة الرسمية تجاه الإسلام .

بعض أسماء المؤلفين البيزنطيين الذين كتبوا ردوداً على الإسلام : Nitecas (٨٤٢م - Evode (القرن التاسع) ، Georges Hamartolos (القرن التاسع) ، وكان Nitecas أكثر تأثيراً في مؤلفاته من غيره ، ألف ثلاثة كتب في حق الإسلام ، وهو يدعي أن القرآن ليس بوحى من الله تعالى بل هو إلهام من الشيطان ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي كاذب والدين الذي أتى به باطل ، وأن محمداً وأتباعه يعبدون الشيطان بدلاً من الله تعالى^(١٥) ، و Evode يتبنى الأفكار نفسها ويقول إن فكرة الألوهية في الإسلام خاطئة ، وهؤلاء ومن شاكلتهم يرون أن محمداً أسس فكرة العقيدة والتوحيد على اليهودية أثناء رحلاته التجارية إلى الشام ولقاءاته مع بعض اليهود ، ويدعون أن موسى عليه السلام والأنبياء الذين جاءوا بعده بشروا بمجيء عيسى ولم يبشروا بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن محمداً كان مصاباً بمرض الهستيريا ، وليس بنبي قط ، وأن ما يعبدّه المسلمون صنم وليس بشيء آخر .

وقد بدأت علاقات الأوروبيين بالإسلام والمسلمين بعد فتح المسلمين للأندلس ، وبدأت الحروب الصليبية عام ١٠٩٥م من قبل البابا الأربان الثاني لإبادة المسلمين الذين دنسوا القدس التي فيها قبر عيسى عليه السلام ، لأنهم كانوا يظنون أن بقاء القدس في يد المسلمين سيمنعهم في المستقبل عن عبادة الحج للقدس ، كما أن عيسى قد لا يتمكن من الملك عند نزوله . وإنهم إذا طهروا المسلمين من أرض القدس كان يتحقق لهم الأمان السابقان ، ولذلك قامت الحروب الصليبية تحقيقاً لأهداف دينية ، واحتلوا القدس في الحروب الصليبية الأولى وقاتلوا اليهود والمسلمين الذين حملوهم مسؤولية دم عيسى عليه السلام أشد القتال ، وروي أن عدد القتلى من المسلمين في يومين وصل إلى أربعين ألف مسلم ، ولكن أثناء قتالهم لغير النصارى لم يتركوا المنسوين للمسيحية في الظلم عليهم حتى اضطر Nicetas وذكر أن الجيش الصليبي كان أشد على النصارى من المسلمين (١٦).

كان هناك في الغرب محاولة للتعرف على الإسلام ما بين (١٢٥٠ - ١٢٧٠) ، بدأت بتأسيس مؤسسة باسم Studium Arabicum بأمر من Raymond Martin وبجانب ذلك كان يأمر كنسل قِينًا بتدريس اللغة العربية في جامعة روما وباريس وأكسفورد . ومع أن كنسل بآله Bale قام بذلك ما بين (١٤٣١ - ١٤٤٩) ، ولكن لم تتحقق أيضًا النظرة الصحيحة للإسلام ، لأن غرضهم الحقيقي في ذلك لم يكن التعرف على الإسلام ، وإنما كان الوصول إلى ردود قوية على الإسلام والمسلمين ، ولذلك استمر ما قالوه في حق الإسلام من أنه باطل ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم نبي كاذب .

وبجانب استمرار هذه الردود ما بين القرن الخامس عشر والسادس عشر ، بدأت تنتشر ولو بقليل بعض المفاهيم الصحيحة عن الإسلام والمسلمين .

مع بداية التنوير والتشكيك انتشرت أفكار ضد جميع الأديان بما فيها الدين المسيحي ، حيث وصفوا محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه أسس دينا معقولا ، وفي

الوقت نفسه ذكروا بعض العبارات التي تسيء لمحمد صلى الله عليه وسلم . وفي القرن التاسع عشر بدأت حركة التبشير تتوسع أكثر ، فانتشرت بهذه الحركة السائدة أفكار ضد الأديان وخاصة ضد الإسلام حتى ادعت الكنيسة بأن الإسلام يحتوى على بعض الأخطاء والضلالات الأخلاقية ، ورغم هذه الآراء الاعتدائية كانت هناك بعض المؤلفات مثل : كتاب الأبطال لـ Carily يعد فيه محمدا صلى الله عليه وسلم من الأبطال ، وكثرت في هذا القرن معاهد تهتم بالبحوث الإسلامية في أنحاء أوروبا بجانب ما كثرت الوحدات التبشيرية والاستعمارية في الوقت نفسه ، حتى ظهرت الاستشراقية Orientalism وظهرت بذلك مجموعة تسمى بـ «المستشرقين» الذين يدرسون علوم الشرق .

وقد قام هؤلاء المستشرقون كما قلنا ببحوث إسلامية ولكنهم تجاهلوا في بحوثهم من سوء قصد الجوانب التي يهتم بها الإسلام من حضارة وتاريخ واهتمام بالإنسان جسما وروحاً واقصروا على بعض الجزئيات لينبأوا حقدهم وعداوتهم على تلك الجزئيات التي لا تعد من أصول الإسلام . والبحوث الإسلامية بشكل عام متجهة في أوروبا إلى إساءة الإسلام والمسلمين .

نظرة النصارى إلى الأديان الأخرى :

ونستطيع أن ندرس نظرة النصارى إلى الأديان الأخرى عبر التاريخ في نقاط ثلاثة ، وهي :

أ) الإخراجية : الفكرة الأساسية لمذهب الإخراجية هي : أنه لا خلاص لمن يبقى خارج عقيدة الكنيسة ، وتعتمد هذه الفكرة على بعض المشاهير لدى النصارى مثل : Klement and Origen ويرى أن النموذج الأول العملي لهذه الفكرة كان للبطريق الإسكندراني Ignatius .

ب) الشمولية : إن هذه الفكرة ترى أن النجاح يشمل النصارى والذين يتبعون عيسى عليه السلام فقط .

جـ) التعددية pluralism : هذه الفكرة حديثة ظهرت بسبب العولمة ، يقتضيها ظروف الدنيا ، وهي تقول : إن الأديان كلها من غير تفريق توصل الإنسان وأتباعه إلى الخلاص وإلى الرب بطريق سواء ، و John Hick, Cantwell Smith and Paul F. Knitter وغيرهم من النصارى يدافعون عن هذه الفكرة .

بداية الحوار من قبل النصارى تجاه المسلمين :

التغيرات التي حصلت في القرن العشرين في المجالات السياسية والاقتصادية أثرت على عالم النصارى وخاصة على الكاثوليكين ، ومن أجل ذلك قررت الكنائس الكاثوليكية وغيرها اجتماعا خاصة لدراسة الأوضاع ، واستمرت الاستعدادات لهذا الاجتماع ثلاث سنوات (١٩٦٢ - ١٩٦٥) ثم اجتمع الكنسل في فاتيكان واشترك فيه ألفان وثمانمائة وستون شخصا من إحدى وأربعين دولة . والبطريق الثالث والعشرون قال في افتتاح هذا الكنسل : يلزم من توسيع دائرة الحوار حتى يشمل جميع الناس ممن يعيش في أوروبا وخارج أوروبا ، ووقف بالخصوص على وسائل اجتماع النصارى بمختلف مذاهبهم . وفي نوفمبر من عام ١٩٦٤م صوّت ٢١٥١ عضواً من أعضاء الكنسل مقابل ٢١ صوت لصالح إدخال نص في الكنسل يتعلق بالمسلمين ، وهو أن فكرة الخلاص تشمل كل من يؤمن بالخالق ، وكل من يعبد الله ، وهناك نص آخر جاء فيه : إن الكنيسة تنظر إلى المسلمين أيضاً باحترام وتقدير لكونهم ، وعدت المسلمين عابدين طالبين الخلاص مثلهم ، وعدت المسلمين أيضاً معترفين بنبوة عيسى عليه السلام ولو لم يعترفوا بألوهيته ، وهم أيضاً يحترمون مريم أم عيسى عليه السلام ، ويؤمنون بيوم القيامة ، ويصومون ويدعون ويتصدقون . ودعا الكنسل إلى نسيان ما حصل في العصور السابقة من عداوة وحقد وتحقيق العدالة والسلام ورفع شأن المبادئ الأخلاقية ، ولتحقيق هذه المطالب أسسوا عام ١٩٦٤م سكرتريا الأديان غير النصرانية ، وهذه السكرتريا توجد في روما ،

وكان الرئيس الأول لها كاردينال Marella (١٩٦٤ - ١٩٧٣) ثم كاردينال Pignedoli (١٩٧٣ - ١٩٨٠) ، ثم صار كنسلا للحوار بين الأديان ويرأسه حاليا كاردينال Arinzi .

فهم النصارى للحوار وما ينتظرونه من هذا الحوار :

الدراسات القائمة اليوم عن الحوار ، فلا شك أن فيها شيء من المشاكل والصعوبات ، وهذه المشاكل ناتجة عن سوء النية ، وبالطبع سوء النية يمنع من الحوار الناجح ، وقد حورب الإسلام بسبب الشك وسوء النية من قبل الحروب الصليبية من جهة ومن قبل المستشرقين من جهة أخرى ، وذلك نظر المسلمون إلى هذا الحوار بعين الشك ، وهذا الشك وارد لا مفر لما يدور من المناقشات التي تدور في العالم الكاثوليكي والوحدة الكنيسية العالمية حول ماهية الحوار .

وهناك من يفهم في العالم المسيحي من الحوار أن الحوار هو إيصال رسالة المسيح التي هي واجب الكنيسة في الدرجة الأولى إلى الأمم الأخرى ، بجانب من يفهم أن المراد بالحوار هو الاعتراف بالأديان الأخرى ، والذين يتبنون الرأي الثاني يمثلون الأكثرية .

ولهذا اجتمع رؤساء المجلس البابوي للحوار بين الأديان مع مسؤولي منظمة تبشير الناس في عام ١٩٨٦م بهدف تعيين العلاقة بين الحوار ومهمة نشر الدعوة المسيحية ، وسعوا إلى إنشاء وثيقة رسمية فيها حدود الحوار وبيان نشر دعوة المسيح إلى جميع الناس في العالم . وتوصلوا إلى بعض النتائج ثم أعلنوا هذه النتائج التي تمت الموافقة عليها عام ١٩٩١م للتنفيذ .

وفي هذه الوثيقة بيان لمهمة الكنيسة للتبشير على صورة واسعة ، ولا يتصور الحوار خارج هذا النطاق ، ولهذا فإن الحوار يعد جزءاً لا يتجزأ عن سياسة التبشير ، ولذلك يحاولون لإثبات عدم المضادة بين الحوار والمهمة ، والحوار يعد عملية مهمة تهيج جوا للحرية الدينية والتسامح .

ويرى Taylor أن الحوار ليس يقوم مقام التبشير بل هو نوع من التبشير ، فلا بد منه للأعمال التبشيرية بين المسلمين . وفي نظر سكرتريا الأديان غير المسيحية أن الحوار في ذاته ليس بتبشير بل هو وسيلة تفتح نوافذ للحركة التبشيرية والتنصيرية^(١٧) ، وهذا الفهم للحوار نراه في بعض العبارات للبابا باوول الرابع .

كل ما تقدم يدل على أن المسيحية تعد الأديان الأخرى أقل شأنًا منها ، ولا وزن لها عندها ، وترى الحوار أيضًا سبيلًا لتقديم المعتقدات المسيحية إلى الناس ، ونستطيع أن تعد هذه الاتجاهات المسيحية وسيلة لتحقيق نظرية «الشمولية» المذكورة سابقًا .

نظرة المسلمين إلى الحوار وما ينتظرونه من الحوار :

فلا مانع لدى المسلمين في دخول الحوار مع الأديان الأخرى عامة ومع المسيحيين خاصة ، وذلك على ضوء تجاربهم التاريخية من ناحية وعلى ضوء المتون المقدسة السانحة للحوار ، لأن القرآن الكريم يخبر أن الله تعالى خلق الناس وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا^(١٨) ، ويخبر أيضا أن الله تعالى ينهى عن الإكراه في الدين ويأمر المسلمين أن يجادلوا من لم يعتنق الإسلام بالتي هي أحسن ، ويأمرهم أيضًا أن يتركوهم إن لم يؤمنوا ويبقوا بعهد الذمة أفرادا في المجتمع الإسلامي . وهذه الأسس القرآنية انعكست على التطبيقات التاريخية ، وبالتالي فإن المسلمين عاشوا في المجتمع الإسلامي مع غير المسلمين على مر العصور . إلا أن معظم المسلمين على الرغم من كل ما سبق نظروا إلى هذا الحوار بالشك للتجارب التاريخية للحوار السالف الذكر .

والذين يؤيدون الحوار رغم كل شيء فلهم في أمر الحوار بعض الاعتراضات وهم يرون أن العالم المسيحي يقوم بعملية الحوار على خطة مدروسة ، وأكبر دليل على ذلك أنهم أنشأوا جمعيات متصلة للحوار خلال هذه الفترة كلها دون أي نشاط بعد هذا القرار في عام ١٩٦٤ م .

ويرى حسن العسكري أن المسلمين لم يكونوا مستعدين للحوار ، ولذا فإنهم في قلق من الدخول في هذا النوع من الاتصال ، ومن جانب آخر فإن المسيحيين أضافوا إلى الحوار معنى جديداً مسيحياً سموه بـ «حوار الخلاص» ، وأما المسلمون نظروا إليه مصطلحاً ليس له اتصال كثير بمعنى ديني ، بل عدّوه وسيلة اتصال بين الناس يرمي إلى حل بعض المشاكل مثل مشكلة فلسطين .

التقييم والمقترحات :

إذا نظرنا إلى العلاقات بين الإسلام والمسيحية نستطيع أن نقول : إن العلاقات السياسية والدينية لعبت دوراً فعالاً في ذلك ، إلا أن العالم الإسلامي من فجر الإسلام إلى يومنا هذا سمح للتعددية ثقافياً ودينياً في المجتمع الإسلامي ، ولهذا أعطى الحرية الدينية والثقافية لأصحاب الدين والمعتقدات المختلفة بشرط أن يكون هو نفسه مهيمناً عليهم ، وسعى لإنشاء بناء اجتماعي مبني على أساس من العدل ، وأقوى دليل على هذا أننا نرى في الفقه الإسلامي أن الإسلام مبني على أسس مهمة مثل : حفظ الدين ، وحفظ المال ، والنسل ، والنفس ، والعقل ، وليس هناك أي فرق في هذه الأمور بين المسلم وغير المسلم .

والمسيحية في الحقيقة قد تعرضت لأنواع من الظلم إلا أنها لما أصبحت ديناً للدولة قام أصحابها بظلم أصحاب الأديان الأخرى ، ومنهم من لم يعتنق بالإسلام ، ولا شك أن هذا شيء عجيب ، لأن المسيحية لم تسمح في المناطق التي هي مهيمنة عليها أن يوجد فيها من يعتنق ويدين بغيرها ، ونتيجة لهذا لا نرى في أوروبا وأمريكا ديناً غير المسيحية غير بعض المجموعات الضئيلة ، ولا شك أن لليهودية في تلك المناطق استثناءات خاصة بها . ومع هذا كله نستطيع أن نعتبر موقف المسيحية تجاه الحوار نقطة التحول حين نظرنا إلى الماضي ، وكذلك لا يمكن التجنب - كيفما كان الداعي - عن هذا الحوار بين الأديان ،

فإن التجنب عن الحوار باسم الدين مفسدة ووبال ، حيث إن الدين بدأ يتقدم تدريجياً ويلعب دوراً أكثر حتى الناس بدأوا الآن يذكرون هويتهم الدينية مع أن المنتظر كان أن يفصل الدين عن الحياة ويبقى بين الشخص وربه ، وهذا هو الذي سعوا من أجله .

أما ما حدث في السبعينيات فبدأ يوجب بضرورة تغيير الاتجاه الغربي الحديث التقدمي للإدراك على مستوى العالم فيما يتصل بدور الدين عبر التاريخ ، لأنه في هذه الفترة انضغ وضوحاً كاملاً أن الدين له دور مؤثر في حياة الفرد والمجتمع وكذلك علينا أن لا ننسى دور الدين في يومنا هذا في تعيين النظام السياسي والاجتماعي^(١٩) . ومن الممكن أن نقول فيما يتصل بالأسس المكونة لهذه الظاهرة إن العالم الحديث يسعى لإشباع الناس من الناحية المادية الصرفة ، ويسعى أيضاً جعل الحياة على نمط واحد وكذلك الناس على نمط واحد ، ويقصد بهذا كله تسوية الناس وإزالة الفروق فيما بينهم . وكما ذكرنا آنفاً أن الامتناع عن الحوار يحمل مسؤولية كبرى على أعناق المتدينين ، لأن السياسيين أحياناً يتجهون لحل مشاكلهم إلى الحروب للسيطرة على ما يريدون .

والحوار فرصة لا بد من الاستفادة منها من قبل المسلمين ، بغض النظر عما ذكرناه من نظرة النصارى إلى الحوار ، لأن المسيحيين وغيرهم لم يكونوا في يوم من الأيام مفتوحين للحوار الذي نتحدث عنه كما كان اليوم ، حيث إن عدداً كبيراً من غير المسلمين يشتررون المصاحف ليتعلموا ما فيه ويقرأون بعض الصفحات من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه ظاهرة لا ينكرها أحد .

وفي الختام أجد نفسي تلحُّ من جديد علي تقديم شكري الخالص لأصحاب الفضل وذويهم ولا سيما مكتبة الملك عبدالعزيز ممثلة في رئاسة اللجنة التحضيرية لهذه الندوة العلمية الناجحة بإذن الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الهوامش

- (١) الحضارات القديمة كان كل منها تحكم على جزء مخصوص من العالم ، وأما الحضارة الغربية أصبحت بمثابة حضارة عالمية شاملة لكل جزء من أجزاء العالم .
Mete Tunça, Moderniteyle Birlesmenin Yolları Olabilir mi? Teorinin)
(Aynasından Görülen Pratik, Yapi Kredi Yay. Istanbul, 1995
- (٢) "Medeniyet, Din ve Çatışma" Binnaz Toprak, مؤتمر دولي للحوار بين الحضارات ، سبتمبر ١٩٩٨ م ، من منشورات بلدية ديار بكر ، ص ١٣٥ .
- (٣) الدكتور محمد أيدين ، النظرة إلى الحوار المسيحي الإسلامي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باللغة التركية ، إستانبول ، ١٩٩٣ م ، ص ٨١-٩٥ .
- (٤) انظر للتوسع مادة «غير المسلم» من الموسوعة الإسلامية لرئاسة الشؤون الدينية ، ص ٤١٨ .
- (٥) إدارة الدولة في الإسلام للشيخ محمد حميد الله ، إستانبول ١٩٦٣ م ، ص ٢١٣ (باللغة التركية) .
- (٦) سورة المائدة ، الآية ٦٩ .
- (٧) سورة التوبة ، الآية ٢٩ .
- (٨) النصارى في المجتمع الإسلامي للدكتور لوند أوزنرك ، إستانبول ، ١٩٩٨ م ، ص ١٨٦ (باللغة التركية) .
- (٩) الكنيسة السريانية ، لإسحاق المطران ، دمشق ، ١٩٧٥ م ، ص ٧٨ .
- (١٠) نظرة النصارى إلى الإسلام للدكتور عمر فاروق حرمان ، إستانبول ، ١٩٩٣ م ، ص ٩٨ (باللغة التركية) .
- (١١) المواضع التي كتب فيها المسلمون ردوداً على النصارى للدكتور محمد أيدين ، قونية ١٩٨٩ م (باللغة التركية) .

- (١٢) دراسة كتاب الرد على النصارى لعلي بن ريان الطبري ، رسالة الماجستير لقؤاد آيدين ، جامعة مرمره ، ١٩٩٤م ، ص ٣٨ .
- (١٣) I, 359, Eliade, The history of Religious Ideas .
- (١٤) الإسلام الساحر لأوربا ، لـ Maksim Rodinson ص ١٧ ، (ترجمه إلي اللغة التركية الأستاذ جميل مريح) .
- (١٥) المرجع السابق للدكتور عمر فاروق حرمان ، ص ١٠٠ .
- (١٦) المرجع السابق للدكتور محمد آيدين ، ص ٤٦ .
- (١٧) المرجع السابق للدكتور محمد آيدين ، ص ١٦٢ .
- (١٨) انظر الآية ١٣ من سورة الحجرات .
- (١٩) الحوار بين الثقافات والمعتقدات لطارق متري ، ص ٩٢-٩٣ ، (مؤتمر حوار الثقافات ، بلدية إستانبول ، باللغة التركية) .

المراجع

- ١ . النظرة إلى الحوار المسيحي الإسلامي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
للدكتور محمد أيدين ، باللغة التركية ، استانبول ، ١٩٩٣ م .
- ٢ . الموسوعة الإسلامية لرئاسة الشؤون الدينية التركية .
- ٣ . إدارة الدولة في الإسلام للشيخ محمد حميد الله ، استانبول ، ١٩٦٣ م ، (باللغة التركية) .
- ٤ . النصارى في المجتمع الإسلامي للدكتور لوند أوزترك ، استانبول ، ١٩٩٨ م ،
(باللغة التركية) .
- ٥ . الكنيسة السريانية ، لإسحاق المطران ، دمشق ، ١٩٧٥ م .
- ٦ . نظرة النصارى إلى الإسلام للدكتور عمر فاروق حرمان ، استانبول ، ١٩٩٣ م ،
(باللغة التركية) .
- ٧ . المواضع التي كتب فيها المسلمون ردودا على النصارى للدكتور محمد أيدين ،
قونية ، ١٩٨٩ م (باللغة التركية) .
- ٨ . دراسة كتاب الرد على النصارى لعلي بن ربان الطبري ، رسالة الماجستير لفؤاد
أيدين ، جامعة مرمره ، ١٩٩٤ م .
- ٩ . الإسلام الساحر لأوربال Maksim Rodinson ، ترجمه إلى اللغة التركية الأستاذ
جميل مريج .
- ١٠ . الحوار بين الثقافات والمعتقدات لطارق متري ، مؤتمر حوار الثقافات ، بلدية
استانبول ، باللغة التركية .

الحوار في الإسلام

المحور الثالث : الحضارة المعاصرة : تجارب وممارسات

معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي (*)

المستخلص

- * الحوار بين الحضارات لابد وأن يمتد إلى الحوار بين الأديان ، لأن الدين يشكل عنصراً أساسياً في الحضارات كلها .
- * والإسلام منذ بزوغ شمس الرسالة تبنى مخاطبة أهل الدين بالعقل ، والحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، كوسيلة للحوار ، والاقتناع .
- * وليس الهدف من الحوار بين الأديان أن يعرض علينا أهل الأديان ما لديهم من دين لتبعية نحن المسلمين ، وإنما يعرضون ما عندهم من حجج عقلية ، ونعرض ما عندنا من حجج عقلية حتى يتبين لهم أن الدين الإسلامي لا يخالف العقل السليم ، بل يتفق مع الفطر السليمة .
- * ولا يقوم بالحوار مع أهل الكتاب أو غيرهم إلا من توافرت لديه شروط المحاوراة والمناظرة ، ويملك رصيذاً كافياً من الذكاء واليقظة والحجج ، نحو القضايا التي يثيرها الغرب إزاء حقوق الإنسان ، والمرأة ، والميراث ، وتعدد الزوجات ، والطلاق وعلى درجة من الأخلاق ، ومعرفة بمحاسن الإسلام ، وسماحته ، وما يهدف إليه من تطهير المجتمع من الرذائل ، وتحلي أبنائه بالفضائل .

(*) الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي ، شغل وظائف رئيسة منها : وكيلاً لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، أميناً عاماً للدعوة الإسلامية برتبة وكيل وزارة . ٢٠٢٠ ع

- * ولقد عالجت رابطة العالم الإسلامي موضوع (الحوار المسيحي الإسلامي) في أربع دورات من دورات المجلس التأسيسي للرابطة وذلك في الدورة (١٨) المنعقدة عام ١٣٩٦هـ، و (٢٩) المنعقدة في عام ١٤٠٩هـ، و (٣٣) المنعقدة في عام ١٤١٤هـ، و (٣٦) المنعقدة في عام ١٤٢١هـ، وكان رأي المجلس محاوره النصارى فيما يتعلق بالأمور الدنيوية الإنسانية، كالسلام العالمي، ومكافحة المخدرات، والجرائم.
- * أما ما يتعلق بالحوار في الأمور العقيدة فمتروك لتقدير الرابطة وغيرها من الجهات الإسلامية، شريطة أهلية المحاور، والمناظر.
- * وضرورة أن يكون الهدف من الحوار بين الحضارات تعريف غير المسلمين بالإسلام ومحاسنه، ومدى سماحته في التعايش مع الحضارات الأخرى التي لا تتعارض معه، ومدى حرصه على رفض تلك المفاهيم الغربية التي تدعو إلى الانحلال، والتفسخ، وتفكك الأسر... تلك المفاهيم الانحلالية التي يؤمن بها الغرب، ويريد فرضها على الآخرين.
- * والاعتراف بالحقيقة: فالمسيحيون اليوم يعرفون تفوق الدين الإسلامي على الأديان الأخرى المعاصرة بدليل أنه أكثر الأديان انتشاراً في الوقت الحاضر؛ لأن أحكامه وقوانينه سماوية لم تبني على أساس مصلحي أو شخصي، أو آني كما هي الحال في الغرب.
- * كما أن لدينا ما ليس لديهم (من الدين والإيمان) ما يكفل السعادة الروحية، والاطمئنان النفسي، وذلك ما يفقده الغرب الذي وصل بهم الانتحار حداً أقلق القسيسين والرهبان على حد سواء.
- * وإذا كان بعض الغربيين يرى بأن الشرق سيظل شرقاً على دينه، وأن الغرب سيظل هو كذلك ولن يلتقيا، فإن الإسلام يرى بأن الأرض أرض الله، والخلق عبيد لله، فكل ما كان شرقاً أو غرباً من المعمورة هو أرض لدينه القويم دين الإسلام الحنيف.

- * والإسلام يرى أنه لا محل في التعاون العالمي فيما بين البشر لقوميه عنصرية تدعي لنفسها حقاً على سائر الناس ، فالمؤمنون سواسية كأسنان المشط ، المساواة تسودهم والعدل يحكمهم .
- * والإسلام يدعو إلى استغلال المال وتنميته بطرق مشروعة ، وهو حق للجميع لا لطبقة دون أخرى ، ولا ملكاً لطبقة تحرم منه طبقة أخرى ، فالتكافل الاجتماعي من أهم أهداف الإسلام .
- * كما أن الإسلام يدعو إلى إعمار الأرض لا إفسادها ، ولا إفساد مناخها ، أو تلويث مياهاها ، ليعيش عليها الإنسان وحقوقه مصانة ، فحقوق الإنسان أيا كان ذلك الإنسان غير منقوصة ، دون الالتفات إلى لونه ، وجنسه ، دون انتقاء ، أو اختيار أو الكيل بمعيارين ، أو تحيز لفئة دون أخرى ، أو تأمين طائفة ، وإرهاب أخرى .
- * مع ضرورة تحديد مصطلح للإرهاب حتى يتفق عليه في الحوار بين الحضارات ، وإذا كان تعريفه بما هو سائد في الإعلام فالإرهاب ليس محصوراً بفئة أو جنس ، أو طائفة أو بلد ، فهو منتشر في الجهات الأربع ، وفي أكثر من مكان ، وليس سمة لاصقة بالمسلمين كما يزعم الغرب .
- * وينهج الإسلام نهجاً وسطاً بالمرأة المسلمة حفاظاً على الأسرة وبناء المجتمع النظيف ، فهي تعمل في مجالها ، وتربي أبنائها وبناتها وتهتم بزوجها وبيتها ، محافظة على صحتها وشرفها ، فلا انغلاق ، ولا انفلات ، أو تحلل كما هي في الغرب .
- * ويرفض الإسلام العولمة ، وهي ذلك النظام الجديد الذي يستظل بالأمم المتحدة ؛ لتقنين مبادئها في شؤون الحياة كلها (دينيًا ، وثقافيًا ، وسياسيًا ، واقتصاديًا ، واجتماعيًا) ، وتضع نظاماً جديداً مخترعاً لنظام البشرية على طريقة الغربيين الطابخين لها حتى لو كانت مخالفة للدين أو الأخلاق والقيم . . . مما يهدد جميع الديانات والثقافات في العالم .

النموذج السعودي :

المسلمون ليسوا بحاجة إلى العولمة ، فكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه غنيان عن ذلك ، والمسلمون مدعوون للتمسك بهما .

والجهود التي تبذلها المملكة العربية السعودية للحفاظ على الهوية الإسلامية واجب إظهارها للمسلمين وغير المسلمين منذ عهد الملك المؤسس عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود - يرحمه الله - وحتى عهد خادم الحرمين الشريفين حفظه الله ، وذلك في :

١ - تحكيم شرع الله في جميع شؤون الحياة مما حقق لها أمناً لا نظير له في أصقاع المعمورة .

٢ - مساعدة المسلمين في الخارج سواء في بناء المدارس والمساجد والمؤسسات الإسلامية ، أو بعث الدعاة والمرشدين الأكفاء ، أو مساعدة المحتاجين عبر اللجان الإغاثية في أصقاع المعمورة ، واستضافة عدد من المسلمين لأداء الحج والعمرة وتوسعة الحرمين الشريفين .

٣ - في مجال التضامن الإسلامي لم تدخر وسعاً في لم شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم ، واتسع الأمر في عهد خادم الحرمين الشريفين فشمّل الخير أنحاء المعمورة ، وحل الأمن بالبلاد والعباد .

وأخيراً مواجهة ما يتعارض مع الإسلام من العولمة ببيان محاسن الإسلام ، وبيان أن الدين الإسلامي يكفل السعادة للجميع بإصلاح النفس أولاً ، ثم ببناء المساجد والمدارس لأبناء المسلمين في الغرب ، وإرسال الدعاة الأكفاء ذوي الأخلاق والتعامل الحسن .

الحوار في الإسلام

المحور الثالث : الحضارة المعاصرة : تجارب وممارسات

تمهيد:

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على نبينا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، أما بعد :

فإن العالم يشهد العديد من حلقات النقاش الموسعة حول ما يسمى بحوار الحضارات ، ويتصل بهذا الموضوع الذي استحوذ على اهتمام المؤتمرات الثقافية الحوار بين أتباع الأديان ، تعلق بعض أطراف الحوار على ذلك بأنها ترمي إلى الحيلولة دون وقوع صدامات بين الشعوب المختلفة ، وبعضها يبطن أهدافاً خفية لتحويل الحوار إلى وسيلة لهدم الإسلام ، ولا يزال كثير من الباحثين في الغرب يتعاملون مع حضارة الإسلام ، على أنه في مقدمة الحضارات المتصارعة ، وأنها سوف تصطدم لا محالة بالحضارة الغربية ، وذلك لإثارة الفزع لدى شعوب الغرب من المد الإسلامي في بلادهم وفي العالم .

ورغم ما ذكر من تراجع صموئيل هنتجتون عن نظريته في الصراع التي ضمنها كتابه «صراع الحضارات» فإن كثيراً من الغربيين ما زالوا ينطلقون في التعامل مع الإسلام والمسلمين من خلالها ، حيث كان قد اعتبر أن الغرب الذي انتهى من الصراع مع الشيوعية (العدو الأحمر) بعد سقوطها ، عليه أن يستعد لمواجهة الإسلام الذي سُمِّاه هنتجتون (العدو الأخضر)^(١) .

ورغم ما شهدته السنوات العشر الأخيرة من تكاثر حملات النقد للحضارة الإسلامية في الغرب ، ومحاولات التعطيم الإعلامي والتجهيل الثقافي بأسس الحوار الحضاري البناء في الإسلام ، فإنَّ لدى بعض المؤسسات العلمية والثقافية في الغرب رصيذاً معاصراً من بحوث التأثير والتأثير بين الحضارة الإسلامية وحضارات الغرب في التاريخ ، وقد شهدت كثير من هذا البحوث والندوات باحتواء الإسلام على مقومات حضارية ينبغي على البشرية أن تستفيد منها للتخلص من مشكلاتها التي برزت بعد الحرب العالمية الثانية، يقول الدكتور فؤاد محمد سيزكين حول الحوار الحضاري بين المسلمين والغربيين : «إن النقاش حول القضية ليس بجديد ، لقد تناولها المسلمون والمستشرقون كثيراً ، وازداد الاهتمام بها خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، لقد انعقدت ندوة علمية في مدينة فرانكفورت في سنة ١٩٥٦م حول موضوع قضية تقليد الطراز الكلامي . والانهيار الثقافي ، فعالج اثنا عشر عالماً الموضوع فيما يتعلق بالحضارات المختلفة ، ومن بينها الحضارة الإسلامية ، ثم تبع تلك الندوة بعدة شهور ندوة أخرى في مدينة بورديو بفرنسا ، عُقدت لمعالجة هذا الموضوع بعنوان «تقليد الطراز الكلاسيكي والزوال الثقافي في تاريخ الإسلام» فأسهم تسعة عشر عالماً ببحوثهم في معالجة القضية .^(٢)

على أن الحديث عن الحوار بين الحضارات في هذا العصر ، لا بد أن يمتد إلى الحوار بين الأديان ، حيث إن الدين يشكل عنصراً أساسياً في كل الحضارات ، في وقت انهارت فيه الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم بسبب ثورة الاتصالات والمواصلات ، فلم تعد الشعوب تعيش في جزر منعزلة عن بعضها ، بل أصبح هناك تداخل حضاري وتشابك ثقافي بشكل لم تعرفه البشرية من قبل .

لقد بنى الإسلام منذ ظهوره الدعوة إلى مخاطبة أهل الأديان بالعقل والمنطق لذلك اتخذ من العقل والحكمة والإرشاد والمجادلة بالحسنى وسيلة في الحوار لإقناع

المخالفين كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ .

وليس المراد بالحوار بين الأديان في المفهوم الإسلامي أن يعرضوا ما لديهم من الدين حتى تتبعه نحن المسلمين ، وإنما المراد أن يعرضوا حججهم العقلية ونحن نعرض حججنا العقلية حتى يظهر لهم أن الدين الإسلامي لا يخالف العقل الصحيح ، بل هو يتفق مع الفطرة السليمة .

ولكن الجانب الآخر من يهود ونصارى قد نشطوا في العمل ضد الإسلام بنشر الافتراءات والأكاذيب حوله لهدم جوهره : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ البقرة / ١٢٠ ، وقد زاد هذا الافتراء وتعاضم في العصر الحديث ، ونتيجة لسهولة بث الافتراءات والأكاذيب في وسائل الإعلام العالمية التي عليها اليهود .

وقد استعمل الغرب المسيحي وسائل غير مشروعة ، كان على رأسها الاستعمار الغربي للدول الإسلامية ، الذي تم تسخيره لخدمة أغراض التنصير ، واقترن التنصير بمعونات الغذاء والكساء والدواء .

وبعد انتهاء مرحلة الاستعمار العسكري وحلول الغزو الثقافي والاقتصادي مكانه ، بدأت دعوة الحوار الإسلامي المسيحي بحماس شديد من قبل الفاتيكان . .

ويجب أن يكون الحوار بين المسلمين وبين أهل الكتاب وفقاً للآية الكريمة ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأننا مسلمون ﴾ .

فهذا هو المبدأ الأساسي الذي ينبغي أن يقوم عليه الحوار مع أهل الكتاب .

أما وسائل الجدل العقلي والبيان للحق سواء أكان على هيئة أحاديث أم محاضرات أو إيضاحات أو رسائل فإنه مطلوب في كل وقت ومع أهل كل دين سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم .

وعلى من يقوم بإجراء الحوار على هذا الأساس مع أهل الكتاب أن يكون ملماً بما

يلي :

- * الحوار مع أتباع الأديان من أهل الكتاب وضوابطه .
- * العلاقة مع الغرب وموقف الغربيين من الإسلام .
- * المسؤولية الإسلامية في بيان الحق بالحكمة والموعظة الحسنة :
- حقوق الإنسان وتكريمه وحمايته .
- ربط العلم بالإيمان لإسعاد البشرية .
- إرساء مكارم الأخلاق في المجتمع الإنساني .
- تأصيل مبادئ السلام في العالم .
- مكافحة أسباب الحروب والمظالم .
- التعاون في إعمار الأرض .
- حسن استغلال المال .
- قضايا المرأة والأسرة والمجتمع .
- المحافظة على صحة الإنسان .
- المحافظة على سلامة البيئة ونظافتها .
- سبل التعاون الدولي السليمة .
- العولمة .

مبدأ الحوار في الإسلام :

الإسلام هو دين الإقناع والافتناع ولذلك حفل القرآن الكريم بوسائل الإقناع العقلي وأمر باستعمال العقل لفهم ذلك وغيره كما قال تعالى : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ ، وحث على التفكير في الكون فقال : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ وقال : ﴿ وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها

زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿ وبالمقابل ينكر القرآن الكريم على أقوام لا يستخدمون عقولهم فيقول : ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴿ بل يضعهم في درجة دون مستوى الحيوانات العجماء ، فيقول : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴿ .

ومن أجل احترام العقل والحث على استخدامه ، رتب الإسلام العقاب على بلوغ الحجة كما قال تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴿ ، وأرسل الرسل ليبين للناس ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ﴿ ، حتى إنه لا بد من مخاطبة الناس بلغتهم كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴿ .

لذلك كان الإسلام دين العدل ، كما في قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴿ .

وقد طبق المسلمون القسط على المستوى اللائق بالإنسان ، سواء في معاملة من لا يؤمن بالإسلام وبمبادئه ، أو في نظافة المجتمع من الفاحشة ، أو الخدمات الإنسانية التي تقدم للناس ، ويشهد التاريخ أن معاملة المسلمين لغير المسلمين في البلاد المفتوحة كانت مثلاً رائعاً للعدل لا مثيل له في التاريخ ، ويتضح ذلك عند مقارنته بما فعلته الأمم الأخرى كالبابليين بالإسرائيليين والرومان بأهل شمال إفريقيا والإسبان بأنسال العرب في إسبانيا .

ومجرد إقرار مبدأ الحوار يعني الاعتراف بالطرف الآخر ، وإشراكه في البحث عن القواسم المشتركة ، وخدمة السلم والتفاهم وحسن الجوار وهذا من العدل والحكم بين الناس بالقسط .

ومع التسليم بإمكانية وجود نوايا استغلالية وأهداف تنصيرية لدى دوائر معينة في الجانب الآخر ، لكن الوعي والحذر والالتزام كفيل بأن يحبط هذه النوايا .

ما قرره المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي :

بحث المجلس التأسيسي للرابطة موضوع الحوار المسيحي الإسلامي في أربع دورات من دورات انعقاده ، فجاء في قرار الدورة (١٨) المنعقدة في ٢١ القعدة ١٣٩٦هـ / ١٣ نوفمبر ١٩٧٦ م :

مؤتمر الحوار المسيحي الإسلامي :

- درس المجلس الدعوة التي تلقتها الأمانة العامة للاشتراك في المؤتمر المسيحي الإسلامي الذي ينظمه مجلس الكنائس العالمي في جنيف في يناير ١٩٧٧ م ، وقرر :
- ١ . الموافقة على الاشتراك في هذا المؤتمر وغيره من المؤتمرات المماثلة بشرط أن يكون المقصود من ذلك بيان الحق الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ وبطلان ما سواه من الأديان .
 - ٢ . أن يتولى تمثيل الرابطة فيها العلماء المختصون بالمواضيع المطروحة في جدول أعمالها .

وقد عهد المجلس باختيار الشخصيات الإسلامية التي ستقوم بتمثيل الرابطة في تلك المؤتمرات إلى لجنة سداسية مكونة من بعض أعضائه ، وقد وافق المجلس على الأسماء التي رشحتها اللجنة المذكورة على أن تزداد حسب الحاجة طبقاً لتقدير الأمانة العامة ، وتلك الأسماء هي :

- | | |
|--|----------|
| (١) فضيلة السيد الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي | الهند |
| (٢) سعادة الأستاذ ظفر إسحق الأنصاري | باكستان |
| (٣) سعادة خورشيد أحمد | بريطانيا |
| (٤) سعادة الدكتور زكي عبد البر | مصر |
| (٥) سعادة الدكتور سعيد شبيان | الجزائر |

- | | |
|---------------------------------------|---|
| ٦) سعادة الدكتور عز الدين إبراهيم | الإمارات العربية |
| ٧) سعادة الدكتور عمر فروخ | لبنان |
| ٨) سعادة الدكتور عمار طالبي | الجزائر |
| ٩) فضيلة الدكتور محمد حميد الله | فرنسا |
| ١٠) معالي الدكتور محمد رشدي | إندونيسيا |
| ١١) فضيلة الدكتور محمد فتحي عثمان | جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض |
| ١٢) معالي اللواء الركن محمود شيت خطاب | العراق |
| ١٣) فضيلة الدكتور مزمل صديقي | أمريكا |

كما جاء في قرار المجلس في الدورة (٢٩) المنعقدة في ٣-٦/٤/١٤٠٩ هـ :

ثانياً : الحوار الإسلامي المسيحي :

استعرض المجلس موضوع الحوار الإسلامي المسيحي من كل جوانبه وأبعاده الإيجابية والسلبية في ضوء تطبيقاته الفعلية على اختلاف مستوياته وموضوعاته ومقار انعقاده والجهات الداعية له حيث تبين للمجلس أن الحوار القائم في الوقت الحاضر يدور حول محورين رئيسيين هما :

- ١ . الموضوعات الخاصة بالقضايا والمسائل التي تهم البشرية بشكل عام مثل السلام العالمي مكافحة الجرائم والمخدرات والمسكرات محو الأمية والعناية بالأطفال والمعوقين وغيرها من الموضوعات ذات العلاقة بالحياة الدنيوية ولا علاقة لها مباشرة بالجوانب العقائدية الشرعية .
- ٢ . الموضوعات الخاصة بالعقيدة والشرعية والمقارنة بين تعاليم الإسلام والمسيحية المعاصرة فيها .

وبعد البحث باستفاضة توصل المجلس إلى التوصيات التالية :

- ١ . أن تشارك الرابطة في الحوار مع النصارى فيما يتعلق بالمحور الأول الخاص بالمسائل والقضايا الإنسانية المعاصرة وذلك لبيان أحكام الإسلام في تلك القضايا .
- ٢ . ترك أمر المشاركة في الحوار الخاص بالمسائل العقائدية والشرعية إلى تقدير الأمانة العامة وغيرها من الجهات الإسلامية المدعوة إليه في ضوء ما يحقق المصلحة للدعوة الإسلامية ويجنب المسلمين مخاطر الوقوع في أخاديع ومؤامرات أعدائهم المتربصين بهم الدوائر .
- ٣ . لا بد أن يشارك في الحوار مع النصارى نخبة ممتازة من علماء المسلمين المتخصصين في الموضوعات المطروحة للنقاش كما أنه من الضروري التركيز على مادة مقارن الأديان والمذاهب وتعميق دراستها وبخاصة في كليات الدعوة وأصول الدين لإعداد علماء متخصصين في هذا المجال كما أنه لا بد من المشاركة الكاملة في الإعداد لهذا الحوار واختيار ممثلي المسلمين فيه والتغطية الإعلامية وصياغة قراراته وتوصياته إن وجدت .
- ٤ . وجوب التحذير من الحوار الذي تدعو إليه بعض المنظمات غير الإسلامية المشبوهة مثل الكنيسة المتحدة التي يرأسها القس الكوري المتنبئ سون ميونج مون والهيئات والتنظيمات المنبثقة عنها والعمل على كشف النقاب عن أباطيل تعاليمها للمسلمين خاصة وللعالم عامة .

وجاء في قرار الدورة (٣٣) المتعقد في عام ١٤١٤ هـ :

الحوار مع أتباع الأديان المختلفة :

- ١ . يشكر المجلسُ الأمانة العامة للرابطة على ما قامت به من مشاركات في مؤتمرات الأديان والحوار مع أتباع الأديان المختلفة من خلال الوفود الذين بينوا محاسن الإسلام وعدالته وصفاء عقيدته في بحوثهم المتنوعة .

٢ . يكلف المجلس الأمانة العامة للرابطة بالتحري في اختيار الأشخاص المؤهلين علمياً وثقافياً للمشاركة في مثل تلك الحوارات إن رأت فيها جدوى وفائدة تعود على الإسلام والمسلمين .

وجاء في قرارات المجلس التأسيسي للرابطة في الدورة (٣٦) ما يلي :

الحوار بين أتباع الأديان :

يؤكد المجلس أن موضوع الحوار بين أتباع الأديان يتطلب وضع آلية للقواعد والحقوق التي يتم حولها الحوار ويؤكد على أهمية حسن اختيار المحاور المسلم الكفء .

ومن هنا يصبح واجباً على المسلم المحاور أن يكون يقظاً في مواجهة أي انحراف ، وأن ينبه إليه دون مجاملة ، حرصاً على سلامة الحوار ومقاصده العليا .

وأن يوضح للناس أنه لا توجد مشكلة في الإسلام في التعامل مع الأطراف الأخرى ، فهو دين رباني أنزله خالق السموات والأرض وخالق الناس ، لا يفرق بين خلقه ولا يميز أحداً على أحد إلا بالتقوى ، والعمل الصالح ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، ولقد ازداد هذا الطابع العالمي وضوحاً في مجتمع الصحابة الأول وما بعده من القرون المفضلة ، حين التقى فيه العربي مع الرومي والفارسي والحبشي وغيرهم في الأمة المسلمة الكبيرة التي ضمت شعوباً وألواناً متباينة .

وقد شارك الفاتحون الأولون من المسلمين في الأعمال المفيدة الدنيوية كالتجارة بين الأقطار المجاورة ، واختلطوا بالشعوب الأخرى وأخذوا عنها وسائل مختلفة من أساليب التجارة والزراعة ووسائل الحرب ، مع التأكيد على النواحي الإنسانية في العلاقات بين الجميع ومن ذلك الحث على إكرام الجار والضيف كما في قوله ﷺ : « من

كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » ، بل إنه خصص أحد موارد الزكاة الثمانية لابن السبيل الذي ذكر العلماء أنه يعطى من الزكاة ولو كان غنياً في بلده .

وأشاد القرآن بالمؤمنين الذين يحسنون إلى الأسرى والغرباء ، قال تعالى : ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ .

وأكد الرسول ﷺ هذه المعاني في قوله : «لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى» .

وحث الرسول ﷺ على الصدق في المعاملة والإخلاص في العمل وتجنب الغش لأن الرسول ﷺ قال : «من غشنا فليس منا» وفي رواية : «من غش فليس منا» وهذا يدل على أن المسلم لا يجوز أن يغش غير المسلمين أيضاً كما لا يجوز له أن يغش المسلمين .

إن كثيراً من الدعاة ومسؤولي العمل الإسلامي ولا سيما في الخارج يرون أن الحوار بين الحضارات نافذة يمكن أن يطل منها المسلمون بفكرهم وثقافتهم ومبادئ دينهم على العالم ، وأرجو أن تسهم هذه الندوة المباركة التي تقيمها مكتبة الملك عبد العزيز تحت عنوان : «الإسلام وحوار الحضارات» في الاقتراب أكثر ما يمكن من الفئات المهمة بقضايا الحوار والتعايش بين الثقافات والحضارات ولا سيما في الغرب ، لنعرض أمامها وجهات النظر التي تعبر عن خلاصة الفكر الإسلامي في القضايا المحورية التي تشغل المجتمعات في هذا العصر ، ولا بد أن يعلم الغربيون أن الدعوة إلى حوار الثقافات والحضارات وإلى التعايش بينها هي تعبير عن رؤية إسلامية إنسانية إلى حاضر الإنسانية وإلى مستقبلها .

وقد اتضح ذلك من خلال الدعوة التي وجهتها منظمة المؤتمر الإسلامي لجعل عام ٢٠٠١م عام حوار بين الحضارات^(٣).

إن من أكبر التحديات التي يواجهها الإسلام مع الغرب في الوقت الحاضر المفاهيم التي يؤمن بها الغرب ، ويريد فرض إيمانه بها على الآخرين ، أو تحقيق مصالحه منها على حساب الآخرين ، ومن تلك المفاهيم مفهوم الأسرة بالتحلل الجنسي ، ومفهوم حقوق الإنسان بما يتعارض مع مسلمّات الأديان ، والتجارة الدولية بما يتجاوز حقوق السلطة والسلطان وحقوق الشعوب ، في الوقت الذي يوجد في الإسلام نظام فريد للشورى وأنظمة للأسرة والمجتمع والأخلاق بالإضافة إلى قوانين التجارة والاقتصاد وغيرها .

إننا بحاجة إلى محاورة الغرب والاتصال به لبيان مواقفنا من هذه القضايا ومخاطبة مفكره وقياديه ، وأن نسمعهم ذلك في بلدانهم وبلغاتهم ومن خلال منندياتهم ووسائل إعلامهم ، لأن لدينا الكثير من الخير الذي يجهلونه ، والمثالية التي يحتاجون إليها ، وأن يكون منطلقنا (١٤٢١هـ) .

في ذلك ما أوجبه الله سبحانه وتعالى من بيان الحق بقوله : ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ .

ويجب أن نفهمهم أن الحوار الحضاري وفق المسؤولية الإسلامية ضرب من التعاون مع الأمم الأخرى ، وينبغي أن يقوم على أساس الأخوة الإنسانية لتحقيق الهدف والوصول إلى إنجازات ومفاهيم مشتركة بين الأمم لإنقاذ البشرية من مشكلاتها ، ولذا فإن الحوار الحضاري هذا لا يعني بأية حال من الأحوال تمييع المواقف ، وخلط الأوراق ، ومزج العقائد وتذويها وعولمتها وصبها في قالب واحد وفق ما دعت إليه بعض المؤتمرات^(٤) .

الاعتراف بالحقيقة :

يجب أن نهتدي عند البحث في الحضارات أو الحوارات التي تتناول البحث في الحضارات بقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

ومعنى (يجرمنكم) لا يمتنعكم ، و (الشنآن) : البغض ، يعني ذلك نهى المسلمين عن أن يمتنعهم بغضهم للكفار بسبب بغضهم لدينهم الضال على ألا تعدلوا فيهم ، بل عليهم أن يعدلوا لأن ذلك أقرب للتقوى .

والعدل هنا المراد به الاعتراف للمخصوم بالحق إذا كان موجوداً في جانبهم في شيء من الأشياء الخارجة عن أصول الدين .

فمثلاً نحن نعرف وهم يعرفون تفوق الدين الإسلامي على الأديان الأخرى المعاصرة ، بدليل أنه هو أكثر الأديان انتشاراً في العالم في الوقت الحاضر ، كما اعترف بذلك الرئيس الأمريكي السابق (بيل كلنتون) ، ولكننا إذا نظرنا إلى الحضارة الغربية الموجودة الآن القائمة على غير أساس ديني مسيحي لأنهم قد فصلوا دينهم عن الدولة وإنما هي قائمة على التجارب العلمية وعلى قوانين مصلحية وضعية نجد أنها أفضل في هذه الميادين المادية مما عند كثير من دول البلدان المسلمة .

فالميادين العلمية والجامعات ، بل وخزائن الكتب ومنايع الثقافة هي أغنى مما هو لدى بعض المسلمين حتى إن المحافظة على المخطوطات التي كان المستعمرون قد نهبوا من بلاد المسلمين والاستفادة منها هي أكثر مما لدى بعض البلدان التي ينتسب أهلها إلى الإسلام بحيث إن المرء يسأل نفسه عما إذا كان نهب تلك الكتب خيراً أم شراً ؟ لأن الكتب التي بقيت في البلدان المسلمة تلك لا يتنفع ببعضها ولا يحافظ عليه كما هو موجود في الدول الغربية .

ولنقل مثل ذلك عن المنافع العامة من الطرق والحداثق والمستشفيات وحتى البيئة حتى إننا نعرف الآن أن حكومة السويد ذات الأرض الخضراء الغنية بالأشجار بحيث إن أغلب البلاد هي غابات كثيفة تمنع قطع الأشجار وترتب جزاء على من قطع شجرة واحدة إلاّ بإذن من السلطات المختصة التي تشترط في أكثر الأحيان أن يغرس شجرة جديدة بديلة من الشجرة المقطوعة .

ويقال مثل ذلك في المحافظة على الأموال العامة ، وعلى أنظمة البلديات والأماكن الخلوية مما يجعلنا إذا أردنا المقارنة المادية المعروفة بما لدينا من ذلك بما لديهم كان ذلك في صالحهم .

ويجب أن نعترف لهم بذلك ، ونعرف أنه من العدل المأمور به .

ولكن لدينا ما ليس لديهم :

ولكن لدينا ما ليس لديهم من الدين الذي يكفل السعادة الروحية التي يفتقدونها حتى إن إحصاءات منظمة الصحة العالمية تسجل دائماً أن نسبة الانتحار بين أولئك الذين يتمتعون بالخدمات ، بل بالمزايا المادية هي أكثر من نسبتها في البلدان المتخلفة في الإدارة ، ولا شك في أن الإنسان لا يقتل نفسه إلاّ لشقاء نفسي يفرق فيه ويحس معه أن الموت أهون عليه من تحمله أي من تحمل ذلك الشقاء فنحن لدينا في الدين الإسلامي لمن أخذ به ، وعمل به قولاً وعملاً السعادة التي لا توزاها سعادة أخرى للإنسان أو الرضا الذي لا يجده المرء في أية فلسفة مادية أخرى .

كذلك ينبغي أن يشمل الحوار العمل المشترك لمحاربة الإلحاد والانحلال الخلقي ، وتفكك الأسرة وانحراف الأطفال ، ومقاومة كل الآفات والأوبئة التي تهدد سلامة كيان الفرد والجماعة وتضر بالحياة الإنسانية .

الحوار الحضاري والعلاقة مع الغرب :

برزت مقولة : «إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» كما يبدو أن الكلمتين غير منسجمتين عند بعض الغربيين ، أما في الإسلام فإن الدين موطنه كل مكان على وجه الأرض ، بل في جوف السفن الفضائية كما قال تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تكولوا فشم وجه الله ، إن الله واسع عليم ﴾ ، ونسوا أو تناسوا أن الإسلام موطنه الأرض قاطبة ، ومواطنيه من جميع الأجناس والألوان والبلدان ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ أما الغرب فهو جزء من هذه الأرض بما عليه من أجناس وبلدان وألوان .

أما عن موقف عامة الغربيين من الإسلام ، فإننا مطالبون بتعريفهم به على أنه الدين السماوي الخاتم الذي جاء مصداقاً لجميع الأنبياء والرسل ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك ، كما أننا مطالبون بتفنيد ما يتعرض له الإسلام من التحريف .

والادعاءات على أن الإسلام دين العنف والجهل والفقر والمرض ، بينما هو في الحقيقة الدين الذي يحث على التسامح ويأمر بالنظر في ملكوت الله كما قال تعالى : ﴿ أولم يتفكروا في ملكوت السموات والأرض ﴾ .

وهو الذي يحث على العدل والإحسان والمساواة بين بني البشر .

وهذا ما يؤكد روبرت كابلان الخبير الأمريكي في شؤون العالم الثالث حيث يقول : إن الإسلام بسبب تأييده المطلق للمظلومين والمقهورين ، يعد أكثر الديانات جاذبية . فهذا الدين المطرد الانتشار على المستوى العالمي ، هو الديانة الوحيدة المستعدة للمنازلة والكفاح ، وهذا هو الخطر الذي يشعر به الغرب من الإسلام .^(٧)

ويقول د/ محمد سكران ، الأستاذ بكلية تربية الفيوم بمصر : إن هناك العديد من الشواهد التي تشكك في صحة ما ذهب إليه الباحثون في الغرب ، فإذا أخذنا الحضارة الإسلامية عقيدة وفكراً ، فإنه لا خطر منها على الغرب ، إلا في الحدود التي تتلخص في مقاومة الظلم والقهر الواقع على الشعوب ، وما عدا ذلك فإن الإسلام دين سماحة وعدل . (٨)

ومن المعروف تاريخياً أن الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها كان لها الفضل على أوروبا ، التي استطاعت أن توظف ثمار هذه الحضارة في تأسيس نهضتها . . كما أن المسلمين لا يأخذون موقف العداء من أية مجموعة إذا كانت مسالمة ، كما قال تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ... ﴾ .

ولكن إذا استبيحت ديار المسلمين وانتهكت أعراضهم وسلبت خيراتهم ومواردهم .

مثلاً حل إبان الهجمة الاستعمارية الشرسة التي قادها الغرب ضد المسلمين ، على مدار قرنين من الزمان فإن منطق الحق والعدل يعطيهم ذلك قال تعالى ﴿ وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ .

الحضارة الإسلامية :

يجب أن نحدد مصطلح (الحضارة الإسلامية) فنقول : إننا نريد بها الحضارة التي انبثقت من الأخذ بما أمر الله به ورسوله ﷺ فنشأت في بلاد المسلمين وازدهرت في القرون الأولى لظهور الإسلام .

وطبيعي أننا لا نقصد الحضارة التي عليها المسلمون اليوم الذين ترك بعضهم ما كان عليه المسلمون الأوائل من التمسك بما أمر الله به ورسوله ﷺ تمسكاً كاملاً ، واجتنبوا ما نهى الله عنه ورسوله اجتناباً كاملاً .

ومن الملاحظ اختلاف الفهم لهذا المصطلح فالمفكرون من الغربيين يعنون بالحضارة الإسلامية ما ذكرناه من الحضارة الإسلامية القديمة على اعتبار أن الحال ستول بالمسلمين إذا استمر المد الإسلامي وأثمرت الدعوات إلى التمسك بالإسلام إلى الأخذ بتلك الحضارة الإسلامية التي كانت زاهية نظرة مرة أخرى .

ولذلك نجد كثيراً منهم يستشهدون بآيات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على ما يقولونه في الحضارة الإسلامية .

أما عوام الكتاب وأنصاف المتعلمين فإنهم يريدون بالحضارة الإسلامية ما عليه المسلمون اليوم .

ويقال مثل ذلك في مصطلح (المسلمون) ذلك بأن بعضاً من المسلمين قد بعدوا من تحقيق الإسلام والأخذ به قولاً وفعلاً ومعاملة وأخلاقاً ، بل ونمطاً للحياة .

ومع ذلك يجب إذا قلنا (المسلمين) أن نريد بهم الأكثرية من المسلمين في الوقت الحاضر الذين يتمسكون بدينهم سواء عملاً وممارسة ، أو انتماءً وهوية .

التعاون العالمي :

ما زالت الدعوات إلى التعاون العالمي بين الدول تصطدم بعثرات بسبب تعارض المبادئ مع المصالح لدى عدد من القوى في العالم ، ومن أجل تحقيق توازن معقول لا بد من التأكيد على موضوع التعاون العالمي في المجالات المتعددة التي تنفع البشرية ، مع الاستفادة مما قرره الإسلام للتعاون بين البشر ، فالإسلام دين عالمي : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

وهذه الرحمة الإلهية للعالم ، لا محل فيها لقومية عنصرية تدعي لنفسها حقاً أو أفضلية على سائر الناس .

وترتكز العلاقات الدولية في الإسلام على العدل ، ومنطق العدل أن تعطى حق الآخر وأن تحافظ على حقه ، فالحق أحق أن يتبع والله عز وجل لا يرضى لعباده العدوان وإنقاص الحقوق ، وهو القائل : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

والإسلام يدعو المؤمنين بالله وكتابه ورسوله محمد ﷺ لأن يتعاونوا على منع الظلم وردع العدوان قبل أن يستفحل ويصطلي بنيرانه القريب والبعيد : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ .

وفي الشريعة الإسلامية كثير من التفصيل للعلاقات الدولية ، وبيان للقواعد التي تحكمها في حالة السلم والحرب ، وحقوق المواطنين المسلمين وغير المسلمين ، وقد سبق الإسلام غيره في وضع قواعد تحكم هذه الحالات كلها ، منها الوفاء بالمعاهدات والتعاقدات الدولية ، كما قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ .

وحين أراد الرسول ﷺ أن يعرض الإسلام على الهيئات النصرانية من حكام الدول المجاورة ، كان أسلوبه هو الدعوة السلمية ، فقد أرسل لهم رسلاً يحملون كتباً منه ، وكان الرسول (يستقبل مبعوثي القوى السياسية في الجزيرة أو الدول المجاورة ويعاملهم معاملة كريمة ، حتى إنه استقبل نصارى نجران في مسجده الشريف وخصص بيوتاً في المدينة المنورة منازل للمبعوثين الأجانب ، ومن ذلك عدم قتل الرسول الذي جاء بموافقة من الحاكم المسلم حتى لو أساء الأدب ، فإن مبعوث مسيلمة الكذاب جاء يتناول على شخص النبي الكريم ، فلم يكن منه ﷺ إلا أن قال : «لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك» رواه الحاكم .

حسن استغلال المال :

إن استغلال المال وتنميته كان دأب البشرية منذ أزمان متطاولة إلا أنه اتسع الآن ليشمل العالم كله ، وصارت الثروات في العالم في معظمها ملكاً للغربيين ، وانعدم التعاون المالي بين الأغنياء والفقراء ، لذا فلا بد من إثارة قضية المال وحسن استغلاله لإسعاد البشرية في مجالات الحوار ، ذلك أن من الأمور المقررة في شريعة الإسلام أن المال مال الله استخلف فيه الإنسان كما استخلفه في الكون كله ، وفي القرآن والأحاديث النبوية إشارات واضحة لتأكيد هذا المعنى ، وصف فيها المال بأنه مال الله ، منها قوله تعالى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ .

وبهذا المفهوم الإسلامي يصبح المال وسيلة لإشاعة التعاون بين الناس وتنمية المجتمع الإنساني ، ومن هنا جاء النهي عن الربا والاحتكار أو الإسراف في كنز المال ، أو السفه في إنفاقه ، أو حرمان الفقراء والمساكين من حقوقهم فيه .

وينفرد الإسلام عن غيره من الأديان بأن جعل الزكاة ركناً من أركانه ، وفريضة من الفرائض التي يعاقب المسلم على تركها ويثاب على أدائها ، ولذلك لما امتنع بعض الأعراب عن أداء الزكاة في فجر الإسلام اضطر الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخوض حرب ضد مانعي الزكاة ؛ لأنه اعتبر ذلك إخلالاً بالإسلام واعتداءً على حقوق الفقراء التي ضمنها الإسلام .

والزكاة تعني تزكية المال وتنظيفه وتطهيره وجعله صالحاً للاستغلال والنفقة والاستثمار ، ودون هذه التزكية يصبح فاسداً ملوثاً يجلب السوء والتعاسة على صاحبه وعلى الآخرين ، وفي الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه

وجبينه وظهره» ، وقال تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

ولقد جاء ذكر الصدقة وضمنها الزكاة في القرآن الكريم في تسع وعشرين موضعاً ، وجاءت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم مقترنة بالصلاة : ﴿يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ .

وحين ينظم ولي الأمر المسلم جباية الزكاة والصدقات وينفقها في مصارفها الشرعية فهو - في الواقع - يحمي المجتمع ويقاوم أنواعاً من الأوبئة المدمرة .

ومن كل ذلك تتضح أهداف المنهج الإسلامي في تحريك المجتمع نحو الإعمار والتنمية ومكافحة أسباب الفقر والعوز ، قال تعالى : ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

إعمار الأرض :

يتنادى العالم اليوم لإعمار الأرض ، إلا أن هناك ازدواجية في الممارسة بين النظرية والتطبيق ، إذ إن العديد من القوى الكبرى نفذت كثيراً من البرامج التي أفسدت مناخ الأرض ولوثت مياهها ، ومن واجب المحاور المسلم تعريف ممثلي الحضارات بوظيفة الإنسان في الأرض ، ليعرفوا أن الإسلام حدد رسالة الإنسان على هذا الكوكب في الإيمان بالله الواحد وعبادته أولاً ، ثم في إعمار الأرض واستغلال ثرواتها ، واقتران الإيمان بالإعمار هو وسيلة للحد من شر الإنسان ، والسيطرة على ميوله الجامحة للتملك ، ومقاومة المادية المفرطة على حساب المشاعر الإنسانية .

وقد خلق الله آدم عليه السلام وأعطاه صورة جميلة تختلف عن سائر المخلوقات ، ومنحه العقل والقدرة على التعبير وأسماء (خليفة) في الأرض التي زودها بالهواء والماء وأنواع لا تحصى من المعادن والأشجار والثمار ، ووضع على طرق ومسالك مفتوحة للنمو والاكتشاف والاختراع .

ومن هنا تشكل نظرة الإسلام لإعمار الأرض واستغلال ثرواتها وخيراتها لصالح الناس جميعاً .

وقد جاءت هذه المبادئ الأساسية في القرآن الكريم في صيغ مختلفة منها قوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحائها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ .

وفي كتابه عن الإسلام في الغرب «قرطبة عاصمة الروح» يقول روجيه جارودي مايلي : «في القرآن يوجد سبعمائة وخمسون آية أي حوالي ثمن الكتاب المقدس تحث المؤمنين على الدراسة والبحث ، حيث يجدون في الحديث عن النجوم والفيزياء وعلم الأحياء والحساب ، وكذلك دراسة المجتمعات ونموها أو انحدارها آيات من خلالها يخاطب الله الإنسان » .

وهنا نقف على الإسهام الهام الذي يمكن أن يقدمه الإسلام للعالم المعاصر في إعمار الأرض من خلال الربط بين العلم والإيمان ، بحيث لا ينعزل الإيمان أو ينكمش عن أداء دوره في إنماء الحياة الإنسانية ، أو ينفلت العلم من قيود الإيمان والقيم والأخلاق ويصبح طاقة شريرة تدمر الأسر والمجتمعات ، وتطلق القوي على الضعيف ، ليغتال حريته وينهب ثرواته .

حقوق الإنسان وتكريمه وحمايته :

قال الله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بي آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ ، وبنو آدم يشمل جميع البشر من مسلمين وغير مسلمين ، وقال تعالى : ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ﴾ .

وقد جاءت القوانين الدولية في الفترات الأخيرة تنادي بحقوق الإنسان وحمايته من الظلم والعسف غير أننا نجد أن ذلك كان نظرياً فقط ، فما يزال الإنسان مظلوماً ممتهدماً معتدى عليه في فلسطين والشيستان وفي أماكن أخرى من العالم ، ونحن نرى الدولة الكبرى تنادي بحقوق الإنسان في مكان من العالم ، وتغفل ذلك في مكان آخر مما يدل على الازدواجية والانتقائية في الأحكام .

يقول الأستاذ محمد أسد في تعليقه على الآية الكريمة ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ : « أي من خلال تعميق نظرة الإنسان واتساعها في عجائب الكون ، والاكتشاف المتزايد لأبعاد النفس الإنسانية ، مما يؤدي لتأكيد وجود الخلاق المبدع جل جلاله » وتكريم الإنسان ودفعه للانطلاق في الكون على هذه الشاكلة لتعميق إيمانه بالله ينبغي أن يكون أساساً لدى المحاور المسلم مع أتباع الحضارات الأخرى .

ويرتبط بتكريم الإنسان ضمان حقوقه ، ومن الثابت أن الإسلام سجل السبق في ضمان حقوق الإنسان التي لخصتها خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع بقوله : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » وبهذا أكد الإسلام على صون الإنسان وحقوقه وحرمة كيانه وعدم قتله بغير حق ، بل أن الإسلام هو الدين الذي يعطي قيمة للمجتمع البشري من خلال حماية الفرد وكرامته ، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿ أنه

من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴿١﴾ ، وبذلك اعتبر الإسلام قتل الفرد جريمة بحق الإنسانية جمعاء ، إلى جانب هذا التحريم الواضح للقتل ، بل إن الإسلام يركز على مكارم الأخلاق التي تكسب صداقة الطرف الآخر بالسلوك الخلقي كما قال تعالى : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ ، وقوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وقوله عليه السلام : « أكمل الناس إيماناً أحسنهم أخلاقاً » وفي حديث آخر : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم » ، [ويروى : بأرزاقكم] ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » ، وقال ﷺ : « الكلمة الطيبة صدقة » وقال : « لا يحقرن أحدكم من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

الإرهاب الدولي :

الإرهاب من المصطلحات التي ينبغي أن يجري الاتفاق على تعريفها في الحوار بين الحضارات ، ذلك أن الإرهاب في الأصل ليس مقيداً بهوية أو محصوراً بجنس أو متعلقاً بطائفة ، وإنما هو من الظواهر التي وجدت في أكثر من مكان ، وفي كل زمان ، ولكن الذي شجع على الإرهاب ممارسة عدد من القوى الدولية والإقليمية للإرهاب دون وازع من دين أو أخلاق ، وهذا ما حدث في البوسنة والهرسك وكوسوفا ، ومازال يحدث في كشمير والشيشان ، مما يمكن أن يطلق عليه اسم إرهاب الدولة الذي فاق فيه اليهود كل أهل الإرهاب .

أما الأوصاف التي يحاول البعض إلصاقها بالمسلمين مثل (الإرهابيين) فهي تدل إما على عدم المعرفة بحقيقة الإسلام ، لأن صورة الإسلام عندهم مستقاة من المراجع التي تسعى إلى تقديم الصورة المشوهة والمبتورة للإسلام في بعض وسائل الإعلام أو التربية والتعليم في الغرب .

وإما أن تدل على تعمد التشويه والتحريف للمبادئ الإسلامية .

أما الحالات الإرهابية التي تظهر على الساحة السياسية في بعض البلدان ، فإنها وليدة تصرف وتطرف شخصي وقد يكون ذلك في بعض الحالات ناتجاً عن ردة فعل لتطرف سابق مقرون بالإذلال والظلم والاستبداد ، فعلى المعتدي أن يكف عن محاولة السيطرة على الشعوب المسلمة ، وعن تجاهل مطالبها المشروعة في الحقوق والمسؤوليات - والمطلوب في هذا المجال من المجتمع الدولي المتحضر ، ومن الأوروبيين والأمريكيين بشكل خاص ألاّ يسكتوا على أعمال العنف والإرهاب والوحشية التي تمارس ضد المسلمين .

ومن عدم الإنصاف الظاهر في هذا الموضوع أنه إذا وقع إرهاب من أناس يعتقدون المسيحية كالجيش الجمهوري الإيرلندي والانفصاليين الباسك في إسبانيا والثوار في كولومبيا في أمريكا الجنوبية وكذلك من أناس يتنسبون إلى المسيحية في إفريقيا لم يصفوه بأنه إرهاب مسيحي ؛ وكذلك إذا وقع إرهاب من التاميل الذين يعتقدون الهندوسية في سريلنكا لم يعدوه إرهاباً هندوسياً ، لكن إذا وقع إرهاب من أناس منتسبين إلى الإسلام عدوه إرهاباً إسلامياً . حتى إنهم يطلبون من الحكومات الإسلامية أن تكافحه وتمنع حدوثه ولو لم يكن على أراضيتها ، مع العلم بأن كثيراً من أعمال الإرهاب المنسوبة إلى أقوام من المسلمين هي رد فعل لظلم عظيم وقع عليهم كما هو واضح لدى المنصفين .

المرأة المسلمة والأسرة وبناء المجتمع النظيف :

الأسرة نواة المجتمع والخلية الأولى فيه ، التي يجب أن تبنى على الإيمان والحب والثقة والمسؤولية المتبادلة ، حتى يجد الرجل والمرأة في أحضانها هدوء الحياة واستقرار النفس ، وحتى يتغذى أطفال اليوم ورجال الغد بهذه العواطف الإنسانية النبيلة ، وينقلوها إلى كل الميادين التي يتعاملون معها ، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية فقد اتخذ الإسلام

سبيلاً وسطاً بين الانغلاق الذي يعطل مواهب المرأة وكفاءاتها ، والانفلات والتحلل الذي يجعل منها طاقة مدمرة لنفسها وللمجتمع المحيط بها ، فقد وضع الإسلام عليها واجبات كثيرة للمشاركة في الحياة العامة ، دون أن تفقد وظيفتها الأولى وهي رعاية البيت وتنشئة البنين والبنات ، وإعدادهم النفسي والثقافي .

إن الإسلام يشن حرباً لا هوادة فيها ضد المفاصل التي يشكو منها المجتمع ، كالزنا ، والشذوذ ، والجريمة ، والكحوليات ، والمخدرات ، ومنهجه في ذلك يعتمد أسلوبين : الأول إيقاظ الوازع النفسي ، وتقوية المناعة الذاتية لدى الإنسان بكل الوسائل ، والثاني سن القوانين والتشريعات الرادعة التي تكفل مقاومة الانحراف .

إن الحوار بين الحضارات يتيح للمسلمين أن يسهموا في حماية الأسرة البشرية وفق أنظمة الأسرة في الإسلام التي صانها طيلة أربعة عشر قرناً ، مما جعل الأسرة المسلمة أسرة متماسكة متميزة عن أشكال الأسر لدى أهل الأديان الأخرى .

ولابد هنا من الإشارة إلى برامج هيئة الأمم المتحدة المتعلقة بالأسرة والمرأة والطفل ، حيث إنها - كما عرضت في العديد من المؤتمرات - تتصادم مع التشريع الإسلامي فضلاً عن أنها تخرج في مفهوم الأسرة والتربية عن المفاهيم والمبادئ التي جاءت بها الرسالات السماوية .

وقد اتخذت هيئة الأمم المتحدة في الجلسة الثالثة والعشرين الخاصة بموضوع النساء عام (٢٠٠٠م) التي عقدت في نيويورك في الفترة من (٥ - ٦ / ٩ / ٢٠٠٠م) عدداً من القرارات التي تسعى لعرضها على حكومات العالم وشعوبه وفيها الكثير مما يخالف الشريعة الإسلامية التي تتمسك بها شعوب الأمة المسلمة .

مما يوجب على أولي الأمر من المسلمين رفض جميع البرامج التي تتعارض مع التوجيه والتشريع الإسلامي وما نزلت به الرسالات السماوية في هذا الموضوع .

والتعاون مع المنظمات الإسلامية والدولية لنقل تشريع الإسلام في هذا المجال لكافة شعوب البشرية عبر المؤتمرات والندوات ووسائل الإعلام .

العولمة :

يعتبر مصطلح العولمة من المصطلحات العالمية الجديدة ، وقد طرح مرتبطاً بالمتغيرات السياسية العالمية وبخاصة بعد انتهاء الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي السابق والولايات المتحدة الأمريكية ، ويرتبط المصطلح في الوقت نفسه بالثورة التكنولوجية والاتصالات وثورة المعلومات التي يشهدها العالم في هذه الفترة ، وقد اعتبر دارسو الحضارات المحدثون من الغربيين أن العولمة تسعى لإدخال العالم في طور من التطور الحضاري يصبح فيه مصير الإنسانية موحدًا أو نازعًا للتوحد مبينين أن إدارة العولمة تعتمد في تنفيذ برامجها على ثلاثة عوامل هي :

١ . ثورة المعلومات والتقنية بما فيها الاتصالات .

٢ . القوى الاقتصادية الرأسمالية .

٣ . القوى السياسية المهيمنة .

ومن خلال متابعتنا في رابطة العالم الإسلامي وجدنا أن القوى التي تقوم على إدارة العولمة أو التي تنبثق منها تتخذ من هيئة الأمم المتحدة والمنظمات والمجالس واللجان المنبثقة عنها مظلة لتقنين مبادئ العولمة في مجالات الحياة الإنسانية كلها (الاقتصاد - السياسة - المجتمع - الثقافة - الدين - الفرد) وغير ذلك من دقائق الأمور التي تتصل بحياة الإنسان على هذه الأرض .

وتعمل قوى العولمة على إيجاد قوانين جديدة لتنظيم مجالات الحياة الإنسانية كما يريدونها من خلال :

١ . مؤتمرات العولمة الاقتصادية والاتفاقات التجارية الدولية وعلى رأسها «الجات» .

٢ . مؤتمرات العولمة الاجتماعية ومن أبرزها مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة الذي عقد في عام (١٩٩٤م) ومؤتمر المرأة الرابع في بكين عام (١٩٩٥م) ومؤتمر المرأة عام (٢٠٠٠م) الذي عقد في نيويورك .

٣ . مؤتمرات عولمة الثقافات الدينية والروحية ومن آخرها بل من أهمها مؤتمر قمة زعماء الأديان للألفية من أجل السلام الذي عقدته هيئة الأمم المتحدة في شهر جمادى الأولى من عام (١٤٢١هـ) .

وهذا يدل على أن القوى الداعية إلى العولمة سوف تتخذ من هيئة الأمم المتحدة وسيلة ومظلة لإصدار القوانين الدولية الجديدة في مختلف مجالات الحياة لتعميمها على الشعوب والأمم من أجل تنفيذها ولو كانت متعارضة مع المبادئ الدينية والثقافات الروحية والعادات والأعراف المرعية لدى تلك الشعوب .

ويتجلى خطر العولمة أساساً على الثقافات والعقائد حيث أجمع معارضوها من المسلمين وغيرهم ولا سيما الفرنسيون والألمان أن العولمة يراد لها أن تبطل كل الانتماءات والهويات والقيم ، أو يراد لهذه الانتماءات الدينية والهويات الثقافية والقيم الاجتماعية أن تمر عبرها لتواجه الشعوب بعد ذلك قنوات وآليات محددة تقرر نمط ما يجب أن يكون وما لا يكون منها .

وفي المجال الثقافي السيطرة على الثقافات الأضعف ، إذ إن تكنولوجيا الاتصالات بشكل خاص بدأت تقوم بدور تأثيري بارز على نطاق عالمي بغية تعميم النموذج الثقافي للعولمة على المجتمعات الإنسانية من خلال استهداف التأثير على المفاهيم الحضارية والدينية والقيم الثقافية والأنماط السلوكية لأفراد تلك المجتمعات متوسلة إلى ذلك الهدف بوسائل سياسية واقتصادية وتقنية متعددة .

إن العولمة في مجالاتها وجوانبها الثقافية تهدف ابتداءً إلى فتح المجتمعات الأخرى التي تختلف عنها أمام ثقافتها الجديدة عن طريق الاختراق بوسائل الاتصال ساعية إلى

إسقاط عناصر الممانعة و التحصين لدى الشعوب وذلك لإعادة صياغة قيم وعادات جديدة تؤسس لهوية ثقافية وحضارية أخرى للمجتمعات الإنسانية .

وهذا بالطبع يهدد جميع الثقافات في العالم ، وكان من أبرز الحكومات التي تنهت لهذا الخطر حكومة فرنسا التي تعتبر بلادها مهداً لثقافة لاتينية عريقة وعالمية ، فقد كشفت فرنسا عبر العديد من أجهزتها الرسمية والشعبية عن شعورها بأنها مهددة ثقافياً بمواجهة هذا الغزو الثقافي الذي يتحرك تحت غطاء (العولمة الاقتصادية) وقد علل وزير الثقافة الفرنسي السابق أن الهجمة الثقافية الأمريكية على الشعوب ذات أهداف اقتصادية ، فخلال مؤتمر عقد في المكسيك شن الوزير الفرنسي هجوماً على قوى هذه الهجمة بقوله : إنها «لا تمتلك منهجاً أخلاقياً سوى الربح فضلاً عن أنها تحاول أن تفرض ثقافة شاملة واحدة على العالم أجمع» .

وقد صدر في فرنسا ، كردة فعل على العولمة الثقافية التي يلمسها الفرنسيون عبر وسائل الاتصال ولا سيما شبكات التلفزة ودور السينما كتابان أحدهما بعنوان «الحرب الثقافية» من تأليف هنري جوبار ، والآخر تحت عنوان «فرنسا المستعمرة» من تأليف جاك يتبو وكان القاسم المشترك بين الكتائين هو التحذير من مخاطر الغزو الثقافي الأمريكي لفرنسا والدول الأوروبية وتهديده لهويتها الثقافية .

من هنا يبدو أن عقلاء المثقفين في العالم لم يرحبوا بالعولمة ومنهم عقلاء المسلمين الذين يحذوهم وازع ديني عظيم لحماية ثقافة الأمة وتحصين الأجيال المسلمة ولا سيما في جوانبها التي تستهدف العقائد والثقافات المتصلة بها .

ومن أبرز المؤسسات والهيئات الإسلامية التي تصدت لعولمة العقائد والثقافات رابطة العالم الإسلامي والأزهر الشريف والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، وقد شارك ممثلون عن هذه المؤسسات الإسلامية في العديد من مؤتمرات العولمة

كمؤتمر السكان والتنمية ومؤتمر المرأة الرابع ومؤتمر الأديان وغيرها حيث طرحوا موقف الإسلام ومبادئه واجتهدوا في إبطال المواد التي تتعارض مع دين الإسلام وثقافة المسلمين أثناء انعقاد تلك المؤتمرات .

النموذج السعودي :

نحن المسلمين - لسنا بحاجة إلى العولمة التي مر ذكرها لأن الأمة المسلمة مدعوة للتمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وهما أصلان عظيمان ، كما في الحديث الشريف : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي » ، وهذا ما سارت عليه البلاد السعودية منذ قيام الدولة السعودية الأولى على يد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود بعد تأسيس المملكة العربية السعودية ولا تزال ، وهذا يحملنا على الحديث عن النموذج السعودي في تحصين أجيال المسلمين من مخاطر العولمة الثقافية والحملات الإلحادية وفي المحافظة على الشخصية المسلمة .

فالشخصية المسلمة هي التي تعمل بما أمر الله به ورسوله ، والشخص المسلم مأمور بأن يتبع ما ورد في القرآن الكريم وما صح عن رسول الله ﷺ متبعاً في ذلك خُلُقَ رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وفسر الصحابي الجليل هذه الآية بأن خلقه هو القرآن ، فالمسلم مطلوب منه أن يتمسك بما أمره الله به ورسوله غاية التمسك ولكن إذا كانت هناك ظروف استثنائية تحيط بالمسلم فإنه يجوز له أن يتظاهر ببعض الأمور التي لا تمس حقيقة عقيدته فعقيدته لا يجوز أن يتطرق إليها أي شك أو أي إخلال وذلك عملاً بقوله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ فإذا أكره المسلم فإنه يجوز له في حال الإكراه فقط أن يقول شيئاً لا يجوز أن يقوله في حال الاختيار ولكن لا يجوز له أن يعتقد .

وهناك قاعدة شرعية أخرى في موضوع تحريم الميتة قال الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ الْغَيْبِ لِلَّهِ بِهِ ﴾ . . . إلى أن قال في آخر الآية

الكريمة : ﴿ فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾
 والمخمصة : المجاعة ، فالمضطر يحل له أكل الميتة مع أن أكل الميتة حرام في الأصل .
 فالمسلم يجب عليه أن يكون ملتزماً بما أمر الله به ورسوله لا ينفك عن ذلك ولا
 يحدد عنه .

الجهود السعودية في الحفاظ على الهوية الإسلامية :

يجب أن نبرز الأنموذج السعودي للمسلمين من ناحيتين هما بارزتان لنا ومعروفتان
 لنا في بلادنا : الأولى تحكيم الشرع الشريف من قبل الحكومة السعودية ، الأمر الذي كان
 قام به ونادى المسلمين الآخرين إلى أن يقوموا به الملك المؤسس عبد العزيز آل سعود
 رحمه الله وجزاه عنا خيراً ثم من بعده الغر الميامين من أبنائه حتى وصل الأمر إلى خادم
 الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله فإنهم حكموا الشرع الشريف
 فيما يتعلق بالتعامل مع الناس وبخاصة فيما يحفظ الأمن ولذلك نجد أن المملكة العربية
 السعودية لا نظير لها في العالم من جهة الأمن حتى إن الكفار من النصارى وغيرهم إذا
 جاءوا إلى بلادنا لعقود عمل أو سفارات أو مع شركات لمدة معينة حتى ولو بلغت سنوات
 فإنهم يشعرون أنهم يأمنون عندنا على أموالهم وأنفسهم وعلى أهلهم أكثر مما يأمنون
 عليها في بلادهم وقد صرح لي مهندس فرنسي أنه بقي في الرياض أربع سنين قال : إني
 آمن على أهلي وبيتي ومالي في الرياض أكثر مما آمن عليها في باريس .

وهذا أمر واضح ومعروف والسبب في ذلك هو الحكم بالشرع الشريف في المملكة
 العربية السعودية هذه ناحية ، الناحية الثانية من التجربة السعودية التي عرفتها الدول
 والهيئات الدولية هي الوفاء بالتعهدات الدولية فالمملكة العربية السعودية مشهورة على
 المستوى العالمي بأنها أفضل الدول أو من أفضل الدول وفاءً بالعقود فلم يحدث أن
 تعاقدت مع أحد على شيء ونكثت ذلك العقد ولم يحدث أن اتفقت مع أحد على أمر من

الأمر ثم أضرت به وإذا حصل في بعض الأحيان خلاف مع الآخرين فإن ذلك يكون مرجعه إلى الجهة التي اتُفق عليها في العقد أن تكون مرجعاً لحل الخلاف كالمحاكم الشرعية أو الجهات الأخرى التي يكون الطرفان السعودي وغير السعودي قد اتفقا عليها .

فهذا أنموذج من المملكة العربية السعودية في تطبيق الشرع الشريف وهذه التجربة واضحة ومعروفة وكل من دخل المملكة العربية السعودية سواء أكان عاملاً لمدة طويلة أو حاجاً أو معتمراً أو زائراً فإنه يرى أثر ذلك ولله الحمد .

الناحية الثانية في الأنموذج السعودي هي العمل على مساعدة المسلمين في الخارج على أن يكون المسلم في المستوى المطلوب من المسلم فنحن نرى المملكة العربية السعودية تعاقدت مع آلاف الدعاة حتى من غير السعوديين بأن يقوموا بالعمل والتوجيه في بلاد الأقليات المسلمة وحتى في بلاد بعض الأكرليات المسلمة تدفع لهم المملكة العربية السعودية الرواتب الشهريّة السخية وتجعلهم يتفرغون لإرشاد المسلمين وتوعيتهم وقد وصل المبعوثون من المملكة العربية السعودية إلى قارات العالم وهم موجودون في العديد من الدول ولله الحمد .

ثم إن المملكة العربية السعودية ضربت المثل الأعلى للمسلمين في التضامن الإسلامي وذلك عن طريق التعاون مع المسلمين على المشروعات الإسلامية مثل تشييد المساجد وإقامة المدارس وتيسير الدراسة في المدارس واستمرارها ومثل تسيير الأمور في الجمعيات الإسلامية وفي جمعيات الإسعاف للمسلمين وحتى صيانة مقابر المسلمين في البلاد الخارجية فإن المملكة العربية السعودية تساعد عليها وقد حملت أنا بنفسى عدة مساعدات للمسلمين على صيانة مقابرهم سواء أكان في أمريكا الجنوبية أم في إفريقيا أم في غيرها فالمملكة العربية السعودية تساعد من هذه الناحية ثم إن هناك شيئاً مهماً آخر وهو أن المملكة العربية السعودية رفعت من شأن المسلمين عندما يأتي المسلم حاجاً أو معتمراً فيرى أن هذه العمارة الضخمة في الحرمين الشريفين ليست مجرد توسعة ولكنها

توسعة ومع ذلك هي عمارة فنية هندسية رائعة فتشعر نفسه بارتفاع الروح المعنوية ويقول كما قال لنا أبو بكر الجومي رئيس قضاة شمال نيجيريا رحمه الله : كنا قبل أن نرى العمارة السعودية في الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة كنا نقول للكفار : لكم الدنيا ولنا الآخرة ، والآن ولله الحمد نقول : لنا الدنيا والآخرة .

فالمملكة العربية السعودية رفعت بهذا العمل من معنويات المسلمين .

صحيح أنه ليس الغرض من ذلك مجرد رفع معنويات المسلمين وإنما القصد من ذلك تيسير استيعاب الحرمين الشريفين للمصلين وللمعتمرين وللزوار ولكن إلى ذلك وجدت هذه المصلحة المهمة لأن كثيراً من المسلمين يرون أن النصارى والمسيحيين لديهم من الإمكانيات المادية والمالية ما ليس لدى المسلمين فلذلك يشعرون بأنهم أقل من أرباب الديانات الأخرى في هذا المجال .

التضامن الإسلامي في عهد خادم الحرمين الشريفين :

وفيما يتعلق بالتضامن الإسلامي والتعاون مع الإخوة المسلمين وبذل المساعدات لهم فقد تطور تطوراً عظيماً بل تضاعف في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله وأذكر أنه أرسل إليّ يأمرني بالحضور إلى الديوان الملكي فجلست معه ولم يحضر معنا إلا الأستاذ عبد العزيز المسند وقال لي الملك فهد : قد قرأت كتابك (في إفريقية الخضراء) وإن الذي ذكرته عن سبب كارثة العرب في زنجبار هو تحليل صحيح وقد قرأت اقتراحاتك في آخر الكتاب وهي أن تتعاون الدول الإسلامية على بذل المساعدة للإخوة المسلمين الإفريقيين ونحن نرحب بتعاون الدول الإسلامية على ذلك ولكننا نحن سنقوم من جانبنا بمساعدة الإخوة المسلمين في إفريقيا بل نعمل جميع ما يحتاجه إخواننا المسلمون في إفريقيا بإذن الله .

وعندما سمعت هذا دعوت له وشكرته وقلت له : إن الإخوة المسلمين في إفريقيا ينظرون إلى بلاد الحرمين الشريفين التي شرفكم الله سبحانه وتعالى بخدمتها بعين الأمل

وكذلك أيضاً يشكرون ما قدمتم لهم ويعرفون أنكم ولله الحمد تقصدون من ذلك وجه الله إن شاء الله لا تريدون من ذلك لا المصلحة السياسية ولا الدعائية لأن الله أغناكم عن طلب الدعاية من ذلك .

تطبيق الشريعة وبعض المنظمات الدولية :

إن المملكة العربية السعودية تطبق الشريعة الإسلامية وتتخذ من القرآن والسنة نظاماً لحكمها ودستوراً لها بينما نجد أن هناك منظمات كمنظمة العفو الدولية أو غيرها تطعن في المملكة تزعم أنها تخالف شرعة حقوق الإنسان عندما تقيم الحدود الشرعية وهنا لا بد من أن نستحضر قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ فنحن على يقين أن ما تقوم به المملكة العربية السعودية من تطبيق للشريعة الإسلامية لن يرضى عنه أعداء الإسلام لأنهم يريدون الفوضى للبلاد الإسلامية كما هو حاصل في بعض البلدان ، نعجب أشد العجب حينما يقولون ويعلنون أن لكل دولة أن تسن من القوانين التي ترى أنها تكفل الأمن وتحقق السعادة للشعب ، والشعب العربي السعودي شعب مسلم عريق في إسلامه ، بل إن بلاده شرفها الله بأن جعلها مهابط الوحي ومنطلق الرسالة الإسلامية فلا يكون هذا الشعب سعيداً إلا إذا طبقت الشريعة الإسلامية فالحكومة تطبقها والشعب سعيد بذلك فكيف يأتي أناس غرباء لا يعتقدون معتقدنا ولا يشعرون بما يشعره شعبنا ثم يقولون : لا ، هذا لا يجوز ، غيروا قوانينكم واتبعونا في قوانيننا وإلا سنعنا عليكم .

هل هذا يكون عقلاً ؟ هذا لا يكون ونحن نقول لهم : هل نحن أخذنا حقوقكم ؟ هل لأحد منكم حق اغتصبناه منه ؟ هل تعاقدنا مع أحد منكم عقداً ولم نف به ؟ .

إنما الواقع أنهم يريدون منا أن نطرح الأخذ بالشريعة الإسلامية ونتبعهم في قوانينهم إنما يريدون لنا أن نكون مثلهم في فوضى ضياع الأسر وفي ضياع البلاد ، لأنه إذا تفككت

الأسرة كما هو حاصل في بعض بلادهم قل عدد السكان ، بل أخذ يضمحل كما صار يصرح به بعض المنصفين منهم ، فهل يريدون لشعبنا أن ينقص عدده ثم يكون معرضاً للاضمحلال ؟ .

إنهم يريدون منا الوقوع في فوضى انسياق الأجيال الطالعة منا خلف الشهوات وتركها ما يعصمها من ذلك ، ويجلب لها السعادة في الدنيا والآخرة .
فهذا أمر مرفوض حتماً سواء أرضوا بذلك أم لم يرضوا .

مواجهة ما يتعارض مع الإسلام من العولمة :

يجب على المسلم أن لا يكون موقفه سلباً تجاه الغزو الثقافي ، الذي هو جزء من العولمة ، بل إن العولمة الثقافية والإعلامية هي أسلوب من أساليب الغزو الثقافي لأن القائمين عليه قد عرفوا أنهم صاروا يهيمنون على وسائل الإعلام العالمية وحتى إنهم يهيمنون على مقدرات بعض الشعوب في العالم فهذا جزء من الغزو الثقافي فيجب علينا نحن المسلمين أن لا نقاوم هذا الغزو مقاومة سلبية بأن نقول هؤلاء خبيثاء وضالون فقط ، وإنما يجب أن نغزوهم بغزو ليس من جنس غزوهم ولكنه يبطل غزوهم فالعولمة كما يُفهم منها أنها إعطاء الحرية للجميع في الدعوة إلى ما يريدون فكما أنهم يدعوننا إلى أن نتخلى عن ديننا وعن تقاليدنا وعن موروثاتنا المنبثقة عن ذلك ، يجب علينا أن نُصر على أن هذا غزو ثقافي ومن حقنا أن نعيش ونتقف كما نريد لكن إلى جانب ذلك لا ينبغي أن نتخذ موقفاً سلبياً وإنما نحن نقاوم ذلك بتكثيف الدعوة إلى الله وبيان محاسن الإسلام وبيان أن الدين الإسلامي يكفل السعادة للجميع بإصلاح أنفسنا مما قد يكون فيها من عيوب وقد عرفنا والله الحمد أن الإسلام إذا احتك بغيره من الأديان فإنه يكون هو الفائز وهو المنتصر وجربنا هذا في أوروبا فمن الذي يتصور أن المدن الأوروبية أصبح فيها عشرات المساجد ، أنا رأيت حياً في مدينة بروكسل فيه اثنان وعشرون مسجداً وهو حي

واحد وهولندا التي رُفعت فيها صغيرة جداً فيها (٢٦٧) مسجداً فنحن ولله الحمد غزوانهم غزواً سلمياً ثقافياً خيراً ، أي نحن لم نجبر أحداً على ديننا ولم نكره أحداً على اعتناق عقيدتنا ولم نؤذ أحداً ، إنما نقول : إن هذا الدين الذي شرفنا الله به ونعمننا بظلاله وسعدنا بسبب اعتناقه نحن نيسر لمن يريد من الآخرين أن يدخلوا فيه لأن ديننا علمنا أن نحب الخير للجميع ومن ذلك أن ندعوهم إلى الإسلام .

يجب علينا أن نبصر المسلمين وننبههم إلى أن الإسلام ليس مجرد دعوى باللسان بل هو كما قال أحد علماء السلف الصالح : ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما قر في القلوب وصدقته الأعمال ، وقد رأينا مع الأسف الشديد أن المسلمين في عصور مضت ركز علماءهم ووعاظهم على الحث على الاستزادة من النوافل من الصلاة ومن الصيام ومن الأعمال الأخرى المطلوبة والتي هي نوافل مرغوب فيها وفيها خير كثير لمن عملها ، ولكن كان ما عملوه على حساب التناضي عن المعاملة فلو رأينا الكثير من كتب الوعظ وجدنا أنها تأمر بالمزيد من النوافل من الذكر والتسبيح ومن التحميد بل ومن صيام التطوع ومن صلاة التطوع وهذا أمر جيد ومهم وهو يرقق القلب ويزيد المسلم إيماناً وهو حسنات إلى حسنات ولكن لا ينبغي أن يشغلنا ذلك عن أن ندعو المسلمين إلى الأخذ بالمعاملة التي يأمر بها الإسلام لأن الرسول ﷺ قال : «من غشنا فليس منا» فيجب علينا أن نحارب الغش ، وقال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان» فيجب علينا أن نحذر المسلمين من هذه الأمور ونشرح لهم أنهم الآن في العصر الذي يسمى عصر الاتصال بالشعوب الأخرى الذي يقتضي أن ينظر المسلم إلى أمور المعاملة الواردة في الإسلام فيلتزم بها لأن هذه هي علامة النجاح وعلامة الإقبال وهي التي تركز الثقة بالمسلمين وتجعل غير المسلمين ينظرون إلى المسلمين على أنهم أمثلة للصدق وأمثلة للخير للجميع أي الخير للمسلمين وغير المسلمين فيجب على المسلم ألا يكذب وألا يغش كافرًا في المعاملة لأن الغش محرم سواء أكان لكافر أو

مسلم وخاصة إذا كان الكافر ذمياً أو ليست داره دار حرب أي لست تحارب المسلمين وإنما تتعامل معه بموجب تعاقدات فهذه التعاقدات تعتبر تعاقدات مرعية مثل تعاقدات أهل الذمة الموجودين تحت حكم المسلمين فهم وإن لم يكونوا تحت حكم المسلمين ولكن أحياناً يكون المسلمون بعض المسلمين موجودين تحت حكمهم ، ولذلك يجب عليهم أن يعاملوهم كما يعاملون المسلمين فيما يتعلق بالوفاء بالعقود لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ فالعقود يجب الوفاء بها للجميع نسأل الله تعالى أن يرزقنا البصيرة في الدين والتوفيق للدعوة إليه وهداية الحيارى من الأمم التي تبحث عن السعادة الروحية ، الطمأنينة النفسية ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

الهوامش

- (١) وليم هنتجتون - صراع الحضارات .
- (٢) المركز الإعلامي في الرياض - محاضرة حول أسباب ركود الحضارة الإسلامية ، ١٧ / ٣ / ١٤٠٣ هـ .
- (٣) رسالة للرئيس محمد خاتمي رئيس جمهورية إيران الإسلامية ورئيس منظمة المؤتمر الإسلامي خلال الفترة ١٤١٨ هـ - .
- (٤) مؤتمر قمة الأديان الذي عقدته هيئة الأمم المتحدة في سبتمبر ٢٠٠٠ م .
- (٥) من أهمها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ م .
- (٦) كامل الشريف - الإسلام وثقافة الحوار ، ص ٤ - ٥ .
- (٧) د/ صلاح عيد «الإسلام في عيون غربية» : الأهرام ٢٣ / ٧ / ١٩٩١ م .
- (٨) د/ محمد السكران - محاضرة (الإسلام والغرب) .

ثقافة الحوار الحضاري عند المسلمين

تأملات في سؤال المفهوم والإجراء

د. حسن عبدالكريم الوراكلي (*)

المستخلص

إن ما وضع من تعريفات للثقافة يمكن رده - مع وفرته كما وتباينه كيفاً - إلى منظورين أساسيين :

أولهما : تجريدي نظري يربط الثقافة بمجال الأفكار، والمعارف، والفنون .
وثانيهما : تطبيقي إجرائي يرى الثقافة منهج حياة تتحدد من خلاله أنماط السلوك والممارسة والموقف .

على أن تحليل هذين المنظورين يكشف لنا عن تداخلهما وتكاملهما ، وهو ما يتمثل فيما للعقدييات والأخلاقيات ، ومستودعها العقل والفكر والمعرفة والفن ، من آثار على الواقع الموضوعي في تحديد منطقته ومنهجه .

من ثم أمكن القول بأن الثقافات تتماثل من حيث كونها (نظرياً وتطبيقاً) وتتباين من حيث مادتها النظرية أي مذهبيتها وأيديولوجيتها، ويترتب على ذلك القول بتعدد الثقافات لتعدد التكوين العقدي والفكري والنفسي بين المجتمعات الإنسانية، غير أن هذا لا يمثل

(*) أستاذ بقسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، حصل على الماجستير من جامعة لاكوبلوتينسي في مدريد وعلى الدكتوراه في الأدب العربي من الجامعة نفسها .

حاجزاً يعوق تواصل هذه الثقافات ، بل ربما كان العكس هو الصحيح باعتبار أن تعدد الرؤى واختلاف الأفكار من شأنه أن يقوده - ولا سيما لدى المفكرين والعلماء الأسوياء الواعين بنسبة الاختلاف في الكون - إلى البحث عما تسعد به الإنسانية في كنف تواصل يتحقق به تعارفها وتعاونها .

ذلك هو ما كانت تستهدف الثقافة الإسلامية بشمولية العقيدة والشرعة التي انبثقت عنهما معتمدة الحوار في إبلاغ قيمهما للناس كافة وتكريس مثلهما في حياتهم .

وهذا البحث الذي نسعد بأن نسهم به في إشغال هذه الندوة العلمية المباركة التي تنظمها هذه المؤسسة العلمية الحضارية الراشدة مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض حول (الإسلام وحوار الحضارات) سيكون مداره - بحول الله - ثقافة الحوار الحضاري في الإسلام .

وقد مهدنا للقول في أدبيات هذه الثقافة - ثقافة الحوار الحضاري في الإسلام ومعطياتها - بتقديم عنيانا فيه باستبيان مفهوم الحوار ودواعيه وطبيعة الثقافة التي يمتاح من قيمها ومثلها ومبادئها ما يجعله ذا فعالية في إرساء قواعد تواصل حضاري بين بني البشر جميعاً أبيضهم وأسودهم وشرقيهم وغربيهم ، وغنيهم وفقيرهم .

وفي الشق الأول من البحث عنيانا باستخلاص أدبيات ثقافة الحوار الحضاري في الإسلام من كتاب الله تعالى وحديث رسول الله (ﷺ) وكذلك من خلال السيرة النبوية العطرة وأخبار الصحابة رضوان الله عليه ، وعلماء الأمة في مختلف العصور بالشرق والمغرب .

وفي هذا الشق نفسه سنقف - عند استخلاص أدبيات ثقافية الحوار من النصوص النظرية والمجالات التطبيقية - لتحديد طبيعة هذه الأدبيات من حيث مرجعيتها ، ومن حيث مضمونها ، ومن حيث غايتها .

أما في الشق الثاني من البحث فسنعنى بسوق أمثلة ونماذج من سلوكيات ومبادرات تمخضت عن ثقافة الحوار في تاريخ المسلمين ، نرصد من درسها وتحليل آثارها ومعطياتها على تواصلهم الحضاري بمختلف مستوياته الاجتماعية ، والمعرفية ، واللغوية ، والثقافية مع غيرهم من مخالفيهم في المعتقد ، والتصور ، والفكر .

ويخلص البحث من مجموع فقراته إلى التأكيد على :

- ١ . حاجة المجتمعات الإنسانية ، وخاصة في هذا العصر ، عصر التكتلات والتجمعات السياسية والاقتصادية ، إلى الحوار من أجل التفاهم والتعايش والتسامح .
 - ٢ . ضرورة إشاعة ثقافة الحوار بأدبياتها الإسلامية واستثمار قيمها الحكيمة ومثلها الرشيدة في إرساء تواصل حضاري تسوده - مع تعدد معتقدات أصحابه وثقافتهم - روح التعارف والتقوى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ الحجرات .
- وبالله التوفيق ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

ثقافة الحوار الحضاري عند المسلمين

تأملات في سؤال المفهوم والإجراء

(١)

كان الحوار ، بمستويات متعددة وفي مجالات متنوعة ، من أبرز ما اعتمد الإسلام من آليات ووسائل في دعوته العقدية ، والمعرفية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والحضارية لإخراج الإنسان من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل شريعة الدعوة الخاتمة ، مستثمرًا طاقته الإيمانية في تعمير الكون والنهوض بأعباء الاستخلاف بما ينفع الناس ويمكث في الأرض وفق ما تنزل به الوحي على رسل الله من أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى الرسول الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وباعتماد الإسلام آلية الحوار في دعوة كافة الناس ، عربيهم وعجميهم ، أبيضهم وأسودهم ، لقيمته العقدية ، ومبادئه المعرفية ، ومثله الحضارية بما يشيع في حياتهم ، خاصة وعامة ، العدل والتكافل والإخاء كان يحقق ، في آن واحد غايتين اثنتين :

أولاهما التفسير من الانكفاء على الذات ، وتجاهل الآخر ، وإقصائه وتهميشه لاختلافه العقدي والفكري .

وثانيتهما الترغيب في التعارف والتلاقي بني الشعوب والأمم بغاية التمكين لقيم التوحيد ومثل الاستواء - حسب ما شرع الله سبحانه وتعالى من الدين لكافة رسله وأنبيائه - في حياة أفرادها حتى يعيشوا كراما بتقواهم ، أعزة بإيمانهم .

وبهذا وذاك كان الإسلام يكرس - بالوحي النازل من رب العالمين والفعل الماثل من مبلغ الوحي والداعي إلى اتباعه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام - ثقافة الحوار في حياة

المسلمين ، ويضع نصب أعينهم مفهومها ، ويكشف لهم عن إجرائها ، يستحثهم - خاصة علماءهم حملة الدعوة الخاتمة الذين هم ورثة الأنبياء والموقعون عن رب العالمين على وجوب التمسك بأدبياتها ، والتوسل بمنهجها في حوارهم أيا كان موضوعه ، وأيا كان شريكهم فيه ، لا فرق بين أن يكون ممن هو على شاكلتهم في المعتقد والشرعة والمنهاج ، أو ممن هو على غير شاكلتهم في المعتقد والشرعة والمنهاج .

من هنا تنبع أهمية هذه الندوة العلمية المباركة التي دعت إليها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة مستهدفة بلورة هذه الثقافة ، ثقافة الحوار الحضاري عند المسلمين ، والكشف عن آثارها في التواصل مع (الآخر) بما يحقق للمسلم ، صاحب هذه الثقافة ، النهوض برسائله في الدعوة والبلاغ ، ويحقق (للآخر) ، التعرف على قيم العدل ، والسلم ، والتسامح التي تستهدف إشاعتها وتكريسها في حياة البشرية قاطبة هذه الثقافة ، ثقافة الحوار الحضاري انطلاقاً من أدبياتها في الأصلين واستشراقاً لمعطياتها في الأنفس والآفاق بمشارك الأرض والمغرب .

(٢)

وفي هذا البحث الذي يسعدني الإسهام به في إشغال هذه الندوة المباركة سألج ، بحول الله تعالى ، القول - ضمن محورها الثاني حول «الإسلام والحضارات الأخرى» - في ثقافة الحوار من حيث المفهوم الذي تحددت وفقه دواعي هذا الحوار وموضوعاته ، ومن حيث الإجراء الذي تبلور وفق ضوابط منهجية وعلمية وخلقية ليجعل من حوار المسلمين الحضاري آلية نافذة في التبشير بقيم الإسلام في العدل والسلم والتسامح ، ووسيلة ناجحة في تجاوز معوقات التباين والتمايز العرقية والمذهبية والثقافية بين بني البشر ، ونبذ نزعات العداء بينهم ، وبث روح السلم القائم على أسس التعارف

والتعاون كما أقرها الإسلام في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾^(١) .

(٣)

لا جرم أن لكل حوار ثقافة يسترشد بقيمها ويستضيء بمثلها ، وهي التي تحدد منطلقاته ، وترسم مداراته ، وتصوغ آلياته ، وتخطط غاياته .

ولا جرم ، على هذا ، أن للحوار الحضاري عند المسلمين ثقافة لاشك أنها ذات مفهوم ، ولاشك أنها ذات إجراء .

فما هذا المفهوم ؟ وما هذا الإجراء ؟

هذا هو السؤال الذي أحببت - حضرات الإخوة أصحاب الفضيلة العلماء والمفكرين - أن أتأمله بمحضركم في هذا العرض آملاً أن تغنوا الإجابة عنه وتوفوه حقه منها بواسع علمكم وثاقب نظركم .

وبإدريء ذي بدء نقول إن ثقافة الحوار الحضاري عند المسلمين امتاحت من ثقافة الإسلام . وهذه ثقافة أبرز ما يميزها في تصورنا ميزتان اثنتان^(٢) :

أولاهما : كونها موحدة ، وذلك لصدورها عن عقيدة التوحيد بما ترسخه هذه العقيدة في النفس الإنسانية من إيمان ثابت بوحدة الألوهية والربوبية ، وبما تكرسه من يقين عميق بالإرادة الربانية المطلقة التي أناطت بالإنسان مهمة الاستخلاف في الأرض وتعميرها وحددت له الشرعة والمنهاج . ومن هنا جاءت هذه الثقافة عقدية في مضمونها ، أي في قيمها ومثلها ، وعقدية في غايتها ، أي فيما تفرزه من واقع ، أي كان مجاله وأيا كانت طبيعته ، باعتبار أن أي واقع هو في أصله - بمستوى أو بآخر - قيمة ثقافية .

ثم إن صدور هذه الثقافة عن عقيدة التوحيد والتحامها بمقومات هذه العقيدة وامتزاجها بقيمتها ومثلها منحها رؤية متميزة عما سواها من (الثقافات) بخصوص الكون ، والعالم ، والإنسان ، والمجتمع ، والتاريخ .

وثانيتها : كونها محررة ، وذلك أنها تشربت من عقيدة التوحيد وشرعة الدين قيم الحق ، والعدل ، والمساواة التي حررت عقل الإنسان من سلطان الخرافة والشعوذة ، وأعتقت نفسه من أسر الوهم والخوف ، فتم له - كما قال الشيخ محمد عبده : «أمران عظيمان طالما حرم منهما ، هما : استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر»^(٣) . والأمران معاً من الأهمية بمكان في حياة الإنسان إذ بهما يستكمل إنسانيته ، فيستثمر طاقاته في السعي الملتزم بقيم الحق والعدل الكفيلين بإسعاده وإسعاد غيره ممن حوله من الناس .

وميزتا الثقافة الإسلامية المذكورتان كافيتان لأن تجعل خطاب هذه الثقافة خطاباً حضارياً يتلاءم مع كافة حاجات الإنسان وتطلعاته بما يوفر له الحياة الآمنة السعيدة حالاً ومآلاً . ثم إنهما كافيتان لأن تغذيا ثقافة الحوار الحضاري عند المسلمين بقيم الاستواء العقدي ومثل الاستعلاء الإيماني ، وهي قيم ومثل من شأنها أن تحصن هذا الحوار ضد كل ما قد ينخر حواراً غيره من نوازع هوى وأباطيل دعوى ، وتمده بروح وثاب من الإخلاص في القول والإيجاب في الفعل يحقق بهما مقاصد الحنيفية السمحة النبيلة في التعايش ، والتسامح ، والتكافل .

(٤)

وقد توسل الإسلام في رسالته الخاتمة ، مثلما توسل من قبل فيما حمل الرسل عن ربهم ، بآليتين ذواتي أثر عميق في الإصلاح ، والتغيير ، والاستشراف ، هما : الكلمة والفعل . أما الكلمة فالمراد بها الكلمة الهادية البانية الراشدة المرشدة المنزل من رب

العالمين على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم تستأصل من النفوس معتقدات الباطل وتحضها وتستنتج معتقدات الحق في أنحائها وترسخها . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (٤) .

وأما الفعل فالمراد به ما ترجم به الرسول المعلم المربي صلى الله عليه وسلم تلكم الكلمة ، كلمة الوحي الرباني ، إلى سلوك ، وفعل ، وموقف ، ومبادرة مما تطالعنا نماذجه المتنوعة ، ومشاهده المتنوعة في سيرته العطرة .

وقد لا نكون بحاجة إلى القول ، هنا ، بأن انسجام هذين العنصرين - أي : الكلمة والفعل - وتوافقهما عند الأفراد والجماعات يلوران لنا ثقافتها التي تصدر عنها في قولها وعملها مما يؤكد مصداقية كون الثقافة ، أي ثقافة ، ذات شقين : أولهما (مفهومي) وثانيهما (إجرائي) ، وأن الأخير ثمرة الأول ومرآته ، وأنه ليس من طائل تحت قول يفصل بين الشقين في بنية ثقافة أيا كان منبتها وطبيعتها .

ولما كان الشق (المفهومي) للثقافة الإسلامية ينبثق من الوحي ، كتاباً وسنة ، ويلتحم بمحوريه الرئيسين : العقيدة والشرعة في أبعادهما المضمونية وغاياتهما الخلقية فإن أدبيات المفهوم والإجراء في ثقافة الحوار الحضاري عند المسلمين إنما تجد مرجعيتها في الأصلين الكتاب والسنة . ومن ثم أمكن القول بأن إطار هذه الثقافة ، ثقافة الحوار عند المسلمين ، إنما يحدده الدين بمفهومه الشامل الذي يستوعب العبادة والمعاملة ؛ بل يستوعب حياة المسلم برمتها ، لا يدع منها صغيرة ولا كبيرة إلا ويهيمن عليها بمقوماته العقدية ، وضوابطه الشرعية ، وتصورات الحضارية .

ومن هنا كان كل حوار يوصف بكونه (إسلامياً) لا بد أن يكون ذا محتوى عقدي ، وذا مضمون شرعي ، وذا غاية حضارية مما يتيح لنا أن نستبين في ضوئه بنية هذا الحوار ،

في أفقه النظري وفي مجاله التطبيقي ، أي على مستوى المفهوم والإجراء ، حيث يبدو ملتحمًا بمرجعية دينية (بلاغية) -نسبة للبلاغ- يستند إليها ويصدر عنها . وقد أبانت لنا النصوص المصدرة لهذا الحوار في الكتاب والسنة عن جانبين مهمين في بنية هذا الحوار نراه في أحدهما (وسيلة) ، أي أسلوب تواصل وتفاهم ، ونراه في ثانيهما (غاية) ، أي بلاغًا يشر بقيم الاستواء الحضارية التي فطر الله الناس عليها ، ويدعو إلى إحلالها محل قيم الإكباب الضالة المضلة ، وهو ما يتبلور في ثقافة هذا الحوار مفهومًا وإجراء .

(٥)

ليس من حاجتنا ، هنا ، أن نقف عند الدلالة المعجمية لكلمة (حوار) ، ولكن لا بأس -قبل تحليل صفته (الحضارية) في هذا العرض- من الإشارة إلى أن مناط الأمر في ذلك متعلق بدلالة الأصل اللغوي لمادة (حور) ، وهو (الرجوع) أي مراجعة الكلام ومعاطاته . وكلاهما -أي (المراجعة) و(المعاطاة)- ليس يخلو من دلالة على (التجاوب) . والتجاوب سمة من سمات التحضر ، فإذا أضفنا إلى ذلك الشرط القرآني ، ذا الدلالة الحضارية ، في الحوار والمتمثل في (التي هي أحسن) ، وهو شرط ملزم بالتأهيل العلمي والاقتدار على الإتقان ، أمكننا أن نطعمن إلى وصف حوار المسلمين بصفة (الحضارية) . على أن هذه الصفة لا تنطبق تمام الانطباق على هذا الحوار إلا إذا جاء على شرط حضارته ، أي الحضارة الإسلامية التي نبتت من عقيدة الإسلام وشريعته وتمثلت في منجزاتها الروحية ومنشأتها المادية أخلاقه وأدابه .

ولا نماري -نحن المسلمين كما لا يماري معنا غير المسلمين ممن حسن اطلاعه على الإسلام- عقيدة وشرعة- في أن الحوار إذا صدر فيه صاحبه عن الإسلام الحق متمثلاً ، بفهم وإدراك معمقين ، قيمة العقدية ، ومقاصده التشريعية ، ومثله الثقافية ،

اكتسب مفهومه ، للتو ، صفة (الحضارية) وفق المشار إليه من مقومات الحضارة الإسلامية .

على أن هذا لا يمنع ، كذلك ، أن يوصف حوار غير المسلمين بصفة (الحضارية) بأحد اعتبارين :

أولهما : أن يتوفر له قدر كاف من (المشترك) الروحي الإنساني من القيم السوية والمثل البانية مما يحسنه العقل السليم ولا يتناقض مع ما حسنه الشرع .

والثاني : أن يصطبغ عند أصحابه بلون حضارة يرون فيها - بصرف النظر عن حظها من الاستواء أو الإكباب في نظر غيرهم - المثل الذي ينبغي اتباعه .

(٦)

لعل أول ما يسعفنا على استبطان كنه مفهوم ثقافة الحوار الحضاري عند المسلمين ومغزى إجراءاته استجلاء دواعيه وموضوعاته ، ثم النظر في ضوابطه المنهجية والعلمية والأخلاقية .

ولا سبيل في رأينا للحديث عن دواعي الحوار الحضاري عند المسلمين إلا بربطها بمرجعياته الثقافية التي سبق الإلماح إليها ، ومن أكد ما تضمنته هذه المرجعية مما يتصل بهذا الشأن حصرها - مع وعيها الكامل بسنة الاختلاف بين الناس في رؤاهم وتصوراتهم ومذاهبهم - على النهوض بمسؤوليتها في وجوب التوجه بخطابها ذي القيم العقدية ، والاجتماعية ، والحضارية المتميزة إلى الناس كافة . من ثم كانت ثقافة هذا الحوار هي التي تحدد دواعيه ، وفي ذات الوقت ، تؤكد ضرورته على النحو الذي يصبح معه لدى المرشحين له من علماء المسلمين ومفكريهم فريضة لا تسقط عن فئة منهم إلا إذا نهضت بأدائها فئة أخرى مثلهما .

وفي ضوء ما تقدم يمكننا أن نستبين جملة دواع لهذا الحوار على النحو التالي :

أولاً : عالمية خطابه الثقافي . يقول الله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾^(٥) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت للأبيض والأسود »^(٦) ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة »^(٧) .

ثانياً : شمولية خطابه الثقافي ، فبمقتضى هذه الشمولية يتم ، من جهة ، الربط ما بين العقيدة والشريعة في إطار العبادة بمفهومها الواسع الذي يعني فيما يعنيه سعي الإنسان وعمله ، وتعميره الأرض ، وقيامه فيها بمهمة الاستخلاف ، ومن جهة أخرى ، يتم ، وفق ذلك ، حشد الطاقات العقلية والقوى الفكرية عند الإنسان ، أيا كان لونه وأيا كان جنسه ، لاستثمارها في إبداع حضارة الحق ، والعدل ، والمساواة ، والتقوى .

ثالثاً : وحدة المضمون العقدي في خطابه الثقافي ، ذلك أن دعوات الأنبياء والرسل جميعهم ذات أصل واحد صدرت عنه وهو الوحي الإلهي ، وذات غاية واحدة تمحورت حولها وهي التمكين لعقيدة التوحيد في الأرض ولما ينبثق عنها من قيم ومبادئ . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾^(٨) . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾^(٩) . ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾^(١٠) .

ويقول صلى الله عليه وسلم مؤكداً أن الرسل من قبله جاءوا بدعوة التوحيد وبلغوا رسالة الإسلام « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد »^(١١) . وقد صور رسول الله صلى الله عليه

وسلم وحدة الرسالات وصلتها ببعض بقوله عليه الصلاة والسلام : «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (١٢) .

رابعاً : وحدة المضمون العرقي في خطابه الثقافي ، ذلك أن أصل الإنسانية واحد من نفس واحدة . يقول تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ (١٣) . وفي هذا التذكير القرآني بوحدة الأصل ما يتنزع نوازع التعادي والتباغض من النفوس ، ويملأها بمشاعر التواد والتراحم ، ويحبب إليها التعاون والتكافل .

خامساً : التزوع الاجتماعي في خطابه الثقافي ، فالإسلام دين يساوي بين الناس جميعاً ، ولا يفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح الذي هو ثمرة التقوى بأوسع دلالاتها . وتنبلور (اجتماعية) الإسلام و(جماعيته) من خلال ما فرض من عبادات كالزكاة والصلاة وغيرهما ومن خلال ما ندب إليه من نوافل كالصدقات وغيرها ، هذا فضلاً عما ألحت عليه نصوصه المصدرية من وجوب تفعيل مبادئ إصلاحية في المجتمع الإنساني من مثل (مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ومبدأ (التعاون على البر والتقوى) . وبهذا وذاك يلتحم الوجدان الفردي بالوجدان الجماعي فيعم الخير كافة المجالات في حياة الناس معنويها وماديها ، ترشد تلك فلا زيغ ولا ضلال ، وتستقر هذه فلا اضطراب ولا قلق ، وبذلك يتاح للمجتمع الإنساني أن يشيد له على تقوى من الله ورضوان صرح حضارة الحق والعدل والخير والنماء .

سادساً : محورية البلاغ ومقصدية التعارف في خطابه الثقافي ، ذلك أن هذا الخطاب ليس خطاب نحلة قومية متعصبة متحجرة منكفئة على نفسها ، ولا خطاب

مذهبية شعوبية عنصرية متوقعة على ذاتها ؛ ولكنه خطاب عقيدة وشرعة ومنهاج للناس كافة ، لا تمييز في أدبياته بين أسود وأبيض ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا بين غني وفقير ، ولا بين كبير وصغير ، الهدف الرئيس منه خير الإنسانية جمعاء وسعادة البشرية قاطبة .

من ثم ندرك السر في إلحاح هذا الخطاب على ضرورة البلاغ . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (١٤) .

كما ندرك السر في إلحاحه على ضرورة اتصال البلاغ واستمراره بعد رسول الله مبلغه الأول عن ربه تعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بلغوا عني ولو آية» (١٥) .

ومقصدية هذا البلاغ أن يحقق هذا الخطاب الكوني ما أراده رب العالمين من تعارفهم وتواصلهم لا يميز بعضهم عن بعض إلا بالتقوى . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١٦) .

سابعاً : الوعي بجبلية الاختلاف في خطابه الثقافي . وجبلية الاختلاف هذه بادية للعيان في غير جانب من جوانب كون الله وفي غير مخلوق ممن خلق . يقول تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾ (١٧) ويقول تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما ءاتاكم فاستبقوا الخيرات ﴾ (١٨) ، ويقول تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ (١٩) .

وإلى جانب هذه الآيات الكريمة التي تبين لنا عن حقيقة جبلية الاختلاف وتؤكدده يضاف أنه لم يرد في كتاب الله تعالى النهي عن الاختلاف ولكن ورد فيه النهي عن التفرق

والنزاع ، أي النهي عن النتائج السيئة للاختلاف ، فهو يقول مثلاً : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾^(٢٠) ، وكان بالوسع أن يقول (ولا تختلفوا) ، وهو يقول : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾^(٢١) . وعندما نهى عن الاختلاف نهى عن اختلاف محدد كاختلاف بعض الأمم البائدة ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾^(٢٢) أي لا تكن اختلافاتكم اختلافات تهاجية تؤدي بكم إلى صراع وهرج ومرج^(٢٣) .

ولدينا من تاريخ المسلمين شواهد تدل على أن ما كان من اختلاف بينهم وبين غيرهم في المعتقد ، واللسان ، والعرف لم يحل دون معاشتهم لهم في كنف مجتمع واحد ، كما أنه لم يحل دون التواصل معهم بأساليب عدة ليس الحوار إلا واحداً منها . وأبرز مثال لهذا التعايش مجتمع المدينة النبوية ، وهو أول مجتمع عرفه تاريخ الإسلام ونظمت حياة أفرادها من مسلمين وغير مسلمين الصحيفة التي اكتتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تضمنت الصحيفة - فضلاً عما يتصل بتشكيل الجماعة الإسلامية على أساس العقيدة والشرعة - العلاقات التي تشكل هذا المجتمع على أساس المواطنة واشتملت على غير المسلمين من أهل الكتاب عامة واليهود خاصة فضمنت لهم حرية المعتقد والدين ، وألزمتهم بالقيام بواجب الدفاع عن هذا المجتمع ومناصرة أهل هذه الصحيفة على من حاربهم . وقد رأى العلماء فيما نظمت هذه الصحيفة من علاقة بين المسلمين واليهود مثالا من حرص الإسلام على وجوب التعايش والتسامح ، مع اختلاف الدين والعقيدة ، داخل المجتمع الواحد ، وهو ما أكدته القرآن الكريم في قول الله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾^(٢٤) . وعرفت أقطار الإسلام في المشرق والمغرب ، بعد مجتمع المدينة ، مجتمعات أخرى لم يحل الاختلاف في الدين والعقيدة بين أفرادها من أن يتعايشوا جنباً إلى جنب ويساهموا ، كل وسع طاقته ، في إنتاجيتها . ولعل أبرز مثال لتلك المجتمعات المجتمع الأندلسي الذي عاش فيه إلى جانب المسلمين طوائف من النصارى واليهود يمارسون ما خول لهم الإسلام من حقوق دينية ومدنية أتاح لعدد

منهم أن يبرزوا في غير مجال من مجالات هذا المجتمع الثقافية والأدبية ويشغلوا مناصب سامية (٢٥) .

(٧)

إذا كانت الدواعي سالفة الذكر قد حددت لنا بعض الجوانب من ثقافة الحوار الحضاري لدى المسلمين ، فإن الوقوف عند مداراته الموضوعية من شأنه هو الآخر أن يحدد لنا جوانب أخرى من هذه الثقافة أو يكمل لنا بعض ما استخلصناه عنها من حديثنا عن الدواعي .

قد يتبادر إلى أذهان البعض أن المدارات الموضوعية للحوار الحضاري عند المسلمين مقصورة - بالنظر إلى ارتباط أو صدور هذا الحوار عن مرجعية ثقافية نابعة من نصوص الوحي - على الديني من الموضوعات دون سواه كالاقتصادي ، والاقتصادي ، والفكري ، والسياسي ، وغيره . وهذا تصور متعجل يغيب عن أصحابه أمر ذو بال سبق أن ألمحنا إليه وهو أن مفهوم الدين في التصور الإسلامي - على خلاف ما هو في تصورات أخرى (دينية) وأيديولوجية - يتسع ، بفضل مكوناته العقدية ، ومقوماته التشريعية ، ومثله الخلقية ، ليشمل حياة الفرد والجماعة برمتها ، لا يدع شاذة ولا فاذة فيها إلا ويعنى بمعالجتها ، وفق مقاصد التشريع . ومن هنا كان من البدهي أن نجد ثقافة هذا الحوار ، ذات المرجعية الدينية ، تدفع به إلى موضوعات تتعدد تعدد ما تقوم به حياة الناس . بيد أنها - أي الموضوعات - على تعددها ، من اجتماعي ، إلى اقتصادي ، إلى فكري ، إلى سياسي ، لا يخرج أي منها عن دائرة الدين باعتبار أن الدين ، وليس سواه ، هو المهيمن بمنظومه العقدية ، والشرعية ، والحضارية على كافة أنماط النشاط الفكري والمادي عند الإنسان المسلم .

حقاً أن الموضوع العقدي - وضمنه الموضوع الدعوي - يحتل الصدارة في غير نص من نصوص القرآن التي وظفت فيه آلية الحوار ، وكذلك شأنه في غير حديث من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ لكن ذلك لم يكن القصد منه قصر الحوار على هذا الموضوع أو حبسه داخل دائرته ؛ بل كانت الغاية منه - والله تعالى أعلم - أن بناء العقيدة وتثبيت أسسها في العقول والنفوس كان مطلباً رئيساً وجوهرياً في كافة الرسائل السماوية ، وذلك باعتبارها لب المنظومة التصورية والثقافية والحضارية للإنسان التي إذا صلحت صلح أمره كله ومشى سويًا على صراط مستقيم ، وإذا فسدت فسد أمره كله ومشى مكبا على وجهه ﴿ أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويًا على صراط مستقيم ﴾ (٢٦) .

لذلك السبب تكررت مشاهد الحوار ذي الموضوع العقدي - الدعوي في النص القرآني الكريم على نحو ما نقرأ في سورة المائدة : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفس ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم * قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم * لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير ﴾ (٢٧) ، وعلي نحو ما نقرأ في هذه الآيات التي تعرض علينا مثالا من حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم

وإياؤكم في ضلال مبين * قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعين * قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴿٢٨﴾ .

وحول الموضوع نفسه يدور الحديث الذي رواه أنس ابن مالك رضي الله عنه ، قال : «بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ، ثم عقله . ثم قال : أيكم محمداً والنبي صلى الله عليه وسلم متكئ بين ظهرائيهما ، فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكئ . فقال الرجل : ابن عبدالمطلب . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد أجبتك . فقال الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم : إني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجد علي في نفسك . قال : سل ما بدا لك . فقال : أسألك بربك ورب من قبلك ، الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : اللهم نعم . قال : أنشدك بالله ، الله أمرك أن نصلي الصوات الخمس في اليوم واليلية ؟ قال : اللهم نعم . قال : أنشدك الله ، الله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال : نعم . قال : أنشدك بالله ، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فنقسمها على فقرائنا ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم نعم . فقال الرجل : آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر ﴿٢٩﴾ . وفي رواية أخرى للحديث ، قال ضمام : يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك . قال : صدق . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : الله . قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله . قال : فبالذي خلق السماء ونصب هذه الجبال الله أرسلك ؟ قال : نعم ﴿٣٠﴾ .

وهذا الحوار الذي دار في الآيات القرآنية حول عقيدة التوحيد ، ودار في الحديث المتقدم حول موضوعات أخرى وثيقة الصلة به من مثل مصنوعات الله تعالى ، والرسالة والرسول ، فضلا عن كونه يمثل نماذج إجرائية للحوار في القرآن والسنة ، هي بمضمونها وموضوعها توجيه للمسلم بضرورة الصدور في حوار - أي كان موضوعه وأي كان محاوره - من هذه العقيدة التي تشكل مقومات ثقافة الحوار عند المسلم .

وعلى هذا فإن المسلم - من منطلق قيم عقيدته وضوابط شريعته وهو ما يشكل ثقافة الحوار عنده - يسعه أن يحاور (الآخر) في كافة الموضوعات التي يرى في طرحها للنقاش ما يرجي منه نفع أو قد تتحقق به جدوى لمجتمعه بخاصة وللمجتمع الإنساني بعامه .

ونخلص مما تقدم إلى القول بأن قضايا الاجتماع ، والاقتصاد ، والفكر والسياسة جميعها صالحة ؛ بل حقيقة بأن يدار حولها الحوار بين المسلمين فيما بينهم وبين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب . ومن يقل بقصر حوار المسلم ، وخاصة مع غير المسلم ، على الموضوع (الديني) دون سواه من الموضوعات سالفه الذكر فقد ضيق واسعاً وحجر مرناً ، فالإسلام خطاب إلهي للناس قاطبة لم يفرض فيه من شيء ، غايته تنظيم حياة الإنسان في جميع مجالاتها الفكرية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية بما يحقق له السعادة في الدارين .

وحقاً أن الموضوع الدعوي ينبغي أن تكون له الصدارة في ترتيبية حوارنا الحضاري مع غير المسلمين ؛ غير أن هذا لا يعني الانشغال به دون سواه ، فقد تدعو الحاجة أو يطرأ على واقع المسلمين أو واقع الإنسانية ما يصبح معه الحوار في هذا الموضوع أو ذاك من الموضوعات سالفه الذكر ذا أولوية يستحق بها التقديم على سواه بما فيه الموضوع الدعوي علماً بأن هذا الأخير - أي موضوع الدعوة - يتبطن أو ينبغي أن يتبطن كل موضوع يحاور فيه المسلم غيره ليحقق له صفتي (الإسلامية) و(الحضارية) .

(٨)

لئن حددت ثقافة الحوار عند المسلمين دواعيه التي تعددت ، وحددت مواضيعه التي تنوعت مما يدل على غناء رصيد هذه الثقافة المعرفي وسعة أفق هذا الحوار الحضاري فإنها هي التي حددت كذلك - ووفق مقوماتها التصورية ، وقيمها الفكرية ، ومثلها الأخلاقية - ضوابطه المنهجية ، والعلمية ، والأخلاقية التي تضمن له الاتزان

الإجرائي ، والعمق العلمي ، والأساس الأخلاقي مما يسعفه في إنجاز وظيفة البلاغ المنوطة به والتواصل عبرها مع (الأخر) وعلى الصورة التي تتخلص بها مسافة الشقاق بينهما وتتقارب بها مسافة الوفاق .

وإذا كانت الضوابط المشار إليها ذات أبعاد مختلفة ، فمنها ما هو منهجي ، ومنها ما هو علمي ، ومنها ما هو خلقي فإن ذلك ليس يعني استقلال كل منها ببنيتها واستغناءه بمضمونه ؛ بل إن ثلاثتها تتداخل فيما بينها وتكامل انسجاماً مع تداخل العناصر التصورية والفكرية والحضارية وتكاملها في تشكيل وحدة المنظومة الثقافية التي تغذي حوار المسلمين وتوجهه بدءاً من دواعيه ، مروراً بموضوعاته ، وانتهاء بضوابطه .

وسنفرد - فيما يلي - كلا من الضوابط الثلاث بوقفة نستبين فيها مدى توافقها مع ثقافة الحوار الحضاري الإسلامي وما يتهيأ لها بحكم هذا التوافق من فاعلية في تحقيق الغايات الحضارية التي يتوخاها الحوار عند المسلمين .

أولاً : ضوابط منهجية :

لكي يؤدي الحوار - بوصفه وسيلة تواصل وآلية بلاغ - ثماره المرجوة لا بد له من منهج يحدد منطلقاته ، ويحكم مستوياته ، ويرسم آفاقه ، ويخطط غاياته .

ومن نافذة القول ، هنا ، أن نذكر بأن هذه الآلية ، آلية الحوار عند المسلمين ، تجد عمقها المنهجي في القرآن والسنة حيث تكرر نصوص الحوار الواردة فيهما جملة أساليب منهجية تتمثل في اعتماد البرهان الشرعي والأخذ بالاستدلال العقلي ، وأنها بذلك - أي بالتزامها معايير المنهج الرباني في الكتاب والسنة - أمكنها ، على يد رسول الله عليه الصلاة والسلام وصحابته رضوان الله عليهم وعلماء الأمة ، أن تبلور ، بالنقل وبالعقل ، للناس جميعاً ، مسلمين وغير مسلمين ، مزايا النقلة النوعية العقديّة ، والتشريعية ، والحضارية التي حملتها رسالة الإسلام الخاتمة إلى البشرية جمعاء .

ويمكننا تصنيف ضوابط الحوار المنهجية على النحو التالي :

أ- ضوابط شرعية :

ونعني بها الأحكام الفقهية المستنبطة من الكتاب والسنة أو المأخوذة من بقية مصادر التشريع الإسلامي من إجماع وقياس وغير ذلك من أنواع الأدلة مما يتوجب أن يؤلف لدى المحاور المسلم مرجعية فقهية يسترشد بها ويحتكم إليها في الحوار أيا كان موضوعه ، دعويا أو غير دعوي ، وأيا كان محاوره ، مسلما أو غير مسلم . وما أحسبني بحاجة إلى أن أذكر بأن أحكام الشرع تستغرق حياة المسلم بكافة جوانبها ، روحية ومادية ، خاصة وعامة ، وأن ما حسنه الشرع مما يمس هذا الجانب أو ذاك من جوانب تلك الحياة فهو حسن ، وما قبحه منها فهو قبيح .

وإذا كان المنهج ، أي منهج ، يترجم حركة التفكير عند صاحبه - وكل تفكير يرتبط بمرجعية تصورية وتشريعية - فإن الحوار الإسلامي ينبغي أن يتقيد بضوابط منهج الإسلام الشرعية - بصرف النظر عن طبيعة الموضوع مدار الحوار ونوعية المحاور - بمستوياته التصوري والإجرائي - الذي رسمه القرآن الكريم وأوضحه الهدي النبوي الشريف وأصله علماء الأمة في مباحثهم عن مناهج الحجاج وأصول الاستدلال^(٣١) وتبنته ثقافة الحوار وألزمته به المحاور المسلم ، فإذا أخل به فإنه ينتزع بذلك عن حوار - من حيث يريد أو لا يريد - لبوس (الإسلام) ومسوح (الحضارة) .

ب- ضوابط عقلية :

ومعروف مقام العقل في الإسلام ، كرم به رب العباد العباد ، وجعله أصلا لدينهم ولم يوجب التكليف إلا بكماله ، وبه يتم استيعاب أحكام الشرع وكشف مقاصدها .

ومع ما للعقل من مقام سام ملحوظ سواء في الكتاب والسنة أو في الأدبيات الإسلامية فإن ثقافة الحوار الإسلامي لم تتوان في توجيه المشتغلين إلى أن عمله ليس

على إطلاقه ؛ بل هو منضبط بمراد الشرع ومقصده ، ولا يبدأ إلا بعد العلم بالعلل الشرعية . والسفر في ذلك تفاوت العقول من حيث مستويات الإدراك ، ومن حيث درجات الاستيعاب ، ومن حيث أساليب الأداء ، وغير ذلك مما يؤكد اختلاف العقول وتباين المفهوم عند الناس .

ولا نحب أن يفهم من هذا أننا نقول بتحجيم دور العقل من قبل ثقافة الحوار عند المحاور المسلم ، وإنما المراد هو توعية المحاور المسلم باستحالة عزل طاقته العقلية - أي كان حظه من وفور العقل وسداد الرأي - عن منظومته الشرعية لكمال هذه ونقص تلك . وهذا هو ما يفسر لنا تأكيد هذه الثقافة على وجوب تسليح المحاور المسلم بجملة آيات عقلية من مثل البرهان العقلي ، وهو (ما صح أن يرشد إلى المطلوب) ^(٣٢) ، وقد قرره الله تعالى بقوله ﴿ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ^(٣٣) ذلك أنه بالبرهان يتم إثبات الدعوى أو نفيها ، وكذلك الاستدلال ، وهو (تفكر الناظر في حال المنظور فيه طلباً للعلم بما هو ناظر فيه أو لغلبة الظن إن كان مما طريقه غلبة الظن) ^(٣٤) . وقد قرره القرآن الكريم في قول الله تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ ^(٣٥) .

جـ- ضوابط علمية :

اعتبرت ثقافة الحوار العلم أساساً بالغ الأهمية من أسس الحوار ، وقد عضدت هذا الاعتبار بجملة نصوص مصدرية من القرآن والسنة وأقوال العلماء . فمن القرآن الكريم ما ورد من الأمر بالجدل مع العلم والإتقان في قوله جل من قائل : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ^(٣٦) وما ورد فيه من النهي ؛ بل الإنكار على المتصدي للجدال دون علم في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به

علم ﴿٣٧﴾ . قال القرطبي : «في الآية دليل على المنع من الجدل لمن لا علم له والحظر على من لا تحقيق عنده» ﴿٣٨﴾ . وفي سياق الإنكار كذلك على الانتصاب للجدال بغير علم جاء قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ ﴿٣٩﴾ .

لكن أي علم ألحت ثقافة الحوار عليه ، ودعت المحاور المسلم إلى التسلح به؟

إذا كنا ندرك ، حسا وبداهة ، عجز أي من الناس عن الإحاطة بكافة العلوم والمعارف فإنه يكون من السهل علينا أن ندرك (نسبية) العلم المطلوب التسلح به من لدن المحاور المسلم . حقا أن سعة الاطلاع وتنوع موارده مما يثري المنظومة المعرفية عند هذا المحاور ، وهو مما نذبت إليه الأدبيات الإسلامية في نطاق الحث على الطلب والتحصيل العلميين . لكن ما ألحت عليه ثقافة الحوار في هذا الأمر له مستويان :

أولهما عام ، وهو يهم الجميع ، والمراد به التفقه في الدين ، أي المعرفة بقواعد الإسلام وفروعه أو فروض الدين وسننه وأخلاقه ، وهو ما يشكل عند أي محاور مسلم مرجعية عقدية وشرعية يصدر عنها ويلجأ إليها أيا كان مجال تخصصه العلمي .

وثانيهما خاص ، وهو يهم كلا في دائرة اختصاصه ، والمراد به الحرص على التوسع في مجال التخصص العلمي ، يستوي في ذلك عالم الشرع وعالم الذرة ، والحرص كذلك على إتقان (علمه) - أي تخصصه - وتجويده . ومن ثم اشترط بعض الفلاسفة المسلمين صفات من توفر عليها سمي عالما بعلم على الإطلاق ، وهي : أن يكون قد أحاط علما بأصول ذلك العلم على الكمال ، وأن يكون عارفا بما يلزم عنه ، وأن تكون له القدرة على دفع الإشكالات الواردة على ذلك العلم ، وأن تكون له القدرة على العبارة عن ذلك العلم ^(٤٠) فبهذه الصفات الأربعة من إحاطة بأصول العلم ، ومعرفة بمستلزماته ، وبراعة في حل ما يشكل فيه إلى اقتدار على شرح قضاياها وعرض مسائله

يتحقق للمحاور المسلم أمران مهمان ، هما العلم والإتقان ، وهما معاً يشكلان لب (التي هي أحسن) التي أمر بها الله تعالى المحاور المسلم في محكم كتابه .

على أن ثقافة الحوار كان لها بالإضافة إلى ما أسلفنا توجيهات أخرى في هذا الصدد ، نكتفي بذكر مثالين منها :

أولهما ، وهو من أهمها ، وجوب حرص المحاور المسلم على معرفة ما يجيد محاوره من علم وما يتقن من معرفة ليعرف كيف يرد عليه وينقد أقواله . وقد رأى القرطبي في قوله تعالى : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن مية فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾^(٤١) الدليل «على أن العالم ينبغي له أن يتعلم قول من خالفه وإن لم يأخذ به حتى يعرف فساد قوله ويعلم كيف يرد عليه لأن الله تعالى أعلم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قول من خالفهم من أهل زمانهم ليعرفوا فساد قولهم»^(٤٢) .

وثانيهما وجوب الترشيح للحوار المؤهل له بجملة آليات في مقدمتها العلم خاصة إذا كان محاوره من أهل العلم . وحين أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أحد الصحابة إلى اليمن اختار معاذ بن جبل لعلمه ، ونبيه صلى الله عليه وسلم بأنه سيأتي (قوما أهل كتاب) .

وقد علق ابن حجر على وصاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بقوله «هي كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة فلا يكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجاهل من عبدة الأوثان» .

ثالثاً: ضوابط خلقية :

الإسلام دين أخلاق ، والنبي الأكرم الذي حمل إلى البشرية كلها رسالة الإسلام الخاتمة يؤكد صلى الله عليه وسلم ذلك فيقول : «إنما بعثت لأتمم مكارم

الأخلاق»^(٤٤)، ويقول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : «إن خياركم أحسانكم أخلاقا»^(٤٥)، ويقول عليه صلاة الله وسلامه «إن من أحبكُم إلي وأفربكُم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا»^(٤٦). ومن البدهي أن تنبثق عن هذا الدين ثقافة تنزع بها قيمه المطلقة والثابتة ، العقدية والتشريعية ، نزوعا أخلاقيا يتم وفقه التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وبين العدل والظلم .

من ثم كان كل عمل أو نشاط يمارسه المسلم ، على أي مستوى من مستويي الثقافة ، نظريها أو إجرائيها ، وجهي كل ثقافة ، إنما تقاس إيجابيته أو سلبيته بقدر ارتباطه بالهدفية الأخلاقية أو ابتعاده عنها . وليس يقف الأمر عند هذا الحد ؛ بل يتجاوزهُ إلى الممارس نفسه فإنه بوصفه (المفكر) و(المطبق) يطلب منه من أول الأمر إلى خاتمته جملة عناصر تتبطن (أمره) من خلوص نية ، وحسن توجه ، ونبل مقصد . هذا إلى ما يستحب له ؛ بل يفترض فيه من التحلي بحميد الخصال والتجمل بكريم الفعال ، فكل أولئك عوامل تتضافر في إنجاح العمل وتحقيق الغاية المتوخاة منه .

وفي ضوء ما تقرر يمكننا أن نستشف طبيعة ما تلزم به ثقافة الحوار الحضاري المحاور المسلم من ضوابط أخلاقية بوسعنا تصنيفها على النحو التالي :

أ- ضوابط معنوية :

وهي عديدة من إخلاص ، وصدق ، وصبر ، وحلم ، ودماثة ، ولطف ، وكياسة ، ورحمة ، وشفقة ، وتودد ، وتقدير ، ورفق ، ومرونة ، ولباقة .

ولا مراعاة في أن ما يستبينه الدارس من تحليل هذه الضوابط يدل على مدى حرص ثقافة الحوار الإسلامي على إثراء الرصيد الخلقي عند المتصدي له بما يدينه ، في مواقفه وفي فعالة ، من النموذج السوي للمحاور الجدير بالتقدير والإجلال بأن يستميل (الآخر) إلى الإصغاء إليه والحرص على استيعاب كلامه مما يسهم في تقريب شقة الخلاف

وتضييقها بين المتحاورين ، ويمضي بالحوار نحو الغاية منه والمتمثلة في الإماطة عن وجه الحق . ولنا أو للمحاور المسلم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فقد كان صلاة الله عليه وسلامه في جميع مواقفه ، ومنها ما تضمن حواراً مع صحابته ، أو مع أهل الكتاب ، أو مع مشركي قريش ، أعظم الناس أخلاقاً ، وأوفرهم رفقا ، وأكثرهم شفقة . ولا نحتاج إلى التأكيد بأن مجموع تلك الضوابط النفسية الأخلاقية ذات أثر عميق فيما ينشده المحاور المسلم من حوار غير المسلم ، على أننا نكتفي بالوقوف عند مثالين منها :

أولهما : الحلم :

يمنى الحوار - أحياناً - من قبل أحد المشاركين فيه بسلوكيات غير محمودة تتمثل في بذاءة لفظ ، أو سفاهة تعبير ، أو تعصبه لرأي ، أو إصرار على خطأ ، أو ما يشبه هذا وذاك مما يكون مدعاة لإثارة غضب أطراف أخرى . والغضب - كما هو معلوم - مذموم إلا ما كان منه لله وحرماته وحدوده . ومن هنا من أكد ما أُلزمت به ثقافة الحوار في الإسلام صاحبها من خصال أخلاقية نفسية خصلة الحلم التي تقدر الذي يتحلى بها من السيطرة على النفس وامتلاك زمامها عند الغضب ، وتقبل ما تيسر من خلق المحاور . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾^(٤٧) أي : تقبل ما تيسر من أخلاق الناس وأمرهم بالمعروف شرعاً ، وأعرض عما سفه عليك . وقال تعالى : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾^(٤٨) والمعنى - كما يقول ابن عطية - ادفع أمورك مع الناس بالفعل أو السيرة التي هي أحسن السير والفعلات من بذل السلام ، وحسن الأدب ، وكظم الغيظ ، والسماحة في القضاء والاقضاء .

وبالتزام المحاور المسلم ضابط الحلم أو التحلي بهذه السمة الخلقية تتأكد شدة المحاور المسلم ويتأكد تفوقه ، ف«ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه

عند الغضب» كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤٩) ؛ بل إن التزام المحاور المسلم بالحلم إذا كان ينم عن قوة نفس ومضاء عزيمة فإنه يرتقي بصاحبه إلى درجة منيفة ليس في طوق الناس جميعا بلوغها ، تلك هي درجة الإحسان ، وبذلك يظفر بحب ربه تعالى فيمن أحبه من المنفقين والعافين . قال تعالى : ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾^(٥٠) .

ثانيهما : الإنصاف :

ألحت النصوص المصدرة لثقافة الحوار في الإسلام على أهمية العدل مبرزة قيمته ، موضحة أثره في حياة الفرد والجماعة ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل في الحكم ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾^(٥١) ، كما أمر به في القول ﴿وإذا قلتهم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾^(٥٢) ، بل ألحت النصوص المصدرة لثقافة الحوار الحضاري في القرآن الكريم على وجوب التمسك بقيمة العدل والإنصاف حتى في حال الشعور بالكراهية إزاء الخصم ﴿يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾^(٥٣) . على هذا النحو تكرر ثقافة الحوار قيم الإنصاف وتنعى قيم التعصب باعتبار أن المسلمين بهداية القرآن ونهجه وبهدي نبهم وستته هم أعدل الأمم وأقومها بالقسط ، يهدون بالحق وبه يعدلون .

بـ ضوابط سلوكية :

وهي كسالفها عديدة ، من طيب كلام ، وأدب حديث ، وثبت قول ، وحسن استماع ، وخفض جناح ، وطلاقة وجه ، وبشاشة محيا ، إلى لطف إشارة ، وحسن تأت للأمور ، ومسارة للإقرار بالحق إذا اتضح ، وإذعان له ، وإعراب عن إيجابيات الرأي الآخر ، وحرص على كل ما يشعر الشريك في الحوار بكامل الاحترام ووافر التقدير ، ويستجلب وده وتقديره .

ولا شك أن هذه الضوابط الخلقية متداخلة ، والحديث عن أحدها يفضي أو يلج بصاحبه في دائرة الآخر ، ومع ذلك فلا بأس أن نلم ، للتمثيل لها ، باثنتين منها :

أولاهما- الأناة :

وهو رديف الحلم إلا أن ذاك باطني وهذا ظاهري أو هذا مرآة ذاك . وإنك حيث ترى تثبت الرجل في أقواله وترويه في أفعاله فلا طيش ولا اندفاع ، ولا تسرع ولا استعجال ؛ بل لباقه ، ورفق ، وكظم للغضب مع ما قد يتوفر من دواعيه فاعلمن أنك بإزاء رجل ذي أناة من آثارها على ما هو بسبيله من محاورة أن تتيح له فرصة التدرج في الحوار بما يحقق الغاية منه في استجلاب ود الآخر وإثارة مزيد من الرغبة عنده في استكشاف نقاط التماس والتلاقي بين الأفكار المطروحة بينهما والآراء المعروضة . وحين وجهت ثقافة الحوار إلى وجوب الأخذ بالحلم فإنها كانت ، بالآن عينه ، توجه إلى الأخذ بالأناة ، وهما- أي الحلم والأناة- مما يحبه الله تعالى من خصال في عباده كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشجع عبد القيس : «إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة»^(٥٤) . ولما كان الرفق رديف الأناة فقد تبتته ثقافة الحوار ورغبت فيه ، مستندة في ذلك جملة أحاديث نبوية شريفة مما روته السيدة عائشة رضي الله عنها مثل قوله صلى الله عليه وسلم «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يتزع من شيء إلا شانه»^(٥٥) ، وقوله صلى الله عليه وسلم «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه»^(٥٦) .

٢ . طيب الكلم :

سبق لنا في صدر هذا العرض أن ألمحنا إلى مقام الكلمة في خطاب البلاغ الذي تنزل به الوحي الإلهي على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ونعود ، هنا ،

لنؤكد أنه بقدر ما كرست تلك الكلمة الطيبة بمضامينها ثقافة الاستواء بما حملت من قيم هادية ومثل بانية كانت تكرسها بأساليبها المحكمة التي وصفها جل من واصل بقوله : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (٥٨) .

من ثم كان لابد لثقافة الحوار في الإسلام أن تحيط الكلمة ، وهي وسيلة المحاور الرئيسة ، بكل ما من شأنه أن يفي بوصولها ويضمن نفاذها ، فإلى جانب ما كرسته الثقافة المذكورة من ضوابط للحوار مما أسلفنا الإشارة إليه ، وهي في جملتها مما يسعف على إبلاغ كلمة المحاور المسلم على الوجه الأمثل ، حرصت هذه الثقافة على أن يكون طيب الكلم وليونة القول ، وهو مما يندرج - بأمر الله تعالى به - في دائرة العبادة كما يستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة » ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» (٥٩) من سمات ثقافة الحوار الحضاري عند المسلم التي يحقق بها أمر الله تعالى ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ وهو أمر شامل للأساليب المضمونية والتعبيرية ، كما يحقق بها وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه بأنه ليس بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء (٦٠) يدرأ بذلك المفاسد ويستجلب المصالح . وهو مطالب بالحفاظ على ما تلزمه به ثقافته من التعبير المهذب والقول اللين حتى في الحال التي يشط فيها محاوره ويتجاوز حدود الآداب المرعية إنفاذا لقوله تعالى ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ (٦١) وهم الذين ظلموا المؤمنين بفعل ، أو بقول ، أو بإذابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو بإعلان كفر فاحش « فإن هذه الصنيعة استثنى لأهل الإسلام مقارضتها بالتغيير عليها والخروج معها عن التي هي أحسن» (٦٢) .

ولعل مما تكتمل به الفائدة في هذه الفقرة الإشارة إلى أن ثقافة الحوار حين حثت على طيب الكلم وليونة القول كانت ، بذات الوقت ، ترغب - من جهة - في اللغة السهلة الواضحة الشفافة لما لها من أثر حسن في تألف السامع وجلب اهتمامه بما يسمع - ومن

جهة أخرى - تنفر من اللغة المتقنرة المعقدة المتكلفة لما لها من أثر سيء في استصعاب السامع ما يلقي إليه من مقال وانسداد منافذ قبوله عنده .

وفي هذا السياق وجهت ثقافة الحوار إلى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو قدوة المحاور المسلم ومثاله - على العبارة الواضحة والأسلوب السهل في كلامه مع صحابته رضوان الله عليهم ، ومع أهل الكتاب ، ومع الكفار والمشركين من قريش وغيرهم مذكرة بوصف السيدة عائشة رضي الله عنها كلامه بالسهولة في قولها «كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من يسمعه»^(٦٣) ومعنى «فصلا» أي كونه بينا ظاهرا .

وفي مقابل ذلك وجهت ثقافة الحوار - في معرض الإبانة عن كراهية التفاسيح في الكلام والإغراب به - إلى بغض رسول الله صلى الله عليه وسلم المتفاسحين المكثرين المغربين في كلامهم مما يستخلص من قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه جابر رضي الله عنه «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون . قالوا : يارسول الله ، قد علمنا «الثرثارون والمتشدقون» فما المتفيهقون؟ قال : المتكبرون»^(٦٤) . والثرثار هو كثير الكلام تكلفا ، والمتشدد المتطاول على الناس بكلامه ويتكلم بملء فيه تفاسحا وتعظيما لكلامه ، والمتفيهق أصله من الفهق وهو الامتلاء ، وهو الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه ويغرب به تكبرا وارتفاعا وإظهارا للفضيلة على غيره . وواحدة من مثل هذه الأوصاف في المحاور حرية بأن تنفر فيه وترغب عنه ، فكيف إذا اجتمعت ؟!

والى هذا وذاك وضعت ثقافة الحوار تحت بصر المحاور المسلم نماذج رفيعة في سهولة اللفظ ووضوح الدلالة أحالت عليها في كتاب الله تعالى من مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي

يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿٦٥﴾ .

كما أحالت على أمثلة منها في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مثل ما نقرأ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى إلى المقبرة ، فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أنا قد رأينا إخواننا . قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال : أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد . فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟ فقال : أرأيت لو أن رجلا له خيل غُرّ محجلة بين ظهري خيل ، وهم بهم ، ألا يعرف خيله؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض . ألا ليذاذن رجال عن حوضي كما يذاذ البعير الضال ، أناديهم : ألا هلم . فيقال : إنهم قد بدلوا بعدك . فأقول : سحقا سحقا» (٦٦) .

ومن الواضح ما في المثال الأول من أسلوب محكم مبين وما في الثاني من تعبير بين فصيح تيسر به عملية التلقي والاستيعاب وتحقق به غاية البلاغ .

تلکم تأملات في سؤال ثقافة الحوار الحضاري عند المسلمين لعلها أن تكون حققت بعض ما أريد منها ، ولعلها أن تكون - وهذا عندي أهم من الأولى - قد أمكنها أن تثير سؤالا وآخر عن هذه الثقافة التي هي بحاجة لتعميق الدرس حولها لأسباب ، أهمها : أ - حاجة المجتمعات الإنسانية ، وخاصة في هذا العصر ، عصر التكتلات والتجمعات السياسية والاقتصادية ، إلى الحوار من أجل التعايش في جو مفعم بأخلاقيات التفاهم والتسامح .

ب - ضرورة إشاعة ثقافة الحوار بأدبياتها الإسلامية قصد استثمار قيمها الحكيمة ومثلها الرشيدة في إرساء أسس تواصل حضاري تمتن عراه وتقوي أسبابه - مع تعدد معتقدات أصحابه وتباين ثقافات أطرافه - روح التعارف والتقوى مصداقا لقول رب

العالمين في محكم التنزيل : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

صدق الله العظيم . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

الهوامش

- (١) سورة الحجرات ، ١٣ .
- (٢) انظر : «الثقافة الإسلامية : معادلة التوحيد والوحدة» ضمن كتابنا «المسلمون وأسئلة الهوية» ، ص ١٣- ١٤ .
- (٣) رسالة التوحيد ، ص ١٥٥ .
- (٤) سورة إبراهيم ، ١ .
- (٥) سورة سبأ ، ٢٨ .
- (٦) مسند الإمام أحمد ، ٣٥ : ٢٤٢ .
- (٧) الأحاديث المختارة ، ٢ : ٧٢ .
- (٨) سورة البقرة ، ١٣٠- ١٣٢ .
- (٩) سورة الحج ، ٧٨ .
- (١٠) سورة الشورى ، ١٣ .
- (١١) متفق عليه .
- (١٢) رواه البخاري .
- (١٣) سورة النساء ، ١ .
- (١٤) سورة آل عمران ، ٦٤ .
- (١٥) رواه البخاري .
- (١٦) سورة الحجرات ، ١٣ .
- (١٧) سورة الروم ، ٢٢ .
- (١٨) سورة المائدة ، ٥٠ .
- (١٩) سورة هود ، ١١٨- ١١٩ .
- (٢٠) سورة آل عمران ، ١٠٣ .

- (٢١) سورة الأنفال ، ٤٦ .
- (٢٢) سورة آل عمران ، ٢٢ .
- (٢٣) انظر : «الإسلام وسنة الاختلاف» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ضمن كتاب «الحوار سبيل التعايش مع التعدد والاختلاف» ، ص ٢٩ .
- (٢٤) روت هذه الصحيفة كتب السيرة والحديث . انظر تحليلا لها في كتاب «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» للدكتور مهدي رزق الله أحمد ، ص ٣٠٦ - ٣١٨ .
- (٢٥) انظر عملنا «الترجمة في الأندلس : التاريخ والمعطى» ضمن كتابنا «ياقوتة الأندلس : دراسات في التراث الأندلسي» ، ص ١٨ .
- (٢٦) سورة الملك ، ٢٢ .
- (٢٧) سورة المائدة ، ١١٦ - ١٢٠ .
- (٢٨) سورة الأنبياء ، ٥١ - ٥٦ .
- (٢٩) رواه البخاري .
- (٣٠) رواه البخاري .
- (٣١) مثل كتاب «المعونة في الجدل» للشيرازي (ت : ٤٧٦هـ) ، وكتاب «استخراج الجدل من القرآن» لابن الحنبلي ، وكتاب «المنهاج في ترتيب الحجاج» لأبي الوليد الباجي (ت : ٤٧٤هـ) ، وكتاب «الجدل على طريقة الفقهاء» لابن عقيل الحنبلي (ت : ٥١٣هـ) ، وكتاب «أحكام الجدل والمناظرة على اصطلاح الخراسانيين والعراقيين» للمدائني (ت : ٦٥٦هـ) .
- (٣٢) كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج ، ص ١٠ .
- (٣٣) سورة البقرة ، ١١١ .
- (٣٤) كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج ، ص ١١ .
- (٣٥) سورة المؤمنون ، ١١٧ .

- (٣٦) سورة النحل ، ١٢٥ .
- (٣٧) سورة النحل ، ١٢٥ .
- (٣٨) سورة آل عمران ، ٦٦ .
- (٣٩) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ .
- (٤٠) سورة الحج ، ٨ .
- (٤١) الإفادات والإشادات للشاطبي ، ص ١٥٦ .
- (٤٢) سورة الأنعام ، ١٣٩ .
- (٤٣) الجامع لأحكام القرآن ، ج ٧ ، ص ٩٦ .
- (٤٤) فتح الباري ، ج ٣ ، ص ٣٥٨ .
- (٤٥) رواه الحاكم في المستدرک وقال حديث صحيح على شرط مسلم .
- (٤٦) رواه البخاري ومسلم .
- (٤٧) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
- (٤٨) سورة الأعراف ، ١٩٩ .
- (٤٩) سورة فصلت ، ٣٤ .
- (٥٠) رواه البخاري ومسلم .
- (٥١) سورة آل عمران ، ١٣٤ .
- (٥٢) سورة النساء ، ٥٨ .
- (٥٣) سورة الأنعام ، ١٥٢ .
- (٥٤) سورة المائدة ، ٨ .
- (٥٥) رواه مسلم .
- (٥٦) رواه مسلم .
- (٥٧) متفق عليه .
- (٥٨) رواه مسلم .

- (٥٩) سورة إبراهيم ، ٢٤-٢٥ .
- (٦٠) متفق عليه .
- (٦١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
- (٦٢) سورة العنكبوت ، ٤٦ .
- (٦٣) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ، ج ٤ ، ص ٣٢١ .
- (٦٤) رواه أبو داود .
- (٦٥) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .
- (٦٦) سورة البقرة ، ٢٥٨ .
- (٦٧) رواه مسلم .

المصادر والمراجع

- ١ . القرآن الكريم .
- ٢ . كتب الحديث (الصحيحان- الموطأ- مسند الإمام أحمد- كتب السنن- المستدرک للحاکم) .
- ٣ . الإفادات والإنشادات لأبي إسحاق الشاطبي ، تحقيق الدكتور محمد أبو الأجفان ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦ هـ .
- ٤ . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
- ٥ . رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده .
- ٦ . فتح الباري للقسطلاني .
- ٧ . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي .
- ٨ . المسلمون وأسئلة الهوية- حسن الوراكلي ، مطبوعات جمعية البعث الإسلامي ، تطوان-المغرب .
- ٩ . ياقوتة الأندلس (دراسة في التراث الأندلسي) ، حسن الوراكلي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي .

الموقف العربي والإسلامي من العولمة والشرق أوسطية

د. محمد خليفة حسن (*)

المستخلص

يواجه العالم العربي والإسلامي خلال القرن الحادي والعشرين خطرين أساسيين يجب الاستعداد لهما ثقافياً وعلمياً وتكنولوجياً. ويتمثل الخطر الأول في العولمة التي بدأت تفرض نفسها على دول العالم وذلك في شكلها الاقتصادي وبما تمثله من خطر على الاستقلال الاقتصادي للشعوب التي لا تملك الآن القدرات الاقتصادية للدخول في المنافسة الاقتصادية الناجمة عن نظام السوق في ظل النظام العالمي الجديد. وللعولمة بعدها الثقافي الخطير حيث إنها تعني هيمنة الثقافة الواحدة على بقية الثقافات العالمية فيما يسمى بعولمة الثقافة. فالعولمة لا تتقيد بالحدود الوطنية، ولا تعترف بالإقليمية، وتعمل على تعبئة الشعوب في اتجاه عالمي يتعارض مع المحلية، كما تسعى العولمة إلى تغيير عادات الشعوب وتقاليدها، وتغيير المفاهيم والأفكار واستبدال الثقافة المحلية، والإقليمية بثقافة عالمية يراها البعض أوروبية ويرأها الأمريكيون أمريكية حيث يعمل الإعلام الأمريكي على إعادة صياغة المفاهيم والأفكار والآليات، وتذويب الرؤى والسلوكيات، والعمل على اندماجها فيما يسمى بالثقافة الكونية. ولذلك يرى بعض المحللين للعولمة أنها تعمل على نفي الوجود الثقافي للآخر.

(*) مدير مركز الدراسات الشرقية وأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة، تقلد عدداً من المناصب العلمية والإدارية.

أما الخطر الثاني الذي يواجهه العالم العربي بعد خطر العولمة فهو خطر مشروع الشرق أوسطية الذي تقوم عليه الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل كمشروع متمم للعولمة ومرتبطة بها، ولكنه خاص بمنطقة الشرق الأوسط بعد السلام، ومشروع الشرق أوسطية مشروع اقتصادي ثقافي حضاري لمنطقة الشرق الأوسط وتم التعبير عنه بشكل قوي ومباشر من خلال كتابات ورؤى بعض الزعماء الإسرائيليين، مثل: شمعون بيريز في كتاب «الشرق الأوسط الجديد» وكتاب بنيامين نتنياهو «مكان تحت الشمس»، وكلاهما ينظر إلى قيام شرق أوسط جديد بعد السلام محوره إسرائيل التي ستصبح المركز الاقتصادي والثقافي للشرق الأوسط الذي سيتحول إلى سوق اقتصادية للمنتج الإسرائيلي يسمح لها بتحقيق الهيمنة الاقتصادية وما يتبعها من هيمنة ثقافية.

وترتبط الشرق أوسطية بالعولمة ارتباطاً عضوياً إلى حد يمكن أن نعد معه الشرق أوسطية مشروع العولمة الخاص بالشرق الأوسط فالشرق أوسطية، مثلها مثل العولمة، ظاهرة اقتصادية سياسية اجتماعية ثقافية تحمل في طياتها معاني الهيمنة والسيادة الاقتصادية والسياسية، والخلاصة أن السوق الشرق أوسطية مشروع أمريكي - إسرائيلي مرتبط بالعولمة والأمريكية وتابع لها. وتقوم إسرائيل بدور وظيفي في الشرق أوسطية كمركز أو محور يرتبط بالشرق أوسطية والعولمة.

ويتناول هذا البحث تحديد الموقف العربي الإسلامي من العولمة والشرق أوسطية، والجهود المطلوبة لمقاومة البعد الثقافي لهذين المشروعين، وذلك للحد من المخاطر الثقافية الناجمة عنهما، وهي مخاطر مهددة للثقافة العربية والإسلامية؛ ولذلك يجب أن تتكاتف الجهود العربية والإسلامية في مقاومة هذا الخطر الثقافي الجديد على الأمة الإسلامية.

الموقف العربي والإسلامي من العولمة والشرق أوسطية

مقدمة : الآثار الثقافية للعولمة :

من أهم مخاطر العولمة تأثيرها على الهوية الثقافية ، فمن المعروف أن الجانب الاقتصادي البحث في العولمة جانب تستطيع الشعوب أن تطور إمكانياتها فيه وتزود خبرتها في المسائل المرتبطة بنظام السوق حسب التطورات الاقتصادية الجديدة .

أما بالنسبة للجانب الثقافي من العولمة فهو يمثل الخطر الحقيقي على ثقافات الشعوب . فالعولمة على حسب الفهم الغربي لها ليست مجرد اتجاه نحو تقسيم العمل وانتشار التكنولوجيا الحديثة من مركزها في العالم المتقدم اقتصادياً إلى العالم الثالث المتخلف تكنولوجياً وزيادة الإنتاج أضعافاً مضاعفة فالعولمة مرتبطة بالنظام الثقافي الغربي ومرتبطة بالحضارة الغربية وتحمل في طياتها تغييراً جذرياً في القيم والمبادئ والمعايير وأنماط السلوك ، بل وتحمل معها أيضاً النظام الغربي في مستوياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والحضارية ، وهناك فرق من أبناء العالم الثالث منبهر بالحضارة الغربية عموماً ويجد في العولمة فرصة لنشر الثقافة والحضارة الغربية والعمل بها . فالخطر يأتي من الغرب في محاولة فرض هذه الثقافة الناتجة عن العولمة ، ويأتي من الداخل في عملية الانبهار الثقافي بالغرب ، واعتبار العولمة باب الانفتاح على الثقافة الغربية .

وهناك عدة سلبية ناتجة عن هذا الاتجاه إلى العولمة من الناحية الثقافية . فمن ناحية تعد العولمة طريقاً لوقوع البلاد الشرقية تحت الاستغلال الاقتصادي الغربي حيث

تسيطر الشركات العالمية المتعددة الجنسيات على حركة التجارة العالمية ، وتتحول دول العالم الثالث إلى مجرد سوق لهذه الحركة لأن أهلها غير قادرين على المشاركة الفعلية في نظامي السوق فيتحولون إلى مستهلكين لما ينتجه الغرب ولما تنتجه الشركات الكبرى . وتعكس العولمة كل سلبات النظام الرأسمالي وتحمل الاستثمارات الأجنبية في طياتها غزواً ثقافياً ، ومن الحماية الثقافية منع وقوع هذا الاستغلال .

وتحمل العولمة أيضاً بعداً دينياً قد لا يكون واضحاً ، فالعولمة آتية من الغرب المسيحي اليهودي ، وفي نفس الوقت هو الغرب العلماني . والقيم الواردة مع العولمة تحمل هذين الطابعين : أحدهما طابع ديني مرتبط بالمسيحية واليهودية والآخر طابع علماني مرتبط بانتشار الثقافة العلمانية اللادينية في الغرب ، ومن الطبيعي أن تترك العولمة تأثيراتها الدينية من خلال الاتصال الديني والتوجهات الدينية واللا دينية التي تسيطر على الغرب الذي يسعى دائماً إلى استغلال كل الوسائل الممكنة للدمج بين الانتشار الاقتصادي والانتشار الفكري ولا ننسى أن الاقتصاد نفسه يعكس قيماً مرتبطة بطبيعة الفكر المأخوذ عنه .

وتمثل العولمة أيضاً خطراً على القوميات المختلفة وذلك لأن الغرب يسعى إلى القضاء على الطابع القومي للشعوب ، وكلمة عولمة تحمل هذا المعنى في صد التفكير القومي الإقليمي المحدود جغرافياً ، وهي تعني أيضاً نشر ثقافة إقليم بعينه في كل العالم وتحويل هذه الثقافة القومية إلى ثقافة عالمية ، وهذه الثقافة المراد نشرها هي الثقافة الغربية الأمريكية .

فالعولمة تقضي أولاً على الاستقلال الاقتصادي وتقضي على التجمعات الاقتصادية الإقليمية ومن باب أولى أنها تقضي على التوجهات الاقتصادية القومية ولا ترضى إلا بالتبعية للنظام الاقتصادي العالمي .

ولذلك تجد العولمة ردود فعل مختلفة ومتناقضة وقد تسبب في حدوث تشتت فكري وثقافي بسبب خروجها على حدود الاقتصاد وآليات السوق إلى مجال الانتشار الثقافي ، أو ما يمكن أن نسميه بالعولمة الثقافية والتي لا يمكن أن تتحقق إلا بالتبعية لثقافة واحدة على حساب الثقافات الأخرى فهي ضد التعددية الثقافية ولذلك يجب على الشعوب أن تحتاط ثقافياً وتحاول أن تستفيد من الجوانب الاقتصادية للعولمة وتضع لنفسها استراتيجية للمقاومة على المستوى الثقافي وإلا انتهت المسألة بنهاية مأساوية لكل الثقافات في سبيل أن تحيا ثقافة واحدة وتسيطر على كل الثقافات الأخرى بل تلغيها تماماً وتمحوها من الوجود ، ولا نشك أن العولمة ستأتي بالفقر الثقافي للشعوب ، فتعدد الثقافات كان دائماً وأبداً سبباً في الثراء الحضاري للشعوب .

وهناك ردود فعل عالمية تجاه العولمة في ظل الهيمنة الأمريكية ، وهي ردود فعل مضادة وتأتي من دول قوية كثير منها دول أوربية ترى في العولمة الأمريكية خطراً على الثقافة الأوربية .

إن هذه الدول الأوربية مثل فرنسا وكندا لا تخشى العولمة في شكلها الاقتصادي فهي دول قوية اقتصادياً ، وهي تتبع بالفعل النظام العالمي الجديد فيما يتعلق بجوانبه الاقتصادية وتطبق قانون الجات وتتبع نظام السوق بكامله ، وذلك أنها تملك الإمكانيات التكنولوجية والمعرفية التي تمكنها من المنافسة في ظل نظام السوق ، وهي قادرة على حماية منتجاتها وتطويرها وتسويقها .

أما الذي تخشاه هذه الدول القوية اقتصادياً فهو الجانب الثقافي للعولمة ، حيث ترى فرنسا وكندا وغيرهما أن هيمنة الثقافة الأمريكية على الثقافات الأخرى هو اعتداء على الشخصية الثقافية وعلى الهوية القومية وفيه خطورة على مستقبل الثقافة الفرنسية في ظل العولمة ، فالولايات المتحدة الأمريكية تهيمن على الحركة الكونية في مجال الاتصالات والمعلومات والأفكار ، وأصبحت الأفلام الأمريكية والموسيقية وبرامج التلفاز

الأمريكية ، وكذلك برامج الكمبيوتر الأمريكية تهيمن على الأسواق العالمية وتؤثر في الأذواق وتغير من السلوك الفردي والجماعي ، وفي النهاية تؤدي إلى تغيير في القيم الثقافية وفي العادات والتقاليد الاجتماعية .

ولهذا السبب تعمل فرنسا وكندا حاليًا على مقاومة النفوذ الثقافي الأمريكي الوافد إليها في ظل نظام العولمة ، وتم إصدار قوانين تحظر نشر المواد الأمريكية ونقلها وتضع قيودًا على حركة هذه المواد وانتشارها وإبعاد المواطن الفرنسي والكندي عن كل ما يبثه الأمريكيون من أفكار ووجهات نظر وتلوث فكري محافظة منهما على الشخصية الثقافية لفرنسا وكندا .

وفي مقابل رد الفعل المضاد للثقافة الأمريكية تسعى الولايات المتحدة الأمريكية إلى مقاومة ردود الأفعال السلبية تجاه العولمة خوفًا من أن يؤدي هذا إلى تقويض قدرة أمريكا على تعزيز مصالحها الشخصية . ولأن هذه المصالح مرتبطة بالمعارف والسياسة والعلوم والثقافة فإن أمريكا تحاول أن تضع منهجية علمية متكاملة لصناعة السياسة الدولية تحقق من خلالها الهيمنة على مجالات السياسة الاقتصادية والاتجاهات الفكرية والأيدولوجية .

إن خطورة العولمة كما تراها البلاد الأوربية التي تسعى بجدية إلى الخروج من دائرة النفوذ الأمريكي . . . تكمن في أن العولمة لا تنقيد بالحدود الوطنية ولا تعترف بالإقليمية ولا بالقومية وأنها قادرة على التغلغل في أي مجتمع في العالم ، وأنها تعمل على تعبئة الجماعات الإنسانية والمؤسسات في اتجاه عالمي يتعارض مع المحلية ومع الانكماش داخل الحدود في كافة المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتكنولوجية والثقافية .

وهكذا تسعى العولمة إلى تغيير طابع البشر وسلوكياتهم وتحرير الفرد والدولة من الحدود والقيود وتغيير نظام الدولة . فالعولمة تفتح الحدود أمام حرية انتقال الفكر

وتطالب بحرية انتقال الأفراد والأفكار وتسعى إلى الانتشار من خلال اتجاهات متعددة عبر الحدود الوطنية و توحيد الأفراد والجماعات والمؤسسات من خلال التغيير الثقافي .

ولاشك في أن المرحلة الحالية من العولمة هي مرحلة تغيير المفاهيم والأفكار ذات الطابع الثقافي الإقليمي أو المحلي واستبدال الثقافة الإقليمية المحلية بثقافة عالمية يرى الأمريكيون أنها الثقافة الأمريكية المعاصرة ، ويعمل الإعلام الأمريكي الآن على إعادة صياغة المفاهيم والآليات والغايات من خلال تزويد الرؤى والسلوكيات والأفكار والعمل على اندماجها أولاً في الثقافة الكونية والذي يعني في النهاية ذوبانها وانصهارها في بوتقة المجتمع العالمي .

وترى بعض الدول الأوربية أن العولمة على النظام الأمريكي تهدف إلى أمركة العالم وتفي وجود الآخر ثقافياً . ويرى بعض المحللين السياسيين أن كلمة العولمة أصبحت مرادفة لمصطلح أمركة العالم ، فالولايات المتحدة الأمريكية حريصة حرصاً شديداً على عولمة المؤسسات السياسية والاقتصادية الدولية واحتكارها لنفسها ، وقد ظهر هذا واضحاً في قيام أمريكا بالدور المنوط بالأمم المتحدة من خلال التدخل المباشر في الشؤون والقضايا العالمية بدون الرجوع إلى الأمم المتحدة . وقد حدث هذا في العراق وليبيا والسودان وأفغانستان وفلسطين وفي البوسنة ، وغير ذلك من المناطق الساخنة في العالم . ولهذا يصف بعض المحللين القرن الحادي والعشرين بأنه قرن الإمبراطورية الأمريكية ، ووصفوا العولمة بأنها أمريكية الجنسية ، وأن العولمة هي تعميم لنمط حضاري يخص بلداً بعينه على بلدان العالم أجمع ، وهذه هي خطورة العولمة الحقيقية^(١) .

الآثار السياسية للعولمة :

يتصف نظام العولمة بالعديد من السلبيات التي بدأت في الظهور والتبلور بعد ما يقرب من عقد أو أكثر من الاتجاه إلى العولمة .

ولعل من أهم هذه السلبيات التوجيه إلى إضفاء الطابع العالمي على الثقافات والهويات والأسواق والاقتصاد وأنماط التفكير والسلوك والذوق وطرق الاستهلاك . وخطورة هذا الاتجاه إلي الطابع العالمي هو طمس الطابع الإقليمي والمحلي لحساب طابع مهيمن أو يرغب في فرض الهيمنة من خلال إجبار شعوب العالم على اتباع ثقافته ونظامه الاقتصادي والسياسي وأنماط تفكيره وسلوكياته وذوقه وطرق استهلاكه . إن نظام العولمة - على حسب الفهم الغربي له عموماً وعلى حسب الفهم الأمريكي له على وجه الخصوص - يسعى إلى القضاء على التعددية الثقافية والحضارية بين المجتمعات البشرية حيث تسعى الحكومة الأمريكية والنخبة السياسية والإعلامية في أمريكا وكذلك الشركات الأمريكية الجبارة إلى فرض النظام الأمريكي والأسلوب الأمريكي على شعوب العالم وعلى حساب قيم هذه الشعوب وأساليب حياتها وثقافتها .

ولاشك في أن منطق العولمة الآن يقوم على سياسة استبعاد شعوب وثقافات معينة ومحو الإقليمية والمحلية بزعم أن الإقليمية والمحلية تقوم على سياسة الانغلاق وعدم التسامح ورفض الاندماج . بل وتهدف العولمة حسب الفهم الأمريكي إلى استبعاد دول معينة وعزلها وفرض الحصار عليها مثل العراق والسودان وليبيا وكوبا وكوريا الشمالية وإيران ، وإبعاد هذه الدول عما يسمى بأسرة الدول الحرة ، وسياسة الاستبعاد هذه لا تنطبق على الحكومات في هذه الدول ولكن تنطبق أيضاً على الشعوب فالحصار شامل الحكومات والشعوب بهدف الاحتواء والقضاء على النظم الإقليمية ومحاولة إعادة تكوين هذه النظم مع النظام العالمي الجديد ، إنه اتجاه إلى تفكيك الأبنية والاتجاهات القومية القائمة على الروابط التاريخية وعلى أسس الهوية القومية المشتركة والانتماء القومي والاقتصاد هو بطبيعة الحال وسيلة تحقيق هذا الهدف .

ومشروع الشرق أوسطية يجب أن يفهم داخل هذا الإطار الساعي إلى تفكيك الروابط القومية التي تربط مجموعة من الدول العربية وفرض مشروع الشرق أوسطية بدلاً

من مشروعات الوطن العربي والوحدة العربية والنظام الإقليمي^(٢) ، ولذلك فإن الشرق أوسطية تعد من أشد النظم خطورة على العالم العربي فهي تهدد خصوصيته وتسعى إلى القضاء على تميزه الثقافي وعلى العلاقات التاريخية والدينية والحضارية التي تربط شعوب العالم العربي ، وترفض مفهوم القومية العربي ، وتعتبر الوحدة العربية على أي مستوى من المستويات أمراً مهدداً للعولمة .

لاشك في أن العولمة بهذه الصورة تصبح مظهرًا من مظاهر السيطرة الأمريكية على العالم وهي نوع جديدة من الاستعمار غير الاستيطاني والذي لا يعتمد إلى الجيوش لكي يستعمر ولكونه يتخذ الاقتصاد وسيلة لتحقيق السيطرة .

وتتميز هذه العولمة بظهور الولايات المتحدة الأمريكية كزعيم أوحده بعد سقوط الاتحاد السوفيتي يحاول أن يخضع الشعوب لثقافته ولنظامه الاقتصادي . فالعالم بدأ ينتقل من المركزية الأوروبية إلى النزعة المركزية الأمريكية وهي نزعة متأصلة في السياسة والثقافة الأمريكية ولم تبدأ في الانتشار والتطبيق إلا بعد تدهور القارة الأوروبية سياسيًا وتدهور الوحدة الأوروبية ، وكذلك تفكك الاتحاد السوفيتي وسقوطه الأمر الذي أعطى الفرصة للولايات المتحدة الأمريكية لكي تنفرد بالعالم وتعمل على إشاعة ما يسمى بمفهوم السلام الأمريكي Pax Americana الذي يتمحور حول الذات الأمريكية بعد أن ظلت أوروبا هي المحور لعدد من القرون نتج عنها الاستعمار الأوروبي لمعظم العالم الآسيوي والإفريقي بل والأمريكي نفسه .

إن العولمة تمثل خطرًا حقيقيًا على العالم العربي بل على العالم الثالث كله . فالعولمة نظام يتجاوز الحدود ونطاق السيادة الوطنية ويخترق الهويات القومية والاقتصاد المحلي والأسواق المحلية والثقافات الإقليمية والمحلية لكي يحقق المركزية الأمريكية والسيطرة الأمريكية من خلال ما يسمى بالاقتصاد العالمي ، ومن خلال منظمات عالمية مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية ونادي باريس ، وعن

طريق الشركات الكبرى التي تتعدى الجنسيات وتسيطر على رؤوس الأموال وتدفقاتها ، وتسيطر أيضاً على حركة الاستثمارات في العالم ، وعلى الإعلام والمعلومات من خلال ثورة الاتصال وثورة الإدارة والتسويق والدعاية والإعلان ، والتحكم في المعرفة ومصادرة المعلومات والسيطرة عليها واحتكارها وحرمان الشعوب الضعيفة منها بل والسيطرة على مقدراتها . إنه استعمار جديد بأسلوب جديد يقضي على القوميات والهويات بدون حروب .

ومن أهم المشاكل التي تثيرها العولمة وما نتج عنها من نظام عالمي جديد مشكلة وضع الدولة ومستقبل الدولة في ظل العولمة^(٣) ، فالبعض يعتبر أن العولمة ستؤدي إلى اختفاء نظام الدولة بينما يرى البعض الآخر أن الدولة لن تختفي ولكن سيتم تفكيكها إلى أجزاء منفصلة متميزة من الناحية الوظيفية ، ويصبح لهذه الأجزاء علاقات مع شبيهاها في الخارج بمعنى أن الهيئات والمؤسسات والمحاكم والهيئات التشريعية تقيم شبكات من العلاقات مع نظرائها في الخارج وتشكل معاً نظاماً جديداً عابراً للحكومات أكثر أنماط الحكم الدولي انتشاراً وفعالية . وهناك مشاكل دولية راهنة فرضت مثل هذه الأنماط فرضاً نذكر منها على سبيل المثال مشكلة الإرهاب ، وتدهور البيئة ، والجريمة المنظمة ، ومشكلة غسيل الأموال والإفلاس المصرفي ، وغير ذلك من المشاكل ذات الطابع الدولي والتي لا تستطيع دولة بمفردها أن تواجهها ، وقد أقامت بعض المنظمات شبكات خاصة بها وأصبحت تمارس وظائفها بعيداً عن الدولة ، ويلاحظ هذا بشكل واضح في الأعمال المصرفية لمواجهة عمليات الإفلاس حيث تكونت لجان من رؤساء البنوك ومدير أسواق الأوراق المالية ومستولي مناهضة الاحتكار ورجال البنوك ورجال الأعمال والمحامين تقوم بعملها بعيداً عن سيادة الدولة ، والمثال على ذلك أن مؤسسات وول ستريت عادة ما تلجأ إلى لجنة بازل لرؤساء البنوك المركزية ولا تعود إلى البنك الدولي^(٤) .

ومثال آخر على هذا يتمثل في أن المحامين العاملين في مجال حقوق الإنسان يعملون على إيجاد استراتيجيات للتقاضي للتعامل مع المحاكم المحلية بدلاً من تقديم الالتماسات إلى لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة .

ويعتبر هذا الاتجاه العابر للحكومات عنصراً أساسياً في السياسة الخارجية التي تقوم على التشاور الثنائي وتطرح آليات جديدة للعمل تتبعها الآن الولايات المتحدة الأمريكية بهدف توسيع مجتمع الديمقراطيات الليبرالية حسب الفهم الأمريكي حيث يسود الاعتقاد في أن عالمًا جديدًا بدأ يظهر إلى الوجود تتلاشى فيه الحدود ، فالنظام العابر للحكومات نظام عالمي أكثر فاعلية ومسئولية . ويعتقد أن هذا النظام العابر للحكومات يؤدي إلى احكم المواطنين في المؤسسات الحكومية ومن هناك فلاشك في أن العولمة تسعى إلى تفتيت الوحدة الوطنية وإضعاف سلطة القائمين على القوانين المحلية الوطنية . والعولمة تقود إلى التدويل أو تحويل السلطة المنظمة من المستوى الوطني إلى مؤسسة دولية . وتعمل العولمة على تسخير سلطة الدولة وقوتها للبحث على حلول للمشاكل العالمية وتنفيذ هذه الحلول ، وذلك بعد فشل المؤسسات الدولية في المشاكل العالمية ، وقد قامت المنظمات غير الحكومية بدور كبير في تعويض العصور الذي أصاب المؤسسات الدولية .

ولا شك في أن العولمة لن تؤدي إلى إلغاء الحكومات إذ لا يمكن للحكم أن يقوم بدون حكومة لها سلطات ، ولذلك يعتقد البعض أن المنظمات غير الدولية ستؤدي إلى تقوية الدولة من خلال إثبات صحة وجود الدولة في النظام العالمي ، والسيادة الخاصة بالدولة أصبحت تعني قدرة الدولة على أن تشارك في عضوية الأنظمة التي تشكل جوهر الحياة الدولية .

ومن المعروف أن العالم الثالث ستكون أقل الدول قدرة على تحقيق هذه المشاركة في عضوية الأنظمة الدولية وفقاً لنظام العولمة ، ولذلك فالخطر الشديد يهدد هذه الدول

والحكومات التي لن تستطيع توفيق أوضاعها في ظل نظام العولمة بينما لا تجد الدول الصناعية الكبرى ، وكل دول أوروبا صعوبة في الانضمام داخل هذه المنظومة الجديدة ، فاقصدها والتكنولوجيا التي تملكها والمؤسسات الاقتصادية الكبرى والبنوك التي تملكها تمكنها من تحقيق هذا التوفيق .

ولا شك في أن ظاهرة العولمة ظاهرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العلاقات الدولية ، فقد شهد العالم قديماً وحديثاً ظهور قوى إمبراطورية سعت إلى فرض سيادتها على مناطق متعدد من العالم ، بل لقد ظهرت قوى سعت إلى فرض سيادتها على العالم كله ، وذلك بالوسائل التقليدية وهي الاستعمار والاستيطان ، وغير ذلك من الوسائل ، وهناك من بين هذه القوى من ادعى العالمية على المستوى الحضاري وسعى إلى فرض حضارته على الحضارات الأخرى وذلك باستخدام القوى السياسية والعسكرية كوسيلة لفرض السيادة الحضارية والثقافية أما المكاسب الاقتصادية فكانت نتيجة حتمية للانتصارات السياسية والعسكرية .

أما العولمة فهي ظاهرة مختلفة تماماً عن كل ما حدث في التاريخ القديم والوسيط والحديث ، فهي ظاهرة معاصرة ولا يمكن أن نسميها - بشكل مباشر - ظاهرة استعمارية وإن أخذت في بعض الأحيان مظهر الفلسفة الاستعمارية أو نتج عنها سلبيات بالنسبة لدول العالم الثالث تشبه سلبيات العصر الاستعماري أو المرحلة الاستعماري .

إن العولمة تأخذ شكلاً إيجابياً براقاً يظهر في ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم ، وذلك في تبادل السلع والخدمات وفي انتقال رؤوس الأموال وفي انتشار المعلومات والأفكار وفي تأثير الأمم بقيم وعادات وأفدة إليها مع هذه العلاقات ذات الطابع الاقتصادي .

ولكن على الرغم من هذا الشكل الإيجابي للعولمة فإن لها أثاراً جانبية شديدة الخطورة على مستقبل الأمم وبخاصة في العالم الثالث الذي لا تزال معظم الدول فيه في

حالة تحلف اقتصادي وحضاري عن دول العالم الغربي . وهذا التخلف سيؤدي إلى أن الغرب المتقدم علمياً وتكنولوجياً واقتصادياً هو الذي سيجني ثمار العولمة لأنه القادر على التعامل مع معطياتها بل أن العولمة هي من نتائج الرأسمالية الصناعية الغربية ، وهذه النتيجة مفروضة على دول العالم الثالث بحكم سيطرة الغرب على حركة رأس المال وعلى حركة التجارة العالمية .

ومن أهم الآثار السلبية للعولمة على العالم الثالث ما يلي :

- ١ . زيادة نسبة الفقر والتبعية والاقتصادية في دول العالم الثالث ، وبالنسبة للعالم العربي فقد تم تقدير نسبة الفقر أو عدد الفقراء بـ (٧٣) مليون عربي يعيشون تحت خط الفقر ، وهي نسبة كبيرة تصل إلى ثلث سكان العالم العربي تقريباً .
- ٢ . إضعاف الدولة القومية ، وذلك لأن الدولة تصبح فاقدة للسيطرة على سياساتها الاقتصادية التي لم تعد تخضع لظروف السوق المحلية أو الإقليمية ولكنها خاضعة لمعطيات السوق الدولية وحركة التجارة العالمية وتفعيل قوة السوق ، وهي جميعاً عناصر تصب في مصلحة الدول الأقوى اقتصادياً وسياسياً .
- ٣ . يواجه العالم العربي خطرين للعولمة في وقت واحد : الخطر الأول يتمثل في نتائج العولمة على المستوى العالمي باعتبار العالم العربي جزءاً من العالم الثالث ولا يملك إمكانيات تحقيق وضع اقتصادي قوي في ظل العولمة . أما الخطر الثاني فيتمثل في وجود مشروع خاص للعولمة داخل منطقة الشرق الأوسط تتولاه إسرائيل التي تحاول فرض تصورها الخاص بالعولمة على الدول العربية المحيطة بها ، وقد تم تقديم هذا التصور من خلال مشروع الشرق أوسطية حسب الفهم الإسرائيلي الأمريكي له^(٥) .

هذه الآثار السلبية للعولمة تحتاج من العالم الثالث عموماً ومن العالم العربي خصوصاً وضع استراتيجية لمواجهة الآثار السلبية ، ويجب على واضعي هذه الخطة

الاستراتيجية أيدركوا أن هدف هذه الخطة ليس الخروج من العولمة ، ولكن التفاعل معها باعتبارها ظاهرة عالمية مفروضة على الجميع وباعتبارها نتيجة حتمية للتقدم الصناعي والتكنولوجي .

وبالنسبة للعالم العربي يجب أن تكون أهداف هذه الاستراتيجية تحقيق السلام القومي بين العرب ، وتطوير العلاقات العربية نحو نوع من الوحدة أو الاتحاد حول الأهداف القومية العربية ، والاهتمام بإقامة كيان اقتصادي عربي يمثل قاعدة للوحدة الاقتصادية العربية ، وإقامة سوق عربية مشتركة تمكن العرب من الوقوف بقوة اقتصادية قادرة على مواجهة الآثار السلبية للعولمة ، وقادرة في نفس الوقت على خلق الظروف الاقتصادية التي تمكن العرب من تحقيق الاستفادة الحقيقية من المعطيات الاقتصادية للعولمة .

رد الفعل العربي تجاه العولمة :

تمثل العولمة مهمة في الفكر العربي والإسلامي ، فالعولمة مفهوم غربي ابتكره الغرب وحدد له مضامينه وهويته ومكوناته الفكرية والاقتصادية ، وهو الذي يقود حركة العولمة ويروج لها في العالم كله .

معنى هذا أن الحضارات الأخرى لم تشترك مع الغرب أو مع الحضارة الغربية في تطوير مفهوم العولمة إنما هو صناعة غربية خالصة ويراد نشره وتعميمه لكي يكون متحكماً في الكون كله ، وذلك بالنظر إلى العالم على أنه مجرد قرية كونية يحيط بها إطار واحد يهدف إلى صياغة عالم واحد من هذه العوالم المتنوعة والمتناقضة في الهويات والثقافات والديانات واللغات .

وأمام هذا الاتجاه إلى العولمة تحت زعامة الغرب وتوجهاته الأيديولوجية تجد الحضارات والثقافات الأخرى نفسها في موقف لا تحسد عليه إذ عليها أن تتفاعل مع هذا

المفهوم الغربي وتحقق التداخل مع العالم وتفتح عليه وتتفاعل مع قضاياها وفي نفس الوقت تحافظ على هويتها وثقافتها وخصائصها التي يراد لها أن تختفي من خلال الاندماج القهري في العولمة .

وأهم مخاطر العولمة على الحضارات والثقافات غير الغربية أن هذا المفهوم الجديد تم ابتداعه وفق المنظمة الفكرية الاقتصادية الغربية ، وقبول العولمة والاندماج فيها معناه الحقيقي قبول التبعية للغرب الذي يسيطر على المؤسسات الإعلامية السمعية والبصرية ، وعلى وسائل الاتصال والمعلومات وعلى المنظمات الاقتصادية والشركات المتعددة الجنسيات والعابرة للقارات والتي لعبت كلها دوراً في إنتاج مفهوم العولمة والعمل على انتشاره .

والخطورة الواضحة في فكرة العولمة أنها تتمركز حول الغرب وحضارته ، وقد أفادت تجارب الماضي في العلاقات الغربية الشرقية أن نزعة التمرکز حول الذات هي التي تشكل العقلية الغربية كما أن الماضي يشير أيضاً إلى تاريخ مروع ومحبط للحضارة الغربية وللتاريخ الغربي مع تاريخ الشرق وحضارته ، فالغرب كان دائماً متمركزاً حول نفسه ، وقد أظهر دائماً وأبداً سلوكاً استعمارياً تجاه الآخر نتج عنه استغلال الشرق واستعمارهم ، والأخطر من هذا هو أن الغرب حاول الانفراد بالحضارة وحاول حرمان الآخرين منها ، كما قاوم انبعاث الحضارات الأخرى ومنع تقدمها وعمل على تدميرها بل إن الغرب مسئول مسئولية مباشرة عن أكبر عملية تدمير للحضارات في العالم ، فالاستعمار الغربي أينما اتجه سعى إلى القضاء على الحضارات والثقافات الوطنية واستبدالها بالحضارة الغربية .

ويشير مفهوم العولمة إلى أن الغرب لا يزال يسير على نفس هذا المنهج التدميري للثقافات الأخرى ، وأنه لم يغير من أنماط سلوكه تجاه الشعوب الشرقية والجنوبية . وقد ظهرت في الغرب دعوات واضحة إلى تدمير الثقافة العالمية وتنصيب الحضارة الغربية

حضارة واحدة ووحيدة للعالم . ومن هذه الدعوات دعوة فوكوياما التي صاغها حول مفهوم نهاية التاريخ الذي تم فيه إبعاد كل الأمم والحضارات الأخرى باعتبار الغرب هو نهاية التاريخ ، وكذلك دعوة هنتينجتون التي تدور حول ما يسميه «صدام الحضارات» ، وهو دعوة للغرب لكي يدخل في صراع مع الحضارات الأخرى وبخاصة الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية ، ويخلق في العالم توترًا وانقسامًا حادًا على مستوى الثقافات والحضارات ، وكذلك دعوة البحث عن عدو جديد بعد سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفيتي السابق (٦) .

هذه الدعوات على اختلاف أشكالها واتجاهاتها تثير مخاوف الفكر العربي الإسلامي من العولمة وما ارتبط بها من دعوات هدامة للعلاقة الجيدة بين الغرب والشرق ، وذلك بالانتصار للحضارة الغربية على الحضارات الأخرى والبقاء على الثقافات الوطنية والإقليمية والتبعية العامة للنموذج الثقافي الغربي .

إن العولمة تضع أساساً لمرحلة جديدة من الصراع بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى ، ومن أهمها الحضارة الإسلامية التي أصبحت هدفًا مباشرًا للعولمة . فقد اعتبر الإسلام وحضارته العدو الجديد للحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية ، وصدام الحضارات هو في حقيقة الأمر صدام مع الإسلام وحضارته فهو يمثل الحضارة الوحيدة القادرة على الصمود في وجه الحضارة الغربية ، وهي الوحيدة التي تملك الفعالية والقدرة على المقاومة ، ولكن أهل هذه الحضارة لا يؤمنون بمفهوم الصراع والعداء والتحدي ، وغير ذلك من مفاهيم الحضارة الغربية . فالحضارة الإسلامية تؤمن بالتفاعل مع الحضارات الأخرى وتأخذ بما هو في صالح البشرية عمومًا ولا تسعى إلى احتكار المنافع الاقتصادية ولا تؤمن بالصراع كأساس للعلاقة مع الشعوب والحضارات الأخرى ، ولذلك فالعولمة تمثل تحديًا حقيقيًا للحضارة الإسلامية بانطلاقاتها المختلفة عن انطلاقات ومبادئ الحضارة الغربية .

ويتأرجح رد الفعل العربي تجاه العولمة بين القبول والرفض^(٧) ، وذلك على الرغم من أن الرفض المطلق لا يعني شيئاً تجاه ظاهرة عالمية أو كونية تكاد تكون مفروضة فرضاً على جميع بلاد العالم ، وبخاصة بلدان العالم الثالث والتي لا تملك قوة الرفض من أساسه . ولكن ككل ظاهر جديدة عادة ما يظهر لها مؤيدون ومعارضون ، وقد يكون التأييد مبنياً على أساس علمي نابع من فهم جيد بطبيعة ظاهرة العولمة أو أن يكون مبنياً على أساس من قاعدة الانبهار العام بكل ما يأتي من الغرب إيماناً بتقدمه وتخلف العالم الثالث .

وأيضاً قد تكون المعارضة علمية مبنية على أساس من فهم علمي لظاهرة العولمة أو أن يكون الرفض مبنياً على أساس من جهل بنظام العولمة وتخف عام وعدم قدرة على استيعاب المفهوم وآثاره العالمية .

ولا شك في أن ظاهرة العولمة تحتاج بداية إلى فهم علمي لها وتحليل دقيق لآثارها الإيجابية والسلبية وضرورة اتخاذ قرار بشأنها لا يتجاهل الظاهرة من ناحية فيفقد إيجابياتها ولا ينهر بها هذا الانبهار المؤدي إلى التأثير بالسلبات والوقوع فيها .

وبلدان العالم الثالث تقف في حيرة بشأن العولمة فهي شأن عالمي يؤدي إلى ربط البلاد بنظام عالمي موحد ، وهذا الربط إن لم تتوفر له المؤهلات اللازمة يمكن أن يصبح مجرد تبعية مطلقة للنظام الغربي المسيطر على العولمة والمحرك للنظام العالمي الجديد . والحقيقة أن معظم بلاد العالم الثالث لا تملك مؤهلات الدخول إلى عالم العولمة ولأنها مضطرة اضطراً إلى دخوله فيها ستفقد بالتأكيد حريتها الاقتصادية وستصبح دولاً تابعة اقتصادياً للدول العظمى وغير قادرة على الانتفاع بالنظام العالمي الجديد على قدم المساواة مع الدول الغربية .

ولعل أخطر ما في هذا الأمر أن التبعية الاقتصادية محفوفة بمخاطر ثقافية ، فنظام العولمة ليس مجرد نظام اقتصادي عالمي إنما هو حامل لقيم الغرب ومبادئه الأساسية

ويعكس فكر أو ثقافة مغايرة لثقافة شعوب العالم الثالث ، وستؤدي معطيات العولمة إلى حدوث اختراق ثقافي عظيم قد ينتهي إلى وقوع تبعية ثقافية مطلقة وبخاصة لأن العولمة تعني في النهاية إلغاء الحدود بين الدول والانفتاح على العالم وذوبان المجتمعات في بعضها البعض . وهذه المعطيات خطيرة بالنسبة لدول العالم الثالث التي لا تملك القدرة على الحياة في العالم ، ومعظمها بلاد لا تزال تبث عن طرق للتخلص من آثار الاستعمار القديم الذي أنهك قواها واستنزف مواردها ونهب ثرواتها وقتل معنوياتها وشوه تقاليدها . وفي الوقت الذي تجمع فيه هذه البلاد شملها القومي تفاجأ بنظام يدفعها دفعا إلى التخلص من صفاتها القومية والتحرر من العزلة والانفتاح على العالم والذوبان فيه .

والذي لا شك فيه هو النظام العالمي الجديد ينتصر للشعوب القوية على حساب الشعوب الضعيفة وواقع دول العالم الثالث يشهد بهذا الانتصار لدول الغرب القوية . وإذا كان نظام العولمة مرتبط بالهيمنة الأمريكية فالملاحظ أن أسلوب الحياة الأمريكية بدأ ينتشر في العالم من خلال العولمة ، فالذوق الأمريكي أخذ يسيطر على كثير من المجتمعات وعلى المستويات الرسمية والشعبية ، وهناك سيطرة وانتشار لأسلوب الحياة الأمريكي في المأكول والملبس وفي السلع الاستهلاكية ووسائل الإعلان ، وغير ذلك من الأشياء التي تؤكد انتشار نمط الثقافة الأمريكية في البلدان المختلفة حتى في البلاد الأوروبية ذات الثقافة القوية^(٨) ، وهناك خشية تامة من انتشار السلوكيات وأنماط المعيشة الأمريكية في المدن الأوروبية العتيقة على الرغم من القرب الثقافي وكون الثقافة الأمريكية نابعة أساساً من الثقافة الأوروبية ، ولا تختلف عنها كثيراً سوى فيما هو من ابتكار العقلية الأمريكية الخاصة من أفكار وسلوكيات أصبحت توصف بأنها أمريكية . وإذا كانت أوروبا تقاوم الغزو الثقافي الأمريكي رغم القربة الثقافية فإن دول العالم الثالث مدعوة وبكل قوة لكي تحافظ على خصوصيتها الثقافية مع قبول ما هو عالمي وإنساني حتى لا تعيش في عزلة تامة عن العالم .

وهناك عدة ردود أفعال عربية تجاه العولمة ، ونقول ردود أفعال لأن العولمة صناعة غربية وافدة إلينا وتحمل في طياتها أبعاداً اقتصادية سياسية ثقافية اجتماعية ، وهي بديل جديد لما تعودنا أن نسميه في الماضي بالغزو الفكري أو الثقافي ، وهو غزو جديد يتميز عن القديم تميزاً واضحاً من خلال اتخاذ الاقتصاد وسيلة لتحقيق الهيمنة الغربية في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية .

وقديماً كانت السياسية هي وسيلة تحقيق المكاسب الاقتصادية والهيمنة الثقافية والاجتماعية . أما الآن فالاقتصاد هو الذي يؤدي إلى إحداث التغيير السياسي والثقافي والاجتماعي ، والعولمة غزو اقتصادي للعالم يقوده الغرب بزعامة أمريكية خالصة ، والعولمة انتصار النمط الأمريكي للسيطرة على وسائل الإنتاج ، والعولمة إرادة للهيمنة تختفي في ظلها الخصوصية الثقافية ، والعولمة نفي للآخر وعدم اعتراف بوجوده المستقل والعمل على اندماج هذا الآخر في النمط الاقتصادي الثقافي الغربي الأمريكي ، والعولمة هي احتواء للعالم على المستوى الاقتصادي يؤدي بالضرورة إلى احتواء ثقافي .

ورد الفعل الثاني تجاه العولمة يرى فيها نتيجة حتمية للتطور الإنساني في ميادين العلم والمعرفة ، وهي نظام تبادل شامل وإجمالي بين مختلف أطراف الكون يتحول العالم على أساسه إلى محطة تفاعلية للإنسانية بأكملها ، ومن أهم تأثيرات العولمة على الإنسانية تأثيرها على الهوية الوطنية والقومية للأمم وتهديدها للهوية الثقافية للشعوب من خلال هذا الغزو وللأفكار والقيم والعادات والأخلاق والموروثات .

ويرى أصحاب هذا الرأي الثاني أن على الشعوب أن تعالج خطر العولمة الثقافي من خلال قرارات سياسية لحماية الهوية الثقافية والموروث الثقافي^(٩) .

ولقد لاحظ أصحاب الاتجاه الثاني أنه لا يمكن الفصل بين الجانب الاقتصادي للعولمة والجانب الثقافي ، فهناك ترابط عضوي بين الجانبين أو بين الجوانب المختلفة

لتأثيرات العولمة ، وهناك انهيار للحواجز أمام تدفق السلع والمنتجات حسب اتفاقية الجات التي وضعتها منظمة التجارة العالمية ، وقد ساعد التقدم التكنولوجي على سرعة نقل الأفكار والمفاهيم المرتبطة بالعولمة من خلال تقنيات علمية مذهلة مثل الإنترنت والأقمار الصناعية ووسائل الإعلام المتقدمة .

نحن إذن أمام اتجاهين متناقضين تجاه العولمة : اتجاه يرى ضرورة التعامل مع الظاهرة والاندماج فيها لأنها ظاهرة غالبية وعالمية وإيجابية ، والاتجاه الثاني يعترف بالعولمة كنتيجة حتمية ولكن لها آثار سلبية أهمها الأثر الثقافي ويطالب بتوفير الحماية للخصوصية الثقافية في مواجهة تيار الثقافة الوافد مع العولمة .

وقد اهتم الاتجاه الثاني بوضع سياسات للمواجهة تعترف بالحقائق التالية :

أن العولمة نتيجة حتمية للتطور الإنساني في الميادين العلمية والمعرفية ، وهذا يعني ضرورة الاعتراف بها وعدم إهمالها والانعزال عنها والانغلاق على الذات والسلبية في مواجهتها ، فهذه السياسة الانغلاقية لا تجدي أمام ظاهرة عالمية مستمرة بفضل التطور التكنولوجي ، ولا يمكن الوقوف أمام التحديات التكنولوجية بل يجب التفاعل معها والانفتاح عليها كظاهرة ناتجة عن التطور الإنساني .

ومع ذلك يصبح من الضروري تحصين المجتمع ثقافياً ضد الآثار السلبية للعولمة على المستوى الثقافي والاجتماعي ، ولأن العولمة تطور تكنولوجي علمي حتمي فمواجهتها لا تتم من خلال تحدي هذا التطور التكنولوجي الحتمي ، ولكن تتم من خلال تقوية البنية الثقافية الوطنية ودعم منظومة القيم والعادات والأخلاقيات الوطنية التابعة من الثقافة العربية ، إن مواجهة الآثار السلبية للعولمة تتم من خلال أمرين :

الأول : الانخراط في العلم الحديث والأخذ بالتكنولوجيا ووسائلها والانفتاح العلمي على العالم وتحقيق التحديث والتقدم بكل الوسائل العلمية والتكنولوجية وفي

هذا اتجاه إلى العولمة إذا كانت العولمة نتيجة حتمية للتطور الإنساني في العلم والمعرفة .

الثاني : المحافظة على الهوية الثقافية وحمايتها من وسائل الاختراق الثقافية الغربية وتنمية هذه الهوية الثقافية لتصبح قادرة على المواجهة بل وقادرة على الهجوم والغزو مستخدمة نفس الوسائل التكنولوجية لحماية نفسها أولا والهجوم والمواجهة الثقافية ثانيا .

ولا يوجد تضاد بين الانفتاح على العولمة كنتيجة علمية حتمية وبين مواجهتها ثقافيا من خلال حماية القيم العربية والإسلامية .

الموقف الإسلامي من العولمة :

في ردود فعل صريحة ضد العولمة على الطريقة الأمريكية وحسب الفهم الأمريكي تطور موقفان صريحان أحدهما يأتي من داخل العالم الغربي الراض للهيمنة الأمريكية وهو موقف أوربي يتفق في جانب مع الاتجاه الى العولمة ويختلف في جانب آخر مع الرغبة الأمريكية في اكتساب العالم ويحاول بقوة الدفاع عن الهوية الأوربية ضد الغزو الثقافي الأمريكي الناتج عن العولمة الأمريكية .

أما الموقف الثاني من العولمة أمريكية كانت أو أوربية فهو موقف العالم الإسلامي . وهو في الحقيقة موقف دفاعي لأنه لا يملك الآن القدرة على المقاومة أو المواجهة لسلبيات العولمة بخلاف الموقف الأوربي . فأوربا تملك القدرات والإمكانات الاقتصادية التي تجعلها مستفيدة في النهاية من العولمة ، كما تملك القدرات التكنولوجية والعلمية التي تجعل منها منافساً قوياً للعولمة الأمريكية وتجعلها أيضاً بمثابة الشريك لأمريكا في جني ثمار العولمة ، وتبقى مشكلة أوربا في جانبها الثقافي ، حيث تسعى أمريكا بل وتعمل على نشر نظام الحياة الأمريكية في أوربا ، وتعمل على طمس الهوية

الأوربية ، وهذا دفع الأوربيين إلى ضرورة اتخاذ موقف حاسم وجاد ضد الهيمنة الأمريكية في هذا الجانب الثقافي ونعتقد أن أوربا لديها القدرات الثقافية التي تمكنها من مواجهة مخاطر العولمة الأمريكية على المستوى المرتبط بالهوية والثقافة .

أما بالنسبة للعالم الإسلامي فإن الموقف يعبر في الحقيقة عن اتجاهين : الأول يشترك فيه العالم الإسلامي مع بلدان العالم الثالث في موقفها من العولمة ، وهذا أمر طبيعي باعتبار أن البلاد الإسلامية جزء من بلاد العالم الثالث حسب المفهوم الغربي لهذا العالم . وهنا يجب أن نستثنى بعض البلاد الشرقية مثل اليابان التي تتوفر لديها قدرات علمية وتكنولوجية تمكنها من مواجهة العولمة بل والاستفادة منها . وتشترك اليابان هنا مع أوربا في الجزئية المرتبطة بالهوية والثقافة وربما بشكل أقوى نظراً لتقارب الثقافة الأمريكية والأوربية وتباعد الثقافتين الأمريكية واليابانية ، وهذه الجزئية الأخيرة تشترك فيها اليابان مع بلدان العالم الثالث فالعولمة الثقافية هي أوربية أمريكية الطابع وتأثيرها في ثقافات العالم الثالث أقوى من تأثير الثقافة الأمريكية في الأوربية .

وعلى كل حال يبقى للعالم الإسلامي أن لديه مشروعاً مشابهاً للعولمة في جانبها الثقافي وإن كان ينقص العالم الإسلامي القوة العلمية والتكنولوجية التي تمكنه من الوقوف في وجه العولمة على المستوى الاقتصادي والإعلامي . فمن الناحية النظرية يمكننا أن نقارن مفهوم العالمية في الإسلام بمفهوم العولمة على النظام الأمريكي الأوربي ، وبداية نقول أن فكرة العولمة ليست فكرة جديدة طرحها الأمريكيون ، وسعوا إلى تحقيقها خلال العقدتين الآخرين ، ولكنها فكرة قديمة لها أصولها في التاريخ الإنساني ، وهي من حيث تحقيق السيادة السياسية والعسكرية والاقتصادية لشعب معين على حساب شعوب أخرى فهي لا تخرج بهذا الشكل في إطار الفكر الاستعماري قديماً وحديثاً ، وأيضاً من حيث تحقيق السيادة الثقافية لا تخرج على حدود الفكر الاستعماري قديماً وحديثاً حيث أضاف الغزو الثقافي إلى الغزو السياسي العسكري الاقتصادي . وقد

حدث مثل هذا الوضع مع العزو اليوناني القديم للشرق القديم حين اعتبر الغزو الثقافي اليوناني جزءاً لا يتجزأ من غزو الشرق وبالفعل تم فرض الثقافة الهلينيستية على شعوب الشرق وكان تأثيرها قوياً حتى بعد زوال ملك الإسكندر الأكبر السياسي والعسكري والاقتصادي . ولا شكك في أن حركة الاستعمار الأوربي الحديث للشرق وبلاده قد اهتمت بالغزو الثقافي الغربي بشعوب الشرق وفرضت نظم الحضارة الغربية وأسلوب الحياة الغربي على الشرق وشعوبه .

فالعولمة إذن لا تختلف في شيء عن الاستعمار القديم والحديث حين اهتم بالثقافة واعتبرها إحدى مجالات الهيمنة . ولعل الفارق هنا بين العولمة الحديثة بمفهومها الأمريكي الأوربي وبين الاستعمار القديم والحديث المهتم بالسيادة الثقافية يظهر في الخط الاستراتيجي المختلف بينهما ، كما يظهر في الأسلوب وفي الأدوات والوسائل .

فالاستعمار اعتمد على القوة العسكرية في اقتحام بلدان الشرق وأفريقيا ، وذلك لتحقيق السيادة السياسية والمكاسب الاقتصادية والغزو الثقافي وما ينتج عنه من هيمنة ثقافية وحضارية .

أما نظام العولمة الأمريكية الأوربي فهو لا يعتمد على القوة العسكرية في المقام الأول ، والقوة العسكرية عنده لها استخدامات تفيد في تكريس النظام العالمي الجديد . ولكن العولمة ليس مشروعاً عسكرياً في المقام الأول . العولمة مشروع لاكتساح العالم بدون جيش وبدون قوة عسكرية وبدون أسلحة . العولمة مشروع اقتصادي يفرض نظام السوق وهو النظام الاقتصادي الغربي بقوة النظام وليس بقوة الجيش والعسكرية وبقوة العلم والتقدم التكنولوجي وليس بالقوة السياسية العسكرية . لقد توارت القوة العسكرية لتخلي الطريق للقوة الاقتصادية لكي تكتسح العالم بدون إسالة قطرة دم واحدة .

يملك العالم الإسلامي مشروعاً ثقافياً للعالم يقابل المشروع الثقافي للعولمة . ولذلك نتناول في الصفحات التالية مقارنة هذين المشروعين لتوضيح طبيعة كل منهما

والأهداف الخاصة بكل مشروع ، وتوضيح وجوه الاختلاف بين المشروعين ، ووجود النقص في المشروع الإسلامي في الوقت الحالي وأسباب نجاح العولمة ، وتخلف العالمية الإسلامية في العصر الحديث .

لاشك أن بين نظرية العالمية (في الإسلام) والعولمة الغربية بعض نقاط التشابه وكثيراً من وجوه الاختلاف . ولعل وجه التشابه الأول هو وجود هذا التوجيه إلى العالم في كل من العالمية الإسلامية والعولمة الغربية فكلاهما دعوتان تستهدفان العالم ككل ولديهما مشروع موجه إلى العام كله .

وفيما عدا هذا الهدف المشترك في إطاره الشكلي الخارجي لا يوجد تقارب بين عالمية الإسلامية والعولمة الغربية ، بل يمكن وصفهما بأنهما يقفان على طرفي النقيض ولا يتقابلان .

ووجوه الاختلاف كثيرة بين عالمية الإسلام وعولمة الغرب ، فعلى مستوى الطبيعة نجد أنه في الوقت الذي يرى فيه الإسلام إمكانية تحقيق وحدة عالمية على مستوى الدين والثقافة والفكر لا تفرق فيها بين إنسان وإنسان ، أو بين جماعة وجماعة ، أو بين شعب وشعب ؛ تطالب العولمة الغربية بوحدة كونية أو عالمية تحت سيادة الغرب ، ويطالب الأمريكيون بها تحت سيادة الولايات المتحدة الأمريكية . فالعولمة نظرية أو نظام تسعى إلى احتواء العالم بالتخلص من عناصره القومية أو الأممية وتوحيد هذا العالم تحت السيادة الثقافية للغرب عموماً أو لأمريكا على وجه الخصوص ، والغريب في هذا الأمر أنه ليس توحيداً للعالم على مستوى الإنسانية بما تقتضيه من أخوة ومساواة وعدالة وحب ، ولكنه توحيد القوة باستخدام الاقتصاد ونظام السوق كوسيلة إجبارية للتوحيد ، ولذلك فهو توحيد يتصف بالإجبارية من ناحية وبالمادية من ناحية أخرى .

أما صفة الإجبارية فتتضح في أن شعوب العالم الثالث ليس أمامها أي اختيار في مسألة العولمة فهي عملية مفروضة فرضاً عليها ، وذلك لاتخاذ العولمة الشكل

الاقتصادي وارتباطها بقوانين اقتصادية لها طابع العالمية ومرتبطة بالتقدم الصناعي والتكنولوجي والتقدم في وسائل الاتصال والإعلام ، وارتباطها من الناحية الاقتصادية بقانون الجات المنظم للتجارة العالمية . ولا تملك دول العالم الثالث حق الاختيار أو الرفض داخل دائرة هذه المنظومة الاقتصادية العالمية ، وتتضح صفة الاجبارية أيضاً في أن على دول العالم الثالث أن تأخذ بهذا النظام وحده دون غيره ولا تستطيع أن تطور لنفسها قوانينها الاقتصادية أو نظامها الاقتصادي المستقل ، بل هي مربوطة بالنظام الذي هو من صنع الغرب وتطور طبيعي لتقدم الغرب اقتصادياً ، والغرب هو المسيطر على آليات السوق وأدواته وتكنولوجياته والشرق ما هو إلا سوق كبير للاقتصاد الغربي ولا يملك من الآليات والأدوات والتكنولوجيا ما يمكنه من التعامل مع الغرب معاملة الند للند .

وفي مثل هذا التوحيد الإجباري المفروض لا يمكن أن تتحقق أدنى الحقوق للطرف الثاني التابع فالفائدة الاقتصادية تذهب إلي الغرب ويتحول الشرق نفسه إلى سوق يتلقى المنتج الغربي ويستهلكه فقط دون أن يكون قادراً على تصنيعه بسبب الفقر التكنولوجي والتخلف العلمي .

وهذا التوحيد للعالم في ظل نظام السوق تختفي فيه كل عوامل التقريب بين بلاد العالم ويصبح التوحيد هو توحيد الهيمنة وليس التوحيد المحقق لمصالح الشعوب . وتنتج عن هذا التوحيد الإجباري لشعوب العالم نفس النتائج التي حدثت مع حركة الاستعمار العالمي حيث أحكم الغرب هيمنته على الشرق وتحققت المصالح الغربية على حساب مصالح الشعوب الشرقية ونتج عن هذا التوحيد الاجباري التبعية المطلقة للغرب . هذا النوع من التوحيد الذي أتت به العولمة مولد للصراع بين الشعوب ولا يمكن أن يؤدي إلي الوفاق بينها . ولهذا السبب كثر الحديث في الغرب عن صدام الحضارات وصراع الأديان والثقافات بدلاً من الحديث عن إمكانية اتفاقها والحوار بينها ، ومثل هذا التوحيد

الاجباري الناتج عن العولمة يولد العداء بين الشعوب لأنه توحيد قهري يجعل من يملك القوة الاقتصادية والتكنولوجية يهيمن على من لا يملكها ، وهذا وضع لن تقبله الشعوب الشرقية التي ستنتظر إلى الغرب على أنه العدو التقليدي الذي لم يتغير إلا في أدواته ووسائله وأنه هو نفسه الاستعمار القديم مرتدياً رداء العولمة . هذا التوحيد الإجباري مولد للظلم ومضيق للعدالة على المستوى الدولي حيث تتحول دول العالم إلى دول سيطرة ومهيمنة ودول ضعيفة وتابعة . وهو نفس الحال الذي كان عليه الوضع في الفترة الاستعمارية ، فالعولمة أداة غربية جديدة لفرض السيادة الغربية على العالم .

الصفة الثانية التي يتصف بها توحيد العالم على يد نظام العولمة هي صفة المادية ، وقد وصفنا الصفة الأولى بأنها صفة الاجبارية أو توحيد العالم بفعل القوة الاقتصادية للغرب والتي لا يملك العالم الثالث أمامها أي خيار .

إن مدخل العولمة لتوحيد العالم مدخل مادي لا يقوم على أسس إنسانية أو روحية أو حضارية . لقد اعتمدت العولمة على المدخل المادي الاقتصادي كوسيلة للهيمنة على العالم وفرض مقولة الوحدة عليه . وهذا بخلاف فكرة توحيد العالم التي نادى بها العالمية الإسلامية حيث كانت ولا تزال نقطة انطلاقها توحيد الإنسان على مستوى الإنسانية وعلى مستوى الدين والحضارة ، وفي القرآن الكريم نقرأ ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . وهناك عدة أخطاء أو مخاطر في هذا المدخل المادي الذي اعتمدت عليه العولمة في توحيد العالم . ويكمن الخطر الأول في اعتبار المادة الأساس الأول والمهم في إقامة العلاقات بين الشعوب وبالتالي في توحيد هذه الشعوب والتقريب بينها ، والمدخل المادي مدخل لا يحقق العدالة للجميع لأنه مدخل مرتبط بمن يملك القدرة المادية والتكنولوجية وهو الغرب ، وبالتالي فهو مدخل يحقق السيادة للغرب على الشرق ويحول الشرق إلى سوق للغرب ، وبذلك فهو من الناحية الاقتصادية لا يحقق أدنى

درجات العدالة الاقتصادية . فهو تقسيم شعوب العالم إلى شعوب غنية وشعوب فقيرة ولا يضمن توازنًا اقتصاديًا بين دول العالم بل يحول العالم إلى دول تأخذ وتحتكر ودول يقع عليها الاستغلال والاحتكار الاقتصادي . ويتم ترجمة البعد الإنساني في هذا المدخل المادي إلى قيام الدول الغنية بإعطاء المنح والعطايا والتبرعات للدولة الفقيرة وفي بعض الحالات منح الفروض ذات الفوائد الميسرة ، وبمعنى آخر تحول العالم إلى دول غنية دائنة ودول فقيرة مدينة .

أما الخطر الثاني فيتمثل في أن غياب البعد الإنساني في العولمة والانطلاق في العلاقات بين الشعوب من نقطة انطلاق مادية اقتصادية تحول العالم إلى بؤرة للصراع الاقتصادي والحروب السياسية العسكرية . ومع اختفاء الاتحاد السوفيتي كقوة اقتصادية وانفراد الغرب بالمقدرات الاقتصادية للعالم وعدم وجود توازن اقتصادي حقيقي بين الغرب والشرق سيتحول العالم إلى حلبة صراع اقتصادي يسيطر فيها النظام الرأسمالي الغربي في أبشع صوره على الاقتصاد العالمي . وكل هذا يحدث في ظل غياب قوة الدولة وظهور الشركات المتعددة الجنسيات ، وانحسار القوة الإقليمية الأمر الذي يؤدي إلى تكديس الثروة في يد الغرب وزيادة الفقر في البلاد الشرقية وبالتأكيد عودة الصراع الاقتصادي في كل أشكاله وفي حدة لم يبلغها هذا الصراع من قبل . فهناك صراع سينشأ من أجل تحقيق التوازن الاقتصادي بين الغرب والشرق ، وصراع سينشأ لمقاومة هيمنة دول على دول اقتصاديًا ، وصراع آخر سينشأ بين الشركات المتعددة الجنسيات والدول غربية كانت أو شرقية ، وسينجم عن هذا صراع سياسي تحاول فيه الدول أن تحافظ على كيانها في ظل هذا الاتساع لسيادة الشركات المتعددة الجنسيات والتي تجاوزت قوتها قوة الدول صاحبة السيادة والتي أدت وستؤدي إلى ضياع الصفة السياسية المستقلة للدولة وبخاصة دول العالم الثالث . وسينشأ صراع بين دول منتجة ودول مستهلكة وبين دول تملك التكنولوجيا ، ودول محرومة من التكنولوجيا المتقدمة ولأسباب مقصودة حتى تظل هذه القسمة إلى دول منتجة وأخرى مستهلكة مستمرة .

أما الخطر الثالث لهذا المدخل المادي الاقتصادي للعولمة في توحيدها العام فيظهر في عودة نظام الاحتكار والاستغلال الاقتصادي وفي صورة أكثر بشاعة عما كان من قبل^(١٠). وتبدأ المسألة باحتكار التكنولوجيا المتقدمة وحرمان الشعوب الشرقية منها وانطلاق الشركات الاستثمارية الكبرى للاستثمار في بلدان العالم الثالث. وإذا كان الاستعمار قديماً قد أخذ شكل الشركة الاستثمارية مثل شركة الهند الشرقية فإن الاستعمار الجديد يعتمد اعتماداً كلياً على الشركات الاستثمارية الكبرى والمتعددة الجنسيات، وإذا كانت الدول المستعمرة قديماً عرفت عدوها ممثلاً في بلد استعماري معين وقاومته بالوسائل المعروفة فإن المستعمر الجديد شركة عابرة للقارات متعددة الجنسيات تملك قوة اقتصادية ومادية تفوق ميزانية عشرات لدول، وتعمل من خلال قانون نظام السوق وفي ظل العولمة وقانون الجات. وكل هذه أمور ستجعل من الصعب في المستقبل التخلص من هيمنة هذه الشركات وستصبح الدول الصغرى والفقيرة من أملاك شركات الاستثمار المتعددة الجنسيات وتقع تحت سيادتها وذلك بدون معارك عسكرية أو أزمات سياسية. إنه الاستعمار الجديد القادم مع العولمة.

الصفة الثالثة التي تتصف بها العولمة على النظام الغربي هي صفة الهيمنة، وقد ذكرنا جانباً منها في صفة الاجبارية المرتبطة بفرض نظام السوق على العالم بكامله والذي يحقق للغرب هيمنة اقتصادية على الشرق. ولهذه الهيمنة جانب آخر أشد خطورة من الجانب الاقتصادي ألا وهو الهيمنة الثقافية الناتجة عن الهيمنة الاقتصادية، فالعولمة مرتبطة بالثقافة وتهدف إلى تغريب العالم الشرقي وربطه بالنظام الثقافي الغربي من خلال عمليات الغزو الفكري المنظمة والمتزامنة مع الغزو الاقتصادي.

وهنا تظهر عدة معالم بارزة للعولمة الثقافية الناتجة عن العولمة الاقتصادية :

١. أن فرض نظام السوق يأتي بمتغيرات ثقافية ضرورية ويحتم أن تغير بلدان العالم الثالث من نظمها التعليمية والتربوية وتعديل من برامجها الثقافية بما يسمح بتأهيل

إنسان لعصر العولمة وخلق إنسان يستطيع أن يتعامل في القرن الحادي والعشرين مع معطيات العولمة^(١١).

٢. أن كثيراً من الشركات الاستثمارية المتعددة الجنسيات والعابرة للقارات تحمل معها أينما ذهبت واستثمرت قيماً ومبادئ مرتبطة بنظم الحياة الغربية وهي تفرض نمطها الثقافي الغربي على المتعاملين معها ، وتؤدي إلى تغيير عاداتهم وتقاليدهم وسلوكياتهم في هدوء ، والأخذ بالقيم والعادات الغربية بدون اجبار أو فرض . وهذا هو وجه الخطر فالمستعمر قديماً حينما فرض قيم الحضارة الغربية بالقوة تمت مواجهته على أنه مستعمر يقوم بعمليات غزو فكري وثقافي ، أما العولمة فهي تحدث التغيير في القيم والمبادئ بدون استخدام القوة ولكن من خلال المنتج نفسه^(١٢).

ويمكن أن نضرب مثلاً واضحاً على هذا من خلال مجموعة شركات المطاعم الأمريكية التي انتشرت في العالم الشرقي من خلال عمليات الاستثمار ونظام السوق . فقد تمكنت هذه الشركات الأمريكية من تغيير القيم الشرقية المرتبطة بالطعام والشراب أو ما يمكن أن نسميه بأداب الطعام . فقد علمت الإنسان الشرقي نظام الأكل السريع وذلك من خلال الوجبات السريعة التي لا تحتاج إلي الاجتماع مع غيره لتناول الطعام ، وأصبح كل إنسان يأكل بمفرده وأصبحت الأسرة لا تجتمع على مائدة لتأكل معاً الأمر الذي أدى إلى تفكك الأسرة وتقليل فرص التقاء الآباء والأبناء على مائدة الطعام . وأصبح الأبناء يفضلون الآن وجبات هذه المطاعم على الوجبة المنزلية الصحية من ناحية والجامعة للأسرة من ناحية أخرى . وقد أدى هذا الوضع إلى إهمال كثير من الأسر لإعداد الطعام لأبناء الأسرة والاعتماد على الوجبات الجاهزة التي يطلبونها بالهاتف ، وتأثير هذا على قيم الأسرة وعاداتها خطير ، فقد أدى هذا إلى عدم الاهتمام بإعداد الطعام وعدم تعلم الأبناء والبنات على وجه الخصوص كيفية إعداد الطعام في المنزل ، ونشأة صراعات داخل الأسرة حول تفضيل الوجبات الجاهزة على وجبات المنزل وأحياناً حول نوع

الطعام المطلوب وذلك لتعدد المطاعم الجاهزة واختلاف أطعمتها . وقد يقوم كل فرد من الأسرة بطلب الطعام الذي يعجبه وبمفرده ويأكله أيضاً بمفرده ، ويلاحظ أن الأبناء الآن يأكلون معظم وجباتهم في الشارع ولا يحتاجون إلى الاجتماع معاً للأكل على مائدة واحدة . ونحن لا نتحدث هنا عن المآخذ الصحية على مثل هذا السلوك المرتبط بالطعام على خطورته ولكن نركز على الآثار الاجتماعية الناتجة عن هذا الانتشار للمطاعم الاستثمارية التي تقدم الوجبات الجاهزة والتي ينتج عنها تغيير كبير في عادات وتقاليد الطعام وأدابه ، وتغيير خطير في نظام الأسرة أدى إلى تفكك أسري واضح واستبدال آداب الطعام الشرقية بآداب غربية . ومن ناحية أخرى تثير هذه المطاعم الاستثمارية الحقد الاجتماعي بين أفراد المجتمع الواحد فأسعارها ليست في متناول الجميع وأصبحت تمثل عبئاً إضافياً على رب الأسرة يؤدي إلى استهلاك أكثر وبدون فائدة صحية حقيقية . هذا مثل بسيط على تأثير شريحة واحدة من الشركات الاستثمارية المتعددة الجنسيات والعبارة للمقارنات على نظم المجتمعات الشرقية وتقاليدها وعاداتها في مجال الطعام والشراب ، وهناك أمثلة أخرى عديدة وأقوى على هذا التغيير الناتج عن العولمة في المجال الثقافي .

هذه المواقف المرتبطة بالعولمة تجعلنا نطرح العالمية الإسلامية كبديل منافس للعولمة في المجال الثقافي ، ويجب أن نعترف بالقصور الإسلامي الحالي في مجال الاقتصاد والتذكير بنجاح النظام الإسلامي قديماً في تقديم مشروع اقتصادي للعالم قام على أسس عادلة من المساواة ، وتجنب كل مساوئ النظم الاقتصادية التي ارتبطت بها أوروبا مثل النظام القطاعي قديماً والنظام الرأسمالي والنظام الشيوعي الاشتراكي حديثاً ، وأخير النظام الاقتصادي المرتبط بالعولمة ، وهو يمثل الرأسمالية الغربية في قمة توحشها من حيث ارتباطها الشديد بالمادة ونتائجها النهائية المؤدية إلى أشد أنواع الصراع الاقتصادي بين الأمم ، وكذلك وجهها الاحتكاري المانع من انتشار التكنولوجيا المتقدمة ومنع وصولها إلى بلدان العالم الثالث حتى تظل الهيمنة الاقتصادية دائماً وأبداً للغرب ، ويظل الشرق متخلفاً وتابعاً للنظام الاقتصادي الغربي .

وبداية نقول إن العالمية في الإسلام نظام شامل وموقف إسلامي تجاه العالم ينطلق أساساً من الإيمان بوحدة الدين ووحدة الإله ، ووحدة العالم ، ووحدة الإنسان . وفي مقابل هذا نجد العولمة لا تنطلق من وحدة دينية أو أخلاقية ولا علاقة لها بالدين كما أنها تنطلق من رؤية شمولية للعالم بل هي تقسم العالم إلى غرب وشرق وتضع الغرب في مواجهة الشرق ، والأنا في مواجهة الآخر ، وتشد البقاء للأصلح وتحدث عن رسالة الرجل الأبيض ، أو ما يسمى أحياناً بعبء الرجل الأبيض ، تنزع إلى الصراع والتحدي وتقول بصدام الحضارات وصراعها وتحكم للغرب بالأفضلية على الشرق . وكذلك العولمة لا تتعامل مع الإنسان كإنسان يمثل وحدة إنسانية واحدة في مقابل عوالم أخرى ولكنها تأثراً بمبدأ قسمة العالم إلى شرق وغرب فقد ميزت بين إنسان الحضارة الغربية وإنسان الحضارة الشرقية ، واعتبرت الأول نموذجاً للثاني ومن ثم فهي تسعى إلى فرض هذا النموذج على العالم^(١٣) .

والعولمة في هذا ما هي إلى امتداد للفكر الاستعماري الغربي الذي اعتبر الغربي صاحب مشروع حضاري يستهدف العالم من أجل إخضاعه سياسياً وعسكرياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ولا يمنع أن يكون لهذا المشروع الحضاري الغربي جانباً ديني تبشيري رغم سيادة العلمانية وسيادة الخطاب اللاديني للعولمة والوقوف عند حدود الخطاب الثقافي الناتج عن المعطيات الاقتصادية للعولمة .

إن العالمية هي التي ارتبطت بالدين الإسلامي وحضارته تختلف تماماً عن العولمة في عدة أمور :

ارتباط العالمية في الإسلامية بالدين وحضارته الأمر الذي جعل العالمية تسير وفق ضوابط دينية وأخلاقية فالعالمية مستمدة أصلاً من وحدة الدين أي من كون دين البشرية واحداً من البداية ، وهو التوحيد الذي منه تنبثق العالمية ، فالتوحيد يعني الاعتراف بإله واحد خالق للعالم وللإنسان ، وأنه إله للعالم وللشريعة وأمامه يتساوى كل الخلق ،

ويتوحد كل الكون وتصبح الإنسانية أخوة فكل الخلق مردود إلى آدم وحواء ، والكل يشترك في أبوة آدم وأمومة حواء وذلك بصرف النظر عن اختلاف الأديان والجناس والألوان والعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية . وتعني الأخوة الإنسانية عدم التفرقة بين الشرق والغرب ، أو بين الشمال والجنوب ، وأن الإنسان في كل مكان هو أخ للإنسان ، وأن تباعد الأمكنة والأزمنة ليس مبرراً للتفرقة والعزلة المؤدية إلى الشعور بالتميز والأفضلية والتعصب للقوم والجنس أو غير ذلك من الأسباب المؤدية إلى عزلة البشر عن بعضهم البعض .

وتعطي إحدى الآيات القرآنية شرحاً وافياً لهذا الموقف الإسلامي من البشرية وتقول الآية : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (سورة الحجرات آية ١٣) ، وهناك أيضاً الآية التي تقول ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (النساء آية ١) ، ويلاحظ أن الآيات هنا تخاطب الناس جميعاً ولا تخاطب المسلمين منهم فقط ، وتؤكد الآيتان على حقيقة بيولوجية لوحدة الإنسانية وهو عودة كل الشعوب إلى أب واحد وأم واحدة وأن الجميع مخلوقون من نفس واحدة وأن هناك صلات رحم تربط شعوب الأرض لانتسابهم جميعاً إلى آدم عليه السلام .

إن العولمة في الإسلام مفهوم يستقي أصوله من كون العالم مخلوقاً للإله الواحد ، والإنسانية في الإسلام مستمدة من كون البشر يعودون إلى أب واحد هو آدم وأم واحدة هي حواء ، وأن هناك صلة رحم تربط البشر ببعضهم البعض . وقد تفرق البشر في الأرض في شكل شعوب وقبائل تسعى إلى التعارف على بعضها البعض وإعادة صلة الرحم المفقودة بفعل اختلاف الأمكنة والأزمنة . وهم في أخوتهم هذه لا يتميز أحد على أحد ولا يفخر قوم على قوم من خلال عناصر الاختلاف التي خلقتها الأمكنة والأزمنة ، فليس

هناك من هو أفضل من الآخر على مستوى الجنس أو اللون أو اللغة فالكل يعود إلى أصل واحد ، والأفضلية الوحيدة لا علاقة لها بالجنس واللون واللغة أي لا علاقة لها بوجوه الاختلاف بين البشر . إنما الأفضلية تنقرر من خلال العلاقة بالله فمن علاقته بالله أفضل يصبح المفضل والمكرم : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ فالأفضلية للتقوى والتقوى هنا مفهوم عام لم يتم ربطه بأي من الأديان ، إنما هو يدل على الدين المشترك بين كل الأديان ، وهو خشية الله وإعلان الطاعة له ، والطاعة هي جوهر الدين في كل مكان وزمان والأكرم هو الأتقى وليس الأبيض أو الأسود أو الآري أو السامي أو غير ذلك من عناصر الاختلاف بين البشر .

والعالمية في الإسلام تحتم التعارف بين بني البشر ، فالأخوة في الإنسانية تعد أكبر دافع للتعارف والتعاون ، ويربط القرآن الكريم التعارف بالاشتراك في الأصل الواحد وللتغلب على التباعد الذي أتى به التاريخ حين توزع البشر إلى شعوب وقبائل لا تعرف بعضها البعض رغم اشتراكها في الأصل الواحد ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ .

أما التعاون فهو ضرورة إسلامية أخرى يطالب بها الإسلام البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وألوانهم . ويحدد التعاون في أنه تعاون على البر والتقوى أي خشية الله التي تضمن ألا ينحرف التعاون إلى مجالات يتحقق فيها الظلم والعدوان من الإنسان على الإنسان الآخر ، وفي هذا ينص القرآن الكريم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ .

ومثل هذا التعاون والتعارف العالميين يحققان للإنسان الأمان والاستقرار والتمكن من أداء الرسالة المكلف بها وهي إعمار الأرض بكونه خليفة الله في الأرض يعمل على إعمارها وإصلاحها . ويتضح هذا الهدف في حوار الملائكة مع الرب في الآية القرآنية : ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد

فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴿البقرة ٣٠﴾.

وتربط هذه الآية خلافة الإنسان في الأرض وإعمارها وإصلاحها بالعلم والمعرفة التي سيكتسبها الإنسان ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضها على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ (البقرة ٣١) .

وهكذا تنطلق العالمية في الإسلام من وحدة الدين إلى وحدة العالم ووحدة الإنسان الدافعة كلها إلى ضرورة التعارف على أساس من التقوى والتعاون على أساس من البر والتقوى ، ورفض الإثم والعدوان بين أبناء البشر الأخوة العائدين إلى أصل واحد ، وجعل رسالة الإنسان تعمير الأرض وإقرار السلام والأمن فيها ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ ، فهذا الأساس القوي للأخوة الإنسانية يحقق للإنسان في كل مكان المن على طعامه وحياته ويضمن له الأمان والاستقرار ، أما وسيلته في إعمار الأرض وتحقيق الخلافة فيها فهو العلم والمعرفة .

هذا الفهم الإسلامي للعالمية يحقق للعالم الأخوة والعدالة والأمن والاستقرار والتقدم من خلال العلم ، وهو دافع إلى التعارف في ظل التعددية ﴿وجلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ ، وفي حماية التقوى ، كما أنه دافع إلى التعاون فيما فيه صالح البشرية ودفع لما يضر بالبشرية ، وبخاصة من خلال عدم التعاون على الإثم والعدوان .

وفي مقابل هذا المنظور الإسلامي للعالمية تأتي العولمة بسلبياتها التي ذكرناها سابقاً فتؤدي أولاً إلى إحداث مزيد من الفوضى وعدم الاستقرار على صعيد البشرية ، ومن أهم الآثار السلبية للعولمة على العالم تعميق الفجوة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب .

إن العولمة ستؤدي إلى زيادة الفجوة بين الشمال والجنوب اتساعاً وعمقاً لأن الدول الصناعية المتقدمة والشركات المتعددة الجنسيات تتحكم في مسارات عملية العولمة ، وهي الأقدر على حصد إيجابيات العولمة وتجنب سلبياتها ، وهذا يعني أن الدول غير المتقدمة في العالم الثالث هي التي ستجني سلبيات العولمة ، كما أن دول العالم الثالث ليست لديها القدرة حالياً على استيعاب معطيات عصر العولمة بسبب التخلف العلمي والتكنولوجي وحدة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية فيها . وستؤدي العولمة إلى زيادة التكتلات الاقتصادية ودعمها باعتبارها مدخلاً رئيسياً لتدعيم القدرات على التكيف مع عصر العولمة ، بينما ستعاني دول الجنوب من عدم قدرتها على التكتل بسبب ضعف بنيتها الاقتصادية وقلة خبرتها وهشاشة مؤسساتها هياكلها الاقتصادية بالإضافة إلى النزاعات السياسية التي تحول دون تحقيق التكامل الاقتصادي بين هذه الدول ويؤدي هذا الوضع إلى تهديد الأمن والاستقرار داخل هذه الدول وعلى الصعيد العالمي . ولا يتوفر لدى دول الشمال الاستعداد لمساعدة دول الجنوب في التخلص من مشاكلها وإجراء التغييرات المطلوبة للدخول في عصر العولمة وستزداد دول الشمال ثراءً وقوة اقتصادية في الوقت الذي سيزداد فيه الفقر والتخلف في دول الجنوب .

ومن أهم عوامل عدم الاستقرار وغياب الأمن الذي سينجم عن العولمة تنامي اتجاهات التطرف والعنف والجريمة المنظمة والصراعات الداخلية .

الشرق أوسطية وعقيدة التمييز :

إن من أهم مشكلات إسرائيل بعد السلام المشكلة المرتبطة بكيفية ترجمة الاعتقاد الإسرائيلي في التفوق والتمييز وفي حق الهيمنة والسيادة المبني على هذا الشعور بالتمييز وكيفية ترجمة هذا كله في ظل السلام . ولم تكن هناك مشكلة بالنسبة لإسرائيل في زمن الصراع السياسي والعسكري ، فقد كانت تطبق هذا الاعتقاد بالتمييز وتمارسه وتحاول تحقيقه على كل المستويات الصراعية مع العرب .

أما الآن ومع دعوى الدخول في عصر السلام مع العرب فيبدو أن هذا المفهوم الخاص بالتمييز يحتاج إما إلى إعادة نظر أو إلى تكييف مع الأوضاع الجديدة التي سيأتي بها السلام .

وليس من المنتظر أن تتخلى إسرائيل عن هذا الاعتقاد ، وذلك لأن الاعتقاد في التمييز اعتقاد راسخ يستمد أصوله من العقيدة الدينية التي صورت للإسرائيلي قديماً أنه متميز على غيره من البشر وأنه مختار من عند الرب ، كما يستمد أصوله أيضاً من الفهم العرقي العنصري الذي تطور حول مفهوم الاختيار ، وقد نتج عن هذا إيمان بما يسمى بالعرقية اليهودية ، والحقيقة أن هذا الشعور بالتمييز ليس موجهاً ضد العرب فقط ، ولكنه شعور عام تجاه البشرية ككل ، ويظهر في أبرز صورهِ العنصرية في قسمة البشرية إلى قسمين : يهود وغير يهود^(١٤) .

ولاشك في أن الحياة اليهودية في الغرب أضافت بعداً جديداً إلى هذا الشعور بالتمييز ، فقد زادت النزعة العنصرية من خلال اكتساب اليهود للنزعة العنصرية في الحضارة الغربية والتي نظرت إلى نفسها دائماً على أنها حضارة الرجل الأبيض في مواجهة الحضارات الأخرى حضارات الأجناس الأخرى من سودا وملونين . وقد سادت هذه النزعة في مرحلة الاستعمار العالمي وبنى على أساسها حق الرجل الأبيض في السيادة والهيمنة على الحضارات الأخرى . وبالنسبة لليهودي أصبح هذا الشعور مركباً من تمييز يهودي على بقية البشر ، وتميز حضاري غربي على بقية الأجناس البشرية بمعنى أن هناك عنصرين في هذا الشعور اليهودي : عنصر استمده اليهودي من تراثهِ وعنصر استمده من الغرب ، وكلاهما يقوى هذا الإحساس بالتمييز .

ويدفعنا هذا إلى القول بأن دخول إسرائيل في السلام مع العرب لا يعني أنها ستتخلى عن هذا الإحساس بالتمييز ، فهو شعور كما يبدو ليست له علاقة بالحرب أو السلام ،

وربما كان شعوراً ثابتاً لا يخضع للمتغيرات ، ولذلك فإسرائيل ستوظف هذا الشعور بالتميز لخدمة مصالحها بعد السلام وسيكون دليلها في التعامل مع العرب .

ومشروع الشرق أوسطية يمكن فهمه داخل هذا الإطار الخاص بالتميز ، وهو في نفس الوقت انعكاس لهذا النوع المركب من الشعور بالتفوق ، فهو مشروع إسرائيلي من زاوية ومشروع غربي من زاوية ثانية ، ولا ننسى أن الصهيونية قدمت مشروعها قديماً قبل قيام الدولة على أنه مشروع حضاري لمنطقة الشرق الأوسط ، فإسرائيل التي خلفتها الصهيونية حاملة الحضارة الغربية هي قاعدة حضارية غربية تعمل على تحويل منطقة الشرق الأوسط من منطقة متخلفة إلى منطقة متحضرة على يد الصهيونية ، وكان الإدعاء الصهيوني الأساسي بالنسبة لفلسطين هو الإدعاء الذي يصف فلسطين أنها «أرض بلا شعب» وهو أقصى ما يمكن أن توصف به منطقة أو بلد على المستوى الحضاري . فأرض بلا شعب عبارة معناها غياب المدينة وغياب الحياة وعدم وجود أي مظهر للحضارة لسبب بسيط وهو عدم وجود الإنسان الذي يصنع الحضارة ، أو بمعنى آخر أن فلسطين غابة تخلو من الحياة الإنسانية وأن هذا المشروع الصهيوني هو تحويل هذه الأرض إلى الحياة الإنسانية المدنية ، وهنا يوصف اليهود بأنهم «شعب بلا وطن» وهو الوجه الثاني للعملة فاليهود هم الشعب الذي سيحول هذه المنطقة إلى الحضارة والمدنية بل ، وإلى الإنسانية . وقد كان هذا قمة التفكير العنصري الصهيوني الذي تفوق على كل النظريات الاستعمارية القائمة على أساس من التميز ، فهذه النظريات رغم عنصريتها لم تتجاهل الإنسان الموجود على الأرض التي يراد استعمارها ، ولم يسبق لدولة استعمارية أن ادعت أنها تحتل أرضاً خالية من السكان أو لا وجود لبشر عليها .

وفي ظل مثل هذا التفكير يصعب على المحلل أن يتصور إسرائيل بعد السلام بدون عقدة التميز هذه . وإذا كانت هذه العقدة قد سيطرت على العقل الإسرائيلي زمن الصراع العسكري فكيف سيوظف هذا العقل هذا الشعور بالتفوق في زمن السلم ؟ هذا ما سنتناقشه من خلال استعراض الأبعاد الإسرائيلية لمشروع الشرق أوسطية .

البعد الثقافي للشرق أوسطية :

ولا يخلو مشروع الشرق أوسطية من أبعاد ثقافية عنصرية فهو مشروع يتجاهل أولاً ثقافة الشرق الأوسط الأصلية وهي الثقافة العربية ، ويحاول فرض ثقافة أجنبية على شعوب الشرق الأوسط . ويظهر الجانب الثقافي العنصري في رفض ثقافة الآخر وعدم الاعتراف بها كمحور للمنطقة ، وفرض معطيات ثقافة أجنبية عليها ، وتصدير قيم وأفكار تتنافى مع طبيعة المجتمع الشرقي ، ولا يتوقف المشروع الشرق أوسطي عند حدود فرض القيم الاقتصادية الغربية بل يسعى إلى تحقيق الاخراق الثقافي من خلال نشر قيم ومبادئ المجتمع الغربي^(١٥) .

وجدير بالذكر أن المجتمع الإسرائيلي لن يطرأ عليه تغيير في ظل فكرة الشرق أوسطية وفكرة ثقافة السلام ، فالوضع الثقافي في المجتمع الإسرائيلي سيظل على ما هو عليه معبراً عن وجهة نظر ثقافية غربية تسعى إلى تغيير الوضع الثقافي للآخر بدلاً من التفاعل ثقافياً معه ، فمثل هذه المشروعات موجهة إلى العالم العربي والإسلامي بهدف فرض السيادة الثقافية . وهي في نفس الوقت تمثل بدائل للصراع الذي لا يستطيع إسرائيل أن تعيش بدونه وبخاصة بعد أن تم تحجيم الصراع في شكله السياسي والعسكري والبديل هو أن ينتقل الصراع إلى دائرة جديدة مناسبة لعصر السلام وهي الدائرة الثقافية والاقتصادية .

وهنا تبدو فكرة الاندماج في حد ذاتها فكرة مخيفة للإسرائيليين وتدفعهم دفعاً إلى الابتعاد الثقافي والعزلة الثقافية عن المنطقة وللدفاع عن النفس تدفعهم إلى معاداة الثقافة الشرقية العربية ومحاربتها ومحاولة إخضاعها بدلاً من التكيف معها وهو الوضع الطبيعي .

وكلمة «الاندماج» كلمة لها تاريخ في الثقافة اليهودية فقد عاش اليهود دائماً وأبداً على هامش الثقافة الإنسانية لسبب رئيسي وهو أن الاندماج الثقافي اعتبر مهدداً للهوية

اليهودية، ولعل هذا هو الذي يشعر به الإسرائيليون الآن بعد بداية دخول المنطقة في عصر السلام، وبخاصة بعد أن تنحسر المشاكل السياسية العسكرية، ويبدأ التطبيع الفعلي والذي سينتج عنه الاتصال اليومي بالعرب من خلال علاقات رسمية مع دول الجوار أولاً، ومع بقية الدول العربية ثانياً .

وأخشى ما يخشاه الإسرائيليون هو هذا الانفتاح الذي سيحدث تلقائياً على العالم العربي والذي لا يمكن أن توضع له ضوابط سياسية، فحركة الأفراد والجماعات في اتصالها الطبيعي بغيرها لا يمكن أن يسيطر عليها أحد، فالإسرائيلي الذي يسير في شوارع القاهرة بعد التطبيع والسلام لن تستطيع حكومة أن تفرض عليه سلوكاً معيناً ولا تستطيع أن تضع لحركته الحرة ضوابط معينة تمنعه من الكلام مع الناس والتعامل معهم، والإعجاب بهم وبتقاليدهم والدخول في صداقات معهم والتأثر بهم والاندماج فيهم، وقد اعتبر الاندماج الشر الأكبر في الحياة اليهودية، وهناك مناسبتان في التاريخ عجز فيها اليهود عن مقاومة الاندماج. وكانت المناسبة الأولى والأقوى منهما في ظل الحضارة العربية الإسلامية التي شهد اليهود في ظلها أقوى اندماج ثقافي واجتماعي في حياتهم وفي تاريخهم بسبب ظروف توفرت في ظل الحضارة الإسلامية ولم تتوفر بنفس الشكل في ظل حضارات أخرى عاش فيها اليهود .

أما المناسبة الثانية المهمة التي وقع فيها الاندماج اليهودي فهي مرحلة الحضارة الغربية في العصر الحديث والتي كان تأثيرها الاندماجي قاتلاً للهوية اليهودية وهو أمر لم يحدث مع الحضارة الإسلامية. والدليل على ذلك أن اليهودي خرج من اندماجه في الحضارة الإسلامية محافظاً على هويته الدينية، ولم يفقد استقلاله الديني بينما خرج اليهودي من اندماجه في الحضارة الغربية الحديثة بلا دين أو بمعنى آخر خرج فاقدًا لهويته الدينية. فاليهودي الآن هو ذلك الإنسان الغربي العلماني المندمج على المستوى الاجتماعي، الذي تمثل في الزواج المختلط الذي لم يؤثر فقط على الهوية بل ضيع معالم الهوية الاجتماعية والعرقية لليهودي وللشخصية اليهودية^(١٦).

ومن المعروف أن مشروع الشرق أوسطية ليس مشروعاً جديداً يطرح لأول مرة كنتيجة من نتائج المتغيرات السياسية في منطقة الشرق الأوسط بعد الدخول في مفاوضات السلام العربية الإسرائيلية ، فقد تم طرح هذا الموضوع عدة مرات خلال العقود الأخيرة ، وبداية يجب أن ننوه أن هذا المشروع قديم قدم الحركة الصهيونية التي لا ننسى أنها قدمت نفسها للغرب على أنها مشروع ثقافي وحضاري لمنطقة الشرق الأوسط وليست مجرد مشروع سياسي لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . إن المتأمل في كتابات قادة الحركة الصهيونية الأوائل يدرك إدراكاً مباشراً أن الصهيونية لم تحدد نفسها داخل إطار الحركة القومية اليهودية الساعية إلى وضع نهاية للشتات اليهودي في العالم بجمع هذا الشتات في فلسطين ، بل إنها نظرت إلى نفسها على أنها مشروع حضاري مستقبلي للشرق الأوسط ، ولذلك لا نعجب إذا ما ظهرت في الوقت الحالي مشروعات مستقبلية للشرق الأوسط تعطي لإسرائيل الدور الأكبر المدعوم بواسطة قوى الغرب المختلفة ، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية .

إذا عدنا إلى الوراء ونظرنا في بعض الكتابات الصهيونية الأولى لوجدنا هذا المخطط الثقافي للمنطقة واضحاً كل الوضوح ومخططاً له منذ البداية ، وكان من الطبيعي أن يتأخر هذا الجزء من المخطط لصهيوني العام حتى تنتهي المشاكل السياسية والعسكرية التي خلقتها الصهيونية في المنطقة والتي نشطت فيها الصهيونية دبلوماسياً وسياسياً وعسكرياً من أجل إتمام احتلال فلسطين لتصبح ما سمي بالوطن القومي لليهود . وقد استغرق هذا الشق السياسي العسكري ما يقرب من قرن كامل لو حسبناه منذ انعقاد أول مؤتمر صهيوني عالمي في عام ١٨٩٧م في مدينة بازل السويسرية . والآن بعد أن أوشك الدور السياسي والعسكري على الانتهاء بدأ يظهر الجانب الثقافي الحضاري من المشروع الصهيوني .

وتبدو الصهيونية كمشروع ثقافي حضاري في فكر الزعيم الصهيوني موسى هس (١٨١٢ - ١٨٧٥م) وذلك قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول بربع قرن تقريباً ، فقد كان

هس أول مفكر صهيوني يحدد هدف الصهيونية في القيام بدور فعال في بناء عالم الغد ويقول أيضاً إنه من خلال المشروع الصهيوني ستصبح الأمة اليهودية رقيباً ومعلماً لشعوب الأرض . ولا شك في أن هذه العبارات تعكس تأثير الفكر الاستعماري الأوروبي الذي علل المشروع الاستعماري الغربي للشرق بأنه مشروع حضاري يتم نقل شعوب الشرق المتخلفة من خلاله إلى دائرة الحضارة ، وقد وصف هذا المشروع الاستعماري بأنه ضرورة لتغيير أوضاع الشعوب الشرقية ومن ثم فاستعمار شعوب العالم العربي والإسلامي ضرورة لبعث المدنية ونشر الحضارة الغربية حضارة التقدم والعلم والازدهار في مواجهة حضارات التخلف والفقر ، وما ينطبق على الشعوب العربية والإسلامية ينطبق على شعوب الشرق الأقصى وبخاصة الهند والصين واليابان وغيرها^(١٧) .

إن المفكر الصهيوني موسى هس يستخدم نفس العبارات الاستعمارية التي شاعت في الدوائر الاستعمارية خلال قرون الاستعمار الأخيرة وهي عبارات مأخوذة من فلسفات استعمارية تبريرية تعلل الاستعمال لإرضاء الضمير الغربي أولاً ولاقناع العقل الشرقي بالاستعمار ثانياً . ولعل من أشهر النظريات الاستعمارية التي طورت في ذلك الوقت نظرية القابلية الشرقية للاستعمار بمعنى أن الشعوب الشرقية يتوفر لديها الاستعداد الداخلي لأن ستعمر وأن الاستعمار يلبي هذه الرغبة الداخلية .

وهنا تقدم الصهيونية المرتبطة بحركة الاستعمار لعالمي نفسها بنفس المنطق الاستعماري ، وقد اتحدت أهداف الصهيونية وأهداف الاستعمار العالمي فيما سمي بضرورة الغزو الحضاري لمنطقة الشرق الأوسط ونشر المدنية الغربية في بلاد تم تصويرها على أنها مجرد صحراء جرداء لا حضارة فيها ويعيش فيها شعب متخلف ثقافياً وفي أمس الحاجة إلى المدنية والدخول في دائرة الحضارة على يد الصهيونية التي وصفت هذا الهدف بأنه واجب إنساني وضرورة إنسانية .

ويدخل ضمن هذا التفكير النظرية الصهيونية المتطرفة التي تبادت في وصف الحالة الثقافية أو الحضارية لفلسطين من أجل تبرير غزوها بإدعاء أن فلسطين «أرض بلا شعب» وأن اليهود «شعب بلا أرض». والأرض تنادي الشعب لكي يعمرها ويحولها من منطقة خربة خالية من السكان وغير مأهولة إلى بلد معمور مسكون صاحب ثقافة. واستعمار فلسطين صهيونياً وهو مدخل الصهيونية لتنفيذ الهدف الثقافي للاستعمار الغربي في كل الشرق الأوسط، وفي النهاية لا يمكن فهم المشروع الشرق أوسطي إلا داخل هذا الإطار التاريخي للاستعمار والصهيونية.

لقد تم طرح المشروع الشرق أوسطي كمشروع ثقافي وحضاري لمنطقة الشرق الأوسط منذ الثمانينيات وقبل أن يصدر رئيس الوزراء شمعون بيريز كتابه «شرق أوسط جديد» والذي أعاد فيه طرح المشروع في ضوء المتغيرات التي جددت على منطقة الشرق الأوسط بعد الدخول في العملية السلمية.

ففي عام (١٩٧٩م) طرح وزير المالية الصهيوني الأسبق يورام ميريدور مشروعاً شبيهاً بمشروع بيريز وذلك تحت مسمى «مشروع مارشال موسع للشرق الأوسط» ويتضمن إنشاء صندوق للتنمية رأسماله (٣٠) مليون دولار سنوياً ولمدة عشر سنوات مع إنشاء شركة قابضة يكون مقرها إسرائيل ويتم التمويل عن طريق الدول الرأسمالية الكبرى.

وفي نفس هذا العام تم طرح مشروع أمريكي للشرق الأوسط متشابه لهذا المشروع السابق، فقد أصدرت وكالة التنمية الأمريكية وثيقة شارك في إعدادها ثمانى وزارات وهيئات حكومية وعشر مؤسسات ومراكز بحوث علمية من بينها الأكاديمية القومية الأمريكية للعلوم. وقد أطلق على هذه الوثيقة اسم «التعاون الإقليمي في الشرق الأوسط» وهي بمثابة مشروع سياسي اقتصادي يسعى إلى إعادة تشكيل منطقة الشرق

الأوسط وإحداث تغييرات هيكلية وتشتمل على مشروعات عملاقة في مجال البنية التحتية والطاقة والمياه والإشراف والإدارة .

أما مشروع بيريز الشرق الأوسط فقد جاء في ظل متغيرات دولية مهمة من أهمها انهيار الاتحاد السوفيتي ، وقيام حرب الخليج ، وانطلاق العملية السلمية ، وكلها ظروف كانت مواتية لطرح مشروع بريز . فسقوط الاتحاد السوفيتي يعطي فرصة جيدة لعدم وجود مشاركة سوفيتية في المشروع الشرق أوسطي ينتج عنها نوع من التوازن الاستراتيجي الذي استطاع الاتحاد السوفيتي أن يحققه في الشرق الأوسط قبل أن يتحلل وينهار الاتحاد السوفيتي وتستطيع إسرائيل في ظل الهيمنة الأمريكية المنفردة أن تلعب دوراً كبيراً في ظل غياب قوة أخرى كبرى هي قوة السوفييت أنصار العرب التقليديين .

أما العملية السلمية فقد فتحت الطريق واسعاً أمام الحديث عن تطبيع العلاقات الإسرائيلية العربية . وقد أصرت إسرائيل على أن يبدأ التطبيع فوراً ولا ينتظر نتائج المفاوضات وأن على العرب أن يفتحوا على إسرائيل اقتصادياً ويبدأوا في الدخول في علاقات اقتصادية مباشرة تبدأ بإنهاء المقاطعة الاقتصادية . ولهذا بادر بيريز بطرح مشروعه الشرق أوسطي الذي دعا فيه إلى إقامة نظام إقليمي اقتصادي أممي يبدأ بإقامة مناطق حرة ثنائية وثلاثية تتسع لتشمل كل الدول العربية ، وكذلك إقامة مشروعات إقليمية ذات بعد استراتيجي بتمويل دولي . ويتضمن المشروع في مرحلته الثانية إقامة الصناعات الإقليمية من خلال هيئات دولية واتحادات مالية مستقلة ، وفي المرحلة الثالثة من المشروع يحدث الاتجاه إلى سياسة المجموعات الإقليمية مع التطوير التدريجي للمؤسسات الرسمية ، وينبغي أن تكون للمنطقة قوات تستطيع الرد على أي عدوان بقوة مؤثرة وذلك في حالة انقطاع القنوات الدبلوماسية مؤقتاً خلال فترات الأزمات .

ومن المعروف أن مشروع بيريز للشرق الأوسط الجديد اتخذ طريقه نحو التنفيذ في البداية من خلال الدعوة إلى عدة مؤتمرات اقتصادية ضخمة دعا إليها المنبر الاقتصادي

العالمي «دافوس» ، ويسعى المشروع إلى اندماج اقليمي يتجاوز القوميات ويهدف إلى شطب النظام العربي والقضاء على كل مشروعات الوحدة الاقتصادية العربية والمسايع إلى خلق سوق عربية مشتركة . ويسعى مشروع بيريز إلى تحويل إسرائيل إلى المركز الاقتصادي الأساسي للشرق الأوسط ، وأن تكون إسرائيل محور عملية الاندماج عبر الاتفاقات الثنائية ويعمل على ربط المنطقة بقوة الرأسمالية العالمي من خلال التمويل والمساهمة في المشروعات الإقليمية ، كما يهدف أيضاً إلى دمج إسرائيل في المنطقة من خلال العمليات الاقتصادية التي اعتقد أنها مفتاح نجاح العملية السياسية وبالتجاه بعد ذلك إلى التعاون الاقتصادي يسعى مشروع بيريز إلى اعتبار الاقتصاد هو الطريق إلى نجاح العملية السلمية^(١٨) .

ومن المعروف أيضاً أن مشروع بيريز توقف مؤقتاً بعد أن تلقى عدة ضربات تمت من خلال مقاطعة المؤتمرات الاقتصادية التي تمت الدعوة إليها وذلك بسبب إدراك عربي واضح بأن المشروع الشرق أوسطي مشروع صهيوني له وجهه الاستعماري ويعطي إسرائيل دوراً قيادياً في المنطقة .

علاقة الشرق أوسطية بالعولمة :

هناك علاقة أكيدة بين المشروع الشرق أوسطي ومفهوم العولمة . فالعولمة ظاهرة اقتصادية سياسية اجتماعية تحمل في مضمونها معاني الهيمنة والسيادة الاقتصادية والسياسية^(١٩) ، وهي المشروع الجديد البديل للنظام الاستعماري القديم ، ولكنه استعمار من نوع جديد وبأسلوب جديد .

ويلتقي مفهوم العولمة مع الاستعمار في مسألة مهمة جداً وهي مسألة التبعية ، فإذا كان الاستعمار قديماً يسعى إلى تحقيق تبعية الشعوب الشرقية للسيادة الاستعمارية واتباع نظمها السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، فالعولمة في معناها ومحتواها ما هي

إلا مشروع غربي لتحقيق تبعية الشعوب الشرقية للشعوب الغربية ، وربما يكون وجه الخلاف الرئيسي في الشكل المتبع أو الأسلوب الذي يحقق من خلاله الاستعمار التبعية المطلوبة عن الأسلوب الجديد الذي سلكته القوى السياسية الغربية من خلال العولمة .

فالاستعمار كان يعتمد على القوة العسكرية في تحقيق أهدافه السياسية والاقتصادية بينما أسلوب العولمة هو في فرض النظم الغربية من خلال شبكة علاقات عالمية تجبر كل دول العالم على الدخول فيها . . . إنه أسلوب تغيير النظم الاقتصادية وربطها بالتكنولوجيا الغربية وفرض نظام السوق وآلياته على شعوب العالم ، وإن العولمة نوع من الاجتياح الاقتصادي من قبل المراكز الرأسمالية الكبرى لحدود وأسواق ومجتمعات الدول الأخرى في العالم وتأتي في سياق تطور النظام الرأسمالي وآليات سيطرته على العالم .

ولا شك في أن الولايات المتحدة الأمريكية تنزع هذا النظام الدولي الجديد ، ويمكن القول بأن مشروع السوق الشرق أوسطية ما هو إلا جانب تطبيقي لسياسة العولمة مع تحديده داخل إطار دول الشرق الأوسطية بحدوده الواسعة التي تشكل إلى جانب الدول العربية وإسرائيل كل من إيران وتركيا مع اعتبار إسرائيل محور هذا السوق الشرق أوسطي ، وفي هذا تحقيق للسيادة الأمريكية الإسرائيلية على النظام الاقتصادي في الشرق الأوسط وتوجيهه لخدمة المصالح الاقتصادية الأمريكية والإسرائيلية .

وقد ساعد على انفراد الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل بهذا النظام الجديد في الشرق الأوسط انهيار الاتحاد السوفيتي كقطب اقتصادي ضخم وانتهاء التوازن الدولي الذي كان قائماً على أساس من القطبية الثنائية .

وتأخذ العولمة أيضاً معنى الأمركة في توجيه النظام العالمي تجاه القطب الأمريكي ، وذلك من خلال مؤسسات اقتصادية ضخمة تقف وراءها المراكز الرأسمالية الكبرى ،

وتهدف إلى تعميم النظام الاقتصادي الأمريكي وإزالة القيود والحواجز القومية في الاقتصاد أمام تدفق السلع وحركة الأموال والاستثمارات الرأسمالية لصالح الاحتكارات الكبرى في البلدان الرأسمالية إنها عولمة لا تسعى إلى تسوية الأوضاع بل على العكس إنها تسعى إلى تعميم تحكم قلة من الأمم على المراكز المالية العالمية .

لقد استخدم شمعون بيريز مصطلح «الشرق الأوسط الجديد» كعنوان للمشروع الاقتصادي والحضاري للشرق الأوسط ، وهذه التسمية لها دلالتها الواضحة فهي مرادفة للمصطلح الأمريكي «النظام العالمي الجديد» بل إنها كما قلت مجرد تطبيق للنظام العالمي الجديد على الشرق الأوسط لإدخاله في النظام العالمي وإعلان تبعية العالم للقطب الأمريكي ولإسرائيل التي تملك التكنولوجيا اللازمة للدخول في الشرق الأوسط الجديد كجزء من النظام العالمي الجديد .

لذلك لا نستغرب وصف السوق الشرق أوسطية بأنها مشروع أمريكي إسرائيلي لمنطقة الشرق الأوسط يربطها تماماً بالنظم الأمريكية الإسرائيلية .

هناك نقاط أساسية يلتقي عندها مشروع الشرق أوسطية بموضوع العولمة ، ومن أهم هذه النقاط أن القوى التي تقف وراء نظام العولمة هي نفسها التي تدعم مشروع الشرق أوسطية ، وهنا يبدو مشروع الشرق أوسطية كمشروع تابع للعولمة ويخدمها ، فالعولمة مشروع لخدمة الرأسمال الذي يتجاوز القوميات أو ما يسمى بالرأسمال فوق القومية ، وتعمل العولمة لصالح الدول الصناعية الكبرى التي تملك الشركات المتعددة الجنسية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، وموقع إسرائيل هنا موقع الوكيل الفرعي الذي يسعى إلى تحقيق إمبراطورية فرعية أي متفرعة من الإمبراطورية الكبرى التي تملكها الدول الرأسمالية الصناعية الكبرى^(٢٠) . إن الشرق أوسطية مشروع لخدمة هذه القوى مضافاً إليها إسرائيل كوكيل فرعي لها في منطقة الشرق الأوسط . وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية القوة الدولية الصناعية الأولى المحركة لمشروع الشرق أوسطية ، وقد

لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دور الراعي الأول للمؤتمرات الاقتصادية التي عقدت في إطار الشرق أوسطية بل إنها هي التي تبنت المسيرة الاقتصادية الخاصة بالشرق الأوسط .

ونلاحظ أنه قد تزامن طرح نظام العولمة الجديد مع طرح المشروع الشرق أوسطي ، بل إن الانتقال إلى تنفيذ المشروع كان نتيجة للشروط السياسية الإقليمية والدولية التي أدت إلى انطلاق العولمة الجديدة ، وقد ظهرت هذه العولمة الجديدة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وسعي الولايات المتحدة الأمريكية إلى خدمة مصالحها وأهدافها الاستراتيجية في تحقيق السيطرة على العالم سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً^(٢١) .

أما الصلة التي تربط العولمة والشرق أوسطية فهي تبدو في كون الشرق أوسطية مشروعا تابعا للعولمة بل هو وجه من وجوه تنفيذها في إقليم محدد هو الشرق الأوسط . وإسرائيل هنا كمحور للشرق أوسطية تؤدي دوراً وظيفياً ، فإسرائيل كانت في المقام الأول نتاجاً لمشروع استعماري استيطاني خادم للمراكز الاستعمارية الكبرى ومدعوم بواسطتها دعماً استثنائياً بوصفه أحد محاور السيطرة الاستعمارية في منطقة الشرق الأوسط ذات الأهمية المتنامية في استراتيجية المراكز الرأسمالية الكبرى ، وإسرائيل من إفرازات النظام الرأسمالي في النطاق العالمي والشرق أوسطية مشروع اقتصادي أمني سياسي يرسخ هذا المحور الاستعماري ويؤكد دوره الإقليمي في إطار استراتيجية عالمية^(٢٢) .

ومن أهم نقاط تلاقي المشروع الشرق أوسطي مع نظام العولمة الدور المشترك للمؤسسات والهيئات والمنتديات الاقتصادية المالية الدولية ذات النشاط الفعال الذي يسعى إلى إزالة الحواجز الوطنية وتحقيق الخصخصة الكاملة حسب شروط البنك الدولي ومنتدى دافوس الاقتصادي العالمي . فمن المعروف أن المؤتمرات الاقتصادية المرتبطة بمشروع الشرق أوسطية دعا إليها المنتدى الاقتصادي العالمي دافوس . ففي عام ١٩٩٦م

تم عقد خمسة مؤتمرات بدعوة من منتدى دافوس ، وهي مؤتمر القاهرة الشرق أوسطي ، ومؤتمر الهند والصين ، ومؤتمر لوسط أوروبا وأمريكا اللاتينية والمؤتمرات الأخيرة تم عقدها في إطار فكرة العولمة .

ويضم منتدى دافوس ألف شركة من أكبر الشركات العالمية التي لا يقل رأس مال كل شركة فيها عن مليار دولار ، وهو قمة اقتصادية عالمية تتوفر لديه جيوش من القادة المديرين والأكاديميين ورجال الصحافة ، وقبل مؤتمر القاهرة تم عقد المؤتمر الأول للشرق الأوسط وشمال أفريقيا في عام ١٩٩٤م بمدينة الرباط .

وهكذا يقف نظام العولمة الجديد وراء كل المشروعات الشرق أوسطية والمؤتمرات الاقتصادية الكبيرة التي عقدت ، ويتولى البنك الدولي دوراً قيادياً في البرامج الاستثمارية والمستهدفة في الشرق الأوسط ، وقد ترجمت هذه القوة الاقتصادية التي يمثلها منتدى دافوس العملية السلمية في الشرق الأوسط ترجمة اقتصادية ورأت فيها فرصة تجارية لا تعوض وأسرت الشركات العالمية إلى المشاركة في المشروعات الإقليمية الشرق أوسطية .

وهكذا يبدو واضحاً مدى ارتباط مشروع السوق الشرق أوسطية بالنظام العالمي الجديد ، وبالعولمة الجديدة التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية . ولعل أصدق تعبير عن هذه الصلة هو وصف إسرائيل بأنها وكيل فرعي لشركة كبرى تقوم لمشروعات هذه الشركة العالمية في منطقة الشرق الأوسط لتصبح إمبراطورية فرعية داخل إمبراطورية كبرى .

من النقاط الأساسية الأخرى التي يلتقي عندها مشروع السوق الشرق أوسطية بالعولمة نقطة أو صفة الاستقطاب في كل من العولمة والشرق أوسطية .

فالعولمة تقسم العالم إلى منطقتين ؛ منطقة استهلاك ، ومنطقة إنتاج . وفي منطقة الاستهلاك تتراكم كل مشاكل العالم الثالث من تخلف وفقر وتلوث بيئي ، وهي في نفس

الوقت منطقة العمالة الرخيصة ، أما منطقة الإنتاج ويمثلها الغرب المتقدم صناعياً حيث يتراكم رأس المال والسيطرة التقنية والإدارية والمالية والسياسية .

وتتوفر صفة الاستقطاب أيضاً في مشروع السوق الشرق أوسطية لإسرائيل تمثل منطقة الإنتاج والتقدم الصناعي والتكنولوجي وتتوفر فيها الخبرات الإدارية والمالية ، ويمثل العالم العربي منطقة الاستهلاك والعمالة الرخيصة والفقر والتلوث ، ولذلك يسعى مشروع الشرق أوسطية إلى تحويل إسرائيل إلى مركز مالي وإداري وقيادي إلى مركز عسكري وسياسي وأمني للمنطقة كلها^(٢٣) .

وتوضح الأوراق المقدمة إلى المؤتمرات الاقتصادية التي عقدت بشأن مشروع الشرق أوسطية أن هدف السوق الشرق أوسطي تنمية القطاعات غير المنتجة على حساب القطاعات المنتجة كالصناعات التي تحتاج إلى عمالة كبيرة وتقوم بتلويث البيئة وتصبح المنطقة حسب التقسيم الدولي للعمل منطقة خدمات وسياحة وعمالة رخيصة وسوق استهلاكية واسعة لصالح إسرائيل والشركات المتعددة الجنسيات . وهو نفس الوضع في العولمة حيث يصبح العالم الثالث منطقة خدمات وعمالة رخيصة سوقاً استهلاكية لمنتجات العالم الغربي المتقدم ، فالعولمة تسعى إلى توحيد السوق العالمي لصالح الاحتكارات الإمبريالية والشركات فوق القومية أي تعمل لصالح المركز على حساب الأطراف ولصالح الشمال على حساب الجنوب .

وهكذا أيضاً الشرق أوسطية تسعى لاستغلال ثروات المنطقة وطمس هويتها القومية والحضارية العربية لصالح إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية ، وتحويل شعوب الشرق الأوسط إلى أطراف بالنسبة للمركز وهو إسرائيل ، وفي هذا يعترف رئيس المفوضية الأوروبية إن إسرائيل ستكون المستفيد الوحيد في المنطقة من مشروع البنك الإقليمي الذي تم التفكير في تأسيسه خدمة لمشروع الشرق أوسطية ، وذلك لأن إسرائيل هي الوحيدة القادرة على الاقتراض من البنك الإقليمي بشروط السوق التجارية ، ولهذا

يتحفظ الأوروبيون على مشروع البنك الإقليمي لأنه لا يعمل إلا لمصلحة أمريكا وإسرائيل ، كما تحفظوا لنفس السبب على مشروع الشرق أوسطية^(٢٤) .

إن موقع إسرائيل في السوق الشرق أوسطية هو نفس موقع الولايات المتحدة الأمريكية في العولمة ، وقد لوحظ أن المشروعات التي تقدمت بها إسرائيل في المؤتمرات الاقتصادية المرتبطة بالسوق الشرق أوسطية كلها مشروعات ثنائية وثلاثية أي بين إسرائيل ودول عربية أو دولتين وهي جميعاً مشروعات في مجال المياه والسياحة والنقل والمواصلات ومركزها جميعاً إسرائيل ، ويلاحظ أن المشروعات المقدمة تقسم الشرق العربي إلى خمسة مراكز إقليمية وتحصر إسرائيل فيها على عدم التقاء مصر وسوريا أو الضفة بقطاع غزة ، والهدف فصل هذه المنطقة عن بقية الدول العربية^(٢٥) .

ويعترف مارتن إنديك مساعد وزير الخارجية الأمريكية بأنه كان يقوم بالترويج لإسرائيل في الوسط التجاري الأمريكي على أنها بوابة السوق الشرق أوسطية ، وهي بوابة تفتتح على حوالي ٣٠٠ مليون نسمة وإن تجربة إسرائيل في العلاقات مع الشركات العالمية الكبيرة تقلص من وحدة المخاطر التي تخوف منها الكثيرون في الشرق الأوسط .

ومن زاوية أخرى تبدو السوق الشرق أوسطية دخيلة ومقحمة على شعوب المنطقة وعلى تاريخها وعلى مسيرة التطور الاجتماعي والاقتصادي للمنطقة كما أنها لا ترتبط بمصالح شعوب العالم العربي ، بل ترتبط باستراتيجيات الإخضاع والسيطرة الأمريكية والصهيونية وبمطامع الرأسمال فوق القومي المتطلع للهيمنة على المنطقة وأسواقها ومقداراتها وثرواتها .

وهذا هو نفس وضع العولمة فهي تمثل فعلاً خارجياً مقحماً على بلدان الجنوب وعلى الدول التي تقع خارج المراكز الرأسمالية ، وتمثل تجاوزاً لمصالح هذه البلاد وتأتي من خارج السياق الطبيعي للتطور الاجتماعي والاقتصادي لهذه الدول .

إن الشرق الأوسطية باختصار ليست مشروعاً عربياً ولم تطرحه دولة أو جهة أو مؤسسة عربية بل هو مشروع مفروض على المنطقة من خارجها ولمصلحة إسرائيل فقط . إن الشرق أوسطية لا تمثل مصالح المنطقة العربية ، فهي مجرد قناة من قنوات النظام الدولي الجديد ، وهي بديل غربي إسرائيلي للنظام الإقليمي العربي ، وهي بهذا مشروع استعماري جديد مهدد للهوية العربية القومية والاقتصادية ومهدد للوحدة العربية وبخاصة في المجال الاقتصادي وسيؤدي إلى وضع نهاية لكل المؤسسات العربية التي تربط العرب سياسياً واقتصادياً وثقافياً .

تعتبر الشرق أوسطية قناة العولمة في المنطقة العربية ، وتلعب إسرائيل من خلال مشروع الشرق أوسطية نفس الدور الذي تلعبه الولايات المتحدة الأمريكية في مشروع العولمة ، فالمشروعان يحملان معنى الإخضاع والسيطرة والهيمنة ، فهدف الولايات المتحدة الأمريكية من العولمة إخضاع العالم لنظام دولي جديد تسيطر عليه أمريكا ، وهدف إسرائيل إخضاع العالم العربي لنظام اقتصادي ثقافي جديد تحقق من خلاله سطوتها على المنطقة في عصر السلام .

إن الشرق أوسطية كما عرضها شمعون بيريز في «الشرق الأوسط الجديد» ونيتياهو في «مكان تحت الشمس» ليس إلا عملية إدخال لإقليم الشرق الأوسط في إطار العولمة الجديدة من خلال إسرائيل كمركز أو محور للسوق الشرق أوسطية ، إن الشرق أوسطية مشروع إقليمي يتمحور حول مركز وسيط هو إسرائيل وهو مركز يرتبط استراتيجياً بالمراكز الرأسمالية المهيمنة على النطاق العالمي ، والهدف خلق تجمعات إقليمية جديدة مرتبطة بالمراكز الرأسمالية العالمية من خلال مراكز وسيطة .

وتلعب إسرائيل من خلال الشرق أوسطية دور المركز الوسيط بين الشرق أوسطية والعولمة ، وإسرائيل مهيأة لكي تلعب هذا الدور بسبب اندماجها الفعلي في العولمة الجديدة حيث تسيطر الاحتكارات الرأسمالية الأجنبية على الصناعات الأساسية في

إسرائيل وتشكل (٧٥٪) من الاستثمارات فيها ، ويشكل رأس المال الأمريكي (٧٠٪) من الاستثمارات الخارجية ، كما تسيطر الشركات الأمريكية المتعددة الجنسيات على الصناعات الأساسية في إسرائيل مثل صناعة الإلكترونيات وصناعة السيارات ومعدات السفن والصناعات الدوائية والصناعات المعدنية^(٢٦) . ولا شك أيضاً في أن البنية الاقتصادية الإسرائيلية تتناسب مع هذا الدور في الوقت الذي لا تتلاءم فيه البنية الاقتصادية العربية مع العولمة .

وهكذا يتضح أن مشروع الشرق أوسطية له ارتباطه الواضح بالعولمة ، وهو تطبيق لها على المستوى الإقليمي ، ومن خلال إسرائيل كوكيل أو وسيط للقوى الأوروبية والأمريكية المستفيدة من العولمة .

المراجع والحواشي

- (١) فيصل محمود الغرابية ، دخول العرب إلى القرن الحادي والعشرين ، ظروفه وشروطه ، مجلة شئون عربية ، عدد خاص عن «العرب والقرن الحادي والعشرين» العدد ١٠٣ ، سبتمبر ٢٠٠٠م ، ص ٥٦-٥٧ .
- (٢) حلمي شعراوي ، الشرق أوسطية ومآزق الوجود العربي في كتاب الشرق أوسطية مخطط أمريكي صهيوني ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ص ١٣ .
- (٣) فؤاد نهرا ، الوطن العربي وتحديات العولمة : بين واقع التجزئة وضرورة الوحدة ، مجلة معلومات دولية ، العدد ٥٨ خريف ١٩٩٨م ، دمشق ، ص ٦٩-٧١ ؛ وانظر أيضاً : عمر مقداد ، الصراع بين العولمة والهوية ، ص ١٠٣-١٠٤ .
- (٤) محمود حيدر ، مفهوم السيادة بعد الحرب الباردة : الدولة المعولمة ، مجلة معلومات دولية ، العدد ٥٨ خريف ١٩٩٨م ، ص ٤٧-٤٨ .
- (٥) حلمي شعراوي ، الشرق أوسطية ومآزق الوجود العربي ، مرجع سابق ، ص ١٤ .
- (٦) المرجع السابق .
- (٧) موسى الضير ، العولمة ومفهومها : بعض الملامح ، مجلة معلومات دولية ، العدد ٥٨ خريف ١٩٩٨م ، ص ١٦ ؛ وانظر أيضاً : فيصل محمود الغرابية ، دخول العرب إلى القرن الحادي والعشرين : ظروفه وشروطه ، مجلة شئون عربية العدد ١٠٣ ، سبتمبر ٢٠٠٠م ، ص ٥١-٥٢ .
- (٨) محمد الخضير ، العولمة والهوية ، التهميش يهدد الموروث الثقافي للأمم ، مجلة معلومات دولية ، العدد ٥٨ خريف ١٩٩٨م ، ص ٩٢-٩٤ .
- (٩) المرجع السابق ، ص ٩٥ ؛ وانظر : حمدي عبدالرحمن حسن ، العولمة وآثارها السياسية في النظام الإقليمي العربي ، رؤية عربية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٢٥٨ ، أغسطس ٢٠٠٠م ، ص ٢٠-٢١ .

- (١٠) محمود شومان ، التحليل الثقافي الحضاري لإدارة مجلس الأمن للأمة الليبية الغربية ، مجلة مستقبل العالم الإسلامي ، العدد ٩ ، عام ١٩٩٣ م ، ص ٩ - ١٠ .
- (١١) محمد الخضر ، العولمة والهوية ، التهميش يهدد الموروث الثقافي للأمم ، مجلة معلومات دولية ، العدد ٥٨ خريف ١٩٩٨ م ، ص ٩ .
- (١٢) المرجع السابق .
- (١٣) محمد سعد أبو عامود ، الاستجابة العربية الإسلامية المطلوبة للتحدي الحضاري الغربي ، مجلة مستقبل العالم العربي ، العدد ٩ ، عام ١٩٩٣ م ، ص ١٢٣ .
- (١٤) محمد خليفة حسن ، الشخصية الإسرائيلية ، دراسة في توجهات المجتمع الإسرائيلي نحو السلام ، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ١٩٩٨ م ، ص ٤٣ .
- (١٥) المرجع السابق ، ص ٣١ .
- (١٦) انظر : محمد خليفة حسن ، الشخصية الإسرائيلية ، ص ٨٩ - ٩١ .
- (١٧) محمد خليفة حسن ، الحركة الصهيونية وعلاقتها بالتراث الديني اليهودي ، مركز الدراسات الشرقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٩ م .
- (١٨) محمد خليفة حسن ، الشخصية الإسرائيلية ، ص ٤٣ - ٤٤ ؛ وانظر أيضاً : نيفين عبد الخالق مصطفى ، المشروع الشرق أوسطي والمستقبل العربي ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ١٩٣ ، مارس ١٩٩٥ م ، ص ١٣ - ١٤ .
- (١٩) محمد رشاد الشريف ، العولمة والمشروع «الشرق أوسطي» مجلة معلومات دولية ، مركز المعلومات القومي بسوريا ، العدد ٥٨ ، خريف ١٩٩٨ م ، ص ٣٤ .
- (٢٠) المرجع السابق ، ص ٣٧ .
- (٢١) المرجع نفسه ، ص ٣٧ .

- (٢٢) المرجع نفسه ، ص ٣٧ ؛ وانظر : يوسف صسايف ، منظور الشرق الأوسط ودلالاته عربياً ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ١٩٢ ، ص ١٦- ١٧ .
- (٢٣) محمد رشاد الشريف ، وانظر : سالم توفيق النجفي ، الإشكالية الاقتصادية الشرق أوسطية : رؤية عربية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٢٠٩ ، يوليو ١٩٩٦ م ، ص ١٥ .
- (٢٤) المرجع نفسه ، ص ٣٩ .
- (٢٥) المرجع نفسه ، ص ٣٩ .
- (٢٦) المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

Islam
and the Dialogue
of Civilizations

*Islam
and the Dialogue
of Civilizations*

Volume II

**King AbdulAziz Public Library
Riyadh 1425 - 2004**

*The
Foreign Researches*

1. Islam and Other Civilisations	
Dr. Arif Hussain	1
2. Nationals and foreign workers in the Gulf Cooperation Council States : Cultural pluralism in the making	
Dr. Andrzej Kapiszewski	35

ISLAM AND OTHER CIVILISATIONS

Dr. Arif Hussain^(*)

1. INTRODUCTION

Before I write even a word, I must confess that I am not a scholar or an investigator of the multifaceted phenomenon of Islam, nor of the innumerable streams of human experience that it has created or broadened. I approach Islam as none other than one of countless followers of this path. I do know however that, for me Islam is a living historical, cultural and religious link spanning my past, my present and my future. Its values continue to guide me, comfort me, chastise me and then to offer me forgiveness and peace. I take up my pen with great trepidation. To paraphrase the great Islamic thinker and scholar, Professor Wilfred Cantwell Smith, may Allah forgive me if my words misrepresent my people or my faith. If on the other hand, they contribute to their awareness of the task ahead, may He only be praised.

The topic of this paper should be particularly appealing and challenging for any thinking Muslim. It appeals because it reinforces the idea of a united and vibrant community against the rest of the world, and recalls the glories of Islam's past to depressed hearts: conquests, splendid social and economic reforms, and explosions of scientific and philosophical discoveries which made the Islamic Civilisation synonymous with human progress, welfare and emancipation.

The challenge posed by the topic comes precisely because it lulls and comforts. For this very reason it may also divert from the central task facing

(*) Director, Accession Division, World Trade Organization, Geneva, Switzerland.

the international Muslim community today - re-establishing the relationship and relevance of Islam to the problems and prospects of today's world. The task is daunting one, Earthly success seems more readily available to civilisations and peoples who are, at worst, perceived as actively opposing Muslim communities and, at best, disregarding them as backward and, therefore, irrelevant. The modern day Muslim sees a gap between his religious and cultural convictions and the world around him. The challenge he has to surmount in order to survive and prosper is to close or rather bridge, this gap by reviving the positive and bold dynamism that the Islamic force inherently represents. This will be the theme that, in all humility, I shall try to come back to time and again in this paper.

My starting-point will be the concepts of Islam and civilization, particularly as seen from the above perspective. Before we come to what Muslims have done, thought and achieved over the centuries, it is relevant to recall what Islam itself is as a religion, a faith, a way of life and, more importantly, a motivating force for individual Muslims and Muslim societies the world over.

Like all Muslims, I turn for guidance to the *Holy Koran*, and, in this Book, to the *Surat-ul- Fatiha*. These seven most repeated verses have been variously referred to as the *Sab'aal-mathani*, *Umm-ul-koran*, *Al-Kafia*, *Al-Kanz*, *Asasul-Koran* etc. When stripped of artificial layers of sophistry, interpretive logic and, the arguments of the later commentaries styled *Tafsir-bir-rai* (written over centuries by competing schools of theology, or intended to support extra-Islamic concepts like nationalism or patriotism) the message is stark, simple and direct and, for these same reasons, majestic and over-arching. The starting-point is itself revealing of where Islam stands in respect to the human race. The prayer contained in the *Surat-al-Fatiha*, is addressed to *Rabb-ul-Alamin*, Lord of all creations, and not, as we tend to believe these days, to *Rabb-ul-Muslimin*.

The second attribute used for God is *Malik-I-Yawmiddin*, or Master of the Day of Recompense. By recompense is meant requital as a natural result

of man's own deeds. Requitel is not a notion based on Divine Revenge or Anger, but on Justice as the natural consequence of human acts, good or bad. The great mistake that we have often made in our approach to the concept of *Allah* is to regard him as the God, not of love, but of terror. The very first word of the *Surat-ul-Fatiha* sets right this age-old deviation from the truth when it begins with the *Hamd*, a term signifying the most beautiful form of praise. "Praise beautiful" is only possible with reference to a Being truly beautiful and good. Such praise cannot, therefore, sustain terror. It is Logical, therefore, that after the *Hamd*, the Receiver of human praise be clearly described as *Ar-Rahman-ur-Rahim*.

The *Surat* does not present the Straight Path, or the *Sirat-al-Mustaqim*, as an abstract or complicated notion, but as a concrete reality: namely the road followed by those on whom Allah has bestowed favour as a result of their actions. In his prayer, the Muslim seeks the protection of Allah in his anxiety to keep to this path. What he asks for is the privilege to walk on a path which has meant the happiness of all mankind, and not on a path which has led to their ruin.

The overall effect of the total prayer contained in the *Surat-al-Fatiha* is reflective of a mind imbued with universal compassion and *Allah* as the God of universal compassion. The large-heartedness of the Islamic message spans regions, civilisations, peoples and communities. Muslims, like other human beings, are only favoured or rejected in line with their sincerity of pursuit of the clear markers which the *Koran* lays down, and which are also the commonly accepted norms of endeavour aimed at achieving human Brotherhood. In this important sense, the Muslims cannot claim to be a "chosen people" selected by God for any Divine honours, privileges or protection to the exclusion of their fellow human beings. The Islamic position is, therefore, radically different from the Jewish position.

Under these broad limits of guidance and inspiration, what should we make of the rather well established notion in our modern-day world of an

“Islamic Civilisation”? For that matter, what is one to make of any civilisation, be it based on Christian, Jewish, Hindu, Buddhist or other religious systems?

Though often used inter-changeably, the term “civilisation” is, of course, much wider and deeper than the term “culture”. The latter is only one aspect of the former. A “Civilisation” implies a diversified, yet commonly evolved, pattern of social, economic and artistic experience, including religious, philosophical, historical and literary traditions. In terms of time, a “civilisation” has a much more gradual and long drawn and, therefore, persistent presence and identity. Cultures, or human living styles, on the other hand, can, and often do, change rapidly including from one generation to the next. Changing cultures, like modes of dress, eating habits, family and clan organisations or relationships do not mean changing civilisations, and cultures tend to change many times within the same civilisations.

In addressing the notion of Islam and other civilisations I will attempt to draw from some specific historical experiences. I will look at the specific example of the Indian experience, before considering more generally the historical progress of Islam and the relationship between Islam and the West. My conclusion aims to draw lessons for the modern Islamic Society in its relationship with the world of today.

2. THE INDIAN EXAMPLE :

The Indian civilisation, inspired by the system of beliefs broadly referred to as Hinduism, is unique due to its experience of integration with and tolerance of other religions. Before considering the experience of Islam in the Indian Sub-continent, I will also look at Buddhism and Hinduism.

- Buddhism :

Indian history is concrete proof that civilisations are not based solely on religious factors. Buddhism, the most successful and popular protest movement against a decaying, rigid and formalistic brahmanical order, virtually disappeared as a distinct philosophy and religion from the land of its birth, India. On the other hand, it thrived in starkly different and conflicting forms and cultures across Bhutan, Burma, China, South-east Asia and Japan where societies and peoples adapted it to satisfy their own specific cultural needs. The Buddha himself was bestowed divinity even though his message revolved on the central proposition that man himself, and not any artificially created Deity, was the arbiter of his destiny. *Ahmisa*, or the creed of non-violence, the Buddhist creed, was turned on its head as powerful monarchs and traditionally militaristic societies adapted the Buddhist creed for obvious political, social and economic gains.

Powerful and socially arrogant monk orders and traditional meat-eating based on animal sacrifices - both discouraged by the Buddha - became the norm in so-called Buddhist societies. Pali, the simple language the Buddha had used to preach to the masses, and, soon after, the more stately Sanskrit, became obsolete. The original highly sophisticated existentialist message of the Buddha became more and more incomprehensible to the man on the street, and was replaced by the usual formal rituals of chant and temple worship. In an interesting twist of history many centuries later, Mahatma Gandhi, himself a devout Hindu, used the Buddhist concept of non-violence as the hallmark of the Indian Independence Movement which set the model for the liberation of Africa, Latin America and many parts of South-East Asia. By this stage, the integration of Buddhism into the Indian Civilisation was complete.

- Hinduism :

The evolution of Hinduism is not that of a religion in the codified, structured way in which we normally understand the term. Hinduism has evolved over centuries, adjusting and adapting to challenges from inside and

outside. The process of adjustment was invariably a process of absorption and, consequently, of almost genetic alterations from time to time. We have seen how even the Buddha, who was the most effective rebel against the Brahmanical Order, ended up being a Deity in the Hindu pantheon of Gods.

In modern India, Hinduism continues to evolve and change with the times. It is certainly no accident that despite temporary lurches of fundamentalism and almost fascist aggression towards the so-called "non-Hindu" communities, the Hindu way of life is irrevocably moving towards sustaining and accommodating a multilingual, multi-cultural, multi-racial and, more importantly, a multi-religious national population of more than one billion people. Artificially created movements designed to put together a monolithic Hindu civilisation have failed before, and will continue to do so because this idea goes against the tide of history.

For the same reason, it is no accident that, despite all kinds of traumas and growing pains, India has remained democratic and secular, with the citizens' rights and equality guaranteed by unquestioned constitutional authority rather than religious sanction. Despite their serious differences, the Hindu, Muslim, Christian and other communities in India know in their hearts that secularism, equality and democracy are not luxuries, but essential for the very survival of India as a modern, respectable nation in which all have vital stakes. Hinduism, which represents the cultural, religious and social aspirations of the vast majority of the Indian people, has learnt this lesson. Islam in the Indian Sub-Continent is in the process of doing the same. Major challenges of bringing all this together lie ahead, but at least they have been identified and are being positively - and painfully - addressed.

- Islam :

I have chosen to discuss the Indian experience at some length for three reasons. The personal reason is that I represent one of the 120 million

Muslims who stayed on in India after the creation of the Islamic nation of Pakistan and, later, that of Bangladesh. The second reason is that the experience of Islam in the Indian Sub-Continent is surely unique in terms of Muslim communities, old or new, almost anywhere else in the world, and there are consequently important lessons to be gained from it. The third is a more general reason, i.e. my conviction that the Indian experience is a useful case-study of what invariably happens whenever civilisations come into contact with one another.

As far as Islam is concerned, as important element of the Indian experience is the size of the Muslim population. The Indian, Pakistani and Bangladesh Muslims together constitute the largest body of Muslims in the world. Like the mix of population anywhere in the world, the presence of Muslims in the Indian Sub-Continent can be traced to three different sources: conquest, immigration and conversion. In the Indian Sub-Continent, these three factors also caused a mingling of different racial stocks in a manner totally beyond social, political or even cultural control.

Of the three sources, conquest was perhaps the least important. The most that can be said for conquest in terms of conversions is that it created the opportunity. The second source, immigration, constituted a process of slow and spasmodic infiltration by families and individuals, basically immigrants from Central Asia, Afghanistan, Iran, West Asia and the East Coast of Africa. There were also migrations from one part of the country to another. Overall, however, although such movements of population may have had a cultural or economic significance, they were small in number.

The vast majority of the Indian Sub-continent's Muslim population of today is a direct consequence of the third factor, i.e. conversion. The main agents of conversion were not force or coercion but the influence of the Sufi mystics. Most of the large-scale conversions took place in the fifteenth and sixteenth centuries. The driving force was the same as elsewhere- the dynamic and eclectic reforming spirit of an egalitarian Islam appealing to

the downtrodden, the dispossessed and the exploited classes in closed and inward looking societies like those in pre-Islamic India.

Another element in Islam's Indian experience is the evolution of a totally new Muslim culture. The Indian Sub-continent's Muslims are inheritors both to India's pre-Islamic traditions and history and to Islam's involvement in it. In fact, this is always true of the intangibles of tradition. History never opts out. The Sub-Continent's Muslims are heirs to not only concrete assets and institutions, wherever these may be geographically located, but also, more subtly and even perhaps more importantly, to the special "Indianness" of their cultural, philosophical, linguistic and social attitudes.

Because of this unique, multicultural and multi-racial heritage, the Muslims of the Indian Sub-Continent have their own identity when compared with their Arab, Turk, Malaysian or Indonesian brothers. Before the Indian experience, and indeed after it, Islam had never confronted the task of incorporating such ethnic and linguistic diversities within its framework. Their uniqueness will ensure that Indian Muslims continue to be major players in the evolution of a truly global, forward looking Islamic approach to the modern world. The majestic contributions of Islam in India in painting, literature, philosophy, architecture, as well as dress, cuisine and music, have undoubtedly made the fabric of an universal Islamic Civilisation more enchanting, fascinating and vibrant. Equally, these contributions have given a flavour to the Indian Civilisation which it did not possess before.

What is often forgotten, however, is that in all these spheres of creativity and innovation, the mind and heart may have been Muslim but, more often than not, the hand and tradition non-muslim. Whether they like it or not, both Muslim and non-Muslim inhabitants of the Sub-Continent are partners to shared traditions, developed through a long interaction of two highly sophisticated cultures. The Muslims of today, in the Sub-Continent or elsewhere, cannot wish this experience away. Nor should they, because

doing so would be denying the natural process of human growth and development.

This cultural, religious and social intermingling of the Muslim and the non-Muslim, that produced the multifaceted successes to which both participant and observer are still adjusting, has been one of a long series of metamorphoses which have shaped the evolution of both the Indian and the Islamic civilisations. The Muslims brought to India Arab, Iranian and Central Asian languages, and sophisticated forms of dress, cuisine and jewellery. All these acquired new heights of splendour by undergoing an "Indian transformation". The same process was repeated when Islam came into contact with Africa, South East Asia and elsewhere.

This intermingling and recreating is the essence of historical movements. Many hundreds of years earlier India was invaded by Alexander of Macedon, which had led to the establishment of Greek settlements in Western India under the Eastern Satrapies of Seleukos Nikator and others. These settlements were small, concentrated and innocuous when compared to the whirlpools of activity and thought provoked by invasions elsewhere. Most of the original settlers went back, but their progeny and their heritage lived on in geographical pockets. History witnessed, however, that even this limited interaction soon led to the creation of strikingly unique forms of art, and to new ideas in literature and philosophy. With the passage of time, all of these became part of the Sub-Continents' subconscious psyche. In the "Gandhara" School of Art, for example, centuries before Christ, the Buddha was seen depicted more like a Greek God with a perfectly proportionate body and curly locks, rather than in his usual form as the traditional austere renouncer. This was the same experience that the Muslims had in the Indian Sub-continent many centuries later, though in this earlier case the heart may have been Buddhist or Hindu, but the hand of the artisan or painter was inspired by a foreign tradition.

3. ISLAMIC CIVILIZATION:

Because of the limited scope of this paper, I have dwelt only on some of the many fascinating aspects of the Indian case. Hopefully, even this limited exposé has helped in making the general process of the expansion and evolution of civilisations somewhat clearer. The metamorphoses that the Islamic Civilisation went through are similar to those of the Hindu or, more broadly speaking, to those of any other civilisation. This notwithstanding, Islam's expansion must still be considered more vibrant and creative. For example, despite its adjustments to change, the Indian Civilisation, led by the Hindu ideal of detachment, has had serious difficulties in dealing with the task of tackling the complications of the material world. The pleasures and sufferings of this life have been traditionally looked upon as *Maya*, or illusion. Both are considered distractions from man's fundamental aim which is to secure the soul's release from the body's needs and desires and guide it to its merger with the Supreme Consciousness. Most of the reforms that have occurred in the Hindu social system or in the organisation of Hindu society have been the result of a kind of "survival instinct" reaction forced by outside pressures.

- Rise of Islam:

Islam, on the other hand, is first of all a dynamic and simply enunciated recipe for social reform, and for rectitude, honesty and fairness of human conduct in worldly affairs, and for the direction of all human activity towards the understanding of Allah's immutable laws, even though it is known that they will always remain only partially revealed. For the Muslim, therefore, the material world around us is not only real but worth discovering, cherishing and improving in the direction of the Divine Path. Salvation in Islam is admittedly by faith, yet it is faith in the validity of works.

Given these two fundamental differences in approach it is no accident that, unlike the Indian Civilisation, the phenomenon of Islam spread further and wider, and actively participated in changing cultures and civilisations as

diverse as the African, the Christian, the Iranian, the Central Asian, the Indian, the Chinese and the South-East Asian. Islam today has behind it some fourteen centuries of history. There are probably at least another thirteen centuries to go. Who knows what the future has in store for Islam and, indeed, for the world. Looking at the past, however, it is safe to say that even in mid-life Islam has evolved, generally successfully, into becoming a genuinely global civilisation. This is an amazing departure from its monolingual and mono-racial origins. Islam has seen changes, evolutions and internal adjustments that have been stressful or bitterly divisive. Major internal and external conflicts and wars have often tested the very basic cementing factor, the concept of the Muslim Brotherhood.

At the best of times, evolution is a difficult process. In Islam's case, the challenge to adjust and evolve and become concretely relevant for the daily lives and happiness of growing numbers of the world's population has been infinitely greater because of the very rapidity of its expansion. Too rapid and too early a success brings with it its own trauma. This is even more the case here when the expansion we are talking about here is not just a long-continuing wave of military and political successes. Many pre- and post- Islamic cultures and civilisations had achieved such successes. The remarkable features of the Islamic movement were, firstly, its spectacular bursting upon the world scene, and, secondly, its capacity to back this up with a sweep of scientific, cultural, philosophical, literary, artistic and metaphysical activity which dazzles the world even today.

This alone would be sufficient to establish the credibility of Islam in the eyes of the citizens of the much older and established civilisations of Egypt, and later of Rome, Constantinople, Iran, Central Asia and China, not to speak of Europe and, of course, Jerusalem. But in addition to the wave of creativity and innovation, the Muslims brought with them a revolution of social, economic, judicial and administrative reform designed to reorganise societies on the basis of objective justice and honesty. National boundaries

melted away. Traditional social divisions created by outdated and exploitative hierarchies based on caste, feudal privilege, creed, sex or religion were systematically demolished. As stated earlier, conversions to Islam in the non-Muslim majorities occurred not due to political pressure, but to the refreshing avenues of decent living that were suddenly opened up for the dispossessed, the outcast and the social pariahs through Islam's rigorous application of equality and fair play in the conduct of human relationships.

In all these respects, the emerging Islamic Civilisation became, and to a large extent still remains, a bridge between the Old and the New Worlds. It brought, for example the Old Greek and Roman traditions of law, philosophy and knowledge to the new Western and non-Western worlds by interpreting and further developing them through rigorous enquiry, thus making them relevant for modern minds. In so doing, a rapidly expanding Islamic Civilisation put its distinctive stamp on the present and the future. In the process of time, Islam itself changed and the civilisation became progressively richer.

- Lessons: Clash or Interaction:

What are the lessons and conclusions we can draw from the few examples from history that we have just seen? Is it at all possible to draw any general conclusions as we make our way through the broader evolution of human history? Can we see, for instance, any pattern in the past to make it easier for us to understand where we stand now and, what we might do to procure a better future for the human race? I believe this is the fundamental duty of any student of history and, indeed, of any human being no matter which creed or race he may belong to .

Some broad conclusions are possible even at this stage. Cultures and civilisations, like human beings, cannot be kept artificially alive. They live or die in accordance with their vivacity and, in this case, vivacity must mean

their capacity to be able to adapt to new challenges and to new knowledge and, thereby remain relevant to the living needs of the population. Secondly, what we have seen in terms of the interactions of Islam and the Indian Civilisation would be exactly the same, in pattern if not in the finer details, as Islam's interaction with the West, with China or with Africa. Indeed, they would be the same even for the West, and for any culture or civilisation that come into contact with the world outside.

For the historian or the philosopher, there is no such thing as dramatic clashes of cultures or civilisations of the kind Professor Samuel Huntington has talked about or prophesied. Even wars need not and, most often do not, represent clashes of cultures or civilisations. They tend rather to be provoked by conflicts between vested interests and socio-political groups within cultures or civilisations, rather than between them. One might go even further by venturing to say that phenomena like Jihad or the Crusades are very rare deviations from the norm, and even when they do occur or are publicly declared by governments and politicians, they tend often to be convenient rallying cries for preserving or achieving thoroughly non-religious gains economic, feudal, territorial, political or nationalistic. This was true of the Gulf War, the crises in the Balkans and, it might be argued, of the Jihads and the Crusades of the Middle Ages. All civilisations have seen recurring internal upheavals. It can be quite safely predicted that they will continue to occur in the future. A constant churning over of the traditional order goes hand in hand with the process of evolution and growth.

This leads us to what I believe to be the fundamental question. If civilisations do not clash, what is the process of their meeting? Historically speaking, this process might, perhaps, best be described as an almost imperceptible and gradual movement of intermingling and mutual influencing. When this continuous chain of interaction is broken down in terms of centuries or decades, an almost cyclical pattern emerges of

“dominant” and “recipient” cultures or civilisations, with both sides changing roles regularly as a result of various inter-linked factors.

One vital factor, which we have already talked about, is the capacity of a civilisation to present a socially dynamic and universally relevant message of reform and betterment. This was the root cause behind the success of a defenceless Christian movement against the all-powerful but hopelessly decrepit Roman Empire. For the very same reason, as we have seen earlier in this paper, Islam, with its revolutionary message of socio-economic and political reform based on egalitarianism, swept before it the tired and moribund societies of the West, as well as the feudal and repressive regimes of the East and the South.

In their approach, Christianity and Islam were, and still are, quite similar. Both are inclusive not exclusive, in their doctrines. Both have therefore won many adherents quite readily in their process of growth and evolution. On the contrary, Judaism has always sought cultural, religious and social solidarity through the inculcation of an “us versus them” psyche. In fact, the reason why a religion and culture based on uncompromising inclusiveness is still alive today in a modern, integrated world, might be seen in Judaism’s success in converting its historical rival - the Christian West - into its biggest ally, protector and promoter. The result has been that the Jewish culture flourishes today an integral part of the Western Civilisation. Having said this, it must also be emphasised that due to its exclusive nature, the Jewish culture, despite its ancient roots, has never been able to graduate to the level of a civilisation that could influence history in any universal sense.

- Islam and the West:

Turning again to the theme of the Christian, or Western, Civilisation and its Islamic counterpart, it would be worthwhile investigating the dynamics of interaction at somewhat greater length. Both have seen

spectacular growth, and both have dominated and been dominated by each other, experienced mid-life fatigue and in all these phases, grown together or apart depending on how creatively each has succeeded in responding to the challenge of maturing. There are also some important differences. Islam is the younger of the two and, therefore, historically less experienced. In addition the early years of establishment and consolidation were radically different in each case. The early Christian years saw repression, persecution and suffering - an experience that led to an internal toughening. Systemic hostility promoted cultural and moral discipline, and patient persistence. Even more importantly, it sowed the seeds of self-questioning and self-criticism which, in subsequent centuries, led to frequent upheavals and wars within the ranks, but also kept the wheels of socio-economic and political development moving along. As history has shown, this proved, in time, to be the West's greatest asset.

If we examine the early years of Islam we see, in contrast, a dynamic force bursting upon the world, and instantly gaining spectacular successes on every front. The early Muslims were seen as taking on the whole burden and opportunity of government and of cultural creation in the noblest sense. They executed this assignment with great distinction. Soon they began to look upon the society they had created with justifiable pride. Their norms of government, their judicial system, their administrative and social order was acknowledged by all as the best the world had seen. From this, the next step was easy to take - namely that Allah had acted through Islam and that those who accepted this position and set out to live in accordance with Islam had visibly received His Blessing through being granted success in this world.

In the words of Professor William Cantwell Smith, History seemed to confirm faith. If the Muslims of that period drew this conclusion they seemingly had sufficient reason for it. Even logic seemed on their side. Ironically, however, in this very conclusion lay also the genesis of all their future problems of adjustment and growth. The truth is that History keeps moving on, and has its inevitable ups and downs. Early success made the

trauma of subsequent reversals and crises even greater. The sacking of Baghdad in 1256 by the Mongols marks, perhaps, the formal end of the classical Muslim period. The date, is of course, only one of many milestones down a continuing highway. Arab culture continued to flourish for at least another two centuries, particularly in areas not ravaged by the Mongols, including in Spain. Nonetheless with the fall of Baghdad, it was clear that the first - and what Muslims consider the most glorious - phase of Islamic History had come to an end.

Amazingly enough Islam's built-in resilience overcame this first crisis. Indeed, Islam reacted creatively to the challenge. The world soon saw a second Islamic renaissance. Islam's conquerors were, in turn, conquered and the Islamic Civilisation began to flourish afresh, this time in Persian and in Turkish forms. These forms were different from the Arab forms in many ways. For example the governmental framework changed with the Sultan replacing the Khalifah, and the link between the temporal and the spiritual became much weaker. A different approach was similarly to be seen in areas like political theory, economic structure, social organization, cultural and aesthetic values and even religious matters. The rise of Sufism and its impact on Muslim and non-Muslim societies produced its own changes resulting in the creation of an Islamic system which, in many ways, is still incomprehensible to the Arab tradition.

Be this as it may, it must be granted that the Islamic system won the battle to survive by instigating amazing adaptations and adjustments to come to terms with an altered set of historical circumstances. The result was that the nadir of the thirteenth century was almost immediately followed by a new zenith in the sixteenth century. Muslims were, once again, seen as powerful, wealthy and characterized by majesty and splendour. In Morocco, Istanbul, Isfahan and Agra, there were centres of science, philosophy, culture and trade out-rivalled each other while the outside world watched in amazement.

As events turned out, this second wave of upsurge proved more short-lived than the first. A serious decline set in all round - politically, militarily, commercially, intellectually and even artistically. The vibrancy and force of commitment that had, for centuries, become synonymous with Islam began to visibly ebb and this time, seemingly irreversibly. Even the majestic Sufi movement began to show fatigue by drifting away from its heights of mystic visions of compassion towards the level of sterile superstition.

More traumatically, this overall decline in the Islamic Civilisation, set in at the same time as the Western Civilisation, was launching perhaps the greatest burst of human innovation and creativity seen by man. Indeed, we are still, historically, in the process of seeing one successive wave after another of breath-taking ideas implemented through unprecedented technological and scientific breakthroughs that are changing the lives of human beings in every country, every society, every town and every village. Never before in human history has domination by one civilisation over the world appeared to be so complete and all embracing.

Before it became evident, it must be said that the resurgence of the West had begun quietly and gradually during the very centuries when it had faced dispirited subservience to the creativity and rigour of Islam's multifaceted achievements. Indeed, it was the internal strife and loss of direction during this period that provoked the radical reform process that the West so desperately needed to deal with the crisis. These internal reforms would have been, perhaps, unthinkable in stable and successful times. Ideas such as the separation of the Church and the State, the disbanding of a decadent feudal order, the rise of the merchant class setting the stage for the diversification and expansion of economic capacities, the constitutional principles of equality before the Law, technological revolutions like the printing press and numerous other innovations, laid the foundation for a successful future.

History works through movements imperceptible to the human eye until they are almost completed. In the case of the West, as in others, this long process of systemic overhaul was motivated by an almost independently emerging consciousness among the people that the existing system had out-lived its utility and could no longer meet the requirements of its members. As with humans, the primeval instinct to survive never fails to provoke action.

To complete the chronology of events, the fifteenth, sixteenth and seventeenth centuries saw a resurgent West meeting a declining Islamic Civilisation, at first tentatively, but gradually more aggressively and confrontationally. Eventually, the famous epithet used for the disintegrating Ottoman Empire- "the Sick Man of Europe" - could be widened to reflect the confusion and depression of the Muslim mind in general. By the end of the eighteenth century, the writing was clearly on the wall. With the Russians in Central Asia, the French in Africa, the British in India and elsewhere, Muslim society had clearly become dependent upon forces outside Islam.

It is not possible for me, within the scope of this paper, to dwell upon the many fascinating aspects of the interactive process between the Western and Islamic Civilisations. The picture we arrived at in the nineteenth century remains, by and large, still valid today. The modern period of Islamic history begins with the same kind of introspection, internal confusion, disorder and the need to cope with external challenges that the West had earlier experienced and has now so completely overcome. As in the case of the West, Islam is now in the middle of an adjusting and reforming process of movement within the Islamic system. Here too, we see an almost unconscious realization creeping up the existing order is not able to provide Muslims with a road map for the journey ahead. Some remedial changes are already visible. Modern Islam is, for example, learning to cope with the potentially divisive, inherently combative and, incidentally, completely

un-Islamic concept of nationalism which it has imbibed from the West through cultural osmosis.

4. CHALLENGES FOR ISLAM TODAY:

As a result of the same process of osmosis, modern Islam must also cope with other wide-ranging ideological and cultural Western incursions into its traditionally orthodox societal framework, incursions which include fundamentally important and potentially explosive concepts like women's liberation and constitutional rights, to social by-products like cuisine, music and fashion. Interestingly enough, this is the same range and package of incursions and tensions that a resurgent and vibrant Islam brought in its wake when it came into contact with closed civilisations and cultures many centuries ago.

Like these civilisations and like, indeed, the West itself when it was regrouping and modernizing to cope with the external challenge, the Islamic society of today is learning that change will come whether it likes it or not, and that the options are either to ignore the challenges and run the risk of marginalization or tackle the challenges and engage actively in directing change to ones' best advantage. This is the lesson from history. The choice is stark, brutal and clear, and should make the task easier rather than more difficult to focus on.

I believe that the challenges and tasks the Islamic Civilisation faces in today's world are neither unique, nor insurmountable, nor a matter for despair. History moves in cycles and waves. The same experience has been encountered by all major world civilisations. The Islamic Civilisation itself has undergone the experience in its earlier phase of evolution. Defensive posturing is therefore not only inappropriate but also dangerously diversionary because it tends to postpone essential decisions and make the impact of change imposed from outside even more traumatic.

A particular series of historical events in late Ottoman history comes to mind to illustrate this point in a rather quaint manner. During his various researches, the famous historian, Professor Arnold Toynbee, came across a curious reference in a United Kingdom blue book while surveying the social and economic state of Egypt in 1839. The reference was to the effect that in the city of Alexandria at that date, the principal maternity hospital was located within the precincts of the naval arsenal. Being provoked to investigate further, Toynbee discovered that the starting-point was the Ottoman governor-general of Egypt, Mohammad Ali Pasha's desire to develop a modern navy on the contemporary Western model, but in Egyptian naval dockyards, and with Egyptian hands. Mohammad Ali realised that his dream could only be realised by hiring Western naval architects to train his Egyptian apprentices and he proceeded to invite Western candidates to Egypt by offering them handsome scales of pay and emoluments.

The Westerners proved willing to come only if their families could accompany them and also if they were assured medical facilities up to contemporary Western standards. This demand forced Mohammad Ali to hire Western doctors to attend to the naval experts' wives and children and, very soon, this led to the maternity hospital in question being established in its very unusual premises. Mohammad Ali's intention behind this decision was, of course, to limit and contain the contaminating effects of western contact. Not surprisingly, however, the fame and competence of the Western doctors soon spread to the local populace and, gradually, orthodox, covered Muslim women began venturing inside the precincts of the naval arsenal to avail themselves of the services of "infidels", causing a radical violation of the Islamic code of decency in the conduct of social relations between the sexes.

Nobody would have been more taken aback by this turn of events than Mohammad Ali Pasha himself. Nothing could further amplify the way

civilisations and cultures interact and mingle with one another. Nothing could more clearly demonstrate the phenomenon that in the game of cultural intercourse, a policy of "this far and no further" works only up to point. To artificially protect or cosset a culture, or even a code of ethics, is to render it weaker and less stable. Protection of this kind can only be justified for the unhealthy or terminally ill. In cultural interchanges one thing invariable leads to another until the entire gamut of change is exhausted. Change cannot be delayed or diverted, nor can attitudes or codes or philosophical positions be saved from facing the rigours of competition. Not much more elaboration is needed, I believe, to prove these points. The experience of the Egyptians and the Turks in the nineteenth century is now being repeated in the twentieth and the twenty-first centuries, and this not only in Islamic societies all over the world, but in India, China, Japan and other parts of South-East Asia and even in the increasingly multicultural, multi-religious and multilingual societies of the West itself.

The Muslims of today must show the same boldness of vision and directness of action that their predecessors did in meeting these challenges. If they fail this critical test, modern Islamic society is likely to go further and further down the intellectually sterile route of staking a claim to respect in the twenty-first century merely on the grounds that they had glorious achievements in the fifteenth. This would not only be a historically absurd position but an insult to the very essence of the Islamic spirit. Here, we turn full circle and return to my opening paragraphs: the dilemma facing Islam today and the road ahead.

As the Muslims of today look ahead to plan their way forward and set future targets of development, the lessons of the past must be analysed, cited and used as best as possible. In fact, this has always been the Islamic approach. The Holy Koran itself has used history to point the Muslims to the pitfalls and diversions that felled their predecessors and that can be repeated only at their peril. It is, therefore, hardly an accident that

historiography and the rejuvenated discipline of objective enquiry are gifts of the Muslims to the modern world. It is in this same context that this paper has attempted to point to some important milestones and twists and turns down the road that the Islamic movement has travelled these recent centuries.

- External Factors: Globalisation:

While the lessons of the past are important, an analysis of how the present varies from the past is also important. The thinker or policy maker must consider both if his prescription for the future is to be meaningful. We have dealt with the past. Let us now turn to the present. What are some of the novel aspects facing Islam today? The most important that comes to mind is that we are living in the most comfortable and the most complicated of times. It is true, for example, that the Western Civilization, backed with unprecedented military and technological power, dominates the world. However, it is equally true that international society cannot be described as being unipolar or even multipolar. In fact, the world today is being managed by a web of national, sub-regional, regional and intra-regional interests that tend more towards conflict than towards co-ordinated or shared action. The “comfort” of the post-World War II order in which there were known friends and known enemies is no longer available to policy makers and statesmen. The Cold War and the era of military confrontation and deterrents has been replaced by intensified economic and commercial competition with a much larger number of increasingly competitive national economies vying with each other for their share of the global economic pie.

The burst of information and technology has made human life easier and healthier than ever before. However, it has also brought in its wake the phenomenon of globalisation. Any half-serious observer of world history will admit that globalisation, as a movement, has been with us for a long time. Conquests, wars resulting in mass transfers of populations and assets and, more recently, the colonial phase have all been contributory factors.

And yet for various reasons, this same phenomenon has, today, acquired an intensity and acceleration which has made it a more or less traumatic experience for developing countries alike. National boundaries have blurred. Practices and policies ranging from national development and employment generation programmes to human rights programmes, hitherto considered mainly domestic and in the domain of national sovereignty, are now increasingly subject to international supervision and questioning. The same is true of traditional, social, cultural and moral norms, which are changing with rapidity beyond comprehension.

On the political side, the picture is very much the same. The international order symbolised by the United Nations and Bretton Woods Systems is openly questioned for its repeatedly demonstrated ineffectiveness to formulate any kind of meaningful consensus among nations on dealing with the pressing political, military and economic tensions bedeviling the world. Even worse, there is an apparent failure of these institutions to resist the pressure from the powerful to serve, when needed, as vehicles for launching partisan international adventures for reasons of strategic interest.

The phenomenon of globalisation and these related concerns has made insecurity rampant. Suspicion runs high between nations, societies and individuals. Trenches are dug deeper in the "defence" of civilisations, cultures, national economies' domestic industries, the environment, moral and social values, and the list can go on. The overall picture of the world today presents one of a motor car speeding down a highway with hundreds of passengers squeezed inside, each fighting for access to the steering wheel. What we have before us is the inevitable fallout from our collective incapacity to cope with or digest a far too rapidly changing political, social and economic environment. National institutions and structures which have hitherto organised people's lives are struggling to keep up with the relentless pressure of change. The clamour for newness is universal. What is less clear is the direction needed.

Today Muslims, like all other humans, see a jungle before them. Unlike the others, however, the Muslims have still to raise their consciousness to a level which will enable them to see the world's dilemma and analyse it in general terms rather than in a restricted inward-looking sense. The main reason for their incapacity is their lingering nostalgia that, until recently, they had controlled this jungle and even succeeded in taming it. This nostalgia diverts them from the central task, i.e. the need to define a new role for themselves in a world system in which the rules of the game are no longer familiar.

Let me take just one example. In their entire history, the Muslims have either had complete political power or none at all. Never before have they had to share political power with others, or live together with other communities as constitutional equals. The concepts of secularism and democracy in independent India imply just this for the Indian Muslims. The Muslims in present-day India constitute among the largest Muslim populations in the world. They are, nevertheless, a minority within a citizenry that has an overwhelmingly large majority of non-Muslims. In a system so structured the properties, languages and religion of the Muslim minority will be guaranteed not through the *Sharia* but invariably, as in India's case, through the Western principles of equality and non-discrimination before the Law. Modern Islam must learn to live with these situations and, indeed, encourage and support them.

In varying shapes and forms, the Indian phenomenon is also to be seen on the international stage, and here too there is no escaping the conclusion that for the foreseeable future at least the Islamic Civilisation will have to live with, develop and prosper in partnership with the rest of the world. And, again, for the foreseeable future, this world that will not be totally within their control and will, for some time, seem to be at a more advanced level of development. Isolation, or knee-jerk reactions such as fundamentalist posturing will not only be counterproductive but futile. What

Muslims are asking for by way of participation in the international system are the twin principles of democracy and equity. They cannot afford to put themselves in a position of being seen as defending these principles externally, but ignoring them internally.

- Internal Factors: Direction of Islam :

This leads us to what I consider the central task before us. Apart from dealing with the jungle outside, there is the even more pressing challenge of tackling the jungle within. As we have just seen, the first task cannot be successfully addressed if the second is neglected. Historically, the Islamic civilisation has always led by example. It must now rekindle its fire to find anew its place in the world. Living civilisations must re-establish their credibility again and again to survive because, unlike wealth, property or worldly assets, respect and prestige are neither inherited nor automatically passed on from generation to generation.

Admittedly, the task of regenerating the internal spirit of the Islamic society is a difficult one. The onslaught being experienced by Muslim society today has had a much more serious, confidence shattering effect than is visible at first glance. The challenge that the Islamic society faces now lies principally in successfully countering the internal confusion and the insecurities that have conditioned Muslim thinking, institutions, and even religious and non-religious literature.

What Muslims must face up to and deal with is not so much that the Islamic vision remains unfulfilled, but that the vision that they have always cherished and pursued may appear to be invalid or ineffective in terms of sustaining a life of dignity and success in the international arena. This assault on the inner power of the essential truth that Islam represents comes invariably from the younger generation of Muslims, swamped by the Western media and by the opportunities of economic advancement outside the system in which they were born.

Under the above circumstances, it is perfectly understandable if, in recent years, Muslim society has felt itself entrenched, besieged and unfairly blamed for the ills of the world. The Western civilisation, which dominates the New World, and other civilisations, which came into contact with Islam, still nurtures memories of the influence of Islam. The Crusades, for example, remain a lingering memory and, more importantly, a memory of an enterprise gone hopelessly awry. More generally speaking, for most of the non-Muslim world of today, the harsh reality of history is that Islam has been the only global phenomenon to which they have lost people, empires and domains and traditional spheres of influence. The result has often been that in their many dealings with Islamic societies today and, particularly when addressing the range of political, security and economic issues that concern the Muslims, the resentment of the past defeats is too evident.

In tackling this situation, the Muslims should, once again, look to history for guidance. In the past, the Islamic civilisation managed to hold its own against the West, and even surpass it in creative glory, due to two main factors: the virility of its system and the acquisition of sophisticated technology. These are the very same factors which are behind the dominance of the West today.

Regarding the virility of the Islamic system, numerous references have already been made to the pioneering spirit of the classical and post-classical stages of the Islamic civilisation. It has also been noted that the nineteenth and twentieth centuries have seen Islam in disarray, despondent, confused and singled out for violence and attack by a unity of assorted antagonist forces. It is always possible to counter external attack and vilification if there is a strong living, internal commitment. When there is internal disarray and division, dealing with the external world becomes more difficult, if not impossible. In recent decades, Muslim religious thinkers, historians, scientists and sociologists have been concentrating on building internal confidence and commitment in Islamic society. While this is certainly needed, this drive has been gradually taken to such great lengths that the

defensive reaction seems now to have become almost a dominating feature of the modern Muslim's psyche.

- Example: Islamic Literature :

I will try and illustrate this point and its negative implications through the example of Islamic literature. Let us start at the beginning. The pioneering spirit of Islam, urging Muslims to spare no effort to acquire knowledge is symbolised by the Holy Koran itself. The Prophet consistently exhorted Muslims to seek out new knowledge and apply it with wisdom and commitment. Islamic life constituted a striving towards God's Immutable Laws rather than achieving or maintaining success in this world. Success and failure are parts of the same trial to which the Muslim is subjected and the aim in both cases should be steadfastness to the ever unfolding but always inscrutable Divine Plan.

Knowledge in Islam was traditionally viewed as a tool for men who seek to prepare themselves for the life to come. Al-Ghazzali described a man who took his knowledge as a means to increase his wealth or to boost his influence or increase his following as one overcome by Satan. The Classical Period of Islam was, by and large, characterised by intellectual realism and stark honesty. We have seen how this fire continued to inspire Muslims to achieve new heights. It was no accident, therefore, that this was also the age of discovery, invention and genuine intellectual and social growth right up to the Eighteenth century.

In recent years, through a gradual process of deterioration, Islamic writing has become more apologetic in tone and spirit. By this is meant that the treatment of history or any other subject is increasingly an attempt to glorify the past and to depict the present as grim only because the recipe of past successes has been forgotten, neglected or violated. Even in the case of the sciences - hitherto the strongest point in Islam's overall contribution to the world's welfare - the story is the same. The market is full of studies

emphasizing the point, sometimes as a result of laborious background research, that Western science is nothing but a borrowing from the Islamic. Western writings are often read by modern Muslims, not in terms of whether they are illuminating or not, but whether they praise the Islamic society and its achievements or are adverse to it. To an objective observer, particularly a Muslim, we seem to have arrived at a situation where the adventurous pioneering spirit of the original Islamic movement has been, quite literally, turned on its head.

A specific example will, hopefully, illustrate this point more clearly. In an early study in 1957, Professor William Cantwell Smith made a rather revealing comparison between the writings of two successive and eminent editors of the highly reputed journal of the Azhar in Cairo. Their writings reveal their different approaches to history and to what the Islamic message should mean to the Muslim and, indeed, to the non-Muslim. The first editor in question was Sayyid Muhammad al-Khidr Husayn, a classical scholar at Al-Azhar. He was in charge of the journal from 1930 to 1933. The succeeding editor was Muhammad Farid Wajdi, a modernist, who managed the journal from 1933 to 1952.

In the mind of Khidr Husayn, though Islam is, and would always remain, the true religion, it was also a transcendent idea which man would never succeed in fully comprehending. The Prophet himself had repeatedly stressed that he had not been revealed the totality of the Islamic message and that he did not want to venture beyond what he had been told.

In line with this inspiration and the Prophet's implied message to the community that humility and untiring striving were the most important prerequisites for a Muslim, Khidr Husayn's central theme was that Islam, *per se*, needed no defence and that the task was more to ascertain the truth and expound it. In his writings Husayn exhibited little or no nostalgia for the past. His interest was in the practical application of Islam in the present and the future, and the accent was on active participation and social betterment

centring on integrity of personal character. There was also a remarkable degree of self-criticism, at the personal, material and international levels, a criticism even of Islamic history.

In brief, under Husayn, the journal's policy and *raison d'être* was that though Islam is Divine Guidance, groups who, out of error or ignorance, had misused it for personal or self-centred interests had corrupted it. The same tone of intellectual honesty and meticulous reporting was to be seen in the writing of even the relatively less known classical writers of that time at Al-Azhar. What struck Professor Cantwell Smith greatly was their total lack of hesitation in admitting ignorance or confessing past mistakes, both of which are the hallmarks of truly great minds.

Let us now turn to the second editor, the eminent scholar Farid Wajdi. For him also, the starting-point was the same as Husayn's, i.e. that Islam is the true and right religion. This having been granted, Professor Cantwell Smith discovered a contrast in approach and spirit on every front - on the understanding of Islam as well as on the needs of modern Muslim society.

With Wajdi, the accent on Islam seemed to shift to emphasising the Message, not so much as a moral imperative to be pursued, but as a concrete set of ideas and a heritage to be stoutly defended. The aim was clearly to convince and reassure the reading public, and bring them back into the fold. His treatment of all subjects (whether it is poetry, welfare or democracy) was motivated by the same urge - to build a case in favour of Islam and "to ward off doubts". Wajdi, for example, called upon his readers to oppose the materialist school of thought and attack scepticism. His reaction to the West fell broadly into two groups: one citing instances of Western praise for Islam, and the other identifying and replying to criticisms. To Professor Cantwell Smith, it seemed that this love-hate relationship was symptomatic of a lack of self-confidence. Also, since Wajdi seemed to have adopted the standards and yardsticks of the West in forming his judgements, Islamic society seemed to be suffering from an inability to form, and live by, genuine value judgements of its own.

The accent on defence and the approach claiming the continuing validity of Islam on account of its past greatness is typical of the apologetic approach. Taken beyond a point, it is also dangerously unproductive. Unwittingly, such an approach strikes a note of despair. Unfortunately, for the modern Islamic Civilisation, and for Islam itself, the apologetic approach of the forties and fifties has gradually penetrated deeper and deeper into our thinking and way of life. Even the great thinker and visionary Ullama Iqbal, who provided the philosophical inspiration for the creation of Pakistan, was not entirely immune to the temptation.

The reasons for this are many, and some have already been referred to. Whatever they may be, it is now urgent that we arrest this trend and prevent it from becoming an addictive habit. Continuing further down this road would make any constructive or forward - looking thinking or internal reform almost impossible. It would also breed fossilisation, and cause an increasing separation from reality.

Take the example of the thirteenth century writings of even the hostile Western chroniclers of the Crusades. Jean de Joinville, who accompanied king Louis of France in his campaigns in Egypt during the fifth Crusade, consistently held up the high level of the religious and social achievements of the Muslims to provoke and shame the contemporary Christian society into undertaking internal reform. Instances of personal honesty and integrity motivated by a deep faith in Islam have been elaborated in detail.

The picture extends to technology as well. In the Egyptian campaigns, Jean de Joinville describes the deadly effect that the fire arrows of the Muslims had on the defences and morale of the Crusaders. These balls of fire, which he called "Greek fire", were fuelled by naphtha transported from Azerbaijan to Damascus and Egypt. This is also the first known occasion when Naphtha was put to such use. Opposing this superior technology of the Muslims were outdated arms and organisational methods. Jean de Joinville has graphic description of king Louis helplessly appealing to God to protect him and his people against the Muslim attacks.

By the eighteenth and nineteenth centuries, we see the equation between Islam and the West reversed. In Napoleon's invasion of Egypt, or later, during the siege of Bokhara by the Russians, it is the Muslims who were seen as praying helplessly for Divine Guidance against the superiority of Western technology and prowess.

The experience of the thirteenth century and that of the eighteenth and the nineteenth have the same conclusions for the modern day Muslim. The first is that worldly existence is a series of shock treatments and that success is no more than a capacity to learn from them and move on. The second is the rather self-obvious but often neglected lesson that Divine Guidance and prayers can only help those who have the courage and sagacity to help themselves. In these two conclusions, modern Islamic society has before it the pithiest of descriptions of the crisis it currently faces and the way forward.

5. CONCLUSION:

The world has changed radically since the fifties. As discussed earlier, modern life is full of uncertainties and contradictions. The phenomenon of globalisation has touched every human being in one manner or another. Muslim society, like most societies who find themselves on the outer fringes of the mainstream of growth and development, complain about the unfairness and brutalities of an external environment over which they have no control. But dissatisfaction is no substitute for corrective action. Let us begin to look at ourselves for discovering the reasons why things have gone so seriously wrong.

We might, for example, turn the phenomenon of globalisation around and look at it from the angle of the present state of affairs of Islamic society itself. An objective student of history looking at Islamic society today cannot help but conclude that modern Islam, as a social force, has not so far risen to the challenge of meeting the day-to-day survival needs of individual

Muslims in a global Islamic society which is multi-racial, multilingual, multi-regional and, of course multicultural. Despite these diversities, Muslims the world over remain bound together by the concept of an Islamic Brotherhood. This concept is based on their unconditional faith in Allah and the Holy Qoran, and their complete commitment to the Prophet. These tenets have proved to be a miraculously cementing factor behind the idea of an Islamic civilisation and they are likely to retain their vibration for the foreseeable future.

Tremendously beneficial though this in-built advantage is for Muslims trying to forge ahead in an integrated manner in these confusing times, the idea of the Muslim Brotherhood needs to be built upon and given practical shape and form to guide individual Muslims in dealing with the problems of their daily existence. Failing this, the concept of Brotherhood would soon begin to mean no more than empty service. To be meaningful it has to be translated into tangible programmes of social reform designed to elevate the living conditions of the ordinary Muslim the world over.

Functioning Islam today, for example, is riddled with sterile customs and hierarchical systems that have nothing to do with the religion, but have become second nature to us because of negligence and mis-guidance by our leaders and scholars. Muslim society has reached the stage that the common man regards these customs and practices as part of the religion and, therefore, binding on every Muslim. To end this endemic confusion, radical surgery is needed particularly when the need of the hour is to eliminate archaic or retrogressive rituals of social customs which are obstacles. A genuine living unity must be created in place of the formalistic attitude currently in vogue. Such a unity cannot be rigid. It cannot be imposed from above. To be meaningful, any unity has to be dynamic and relevant to the actual living conditions facing individuals who are supporting the collective unity. The Holy Prophet foresaw this and, quite appropriately, made *Ijma*^c a central pillar of managing worldly affairs. It is only through *Ijma*^c that we

can hope to achieve success in progressively investigating and striving forward in the direction of God's laws (Shari'at Allah) (justice included).

Our modern day challenge within the Islamic world is, therefore, to ensure as best as possible that each Muslim nation and each Muslim citizen can participate in formulating the Big Consensus, thus granting it the ability to take into account and deal with the tremendous diversity of the Muslim world. This means a fundamental change in our attitudes and an honest look at how Muslims are governing themselves, even in societies where they do have full political and economic control. In essence, this means providing each other genuine equality of opportunity, human rights and the freedom for self-expression within the parameters of an Islamic Unity created, and constantly evolving, through the Ijma^c process.

This is the same challenge that faces Muslim countries as a whole in respect to participation in the making of history in universal terms. They have to contribute to it in concrete terms and, therefore, guide its evolution.

Historically Islam has always integrated with, influenced and been influenced by other cultures and societies. Muslims have always been searchers for new challenges and new knowledge. Today, Muslim society again stands to benefit by engaging its traditional spirit, inspired by the Islamic principles of the Fiqh and Sharia, to a changing world while retaining its special identity.

Nationals and foreign workers in the Gulf Cooperation Council states.

Cultural pluralism in the making

Dr. Andrzej Kapiszewski^(*)

outline: The Gulf cooperation council states (Saudi Arabia, Kuwait, Bahrain, Qatar, the United Arab Emirates and Oman) constitute an excellent area in which to examine the interaction of various civilization, cultures and religions, and the consequences of the processes set in motion through those interactions. Due to the ambitious economic development goals these Arab countries have pursued in the last few decades, a substantial proportion of the population of each of these countries comprises foreign works. In fact, foreign workers make up almost 40 per cent of the total population of the region, in Qatar and the UAE, foreign workers make up as much as 75 per cent of the national population. Consequently, the GCC states are today among the most heterogeneous countries in the world.

The GCC countries represent a unique model of cultural pluralism. The population of these countries are strictly structured and the sub-populations enjoy different legal rights. While nationals hold highly privileged political, social and economic positions , immigrants are temporary residents only, and are, in most cases, denied the possibility of obtaining citizenship even after lengthy periods of residence. Despite the fact that the presence of a large number of foreigners poses certain security, political, economic, social and cultural threats, and while mistrust sometimes marks the relations

(*) Director, Department of Middle East and Far East Studies, Jagiellonian University, Cracow, UI Jamowskiego, Poland.

between nationals and immigrants, in general these two groups live in peace. In most countries, the authorities have not forced foreigners to follow local habits, and diverse cultural practices by different groups are tolerated in the private domain. In Islamic Gulf states, contact among the members of what are often very different civilizations has rarely resulted in conflict.

Text of the presentation at the Symposium :

Introductory remarks:

I am a scholar from Poland. The problems discussed at this conference are of great interest not only to the people in the West and in the Islamic world, but also to people in East-Central Europe. There are at least two explanations for this interest: 1) Recently, in the last decade, we experienced tragic wars in the Balkans. The origins of these conflicts were hotly debated. Were they the result of clashes between civilizations? 2) The countries of East-Central Europe are on their way to joining the European Union. Many people are worried about the consequences of doing so; specifically, they are concerned about the impact that closer contact with Western civilizations will have on their countries and cultures. In particular, the deeply religious populations in Eastern Europe are afraid of the more secular, more materialistic West. On the other side of the continent, many people in Russia or Byelorussia fear the spread of Catholicism in their countries. Inter-religious conflict is also present there. We, in East-Central Europe, would like to know what should be done to avoid conflicts with others, to maintain peaceful relations with people of different cultures, religions, and nations. The discussions at this symposium give us a lot to think about.

Poland is a country of traditional tolerance. Through the centuries, people of different religions persecuted elsewhere found shelter in my country, Muslims included. Therefore, it is not surprising that the current Catholic pope, John Paul II, comes from Poland. In fact he was a student

and professor at my university. This Polish Pope is praised around the world for his involvement in inter-religious dialogue. It is worth recalling here that in September 1997 he greeted in Vatican HRH Prince Sultan bin Abdulaziz.

On the 6th of May, 2001, John Paul II delivered a speech in the Great Umayyad's Mosque in Damascus. He addressed "Dear Muslim Friend", calling for a common dialogue for the good of our human family. What he said there seems to be worthy to recall at this Symposium:

It is important that Muslims and Christians to explore philosophical and theological questions together, in order to come to a more objective and comprehensive knowledge of each others' religious beliefs. Better mutual understanding will surely lead, at the level, to a new way of presenting our two religions not in opposition, as has happened too often in the past, but in partnership for the good of the human family. Inter-religious dialogue is most effective when it springs from the experience of 'living with each other' from day to day within the same community and culture... The positive experiences must strengthen our communities in the hope of peace; and the negative experiences should not be allowed to undermine that hope... As members of the one human family and as believers, we have obligations to the common good, to justice and to solidarity. Inter-religious dialogue will lead to many form of co-operation, especially in responding to the duty to care for the poor and weak.

The discussions at this Symposium are devoted to the issue of dialogue between civilization, mainly in the context of the current tensions between the so-called West and Islamic world. When this issue is discussed, politicians, journalists and experts usually cite examples such as the relation between Israel and the Arabs, between the United States and the Taliban's' Afghanistan, between Iraq or Iran. I would like to talk about the dialogue between civilization that is occurring, or may occur, in different setting, in the so-called GCC states. I would like to comment on the relations between various national communities living in the oil monarchies of the Arabian

Peninsula, and the impact of Western civilization on the people of these countries. Three weeks ago, on February 26th, the Gallup Organization presented polling results regarding attitudes in several Islamic countries toward the West, and the United States in particular. Gallup conducted interviews in nine Muslim states including Saudi Arabia and Kuwait. Western media widely reported that only 12 percent of respondents said that the West respects Arab or Islamic values, and that just 7 percent stated that Western nations are fair in their perceptions of Muslim countries. What struck Western observers was that as many as 36 percent of the people interviewed in Kuwait said that the attacks on the World Trade Center were Justified. Further, as 64 percent of respondents in Saudi Arabia expressed unfavorable opinions of the United States. Similarly, 52 percent of people interviewed on March 12, 2002, by "Al Khaleej" newspaper in the United Arab Emirates didn't consider the US a friendly country. These results were interpreted as a proof of the existence of a major civilization clash between the people of these countries and the West.

While not denying that some people in the GCC Countries hold such opinions, it should be stressed that the results of the Gallup poll do not necessarily represent the attitudes of nationals, that is, Saudi or Kuwaiti citizens, but to a large extent reflect the views of members of non-Arab expatriate communities only temporarily residing in these states. The Gallup Organization's Director of International Research, Richard Burkholder, confirmed this fact, noting that "half of those polled in Kuwait were non-citizens who usually 'are more anti-West'." But this clarifying information was not captured in the Western media.

In this context, it seems important to further explore the complex structure of the GCC populations, given that foreigners constitute a large part of these countries' inhabitants. Analysis of the region's population structures is particularly important to understanding the relations between different national, ethnic and religious groups living in the GCC states.

The population structure:

The GCC states are today among the most heterogeneous countries in the world. Out of some 32 million people living in those countries, about 20 million constitute native Arab populations while 12 million are immigrants. Therefore, foreigners constitute almost 40 per cent of the total population of the GCC states; Qatar and UAE foreigners make up as much as 80 per cent of the national population.¹

It is also important to recognize that Arabs constitute a minority in the expatriate community. Almost 70 percent of all foreign workers living in the GCC states are non-Arabs. Most of them are Asians, and many are non-muslims, including Christians. In Oman, Bahrain and the UAE Arab Expatriates represent only approximately 10 percent of the immigrant community. The largest foreign group in the GCC states are Indians (some 3.3 million people), followed by Egyptians (some 1.8 million) and Pakistanis (some 1.6 million).

Nationals and foreign workers

For nationals in the GCC states, despite their culture and historical isolation from the rest of the world, it was relatively easy to establish economic contacts with arriving foreigners; the advantages were usually immediate and tangible, and trade conducted with them was impersonal. In effect, groups with radically different cultures have become economically interdependent. They have begun to perform different tasks, have obtained different rights, and receive unequal shares of the economic rewards generated. Specifically, the economic system that has evolved favors the interests and relegate the more arduous tasks to members of immigrant groups. But this unequal division of labor has largely been agreeable to foreigners. The system has thus benefited all parties and, as a result, intergroup conflicts (with few exceptions) have not developed. This relative harmony differentiates the GCC countries from many states in the world, where the arrival of large numbers of foreign workers quickly brought tragic

intergroup conflicts. Many different factors, including but not limited to economic ones, explain the different groups' relatively peaceful coexistence. Western observers usually stress the character of the political system existing in the GCC states, which assures the dominate position of nationals in all fields. Arabs, in turn, often underline the tolerant character of Islam, which moderates people's attitudes and behaviors.

This issue addressed by His Royal Highness, Prince Abdullah bin Abdulaziz at the beginning of this conference. In his address, His Highness states that the founder of the Kingdom, King Abdulaziz, following the saying of the Almighty, "set example for us on how to befriend others regardless of how different they might be from us we from them... He instructed us that a human being is a brother of any other human being."

Some people believe that the contemporary situation in the GCC states resembles the pluralism that existed in the Ottoman Empire, to which a large part of the Arabian Peninsula once belonged. Although Muslim Arabs always enjoyed a privileged position in the empire, non-Muslim were generally free to observe the rules dictated by their religions. Moreover, despite the separateness of ethnic groups, interactions across group boundaries were quite common, especially commercially-based ones, which gave rise to the so-called '.

Today, nationals in the GCC countries hold highly privileged political, social and economic positions. Immigrants do not enjoy many of the rights that nationals do, and are, in general, not in a position to integrate with nationals. Cultural pluralism in these countries is to a large extent a segregated pluralism. Nevertheless, there have been examples of unified actions of nationals and immigrants, which demonstrate the possibility of developing mutual bonds in the future. For example, during the Iraqi occupation of Kuwait, many non-Kuwaiti residents were united with nationals in a common project: to return the country to its per-war status. Consequently, a society built on exclusion and dominance acquired asocial

viability in which not only the dominate group but also the subordinate ones actively participated. Moreover, there are examples of relatively full integration or even assimilation of foreigners, not only Arabs but also Iranians, Indians or Africans. For instance, there are examples of non-Muslim living in Gulf who converted to Islam, learned Arabic, and adopted local customs. Although in several GCC countries officially proclaimed non-immigration policies have been very strict, many foreigners have managed to practically establish themselves permanently and there is already a substantial third-generation of Gulf-born children of foreign background for whom the GCC states have become mother countries. Innovations such as the recently introduced legislation in Qatar allowing foreigners to obtain citizenship after living in the country for a certain length of time, or the decision made in Dubai to give foreign investors permits for permanent settlement should advance the integration of additional groups of foreigners. In short, it cannot be ruled out that, sometime in the future, a substantial number of foreigners will integrate with native local population. If this happens, the segregated pluralism that now characterizes these countries will begun to change towards cultural pluralism of the kind found in many countries around the world.

What do relations between nationals and foreigners look like in a situation of segregated pluralism? Relations between them, as well as between different groups of foreigners, have been, of course, complex and not always ideal; the traditional tensions between them have sometimes even developed into serious antagonism. For example, many nationals expressed anger in 1990 towards foreign workers from countries which supported Saddam Hussein's invasion of Kuwait. In effect, a large number of Palestinians from Kuwait and Yemenis from Saudi Arabia were expelled. For different reasons, there were clashes between Muslim and Hindu Asian workers in the UAE in 1994, following the destruction of the Ayodhya mosque in India, and between Egyptians and Kuwaitis in 1999, due to some labor dispute. Otherwise, in most situations, relations between nationals and foreigners have been conflict-free.

Foreign (Western) cultural domination :

Relations between nationals and foreigners in the GCC states are even more worthy of examination as one realizes that relations between these groups are taking place in a situation in which indigenous culture is seriously threatened by Westernization. Such a threat usually increases intergroup tensions, but has not appeared to do so in the GCC states. Many explanations pose themselves. Is the problem of Western cultural domination exaggerated? Or maybe it is not perceived as a real threat by nationals?

What are the most common manifestations of foreign (Western) cultural domination in the GCC states?

Those countries import most of what they consume from abroad. For young national children Western fast food outlets have already become more popular than local Arab restaurants. Thanks to satellite television, Western films, music and shows that depict western lifestyle are heard and viewed on a daily basis by nationals. Many teachers from non-Arab countries who do not speak Arabic and are non-Muslims have offered instruction in these countries, introducing teaching programs that have stressed ideas and values alien to nationals. Gulf universities are increasingly introducing American or British curricula, while English has become the language of instruction. In several Gulf emirates, there have been many foreign marriages, and in mixed families there are often language-based communication barriers, as well as problems related to foreign customs and habits inculcated by foreign mothers, etc.

On one side, the authorities in the GCC countries are trying by various means to limit the impact of foreign cultures. On the other side, however, they often seem to believe that the adoption of aspects of foreign civilizations by local people can help them develop without threatening their Arab and Islamic identity. What is important to realize is that globalization

is generally perceived very negatively in the Gulf. Thirty-six per cent of people interviewed by "Al Khaleej" newspaper, referenced above, stated that globalization is an "international conspiracy" against them.

Conclusion :

While this has highlighted some of the basic problems and determinants of the relations between nationals and immigrants, the complexity of the issues in question should never be forgotten. Unequivocal generalizations can be wrong. As one observer noticed: 'Any unilateral assessment is liable to be erroneous... [The relations] amount to a dichotomy of attraction and repulsion, love and hatred, and this for both objective reason.'ⁱⁱ while the structural factors determining these relations are unlikely to change in the foreseeable future, certain more subjective features of these relations, like stereotypes, may evolve. What seems to be an important development in this respect is that some nationals have started to recognize publicly the role that foreigners have played in the development of their countries. In June 1999, Dr. Ali Al-Nemla, Saudi Minister of Labor and Social Affairs, stated in an interview: 'Expatriates in our country are our brothers and they enjoy rights as we enjoy them. They are our partners in development. It is our duty to thank and respect them.'ⁱⁱⁱ An interesting commentary on the issue appeared on 17 April 1998, in *Khaleej Times*, written by an Omani intellectual, Saleh Al Shaibany. In his text, titled 'Partners in Progress', the author wrote:

[Immigrants] ... have left their homes to help us with our bid to catch up with the rest of the world. But it is sometimes sad that we, their hosts, don't wholly appreciate this. Some of us mistreat our partners forgetting that it is with their efforts that we have achieved some of our progress... All the jobs we didn't want to do were willingly taken up by them. To this day, a good majority of us find it demeaning to work on the dusty roads or perform manual work. To some of us, the definition of an honest day's work is to sit behind a desk and be cooled by the wafting breeze of the air-conditioner ... We are quite used to seeing a perspiring laborer under the scorching sun

digging a trench or laying a cable. But we never pause for a moment to show our gratitude ... And a laborer too has its virtues - integrity, honesty and honor - which our children should learn ... We take for granted the prosperity we enjoy, attributing it to the oil wealth and forgetting the contribution of our partners. The blocs of flats and the villas we live in are all the result of their sweat. So are the roads our expensive cars grace and many other things. Their very existence in the Gulf is a blessing to our lands. One may also argue that not all of them come with a clear conscience of seeking honest employment or conducting a lawful business. But those who are on the wrong side of the law are a pitiful minority. We have to accept this fact as much as they accept the fact that their labor is not always adequately compensated for.

The greater is the mutual understanding forged between immigrants and nationals, the less likely it is that conflicts will undermine the stability of the population.

In the post-September 11th era, large number of people have become convinced that a clash between the so-called Western and Islamic civilizations is inevitable. Nonetheless, relations existing in the GCC states between member of these two worlds show that in particular political, social and economic situation, despite its shortcomings, the other option, that of non-conflict, coexistence, and cooperation, is possible.

NOTES

- i. For a more complete description of the population structure of the GCC states and the relations between nationals and foreigners see: Andrzej Kapiszewski, *Nationals and Expatriates. Population and Labour dilemmas of the GCC states* (Ithaca Press, London, 2001).
- ii. Faysal al-Salim as quoted by al-Rumaihi: 'Factors of social and economic development' , pp. 97-8.
- iii. Arab News, 15 June 1999.